إسحاق ماشباش

المشرق والمغرب

ترجمة: وليد تحقاخه

مايكوبب 2015

إلى القارئ الكريم

أرجو لفْتَ انتباه القارئ الكريم إلى مسألتين مهمتين في الرواية الحديثة، ولا سيما الأوربية:

1. ما يسمّى في اللغات الأوربية monologue، ويُترجَم إلى العربية بالمناجاة، أو الحوار الداخلي، كثيرٌ في هذه الرواية. وهو محصور بين أهلّة، سواءٌ أشير إليه بعبارات من قبيل "قال لنفسه" أو "أضاف لنفسه"... أم لم يُشَر.
2. ولا تخفى أهمية علامات التنقيط، كالفاصلة والفاصلة المنقوطة والنقطة والنقطتين، وإشارة التعجب بعد ما يُفهَم أنه أمر...
3. وكان من الممكن أن أجعل النص عربياً خالصاً، وهو الخيار الأسهل، لولا حرصي على إظهار خصائص التفكير الأديغي التي تتجلى في اللغة باعتبار اللغة مرآة الفكر. وتهدف ترجمة بعض العبارات حرفياً إلى المحافظة على طبيعة التفكير الشعبي من جهة، والصورة البيانية من جهة أخرى؛ فالشاعر العربي عبّر عن طلب المستحيل بقوله:

ألقاه في اليمّ مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتلّ بالماء

والتعبير الأديغي المتناول عبر الأجيال:

"لا تخرج، ولا تُقِم في البيت، ولا تدعني أدخل وأنت فيه"

ومن هذا القبيل، انتقال عشرات التعابير الأوروبية إلى العربية، مثل: "لعب دوراً"، و"إحراق المراحل"، و"ذر الرماد في العيون"...وهو أحد سبل اغتناء اللغة في العصرِ الحديث، عصرِ تفاعل اللغات والحضارات، سيما أن الكاتب حريض جداً في كتاباته على استيعاب كثير مما يسمى بالفوكلور، من حكايات وأمثال وألغاز وتمارين نطق...رغبة في المحافظة عليها.

وسيرتاح القارئ الذي يعرف اللغة الأديغية، ولن يشعر بالغربة مع هذه

التعابير. أما القارئ الذي لا يعرفها فأرجو أن يكون هذا تشجيعاً على فتح باب جديد في ثقافته اللغوية والتراثية.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فالتراكيب العربية تختلف جداً عنها في اللغة الأديغية، وهو اختلاف أوسع مما بين العربية والفرنسية مثلاً. فإذا لاحظ القارئ بعض البعد عن الأسلوب العربي التقليدي فللسبب السابق نفسه، أعني مراعاة الخصائص اللغوية والتعبيرية. ويبقى ترتيب الجملة عربيةً أم أديغيةً أم بأي لغة كانت، موضوعاً حساساً اكتشفه الإمام الجرجاني في كتابه الشهير "دلائل الإعجاز"، وسمى اكتشافه "نظرية النَّظم"، وعزا إليه إعجاز القرآن. وفي جميع الأحوال تبقى الترجمة نوعاً من خيانة النص الأصلي، ولا سيما إذا كان النص لكاتب كبير كإسحق ماشباش، وإذا كانت التجارب السابقة نادرة. وتبقى الحقيقة نسبيةً لا أحد يمتلكها كلها.

ووجدت من المفيد ضبْط بعض الكلمات بالشكل لمنع الالتباس بين الفاعل والمفعول به، أو بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول... وأهملت غالباً مراعاة مسألة الممنوع من الصرف في أسماء الأعلام، لثقلِه على الكتابة الروائية المعاصرة. وفي ظني أن الرواية التاريخية تحتاج إلى متابعة الأحداث والأسماء والتواريخ بكثير من الدقة. وهو جهد هائل من الكاتب الكبير يُغبَط عليه، وتطلب مني أن أرجو الأستاذ ممدوح قوموق، الخبير بتاريخ المماليك، مراجعة النص حذر قراءة بعض الأسماء قراءة خاطئة، وما شابه من مزايا، وأولادي القراء الممتازين، يارا وزاريا وخالد. ويبقى أن يجد لها القارئ مكاناً في ذهنه.

أيلول 2016

الكتاب الأول

I

في يوم قائظ من ثلاثينيات القرن الثاني عشر التقى فارسان أديغيان في طريق جبلي، وبعد ما تبادلا نظرات ارتياب، وترحيباً فيه شيءٌ من الرياء، سأل الفارس المتجهُ شرقاً نظيره المتجه إلى الغرب:

– ما أخبار المكان الذي تقدُم منه، وماذا يجري فيه؟ – أجاب الفارس ذو الشاربين الأسودين واللحية السوداء — ترى بعينيك شروق الشمس منه وتوغُّلَها شيئاً فشيئاً في رؤوسنا. وحين تصل ستعرف ما استطعت تفسيره وما لم أستطع، وما قدرتُ عليه وما لم أقدر. غير أني أتوقع أن يكون فهْمُ هذه الأمور صعباً عليك كما صعب عليّ. وما أخبار المكان الذي تقدم منه أنت؟

– جرت أحداث كثيرة حيث تنحدر الشمسُ الآن من ورائي، ولا تزال أحداثٌ كثيرة بالانتظار. ودنيانا السعيدة صعبة فيه ومُقلِقة.

– نعم، نعم. بعضهم يحتفل بعرسه، وبعضهم في مأتم. هذا على حصانه، والآخر على قدميه. بعضهم تقرأ في وجهه الرجولة، والآخر وجهه وجهُ جبنٍ.

– وما العمل؟ هذا عالَمنا الأديغي!

– وهل الأديغة وحدهم؟

– لا أظن. هيه يا دنيا! شجاعة الأديغة وتجاربُهم، أيتها الدنيا المنحوسة. ما أكبرك وما أصغرك أيها العالَم!

– حقاً. الشرق أحمر باهت لأنه الأمل، والغرب أحمر — أسود لأنه القلق.

– أتريد أن تقول إننا نستيقظ مع النهار وننام مع الليل؟

– لا، ليس إلى هذا الحد. لا أظننا نمضي كلانا إلى حيث وجّهنا حصانينا دون هدف سوى تزجية الوقت. ولكن من أين ندري ما ينتظرنا؟...

تبادلا عدة كلمات مبطنة لا معنى لها. أوقف الماضيَ نحو الشرق على المرتفع المنظرُ الذي رآه بعدما سار قليلاً. السهل الضيق للقرية المتناثرة على السفح تبتلعه الغابة السوداء الصامتة المرعبة، والشمس المتوهجة تغرب بوجه قلق إلى ما وراء قبة السماء محرقة أعالي الأشجار. يتابعها البحر الذي ينثر أمواجه ومياهه المالحة على الضفاف بأنينه.

الراعي الصبي ذو الأعوام الاثني عشر مهموم: يضرب في الهواء بسيفه الخشبي بعدما ارتقى بالحصان الهائج إلى أعلى الجدار الصخري العمودي. يشد اللجام. ويقابل خصمه بالترس، ويصرخ:

– أتسمعني؟ أنا بيباريس[1]. كان هذا اسم جدّي. وسماني به والدي الذي قتلتموه. أترون؟ هذا هو سيفي الذي سيثأر له.

قال قاطعُ الطريق الجهمُ ذو الشاربين الكثين واللحية الكثيفة، المختبئُ وراء صخرة "ماذا يقول هذا الثرثار، هذا الصبي عنده شعور بالإهانة. إن قبضت فيه ثمناً جيداً فليصبح محارباً إن شاء"

حين قفز الصبي من فوق الصخرة ليلحق بأغنامه وقع في أحضان اللص الذي قال له بعدما كمّم فمه براحة كفه التي تفوح منها رائحة العرق الكريهة:

– لا تستنجد بأمك إن كنت رجلاً !

---

[1] يحلل الكاتب هنا اسم بيبرس إلى ثلاثة مقاطع: بي: بالباء غير العربية: العدوّ. وبَه: أمام، رس: الراصد أو الواقف بالمرصاد. فيصبح معنى الاسم: راصد العدو. وسيشرحه الكاتب قريباً في سياق الرواية. وسنرى الكاتب يستعمل اسمين له: الأولُ ما هو مشروح أعلاه، ويستعمل في السياق العام، والثاني ما هو معروف عموماً: بيبرس، ويستعمله مَن هم خارج السياق. وكل الحواشي التي لا تُنسَب إلى المؤلف هي للمترجم دون حاجة إلى التنبيه كل مرة.

وقبل أن يحين موعد أذان العشاء كان اللص جرّ الصبي المكتَّف إلى شاطئ البحر. وباعه إلى شرقاي التاجر.

وفيما بيباريس جالس بين رفاقه الصبية لا يدري ما حلّ به ولا ما ينتظره سرقه النوم. لا يتذكر أطال نومه أم قصر. أيقظه بكاء الصبي الذي لجأ إلى صدره.

– ماذا تريد؟ – سأل بيباريس الصبي المكتنز الصغير.

– أشعر بالبرد.

– أتبكي من البرد؟

– أخاف.

– وما اسمك؟

– قلاوون، وأنت؟

– بيباريس.

– أهو اسمك الحقيقي أم مجرد نداء؟ – وسرعان ما أصلح قلاوون الصغير كلامه: – لأنهم كانوا ينادونني: بغوبش[1].

– ومن كان يناديك؟ أبوك وأمك؟

– لا، صِبيان قريتي الصغار.

– كان يجب ألا تقبل منهم.

– لم أقبل، شاجرتُهم وشاجروني. تعاركنا...

– وماذا بعد؟

– أحياناً يفلت منهم وإن منعتهم أن ينادوني في حضرتي.

[1] رقبة الفحل.

– أنا اسمي بيباريس، جزم معتدّاً بأن لا اسم آخراً له – واختتم بصوت أعلى: كان اسمَ جدّي.

– يا ابن أمك لا بد أن أباك كان رجلاً شجاعاً.

– لماذا لا تدعوننا ننام؟ – غمغم صبي ينام ليس بعيداً. و استوى آخر أبعدُ منه جالساً. وشغب غيرُهم في زاوية أخرى بعيدة.

– انصدع عمود الفجر! أجاب بيباريس إلى المحتجين بازدراء.

– حقاً – وافق قلاوون الذي استرد ثقته الآن الصبيَّ الأكبر منه. – تنامون كالأغنام في استراحتها!

– ومن هم الأغنام الباركة؟ نهض صبي جسيم. كم قلت لك منذ البارحة ألّا تسخر منا. سأكسر حنكك!

وفي هذه اللحظة وقف بيباريس وراء قلاوون، وجابَهَ الفتى الجاحظةَ عيناه:

– أُخطُ إذن خطوة واحدة لأكسر رجلك!

حين أسرع شرقاي التاجر وصاحبه إلى مصدر الضجيج تظاهر الصِّبيانُ بأنه لم يحدث شيء بينهم. ولما سُئلوا حمى بعضهم بعضاً، البريء والمذنب، وصوروا الموضوع على أنه مجرد تمرين في المصارعة.

الآن تملّى شرقاي الولد الذي اشتراه الليلة الفائتة في الظلام على عجل: الكتفان العاليتان الرفيعتان متناسقتان مع القامة الممشوقة. رقبة متينة ورأس متطاول، وذراعاه خلافاً لما يوحي به عمره طويلتان تكادان تصلان إلى الركبتين. وعينان المختلفتا اللون تبينان أكثر في الظلام الذي تخور قواه الآن.

قال التاجر لنفسه: "أظنني اشتريت على نحوٍ غير متوقع صبياً عركته الحياة".

– سأربح فيه في سوق مصر أضعاف ما دفعتُ لأجله. والصبيان والصبايا الآخرون نشيطون أيضاً. ولكن هذا متميز منهم. عيناه لهما وضع خاص...

في الصباح أتعرّفهما على نحو أفضل "ونصح شرقاي التاجرُ الصبيان الذين يغلب عليهم الحميّة واللامبالاة أكثر من الأمل والقلق، وهو يحاول تهدئتهم:

– تصارعوا، ولكن لا تتشاجروا!

سفينة التاجر تجابه النهار الوليد بأشرعتها المنصوبة للريح تاركة وراءها عباب البحر. حين تغادر السفينة القسطنطينية، وتترك وراءها مضيقي البوسفور والدردنيل، تدخل البحر الأبيض المتوسط. ثم تصل إلى مصر في غضون أيام. وشرقاي يدعو ربه مع صلاة الفجر أن يحقق له هذه الأمنية. ثم يسبّح بالمسبحة بعد وجبة الفطور. وحين أفاق من أدعيته طلب إليه الصبيَّ الذي لم يفارق ذهنَه حتى الصباح. تجاوز شرقايُ الصبيَّ المعنيّ بالموضوع، وسأل الصبي الملتصق به عن يساره:

– وأنت ماذا تريد؟

– أنا لا أريد شيئاً. – فاجأ الصبي التاجر بالجواب. – اسمي قلاوون. ومن أقف إلى جانبه هو بيباريس. وإن كنت تعرف فأنا وبيباريس من قرية "سَلْخوت". بيباريس من الحي الشرقي، من بدايتها، وأنا من الحي الغربي من آخرها.

– هيه... لم أعرف أن قريتكم كبيرة إلى هذا الحد. ابتسم شرقاي وخداه المتسخان يجبران عينيه على الإغماض. ثم صرخ عفوياً حين رأى بيباريس:

– أحقاً أنك بعين واحدة؟!

أجاب بيباريس كما كانت تقول جدته بعدما اعتاد على مضايقات الشارع:

– إن كنت تعدّ ما قدره الله لك عيباً فأنت أيضاً لا تعرف ما ينتظرك !

– اغرُبا عن وجهي!– انفرط عقد المسبحة حين ألقاها شرقاي الغاضب من أن الصبي لن يُباع حتى بثلث ما دفع فيه. وتناثرت حباتها على أرض الغرفة كقطع صغيرة من النقود.

اجتذب صوتُ بكاء الصبيّة الصادرُ من وراء خزانة الحبوب الخشبية الصبيين اللذين هربا من وجه شرقاي، ناسيَين همَّهما...

تفرق خلال شهر واحد ستةٌ وستون صبياً شركسياً واثنتا عشرة صبية في أسواق نخاسة مصر. ولما كان بيباريس هو من لن يشتريه أحد فقد أوصله التاجر إلى الشام.

– خيرٌ لك أن تأخذ ثمانمئة الدرهم التي أدفعها لك مقابل هذا الولد المعوق من أن يبقى عالة عليك، ستندم إن لم تفعل ــ جزم الأمير أيداقين بندقدار مُفهِماً التاجر أن يكفّ عن المساومة إذ لن يدفع أكثر من هذا المبلغ[1].

– هذا الولد ذو البنية المتينة الذي أبيعه إياك شبهَ مجانيٍّ لأن إحدى عينيه تغطيها نقطة بيضاء، أهو أعرج أم مقطوع اليد؟ ! انظر إلى جمال قامته، وإلى زرقة عينه السليمة. لا يخفى أنه سيكون رجلاً ممتازاً. إن كنت تريد أن يرضى الله عمّن تشتريه فأضف إلى المبلغ بضع مئات مقابل أتعابي.

---

[1] كانوا يلقبون بلقب الأمير في عصر المماليك من يقود عشرة فرسان أوعشرين أو مئة. وكان هناك قادة لخمسة فرسان. وهؤلاء الأخيرون كانوا محاربين ماهرين متقدمين في السن ينتظرون لقب الأمير. والأديغة القادمون من القفقاس لم يكونوا بحاجة إلى هذا الانتظار فيحصلون على اللقب. ولكن الآخرين الطموحين إلى هذا اللقب من المماليك الآخرين لم يكونوا يرضون بتجاوزهم، فتنشب بين الطرفين نزاعات. المؤلف.

انتصبت أمام مخيلة بيباريس الذي لم يعد يسمع المساومة بين الرجلين الصبيُّ قلاوون الذي بيع إلى القاهرة، والصبيةُ الرقيقة كوثر التي بيعت في السفينة. تنهد قائلاً "وأين أراهما بعد الآن؟"

– لن، لا، لن أضيف فلساً واحداً. —كان كلام آيداقين بندقدار مختصراً ولكنه أبدى تكرُّمه عليه بهذه الصفقة: أنت وأنا لا يعرف أحدنا الآخر اليوم فحسبُ. أشتري منك لأخفف عنك وإلّا فماذا ينفعني هذا المعوق الصغير؟ !

– إن كان هذا رأيَك فليجمعْنا الله مرة أخرى على الخير. آملُ منك أن تشتري مني الصبي الذي آتيك به قريباً بسعر أفضل.

– التجارة، وأنت تعرف يا شرقاي لا تنازُلَ فيها من أحد إلى غيره. ولذلك سنتعامل تبعاً لما يستحق القادم من سعر. تظاهر الأمير بممازحته، وبعدما صفقا يديهما علامةً على إنجاز البيع سأل عما كاد ينساه: – ألا اسمَ لهذا الذي اشتريته منك؟

– أيمكن ألّا يكون له اسم! أما قلت لك: بيباريس!

– ماذا قلت؟ بي... بر... — حاول أن ينطق الاسم فلم يُفلح.

– بي — به — رس — أعاد شرقاي الاسم على آيداقين بندقدار مقطّعاً إياه إلى مقاطع. هل فهمت؟ بي بارس.

– نعم، نعم، باختصار: بيبرس.

– لا بأس إن كان بيبرس. غمغم شرقاي بالأديغية موافقاً إياه بهزة رأس سريعة.

— ما المشكلة، لا فرق عندي بين الاسمين. — ثم لمّح للصبي: – من اشتراك سيناديك: بيبرس.

– لن أغيّر اسم جدي! لم يقبل بيباريس.

– ماذا يقول؟ أليس راضياً؟

– راضٍ، راضٍ. سميتَه اسماً رشيقاً. عليك حسب العادات الأديغية أن تشتري له قميصاً لأنك غيّرتَ له اسمه.

– أهذا ما يقوله! – ابتسم الأمير – إن يصبح في المستقبل رجلاً فلن أبخل عليه بقميص.

– هذا الصبي له اسم أديغي قاسٍ، إن كان جديراً بحمله...

– وهل لاسمه معنى محدد؟

– في لغتنا يعني الاسم من يرصد العدو ويتصدى له.

– هه ! – ما سمعه آيداقين بندقدار غيّر نظرته إلى الصبي نحو الأفضل.

– هكذا إذن ! – قال في نفسه "لو لم يكن المسكين معوقاً!"

II

مضى عام. ومع أن بيباريس صار جزءاً من أسرة الأمير آيداقين بندقدار فإن صبيان الجيران لم يكونوا يعرفون هذا الأمر. — وليس السبب ضعفه في اللغة العربية، بل ما يلمزه به الصبيان على سبيل السخرية، وهو ما يغطي عينه. غير أنه لم يكن يمتنع عن الاختلاط بصبيان الجيران واللعب معهم. وكان بين هؤلاء الصبيان من يتنمر عليه ومن يحسب حسابه غير أنه كان يلقن من يُهينه منهم، سواء كان أكبر منه أو أقوى، درساً، أو يُدمي وجهه. ولا يقتصر الأمر على هذا فقد كان له من فمه سلاحٌ يستطيع إخضاعهم به: جمال بلاد الأديغة التي يحملها في قلبه حيثما حلّ.

– وكيف تعرفون وأنتم لم ترَوا جمال بلادنا؟ – يقول بيباريس للصبيان المجتمعين في ظل شجرة. ينابيعها الباردة، أنهارها، جبالها، غاباتها...

– أيّ جنةٍ يحدّثكم عنها هذا الثرثار؟ – ضحك جَلات ذو الكتفين العريضتين والوجه الطافح، والذي كان يسخر من بيباريس مهما قال — يكذب عليكم.

– أنا من يخدعهم؟ ! — قفز بيباريس متسائلاً عما إذا كان يستطيع صرْعه، وواجه بصدره جلات المعتدّ بقوته.

– أنت ! — جزم خصمُه دون جدال معه، وهدده دافعاً إياه بصدره:– الجنة ليست من البلاد التي سرقوك منها بل في بلادنا نحن؛ هذه بلاد إسلامية!

– لم أقل إن الجنة في بلادنا، بل قلت إن بلادنا جميلة.

– بلى قلتَ !

– لم يقل ! — تصدى أيضاً لجلات الصبيُّ الأسمر المتين الصغير "تانقز" مُباعِداً ما بين رجليه.

– "بيباريس" رفيقنا نحن، يكفي تنمُّرك عليه ! – حين حاول عماد الصبي الذي يظل مخاطه يسيل في هذا اليوم الحار النهوض، ضربه جلات ضربة استهزاء بجُمع كفه فألقى به على الأرض، وبدأ يسخر منه:

– أهذا الأعور صديقكم الآن؟ !

هجم بيباريس على ذراع جلات وأنشأ يفتلها والآخر يصيح من الألم. وما إن ركّعه على ركبتيه حتى انفلت جلات منه فمزق قبة قميص خصمه، وأصاب بقبضته عينه السليمة. وحين نطح بيباريس بلاوعيٍ غريمه ألقاه أرضاً، وأمسك هو رأسه وجلس القرفصاء.

حين بدأ الصبيانُ يركلون جلات اعترض بيباريس:

– لا تضربوا شخصاً ملقى على الأرض !

– كنتَ ركّعته على ركبتيه، ولكنه عاد فهاجمك... – ترك تانقز جلات مغمغماً.

– لن يفعل هذا ثانية – أقال بيباريس غريمه وهو يبتسم ويرفعه عن الأرض.

– الدم يسيل من أنفه ! – قال عماد بحيث لا تعرف أيُشفق عليه أم لا. وبرّأ نفسه بسرعة: – أنا لم أضرب أنفه، لم أضرب إلا جذعه.

– اسكت ! – نهر تانقز صديقه الصغير – إن كنت ارتعبت فاهرب إلى بيتك كهؤلاء الهاربين.

– أأنا من ارتعب؟ ! رفع عماد رأسه الصغير متبجحاً كالديك، ثم أشار بيده إلى جلات الذي ينسحب خِفيةً: أم ذاك؟

– لا تتشاجروا – نصح بيباريس ذو القميص الممزق أصدقاءه الذين ساندوه، ثم لامهم: لهذا قلت لكم: لا تضربوا من وقع أرضاً !

– مهلاً، مهلاً. سأُريكم من كان على الأرض ومن لم يكن ! – هدد جلات رفاقه بقبضة يده ثم اختفى وراء السور.

مهما حاول تانقِز وعماد مرافقة بيباريس الذي تورم جفنه فقد رفض، وقابل رجاءهما بمزحة:

– ألأن أحداً ناداني بالأعور يجب اصطحابي إلى البيت بجفن متورم؟ ! بعد قليل حين تُظلم الدنيا أكثر سأعود إلى بيتنا. ولما كان سعادة المحترم أيداقين غائباً، واليوم يوم جمعة، أمكنني أن أدعي أني صليت المغرب في الجامع، وإلى حينها يكون جفني قد خفّ ورمُه...

– هيه، هذا مستحيل ! – صرخ عماد محتجاً – لن يقبل الله منك ادعاء الصلاة ولم تصلِّ. الله يعلم كل شيء ويرى.

– ولكن من هو في ضيق يا عماد – سأل تانقز حذِراً – ألا يقبل الله صلاة المضطر المتأخرة؟

– نعم يا تانقز، سمعنا هذا من "أفندينا" في المدرسة.

– وماذا إذن؟

– حسناً، لا أعرف. أنتما أكبر مني عمراً فتعرفان أكثر مني... ولكن لو كنت محلكما ما كتمت حقيقة ما جرى. ليس ما حدث خارجاً عن إرادة الله.

– صحيح يا عماد، صحيح.– تظاهر بيباريس بالموافقة وإن ضحك في سره.

– لن يصدر منك أصدقُ من هذا الكلام. جيء بي مسروقاً إلى مصر،كما يظل يعيّرني جلات الذي لم نقصّر في حقه وصرفناه مهزوماً شرَّ هزيمة. وأعولت أمي وجدتي. ونُكبت أنا، بعلم الله، ولا يزال ما يحدث إلى الآن بعلمه على ما أعتقد.

– صحيح يا بيبرس – وافق عماد ولو لم يفهم المعنى الباطني للكلام.– وكما تقول جدتي لا يحدث شيء في الدنيا لا عِلْمَ لله به. يرسل إلينا النهار، ويحمل إلينا الليل. ويُثيب المحسنين بالجنة، ويقذف بالمذنبين إلى النار. أيكون أحد من أسرتك يا بيبرس مذنباً بحق الله؟...

– ما أشد صخبك ! – انتفض تانقز الذي لا يتحمل الثرثرة – لا تعدّ نفسك صرتَ أفندياً لمجرد أنك في المدرسة !

– ما أعجبك؛ أتعدّني كذاباً إن رويت لك ما يعلمونني إياه؟

– لستَ كذاباً ولكن ألا ترى كم هو منتفخ جفن بيبرس؟ اركض إلى بيتك وهات قطعة حديد أو رصاص !

– ولماذا أركض إلى بيتي ومعي ما تطلب؟ – أسرع عماد إلى جيبه:– خذ يا بيبرس إن كانت تنفعك كرمى لك لأن الصبيان الأشقياء لن يؤذوني بعد اليوم خوفاً منك، أعطيك إياها ذكرى.

– لا يعطون سلاحاً هديةً – تسرّع تانقز ولكنه أصلح موقفه – نعم، يجوز إعطاء شيء حاد، غير أني لا أعرف إن كان مستحباً أم مكروهاً.

لم يكن بيباريس مهموماً بما يفكر فيه رفاقه من ارتياحِ الجفن الحار للمعدن البارد وترائجُعِ ورمِه، بل بشيء آخر: "الصدق أفضل من الكذب" أتساءل: أيّ ذنب نحمل عبئه من جهة أسرتنا؟ ألأن جدي ووالدي دفعا حياتهما دفاعاً عن أرضهما؟ أم لأني سُبيتُ إلى هنا؟ وقلاوون وكوثر والصِّبْيةُ الآخرون ما ذنوبهم؟ وأين هم هؤلاء. وفي أي ركن من العالم؟

لم يعبأ الناس الغرباء ببيباريس المستند إلى جذع شجرة. ولا هو اهتم بهم. لم يكن قلبه الصغير لا في أسفل الشجرة التي فقدت ظلها، ولا في الشام التي تغلي بالحياة. – كانت تُزهر في قلبه حيناً وتبلبل قلبه حيناً سلخوتُ المتناثرة

على سفح الجبل، غاباتُها على المرتفعات، وبراريها الخضراءُ، ومراعي أغنامها، ومراعي خيولها، ومشرقُ شمسها ومغربها، ووقْعُ مطرِها الناعم، ودويُّ رعدها، وبرقُها اللماع كأسنّة الرماح، والظلام الذي يهبط عليها شيئاً فشيئاً في المساء، وينابيعها الناعمة، وهمس أمواجها، وتجاوُب ديكَتِها، وضجيج صبيانها المرِح.

"أيُّ جنة كان يتحدث عنها جلات الذي يظن نفسه يصرع العالَمَ بصدره؟ أتعلّق قلبه بمقالع أحجارها أم بمخازن رمالها؟ أم بشمسها التي تشوي الرؤوس؟

– تحول السؤال الصامت لبيباريس الذي نسي مكان جلوسه إلى سؤال صارخ، وأقاله من مجلسه وهو يردد كلمات عماد: "الصدق أفضل من الكذب". لن يجدّد قميصي انتظارُ حلول الظلام، ولن يزيل وَرَمي. ليعرفْ من أعود إليهم حقيقة حالي، وحزني وفرحي. ألا يمكن لمرجانة أن ترفو لي قميصي الممزق؟ "وكلما اقترب البيت انفصل قلب بيباريس الصغير عن مكمنه وتسمرت رجلاه في الأرض. وقبل أن يجد الوقت لتفسيرِ الإهانة التي لحقت به ووضْعِ حدٍّ لها هاجمته فجأة مأساة أخرى لا يعرف لها بداية ولا نهاية. — لو وجدتُ ما يساوي المبلغ الصغير الذي اشتروني به أو أقلّ قليلاً لعرفت ماذا أفعل. كنت عثرت في أحد أسواق النخاسة على تاجر مثل شرقاي الذي جاء بي من بلادنا وجعلته يعيدني إلى بلادي. وإن استقل المبلغ أغريته بأن تعطيه أمي نصف أغنامنا المئة مضافاً إليها سرج حصاني. وأعرف أين يخفي أيداقين نقوده... وليست نقودُ مرجانة التي يخفيها قليلة... إن أخذت من هذا قليلاً ومن هذه أيضاً... ألست سارقاً هكذا؟ ولكن أأنتظر حتى أكبر وأكسب مالاً؟ وجدتي مريضة دائمة، وأمي وحيدة. لا، لا. ماذا كانت أمي تقول لي؟ لا تطمع في ملك غيرك؛ حرام ! ليتني كبرت وصرت رجلاً وعثرت على هذا

القبيح شرقاي!" – استدارت أصابع بيباريس النحيلة رغماً عنه إلى قبضة مضمومة.

كان بيباريس ملهوفاً لا يترك ذهنه موئلاً لا يصل إليه. ينصح نفسه و يلومها متناسياً الأرض التي وقع فيها، متكلفاً الرجولة. ومع ذلك هاجت أشجانه حين رأى البيت الكبير الظاهر من خلال الأشجار، فدخل إلى الفِناء، ووقف إلى العمود القائم قبل الباب، وبدأ يبكي كالصبيان. وعندما استقبلته مرجانة خفض صوته.

– ماذا حدث لك يا بيبرس حتى تبكي؟ – سألت مرجانة الصبي بصوت شفيق.

– قميصي تمزق.

– إذا كان القميص تمزق... – لم يدع المنظر الذي رأته مرجانة تكمل ما بدأته.

– يا مصيبتي من ضربك على عينك؟ ! – أشاجَرَك مرة أخرى جلات عديم الإيمان؟

– هذه المرة غلبته لولا أنه مزق قميصي.

– وهل القميص مشكلة؟ ماذا كنت تعمل لو قلع لك عينك السليمة الوحيدة؟ لننتظر حتى يعود الأمير أيداقين! سيجعله يكف عن ضربك مرة أخرى.

– لا، لا. – أرعبت الكلمات الأخيرة بيباريس. – لا تدَعي الأمير يتدخل في شؤوننا، نحن أشبعنا جلات اللئيم ضرباً. وحرّمنا عليه أن يطأ شارعنا.

– من كان معك؟ – سألت مرجانة سيدة البيت وهي تُمرر قطعة النقود الفضية على الورم.

– راسم وعماد...

– وهل بإمكان عماد القتال؟

– نعم، ليتكِ رأيتِه يرفس جلات على أضلاعه ! – قال بيباريس مزهواً ناسياً قميصه الممزق وجفنه المتورم. ثم أضاف بصوت أهدأ وأشد ثقة: – حين فزع راسم وجلات وهربا لم يتركني عماد وتانقز وحدي.

– هذان صديقان حقيقيان، يمكنك الوثوق بهما. – قالت مرجانة الآن وقد هدأ بالها تريد أن تدعم روحه.

– نعم، – صاح بيباريس مسروراً لِما سمع – ألم أقل إنهم لم يتركوني وحدي، ساندوني – ولكنه تظاهر في اللحظة نفسها بتقويم موقفه من الهاربين: – ليس راسم وقاهر جبانين، تشاجرنا مرات كثيرة. ولكن لا أعرف لماذا هربا.

نظرت مرجانة نِظرة قلق ولهفة إلى الصبي الذي وضع قطعة النقد الفضية على جفنه، وتذكرت ابنها الذي أعادوه إليها على حارك الحصان[1]. ولم تتمالك نفسها – تنهدت واغرورقت عيناها بالدموع، ثم تساقطت دموعها رغماً عنها. كان بودها أن تضم الصبي إلى صدرها لتهدّئ خاطرها ولكن كلام بيباريس لجمها.

– لا تبكي، هاهو جفني رجع إلى حاله، ولم أعد بحاجة إلى قطعة النقد الفضية. حين مد بيباريس القطعة الفضية إلى مرجانة لم تقبل.

– لا، لا. أعطيك إياها سواء نفعتك دواءً أم لا... من جاؤوا به إليّ ميتاً بسبب الافتقار إلى الدواء هو ابني الوحيد عزت. – انفجرت مرجانة باكية لا تستطيع تحمل حزنها، ولكنها صحت بسرعة:– نعم، هكذا يا بيبرس، سيُشفى خدك المجروح، وسأطلب معالجة عينك المعتمة أيضاً. ولا تهتم بقميصك

[1] الحارك هو الجزء من الحصان الذي يعلو قائمتيه الأماميتين، ويكون أمام الراكب.

الممزق... اشتريت لك قبل أيام قميصاً جميلاً. – نهضت بخفة من مجلسها وجاءت بقميص من قمصان عزت – الْبَسْه ولو كان كبيراً قليلاً عليك. أنت في سن النمو، ولذا سيصبح على مقاسك سريعاً.

الأفراح التي نثرتها الكلمات التي تشبه كلمات الأم، والتي لم يسمعها منذ زمن طويل، جعلت الصبي بيباريس ينتفض، فخلع القميص الممزق كأنه في حضرة أمه، ولبس الجديد غير عابئ باتساع القبة قليلاً. وارتمى في حضن مرجانة شاكراً وقال لها:

– على قياسي بالضبط !

– نعم، نعم. – ضمت مرجانة إلى صدرها الصبي الأديغي متمثلة طفولة ابنها الوحيد الذي قضى في الحرب التي شنها الصليبيون القادمون من الغرب.

– على قياسك تماماً ومناسب لك. صحّ توقعي لمقاسك، مبروك يا ولدي.

غرقت مرجانة التي كانت تستصعب أن تنادي الصبي بـ "ولدي" إلى مساء أمس في أفكار كثيرة إلى ما بعد منتصف الليل. – تبكي ابنَها الذي فارق الحياة، و تُسكِت الصبي الذي نادته بـ "ولدي" . وهي مهمومة بما سيكون عليه موقف زوجها إن أفصحت له عن نيتها في تبني الصبي المملوك. "حين طرحت الفكرة مرةً تظاهر بالصمم ولم يردّ. ولما كان أيداقين في القاهرة فسأتابع علاج عين بيبرس الصغير ريثما يعود. كانوا دلوني على امرأة عجوز تعالج بجذر إحدى النبتات ما يعلو بؤبؤ العين. وأعلموني بمكان إقامتها. وإن شفَتْها فلن أُمسك عنها شيئاً. وإن لم يقبل زوجي أن أتبنى بيبرس؟... ما العمل وقتها؛ وما الذي يمكنني أن أتصرفه؟ سأدعو إلى الله الذي يتوسل إليه الجميع ولا يتوسل هو إلى أحد أن يقبل معروفي رحمة لروح ابني عزت. ولن أكون وحدي؛ سيشاركني زوجي في هذا الدعاء"

وفي الليلة نفسها كان ما يفكر فيه بيباريس النائم وقبضته على القطعة النقدية الفضية شيئاً آخر: كيف سيذهب إلى سوق النخاسة: "إذا كانت هذه القطعة الفضية تكفي أجرة طريق فلا يهمني إن لم يكن عندي غيرُها... ربما كان مطلبي يتحقق لو كان إلى جانب القطعة الفضية أخرى ذهبية. ماذا كانت مرجانة قالت لي؟ أليس شفاءَ عاهة عيني؟ لا أعرف كيف... كانت أمي دارت بي على أكثر من طبيب ولم يستطع أحد شفائي. الأفضل أن توجّهي المبلغ الذي ستنفقينه على علاجي إلى إعادتي إلى بلادي... وكان أيداقين قال لي في يوم من أيام سَعْدِه: "سأتابع سلوكك مدة، فإن تصرفت كولد عاقل أرسلتُك إلى بلادك" ولكن كيف أكون ولداً عاقلاً وها أنا اليوم عليّ أن أقاتل... أيكون الذنب ذنبي إذا كانوا يسخرون مني، ويتحدَّونني؟"

في أحد الأيام بعد موعد شرب الشاي، طلبت مرجانة من بيباريس وهي تثني عليه وتفرح به أن يلبس. وقبل أن يلبس القبعة مشطت له بنفسها شعره، وفرقته له. وبللت شعراته العاصية باللعاب حتى تستقر. ثم دققت النظر فيه من جديد. وقالت له كي تنسيه الحياء من الملابس الجديدة:

– ما أجمل ملابسك وكم هي مناسبة لجسمك يا بيبرس ! — ثم أصلحت سريعاً كلامها معنِّفة نفسها على مناداتها له باسمه بيبرس بدلاً من "يا ولدي"

— الآن سنمضي إلى الحكيمة العجوز يا ولدي. أُدع إلى الله أن ينظر إلينا بعين الرضا، ونستفيد منها.

جلست مرجانة في العربة المسقوفة الوثيرة، وإلى يسارها بيبرس الذي لم يفهم الخدم والعاملون في الدار ممن رأوه سبب زينته وأناقته الشديدتين. وخرجا وهم يلقون التحية على عادتهم إلى سيدة الدار. ورغم حرارة النهار لم تفتح مرجانة مظلتها الملونة قائلة: لِيرَنا من يعرفُنا ومن لا يعرفنا !

بيت العجوز الكحّالة ودارها صغيران بالقياس إلى القصر الأبيض الكبير الذي اصطُحب منه بيباريس. وليس للغرفة المسقوفة بالطين الأبيض إلا باب واحد ونافذة واحدة. وإحدى الشجرتين المزروعتين قرب مسطبة البيت يبست والأخرى تحيي الأرض بانحناءتها. ومن أرض الدار تبرز أحجار مسننة تهدد من لا يحترس منها بأن تُسقِطه أرضاً. دعت المرأة الشابة التي استقبلتهما مرجانة وبيباريس إلى الدخول. حيّتهما العجوز المكسوة بالأسود، المنتصبة القامة، بإشارة خفيفة دون أن تتحرك من مجلسها. وأشارت إليهما بالجلوس على المقعدين المقابلين لها على الجدار:

– إن كان قلقكما وأملكما جاءا بكما إليّ فأنا مصغية.

– جئت بسبب النقطة التي على عين ولدي الصغير؛ أرجوك أن تعالجيها – قالت مرجانة، ونظرت إلى بيباريس تهدئه وتؤكد له "نعم، نعم، أنت ولدي الصغير" – إن حققتِ لي هذا الطلب فلا شيء من هذه الدنيا أُمسِكه عنك.

– الشيء الوحيد الذي أريده أيتها السيدة الغريبة هو أن أكسب ثواباً عند الله، وأعيش على الثقة التي أولاني إياها، وأصدُق معه. ولكن إن وفّقني الله في عملي فستعطيني ما تجود به نفسك، وبعلم الله. إذ نحن لا نعيش على الهواء، ونأكل شيئاً، ونلبس كذلك. اقترِبْ مني وأرِني عينك – أشارت العجوز إلى بيباريس.

– اذهب يا ولدي، دعها ترَكَ ! – ربتت مرجانة على ظهر الصبي – لينظر إلينا الله الذي لا إله إلا هو بعين العطف، وليحمل إلينا الشفاء.

حصرت العجوز بيباريس بين فخذيها النحيلتين المتينتين بقوة وفحصت عينيه. وأمرّت أصابعها بضع مرات أمامهما لاختبار رؤيتهما. ثم جسّتهما واحدةً واحدةً. وأدارت العين المريضة نحو النافذة مغطّية العين السليمة بيدها الأخرى.

وحين لاحظت أنها لا تتأثر بأشعة الشمس فعلت كمن تخلعها بأصبعيها. ولما لم يحرّك الصبي جفنيه سألت مرجانةَ:

– هل ولدْتِ طفلك بعين مصابة أم أصيب بها في حياته؟

– هكذا أبصر ولدي النور — لم تتأخر مرجانة في الإجابة.

– إن كان هذا ما حدث فالله الذي يتوسل إليه الجميع ولا يتوسل إلى أحد لم يرأف به إن لم يكن غضب عليه، فلا حيلة لي معه، وستلازمه هذه العاهة طوال عمره.

– لا، لا. قفزت مرجانة وأفلتت الصبي من بين فخذي العجوز وضمته إلى صدرها. — لا تستمع إليه يا ولدي... الله لم يلعنك؛ لم تفعل ما تستحق عليه لعنته. ما أكثر من يُخلَقون دون أيدٍ أو أرجل أو عُمْياً، ويعيشون حياتهم. اِمضِ ! — رمت القطعة الذهبية التي كانت جهّزتها للعجوز في حضنها، وخرجت من الغرفة.

ألقى بيباريس الذي لم يعد يهتم بالشمس الحارقة التي تعشش في سماء الشام نظرة على مرجانة، وتذكر كلام العجوز، وما قاله له عماد عن حسن نية "أيكون أحد أبناء أسرتك يا بيبرس جنى ذنباً بحق الله؟" "ولكن ما قالته العجوز شيء آخر": الله لعنني... غضبْنا على العجوز دون سبب... أكان خلقني هكذا لو لم يلعنني الله؟ ! لا أظن في الدنيا أحداً يعطف عليّ إلا مرجانة وأيداقين... وتانقيز وعماد؟ وراسم وقاهر؟ هؤلاء ليسوا مثل جَلات؛ وقفوا إلى جانبي. ولكن هؤلاء لا يعرفون اللغة الأديغية التي يمكنني أن أعبر بها عما في قلبي كما يعرف قلاوون وكوثر. ومرجانة أيضاً لا تعرف. ليست من أهلي ولا هي خالتي أو عمتي ومع ذلك تناديني يا ولدي " — أحسّ بيباريس بضيق يعصر قلبه فالتصق بذراع مرجانة.

– نعم يا ولدي – ضمت مرجانة الصبي إليها – لا تيأس ما دمتُ حيةً، لن أسمح لأحد أن يسيء إليك، ولا أن يوجه إليك إهانة.

– أتقصدين سعادة المحترم أيداقين؟ – سأل بيباريس بعد قليل عما كان يشغل باله.

– وسعادة المحترم أيداقين بندقدار أيضاً – ابتسمت مرجانة وأعادت السؤال بشيء من القلق:– ما الأمر؛ هل جرح قلبك؟

– لا، مجرد كلام دون مناسبة، لم يُسئ إليّ.

– لا تعبأ بعبوس أيداقين، هو إنسان فيه رحمة. ما إن يعود من القاهرة حتى نتحادث ثلاثتُنا. سأصارحه بما في قلبي نحوك. وسيوافقني. لا داعي لليأس يا ولدي. اِنسَ همومك! – شهدت مرجانة على كلامها الآن بطريقة أشد تأكيداً: – لولا أنه أشفق عليك ما اشتراك ممن تسميه شرقاي.

– لو لم يشتريني لربما أعادني شرقاي إلى نواحينا.

– ماذا تقول؟ – لامت مرجانة الصبي متظاهرة بأن ما سمعته وتّرها: – تتكلم أحياناً كرجل، وأحياناً بما لا يليق بك. أهو شرقاي من كان سيشفق عليك؟ ! لو عرف أن أحداً لن يشتريك لما اصطحبك تأكل وتشرب دون فائدة. كان باعك ولو بقبضة ماء، أو كان تركك في السوق لا يشتريك أحد وولّى. ولذا تخلّ يا ولدي عن هذه الأفكار. ما كتبه الله على جبينك كتبه على جبيني وجبين أيداقين.

– ما كان عليك أن تعطي القطعة الذهبية لتلك العجوز القبيحة. – قال بيباريس فجأة منتفضاً برأسه " كان الأفضل أن تُرفقيها بقطعتي الفضية... لا أعرف كيف سيعاملني سعادة المحترم الأمير أيداقين حين يعود" قال لنفسه.

– لم أعطِها ما لم تكسبه، ولم أقل لها. ليرسل الله الطاعون إلى فمها. ما كان عليها أن تنطق بكلامها الجارح حتى لو لم تراعِ مشاعري.

– لم تقل العجوز ما ليس في محله – أجفل صوت بيباريس الحازم مرجانة – في بلادنا أيضاً خرجت عجوز عرضتني عليها جدتي بالنتيجة نفسها.

– مهما قال لك أي إنسان، ولو كان الأمر صحيحاً، فأنت ولدي لأن الله تعالى أخذ مني ولدي الأول وأعطاني إياك، فعينُك عيني، وروحك روحي يا ولدي. – انفجرت مرجانة باكية من مأساتها.

– لا تبكي يا أمي[1] – خاطب بيباريس مرجانة لأول مرة "أمي" وقلبه يتمزق.

******

انتظر بيباريس الذي داهمه همٌّ مفاجئ أيداقين البندقداري عدة أيام ملازماً البيت. وفي خلال تلك الأيام زاره راسم وتانقز وعماد بضع مرات. ومهما قالوا له رفض الخروج إلى الشارع، ليس خوفاً من قاهر. كانت عينه وروحه في القاهرة التي سيعود منها سعادة المحترم أيداقين. ولكن المكان الذي سُبي منه كان يطفو أحياناً على السطح رغماً عنه. وفي تلك المناسبات تنتصب أمام عينيه السوق التي أُشتُري منها. وتراوده نفسه أن يزورها.

– تأخر سعادة المحترم أيداقين أياماً كثيرة عن العودة. أتلازم البيت هكذا لا تعاشر أقرانك؟ اذهب إلى عماد، وإن وصل أيداقين أرسلت وراءك.

كان ما سمعه بيابريس هو ما يتمناه تماماً فلبس بسرعة وخرج، غير أنه لم يتجه إلى بيت عماد، بل إلى سوق النخاسة.

---

[1] أمي دون تشديد الميم في الأصل بالعربية.

كان السوق في ذروته، والأسرى يجلسون مَثنى وثُلاث. من يُشترى يُساق بعيداً، ومن سيُشترى تجري المساومات عليه. الرجال والصبيان يجلسون وحدهم، والنساء والصبايا في ركن آخر. يطلبون ممن يفكرون في شرائه النهوض، ويجسّون كتفيه وذراعيه وفخذيه. ويكشفون عن أسنانه. ويختبرون أرجلهم ومفاصلهم. ومع أن بيباريس شعر بالمهانة مما رأى إذ لن يشتريه أحد فقد أنصت إلى الأسرى راغباً في سماع لغته الأم. وحين اقترب من الصبي الجالس مطرقاً وجَدَه ضيّقَ العينين، مما يعني أنه ليس من الأديغة، فقرر مفارقته رغم إشفاقه عليه، وقبل أن يفعل سمع اسمه فالتفت. وحين تقدم إلى مصدر الصوت مُزيحاً الواقفين، ومتخطياً إياهم، رأى سعادة المحترم أيداقين بندقدار الذي كان قادماً نحوه دون وعي. وبالطريقة نفسِها ركض إليه بيباريس.

******

لا تُخطئُ إن قلتَ إن ما كانت مرجانة تتمناه من تبني بيباريس ابناً لها قد تحقق. وقد وافق سعادة الأمير المحترم أيداقين بندقدار زوجته دون جدال على هذه الخطوة لأنه كان مستعداً منذ هذا الربيع لها. ولكن ما أضافه بعد وقفة قصيرة عصر قلب مرجانة. وكعادتها حين تجد نفسها في مأزق عاتبت زوجها وهي تذرف الدموع:

– الحلو الذي حملتُه معي عاماً كاملاً لا أستطيع مصارحتك به قلبتَه مراً.

– الحلو الصِّرْفُ يدعو القلب إلى الغثيان. – أضاف الرجل مضيئاً وجهه الطويل والحاجبين المتداخلين بابتسامته – ما قلتِ إنه انقلب مراً؛ لا تستعجلي إذ أن معه خبراً حلواً.

– يا حسرتي، ما طعم الحلو إذا كان الصبي الذي اتخذتُه أخاً أصغر لعزت سيغيب عن عيني؟ ! – فجّر الخبر المزعج المفاجئ الآن أحزان مرجانة فبكت.

– اسكتي يا مرجانة، لا يبكون من أجل الخبر المفرح، لا يُقيمون مأتماً عليه.

— قال أيداقين بنبرة يشوبها الشفقة — الفرح، والأمل — الرقة — أنعم عليّ السلطانُ الخليفةُ الملكُ الكاملُ[1] بإمارة أربعين فارساً إكراماً للصالح.

– أهنئك يا أيداقين — عانقت مرجانة زوجها وهي تمسح دموعها بمنديلها، ولم تملك إلا أن تردف بما يقلقها ويبكيها: – لو سمعتَني وفهمت قلبي الأنثوي لما سمحت لك أن تسلّم بيبرس للمماليك؛ ألا يكفي ما حدث لنا في عزت؟ !

– استشهد عزت وهو يحارب الصليبيين أعداء الإسلام — قال أيداقين بندقدار، وتنهد مِن وقْعِ المصيبة التي لم يكن يأتي على سيرتها كثيراً في حضور زوجته، وأكمل مموهاً الضيق الذي طفا على السطح: بيبرس يكبر يوماً بيوم، واتخذ جسمه شكل الرجال، وخير له أن يلتحق بالمهنة التي تصنع الرجال من أن يتشاجر في الشارع مع أقرانه أو يذهب إلى سوق النخاسة. لا يجوز أن تكلمي بيبرس وتجعليه يتراجع عن قراره. أنا اتفقت معه. وقبِلَ متحمساً.

– يا لَمصيبتي، وعين الصبي الـ...

– وهذه لم أكتمها عمن كلّمتهم — استلم أيداقين بندقدار الحديث من المرأة — بيبرس ليس أقطع اليد ولا أعرج، ألن يتحكم في السلاح بسبب مشكلة عينه؟ أعرف ما تريدين أنت. تريدينه ممسكاً دائماً بذيل ثوبك ولا يغيب عن عينيك البتة. — نظر أيداقين بعين راضية في وجه امرأته طالباً رضاها. وكشف الستار عن السر الذي احتفظ به إلى الآن: – ولكن الأمر ليس كما تظنين يا زوجة

[1] الكامل هو ابن العادل أخي صلاح الدين الأيوبي. والصالح أيوب هو أخو الكامل وخليفته، والذي سيرافقه بيبرس في الصفحات القادمة.

أيداقين بندقدار أمير الأربعين. سنرحل كلنا بأُسرنا لنكون قريبين من السلطان الكامل في القاهرة.

– وبيتنا؟ – بادرت مرجانة بالسؤال من فرحها بالخبر.

– سنترك بيتنا في دمشق – أجاب الرجل امرأته باختصار، واختتم بمزحة ساخرة: – من يعرف أين سيسكن أيداقين بندقدار متى عهدوا إليه بإمارة مئة فارس، وكلفوه بحكم الشام كلها؟ !

– إن شاء الله ينطق فمك بالخير دائماً – دعت إلى الله مرجانة التي جاؤوها بالأخبار السارة من القاهرة فتغيرت إلى مرجانةٍ أخرى وأفكار أخرى غيرِ الهموم النسائية. اللهم اجعلنا أنا وبيبرس نشهد هذا ونسعد بصحبتك.

– إن كان هذا رأيك فاستعدي لرحلة القاهرة يا زوجة أمير الأربعين فارساً!

– ومتى؟

– متى رجعنا من أرض الأرمن بكيليكيا.

– سنلقن الأرمن الذين وقفوا إلى جانب أبناء دينهم الصليبيين درساً !

"ألن تتوقفي أيتها الحرب المنحوسة التي يفنى فيها الكثير من الناس؟ ! مرةً الصليبيون، وأخرى المغول..." – صرخت من الأخبار مرجانة التي لا تعرف ماذا ينتظر أسرتَها شاملةً بسؤالها من يلبسون القبعات وغيرها، والأعداء وغيرهم.

III

كان سلاطين مصر عباسيين وفاطميين وأيوبيين. والمماليك الأديغة نهضوا من ركام الأيوبيين.

ويعني المملوك بالعربية العبدَ الأبيض. وإن راجعت تاريخ مصر القديمة يمكنك أن تسمع اسم المملوك في مختلف الأخبار التي يتداولونها في أسواق النخاسة وفي شوارع المدن والقرى، وأبواب قصور الخلفاء، وفي داخل البيوت.- في إقليم مصر، وسوريا، وبرقة (ليبيا اليوم) وكيليكيا (أرمينيا الصغرى) والحجاز مقر مكة والمدينة، وبغداد (عراق اليوم) والنوبة (السودان اليوم)[1] واليمن _ ويتجاوز الاسم هذه المناطق إلى الشرق حيث المغول الذين يحاربون المسلمين، وإلى الغرب حيث الصليبيون الذين يحاربونهم أيضاً، فلا يفارق اسم المماليك أفواه الناس.

كان يؤتى بغالبية المماليك وهم صِبيان من القفقاس _ الأديغة والأباظة _ الأبخاز، والآلان[2] والغروزين[3]، ومن البوسنة. ويُربّى المماليك المتحلّون بالصدق والرجولة على الأعمال الحربية. وخلال وقت قصير يصبحون محاربين لا يعرفون التراجع. ويستطيعون الإمساك بزمام المفاصل الهامة للجيش التي تتطلب الشجاعة والمهارة القتالية. ولم يندر أن يظهر منهم من يطمعون في الخلافة في عصرها، والسلطنة لاحقاً. ولكن التاريخ يذكر بأعداد كبيرة من بُدِّلوا، أو أبعِدوا، أو جيء بهم إلى السلطة. ومهما أبدى المماليك الأديغة من ضروب

---

[1] الأقواس من المؤلف. المترجم.

[2] الأوسيت أو القوشحة، من شعوب القفقاس.

[3] الشيشان. من شعوب القفقاس.

البطولات فإنهم لم يستطيعوا الوصول إلى رأس السلطة في البلاد التي حلّوا بها غرباءَ في عصر العباسيين، ولا في عصر الفاطميين. بل استطاعوا انتزاع السلطة من الأيوبيين وإنهاء حكمهم. ولكن ما يزال تحقيق هذا يحتاج إلى سنوات كثيرة.

وإذا كان المماليك الأديغة حماةً للخليفة الفاطمي ومجرد مقاتلين فقد تغير وضعُهم جذرياً حين استولى الأيوبيون على السلطة في مصر. وكان لصلاح الدين فضل كبير في هذه الخطوة.

من هو صلاح الدين يوسف ومن أي عرق من البشر؟

خرج صلاح الدين من الأكراد الروادية الشهيرين. وكان جده شادي[1] قد خدم مع ابنيه شيركوه وأيوب سلطانَ السلاجقة. كان شادي قائد الجيش في مدينة تكريت. ولما توفي الأب، وفيما أُنيطت بأيوب هذه المهمة، قتل شيركوه أخوه رجلاً سلجوقياً شهيراً، فعرفا أنهما سيُعدَمان، فالتجأا إلى دمشق حيث الأمير الأتابك[2] المملوك عماد الدين زنكي. ولم يمض وقت طويل حتى كُلِّف أيوب بإمارة بعلَبك، وشيركوه بقيادة الجيش.

في هذا العصر كان يتنافس على منصب الوزارة وقيادة الجيش في الدولة الفاطمية التي غدت ضعيفة نور الدين بن عماد الدين وأمالريك حاكم أورشليم. غير أن الخليفة حجب المنصب عن كليهما وفضّل عليهما شيركوه الذي أبدى رجولة أكثر من غيره. ولم يكتفِ بهذا بل فوّضه بحكم البلاد. وحين دنا شيركوه من الموت منح منصبه إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب. ولكن

---

[1] أو شاذي.

[2] لقب تركي أطلقة السلاجقة على بعض رجال البلاط والوزراء والقادة. يعني القائد أو الحاكم العسكري.

صلاح الدين عزل الخليفة المريض قبل أن يموت، ونصّب نفسه عام 1171 خليفة – سلطاناً على مصر. وابتدأ من هذا التاريخ حكم الأيوبيين.

قام صلاح الدين الخليفة – السلطان بجهود كثيرة من أجل تحسين شروط عمل المماليك، ومنْحِهم مزيداً من الحريات، وإيكالِ قيادات الجيش إليهم، وإشراكِ أمراء الجيش من أصغرهم إلى أكبرهم في الاجتماعات الاستشارية له، وتخصيصهم بالقيادات العليا للجيش.

ومهما قام صلاح الدين بإنجازات على كافة الصعد، ومهما خدم مصر، فقد كان توحيد مصر وسورية قمة إنجازاته. وصار هذا التوحيد أساساً في التصدي للصليبيين الذين كانوا ينوون الاستيلاء على الحكم ونهب خيرات البلاد، وأساساً لحماية العرب والمسلمين. وكان استيلاء حاكم الكرك "شاتيلونسك" على جِمال التجار خطوة البداية في الحرب على الصليبيين.

فبناء على نداء صلاح الدين اجتمعت في دمشق جيوش قادمة من مناطق متعددة. وفي الثالث من شهر تموز من عام 1187 التقى المسلمون والصليبيون في حطين. وفي هذا اليوم قام المماليك الأديغة بقيادة فخر الدين عيسى ببطولات عديدة: هزموا مقاتلي الصليبيين وأسروا حاكم القدس غفيدو دو لويزينيان. وهكذا يبدأ تطهير أماكن كثيرة من سوريا من الصليبيين، وأصبح صلاح الدين جزءاً من مصر التي لا تزال تغلب عليها الخلافة.

ومع أن مصر وسوريا كانت اتجهتا إلى الوحدة فإن الأعداء من الشرق ومن الغرب لم يكونوا ليتوقفوا. وفي كل عام كانت تأتي موجات من المحاربين والمجرمين، وهؤلاء كانوا يرتادون سورية أكثر من غيرها. وكانت حماية الذات تتطلب جيشاً كاملاً محضَّراً للحرب. ولم يكن عند العرب جيش جاهز عند الضرورة. والأبطال البدو ما إن يجتمعون حتى يتفرقوا. وكان من الصعب حماية

مدنٍ مثل حمص وحلب وصيدا وبعلبك، وغيرها. ومهما اجترحوا من بطولات فالجيش النظامي للخليفة كان عاجزاً عن مجابهة المحاربين الأغراب. ولم يكن قادة الجيوش، والإخوة والأصدقاء، والأقران الزملاء، ممن يحيطون بالخليفة على وفاق فيما بينهم. وكانت هذه الانقسامات تضر بعامة الجنود . ولم يكونوا قلائل من يذهبون ضحايا انعدام الثقة بين القادة.

وصلاح الدين واحد ممن أحسوا بضرورة وضْعِ حدٍّ لأسباب هذه المظاهر السلبية. وقد فهِم ضرورة أن يمتلك بالإضافة إلى الجيش الذي يحميه جيشاً آخرَ كامل العتاد من المخلصين له، ليس بسبب عدم الثقة بالجيش الحامي له المنتقى أفراده، بل خوفاً مما سيكون عليه سلوك أفراد الجيش المتنوعي المشارب. كان جنوده من الأديغة والكرد والترك والأباظة — الأبخاز والقبجاق [1] والتركمان والهاربين من التتار — المغول. والألبان والبوسنيين والغروزنيين. وكان الترك أغلبية في هذا الجيش، ولكن من يقاسمهم الزعامة كانوا من الأديغة، ومن أبناء قومه الأكراد. وكان المصريون في هذا الجيش قلائل وغير موثوقين. وبعد أن تابع صلاح الدين سلوك الأديغة والأكراد وتأكد أنهم لن يتخلوا عنه في ساعة الشدة، بدأ يشتري الأسرى المجلوبين من القفقاس ويرعاهم، ومَن أعمارهم تناسب الحرب يُطوّعهم، والصغار يربيهم. وهذه المقاربة هي أساس تشكيل الجيش المملوكي في مصر وسورية. ولم يتم هذا في سنة أو عشرٍ أو في نصف قرن. إذ مضى بعد السلطان صلاح الدين زمن طويل حتى صار الصبي القادم من القفقاس بيباريس من حاشية السلطان الصالح.

[1] أو القفجاق. وفي الإنجليزية Kypchaks. جزء من المغول وهم الأصول الأولى للكازاخ.

ومضى نصف عام ريثما سافر أيداقين بندقدار إلى كيليكيا، وإلى القاهرة، وما جرى في الشام من أحداث جعل الأسرة التي همّت بالسفر تؤجله: أُرسل الصالح ليكون أمير الشام، وجلب معه حراسه والمماليك المئتين الصبيان الذين يربيهم. وفيما يُخبر أيداقين مرجانة وبيباريس بالمهمة الجديدة التي أوكلوها إليه، وهي قيادة مماليك الشام، برّأ نفسه وأدانها:

– ما العمل إذن؟ ! ما كتبه الله على جبيننا نتحمله. وحين تكون محارباً وسفيراً لدينه الغالي فلا مكان للرفض. تنفذ ما كُلِّفتَ به. السلطان الكامل ليس عاجزاً، غير أن أمير الجيش الصالح رجل لا يسمح لك أن تتجاوزه في الشجاعة. ستقضي آخر ليلة في بيتك يا ولدي، ثم نرافق غداً الأمير الصالح، كلامُه كلامُنا وفِعلُه فِعلُنا.

– أيعني هذا أن ولدنا لن يعود إلى البيت؟... – ألقت مرجانة نِظرة حزينة على وجه زوجها.

– ربما في الشهر مرة. ولكني لا أظن هذا النظام يتحقق قريباً. – كانت الزوجة بدأت كلاماً فأسكتها – مهلاً، مهلاً. لا تستعجلي، مصير ولدك هو مصير غِلمان الأمير الصالح.

– يعني أننا سنفتقد بيبرس؟ ! احتدّ قلق مرجانة من جديد.

– سيكون بيبرس مُلك الأمير الصالح كما هو مُلكُنا – يجيب أيداقين بندقدار بسرعة كما لو كان يخطف السؤال، ثم ينتهي بما يعرف:– سيربيه الأمير إلى أن يُتقن استعمال السلاح.

– أيتوقف ارتباطي بالأمير الصالح بإتقاني فنون السلاح؟ – يسأل بصوت رجولي لا تعرف منه أنه نفسه من كان في الثانية عشرة قبل ثلاث سنوات،

موجهاً نظرة اطمئنان إلى مرجانة، ويجيب دون قصد إلى الافتخار: – لن يستغرق الأمر مني أكثر من سنة.

– نعم، نعم يا ولدي – قالت مرجانة فرِحة بأن بيبرس اكتملت قامته وتعمّق تفكيره بالقياس إلى السنة الماضية المليئة باليأس والقلق. – من هذه الناحية أنا واثقة منه – "وليس بيبرس وحيداً في هذا بل معه تانقز وعماد وراسم. أما جلات فكلما ارتفعت كتفاه نقص عقله. وصديقه قاهر ذو الوجه الرقيق المخادع ليس أحسن منه" قالت لنفسها.

ضحك أيداقين من تحت شاربيه الأسودين بسبب الامتداح والفرح المتبادلين بين المرأة والصبي: "امدحا نفسيكما، امدحا. لا فائدة في الاطمئنان إلى المديح وهزِّ السيف في الهواء" – لم يُطق الرجل ذو القلب الذي حولت المبارزات التي لا نهاية لها قلبه إلى قطعة لحم قاسية، والمرتاح الآن مع أسرته، إلا أن يُفصِح عما خطر له:

– كل مملوك يُختبَر فخره ورجولته في المعركة فحسبُ. ما يسيل من عرقك أيام الشباب يصبح دواءً في الكهولة. هذا ما سيعلّمونك إياه يا بيبرس في ساحة تدريب المماليك التي سنذهب إليها غداً: الصبر والرجولة.– هذان هما شريكا هوائك. تفيق معهما في النهار، وتنام معهما في الليل. لن تعيش نمط حياة آخر في السنوات القادمة حتى تبلغ الثامنة عشرة.

– يا لَمصيبتي ! أيّ صبرٍ وأي رجولة قبل أن يولد الصبي؟ ! – صرخت مرجانة الآن بصوت أعلى ولكنها لاطفت الصبي: – لا أعرف إن كنتُ أرعبتك يا ولدي، سامحني.

– لا تقلقي يا أمي ــ واسى بيباريس أمه مع أن صراخها كان أرعبه – سأتحلى بالصبر، ولن أعدم الثقة.

– حياك الله يا بيبرس – هذا ما أتأمله منك. من الغد أنا وأنت لا يعرف أحدُنا الآخر في ميدان تدريب المماليك. يمكن أن أمدحك وأن أعنّفك وأن أصفع قفاك. ولكني لستُ أباك، ولا أنت ولدي.

– كلامُك كلامي، وفِعلُك فعلي يا أمير الأربعين! – جزم بيباريس بصوته الذي خشُن فجأة في هذا الربيع.

قضى أيداقين بندقدار، على خشونته، ليلة قلقة كما امرأتُه والصبيُّ القريبان منه روحاً وقلباً، وأفاق في الصباح الخريفي التالي. لم يأمر بإعداد العربة الوثيرة بل أمر بإعداد سرج حصانه. ولما رأى كيف ألبسوا بيباريس لاطفه وهو يخطو الخطوة الأولى في طريق المملوك:

– هذه الملابس غيرُ صالحة يا بيبرس، هذه ملابس عيد. البسْ ملابس قديمة من أجل ألا يسخر منك الفتيان المماليك. وارتد السيف والفأس والقوس والسكين القصيرة. واحمل معك الحبل القصير الذي أعطيتك إياه، والذي يمسكون به الأحصنة.

– وأنا كنت أرى هذه الملابس مبالَغاً في أناقتها.

– هل كسَتْك أمك وهي تقول: لست أسيراً مملوكاً.

– أصبتَ، كأنك كنت حاضراً.

خرج أيداقين بندقدار أمير الأربعين والصبي، أمامهما فارسان ووراءهما كذلك. وبعد ما قطعا مسافة سأل بيباريس السؤال الذي شغله أمس واليوم وكأنه يسأل نفسه:

– أيكون بين المماليك الشباب الذين يدربونهم من أجل الصالح بعض الأديغة؟

– هل اشتقت إلى أبناء قومك؟ – ثم التفت أيداقين إليه وهو يخاطب نفسه: "اسمع ما يُقلقُ هذا الصبي، وما في قلبه ولا ينساه !".

– لا أعرف إن كنتُ اشتقت إليهم...أشتاق أحياناً إلى الصبيان والفتاة الوحيدة بينهم الذي جاؤوا بهم معي إلى مصر قبل أعوام.

– حاربت كثيراً مع المماليك الأديغة وحاربوا معي. كلهم رجال محاربون قساة. وأغلب مماليك الصالح الشباب من الأديغة. يثق بهم ويثمّنُهم. ولكن قل لي اسم الصبي الذي تسأل عنه. إن كنت سمعت به أخبرتك.

– أسمعت باسم قلاوون؟

– وكيف لا أسمع به؟ ! – رفع أيداقين بندقدار رأسه من المفاجأة – صبي ذكي، حكيم، ولكنه كقطّاع أذيال الكلاب والخيل – أيعرف أحدكما الآخر؟

– لسنا نعرف بعضنا فقط يا بابا – خاطب بيباريس لأول مرة أيداقين بـ "بابا" – كلانا من قرية سلخوت التي تقع بعد اجتياز البحرين. وكما يقول قلاوون: هو من غرب المدينة وأنا من شرقها.

– ما أسمعه عجيب – تظاهر أيداقين بالسرور لما سمعه غير أن الألم عصر قلبه – " أعتقد أني ضربت رأسي بالفأس وأنا أظنني أفعل الخير. حين يقع الأسرى المجلوبون من بلاد بعيدة في بلاد الغربة تجمعهم القربى فلا يعجبهم مهما قدمت إليهم حتى لو أطعمتهم روحك... يا حسرتي يا مرجانة المسكينة. أخاف أن نكون أوقعنا أنفسنا أنت وأنا في ورطة.

كان الصبيان المماليك بلباس موحد في ثكنة التدريب الواسعة – وكبارهم وصغارهم معاً. وفي اللحظة نفسها تسمّر بيباريس في محله ونادى الصبي الذي عرفه:

– قلاوون!

– بيباريس!

حين رأى أيداقين بندقدار الفتيين يركض أحدهما نحو الآخر وكأن ليس في الدنيا غيرهما عصر الألم قلبه ثانية. ودخل مكتبه غير قادرٍ على كتمان انزعاجه. ولكن الضجة التي ثارت في الفناء جعلته يقفز إلى النافذة. في الساحة المستديرة يتشاجر عدة أشخاص. وانضم إلى هؤلاء بيباريس وقلاوون وقاهر. "لا أعرف أيها البائس إن كانوا استقبلوك بالعراك قبل أن تصل إليهم" – وما رآه أيداقين بندقدار الذي فكر بالابتعاد عن النافذة عجيب: حين لكم بيباريس قاهراً على ذقنه صرعه أرضاً. وانتشله من الأرض ونطحه بجبينه فصرعه ثانية. وحين حاول الاقتراب من غريم قلاوون الذي لا يتمكن منه تلقى من قفاه ضربة صرعته.

– انهض ! –كأن بيباريس سمع صيحة أيداقين بندقدار، فضرب برجله خصمه الواقف على رأسه فألقاه على أرضه، نسي أيداقين أنه قائد ثكنة تدريب المماليك فامتدحه:

– عفارم[1]! هذه ضربة لها قيمتها! حين ظهر مدربو المماليك تفرق المتعاركون في غمضة عين.

حين سأل أيداقين معاونه سنقر وكأنه لا يعرف ما جرى في الثكنة، أجاب متناسياً من جَلب ومن جُلب:

– لم يقبل المماليكُ الأديغة أن يسخر القبجاقُ جماعةُ قاهر من بيبرس الذي وصل اليوم.

– ومن انتصر؟ – أصلح أيداقين بندقدار السؤال الذي هرب منه: – هل صالحتم بين المتعاركين؟

[1] عفارم بالتركية: عبارة إعجاب تقابل: أحسنت بالعربية، وبرافو بالفرنسية.

– القبجاق شرسون غير أن الأديغة، وأنت تعرف، لا يسمحون لك أن تغلبهم. هؤلاء، كبارهم وصغارهم، محاربون عُتاة. وأما بخصوص المصالحة بينهم فلا نجد وسيلة بسبب التنافس بين الأقوام.

المماليك دائماً مماليك! مع أن أيداقين كان يفكر في ما ينتظر بيباريس فلم يتردد في القول: – هؤلاء يجب أن ينسوا الثأر لقومهم. عرب أو مماليك عرب. كنا تكلمنا الأمير الصالح وأنا في هذا الموضوع فلم يوافقني. ولكني رضخت للحل الذي وجده، وأنا أقول ستندم يوماً ما! سنسيطر على المماليك عن طريق فصلهم حسب أقوامهم، ونربيهم. وفي الحرب سيكونون مستقلين. وسيظهر من فيهم المحارب.

– أعتقد أن قلب الأمير الصالح أميَلُ إلى الأديغة... – كشف أقطاي الذي كان ضِيقُ عينيه المحدود ووجهه المتطاول يجمّلانه، عما كان يقلقه في السنوات الماضية، والذي كان يخشى التصريح به.

– لم تُخطئ في هذا – أيد أيداقين بندقدار معاونه. ومن أجل ألا ينتشر خبر غيرُ مستحَبٍّ حسم الموضوع متمهلاً: – ولكن ما العمل؟ كلٌّ يلبس ما يراه جميلاً. ويركب الحصان الذي يستجيده. ويأكل ما يجده لذيذاً. ويلفظ ما يجده مراً. ولذا فكلام أمير الشام الصالح كلامنا، وفِعلُه فِعْلُنا.

حين عاد أيداقين بندقدار إلى البيت جابهته مرجانة بالسؤال الذي شغلها طوال النهار:

– كيف استُقبل بيبرس من الناس الذي انضم إليهم؟ هل انسجم معهم؟ – ولم تستطع أن تنطق السؤال الذي كانت تتوقعه: "هل أهانوه؟"

– بيبرس ولد ممتاز، تلقى تربية صالحة. ما نوع الأقوال المتعلقة بالتربية والتي كان بيبرس يعلّمك إياها؟ ذكّريني !

– تعلمت عدة أقوال مأثورة للأديغة من بيبرس – ارتاحت السيدة مرجانة بما قاله لها زوجها – وأنا علمته بضعة أقوال عربية مأثورة. ربما هذا ما سألت عنه: "ربِّ نفسك في البيت واذهب إلى الاجتماع"

– نعم، نعم. بيبرس كان مصداق هذا الكلام. – ابتسم سعادة المحترم أيداقين بندقدار في سرّه. – انخرط فيهم كما لو كان يعرفهم طوال عمره، وخالطهم. واتفق معهم – ثم اختتم بعد وقفة قصيرة: – يقولون: الكلب يعض حتى راكب الجمل. من أين لي أن أعرف كيف سيتصرفون معه غداً وبعد غد، وفي الأيام اللاحقة وكيف سيتصرف معهم. لنرَ ما يحدث!

– سيندمج فيهم – قالت مرجانة والارتياح لا يسعها. ولم تكتم ما تتأمله من الرجل: – ألن يكون تحت ظلك أيضاً؟

– أنا لا أميز بين المماليك. ولا أُظِلُّ أحداً.

– نعم، نعم.– مع أن مرجانة جفِلت مما سمعت فقد اختتمت موافقة زوجها بكلام أمهاتٍ ألطفَ: ولكن لاحقاً.

IV

ليست السنوات الخمس والعشرون زمناً يُعتدُّ به في تاريخ البشرية؛ يساوي زمن اشتعال الشهاب. ولكنها فترة طويلة في مقياس الإنسان الفرد؛ فكل إنسان تنحل عقدة لسانه ويقف على قدميه خلال خمس وعشرين سنة، وينمو عقله. وتتطور فطنته. ويزيد عمره بهذا المقدار شاء أم أبى. زهوة الشباب في مرحلة الصعود تكتمل شكلاً وقوة، وضعف الشيخوخة يوهن الجسم، ويتلف الشكل. إنه مهموم بما ينتظره في ما تبقّى، وبالكيفية التي ستنتهي بها حياته. السنوات التي عاشها بيباريس في بلاد الغربة بالإضافة إلى الثلاثَ عشرةَ سنة، عمرِه حين سُبي، اكتملت هذه السنة إلى خمسٍ وعشرين. إن جمعت ما عاناه من طفولته إلى الآن وقسمته على عمره القصير كانت النتيجة أكثر مما عاناه الأب الذي مات قبل أوانه وبيبابيريس في العاشرة من العمر. وبغضّ النظر عن هذا فإن من قُتل أمامه في العام الماضي، وهو يتوسل إليه أن يخلص له وللأرض التي حارب من أجلها، ولقضية المماليك، وأن ينفذ وصيته حيثما مضى، سواء إلى الجنة أم إلى نار جهنم، وأن لا يترك أمه مرجانة وحيدة، ويكون ولداً صالحاً لها، فأسبل له جفنيه، أيداقين بندقدار أبوه، وهو يذرف الدمع،كان وحده كافياً لأن يسبب له مرضاً في القلب.

بعدما أقام هو ورفاقه مجلس عزاء في الذكرى السنوية الأولى لوفاة أيداقين بقي بيباريس ومرجانة وقلاوون وحدهم.

– حيّاهم وحياكما الله يا ولديّ، المرحوم أيداقين — انكسر صوت مرجانة رغماً عنها ولكن سرعان ما رجع إليها — لم ينسه صبيان المماليك الذين ربّاهم وأنشأهم. وأبّنوه بكلمات عذبة. أمرٌ محزِن أن تفارق الدنيا، ولو أننا نسميها الفانية، في عمر الستين. نعم، يا ولدي لا أبكي ولكن دموعي لا تطيعني.

– برّأت مرجانة التي تراجعت صحتها منذ العام الماضي على نحو ملحوظ نفسها – عماد وراسم وقاهر وتانقز وجلات كلهم اتخذوا قالب الرجال. ليحمِهم الله وليمدّ في أعمارهم! كان أبوك يأتي دائماً على ذِكْر جلات ولو لم يكن صاحبك. ولو أني رأيته مرة أخرى لتصورت أني رأيته بعيون أبيك.

– جلات لايقيم في الشام أمي – ابتسم بيباريس ابتسامة خفيفة وهو يتذكر كيف كانا يتخاصمان ويتصالحان، – يحارب في نواحي صيدا.

– ماذا يجري في تلك الجهة الآن أيضاً؟ – جعل الهم الدائم مرجانة تسأل.

– الفرنسيون الصليبيون لا يكفون عن إزعاجنا.

– ومن هو جلات؟ – سأل قلاوون فجأة دون أن يدري لماذا.

– كنت أشرتُ لك إليه في الشارع مرة ، هو من كان يعاركني باستمرار.

– هو؟ ظننتكم تتكلمون على شخص آخر.

– لستَ مخطئاً. لقد تغيّر تماماً. وسمعت أنهم رفّعوه إلى قائد عشرة فرسان.

– أليس شاباً بعد، هو من جيلنا؟

– لا يتعلق القتال العنيف بالعمر يا قلاوون.

– وهذا صحيح. – حين تطلع قلاوون الذي هو أول من بدأ الحديث بالأديغية في وجه مرجانة، غيّر لغته إلى العربية مبرّئاً نفسه:– سامحيني يا مرجانة!

– لا، لا يا قلاوون؛ ماذا تقول؟ لو كنت قادرة في شيخوختي على أن أتعلم الأديغية لتعلمتها كما تعلم بيبرس العربية.

– يجب أن يأسروكِ إلى نواحينا كي تتعلمي الأديغية كما تعلمت أنا العربية في بلادكم... – تضرع بيباريس إلى أمه معتذراً عن الكلمة المرة التي صدرت منه بسبب شوقه الدائم في كل المواقف حلوِها ومرّها إلى بلاده: سامحيني أمي لا يجوز أن يقال لك مثلُ هذا !

– أأعتب عليك يا ولدي إن مزّقك ما يجول في صدرك – مدت مرجانة يدها ومسحت على خد بيباريس، لا شيء يستحيل أمام الحزن والإهانة على لسانك وفِعلِك. أنا اختبرت هذا الموقف. ولكن الأفضل أن تتحلى بالصبر إن استطعت. – قالت مرجانة التي فقدت ابنها وزوجها. ثم توجهت إلى ابنها بعد وقفة قصيرة، متظاهرة بالمزاح أمام المملوكين الجالسَين في حضرتها، معبرة عما في نفسها: – ليتكم بدلاً من أن تأخذوني إلى بلادكم أتيتم منها بفتاة تكون عروساً تسليني في أوقات غيابك!

– يمكن أن نفعل مثل هذا أيضاً – أسرع قلاوون بالجواب – يمكننا أن نأتي بها من بغداد.

– يمكن العثور على مثلها هنا دون حاجة إلى بغداد، البنات هنا كثيرات.

– لا أقول إن الشام تخلو من البنات الجميلات؛ أعرف في بغداد فتاةً سبَوها صغيرة، اسمها كوثر.

– إن كانت من جيلكما وجميلةً كما تقولان؛ أيمكن أن تبقى إلى الآن دون زواج؟ ! – نظرت مرجانة إلى ولدها نظرة حب ومراءاة.

– إن لم تتزوج في هذه الأيام فقد كانت عازبة في الربيع. ولكن أعرف من تنتظر هذه – نظر قلاوون بطرف عينه إلى بيباريس مشيراً لمرجانة إلى من يقصد بكلامه.

– يا ولدي لماذا ما تزال عازباً إذن؟

– كفى يا أمي، وأنتَ أيضاً يا قلاوون – لام بيباريس الاثنين بحذر وحرص: – ما الموضوع الذي فتحتماه على مائدةِ سنويةِ والدنا؟

الصيف الحار يشوي الدنيا دون دخان. ولن تجد ظلاً ولو بحثتَ: أفياء الأشجار والأماكن التي لا تصل إليها الشمس تبعث على الغمّ. وحين تختار

مكاناً تعبره الريح من الجهتين فالهواء الساخن يُحرقك ولا يفيدك. والشمس الحمراء – البيضاء تظهر بصعوبة من السماء الباهتة اللون، ويخيَّل إليك أنها لا تنوي الانحدار. ولما كان مستراح كل إنسان هو بيته الحجري خُيِّل إليك أن الشام خلت من البشر، غير أن ثكنة تدريب المماليك لا تخلو من الحركة. المجموعات الأربع التي يجهزونها للمعركة – والتي يرأسها بيباريس وأقطاي وقلاوون وقاهر – انخرطوا في معركة بالسيوف المشهَرة: يتدافعون بصدور الخيل التي تصهل، وتصايُح الناس تحت السيوف والتروس المتقابلة يصل ضجيجه إلى الجوار. ثم يمتطون الجياد مُقيلين الجنود الذين سقطوا من صهوات خيلهم. والجنودُ الذين هرب منهم خصومهم يبحثون عن آخرين يُسقِطونهم من خيولهم. ومن يركب السرج ومن تعلق به يتنازعان الحصان.

ولا يُقصِّر الجنود المشاة الذين يتمرنون في الساحة المجاورة. – يصدون جيش العدو، والمهزومون يلجؤون إلى القلعة المحاطة بسور حجري. ويتصدّون للمهاجمين الذين يرتقون الجدار على السلالم. والمهاجمون العاجزون عن الاستيلاء على القلعة يأتون إلى الجدار بمجانيق على عجلتين تقذف الحجر واللهب. ويُسمع من القلعة أصوات استغاثة. والدخان يتصاعد. يرفع المدافعون العلم الأبيض والمنتصرون يحتفلون ملوِّحين في الهواء بسيوفهم المشهرة.

اقترب إلى مسافة عشر خطوات قادة فرق الخيالة الأربع، وقائدا فرقتي المشاة، من الخيمة الصفراء التي يراقب منها الأمير الصالح معركة المماليك التي استمرت أكثر من ساعة. وحين خرج بيباريس من الجمع وحيا الأمير واضعاً يده اليمنى على صدره الأيسر قال بصوت قوي عالٍ:

– ننهي اليوم المناورة الاختبارية للجنود المماليك التي أمرتَ بها يا أمير الشام الصالح حامي الإسلام والمسلمين. أدعو لك أن يصبح يومك مئةً، وأن يضع

الله أعداءك تحت نعليك، ولا ترى في حياتك إلا الخير، ويظل الثناء على مآثرك يرتفع. معركتنا اليوم فقدْنا فيها، كما قدّر الله، ستةً، وجرح ثلاثة وعشرون. وانكسرت قوائم حصانين، وترك جيش المشاة تسعة قتلى. وسحبوا من الميدان أربعة عشر جريحاً. وبالقياس إلى الاختبار القتالي السابق فضحايا اليوم أقل بكثير. ليعوّض الله كل واحد ممن فقدتَهم اليوم، والذين يستحقون الثناء، بألف. — حنى بيباريس رأسه ثانية تحية للأمير الصالح، ورجع إلى رفاقه الجنود دون أن يدير ظهره للأمير.

الأمير الصالح المرتدي عمامة عالية بيضاء ضاربة إلى الزرقة تجمّل وجهه، والذي بلغ الأربعين عاماً، وهو يراقب المناورة التي لا تمثيل فيها، دون أن ينزل من عرشه، ويسمع كلمة بيباريس، مرّ دون ترتيب أمام مخيلته كثير من الأحداث: أيداقين الذي أخلص له منذ أن تعارفا، وابنه الوحيد الذي استشهد قرب القدس على يد الصليبيين، ولحاقُه بابنه بعد بضع سنوات قرب صيدا. وتأبين بيبرس له كأنه ابنه من لحمه ودمه، وقادة المماليك الأخرين الذين شيّعهم، وكيف اضطُرّ السلطان الكامل إلى إرساله إلى سورية الشام. وتذكر مرتاحاً المغول الذين اصطدم بهم ما إن وصل إلى سورية من جهة، والخوارزميين من جهة أخرى، وكيف ناور الخوارزميين. تصرف كما أوصاه والده أيوب: أقام سلاماً مع الخوارزميين، وضم مقاتليهم إلى جيشه، وصدَّ بهم وبالمماليك الأديغة المغولَ. وهكذا استطاع إيقافهم بضع سنوات. والآن مات السلطان الكامل الذي كان يسانده، ولا يعرف كيف سيعامله خليفته السلطان العادل[1] لا

[1] العادل الثاني ابن الكامل ، وهو أخو الصالح أيوب بن الكامل. والكامل ناصر الدين مُحَمَّد هو ابن العادل الأول سيف الدين أبو بكر أحمد بن أيوب أخي صلاح الدين. السلطان

يعرف عنه شيئاً إلا أن قلب الأخير غيرُ صافٍ نحوه. وكان الأمير الصالح أحد الذين لم يستقبلهم السلطان حين تبوّأ حكم مصر. "لستُ كأمراء المدن الأخرى ! أنا أمير عاصمةِ سوريةَ التي كانت دولة، ثم ضُمَّت إلى مصر! فإن لم تقبلوا بي فصلتُ سورية كلها عنكم. ولكن لن أرضى أن أفعل هذا لكم ما دام الفرسان الأبطال من أمثال أيبك وبيبرس وأقتاي وقلاوون وقاهر وجلات إلى جانبي. سأعمل على تقريب هدفي"

حين نهض الأمير الصالح بقامته الرشيقة، وسُمع صوت البوق، ترجّل الفرسان. ونادى جنوده ومماليكه المختارين وهو ينظر من فوق رؤوس قادتهم: – يا جنود الله تعالى المماليك الشجعان. حزتم على رضاي اليوم كما في العام الماضي والذي قبله. أبديتم مهارة قتالية لا تعبأ بالموت. ليفتحِ الله أبواب الجنة للشهداء، وليشْفِ برحمته جرحانا ! — وعلى عادة الأمير الصالح بإلقاء كلمة مختصرة، اختتم، وتوجّه بعينيه إلى قادة جيشه: – وأنتم يا أيبك وبيبرس، ويا قادة جنودي الأبطال أُعجِبت بأدائكم. وأنت يا أقطاي وأنتَ يا قلاوون، وأنتم يا تانقز وجلات وقاهر! أقدم لكل جندي من جنودي المماليك قطعة ذهبية واحدة، بالإضافة إلى جعالاتهم. ومن يريد المزيد عليه أن يكسبه في الحرب.

قاهر الذي لم يكن يعبأ بأفراح الجنود الذين يلوّحون بسيوفهم في الهواء كان يشعر بالإهانة من أمر آخر: "نادى بيبرس باسمنا جميعنا، أخّر اسمي هذه المرة أيضاً عن اسم الأعور. لا اعتراض لي على أقطاي، هو قائد عسكري ممتاز، وأكبر منا عمراً. وهو من جيل هذا الذي ينصرف متباهياً. لو صرت بالمصادفة

الأيوبي الأول. والمُلاحظ تشتت العالم العربي تحت قيادة السلاطين الأيوبيين المتنازعين بعدما قسم السلطان الأول صلاح الدين سلطنته بين أخيه وأبنائه.

موضع ثقته لاقتلعت بيبرس اللعين من جذره، وحطمت أنف قلاوون بعده. يجب أن نعرِّف الأديغة الذين يتوهمون أنهم قادرون على صرْعِ الناس بصدورهم أقدارهم وإلا ما تركونا نعيش. متى صار الأديغة أشجع من القبجاق؟ نحن من كانوا يدفعون لنا الجزية، والآن ملؤوا غير بلادهم فتعثُر بهم أينما ذهبت. كان المماليك الأديغة قلائل زمن الفاطميين. وكانوا مجرد حراس. المسؤولية كلها على الأيوبيين الأكراد. مهلاً، سيحصرونكم يوماً فلا تعرفون أين تذهبون. تتجاوزون القبجاق والترك والعرب، توقفونهم عند مرتبة قائد عشرة فرسان أو خمسة. وتمنحون القيادات الأعلى لمن يستحق ولا يستحق. لا أعرف لماذا يتصامّ ويتجاهل الخليفة — السلطان الجديد العادل ويتركهم يفعلون ما يشاؤون؟ كيف تعرف ما سيحدث بعد عام أو عامين؟ يستوي جهلك بما ينتظرك غداً وعماك المطلق".

أعلن الرسول أن الأمير الصالح يطلب بيباريس. وحين ابتعد المطلوب وبقيا وحدهما، ابتسم قاهر وطلب من أقطاي متابعة بيبرس بعينيه:

– انظر إلى هذا كيف يمشي مسرعاً؟... نحن مع عيوننا السليمة نخاف أن نعثر بشيء على الطريق.

– يا قاهر، لا أعرف ماذا تقول. — عبر أقطاي بصوته عن عدم رضاه عما قال قاهر، ولكنه سأله باحثاً عن السبب الذي يدعو محدِّثه إلى اعتباره موضع ثقة.– أتذهب إلى الأمير الصالح إن أرسل وراءك دون حماسة وكأنك متردد؟

– لا، لا. شعر قاهر بالرعب من عاقبة ما قاله غير أنه لم يُبدِه على نفسه، ثم أصلح الموقف: –لم أكن لأكتفي بالإسراع، كنت سأركض... لا تظنني أغار من بيبرس يا أقطاي. لأنه أصغر منا عمراً... على أنه سبقنا... كيف أقول

لك؟ يُشعِرني بشيء ما... وأحياناً أتساءل أهو إكرامٌ للمرحوم أيداقين بندقدار.

– وأيداقين بندقدار أخلص للأمير الصالح طوال عمره. ربما كان له دورٌ ما. ليس في تبادُل الثقة أكبر وأصغر، فإن خطر لك خاطر سوء فاضغط على نفسك واكبحْه !. ولكن لو كنت مكانك لقلت لك ما في قلبي بصراحة – ضحك أقطاي حتى ارتج خداه الأحمران – لن أقف إلى جانب قائد الجيش زمناً طويلاً. قد يحرقك أيُّ زعيم لأنه يشبه نار الفرن.

– صحيح يا أقطاي، صحيح. – تظاهر قاهر بالضحك – وهذا رأيي أيضاً يا أقطاي.أنتَ حكيم بقدر بسالتك.

– لا أرى في هذا حكمة. إن كان هذا رأيك فدعنا ننهِ الحديث هنا، ونهرب من الشمس الحارقة.

دلف القائدان المملوكيان الخيمة التي نُصبت للأمير الصالح وقاهر يقول لنفسه." ليس أقطاي كما يُخيَّل إليّ. ربما كانت له شكوى ما. يكفي ما تبادلنا من حديث اليوم... "

أجلسَ الأمير الصالح بيبرس أمامه، وصارحه دون تردد بما يُقلقه:

– ما أكاشفك به يا بيبرس ليس همي وحدي. أنا لست واثقاً من السلطان العادل الذي نسي الله. مضى على تبوئه الحكم عامٌ ومع ذلك لم يعرف أن دمشق هي عاصمة سورية وأنني أقيم فيها. صحيح أنه أرسل ورائي في الأشهر الثلاثة السابقة ثلاث مرات يدعوني إليه على عجل. وأرسل لي مع رُسلِ البارحة يهددني بإعلان الحرب عليّ وإرسال جيشه إن لم يرني. كيف أذهب إلى من لا يريدني؟ وأنت ما رأيُك في هذا الموضوع يا بيبرس؟

جفل قلب بيباريس من الأسئلة والأجوبة التي نجمت خلال السنة التي أعقبت وفاة أيداقين، واقترب فيها من الأمير الصالح. نظر في وجه الأمير بعينه الوحيدة الثاقبة ناصباً رقبته الطويلة: "حسنٌ ما جرى إذ صارحني بما في قلبه دون أن أسأله. يبدو لي أحياناً أنه ليس من النوع الذي يُشككني في نفسه من خلال الكلمات التي تخرج من شفتيه، فقد عرف أقطاي وقاهر هذا الموقف منه نحوي فصارا يلمّحان به إليّ. ولكن كيف ألومهما إن كانا يلمّحان إلى همومهما؟ ومع أن والدي الذي فارق الحياة في بلادي، وأيداقين بندقدار الذي واريته الثرى في هذه البلاد الغريبة من عِرقين مختلفين فقد اتفق رأيهما في موضوع الصدق والرجولة "إن كنت حالفت أحداً بإرادتك فليكنْ كلامُه كلامَك وفِعلُه فعلَك" وإن وجدت نفسك إلى جانبه مجبراً في بلاد ليست بلادك أفيكون الجواب نفسه؟ ولكن كيف تفهم ما تسميه "غير بلادك، وغير مهمتك" وكيف تفسّرهما؟ ربما كان الجواب ما كانت تردده جدتي من قول مأثور "حتى الموت فيه نوع من الرجولة". "إما أن تموت وإما أن تموت" —جفل بيباريس من الصاعقة التي خرجت من بين الكلمات المتصارعة في الرأس كالتماع الرماح، فكأنما أخرجه عجزه عن الإجابة من أفكاره، وأجاب دون تعمُّق:

– وأنا مهموم بهذا الأمر. يا موفد الله الذي يسأله الجميع ولا يسأل هو أحداً.

– حياك الله يا بيبرس على أنك تقلق لما يُقلقني، ولكن أود معرفة رأيك؟

– السلطان العادل لا يريدك. ومن لا يريدك لا يريدنا. يا أمير الشام المقدسة.

– ما الأفضل أن أعمله إذن؟

– إن سمعت نصيحتي فلا تذهب إليه.

– وإن أرسل جيشاً ورائي؟

– نواجهه.

– أأنت واثق من أمراء جيشي المماليك؟

– من تثق بهم أثق أنا أيضاً.

– هذا وإن كان جواباً جيداً بالنسبة لي فلا يصلح جواباً لك — ابتسم الأمير الصالح دون خبث. ثم سأل عما يشكّ فيه:– وتثق بجلات وقاهر أيضاً؟

– إن كنت سأجيب باسم الأمير الصالح فأنا واثق من القائدين المملوكيين اللذين سألتَ عنهما. وإن كنت أنا صاحب القضية فالأمر مختلف. لا يهمني فلا أحد يخلو من كارهٍ له.

قال الأمير الصالح الآن لنفسه: "ربما أخطأ والدي في بعض المواقف، منذ طفولتي وطوال إشرافه علي، وحتى ملازمتي له بالزي وبالسلاح. ولكن لا يجوز لي الآن أن أنتقد صراحة هذه المواقف لم يخطئ بالثقة في الأديغة المماليك وفي اجتذابهم إليه. وكان هذا أفضل ما أنجز من أعمال في هذه الدنيا الفانية. ما سيحدث بعدنا لا يعلمه إلا الله، ولكن لا أتذكر أنهم تخلَّوا عنا في الأزمات. أذكياء ومحاربون، يتمتعون بإنسانية صادقة. نجونا بفضل رجولة بيبرس وفطنته ودهائه من حصار الصليبيين لنا في أنحاء صور. وبدلاً من أن يفعلوا بنا هذا فيحاصرونا حطمنا قواتهم. واستطاع ملك الفرنسيين لودفيغ التاسع النجاة بنفسه بشق النفس. وعند بعلبكّ؟ وفي ضواحي حلب؟ هناك أبدى صديقه قلاوون بسالة. — فرسانه الثلاثمئة شتتوا فرسان الصليبيين السبعمئة. نعم، حقاً، هؤلاء، المماليك الأديغة، يمكن أن تثق بهم. — مقاتلون حقيقيون. أليسوا هواة للمناصب؟ ! لا أرى فيهم هذا. مهلاً، مهلاً ألا يحبون أن يكونوا أمراء الخمسة أو العشرة؟ ومن لا يحب هذا؟ صحيح، ثقْ بهم، ولكن احترس أيضاً منهم"

– صحيح لا أحد يخلو كما تقول من أعداء، – أفلت الأمير الصالح من أفكاره المتصارعة. — وأنا أطلعتك على ما يهمني لأني لا أفتقر إلى الأعداء. لا

أستطيع أن أقول إن قادة الجيش المماليك لا يرتابون في موقف السلطان العادل وما سيتصرفه معي. ولكن أريد أن يبقى حديثنا اليوم بيننا. ولا أعني بهذا القعود بانتظار ما سيحدث. وأنا سأفكر في بعض المسائل ريثما تعودون من بغداد. وسأجتمع دون لفت الأنظار إلى من أثق بهم من الأمراء. وسأخالط أقربائي الأدنَين. وسأقابل ابن أختي حاكم الكرك ناصر داود. وسأجعل من والده إسماعيل مستشاراً لي.

– إن كان هذا رأيَك فلن نسافر إلى بغداد وندعك أنا وقلاوون يا أمير الشام الباسل وحدك.

– لا، لا، لا تقل هذا – رفض الأمير الصالح حتى لو كانت عيناه بحاجبيهما العاليين الجميلين تعبران عن رضاه عن قرار بيبرس. – أرضوا مرجانة؛ هذه الأرملة المسكينة لولا أنها مهتمة بموضوعك، ولولا أنها تطمع في رؤية عرسك آخر عمرها لما وسّطتني أن أتحدث إليكم. وأنت لا تتجاهل الموضوع كأنه لا يهمك. لن تخرب الدنيا إن اضطررنا أن نؤخر لقاءنا أسبوعين.

– لن نغيب أسبوعين، ماذا سنفعل هناك! – صحا بيباريس قبل أن يتيح له صوته الذي ارتفع فجأة الفرصة ليشعر بالخجل، بسبب التلميح الموجه إليه:

– يا بيباريس لا تنقبوا أساس كتلة الرمل المتجمدة قبل أن تعبروا. مع السلامة. حين تؤدون مهمتكم وتعودون سنقيم حفلة عربية – أديغية في دمشق.

– حياك الله. ومن ناحيتنا، سامحني، يقال مثل هذا: لا تشمر عن ساقيك قبل موعد التذرية.

– إن كنا وكنتم تقولون هذا فأفكار العرب والأديغة متقاربة. – وبعد توقُّفٍ قصير أضاف الصالح ضاحكاً: – ربما كانت رحمتهم وذنوبهم متجاورة. أتعرف

ما هو أعجب شيء يا بيبرس؟ من يقول هذا هم من يحكمون البلاد بالقوة: الكرد والأديغة.

– وهل نحن وحدنا؟

– لا، وغيرُنا أيضاً. غير أننا فوق هؤلاء. " كيف تجمع بين المقهورين والقاهرين؟ " – كان بودّ بيباريس ابتلاع السؤال الذي صعد إلى اللسان رغماً عنه. ولكنه عجز أمامه: – إن كنت لن تؤاخذني يا نجمة المماليك المضيئة فلن أكتمك رأيي في ما قلت.

– كثير مما في الدنيا يجب أن يحكى علناً يا بيبرس – تظاهر الصالح بأنه يبادل مملوكه المزاح – غير أن الصراحة تسبب في كثير من الأحيان قطع الرؤوس؛ فلا تخطئ!

– أفضّل الصدق ولو مقابل حياتي. – أجاب بيباريس باسماً ولم يُبِن عن حقد أو ضغينة – لا أوافقك على أن الأديغة الأسرى العبيد الذين جيء بهم إلى بلاد العرب مرغمين هم فوق العرب.

– ما سمعتُه عجيب جداً ! – صرخ الأمير الصالح بصوت لا ينمّ على سوء تفاهم، ثم ضحك بصوت مكتوم، وسأله:– وهل أنت أيضاً عبدٌ قائدُ جيش؟!

– لا عجب في هذا! يا موفد الله. إذا كان معنى المملوك في اللغة العربية الرقيق الأبيض فأنا قائد جيش عبدٌ.

– وما وضعنا نحن الأكراد إذن؟

– وأين يفرّ المماليك الأديغة والألبان والترك والقبجاق وغيرهم من لقب المملوك؟ هؤلاء أيضاً عبيد. ولكني لا أستطيع أن أصف الكرد الأيوبيين بهذه الصفة. أنتم تمسكون بمنصب الخليفة – السلطان مثل الأمراء عندنا.

– وأنت هل من سلالة أمراء أديغة؟

– لا، أنا إنسان حرٌّ من عامة الناس.

– لا آخذ عنك هذه الفكرة من خلال طبيعتك وسلوكك وأسلوبك في الكلام... – قال الصالح في نفسه وهو ينظر إلى بيباريس بودٍّ وارتياح "هؤلاء، كلما حادثتهم متقرباً إليهم يُسمعونك وتلاحظ عليهم ما لم يخطر لك يوماً من الأيام. لا يجوز المبالغة في تقريبهم إليك، ولا إبعادهم تماماً " ثم اختتم بكلام مخادعٍ مفاجئ عن الكآبة التي اعترته:

– لأجل هذا يقولون يا بيبرس: حين يلتقي القلب والروح، ولا سرَّ بينك وبين محدِّثك، سيتطرق الحديث إلى موضوعات كثيرة. لِبُنْهِ حديثنا وأسئلتنا وأجوبتها هنا لأنكم مسافرون غداً. وحين تعودون نكمل حديثنا. ولكن لما كانت قلوبنا اليوم منفتحة على بعضها فسأقول لك نيتي الحقيقية نحوك. أنت لست كسائر قادة جيشي المماليك. حتى لو كنت قائداً عبداً فأنت فوق كل قادة جيشي المقربين إليّ. طيبتك وحُبُّك، وأحزانك وآمالك، متجاورة متلاصقة. لا، لا أعد هذا عليك عيباً... – رافقتكم السلامة، وحقق الله أمانيكم !

V

ليس المسير من دمشق إلى بغداد سهلاً، ورغم ذلك وصل في بضعة أيام الخمسون فارساً المماليك الذين يقودهم بيباريس وقلاوون إلى المدينة التي تتوسط سورية وبلاد مابين الرافدين: البوكمال. ولما كان أمامهم من الطريق أكثرُ مما قطعوا فلم يتوقفوا في البوكمال، وتركوا وراءهم بلدة القصبة[1]، وأطلوا على نهر الفرات.

ومع أن ليل الصيف قصير كتعاقب جناحي الطائر فقد تابعوا سيرهم صباحاً بعدما استراحوا هم وخيولهم. وبالقياس إلى هضبة بادية الشام التي خلّفوها وراءهم فالأرض التي وصلوا إليها رملٌ بلا نهاية. تابعوا طريقهم ونهرُ الفرات الصامت محط اطمئنانهم، يلازمونه حيناً ويفارقونه حيناً. وكلما اقتربوا من بغداد كثرت القرى. والبدوُ قُطّاعُ الطرق الذين يتبعونهم لا يرون من المناسب أن يهاجموا الفرسان المماليك المدججين بالسلاح فيختبئون وراء الكثبان.

– منذ البارحة لا تقول شيئاً يا بيباريس — قال قلاوون لرفيقه.

– ماذا أقول إن لم أخبرك أننا في أرض الخلافة التي ينتمي إليها الأمير الصالح.

— وتظاهر بيباريس أنه يجيب صديقه بالطريقة نفسها فلم يُخفِ حاله: – لا أعرف ماذا جرى لي من بداية رحلتنا، قلبي قلق.

– لستَ وحدك، أنا أيضاً قلقٌ لما ينتظرنا في بغداد.

– ليس هذا ما أقصده... بدلاً من أن يذهب قلبي إلى بغداد تركته في الشام.

نظر قلاوون بقلب متعرق إلى صديقه الأكبر سناً بطرف عينه: "مرّ على لقائنا الثاني عدة سنين ولم أسمعه يأتي على سيرة امرأة غير كوثر. وقد غازل بعض

[1] قريبة من الموصل وأربيل في العراق.

البنات برفقتي، وكذلك مع عماد وتانقز. وشارك في عرس راسم. و رقص مع كثير من البنات العربيات الجميلات. ومع ذلك لم يتحدث إلى أي فتاة من قلبه؛ بل لا أتذكر أنه تملّى في وجهها.

– إن كنت هكذا بلا قلب فلماذا سافرت بنا هذه الرحلة؟

– مهلاً مهلاً يا قلاوون، ما يُقلق قلبي أمور أخرى غيرُ تلك التي في ذهنك. قبل أيام، يوم بداية سفرنا، لا أنسى الحديث الذي دار بيني وبين الأمير الصالح.

– هل تلاسنتما؟ قلق قلاوون.

– لا، أطلعني على الجفاء الذي يبديه نحوه السلطانُ الخليفةُ الكامل. ولم أكتمه ما يُقلقني.

– وأنا كنت أتوقع أن يكون قلب السلطان الخليفة الكامل غيرَ صافٍ نحو الأمير الصالح. ولكن ما يُقلقك أهمني الآن. حدِّثني به إن لم يكن سراً عليّ.

– لا سرّ أخفيه عنك. هذا يتعلق بمن نذهب إليه أنت وأنا: كوثر، والمماليك الأديغة وليسوا أديغة في الوقت نفسه الذين نعرفهم. ألا يكفي كم أقمنا في بلاد غريبة وهم ينادوننا بالمماليك العبيد؟!

– إن كنا، أنت وأنا نعد أنفسنا قادة عبيداً فلا أعرف ماذا سيسمينا الآخرون؟

– كان ماقلتَه حرفياً هو جواب الأمير الصالح قبل أيام. نصّبونا قادة على مماليكنا العبيد، نحارب من أجلهم، نحمي لهم أرضَهم، ثم يسخرون منا.

تفقد قلاوون بالتفاتة من رأسه المنتصب جنوده الذين يتبعونه، ثم همس في أذن بيبارس:

– اخفض صوتك؛ لا يُستبعَد أن يكون بين الذين وراءنا بعض آذان الأمير.

– ليس شخصاً واحداً فحسبُ، من المؤكَّد أن بين من يرافقنا عدداً من الأشخاص لا يعرف أحدهم الآخر، ولكن يثق بعضُهم ببعض.

– لنتكلم بالأديغية إذن!

– لا تظنَّ أنْ ليس بيننا أيضاً آذانٌ للأمير. – ابتسم، ولجم حصانه وخاطب مَن وراءه: – اسبقونا ! — وحين مرّ الفُرسان همس لقلاوون: – انظر الآن إن لم يلتفت راسم قبل الجميع.

– لا. هذا غير ممكن ! — صرخ قلاوون مما رأى، ثم سأل بصوت أخفض:

– أتقول إن راسم جاسوس؟

– وهذان الفارسان الملازمان له لا تثق بهما! — لابد أنك فهمت الآن لماذا يتعلم راسم لغتنا وهو بين الراغب فيها وغير الراغب.

– إن كان هكذا فسأبتر رأسه في أول معركة نخوضها. متى شككت في رفيقنا؟

– منذ وقت ليس بقصير.

– ولماذا لم تُخبرني؟

– لم أكن أريد الكلام في الموضوع حتى اختبرته. ولكن الأمير الذي يثق بنا أكّد كل ما كنت أشك فيه. حين اخترت الخمسين فارساً الأديغة الذين سأصحبهم في الطريق ألحق بي، بين المزح والجد والابتسام، هذا الخليط، بما يُفهم منه أنه لا يجوز أن يكون الركب كلهم من الأديغة. وضمّ إليّ راسم الذي لا أريده البتة بذريعة أنه يعرف العاصمة بغداد وطريقها جيداً. وأرفقه باثنين من المماليك الأديغة الذين لا أعرف أصلهم.

– وأنا؟ ! — فزع قلاوون من كلام الصديق الأسنّ.

– وأنت ماذا؟ – نظر بيباريس إلى الفرسان خجلاً من صوته العالي المفاجئ، ونظر إلى قلاوون بما يعني الاعتذار له.

– وكيف لي أن أعرف... إذا كان الأمير أرفقني بك فربما كنتُ غير موثوق من قبلك.

– لا تقل ما لا فائدة فيه! ليت الذين أمامنا كانوا مثلك. لو عثرنا على المسكينة كوثر لتوجهنا إلى بلادنا عن طريق البحر مُفنين كل من يقف في طريقنا!

– أعندك مثل هذه النية؟

– من لا نية له يا أخي الصغير هو من يستأصلونه من سرج حصانه.

– يا بيباريس، من يقتل في الحرب، ومن يموت على فراشه يفارق الدنيا آملاً في الجنة.

اكتفى بيباريس بالابتسام في سره لما قاله قلاوون معتداً بنفسه وبحكمته، ولم يعلّق عليه. ولكن قال له بعد قليل:

– ما فائدة الحديث عن الجنة التي لم ترها ولم تختبرها يا قلاوون؟... الأفضل من هذا أن نفكر في العودة إلى بلادِ الأديغة، جنتِنا.

– لم أسمع ما علّقتَ به على الجنة التي هي الآخرةُ لدى سكان البلاد التي ظهر فيها الإسلام، ولا أريد أن يسمعك أحد. ليس من شأننا نحن الوثنيين أن نحلل ونفسر هذا الموضوع. أما بشأن العودة إلى بلادنا فأنا أوافقك. وهي في قلبي دائماً لا يفارقني الحنين إليها. ولكن لا تدعنا نستعجل. نكاد نقف على أقدامنا.

– وأنا لا أضع هذا هدفاً ليومنا أو للغد. وأي إجراء سنتخذه سيرتبط بالوضع الذي نحن فيه وبأملنا. لنفعل شيئاً ما قبل أن نفنى في حروب هؤلاء التي لا نهاية لها.

– بما أننا تصارحنا وكشفنا رغباتنا ونوايانا ونحن نكاد نعرف بعضنا فسأعيد سؤالي الأول: لماذا قلت إذن إنك تركت قلبك في الشام؟

– لا أعرف بِمَ أجيب عن هذا السؤال... أثار كثيراً من أسئلتي القلقة. وليست قليلةً الأسئلةُ التي وجدنا لها جواباً، وتلك التي لم نجد لها. جعلتنا نتطرق إلى أمور كثيرة، ونجري وراء الكثير. وما لم نلحق به أكثر. ولكن سأقول لك سبب عدم اطمئناني إلى ما في دمشق. أشعر بالإهانة من معاندة السلطان الكامل للأمير الصالح الذي لا ذنْبَ له – لا يحترمنا ولا يحسب حسابنا.

– يا بيباريس ! — قطع نداءُ راسم وهو يرتفع بقامته عن سرج الحصان كلام القائدَين. — بدت الفلّوجة، لم تعد بغداد بعيدة!

بغداد بالقياس إلى دمشق مدينة صغيرة مبنية من الطين والرمل. والبيوت محاطة بجدران عالية جداً تمنعك من أن تنظر إلى ما بداخلها أو تدخلها. تظن نفسك تمشي في شارع عريض فإذا بالشارع العريض هذا يودي بك إلى أزقة متعرجة ضيقة. أعرض الشوارع وأضيقُها تلتقي كلها، وتفترق ثم تلتقي، في أماكن مختارة. — المساجد تناطح السماء بالمآذن العالية، والأسواق متناثرة في أحياء عدةٍ. ودمشق وبغداد لا تختلفان كثيراً في سكانهما: الاثنتان مزدحمتان بالسكان. هنا الرجال أكثر، وهناك يختلط لابسو القبعات ولابسات الحجاب أكثر من هنا. وفي كل مكان ينتشر باعة الماء والشاي والحلويات الجوالون. والباعة والشارون والمآذن تتكلم لغة واحدة: العربية. وتسمع في الأسواق والدكاكين والمطاعم وفي أماكن التجمعات الأخرى العربية والكردية والفارسية والتركية والعبرية، والأديغية أحياناً. وتصادف أيضاً المغول المميَّزين بعيونهم الضيقة ووجوههم الطافحة، والقبجاق.

مهما كانت بغداد طرفاً في العالم العربي المتنافر، ومهما كانت الحياة فيها ثقيلة أو مريحة، والناس يولدون فيها ويموتون فإن ما يشغل بال بيباريس شيء آخر:
– الفتاة التي تصغره ببضع سنين والتي هدّأها مرة في السفينة وجعلها تكف عن البكاء، كوثر؛ ما أخبارها؟ وما عِيشتُها؟ الخبر الذي نقلوه إليه من بغداد في هذا الربيع بشأنها كان خبراً جيداً. أسرة التاجر التي كان نصيبُها أن تقع فيها أسرة جيدة تتمتع بالإنسانية والتقاليد العريقة. رضيت واستقرت بين مالكيها. وهي تبكي في الليل، وتواسي نفسها في النهار فيما تنفذ مهام الخادمة.
وحين اكتمل نموها فاكتسبت قوام الفتاة الناضجة كان قلبها وعيناها متجهة إلى جهتين رغم أنها راضية بما قسمه الله لها. إحداهما كانت تختفي من ذاكرتها كلما تقدمت في العمر، والأخرى الجهة التي تجهلها، وهي مصير رفاقها الصبيان والبنات الذين جاءت معهم. ولم يكن يمر يوم على كوثر لا تفكر في الفتيين، ولا تنتصب فيه أمامها صورتهما وهما اللذان لا يعرفان مصيرها، ولا تفكر فيهما، وبخاصة ذاك الصبي الطويل القامة ذو العين المغطاة بنقطة بيضاء، والذي ضمها إلى صدره وواساها حتى كفت عن البكاء. والصبي الآخر ولو أنه أصغر لم يكن يوفر جهداً غادياً ورائحاً. "أحدهما كان اسمه بيباريس والآخر قلاوون. أين هما؟ وما حياتُهما؟ والصبية والصبايا الآخرون؟..." أفاقت كوثر من أفكارها اللامتناهية كما تفعل حين تسمع في الشارع الذي تسكن فيه وقْعَ حوافرِ الأحصنة. وجعلها الحديث الدائر باللغة الأديغية تقفز إلى النافذة.
– أفهِمه يا قلاوون أننا لاننوي الترجل عن خيلنا، والمهمة التي جئنا من أجلها.
— قال بيباريس بالأديغية لصديقه متعالياً على التاجر البدوي الذي استقبلهما.
— سنسدد له المبلغ الذي اشترى به كوثر، وما أنفقه عليها. وإن رفض مسحناه من الوجود، سنصحب ابنتنا.

– إياكم أن تفعلوا هذا يا بيباريس ! – صاحت كوثر من النافذة وركضت إلى الخارج. هذا بمثابة أبي، رباني ورعاني – ثم أضافت بالعربية: – كنت أحكي لك دائماً يا بابا سيرة هذين. بيباريس وقلاوون أخواي. لم يأتيا إلينا قاصدَين شراً.

– إن كان هذا رأيك يا كوثر فلن نجعل من أنفسنا، كما كان جدي يقول، أنصاف نبلاء. سندخل بوجوه طلقة بيت من يدعونا إليه، ونُطلعكم على ما جئنا لأجله. ولكننا لم نأت لنقيم أو نتوقف. سنتصرف كلانا، نحن والمُضيف، حسب ما تقابلين به طلب القربى الذي جئناك به بما أنك صاحبة الشأن. ولكنك أنتِ صاحبة القرار في ما تقولين وتفعلين، أنتِ حرة فيهما.

كان ما تفكر فيه كوثر وهي تصغي إلى القضية التي فوجئت بها خجلة مهمومة بنفسها شيئاً آخر. لم يكن خُطّاب كوثر في السنوات القليلة الماضية قليلين. وكان بينهم العربي والكردي والتركي والألباني. ولكنها لم ترفض أحداً بالمطلق ولم تمنحه أملاً بالمقابل. ولم يكن سيدها الذي هي في خدمته بعيداً عن الموضوع – لم يكن يعترض على أي قرار تتخذه الفتاة الأديغية التي ربِّيت في بيته. "الحب نارٌ من يمد يده إليها تحترق يده. ليحمِني الله منها !" عاشت إلى الآن تمازح كل خاطب يطلبها من التاجر البدوي. ولكن ماذا سيكون جوابها على من جاءها من الشام؟

قال المُضيِّف لنفسه مخفياً قلقه "لست المقصود من قادة الجيش الثلاثة الآتين إليّ من الشام. – نظر إلى كوثر الواقفة على خدمتهم، مُفهِماً إياها بعينيه: ما ينتظرونه هو ما ستقولينه أنتِ – ولكني اشتريتها صبية صغيرة مسكينة، وربيتها. هي حكيمة حتى ليمكنُ أن تكون زوجة لأعظم الخلفاء، مهذبة، حلوة الطباع، جميلة... ولذا لا أزعم أني لا أهتم بمصير الفتاة التي رُبيت في بيتي. ولكن لن أعاند هؤلاء لأنهم من المماليك الذين يصعب التفاهم معهم. مَن مِن

هؤلاء الثلاثة جاء به قلبه إلى كوثر؟ أهذا الرجل الضئيل، أم الجالس إلى جواره ذو الوجه الرقيق الذي لا ينبس ببنت شفة؟ أم ذاك الممسك بدفة الحديث، الشاب الممشوق الطويل العنق الذي تغطي إحدى عينيه نقطةٌ بيضاء؟ لا، لا. هكذا يكون انتظار كوثر، رافضة الخطاب، بلا معنى"

حين صارح بيباريسُ التاجرَ بالهدف من رحلته من الشام، واستعداده لدفع ضعف المبلغ الذي اشترى به كوثر وما أنفق عليها إلى الآن، رفض التاجر مُشركاً يديه في الحديث:

– لا تُدخلوا الحسابات في ما جئتم لأجله. ما قدمته لابنتي قليل. إن كان هذا هدفكم ، ووافقْتكم... أجهش التاجر البدوي بالبكاء.

– لا تبكِ يا بابا — تعلقت كوثر برقبة التاجر العجوز — أنا لن أنسى أينما كنت ما قدمت إليّ. ولن أنسى إخوتي وأخواتي الصغار. لولا رعايتكم لفارقت الحياة منذ زمن بعيد. — انفجرت كوثر أيضاً بكاءً، غير أنها سرعان ما عادت إلى طبيعتها وقالت بالأديغية لبيباريس وقلاوون: – لا تُسيئوا إلى بابا، لن أكون راضية عنكم إن فعلتم.

– من تحترمينه يا كوثر نحترمه كذلك. — قال بيباريس بصوت لطيف مؤمِّل، ثم أضاف بصوت أخشن: – إذا رأيتِ هذا، فلأني أنا من جاء بكل هؤلاء الفرسان من الشام طالباً القربى، أرجوك أن تسافري معي إن قبلت بي زوجاً. يا شبيه روحي وعيني.

– إن طلبتَ هذا يا بيباريس — أجابت كوثر الآن بالعربية مُسمِعةً الجميع:

– سأذهب معكم إلى حيث تعيشون وتسافرون. سأتحمل معكم فرحكم وترحكم لأننا سافرنا مرة تجمعنا المأساة. ولكني أريد ألا تُدرج موضوع الزواج في يوم فرحي هذا. والسبب لا يهمكم ولا يهمني الآن ... في ما بعد، لاحقاً. إن

كنت سأصحبكم بعلم بابا ورأيه فانتظِروني إلى الظهيرة. سأجهّز نفسي، وأودّع إخوتي وأخواتي وجيراني. حين خرج البدوي وكوثر من الغرفة نظر قلاوون ساهماً إلى بيباريس:

– هل سنعود بمن جئنا لأجلها نزفّها على أنها أخت لنا؟

– نعم على ما يبدو. — ابتسم بيباريس كمن لم يحدث له شيء. — ماذا بيدنا؟ كأن الله قسم لنا ما يحدث. يسرني، مهما كان السرُّ الذي تحتفظ به أختنا كوثر، أننا وجدناها أخيراً ولو ليس على ما كنا نريد.

– نعم، نعم، لم تكن رحلتنا عبثاً، عثرتم اليوم على أخت تأسر القلوب. – أيد راسم رفاقه، وأضاف لنفسه "لم أفهم بيبرس على حقيقته منذ عرفته — لا يمكن أن تميز فرحه من حزنه"

– مهلاً مهلاً يا راسم ! إياك أن تطمع في أختنا زوجة ثانية أو ثالثة أو رابعة حسب ما يسمح القرآن – مازح بيباريس رفيقه.

– لن يقبل مني أبناء قومي العرب إن تخليت عما عندنا من عادات ليست فيكم أيها الأديغة. — وجد راسم جواباً لِما لُمِّح به إليه.

ودّعت أسرة التاجر البدوي بعد الظهر كوثر وقد امتزج فرحها بحزنها. وظلت في عربتها المحروسة بالجنود تتلفت إلى منعطف الشارع بعينين دامعتين، إلى البيت الذي عاشت فيه عدة سنين، وإلى الجيران ومن صاروا بمثابة أهلها المتجمعين في أرض الدار قائلة في نفسها: أيمكن أن تكون هذه آخر مرة أراهم فيها؟ !

رجع بيباريس من بغداد كما سافر دون أن يُظهر فرحاً أو حزناً، ودخلوا أرض سورية. وبعدما مشوا نصف نهار أوقف بيباريس جماعته لما رأى الفرسان الثلاثة أمامه:

– لستُ مطمئناً إلى عدْوِ هؤلاء الفرسان الثلاثة.

– هؤلاء بدو، وليس وراءهم أحد. – قال قلاوون وأيده راسم.

– يا قائد الجيش بيبرس، يامن أدعو الله أن يجعل يومه مئةً، لا أحمل خبراً ساراً – قال أكبر الفرسان المماليك الواصلين – داوود وإسماعيل قربيا الأمير الصالح استدرجاه بالخديعة إلى الكرك وحبساه هناك. أرسلَنا أيبك وأقطاي على جناح السرعة إليك. ينتظرانكم مع الجيش المملوكي، على مفرق طريق الكرك، عند قرية سرجاق.

– يا قلاوون _ كان كلام بيباريس مختصراً – أوصِلْ كوثر مع عدد من الفرسان إلى بيتنا، وأفهِم أمي أنها أخت لي ولك. ثم عد إلى نواحي الكرك. ونحن ماضون إلى حيث ينتظرنا الجيش. اطمئنّي يا كوثر، وهدّئي أمَّنا. نحن الجيش، لن ندع الأمير الصالح يُهان !

VI

فيما كان الحصان يجري مصدراً شخيراً، نافثاً وراءه الهواء الحار، يلوك لجامه في فمه، كان همّان يتقاذفان بيباريس: الأول كيف فُرضت الإقامة على الأمير الصالح، والثاني تجاهل كوثر لعرضه الزواج منها.

"لماذا يا تُرى؟ لم أرَ في تصرفها معنا ما يعيب. مهلاً، مهلاً، هي تجاهلت عرضي أنا. ولم تكن لها علاقة بالآخرَين. أيمكن أن تكون عينُها على قلاوون؟ هذا غير مستحيل. بالقياس إليّ قلاوون شاب سويّ لولا أن رقبته قصيرة. وجذعه مستقيم. وكتفاه متينتان... ما هذه الخواطر؟ ! لم ألاحظ على كوثر شيئاً من هذا. تجاهلت طلبي وسافرتْ معنا أختاً لنا. وربما كان هذا أفضل. والآن كيف سيُفهم أمَّنا ما لا أستطيع أنا فهْمه؟..."

– يا راسم أنت خدمت في هذه النواحي مدة أطول. — سأل بيباريس رفيقه مسروراً لخروجه من خواطره المتنافرة: – أما تزال قرية سرجق بعيدة؟

– سنصل إليها حين تصبح الشمس التي تتطلع من وراء هذه الكثبان في كبد السماء.

– إذن لا تدَعونا نتهاون. نربح ما نقطعه من الطريق.

"الشمس تشرق وتغيب، المشرقة وردية، والغاربة حمراء. — يُخيّل لبيباريس أنه يسمع من تحت حوافر الأحصنة التي تخبّ: من يولد يموت، والميت يُبعَث... ماهذه الأفكار؟ أتهم الحر بأنه السبب في هذه الأفكار غير أن الشمس لما تلتهب" — يحثُّ بيباريس الحصان بعقب حذائه فيغير الآخر من طريقة عدوه. ويقلده من هم وراءه. بعد ما قطعوا من الطريق قرابة ثلاث غلوات للحصان [1]

[1] الغلوة في الأصل قدْرُ رمية سهم، أي ما يقارب مئة متر بمقاييسنا.

تراءت له من وراء الكثبان العربةُ التي يحرسها كثير من الجنود. أيمكن أن يكونوا جماعة قلاوون الذين وجههم إلى طريق الشام؟ ولكن ما الذي يأتي بهم إلى هنا؟ والذين رافقوا عربة كوثر عدد قليل. ومن يجرون وراءهم أكثرُ من مئة.

عرف بيباريس صاحب العربة من لون المظلة المائل إلى الحمرة ومن خيوط الذهب والفضة المطرزة بهما: شجرة الدر زوجة الأمير الصالح. وعدد من الفرسان من أتباع قاهر الذين اعترضوهم، والفرسان الذين وراء بيباريس تعارفوا كلُّهم. حيا بيباريس قاهر بحركة يد سريعة، وأسرع إلى حيث تجلس شجرة الدر في العربة. استغرب وجود أمه مرجانة إلى جانبها ولكنه أخفى استغرابه، وحياهما وهو يترجل من على الحصان واضعاً يده اليمنى على جانب صدره الأيسر.

– ما فعلوه بأميرنا الصالح، نظيرِ الشمس، أمرٌ معيب أيتها السيدة الجليلة. إهانته إهانة لنا.

– حياك الله يا بيبرس، لا أمل لنا غيركم. — قالت شجرة الدر، وأضافت بصوت ألطف وأميلَ للعتاب: – لم أتوقع قطُّ أن يتصرف أهل الأمير الصالح كما فعلوا. لا نعرف إن كان من نذهب إليه ما يزال حياً.

– لا تقولي هذا أيتها السيدة الجليلة — قالت مرجانة بلهفة، ثم لمست يد شجرة الدر بلطف: – الله أملُنا، سيتفهمنا ويشملُنا برحمته.

– نعم، صحيح. إن شاء الله ينظر إلينا بعين الرضا ويحمينا. وبعد الله سبحانه أضع أملي في بيبرس وأيبك وأقطاي وقاهر. وأنت يا مرجانة أشكرك على مساندتك لي في ساعة الشدة.

– وأنا راضٍ عن أمنا من هذه الناحية يا سيدتنا الجليلة. وبذريعة مقبولة استدار بيباريس بسرعة إلى الجانب الآخر من العربة وقبّل يد أمه، ولاطفها وهو يضم رأسها إلى صدره: – حسناً فعلتِ يا أمي بأن لم تتركي السيدة الجليلة وحدها.

– لو لم أفعل هذا يا ولدي ما كان والدك المرحوم ليرضى عني – أجابت مرجانة وسألت عما يشغل بالها: – ما أخبار رحلتكم؟

– كل شيء على ما يرام... من ذهبنا إليها، أختنا، كلّفتُ قلاوون أن يوصلها إلى بيتنا، ونحن اتجهنا إلى هنا.

– هل قلت أختي؟ – نظرت مرجانة في وجه ابنها عاجزة عن تفسير ما سمعت. ورجعت فسألت: – أليست من كانت معك في السفينة؟

– كانت معي في السفينة ولكن... لاحقاً... في وقت آخر... – ركب بيباريس بسرعة.

سرجق المتناثرة في الوادي شبه المخضر قرية لا صغيرة ولا كبيرة، لا تتسع لجيش المماليك. ومن جميع الجهات، على المرتفعات المحيطة بها تنتصب خيام الجنود وتمتلئ بهم وبالخيول. وإن نظرت إلى الجهة التي ترتفع منها الشمس رأيت البيوت المبنية من الحجر الأبيض تلتهب في حر الصيف. ويصطدم الجانب الأيمن للقرية بالمرتفع. وإن نظرت من خلال الشمس الملتهبة قليلاً يُخيَّل إليك أن مئذنة الجامع تتمايل في لهيب الحر.

انتعش قلب شجرة الدر من الأخبار التي جلبها القادمون من الكرك.

– الصالح على قيد الحياة. وفي سجن ناصر داود، بانتظار من سيأتونه من القاهرة. باب القلعة مغلق. يفتشون الداخل والخارج. وعندهم خبر بقدوم الجيش المملوكي التابع للأمير السجين عندهم.

– هل كل من في القلعة أصدقاء لناصر داود؟ – سألت شجرة الدر أيبك بصعوبة، كاظمة غيظها، ودون انتظار الجواب أتبعته بسؤال آخر: – هل قابلتم إسماعيل خال الأمير الصالح بشأن هذا الموضوع؟

– إسماعيل هو السبب في ما حدث لأميرنا بديلِ الشمس يا سيدتنا الجليلة. وعلمْنا أن مرسلي السلطان الكامل القادمين من القاهرة سيصلون بين اليوم والغد، ولذا سأكلف أقطاي باستقبالهم.

– اغفري لي أيتها السيدة الجليلة، تكليفك أقطاي باستقبال إسماعيل الخبيث يا أيبك أوافقك عليه — تدخل بيباريس في الحديث رغماً عنه،– ولكن إن انتظرْنا الليلة التي أمامنا أتكون لطيفة أم حارة فنحن نضرّ أنفسنا بأنفسنا.

– أسمعك إن كنت تعرف المخرج من مهمتنا – نظر المقاتل الذي أثنَوا عليه أيبك إلى بيباريس القائد الحديث للجيش نظرة تخلو من الخبث والسخرية.

– الآن سنهاجم مقر احتجاز أميرنا — حسم بيباريس الموضوع كضربة سيف.

– صحيح — وافقته شجرة الدر باختصار أكثر.

انطلق في اللحظة نفسها الجيشُ الذي يقوده أيبك مغطياً بالغبار قرية سرجق. وانطلق بعده قاذفو اللهب ومحطمو الجدران. وتَدافَعَ حملة السلالم الطويلة كلٌّ بأربعة فرسان.

شجرة الدر ومرجانة كانتا تتابعان بعينيهما الفُرسانَ الذين يبتعدون، وتدعوان إلى الله : "يا إلهي انظر إلينا بعين العطف. وانصرنا على من يعادوننا، واجعلنا نعثر على غائبنا".

لم يتصدّ مشاة ناصر الدين للفرسان المماليك. وقفوا مدة كأنهم لا يعرفون ما سيفعلون. ثم حبسوا أنفسهم في القلعة بناء على أوامر قادتهم. وفي منتهى السرعة حاصر جيش أيبك القاعة، وجرّ الجنود محطمات الأسوار إلى الباب.

– كنت شجاعاً في حضرة السيدة الجليلة شجرة الدر؛ قل الآن ما العمل؟ قال قاهر بعد وقفة لبيبرس.

– إن كنتَ تظنني عاجزاً يا قاهر فأنت مخطئ – قال بيبرس لمن سخر منه – ولكن إن كنت تشعر بالملل أخبرتك ماذا تفعل: انصب السلم على الجدار وتسلقْ شاهراً سيفك!

– لو علّمتني ما سأفعل لتسلقتُ وراءك إن كنتَ شجاعاً.

– هل في عدم إتقانك ما دُرِّبتَ عليه شجاعة؟

– لا تتشاجرا في ساحة المعركة ! – لم يقبل القائد أيبك نقاش المقاتلَين.

– نعبّر عن آرائنا يا قائد المئة ولا نتشاجر. – ابتسم بيباريس ابتسامة خفيفة كأن كلامه خالٍ من الخبث.

– إن كان الأمر هكذا فلا بأس، ولكن الأفضل أن نتشاور في ما يجب أن نفعله. أنباشر احتلال القلعة؟

– ليقلْ هذا ! – عبّر قاهر عن استخفاف ببيباريس.

– كفى ! – قال راسم، ووافقه تانقز.

– سأقول ! – وجّه بيباريس الكلام إلى من كان يتحداه، قاهر، ثم إلى الآخرين: إن وافقتموني فلن أشير عليكم بالهجوم على القلعة التي يأسرون أميرنا الصالح فيها. سنتأكد عن طريق المراسلات من سبب احتجازهم له. وإلى وقتها أتوقع أن يُحضر أقطايُ إسماعيلَ صاحبَ الفتنة ورفاقَه إلى هنا. وإن نجحت الخطة فسنبادل إسماعيل بأميرنا. ووقتها يمكننا أن نحرق قلعتهم.

– هذا يتعلق بأوامر الأمير الصالح. – أيّد أيبك القائد بيباريس مصححاً بعض الأمور. وشرع في مراسلات السلام.

كُلِّف راسم بكتابة رسالة المفاوضة التي سيرمون بها إلى الناصر داود، بإملاء أيبك وتأييد بيباريس. ولم تكن الرسالة طويلة، بل أُكتُفي ببضع كلمات.

– اقرأ ما كتبت ! – أمر أيبك راسم.

"إلى من نسي الله ولطّخ عالَم الإسلام ناصر داود ــ يقرأ راسم ما أملي عليه — نخبرك، إن لم تكن أعمى، أننا حشدنا حول القلعة فرسان أميرنا الشمس المنيرة الصالح الذي استدرجته إليك بخديعة أسرية زاعماً اشتياقك إليه. ننتظر جواب رسالتنا إلى وقت الظهيرة. فإن لم تطلق سراح أميرنا إلى ذلك الوقت دمّرنا قلعتك، وعلى بابها علّقنا رأسك"

– اكتب تحتها: أيبك، أقطاي، بيبرس، قلاوون، تانقز، راسم، جلات، قاهر.

— اختتم بيبرس ما أنصت إليه. — اربطوها بالسهم واقذفوها إلى وراء الباب.

– وهل نكتب اسم قلاوون وهو لم يأت معنا إلى هنا؟ – اعترض قاهر المستاء من ورود اسمه في ذيل قائمة قادة الجيش. — أنتَ من كان معه في زفّة العروس.

– ها هو قد وصل ولو كان معي. — قال بيباريس دون ضغينة، وأشار إلى قلاوون الذي كان يتقدم الفرسان الذين أحضروا شجرة الدر.

خرجت شجرة الدر فوراً من العربة قبل أن يهب أحد لمساعدتها. وتبعتها مرجانة.

– ما الأخبار يا أيبك؟ – سألت شجرة الدر التي لها مظهر المحارِبة بملابسها باستثناء الخوذة الحديدية والسيف، مستعدةً لسماع أسوأ الأخبار وأحسنها.

– مَن لحقْنا بهم لم يجابهونا، بل التجؤوا إلى قلعتهم أيتها السيدة الجليلة.

– أعرف هذا، وأراه — قالت باختصار – ماذا تنوون؟

– سننتظر الرسالة التي بعثنا بها لإطلاق سراح أميرنا نظير الشمس إلى الظهر يا سيدتنا.

– هذا الموضوع لا يتحمل المماطلة يا أيبك.

– أفهم يا سيدتنا الجليلة. حين يصبح أميرُنا حراً بين أيدينا سنتصرف مع القلعة بأوامره.

– وإن لم يسلّموكم الأمير؟

– فكرنا في طريقة تسليمه لنا يا سيدتنا – ساهم بيباريس في النقاش – إن كان هذا الذي نسي الله يحب والده إسماعيل فسيسلم أميرنا القائدَ الأعلى للجيش حاملاً معه مروحةً يهوّي بها على أميرنا.

– وأين هذا الذي تتكلم عليه؟

– يحمله إلينا أقطاي الذي قطع الطريق على هذا المجرم – أجاب بيباريس شجرة الدر، ونظر إلى أيبك يريد أن يقول إنه لم يخطئ في الحديث.

– نعم، نعم. – أيد أيبك كلام القائد الأصغر، واختتم معتقداً أن بيبرس يتسرع أحياناً في تقديم ما يحب حدوثه: – ننتظر قدوم أقطاي ريثما يجيب هؤلاء على رسالتنا التفاوضية. وإلى حينها ليتك استرحت في الخيمة التي نصبناها لكما يا سيدتنا. الشمس حارقة. ثم مَن يعرف ما يمكن أن يتصرف به هؤلاء أسفل سور قلعتهم، وقوفك هنا خطر عليك.

– جئت إلى هنا لأشارك زوجي الصالح أزمته وليس للاستراحة. – قالت شجرة الدر، ثم غيرت كلامها لأيبك متذكّرة مرجانة.– تعالي يا مرجانة، نطيع ما يأمروننا به!

في المهلة المحددة للجواب أمر ناصر داود بقذف الرسالة من القلعة: "إن قررتم أن تتصرفوا معنا هكذا فما يتبع هذه الرسالة هو رأس أميركم"

وقبل أن يُتاح لأيبك إطْلاعُ القادة على جواب ناصر داود رفع رأسه فجاة حين سمع صرخة من رأى أقطاي قادماً.

أنزل الفرسان القادمون عدة رجال مكتَّفين من ظهور أحصنتهم. وأركعوا داود إسماعيل على ركبتيه أمام أيبك. وفي اللحظة نفسها حضرت شجرة الدر، ووجهت الكلام إليه:

– كنت أعدك من البشر، ولكنك كشفت عن أنك لست كذلك.

– هل أنت هذه يا كَتَّتَنا – سأل إسماعيل كأنه مستغربٌ ما يرى – وأنت أيضاً هنا؟

– هنا لأن العار الذي ألحقته بنا جاء بي – أنهِضوا هذا ! لا نريد أن نجاريه.

– لا يا سيدتنا، لن نلبي طلبك – لم يقبل أيبك، وفسر موقفه بسرعة: – ليرَ ناصر داود الذي حبس نفسه في القلعة إسماعيلَ صاحب الفتنة راكعاً على ركبتيه أمامك؛ أتسمع يا ناصر داود؟ – صاح أيبك باتجاه باب القلعة. – سنقابل ما كتبته في جوابك برأس هذا.

– أي رأس تتكلمون في شأنه؟ – استنفر الشك الذي كان لدى إسماعيل خوفه الآن.

– خذْ واقرأ – مدّ أيبك الورقة إلى أمام من يجلس مقابله – ما فيها.

– أنهِضوني ودعوني أتكلم إلى هؤلاء – توسل إسماعيل.

– لا تلبّوا طلب مَن في قلبه كلُّ هذه القذارة – قاطعت شجرة الدر حاقدة الرجل الراكع أمامها وانصرفت عنه.

– أديروا وجهه نحو الباب – ما إن أمر بيباريس حتى أسرع فارسان ووجّهاه كما طلب دون أن يغيرا مكانه. –كلّم الآن ابنك!

– أيُّ عار يا داود ارتكبته بحق ابن خالك مستغلاً غيابي! – الآن حالاً، وأمام عيني، أوصل الأمير الصالح إلى هنا، ولا تدعوا من حوّلتموهم إلى أعداء لي يهينوني.

– لا تصدّقوه! – لم يتمالك نفسَه أحد مرسلي السلطان الذين يأتي بهم إسماعيل من القاهرة – لا يقول الحقيقة. كان يأتي بنا إلى هنا ليرسل الأمير

الصالح محمولاً سراً إلى سلطان مصر العادل. كان ينوي أن يبقى هو في الكرك ويولّيَ ناصر داود إمارة الشام.

نهض إسماعيل، وما إن حُرِّر من الحبل الذي كان قُيِّد به حتى انفتح الباب الكبير وخرج منه الأمير الصالح محاطاً بفرسانه المماليك. ودون أن يعبأ بإسماعيل الذي كانوا يُدخلونه القلعة تجنّبه، وترجّل تحيةً لمستقبليه المماليك. وبعد أن صافحهم بدءاً بأيبك وبيباريس، وانتهاء براسم، قال للمرأتين البعيدتين:– كان قلبي يحدّثني أنك هنا يا شجرة الدر. وأنت أيضاً يا مرجانة. ما كان صديقي أيداقين بندقدار — ليفتح الله له باب الجنة — سيقوم به لأجلي فعلته أنتِ وبيبرس. ورافقتما مماليكي الذين لم يتخلَّوا عني. أنا راضٍ عنكم يا قادة جيشي لعدم سفك دم الطرفين من أجلي. لا شأن لنا بالكرك التي لعنها الله. إن كان أقربائي إسماعيل وداود سيفهمون كلامي فقد عرفوا أنهم سيظلون يدفعون الثمن طوال عمرهم. امضوا، اركبوا خيولكم.

******

مضت عدة سنين وقد انتهى الصالح وداود من علاقات القربى. حتى لو كانت طرقهم تتقاطع أحياناً فقد كانوا يتجاوز بعضهم بعضاً كأنهم يعرفون بعضهم ولا يعرفون.

ولكن وجب على الطرفين في عام 1240 أن يلتقيا، بسببهم أم بسبب غيرهم، في القدس. كانا اتفقا على أن يسلما مصر للصالح، ويوكلا إمارة سوريا للناصر داود. غير أن المماليك ثاروا في مصر في العام نفسه، وأطاحوا بالسلطان الكامل، ونصبوا مكانه الصالح.

وقبل أن يمضي عام على هذه الأحداث أرسل الصالحُ الجيش الذي كلف بيبرس بقيادته إلى الكرك لقتال إسماعيل وولده داود اللذين تحالفا مع الفرنجة

الصليبيين، فهزمهما شر هزيمة، وبدد الجيش المعادي في ضواحي يافا. وفي غزة أبان بيبرس عن قائد حازم: هزم الصليبيين واحتل القدس.

VII

ربما لأجل كوثر أو شبيهها قالوا "عضّه الكلب رغم أنه راكبٌ جملاً"
ليس الموضوع أن جفاءً أو ارتياباً دخل بين مرجانة وكوثر من أول لقاء بينهما. من المعيب أن تتوقع بينهما مثل هذا، واللهُ لن يقبله منك. حقاً تحدث في العالم أمور كثيرة، ويحدث بين الأقرباء جفاء، ويموتون على عداء. وقد حدث هذا للناصر داود والأمير الصالح قبل سنوات.
ما علاقة مرجانة وكوثر بما جرى بين الطرفين؟ العالم مترابط كأنه سلسلة في حلقات. حين تشرق الشمس في المشرق وليس الذين يفرحون به ويحزنون قليلين يكون الليل طغى على المغرب، ثم يفارق هذا الليلُ الأرضَ أيضاً مع راحة وقلق فتشرق شمس نهار جديد. ما الدنيا بالنسبة إلى مرجانة الآن؟ أيكون ابنها الوحيد الذي رحل قبل أوانه عنها وحلّ محله فجأة بيباريس أم بسبب الرجل الذي رحل عنها ظلت تنتظر الكنة فتبنّت كوثر وسْطَ دهشةِ من يراها وعدم تصديق من يسمع بها، ابنةً لها؟ الاثنان — الابن والابنة — ليسا من رحِمها، لن تستطيع أن تلوم أياً منهما لأنه تسبب في سهرها طوال ليالٍ كثيرة كسائر الأمهات. والاثنان ولدان لم تلدهما، جاءا من أرض بعيدة من وراء البحار، من أرض الأديغة. ويمكن لبيباريس وكوثر أن يقولا الكلام نفسه على مرجانة. غير أن أياً من الثلاثة لم تخطر له مثل هذه الفكرة. من المستبعَد أن يكونوا لا يتكلمون على أبناء قومهم. ولكن، ولو أن كل إنسان يعيش في ظروف البلاد التي وجد نفسه فيها، فالعلاقات اللطيفة بينهم تنمو كل يوم. وما طبيعة العلاقة بين الأم وابنتها؟ مرجانة وكوثر من هذا النوع من الناس منذ تعانقا عناقاً نسائياً حاراً. ولو اضطرت كوثر أن تعيش هكذا في الأسرة التي وقعت فيها بعد مأساتها أيام طفولتها، ومع أن مرجانة نشأت غنية تجد ما

تتمنى، ودللها زوجها حتى فارق الحياة، فإنها لم تُبدِ عن أي بطَرٍ، تعيش حياتها حاملة معها إنسانيتها — شفقتها، وصدقها — لُطفها، دون أن تتعب منها.

– واليوم أيضاً لماذا استيقظت باكراً جداً يا ابنتي ! — لاطفت مرجانة التي ما كانت تستطيع إمرار الخيط الذهبي في خرم الإبرة كوثر التي دلفت إليها. ثم لامت نفسها:– لا أعرف إن أُصِبتُ بنقص في الرؤية؛ لا أستطيع توجيه الخيط إلى ثقب الإبرة. حقاً هل الستون عمر قليل. هنيئاً لشجرة الدر، تصغرني بعشرين عاماً.

– لا تقولي هذا يا أمي، – عانقت كوثر مرجانة – انظرا أنتِ وشجرة الدر معاً في المرآة تعرفي من منكما أسنُّ.

– أتواسينني بهذا الكلام؟ – كانت مرجانة مسرورة لما قالته لها الفتاة السمراء الصبوح، غير أنها فسّرت لها عن طريق المزاح: – ستقول لك يا ابنتي: لا تنظري إليّ بعينيك أنت، اجعلي غيرك ينظر.

– لن تقول لك شجرة الدر إنك أبشع منها إن لم تقل العكس.

– ارفعي يا حلوتي ستارة النافذة ودعي نور الشمس يدخل؛ لا أستطيع توجيه طرف الخيط إلى خرم الإبرة. — وجدت مرجانة حجة للحديث في جمالها وجمال شجرة الدر.

– هاتي يا أمي أنا أمرره لك.

– لا، إن لم أقدر على هذا اليوم فلن أقدر عليه غداً.– أمرّت مرجانة الآن طرف الخيط في خرم الإبرة ثم امتدحت نفسها: – لا يحتاج الأمر إلى أكثر من هذا — وبعدما أعادت العملية عدة مرات فطرزت الكتابة صرّحت بما يقلقها:

– لا تقولي في حضرة أي إنسان ماسمعتُ بشأن شجرة الدر زوجة الصالح سلطان مصر... لا يتكلمون، ليس على زوجات الرؤساء أو أولادهم أو

قضاياهم الأسرية، بل حتى على كلابهم وأحصنتهم وجِمالهم. لماذا تضحكين يا ابنتي؟

– ذكّرتِني بتوران شاه.

– لا تسخري من ابن سلطان مصر! – استعجلت مرجانة وهي تغرز الإبرة في القماش – اذكريه بالخير!

– دعْكِ من هذا القبيح! ... – أبعدت كوثر رأسها الرفيع الجميل.

– ما الأمر؟ – رفعت مرجانة حاجبيها المزججين مستغربة ما تسمع، ثم أجابت بنفسها على سؤالها دون شعور بالحرج: – عشتما إلى الآن وأنتما تشتاقان إن لم تتواصلا.

– يا أمي – توهجت وجنتا كوثر – ثم سخرت ممن ذُكر لها اسمه تموه موقفها: – كان الأفضل أن يعود إلى القاهرة حيث والده من أن يشتاق إليّ.

– أهذا هو رأيُك؟ نظرت مرجانة مجدداً إلى ابنتها بطرف عينها مع شيء من الرياء.

– نعم أقول، لأنه كان توسل إليّ قبل أيام أن نعود معاً إلى مصر... كأن رحيل هؤلاء متعلق فينا... قاهر الذي ضموه إليه مدرباً للجيش هو من يلعب بعقله. ضحكت مرجانة في سرها، واستأنفت تطريزها. وهاجمتها الهواجس التي كانت تخشاها: "الآن فهمت لماذا شجرة الدر تروح وتغدو إلى زوجها خلال السنوات الثلاث الماضية على طريق القاهرة. وكانت اقترحت عليّ أمس أن نعود معاً إلى مصر قبل أن يحبسنا الحر في الشام. وعلى ما يبدو فليس منذ أمس ولا أول من أمس فقط يقول توران شاه لكوثر الكلام نفسه. ولكن ما لا أعرفه هو علاقة قاهر بهذا الموضوع. أيكون قاهر بين شجرة الدر وابنها توران شاه؟ على هذا أليس صحيحاً ما صدر من كلام من الخادمة التي "شنقت نفسها" بشأن قاهر

صحيحاً؟ الله حامينا! لم أعرف أن شجرة الدر لها هذه الرغبة في الرجال. هذا طبيعي حين يقيم معك في البيت رجل وسيم مثل قاهر وأنتِ وحيدة، ولستِ وحيدة، بعيدة عن الزوج في مدينة أخرى... يا إلهي! اغفر لي إن اتهمت أحداً بما ليس من ذنبه. كنت لم أقبل من المرحوم أيداقين أيضاً ولكن كان لمّح به إليّ مرة غير أني لن أسمح لمثل هذا الخاطر الدنيء أن يغزو ذهني فإني أرملة منذ سنوات طويلة. لماذا وقفت إلى الآن إلى جانب شجرة الدر المذنبة؟ ربما قيل في غيابي الكثير، ويقال الآن. كان ما يلجمني هو الصداقة التي بين أيداقين والصالح. والآن سأستمر بسبب بيبرس"

– أمي، انظري لحظة كيف بدأت هذا التطريز — قرّبت كوثر قطعة القماش المائلة إلى الحمرة إلى أمها ذريعةً لتعرف سبب صيامها عن الكلام. وسألتها: أيكفي حجم الحرف؟

– ما هذا؟ – مع أن مرجانة كانت تشك في أن القطعة هي غطاء حصان فلم تستطع إلا أن تسأل كوثر، ودون انتظار الجواب سألت عن الحرف التالي لما تطرزه الآن: – بدأت بحرف التاء، هذا جميل ولكن ما الكلمة التي تتضمنه؟

– مهلاً أمي، مهلاً — اختطفت كوثر قطعة القماش من يد مرجانة — بعد أن أنهي التطريز فحسب سأخبرك. أرسلها قاهر إليّ أمس باسم من نأتي على ذكره الآن.

– هكذا ! — مع أن مرجانة جفلت فقد موهت انفعالها بعتاب ناعم:

– غريب أنك لم تخبريني إلى الآن !

_ ألم أقل لك بعد انتهائي من التطريز يا أمي؟

– هل بعد أن يحدث ما يحدث؟ – ارتفع صوت استياء الأم رغماً عنها. "لم تكن هذه في العام الماضي ولا الذي قبله هكذا... مرة تصف توران شاه

بالقبح، وأُخرى تطرز له اسمه على غطاء حصان. لا تخطئي يا ابنتي! ليس كل ما يلمع ذهباً ولا فضة. لن يغفر لك ابن سلطان مصر في ليلتك الأولى العارَ الذي ألحقوه بك في السفينة. ولكن إذا ثبت أن بيبرس وقلاوون على معرفة بالأمر وأنا لا أعرف شيئاً؟ لن تفعل ابنتي هذا الخداع "

– لا تقولي هذا يا أمي ! — انفجر بكاء كوثر وهوت على ركبتيها أمام أمها. وها هي تبكي في حضنها: – كأنك تظنين أني سأتصرف دون علمك... لا أعرف ماذا حل بي. قاهر لا يتركني.

– وماذا سيجري لك يا ابنتي؟ ! —جعلت مرجانةُ كوثرَ ترفع رأسها ملاطِفة لها. وقالت لها وقد ضمّتها إلى صدرها: – لم يحدث لك ما لم يحدث لمن حان وقت زواجهن، كفي عن البكاء ظهر لك ما يطرّي قلبك ويفتته، في الوقت الذي كنت أفرح معتبرة إياك صلبة قوية.– تكسّر صوت مرجانة أيضاً ولكن السؤال الذي طرأ صحّاها: – لماذا يلاحقك قاهر؟ قولي لي الآن حالاً! سأضع شجرة الدر في مأزق لن تخرج منه! — صرخت مرجانة وقد نسيت العار الذي بين السيدة والمملوك: – أيكون يلاحقك لأنه يشك في سرّك؟ ... أخواك بيبرس وقلاوون فقط هما من يعرفان السر. وهما كالحجر، صلبان وأصمّان. وإن كان السؤال عني فإنك لم تقولي لي شيئاً ولم أسمع. والتاجر شرقاي العجوز لم يطأ ديارنا منذ زمن بعيد.

– لعنة الله عليه! — قالت كوثر بصوت قاس وأضافت: – ليس عجوزاً إلى هذا الحد. لن أسكت حتى يسفح بيباريس وقلاوون دمه. وما سألتِ عنه بشأن قاهر لا سرَّ فيه يا أمي. وفكرة الزواج التي خطرت لك بشأن توران شاه لا تبعديها. يقول لي: سأدع أسرتكم كلها تهلك على يدي.

– ألهذا تطرزين له غطاء حصانه باسمه؟ – قالت مرجانة، وردّت على ادعاءات قاهر: – إن خوّفَنا هكذا قاهرٌ صاحبُ اللسان المعسول محسناً إلى السلطان ومغازلاً لابنه فأدعو الله أن يخرب بيته هو على يده. ولكن لا أظنك لهذا السبب بدأت بتطريز هذه القطعة لتوران شاه يا ابنتي. إن كان قلبك يذوب له فلا تكتميني.

– لا أعرف يا أمي كيف أعبّر.

– اعتبري نفسك قلتِ لي وانتهى. — تنهدت مرجانة، ثم خطت في حديثها خطوة وكأنها تحدث نفسها بنفسها: – حقاً لا شيءَ يمتنع على الحب، تفعل لأجله أي شيء. يحدث أن يُنسيك أمك وأباك. لِيحمِنا الله الذي لا إله إلا هو منه. لا أتذكر بيبرس خالفني، وهو المرتدي قبعة، في مثل هذا الموضوع وغيره.

– يا أمي سامحيني، لا تقلقي عليّ لأجل ما لم أستطع أن أبوح به لك خلال نصف سنة. — عانقت كوثر أمها ثانية وقد توهج خداها من المودة والضيق. ما قدمتِه لي أنتِ وبابا البدوي وبيبرس وقلاوون لن أنساه سواء عشت فقيرة أم غنية. لا تطفئي المودة التي نبتت في صدري لأول مرة فأدفأتِ المأساةَ التي حملتها سنوات طويلة. ساندِيني،كلماتك الأمومية العذبة تمنحني القوة.

– نعم يا ابنتي، نعم. لن أعترض طريقك إن عرفت أنك ستكونين سعيدة.

— سألت مرجانةُ الابنةَ التي يرشح من رأسها بخار الضيق، متظاهرة بأنها تنصحها، قائلة في نفسها: ليس وضعُهما كما أتوقع أنا، محاوِلة أن تُنسيها وضعها مع أنها تعرف الاسم الذي ستنطق به: – من هو البدوي يا ابنتي؟ آه صحيح كيف نسيت اسم هذا الرجل الصالح المقيم في بغداد! يسرني أنه لا يُنسيك معروفه. إذن هل بيبرس عارف بنيّتك.

– في نواحينا يا أمي لا تصرّح الفتاة بنيّة الزواج لأخيها الأكبر. أنتِ وحدك من أطلعتُ على شأن زواجي.

" أطلعتِني لأني انتزعته من فمك!... قالت مرجانة الآن لنفسها وغضبها يزداد... – كوثر بالقياس إلى بيبرس فتاة كتوم. من يوم ما دخلتْ بيتي فصرنا أماً وابنةً، عشنا إلى الآن وليس بيننا إلا الخير واللطف، منسية إياي أنها لم تخرج من رحمي، ولكنها أخفت عني الحب الذي لا يُخفى عن الأم. لم يكن بيبرس الذي قلبُه قلب صبيٍّ يكتم أي شيء يخطر له. كان يُطلِعني دائماً على فرحه وحزنه. ومع أنه قائد مملوكي كبير فأنا مستشارته، وأنا من تشاركه التفكير، وإن مزح معي أطلعني على ما في سريرته بطيبته ساخراً من نفسه. أما هذه، فيا حسرتي، قلبها مغلق وإن كان وجهها طلقاً... ألومها، أُلِحّ عليها. ولكن أقليل ما عانته منذ طفولتها؟ ! وبيبرس أيضاً هل صار رجلاً وهم يطعمونه العسل ويربتون على ظهره؟ ما فعلوا بها وهي صبية أنساها إياه من صارت عاشقة له" – انفجرت فطنة مرجانة الأنثوية فجأة. ولكنها لم تستطع إلا أن تلسع كوثر رغم أنها غضبت على نفسها قائلة: يا لمصيبتي ما هذه الخاطرة التي غزت رأسي:

– أتعرفين أن توران شاه أكبر منك ببضع سنوات؟

– أعرف يا أمي.

– وهل تعرف شجرات بنيّتكما؟ [1]– يجب أن تعرف شجرات مادام قاهر داخلاً في موضوعنا.– أجابت كوثر المنتظرة للسؤال وأيدت كلامها: – ولكن هذا ليس من شأننا، لِيُخبر صاحب العلاقة أمه!

[1] يتغير اسم شجرة الدر أو شجر الدر أحياناً كثيرة إلى شجرات.

"اسمع إلى هذا، اسمع ماذا تقول؟ !" مع أن مرجانة غضبت في سرها فقد وجّهت إلى كوثر أقسى سؤال رغم أنها كانت تضغط رأس الابنة إلى صدرها:

– وأن لم يقبل منك توران شاه ما فعلوا بك في السفينة؟

– إن لم يقبل فماذا أفعل؟ – انتزعت كوثر رأسها من صدر أمها بعنف، وقالت لها بعينين لامعتين وقحتين: – سأعود إلى ديارنا وقد اتخذني ابن السلطان زوجة ليوم وليلة.

– إن كان هذا قرارك يا ابنتي فاسمحي لي، أنت وأنا لسنا مشكلة — بدأت مرجانة بصوت متوسل واختتمت بقلب منفعل: – سأقابل شجرات من أجل ألا تُذكَر أسرة المرحوم أيداقين وأخوك بيبرس بسوء.

– لا يا أمي — صرخت كوثر دون وعي، ثم توسلت وكفاها ما تزالان تغلقان شفتيها:– أستحلفك باسم الله الذي حماني حتى الآن ألا تفعلي هذا. أتأمل من الله العلي الذي كان يراني من عليائه وأنا أُغتصَبُ أن يفهمني الآن، ويحميني ليلة افتضاض سري.

– اسكتي يا عديمة الإيمان! استغفري ربك، وادعي إليه! — ارتعبت كوثر من صراخ مرجانة. وحين فرغا من الاستغفار والدعاء أكّدت عليها متابِعةً عتابها القاسي: – لا تتوجهي إلى الله بمثل هذا الكلام السخيف. إن كنا محظوظتين تفهّمَنا ورحِمَنا. كأنك ثبّتِّ على ما أرى موعداً دون استشارتي أنا وبيبرس.

– لم أعِدْ — سألت كوثر التي كانت تهزّ رأسها وإن لم تكن عيناها تطرفان:

– ماذا يا أمي؟ ألا تثقين بي؟ لم أقرر موعداً، وموعدي هو ما أقرره أنا. أتوسل إليك ألا تُقحمي شجرات في موضوعنا.

– كما تريدان — حسمت مرجانة الموضوع وهي التي تكظم غضبها بمشقة:

– إذن لي أنا أيضاً رجاء منك: انتظري وصول بيبرس لأنه سيأتي اليوم أو غداً لاصطحابنا إلى القاهرة، وما مضى كثيره سيمضي قليله. ونحن سنتجهز على نحو أفضل لخطوتك الأولى. ونرسل خبراً إلى البدوي. لن ندعك تُزفّين وحيدة تماماً. ونستدعي قلاوون متجاهلين كونه من قادة الجيش، ونرفقه بك على أنه عرّابٌ لك. اسمعي ما أقول، وحققي لي رجائي – قالت مرجانة بنبرة ألطف، وأضافت إليها في سرِّها: وإلى وقتها ستحمل رياح الخماسين كثيراً من الرمال، وكما تهدأ تلك الرياح سيهدأ قلبك يوماً ما. لا ترمي بنفسك في نار السلطان يا ابنتي، ستعودين وقد أحرقتْكِ.

– اطمئني يا أمي. لا تُلحفي في رجائك إياي! سيجري كل شيء على ما يرام. أنا المسؤولة عن الموضوع. إن لم تحققي لي هذا المطلب الوحيد فستكون أمومتك لي ودلالك حراماً عليّ...

تبيّن أن كوثر أشد دهاء من مرجانة: من بعد الوعد الذي قطعته نحو أمها بتأجيل الزواج وإخبار بيبرس بثلاثة أيام ، تزوجت في مساء الجمعة من توران شاه ابن السلطان الصالح سلطان مصر، ناسية إن كانت تُذنِب بهذا أم لا.

VIII

ما إن استلم الصالح سلطنة مصر حتى باشر بحل ثلاث قضايا: تغليب العنصر الأديغي في جيشه المملوكي، وبناء القلعة التي سيحتفظ فيها بهم، وإعادة توحيد مصر التي مزقها السلطانان الكامل والعادل.

لم يكن حلُّ المسألتين الأُولَيين صعباً إن كنت تملك المال وشيئاً من الحيوية. وقد أنجز الصالح في هذين الميدانين الكثير في السنة التي تبوّأ السلطنة فيها. وأضاف إلى ثلاثة الآلاف من الفرسان الذين جاء بهم من الشام مِثلَهم في القاهرة. يتجول مندوبوه في أسواق النخاسة، وعلى شاطئ البحر المتوسط، ليلاً ونهاراً. ويضمّ إليه الأمراء الذين عندهم مماليك من الأديغة أو يشتري منهم المحاربين. ويستعين بما يملك أمثال بيباريس وقلاوون من قادة الجيش في هذا الشأن. وإن نقصه المال كان يزيد الضرائب بحجج مختلفة، ويسلب ممن لا يدفعها. ويجبي مزيداً من الضرائب من تجار طريق الحرير، من الهند شرقاً إلى أوربا غرباً، بمزيد من اللطف دون أن يتسبب في إرعابهم. ولم تكن أعمال قطع الطريق التي تجري ضدهم بأمره قليلة. وإذا تصرف هكذا ظهر أمام البلاد والتجار كمن يحمي نفسه، وفي الوقت نفسِه يغرّم الفلاحين الذين لا ذنْبَ لهم والبدو، ويعاقبهم.- يُري التجار رؤوس المعدمين معلقة على جوانب الطرق وفي أواسط المدن، ويعيد إليهم شيئاً مما سُلبِ منهم.

وحين تكون أموال الدولة قليلة وتنفَد منه كان يرسل الجنود إلى الأراضي التي يحتلها الإفرنج الصليبيون، الأعداء الأزليون، فينهبونها. ومن هذه الحروب النهبية الخاطفة يغتني هو والبلاد ومماليكه الذين ينجون من الحرب. ويزيد في آمال المحاربين ومهاراتهم القتالية، ويُظِلُّ الأعداء بالرعب منهم.

وفيما السلطان يتأمل قلعة الروضة التي أنشأها على الجزيرة التي تحمل الاسم نفسه، والتي يحتفظ فيها بجيش المماليك، مسروراً لِما أنجز خلال نصف سنة، ويتمشى، ويتحادث مع القادة المحيطين به، ويلوّح بالسوط المطرز بالذهب والفضة شرقاً وغرباً، يقول لهم:

– هذان الاتجاهان – الشرق والغرب – هما مصدر خوف العرب، والذي يأتي كل سنة. إن لم نحمِ أنفُسَنا بأنفسنا، إن لم نحم الإسلام الذي أنزله الله العزيز العلي علينا فلا أملَ لنا في أي حامٍ. ماذا يُقال يا بيبرس في شأن من يجد نفسه في مثل هذا الموضع، في نواحيكم؟

– إن كانت يدُكَ مدهِنة فامسح بها رأسك. – لم يدع بيباريس السلطان ينتظره.

– أسمعتَ يا أيبك ما يقول الأديغة؟ – ولم ينتظر جواب القائد الأعلى للجيش فأكمل: – ربما كان لقومك التركمان شبيهُ هذا، غير أني أظنني أحدِسُ ما في قلبك هذه اللحظة.

– ما في قلبي وما في قلبك واحد، يامَن قدّمه الله أمامنا، يا بديل الشمس.

– قال أيبك متمهلاً يكسب الوقت – مهمتنا حماية بلاد العرب والإسلام.

– إن كان هذا رأيَك فقد شهدت على كلامي الصريح لكم. ولكن لا أعرف ما سيكون رأيُكم في الموضوع الذي يشغلني في السنوات الماضية الكثيرة، سأُطلعكم عليه – قال السلطان الصالح مبتسماً ابتسامة خفيفة، وتعمّق في الموضوع: – أكثر الناس الذين التزموا بحماية بلاد العرب ليسوا من العرب. أنا كردي، وأنت تركماني، وبيبرس وقلاوون أديغة، والآلاف من محاربينا المماليك من هذه القوميات. وإن سألت عن أقطاي فهو قبجاق – نغوي، يبقى راسم وقاهر عربيين.

– وعماد أيضاً — أضاف قلاوون إلى من عدّدهم السلطان.

– صحيح هو عربي، ولكنه إمام جيشنا. هو سفير الجميع لأنه موفد الله. وقاهر؟ نسيتموه! لهذا يقولون: البعيد عن العين سهلٌ نسيانه. وهذا عربي بدوي شجاع، من الذين رشّحتُهم قبل أيام لقيادة المئة. يربي ابني توران شاه في الشام. وسينضمُّ إلينا حين آتي بأسرتي في زيارة الخريف إلى القاهرة. ولذا فهمتم ما يُهمني وإن لم أقله صراحةً. العرب الذين نمسك بزمام حكم بلادهم لا يخلُون من شجاعة ومن فِطنة. يجب أن نختار من بينهم قادة ونضمهم إلينا. وإن لم نعمل هكذا فلن يرضى عنا اللهُ الذي أنزل علينا دينه، ورسولُه مُحَمَّد.

كان ما في ذهن بيباريس وما يُهمُّه شيئاً أخر ولو أنه كان يُصغي إلى أقوال سلطان مصر. مع أنه قضى خمس عشرة سنة من سنوات عمره السبع والعشرين في بلاد الغربة، ووجد فيها أباً وأماً، وأصدقاء ومعارف، وسفك فيها دمه ودم غيره، وأحب فيها الفتاة العربية منيرة التي سيتزوجها في الخريف، فما إن يُغمض عينيه حتى تنتصب أمام مخيلته بلاد الأديغة.

أقوال السلطان هي التي وضعت بيباريس الآن في هذا الموقف: "نحن لم نحتلّ أرض أي بلد، لا يتهمْنا أحدٌ بما لم نفعله بإرادتنا. وأنا كافحت في هذه البلاد كثيراً. ولحسن حظي وقعت بين يدي أيداقين بابا ومرجانة أمي. ولولاهما لضِعت في مكان لا يجدون فيه جثتي ولا عظامي. صحيح أنك لم تخطئ بحق من ذكرت أسماءهم، كلهم، وأنت في مقدمتهم، أغراب. وماذا ينتظرنا في المستقبل؟ الشرق أحمر دائماً كأنه مطلي بالدم، وجِهتُنا، الغرب، بين الأحمر والأسود. ما لم يكن يفارق نواظرنا، في القريب والبعيد، يأتي عليه الليل في أفكارنا الآن متمهلاً، مذوّباً قلوبنا، كل يوم. وفي هذا الشأن لا يختلف عني

قلاوون وكوثر ومن أعرفهم من الأديغة المماليك. جميعهم رُبُّوا في بلاد غريبة لا أمل لهم فيها... يكفي ما فعلتْه كوثر بنا!"

الخبر الذي وصلَنا اليوم – زواج توران شاه – نظر قلاوون إلى بيباريس مسوّغاً عدم إخبار والد العريس. وعاد بيباريس فنظر إلى قلاوون بما يعني: إن كنت تريد البشارة فأرسل له خبراً. ولم يكف هذا بل أتبعه بنظرة استنكار. ولكن قلاوون همس لصديقه بالأديغية دون أن يتوقف عند نظراته:

– أرسل إليه قبل أن يسبقنا غيرُنا.

–أتريدني أن أفرح لأن أختنا التي لا تستشير أحداً تزوجت من ابنك؟ – أجاب بيباريس باللغة نفسها، ولكن بهمسٍ أعلى من همسِ صديقه.

– ماذا تتحدثان؟ أهناك مايُقلِقكما؟ – سأل راسم المفتوح الأذنين دائماً.

– نقول: يوم لطيف وقلعة جميلة – توجه بيباريس إلى حيث يقف أيبك ولو أنه أجاب راسم بلغة سخرية ومزاح خفية.

القلعة التي بُنيتْ على جزيرة الروضة لم يكن أيبك ولا بيباريس ولا قلاوون ولا غيرهم من القادة يرونها لأول مرة. ومع أن بيوتهم كانت في القاهرة فالقلعة كانت بيتهم ومقر عملهم وتدريبهم. وبالقياس إلى قلاوون الذي تزوج في هذا الصيف من أخت زوجة القائد أقطاي فإن بيباريس العازب لم يكن يفارق القلعة ليلاً أو نهاراً. كان يخرج في اليوم الذي يجمع فيه السلطان الصالح قادة جيشه مرتين في الشهر. وأحياناً يزور، لمتابعة أخبار الخدم وتلبية طلباتهم، البيتَ الذي اشتراه وأبوه أيداقين على قيد الحياة. ولكن الحق يُقال فإن ماكان يُخرج بيباريس من الجزيرة هو رغبته في رؤية البيت المزوَّد بالأثاث النظيف استباقاً للزواج.

بقي السلطان في القلعة حتى الظهيرة. — ولم يترك أحداً لم يحدّثه أو لم يحتكّ به. واستعرض المناورات التي حُضِّرت له من معارك الفرسان، إلى مبارزات المشاة، ومباريات الرمي بالسهام. وأشركوه في سباق الخيل. وهل يركب سلطان مصر حصاناً ضعيفاً! فحين تسابق هو وأيبك وبيباريس، وسبق دون محاباة قائد جيشه، وجّه إليه مزحة ملتبسة:

– لو أرخيت العنان قليلاً يا بيبرس لسبقتني.

– لا تظلمني يا بديل شمسي، لم أدّخر جهداً.

– وأنا أظن أنك تخليت لي عن السبق خجلاً مني.

– لا، ليس عندي مثل هذه النية. ولو تصرفت هكذا لما رضيتُ عن نفسي، وكنت أهنتُ حصاني.

– حياك الله يا بيبرس. لم أتوقع منك غير هذا. ولم يدخر أيبك أيضاً جهداً. لكني أربأ بقائد جيشي الأعلى أن يركب حصاناً جميلاً لا يُجيد الجري — قال السلطان مازجاً جده بهزله. وعاد فمزح معه —كان وراءنا حتى لَيغيب عن بصرنا إذا التفتنا. أتكون يا أيبك فعلتَ ما لم يفعل بيبرس؟

– إن أردت أن تسمع الحقيقة، يا موفد الله، فقد حدث معي هذا في انطلاقتنا. لم يتراجع أيبك أمام السلطان، ولام نفسه مثمّناً سلوك بيباريس الرجولي. — وعلى قول مماليكنا الأديغة: حين أفلتُّ رأس الحصان لم أستطع الإمساك بذنبه.

– يحدث مثل هذا. ولكن عدم السكوت على الخطأ رجولة. ماذا قلت: حين أفلتَّ رأس الحصان لم تستطع الإمساك بذنبه؟ الأديغة عندهم أقوال مأثورة حكيمة في ما يتعلق بالخيل لأنهم فرسان مهرة. حقاً ونحن نقول: ما لم تفعله اليوم لن تلحق به غداً. يا أقطاي أعط للقائدَين اللذين لم يلحقا بي اليوم

حصانين ممتازين من إسطبلي. من يعرف إذا تسابقنا يوماً فإن سبقاني تحججت بأنهما كانا على حصانيّ، فبرّأت نفسي.

لفت الصوت الصادر من جهة مروّضي الخيول السلطان. وتمثل له الصبيان المماليك الجالسون على جانب السور العالي. وحين رأوا السلطان يتجه إليهم قفزوا هاربين منه. وتوقف السلطان على صوت الصبي الذي كان يبكي:

– لماذا تبكي؟

– أتسمع صوت احتجاج الحصان يا بديل شمسنا؟

– أسمع صوت صهيله.

– يعني هذا أنك لا تفهم شكوى الحصان. – استأنف الصبي بكاءه.

– اسكت يا قبجاق، ألست رجلاً، مملوكاً؟ ! – لام أقطاي الصبي.

– هل أنت قبجاق؟ – سأل السلطانُ الصبيَّ بصوت شفيق.

– لست قبجاق، أنا أديغة – لمعت عينا الصبي.

– خاطبك أقطاي بالقبجاق فظننتك منهم – ابتسم السلطان وكأنه يبرّئ نفسه في وجه الصبي الذي كف عن البكاء.

– قد لا يكون القبجاق اسماً رديئاً – نظر الصبي الآن نحو أقطاي – غير أن اسمي الحقيقي بالأديغية يا موفد الله: بَرَقَتْ.

– لا تنسَ اسمك الأديغي يا برقت. منذ اليوم سأناديك بهذا الاسم. أتسمع يا أقطاي؟ – قال السلطان لبرقت ما يريده تماماً، وأضاف وهو يربت على كتفه:

– الآن فهمت لماذا كنت تشفق على الحصان. ولكن لا تنس أنك لا تستطيع ترويض الحصان الجامح باللين. والحرب التي ندربكم عليها مثلُ هذا: تحاربون، تُقتَلون، تُجرحون، وتعتادون عليها. هذا ترتيب دنيانا يا برقت. – ثم خرج من بين الصبيان بعدما أمر بإعطاء كل صبي قطعة فضية واحدة.

تذكر بيباريس كيف تصرف حين غيروا له اسمه مرة فالتفت إلى الصبي نظرة رضاً، وغمزه بعينه السليمة الزرقاء. ثم وقف إلى جانب أقطاي وسأل:

– متى حصلتَ على الصبي برقت؟

– منذ مدة، وعمره سبع سنوات تقريباً. اشتريناه أنا وقاهر من ميناء الإسكندرية. هل أعجبك؟ والحق أني لست من دفع ثمنه، هو قاهر. ألم تسمع الصبي الثرثار كيف تكلم إلى السلطان. وحين لم يعُد يطيقه ولا يتحمل رؤيته اشتريته منه بثمن بخس جداً.

– وهل هذا هو السبب في تغيير اسمه من الأديغية إلى لغتك القبجاق؟ – لم يُطق بيباريس صبراً – هذا دأبُكما أنت وقاهر لا تطيقان سماع أسماء الأديغة.

– الحصان لا يتعاملون معه بهذا الأسلوب ! – حين رأى السلطان أربعة رجال يصرعون الحصان بالحبل المشدود بينهم ثم يُقيلونه، ويُلهبون ظهره بالسوط، لم يقبل منهم.

قطع بيباريس وأقطاي تواً مراءهما. ورأيا قاهر الذي كان يعدو إلى الإسطبل بكل سرعته:

– خبر سارٌّ يا موفد الله، جئناك به من الشام – قال قاهر مع تحية الاحترام – عندك كنّة. تزوج توران شاه من أخت بيباريس وقلاوون الجميلة كوثر. ليبارك اللهُ لكم فيها! ولْيُسعِدْكم معهما!

– أقلت إن توران شاه تزوج؟! – مع أن السلطان الذي لا عِلم له بالأمر نظر إلى حَمَلة الخبر ساهماً فقد صحا بسرعة من المفاجأة: نعم، نعم، من السعادة أن يسعد ابنك. شكراً لكم. – وفيما هو يصافح مهنئيه من القادة قال لنفسه "على ما يبدو فإن بذرة الخوخ البري تبدأ بالنمو قبل أن تصل إلى الأرض؛ كيف كتمتْ عني شجرات هذا الأمر؟! وعينا قاهر فيهما شيء غريب،

تلمعان في محجريهما... ما فائدة ما أقوله لمن يهنئونني؟ الآن أفهم لماذا لم تكن الأم وابنها يغادران الشام. مهما كانت جميلة فابني تزوج من فتاة غريبة رُبِّيت على عتبة بيت بدوي. أعدائي سيعيرونني كثيراً بالأمر. وسيحزن أقربائي. يا ربي كيف تحملت المسكينة شجرات ما حدث لنا؟ فيما بعد، هذا لاحقاً، حين نجلس وحدنا. قاهر سيُطلِعني على تفصيلات أخرى..." – حين وصلت المصافحة إلى بيباريس قال له باشّاً في وجهه: -لأجل هذا يا بيبرس يُقال عندكم وعندنا: القلب والروح يتعارفان. زاد ما كان بيننا إلى الآن من صدق وتفاهُم. هذا المساء تعالا أنت وقلاوون إليّ. لحظة: انقلوا خبر زواج توران شاه إلى مماليكي بالبوق والطبل. وحين ننقل العرس إلى القاهرة سندعو المدينة كلها. – موّه السلطان حزنه بكلمات مخادعة.

بعد الظهر، حين بقي بيباريس وقلاوون وحدهما غابت الشمس بصعوبة وراء السماء الملونة بالأحمر المُشرَب بالسواد لتعلن موعد اللقاء بالسلطان. وتطرقا إلى موضوعات كثيرة خلال الانتظار. وعلى عادتهما عبرا إلى ما وراء البحرين حيث تركا قلبيهما، ولكنهما رجعا إلى بلاد العرب حيث روحاهما. وطافا في الشام وخرجا منها. وغَزَوَا الكرك قبل سنين، ويافا وغزة، وتذكرا احتلال القدس. وشيئاً فشيئاً وصلا إلى بغداد، وتكلما على استلام كوثر من التاجر البدوي. ولم ينسيا دموع برقت الصبي. ومهما تركا الموضوع ودارا كانا يعودان إلى خبر توران شاه وكوثر وكيفية زواجهما.

– مهما حاول السلطان إخفاء استيائه من الخبر فلا حاجة للسؤال عنه – اختتم قلاوون ما يقلق الاثنين، وتنهد:– ليتنا لم نكسب العار من أختنا التي كأنها لا تعرف مأساتها.

– هل سمعتهم يقولون عنها ما يعيب؟ – نهض بيباريس بقامته المديدة.

– لا.

– لماذا إذن تُفني نفسك؟ لم يزفوها اليوم! مضى على الزواج أكثرُ من شهر. هيّا لنمضِ. ولكن أقول لك يا قلاوون: بما أن أحداً غيرنا نحن الاثنين لا يعرف مأساة أختنا فلن نسمح لأحد أن يهينها.

– ليس هذا ما يشغلني – غيّر قلاوون الموضوع متراجعاً عنه – لم تخبرنا بأنها ستتزوج.

– هذا موضوع آخر – قال بيباريس دون تفكير، ثم عاد فأصلح الموقف بسرعة: – الحقّ يا قلاوون أنظر إليك فأراك ازددت سواداً على سواد، مندمجاً شيئاً فشيئاً بالناس الذين وقعت بينهم، وربما لأنك تزوجت منهم فأصبحت عربياً بدوياً حقيقياً.

– سنرى كيف ستصبح أنت حين تتزوج من منيرة. – مازح قلاوون صديقه – وجهي صبوح جداً ولكن شمس العرب قلبت لوني. لا تعتبر هذا عيباً فيّ.

حين التقى بيباريس وقلاوون بالسلطان أرسلهما إلى الشام لمعرفة أخبار ابنه وكَنّته.

وبعد ثلاثة أيام أرسل في أثرهما قاهر، وأرفقه براسم الذي سيعرف سبب بقاء السيدة الكبرى شجرات في المدينة. ولكن حين أعاد التفكير ألحق بالأربعة، على نحوٍ سري وسريع، رجلَ ثقته جلات الذي سيختبر فرسانَه الأربعة كلهم.

IX

أطلت غيابك يا ولدي، جعلتنا ننتظرك طويلاً. — صاحت مرجانة فجأة لِما رأت من الشعر البادي من أطراف القبعة وهي تعانق ولدها: – يا مصيبتي ! أغزا الشيب شعرك !

– إذا بقي الرأس سليماً فلا مشكلة في الشعر أمي. — مزح بيباريس مع الأم، وأضاف إليه عتابه هو: – أنت انتظرتِني ولكن في بيتنا من لم يُطق صبراً.

– نعم يا ولدي نعم. ولكن لا تعتب على أختك. ربما كان الله قدّر هذا. "هل يسقط ظفرك إن نفضت يدك؟" كما يقول البدو.بكيت وأنا مهمومة بما سيحدث في الأيام القليلة الأولى. وشبعتُ هماً وقعدت. تكون استقرت فيهم إذ مضى أكثر من شهر على زواجها. ويُقلقني أن لا أخبار عن الصالح في مصر.

– كان السلطان الصالح قد أوفدنا ولذلك اعتبري أننا جئنا بالأخبار يا مرجانة — تدخل قلاوون في الحديث.

– وماذا يقول صديق المرحوم أيداقين؟ – رفعت مرجانة رأسها فجأة من القلق.

– يقول إنه سينقل العرس إلى القاهرة. — لم يمنح قلاوون الفرصة لبيباريس للإجابة.

– هذا ينقل عرس ابنه إلى القاهرة! ولكني أتوقع ألا يكون لصهرنا توران شاه النيّةُ أن يعود إليها.

– من أين تعرفين؟ أخالطتِ أقرباءنا؟ – لم يطق بيباريس الانتظار. ثم ندم على تسرُّعه فهدّأ من صوته: – أقول هذا لأنه لا يمكن الاختلاط في نواحينا بأهل العريس قبل مضي سنة على الزواج يا أمي.

– نعم يا ولدي، نعم. كنتما أنت وكوثر أخبرتماني بهذا. لم أنقض عاداتكم، انتظرتك، وشجرات هي من قالت لي. لا يمضي أسبوع أو اثنان دون أن تأتي

إليّ أو ترسل من يسأل عني. أجابت مرجانة، ولم تُظهر على نفسها انفعالها مرددة "بيبرس لا ينسى بلاده مع أني ربيته وأنا أطعمه من روحي، ومع أنه صار قائد جيش هنا".

– تعاملك على أنها قريبتك. ولكن لماذا تقيم هنا ولا تعود إلى زوجها.

– هذا ما لا أعرفه للأسف.

– أظن أننا أنهينا مهمتنا التي أوفِدنا لأجلها يا بيبرس عند هذا الحد.– أنهى قلاوون فجأة الحوار.

– دون أن نقابل شجرات زوجة السلطان؟ – سأل بيباريس ناسياً ما كان قال لأمه، مستغرباً ما يسمع.

– ألست أنت من قال إنه لايختلط أهل الزوجين قبل انقضاء سنة على الزواج؟

– ابتسم قلاوون لصديقه.

– نعم، أنا من قال، ولكن لن نعود إلى مصر دون مقابلة شجرات.– حسم بيباريس النقاش.

" وأنا؟ هل سأقيم هنا وحدي؟ _ ارتعبت مرجانة في سرّها. ولكنها سرعان ما غضبت على نفسها: – أيّ سؤال لا معنى له خطر لي؟ إذا كان الصهر يرفض العودة إلى القاهرة والبنت ستقيم هنا، والمرحومان عزت وأيداقين سيبقى قبراهما في الشام؛ فكيف أكون وحدي؟ أقول هذا غير أني لم أشهد عرس بيبرس. ألا يجب أن يؤسس أسرة؟ من جهةِ مكانِ العيش يجب أن نذهب إلى مصر. لن أتصرف مع بيبرس كما كنت أتصرف مع أيداقين حين كان يقول: السلطان الكامل يدعوني، فأرفض. البيت الذي سنسكنه لا يزال كما كان اشتراه أيداقين في القاهرة. عرفت جيداً أن كوثر خدعتني بإخباري أنها لن تتزوج قبل عودة بيبرس. أتعجّب كيف غفرتُ لها وكيف لم أخبِر بيبرس. جرى ما جرى والأفضل

ألا نتقاطع. ولكن لا أعرف إلى الآن لماذا كذبت عليّ بشأن موعد زواجها. تبيّن أن قولها: يكفي أن أكون زوجة لابن السلطان يوماً وليلة غيرُ صحيح. الله الذي لم تكن تُكِنّ له الخير رحمها؛ لِيسعِدها الله! ولكن كيف تسعدين مع من تزوجته عن غير حب لأجل الشهرة والمديح فحسبُ؟ أنا والمرحوم أيداقين نشأنا يتيمين لا يعرف أحدنا الآخر، ولكن لم يكن بيننا يوماً حبٌّ للمديح. كوَّنّا أسرة وكلٌّ منّا حريص على الآخر. وليست قليلة المَشاقُّ والأفراح التي تجاوزناها معاً. والآن، وقد جاءني الله ببيبرس وكوثر فسأقتنع بما وجدت في شيخوختي. وسأستريح"

نبّه صوت العربة مرجانة فرفعت رأسها. وقال قلاوون الذي نظر نحو النافذة:

– ها هي قريبتنا شجرات وصلت... وابنتنا كوثر معها، وقاهر... مهلاً، مهلاً وراسم وجلات وراءهم. ألم نترك جلات في القاهرة؛ من أين جاء؟

– وصهرنا، أليس معهم؟ – اقترب بيباريس من النافذة وقال شِبْه مازح — لا، لا أراه بينهم.

– يا مصيبتي؛ ماذا يريدون؟ – أيعيدون ابنتنا إلينا؟ فزعت مرجانة من مشكلة عذريتها، ثم صحتْ إلى نفسها: – استقبلْهم يا بيبرس مهما كانت نواياهم نحونا!

– على ما يبدو لا مشكلة مع أختنا كما تخافين يا أمي.

– استقبِلوا إذن أقرباءنا الذين لم ننتظرهم البتة! — أسرعت مرجانة بوجهٍ قلقٍ إلى أرض الغرفة — لا تُدخلوهم البيت وحدهم.

– لن نستقبلهم! – كان بيباريس قد تهرّب من طلبهم، فأكّد موقفه بالعتاب:– أما كانوا ينتظروننا حتى نستريح من أعباء السفر؟

أسرعت كوثر فدخلت من الباب المفتوح، وعانقت مرجانة، وقبّلت وجنتيها متصنعة البكاء. وتصرفت بالطريقة نفسها مع بيباريس وقلاوون. وأدخلت شجرات ومن معها، وهي بينهما تحضنهما بذراعيها وكأنها تقول لهم: انظروا إلى أخويّ. وفي اللحظة نفسها امتلأت الغرفة بأصوات الترحيب وأصوات المقاعد تُدفَع من هذا إلى ذاك. وحين هدأ الجميع توجهت كوثر إلى حيث أجلسوا شجرات، ووقفت وراء حماتها على عادة الأديغة.

– أترينني لأول مرة يا عروسة! قالت شجرات مسرورة لكَنّتها — اذهبي وقفي وراء أمك مرجانة التي اشتاقت إليك. طيّبي خاطرها، هكذا يا بيبرس تعاملني ابنتكم. لم أجتمع في حياتي بامرأة أحلى منها طبعاً وخلقاً.

– ما كنّا لنقبل منها غير هذا. — أجاب بيباريس.

– يجب على ابنتنا أن تحبَّ الأسرة التي انضمّت إليها كما تحبنا، وتعزَّها.

— وافقته مرجانة وسألت القادمَين المرافقين لهم مموهة نظرتها نحو مكان وقوف قاهر: – ما أخباركما يا راسم ويا جلات؟ لم أركما منذ زمن بعيد. سمعت أن الأمير الصالح بديل الشمس رفّعكما إلى قائد المئة، ففرحت لكما. ولو كان المرحوم أيداقين حياً لفرح كثيراً.

– صحيح يا مرجانة.– أجاب قاهر بدلاً من المسؤولَين معتدّاً. — الأمير أيداقين بندقدار جاء بنا من الشارع، وربّانا، وأنشأنا. ونحن لم نُخيِّب ظنه فينا. لو رأى أحوالنا اليوم لفرح معنا، ما كانت الدنيا لِتسعَه.

كان بيبرس يستعد لأن يقول:

– ليس عندنا كل هذه المنجزات يا قاهر. لا تكلِّفنا ما لسنا أهلاً له.

غير أن شجرات لم تدع بيباريس يكمل كلامه بهزة رأس متطاول جميل:

– لا تتواضع يا بيبرس – نظرت شجرات إلى قاهر نظرة تنفي وجود ما يُشك فيه – قاهر وأنت ليست إنجازاتكما قليلة. ألستما من ساندتما السلطان الصالح منذ شبابكما؟ ألا تتذكران قبل سنوات، ومرجانة وأنا شاهدتان، كيف أعدتموه حراً من الكرك؟ أنسيتما كيف دمرتما الصليبيين بين غزة والقدس؟

– صحيح أيتها السيدة الجليلة، صحيح. – وافقت كوثر بقوام كأنه نُحِّر داخل خاتم حماتها. ونظرت إلى بيباريس وقلاوون كأنها تقول لهما: أنتما من تحشّما كل هذه المشقة. ولم تنس قاهر الجالس قرب شجرات أن تلقي عليه نظرة تعني الكلام نفسه. –صحيح يا عروس، صحيح. لا يجوز تناسي معروف أيٍّ كان. لا أستطيع أن أقول إن زوجي السلطان الصالح بلا رجولة، وصل تفكيره ورجولته إلى الكثير، ولكن لو لم يكن يسانده أمثال بيبرس وقاهر وأمثالكم، وأروي هذا مجدداً، لكان صعباً عليه ركوب حصان سلطان مصر... وأظنه قال لكم هذا، ولكن أقول لكم شكراً على ما فعلتم من أجلنا. ما أخبار أيبك وأقطاي يا بيبرس؟ وتانقز لم أره منذ زمن بعيد.

– ألم أُطلعك يا سيدتنا الجليلة على أخبار هؤلاء حال رجوعي من عند السلطان بديل الشمس الذي كلفتموني أن أزف إليه أفراح أسرتكم؟ – أجاب قاهر مسرعاً.

تبادل راسم وجلات نظرات صامتة.

– حتى لو أطلعتني أحب ان أسمع بصوت بيبرس، أليس صحيحاً يا قلاوون – أما يزال أقطاي القائد في جسمه الصحيح الكامل؟

– لم يتراجع إن لم يتحسّن – أجاب بيباريس قائلاً في نفسه: " أي مشكلة أوقعنا فيها هؤلاء الذين اقتحموا علينا؟"

– نعم؛ أليس أيبك من العرق التركماني؟ هؤلاء أيضاً عرق جميل كالأديغة.

– والعرب الذين نحن منهم أيتها السيدة الجليلة ليسوا عرقاً بشِعاً – قال قاهر بحذر.

– لا تظن أن كل ما يقال موجَّه إليك – ضحكت شجرات بوجه يزداد طلاقة – سنتكلم في هذا الموضوع حين نصل إلى أبناء قومنا فحسب... انظر إلى كنتي ما أجملها كصورة مرسومة. ولو لم تكن هكذا أكان توران شاه اختارها تاركاً العديد من الفتيات العربيات؟

– صحيح. أيتها السيدة الجليلة – استعجل قاهر مرة أخرى كأنهم يسلبونه شيئاً له – الكنة جميلة وتوران شاه رجل متناسق القوام حكيم، شجاع حتى إنه لا يحتمي بأحد. متعلم، ومربّى. كانت بنات الشام يقتلن أنفسهن عليه. ولكنه اختار من يريدها شريكة عمر.

– صحيح، لم يخطئ ابني في هذا – ابتسمت شجرات لكنّتِها، وردت كوثر على حماتها بابتسامة دون أن تسبل جفنيها خجلاً.

كثيراً ما خاض بيباريس قائد الجيش معارك يفنى فيها الرجال. وصدف أن هزمهم، وأن جرحوه وهزموه، غير أن قلبه آلمه عاجزاً عن تفسير ما يلحظه على كوثر. نظر في وجه مرجانة التي صمتت على مقعدها الوثير كأنه يسألها: ما الذي جرى لابنتنا؟" ما الذي حدث لها في نصف العام الذي لم أرها خلاله؟ لا يمكن أن تصدّق أنها هي الفتاة الهادئة العذبة التي تذوب في القلب. أتكون أمي دللتها بصفتها الابنة التي بحثتْ عنها وأحبتْها؟ لا. من الصعب الحكم على أمي الجالسة واجمةً. متى ما انصرف زوارنا وبقينا وحدنا تكلمنا مع أختنا في نواياها الحقيقية. هل بدأت أخلاق كنة السلطان وطبيعتها تتغير نتيجة المدائح التي تكال لها أم وقعت تحت تأثير طباع شجرات؟ هذا ما لا يجوز، لا أعرف إن كانت لا تفهم هذا... ليس تحليل سلوك شجرات زوجة السلطان

من مهماتنا. راسم وجلات هما من يقومان به. ولكن لا يجوز ألا نقوم بما يترتب علينا تجاه أختنا".

قالت شجرات حين بدأ الخدم يأتون بالشاي والحلويات:

– لا، لا. لا تشغلوا أنفسكم. لم نأت لنجلس طويلاً. حين قال لنا قاهر إن إخوة العروس جاؤوا معنا جئنا مجتمعين لنتيح لأختهم اللطيفة العذبة رؤيتهم. ومع أن راسم وجلات حاولا البقاء بالشام لإنجاز أعمال كثيرة فلم أقبل منهم بحجة مقابلةِ زوجة من ربّاكم وأنشأ منكم رجالاً المرحوم أيداقين – ليوجهه الله إلى الخير حيث حلّ ــ وإلقاءِ التحية عليها.

– شكراً يا شجرات! قالت مرجانة محيية ضيفتَها غيرَ المنتظَرة بانحناءة خفيفة – اليوم يوم فرحة كبيرة لي. جاء إليّ ابني، وجمعتِنا بابنتنا. وجئتِنا بمن أنشأهم قائد الجيش المرحوم أيداقين بندقدار. أتحْتِ لي الفرصة لرؤيتهم مجدداً. حين يبدأ عمرك يذوب شيئاً فشيئاً فمن يدري متى النهاية؟ ! أنتم ضيوف. لن أسمح لكم بالانصراف قبل أن تشربوا كأساً من الشاي. حقاً لم نكن نريد لقاء مفاجئاً وفراقاً كما جرى. إن أصبحنا أهلاً وأقرباء...

– نعم يا مرجانة – لم تدع شجرات، وهي ترشف الشاي، صاحبة البيت تكمل ما بدأته. – أمامنا الوقت لنلتقي، ونتبادل الزيارات. ويحب بعضنا بعضاً. ولكننا لم نأت اليوم لزيارة طويلة. تعالي يا عروسة، العربة الجاهزة تنتظرنا. وربما تخدرت عينا توران شاه وهو ينتظرنا. اسبقنا يا قاهر وأعلمه برجوعنا. نعم، والعروس معنا؛ لا يقلقْ! – وأردفت باسمة: – بديهي أن تبدو لك الساعة يوماً كاملاً إذا كنت شاباً وعريساً جديداً.

حين انصرف الضيوف ودخل قلاوون المدينة وراء شاغل له اختلت الأم بابنها. وبعدما جلسا واجمين بعض الوقت يتبادلان النظرات سأل بيباريس الذي لم يكن يجد تفسيراً لزيارة الضيوف وانصرافهم:

– ما ذا قالت لكِ ابنتُنا يا أمي حين همستْ في أذنك وهي تعانقك؟

– وماذا ستقول... بل إني لا أتذكر إن كانت همست لي.

– بلى تتذكرين! حتى إن لونك تغيّر ساعتها.

– لا تدعنا نتكلم على ابنتنا يا ولدي. كوثر امرأة يا حسرتي. أظنها بطِرت من حظها السعيد. ما رأيناه مختلف تماماً. ستعود إلى وعيها يوماً فلا نعتبْ عليها!

– أفهم ما تريدين قوله يا أمي. لا تغيري الموضوع! همستْ لك بما يُحزنك.

– لا تلحّ عليّ يا بيبرس! النساء لهن أسرار كثيرة. لا داعي أن تسمعها أنت.

– إن كان الأمر هذا فلا بأس، ولكن لا أعتقد أنه هكذا... — وضع بيبرس نهايةً غير منتهية لما كان ألحّ على الأم أن تخبره به.

بعد بضعة أيام على الحادثة رتّب بيباريس وقلاوون موعداً مع كوثر. وكان توران شاه معهم.

لم يبق في كوثر شيءٌ من التي جاؤوا بها يوماً من بغداد إلى الشام إلى مرجانة كأخت لهم. — امرأة أخرى بخصرها النحيل، ورأسها العالي المتكبر، وجلستها وطريقة حديثها. يخيّل إليك حين تتوقف كوثر عن الحديث أنك ترى في عينيها الصافيتين نعومتها الهادئة وحزنها القلق. وحين تسمع ما لا تحب ترتفع كتفاها، وتلتمع عيناها.

تطرق الأربعة إلى موضوعات كثيرة. وتكلموا فيها. وقبل أن يهمّ بيباريس وصاحبه بالانصراف أعادوا الكلام في موضوع سبق أن تطرقوا إليه. وأنهى توران شاه الحديث ملتفتاً إلى الزوجة التي إلى جانبه:

– ونحن سنتصرف كما قالت لكم والدتي شجرات السيدة الجليلة. سنقيم عرسنا في القاهرة، ثم نعود إلى هنا حيث قسم الله لنا حظنا. لن نغادر الشام إلى أي مكان آخر؛ أليس كذلك يا روحي الوحيدة؟

– نعم يا توران شاه، نعم.– أنارت عينا كوثر كأنهما تقولان: أتسمعان كيف يستشيرني زوجي؟

– إن كان هذا رأيكما فحسناً. — اقتنع قلاوون وإن لم يعد قادراً على تحمُّل ما يرى وما يسمع، وأضاف بسرعة: – دع شجرات السيدة الجليلة تسافر معنا. وسنصحب معنا أيضاً مرجانة.

– ونحن على علم بهذا — قال توران شاه بهزة رأس متعالية، والتفت نحو المرأة الآن بوجه طلق فرح – لا يحدث في الشام ما ليس لنا به علاقة قولاً وفعلاً. وأكلفكما بإيصال هذا الكتاب إلى الوالد سلطان مصر الذي أتأمل منه تكليفي بإمارة الشام.

حين نهض بيباريس الذي كان قلبه يغلي وقد استلم الرسالة دون أي تعليق استعجلت كوثر:

– تمهلا قليلاً، سأسلمكما شيئاً. دعني أنفرد بأخويّ قليلاً يا روحي الوحيدة.

– لن أنسى طوال عمري ما فعلتما لأجلي منذ المصيبة التي جرت لي في السفينة وإلى الآن. ولكن إن رويتما خبري دون أن تغفرا لي إبعادكما عني، حاسدَين إياي على ما تحقق لي مما لم يتحقق لأي امرأة أخرى، سأورطكما في داهية؛ ها أنتما تريان سلوك زوجي توران شاه معي. لن أغفر لكما.

– لم أعد أعرفك يا كوثر — فجّر الكلامُ بيباريس – ماذا جرى لك؟

– لا عجيب في هذا – لم تطرف لكوثر عينٌ. – أقول لكما احذرا اليوم الذي يتجنبني فيه الخير، احميا أنفسكما فحسبُ. انفجرت كوثر بكاء، غير أن بيباريس وقلاوون خرجا دون التوقف عند بكائها.

– ماذا قالا لك؟ أأساءا إليك؟ – سأل توران شاه امرأته حالَ دخولها وقد اغرورقت عيناها بالدموع. – أعرف كيف أعاقب هذين.

– لا، لا. لم يقولا لي ما يزعجني... ضمت كوثر زوجها أكثر إلى صدرها – وكيف يسيء أخواي إليّ ! ومتى سأراهما ثانية؟ لا يفرغان من الحروب.

قال قلاوون مغمغماً لبيباريس، والحزن – الإهانة المفاجئة أذهلتهما، لا يجرؤان على تبادل الحديث ولا النظر في عيني الآخر:

– ومع ذلك كنت تنوي الزواج منها!

تنهد بيباريس وأجاب بعد مدة غير قصيرة:

– النساء يقلن الكثير يا قلاوون، لا تستعجل عليها!

الغرفة التي تشتعل فيها شمعة وحيدة شبهُ مظلمةٍ وشاحبةٌ. ورغم أن الليل المخيم في الدار مثير للضجر فالنسيم يهب لطيفاً منعشاً للقلب. وباقة الورد على الصندوق الضخم الموشى بالذهب والفضة تفوح منها رائحة طيبة. والمائدة شبه المتطاولة المقابلة للمقعد الناعم المفتوح حديثاً تعجّ بأنواع كثيرة من الفواكه. وعليها جرة من الفضة وقَدَحان. والسجادة التي تغطي أرض الغرفة الواسعة ناعمة.

حاذت شجرات التي كانت تفوح منها رائحة عطر خفيفةً المرآة. وأمرّت أصابعها النحيلة المبللة بلعابها على حاجبيها. وبللت شفتيها بلسانها. وفيما هي تُصلِح ثوبها على قوامها لفَتَ انتباهَها الصوتُ الخفيف لانفتاح الباب.

توقف قاهر مستغرباً ما لم يره إلى الآن على شجرات:

– ألا تزالين لابسة يا حلوتي؟

– هذه المرة أريد أن تخلع عني أنت ملابسي. متى سنجتمع أنا وأنت في مثل هذا المكان؟

– ألن يكون لنا مكان لقاء سريٌّ حين نعود إلى القاهرة يا حبيبتي؟

– من يعرف ماذا سيحدث غداً؟ تلك القاهرة، وهذه الشام. لنستمتع بقدر ما نستطيع ولو لهذا اليوم فحسب! اخلع، ولنبق على أرض الغرفة ملتصقَين بجسدينا العاريين!

– وإن أطفأتُ المصباح؟

– لا، لا. أريد أن يرى أحدنا الآخر بوجهه وجسمه. ياه! ما أدفأكَ! وما أضخم جسدك يا حبي. أمسكني بقوة أشدَّ، واعصرني!

X

رياح الخماسين التي هبت فجأة من جهة الشرق تعربد في مصر. وتخرّب ما تصل إليه في القاهرة.

وليست الخماسينُ مثلَ الريح التي تلفّ جبال الأديغة وسهولها متضاحكة. — تتناثر في كل مكان مغطية الأرض والسماء بالرمل الأصفر — الأسود، ناشرة الرعب في القلوب بأصواتها المريعة. لا هو مطر ولا هو ثلج. تكوّم في أسافل الأسوار وجدران البيوت تلالاً من الرمال. وتتفرق على الشوارع أمواجٌ من السبخات الرملية. والغبار المتساقط من السماء يُظلِم سطح النيل.

قلب الإنسان مركب كما الدنيا. هذا كبير والآخر صغير. ولكن الاثنين يتصادفان عند البحار والجبال، السهول والوديان، الصحو والجدب، البرد والحر. وهما يتحملان من يوافقهما ومن يعاديهما. ولا يتوقفان وإن لم يستطيعا التفسير. يتقدمان وهما يؤشّران إلى ما تحقق لهما وما لم يتحقق.

وما قيمة نصف عام في مقاييس التاريخ؟ ! بالنسبة إلى حياة الإنسان القصيرة هذا كثير، ولكن بالنسبة إلى ما يخوض بيباريس من معارك ودماء تُسفَك فليس شيئاً. ليس ما حملته الأشهر الستة الماضية من أفراح وأتراح، صغيرةٍ أو كبيرة، قليلاً. وحين يعيد التفكير فيها، ويُسقط منها ما ليس مهماً له، يبقى له فرحان وحزنان. كان إخراج مرجانة من الشام إلى القاهرة كما كان يرغب والده أيداقين، وتأسيس أسرة كما يملي عليه قلبه من أكبر الأفراح. والحزنان لم يكونا خاصَّين به وحده. بل بشخصين قريبين من قلبه. — السلطان الصالح وكنته كوثر. وهو، كما كوثر، يقيم في أرض الغربة. وأصبح فيها قائد جيش مملوكي. وأسس أسرة تنسيه الأحزان التي شهدها بعينيه في أرض طفولته، والتي تبتعد سنة بعد سنة.

لماذا تدخل كوثر في أفكاره بعدما أسسس أسرة؟ كما يقال "لا رزقني الله بابنة لا تتزوج؛ من البديهي أن تتزوج الفتاة حين تصبح مؤهلة له. هذا خيرٌ يأتي عن طريق الحظ – يتجدد ما في قلب بيباريس من اللوم نحو كوثر مع تقبُّله الخطوة التي تخطوها كل البنات في وقتها.- هناك أساليب كثيرة لزواج المرأة. لا أقول إن كوثر فعلت شيئاً معيباً، ولم تسلب أحداً خطيبها أو زوجها، ولا أسخط عليها لأنها أبعدتني، أظنني في تلك الأيام كانت تغلبني الشفقة أكثر من الحب، ولا أتهم نفسي بعدما حدث، ولكن قد يكون جريان الأمور هكذا أفضل. أيكون ما رأيت منها في السفينة قد ثار مع إعادة التفكير؟ أكنت قادراً على التحمل؟ أكنت قادراً على أن أنسى؟ تبيّن على ما يبدو أن كوثر أعقل مني. لم تستشرنا يا أمي أنا وقلاوون في ما كانت ستفعل. نحن مهما تودنا إليها لم تصارحنا بما في قلبها خائفة على نفسها، ولم تجعلنا موضع ثقتها. ولم يكف هذا بل هددتنا أنا وقلاوون بزوجها... ولكن أعجب شيء هو أنها احتلت مكان الصدارة في عرسي معتبرة إياي أخاً ومعتبرة نفسها ابنه حمٍ لمنيرة، ناسيةً ما فعلت بنا وقالت لنا. ومهما تصرفت في العرس ما كان توران شاه ليتركها وحدها معنا. يا كوثر،يا كوثر، أبتهل إلى الله أن يُرينا إياك زوجة للسلطان فيما نحن نحكي أخبارك، وندينك! لستِ أنتِ المشكلة. في حال الضرورة سنجتمع نحن قادة جيش المماليك ونُخضِعكِ أنتِ وزوجك، ونرهبكما. مشكلة المشكلات هو السلطان الصالح: أيعرف ما يجري في أسرته أم لا يعرف؟ "

بعد الشاي الأخضر والحلويات التي أحضرها الخدم، دخلت منيرة مغطية رأسها بإيشارب حريري، وبشّت لزوجها:

– جئتك يا بيبرس بالشاي الذي تحبه داعية إلى الله أن يأتيك بيوم صافٍ بعد هذه الأيام المُرمِلة، أرجو أن يلطِّف مزاجك.

– كنتما في بالي منذ لحظات أنتِ والشاي يا منيرة، شكراً. – ابتسم بيباريس بعينه الوحيدة الجميلة الزرقاء للزوجة.– لن تستمر الريح إلى الأبد. ستأتي أيام صافية، وأنتِ اشربي الشاي.

– ألستَ من قال إن الزوجة لا تأكل مع زوجها في نواحيكم؟ – بادلت منيرة زوجها الابتسامة ملاطِفةً إياه.

– أكنت قلتُ لك شيئاً من هذا القبيل؟ – مازح بيباريس زوجته. ثم عاد ولاطفها : – أنت وأنا بعدما مثلْنا أمام الله زوجين شرعيين أنسيتِني يا حلوتي ماكان في بلادنا. تناسَي الأمر ولو كنتُ قلتُ لك. ودعيني أشرب كأس الشاي حلوة، وأنعشي قلبي بوجودك معي.

– إن سمحت لي فسأتناسى. ولكني سأصارحك بشيء فيك لا تعرفه أنت.

جعل الكلام غيرُ المنتظر جسد بيباريس القوي ينتصب، وارتفع عنقه الطويل انتظاراً لما سيُقال له:

– أهو شيء حسنٌ أم قبيح؟

– لا تفزع ! نظرت منيرة في وجه زوجها نظرة أنعم – لا أعرف إن كان حسناً أم قبيحاً: أحياناً تصيح وأنت تحلم.

جلس بيباريس قليلاً لا يمد كأس الشاي إلى فمه ولا يعيدها إلى المائدة. ثم قال متنهداً يهز رأسه:

– هذا ممكن. أحياناً أحلم بأني أحارب في نواحينا... وماذا أقول يا تُرى؟

– لا أعرف معاني ما تقول. غالباً ما تردد: "سيف" "عدوّ" "شرقاي"

– أتقولين "شرقاي"؟

– نعم، فهمت هذه الكلمة لأنه اسم منتشر في نواحينا. وليلة أمس جرى على لسانك اسمُ صهرنا توران شاه وابنتنا كوثر.

– أفهم لماذا أردد أسماء "سيف" و"عدوّ" و "شرقاي" ولكن لا أعرف علاقة توران شاه وكوثر بهذا الموضوع.

– ربما كنت تفكر في ما يُهمُّك.

– أظنني أشغل نفسي بأمور لا يجب أن أهتم بها — تنهد بيباريس ثانية وهو يخاطب نفسه. — ثم أفهمَ منيرةَ لماذا يأتي على ذكر شرقاي: – هذا اسم التاجر الذي جاء بنا إلى مصر. هذا لي ثأر عنده.

– أهو من سرقكم من بلادكم؟

– لا، من سرقني من أطراف قريتي قاطعُ طريق. ولا أعرف اسمه. ومنذ أكثر من عشرين عاماً أبحث عن شرقاي هنا ولا أجده.

– ربما قتلوه في ركن ما، أو هرِم فتقاعد عن العمل.

– ليس في الأمر مسألة شيخوخة إن لم يُقتَل على يد واحد من أمثالي. كان عمره في تلك الأيام أقل من ثلاثين عاماً. — نظر بيباريس نحو النافذة راغباً في أن يتخلص من ذكرياته الثقيلة عليه.– كأن الريح خفّت. مضت ثلاثة أيام لم نستطع خلالها زيارة مماليك الروضة. ومنذ بعض الوقت لم أر السلطان الصالح. يجب أن نغزو صاحب حلب الناصر الذي يعادينا منذ عام. يجب أن نعاقبه على تحالفه مع الصليبيين. والمغول من جهة الشرق يرفعون رؤوسهم.

– أتظن يا بيبرس أن الصالح مهتمٌّ بما تهتمون به؟

السؤال الذي طرحته المرأة حول سلطان مصر جعل بيباريس يرفع رأسه فجأة. لم يسمع بيباريس في السنوات الماضية كلاماً من هذا القبيل في شأن السلطان الذي يُخلص له. ربما لا يخلو أحدٌ من عيب ما. والصالح من أين له أن يخالف

هؤلاء؟ يحمل معه رجولته وشفقته ورزانته وحياة الصراع الذي لا نهاية له دون أن يجد فرصة للالتفات. ومهما وجد نفسه في حرب ضارية لم يحدث أن لجم حصانه فأوقفه. وإن لم يُعمِل سيفه فإنه لم يُغمده أمام أحد. وحين يقع المماليك في وضع حرج ويتكاثر الأعداء عليهم يكون سيفُه المشهر عَلَمَهم. ويتذكر بيباريس أنه كان يبكي الشهداء من مقاتليه. وما كان أيبك وأقطاي يرفضانه من تصرفاته هو أنه يُطوّع كل سنة عدداً من مماليكه الأديغة فيزيد تعداد جيشه، ويُبرزهم أنموذجاً للشجاعة. ولا يخلو التركمان والقبجاق والألبان والبوسنيون والمغول من الشجاعة ولكن تفضيله للأديغة في كل مجال، وتقديمهم في المهامّ العسكرية، سرّان مكشوفان عنده.

"ما العيب الذي لاحظتْه منيرة في السلطان؟ أقول إنها عاتبة عليه ولكن السلطان هو أول من شجعني على الزواج منها، وزوّجني. وكما تحمّل عرس توران شاه وأقام احتفاله فكذلك فعل بعرسي. ورقص فيه وسط تعجب المشاهدين ،وأوصى لي بما يكفينا عمرنا. وما قدمه لنا أكثر وأكثر." وكما دخل بيباريس في أفكاره المتضاربة خرج منها بالسرعة نفسها وسأل زوجته:

– ما أهتم به شخصياً يا منيرة هو قضايا البلاد. وإن لم يكن السلطان الصالح مهتماً بها فكيف يكون سلطاناً. هل سمعتِ شيئاً؟

– ما سمعته لا يتعلق بكيفية إدارة السلطان لأمور البلاد. من هذه الناحية هو لايقصّر، يبذل ما في وسعه، يتمتع بالرجولة. ولكن ما أسمعه بشأن زوجته شجرات لا يليق به في رأيي...

– وهل سمعت أنتِ أيضاً؟ – جعله الخبر المنتظر الذي يخفيه يستعجل في السؤال.

– ليس اليوم، منذ زمن غير قصير، لم تكن بدأتَ بمغازلتي.

– وصلتْك، على ما يبدو، أخبار سلوك شجرات المتحرر... وأنا يحزنني أنها تجلب العار لهذا السلطان الشخص الرائع. كان خطر لي أكثر من مرة مفاتحتُه، ومثل هذا الموضوع لم يقبل مني والدي المرحوم أيداقين في شبابه طرْحَه. وأمي كانت قالت لي "لا تتدخل بين رجل وامرأته؛ دعهما يحلان مشكلتهما بنفسيهما!" ماذا كان بإمكانها أن تفعل حين تأتي شجرات إلى بيتنا؟ أكانت تقلع عينها بنفسها؟ كانت تعرف من أي نوع من النساء هي، وأنت لا بدّ فهمت هذا، كانت تجالسها وتستمع إليها مرغمة، وتكظم غيظها من أجلي. لا أريدك أن تتكلمي أنت على شجرات بسوء يا حلوتي. — مع أن بيباريس أنهى فجأة الحديث غير المريح الذي نبت فجأة في الأسرة الجديدة فقد أتت منيرة على الموضوع الذي كان يهمه ويقلقه:

– لن أتكلم على شجرات، ولكن طرف فِسْقها يصل إليكم ياقادة الجيش. هم أقرباؤنا من جهة كوثر؛ ألا تلطخنا من جهتها؟

– شكراً لك، حققتِ ما توقعتُ منك يا منيرة. وإن كنت لا أتجرأ على مفاتحة السلطان في شأن هذه القضية القذرة فلم أكن مكموم الفم. تصرفت بالطريقة الوحيدة الممكنة لي، فكلمت قاهر الذي طردوه إلى الشام وعينه هنا، ولكنه خذلني ولم يفهمني.

– يا مصيبتي؛ أيهان رجل مثلُك؟ رأى بيباريس للمرة الأولى عيني منيرة جحظتا رغماً عنها.

– لا أعرف إن كان أهانني. — صحح بيباريس كلامه: – قال لي: تكلّمْ إلى شجرات إن كنت رجلاً!

– لأنه يستمد الشجاعة من شراسة شجرات. تقول أمي الصواب: لا تُخالطيهم، لا تقرّبيهم إليك. كوثر هي من أقلق لها الآن.

– ولماذا؟

– يا حسرتي، لا أعرف... إذا كان قاهرٌ العشيقُ قد ورّط شجرات فلا أثق به. وكوثر ذات اللسان الحلو بريئة كما خلقها الله. أدعو إلى الله أن يحميها: تدخل القلب والعين بلا استئذان.

– يسرني علاقتكما الطيبة أنت وكوثر، وتفاهُمكما. – قال بيباريس دون رياء، وأكمل بمزحة: – ولكن هذه تحب زوجها، لا تبدل غيره به.

– وأنا كانت هذه نظرتي إلى ابنتنا وصهرنا.

– إن كان هذا رأيَك فلنكنْ أنت وأنا أيضاً هكذا!

– بيبرس، لا تقل لي مثل هذا الكلام. لا تخجلني. عانقت منيرة زوجها وقد توّرد خداها – قبلتُ بك زوجاً من أول يوم رأيتك فيه، ربما لأنهم كانوا يذكرونك بالخير.

– ولو كانوا لا يذكرونني بالخير؟

– وكيف تكون شريك من لا يذكرونه بالخير؟ – أجابت منيرة على السؤال بسؤال حاسم، وأغلقت فم زوجها براحة يدها الرقيقة. – إن كنت لن تسخر مني أكثر من هذا في موضوع حبي فسأقول لك أيضاً شيئاً يتعلق بشجرات سمِعتُه منها وقد جلستْ إلى جانب أمي. هي مشتاقة إلى زيارة الشام، إلى ابنها وكنّتها، غير أن زوجها لا يسمح لها.

– إذا كانت شجرات ترى هذا، ولا يُسمَح لها أن تفعل ما تريد – لمعت العين الزرقاء الوحيدة لبيباريس رغماً عنه – فلابد أن السلطان الصالح لم يعد يثق بها. ربما في موقف مشابهٍ لهذا قالوا "تُعدّي مرة، واثنتين، غير أنك تقع في الثالثة، فيُمسكون بك – كان بيباريس فرحاً في قلبه ولكنه لا ينسى ما كانت قالته زوجته "كوثر هي من أقلق عليها الآن".

توقفت الريح المحمّلة بالرمل بعد ما هبت أسبوعاً كاملاً ملأت خلاله قلوب الناس باليأس. وأشرقت الشمس الكبيرة الحمراء من السماء الشرقية خجلة من الناس الذين تطلّ عليهم، حاملة للناس الفرح والحزن، والراحة والقلق، ثم انحدرت من قبة السماء ليس يوماً أو اثنين أو أسبوعاً. وفي خلال هذا الشهر أو الشهرين وُلِد للناس في الأرض كثير من الناس، ومن جاء أجَلُهم انحدروا عنها. ومن ماتوا في الحروب قبل أوانهم لا يُحصيهم العَدّ. وليسوا قليلين من صرعتهم النار والماء، والصاعقة والريح، والفاقة والمحْل، والفُرقة والحسد.

الجيش الذي سيغزو حلب يجهزه السلطان الصالح منذ أكثر من ثلاثة أشهر. ولا يدع راحة لقادة جيشه ليلاً أو نهاراً. وليست حلب وحدها الهدفَ، بل يستعد أيضاً لمن تصل أصوات خيلهم من الشرق، المغول. يعرف أن الملك لويس التاسع ملك فرنسا نزل بجيشه في دمياط قريباً من الإسكندرية، ويستعد لغزو القاهرة. ولهذا قسم الجيش المملوكي إلى ثلاثة أقسام: الأول يتصدى للإفرنج، والثاني يتوجه إلى حلب، والثالث يحمي القاهرة في حال الضرورة.

أنهى السلطان الصالح اجتماع المجلس العسكري الاستشاري في نصف نهار خلافاً للماضي إذ كان يجتمع ثلاثة أيام عادة. ولم يسمح لأحدٍ غيره بالكلام. ولم يستشر أحداً. وأسند إلى كل قسم من الجيش مهمة محددة، وحدد قادة الأقسام بالأسماء من أول مجموعة تخوض المعركة إلى آخرها. ومن يحل محل القائد إن قُتل. وطلب من كل قائد تكرار مهمته. ومع أنه لم يكن من عادته أن ينبّه قادته إلى نفي أي فكرة للتراجع، فقد ذكرها هذه المرة. واختتم بمثل هذه الكلمات:

– ليس بينكم من لا أثق به. إن لم نحمِ اليوم الإسلام من الصليبيين الكفار فلن يغفر لنا المسلمون والأجيال القادمة. ولْنقف أمام الله ولْندعُ إليه أن يحقق أهدافنا.

امتلأت الغرفة بأصوات الأسلحة يلقيها أعضاء المجلس العسكري الاستشاري عنهم. ووقف الأمراء وراء السلطان الصالح المتجه إلى القبلة. وحين انتهوا من الصلاة استدعى السلطان بيباريس:

– توقف يا بيبرس، لي كلام معك. — ولما التفت أيبك غير المدعو، قال السلطان:– لستَ، بل بيبرس.

ريثما سأل السلطان الأسئلة التقليدية من قَبيل "ما أخباركم وما أحوالكم" تفحص بيباريس السلطان بنظرة عميقة. وبالقياس إلى نصف سنة إلى الوراء فقد لاحظ عليه أشياء كثيرة استنكرها قلبه: "محجراه اسودّا، وخيل إليه أن كتفيه القويتين تهدلتا. وفي عينيه الذكيتين يلاحظ الإعياء. ماذا جرى لهذا الرجل؟ أيكون قلقاً على الجيش الذي يسوقه إلى الحرب؟ لم ألاحظ عليه اليوم وهو يكلمنا مثل هذه الملاحظة. ولماذا استوقفني لافتاً نظر قادة الجيش إليّ؟ سأسأله وإن لم يكن في ما أسأل عنه شيءٌ مهم عن الجهة التي قدم منها قائد الجيش قُطُز الذي يرافقه أيبك وأقطاي"

– القائد قطز الذي تسأل عنه يا بيبرس هو أحد الصبيان المماليك الذين رباهم السلطان صلاح الدين. وإن كنت تتذكر فقد وقع أسيراً بيد الفرنجة واحتفظوا به عدة سنين في جزيرة كريت. وفي هذه السنة تحرر منهم.

– وهل تثق به يا بديل الشمس؟

– لو لم أكن واثقاً منه لما عينته معاوناً لأيبك. اطمئنّ من هذه الناحية! إنه من الأديغة يا بيبرس.

– وهل اسمه قُطُز أم سمَّوه به؟

– يقول إنه اسمه. ولكن نُطقه له يختلف قليلاً عن نُطقنا. أظنه كتغيير اسمك الذي كان غيّره أيداقين بندقدار لعجزه عن نطقه.

– وكيف ينطق اسمه بالأديغية؟ "خُطَج"؟

– ليس مستبعداً. كنت سمعت اسماً من هذا القبيل.

ـ إن كان يقول "خُطَج" فهو أديغة. ولكني أظنه نسي لغته. لم يكلمني بالأديغية حين عرّفنا أيبك على بعضنا رغم أنه يعرف أني أديغة.

– لا تلم قطز على نسيان لغته. قضى عدة سنوات في أسر الفرنجة مخلصاً لمملوكيته. ولم ينقض دينه ولا إنسانيته. – قال السلطان مرتاحاً. ومزح معه – أتظن الجميع يملكون قلوباً أديغية مثلك ومثل قلاوون؟ نعم، أوافقك – لم يدع بيباريس يكمل كلامه – لا يجوز نسيان أصلك في نواحيكم مهما وجدت نفسك في موقف صعب. ثم ماذا يا بيبرس أأنت ومنيرة متفاهمان؟

انتفض رأس بيباريس من السؤال غير المنتظر، غير أنه لم يدع السلطان الذي اكتسى وجهه بالحزن حالاً دون جواب:

– نعم متفاهمان يا بديل الشمس. حياك الله، وعلى قول البدو: ما بيننا متينٌ حتى إنه لن تنفذ من بيننا ذرة رمل. جعلتَني شريكَ امرأة تفهم وتفطن لكل شيء وتحترم نفسها.

– حسناً، حسناً. تفاهما! ولا تُدخلا أحداً بينكما. – تنهد السلطان الصالح عميقاً مع هزة رأس. – لا تدعا ما حدث معي بشأن شجرات يحدث بينكما. حقاً ليس لي ولا لها ذنبٌ في هذه المسألة. ربما كان الله كتب علينا هذه النهاية. أقول لك سري لأنه لا أحد عندي يمكن أن يفهمني ولأنك ستفهمني ولو أنك تصغرني كثيراً في العمر. أتتذكر قبل سنين حين جرحوني قرب القدس في أسفل

بطني؟ تعاملني شجرات كما تريد لأني فقدت فحولتي على إثر هذا الحادث. لا أعرف لماذا عاقبني الله فدفعت هذا الثمن. ولكن ما العمل وما حمّلني إياه عيبي أنا. شجرات بالنسبة إليّ شابة. لا ألومها. ولكن لن أغفر للاثنين ما تفعله بي مع قائد جيشي. وموعدي هو رجوعنا من حلب. وما سأفعله بهما قررته وانتهى. أتأمل منك أن يبقى حديثي عن همي بيننا.

– الحجر أصمُّ، أبكمُ، يا بديل الشمس. يحمل ما تحمّله؛ اعتبرني حجراً.

– حيا الله أصلك يا بيبرس. ما سأكاشفك به الآن أهمُّ شيء. وهو أمر يتعلق بالدولة حقاً، وضعت فيه جهدي ورجولتي. شجرات تنازعني من أجل أن أسلّم حكم مصر قبل نهاية الخريف القادم. وتجهّز نفسها لتفضحني في أرجاء البلاد إن لم أقبل. وأنت تعرف شخصية توران شاه. لا عقل له يدير به أمور السلطنة يوماً واحداً. وكوالدته يغلب عليه الطبع الأخرق. وهذه المهمة ستجعل الأم وابنها يتقاتلان. ولكني لن أنفذ ما يطلبانه مني مهما كلف الأمر. ولو فعلتُ لما قبل مني رجال الدين والخليفة. وقد راقبتك عن كثب خلال السنوات القليلة الماضية يا بيبرس فلم أجد بين قادة الجيش من هو أكفأ منك لتلك المسؤولية. ولكنهم لن يسمحوا لك بالاقتراب منها بحجة أنك غريب ما لم تنتزعها منهم.

"من أجل هذا استوقفتني؟ ! – صرخ بيباريس في قلبه. – حين أحمي الإسلام وسط بحر الدماء، ودمي على كفي فأنا موثوق. وحين يصل الأمر إلى السلطنة فأنا غريب؟ يبدو لي أني أقمت هنا معظم عمري عبثاً، منتزعاً أحزان موطني الأصلي من قلبي، وأسست أسرة. وإن كنتم تتنازعون الحكم داخل أسرتكم فلماذا لا نفعل نحن أيضاً مثل هذا؟ قل ما تريد دون مناورات. ليس من مهمتي حلُّ المشكلات السخيفة لأسرتك. – حين نظر بيباريس في عيني السلطان اليائستين صحا إلى نفسه _ اغفر لي وافهمني يا إلهي مخاشنتي لمن لجأ إليّ في

محنته. لم أجد السلطان الصالح منذ عرفته ووقفت إلى جانبه في مثل هذه الحالة من اليأس"

– لا أريد أن أنتزع من أحدٍ ما أوكلته إليّ ولست أهلاً له يا موفد الله. لم يخطر لي مثل هذا طوال عمري. – قال بيباريس ما في قلبه وأنهى بصوت أعلى:

– ولكن ثق أني سأفعل هذا في ما يتعلق بحماية مصر وحياتها لو لم يبق غيري. لا أعرف لماذا تقول هذا يا بديل الشمس والحال أنه ليس في الأجواء ما يُخيف.

– وأنا كان هذا رأيي – ابتسم السلطان الصالح ابتسامة رقيقة ضاعت على وجهه الشاحب. – غير أني لا أعرف ماذا حدث لي في الأشهر القليلة الماضية إذ اختلّت صحتي. حين أعود من حلب سأعتني بنفسي.

– ابقَ أنت إذن في القاهرة، ونحن نمضي إلى حلب.

– سأفي بعهدي لأني حددت موعداً للناصر أغزوه فيه بالجيش. وسيتحرك الجيش غداً كما حدد مجلسنا العسكري. ولكن، من يدري، إن حدث لي شيء فما أريده مُثبَتٌ في هذا الكتاب دون أن تلبّوا لشجرات ما تريد. وأنا واثق أنك ستضع الكتاب أمام مستشاريّ من الأمراء. أعطني عهداً على القرآن. واقرأ ما فيه. أنتَ تعرفه وأنا أسمعه.

– "من بعدي – يقرأ بيباريس دون أن يغلظ صوته – سلِّموا أمر البلاد إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله"– أعطيك عهداً يا موفد الله ويدي على القرآن أن أوصل الكتاب إلى مجلس المستشارين. – رفع بيباريس يده عن القرآن وهو مشفق على السلطان الذي أخلص له كل هذه السنين، وقلبه يتلوى ألماً عليه.

XI

حين تأمل السلطان الصالح وجهه في مرآة مكسورة وجد نفسه كمن قرأ فيها ما سيحدث له لاحقاً.

المرض الثقيل الذي نزل بالسلطان الصالح بعد شهر من المسيرة أجبر الجيش المملوكي على التوقف عند المنصورة. وفي اللحظة نفسها طار الخبر في أجواء مصر كلها: بغداد والشام وحلب، ووصل إلى الإسكندرية ودمياط التي نزل فيهما الإفرنج. ولم يكن من يتفاءلون ومن يتشاءمون في كل مكان قليلين. وكان الجيش وقادته غارقين في هذا الهمّ. — وتنوعت رواية الخبر حتى بين من هم قريبون من الصدق ومن هم بعيدون، مضيفين إليه، كلٌّ ما يريد.

ولما كان أولُ من يجب إبلاغه بالخبر زوجتَه شجرات، وهي التي تعرف ما سيحل بالرجل، وصلت إلى المنصورة بأقصى سرعتها. ولم يتأخر عنها من أرسلت له: توران شاه ترافقه زوجته كوثر.

جسّت شجرات جبين زوجها الملتهب قليلاً براحة كفها، ثم سحبتها وتوجهت إلى القادة، ولاسيما أيبك بصوت حازم:

– ثقوا أن السلطان الصالح ستفارقه نوبة الحمى وسيعود إلى سابق حاله. ولكن لا حاجة أن يعرف بمرضه الثقيل لا الجيش ولا غيره. لا تدَعوا الأعداء الذين ينهضون في كل مكان يفرحون. اخرجْ من الغرفة يا أيبك، أريدك قليلاً.

حين خرجا أكملت شجرات حديثها، مفصِحة عما في ذهنها تماماً:

– ليس بين قادة الجيش من أثق به غيرُك. وأتأمل في أقطاي وقاهر وقُطز. وأقول لك سلفاً إني فقدت ثقتي بأقرباء كتّتي بيبرس وقلاوون، ومرجانة بينهم. كوثر تؤيدني. انتهت أيام السلطان. سنسبل جفنيه بين عشية وضحاها. وأفترض أن ابنه توران شاه سيستلم السلطنة مكان أبيه. وأكلِّفك أنت بهذا.

وحين تنتهي من الأمر أعدك أمام الله أن ترتفع منزلتك في حكم مصر أكثر من ابني. أنت في عزِّ رجولتك، وأنا لست عجوزاً جداً... احذر من بيبرس الأعور؛ لم يكن لهذا الذي يُحتضَر موضعُ ثقة مثلُه في الأشهر الأخيرة. أعلِنوا اسم توران شاه ما إن يسلّم الروح، أنت وبعض من تثق برجولتهم، دون حاجة إلى مجلس استشاري. ولما كان الصليبيون يتجهون إلينا وقد احتلوا دمياط، فسيسوّغ الناس ما تفعلون.

وبناء على رجاء شجرات السِّرّيّ اجتمعت كوثر ببيبرس وقلاوون. وبنبرة تعالٍ خلافاً للسابق، سألتهم دون أن تفصح عن اسم من تأتي على ذكره:

– السلطان قد لا يعيش إلى اكثر من المساء؛ ما العمل إذن؟

خسف عنقُ قلاوون فزاد قِصَراً، وقابل بيباريس وقد ازرقت عينه الوحيدة أكثر مما هي زرقاء سؤالها بسؤال:

– أسمعت يوماً ما يقال في نواحينا "لا تغمس مغرفتك في ما لا شأن لك به"[1]– سمعتُ في نواحينا، ويقال لي هنا. — أجابت كوثر دون أن تطرف عيناها السوداوان العسليتان، ودون أن تهتز قامتها الرشيقة.

– ماذا تريدين إذن؟ – انتفض قلاوون وهو يمزق رقبته الثخينة.

– أدينكما على عدم مساواتكما زوجي بهذا الذي يفارق الدنيا، ستندمان.

– منذ زمن بعيد ندمتُ على ما فعلتُ من ناحيتك! — انتصب بيباريس واقفاً — اغربي من وجهي حتى أتجنب العار من قِبَلك.

---

[1] يسمّى ما ترجمتُه بالمغرفة: "بلاغ" وهو في الأصل قطعة خشبية مسطحة تستعمل لهرس الحبوب المسلوقة الداخلة في صنع الباستا، الطعام المعروف عند الأديغة.

– يا للمصيبة! هل ستضربني دون أن تحسب حساب المرأة التي ستصبح زوجة السلطان بين اليوم والغد!– قالت كوثر وهي تخرج من الغرفة بقوامها الرشيق وردفيها العاليين دون أن يظهر أثر للرعب على وجهها رغم أنها تظاهرت بالصراخ — سأراكما يوماً وأنتما تتوسلان إليّ طامعَين في رضاي.

– أي إنسان هذه، أي نوع من البشر؟ – توقف بيباريس الذي كان يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً كأنه ألقى من يده السيف غير المكتمل الذي عجز عن سَنِّه، ونظر باتجاه الباب، ثم رجع وجلس على المقعد الذي قام عنه واجماً من الإهانة.

– إن أردتَ قلتُ لك من أي نوع من البشر يا بيباريس — ابتسم قلاوون ابتسامة خفيفة.

– هل ستعلمني شيئاً لا نعرفه كلانا؟ !

– أأكون كذاباً إن نقلت إليك أقوال من يعرف أخبار كوثر؟ نعم، نعم. لا تستغرب، خُطج الذي نسي عند الإفرنج لغته الأديغية هو من روى لي.

– ومن أين يعرف؟

– تبيّن أنه كان في سفينة شرقاي التي أوصلتنا إلى هنا ونحن لا يعرف بعضُنا بعضاً. وكان من الصبيان الذين بيعوا في حلب أولاً. و ما إن وقع نظره عليها قبل أيام حتى تذكّرها رغم مضي كل هذه السنين. ليست أخبارها التي روتها لنا صحيحة. كانت صبية صغيرة هائمة جاءت إلى السفينة وتوسّلت إلى شرقاي اصطحابها إلى حيث يبحر. ويتذكر جيداً أنها كانت تتغنج للتاجر الذي سألها إن كان أبوها وأمها على قيد الحياة فأجابت بالإيجاب، ولكنها لا تريد أن تسمع سيرتهما.

– ولماذا إذن كانت جالسة وراء الخزانة تبكي؟

– ربما شعرت بالإهانة من لفظِ شرقاي لها من فراشه... هل فهمت الآن أنها أكبر منا ببضع سنوات؟

– كفى! – انفجر بيباريس صارخاً، ثم أصلح وضعه بصوت ألطف: – الأفضل من هذه الأخبار أن نفكر في كيفية وضع وصية السلطان الصالح أمام مجلس الأمراء الاستشاري.

– هل جعلك كلام أيبك إليك تندم؟

– لا أحد يستطيع منعي من الوفاء بنذري. لا يجوز التصرف مع السلطان الصالح الذي أخلصنا له إلى الآن بهذه الطريقة؛ هذه خيانة.

انقطع صوت النواح الخفيف الذي صدر من جهة غرفة السلطان الصالح قبل أن يجد بيباريس وصحبه الفرصة للإنصات أو نصْبِ الرؤوس.

فهم بيباريس وقلاوون أن آخر سلطان أيوبي على مصر الملك الصالح السلطان فارق الحياة. وكان هذا في الثاني عشر من شهر تشرين الثاني عام 1249 م.

في تلك الليلة نفسها، وقبل أن يبرد جثمان السلطان، اجتمع أمراءُ الجيش المملوكي الذي انقطع في نصف الطريق، من له علاقة بالأمر ومن لا علاقة له، على نحوٍ مستعجل. وحين نطق أيبك اسم توران شاه الذي سينصَّب خليفة لوالده، نهض بيباريس:

– في الوصية التي أحملها والتي كتبها الملك السلطان الصالح الذي ندعو الله أن يفتح له باب جنته، لم يردْ اسم توران شاه. بل الخليفة العباسي المستعصم بالله. والعادة أن تنفَّذ وصيةُ المتوفَّى.

– قال أيبك: هات الكتاب، وسأل المجلس: – ماذا نعمل؟ هل توافقونني على أن السلطنة وصلت إلى ابن سلطان مصر الصالح توران شاه؟

– الذين لم يوافقوا أيبك من بين الأمراء الثلاثة والثلاثين اثنان بالإضافة إلى بيباريس وقلاوون وتانقز. والبضعة والعشرون الآخرون أعلنوا تنصيبهم توران شاه برفع السيوف المشهرة فوق الرؤوس.

وما إن انتهوا من تعيين السلطان حتى نهض الملك الصالح توران شاه معتدّاً بنفسه. وبعد أن وقف قليلاً وضع يده اليمنى على جانب صدره الأيسر، وحيّا من انتخبوه بإشارة خفيفة، ثم قال:

– أقول لكم جميعاً من يودُّني ومن لا يودني: حياكم الله. لا أكتمكم عدم رضاي عن وصية والدي. ولا تظنوا أن تمزيقي إياها في حضوركم يعني عدم احترامي تقاليد سلطنة مصر للمستقبل. لسنا اليوم في موقع نناقش فيه مَن الأحسنُ ومن الأسوأ. الإفرنج الذين يقودهم الملك لويس التاسع احتلوا دمياط وفي طريقهم إلى القاهرة. يا أيبك وأقطاي وقاهر وقطز، وأنتما يا بيبرس وقلاوون، استنفروا الجيش، واتبعوني؛ سنتصدى للصليبيين الكفار.

أثناء تفرق الأمراء ابتسمت كوثر زوجة السلطان وقد ازدادت تعالياً لبيباريس وقلاوون، ومرّت بجانبهما وكأنها تقول: "هل رأيتما ما تحقق لي؟" ثم استدارت نصف استدارة، وكلمتهما بالأديغية، وقد تفكّرت في الأمر: – اليوم، بمناسبة فرحة أسرتي سأعفّ عنكما. ولكن إن لم تلقيا عليّ التحية الخاصة بزوجة السلطان فاعلما أني لن أغفر لكما ولو كنتما من أمراء الجيش المملوكي.

– يا حلوتي الجليلة، مَن فقدْتِ اتّزانك من أجله... — همّ قلاوون أن يجيب بالأديغية غير أن بيباريس لم يدعه.

– دع هذه المتراقصة!

– أنتَ تفسح المجال هكذا لمن تصدع الرؤوس.

– ألم تسمع؟ ستتحمل ما تأمر به وتفعله بك زوجة السلطان العظيمة.

– لن أتحمّل! – عارض قلاوون صديقه على طريقة الصبيان.
ما فكّر فيه بيباريس بدلاً من الجواب شيء آخر "لم أعد أستغرب سلوك كلبتنا. إنها ممن خلقهن الله دون تربية ودون خجل. يكفيني أسىً أنها من بنات قومي. وأيبك؟ ما لا أفهمه هو سلوك أيبك الشجاع معي. أنا ليس موضوعي مشكلة، ولكن أربأ به خيانته بحضرة جثمان الرجل الذي جاء به من سوق النخاسة وجعل منه رجلاً، السلطان الصالح. كيف تتفق البسالة والخيانة؟ "
في ضواحي المنصورة تصدى المماليك القادمون بخيول أطلِق عنانها لقطعان الصليبيين. ووقف على الكثيب توران شاه سلطان مصر.
الشمس الشاحبة تشرق شيئاً فشيئاً وسط السماء الخالية من أي سحابة. وحرارة النهار الوليد المضجرة تهزم بقايا برودة الليل اللطيفة. يبدو العالم العربي خالياً من أي أثر للحياة إلا شخير الناس والأحصنة.
– أين الصليبيون؟ – سأل السلطانُ توران شاه المثقّل بالسلاح أيبكَ: لا أسمع وقع حوافر خيلهم.
– أخبرَنا المستطلعون أنهم سيصلون بين ساعة وأخرى. – نظر أيبك باتجاه مشرق الشمس – ها هي أطرافُ رماحهم، وخُوَذُهم المدببة تبدو من وراء الكُثبان.
– لا يتدافعون كما كنتم أخبرتموني – ابتسم توران شاه ابتسامة لا تليق به البتة – ألم تخبروهم أني سأتصدى لهم بجيشي المملوكي؟ حسناً فعلتم، ليس بيننا وبين من تهاجمهم سرّ. النصر هو علنُنا. يا بيبرس وقلاوون وأقطاي! كان الملك الصالح الذي وضع سيف السلطنة بيدي يمدحكم دائماً. والآن برهنوا على رجولتكم أمامي.

– نحن لا نستعرض رجولتنا أمام أحد – قال بيباريس الممتطي حصانه باسمه وباسم الآخرين الذين وُجّهت إليهم المزحة المبطنة – ما نحميه هو بلادُنا وديننُا والعالمُ الإسلامي.

– عفارم! مرتاحٌ إليكم، لا تتراجعوا! – أتبع توران شاه أمراء جيشه الماضين للتصدي لقطعان الصليبيين وكأنه لم يصِفْهم بعبارات تثير الغضب والتقزز. وحين رأى أيبك راكباً اعترض عليه: – أنت إلى أين ماضٍ؟ أتريد أن تقاسمهم مديحهم وحدك؟ – طارت ابتسامة السلطان الشاب الكريهة من شفتيه الرقيقتين وضاعت تحت خوذته المدببة. – سنرى وأنت وقاهر ورائي كيف يستحق قادة جيشي المديح. لا تستعجلا، ونحن لسنا دون رجولة. سيقرر مماليكنا الشجعان الساعة التي سنساهم فيها في المعركة.

– لا يذهبون إلى الحرب بحثاً عن المديح! – حسم أيبك الموضوع وقاد جيشه الذي كان في انتظاره.

حين التفت توران شاه وهو يظن نفسه متروكاً وحيداً وراء الكثيب رأى قاهر وراءه، فتوجه إليه بالكلام:

– لماذا أنت ورائي؟ قف إلى جانبي!

– لا، يا موفد الله بديل الشمس، أنا في مكاني – قال قاهر لتوران شاه ممهداً لاسمه بـ "موفد الله" و"بديل الشمس" وأردف بمزيد من التملق: – أنتَ من سيتلقى النصر، وأنا من سيكون وراءك.

ارتفع في ريف المنصورة إثر التحام الجيشين قراع السيوف والتروس. ورائحة الدم المتخمر في الهواء. وأنين الجرحى وتوسلاتهم، والشتائم بمختلف اللغات. والناس المتعادون يجرُّ بعضُهم بعضاً من صهوات الخيل. ويتصارعون على الأرض. والقوي يصرع الضعيف، ومن انتُزع منه سلاحه يركع على ركبتيه. والهارب

يلحق به الأجل. ومن يحمي رأسه بيديه لا ينجو من الموت. والأحصنة الخالية الصهوات، الهائجة من صليل السلاح ومن الدم البشري، تتصارع كالرجال، ويعض بعضُها بعضاً، وتترامح.

– كأن بيبرس يتراجع، وكأن جيشه يُدفَع إلى الخلف! — صرخ بصوت مرتعب توران شاه المرتعد الذي لم يعد يفهم ما يجري في ظاهر المنصورة.

– بيبرس لم يتراجع طوال عمره! — صاح عفوياً المملوك الممسك بلجام حصان توران شاه.

– ومن سألك أنت؟ ! — نهر قاهر ممسك اللجام.

– من هذا الذي يتصدى لكلامنا في ساحة الحرب؟ – سأل السلطان الواقف على أطراف أصابعه في الركابين وهدده: – اترك لجام حصاني واهجم حيث تسيل الدماء إن كنت رجلاً إلى هذا الحد.– وصرخ إثر المملوك الذي أفلت رأس الحصان وهجم شاهراً سيفه: – توفّر على أحد محاربيّ ضربة سيف أفضل من أن أتنفس رائحتك الكريهة. انظر يا قاهر إلى هذا الذي يركض، ماذا قلت لي اسمه؟ نعم، نعم، هو "بَرَقَتْ". الآن تذكرته... نحقق نصراً يا قاهر! الصليبيون يتراجعون. ومن يردفونهم هربوا. مهلاً يا قاهر، لم يحِنْ بعدُ موعد هجمتِنا نحن. أهو بيبرس المحاصَر من ثلاثة صليبيين؟ لا يسمح لهم أن يقتربوا منه. أظن يده اليسرى مجروحة. والترس لم يعد بيده، لا تساعده يده... انظر ماذا فعل؟ صرع من هاجمه. والآخر أيضاً. والثالث هرب. مهما قالوا عنه فبيبرس الذي صاهرتُه مقاتل عنيف. امض الآن، لا نفوِّتْ انتصارَنا !

في ذلك اليوم هزم خليط المماليك البحرية والصالحية الذي يقوده بيباريس وأقطاي وقلاوون وأيبك وقُطز جيش الإفرنج في ظاهر المنصورة. وأسروا ملكهم لويس التاسع وزوجته مرغريت، وأخاه ألفونس، واثني عشر ألفاً من محاربيهم.

والنصر الذي حققه المماليك بسيل من دمائهم قلّد به توران شاه حاجبيه. ولكنه دفع حياته من أجل السلطنة ولما يمض نصف عام على سلطنته.

حين بدأ توران شاه يتَّخذ من المماليك الذين لا يحبون المديح مادةً للسخرية، وبدأ بتصفيتهم سراً وعلناً، لم يقبل القادة الذين استطاع بيباريس جمْعَهم: أقطاي وقلاوون وقُطز وتانقز. واستطاعوا تحييد أيبك الذي كان توران شاه يحتمي به. وأفهموا شجرة الدر أن ابنها ليس جديراً بحمل مسؤولية السلطنة، وأنهم سيكلفونها هي بالمهمة و رغّبوها بأنهم سيحافظون على حياته، فاتفقوا معها على ألا تتدخل في ما يفعلون.

حين تمرّد الجيش الصالحي الذي يقوده بيباريس كان قاهر هو من أخبرهم بمن انفضّوا قبل غيرهم من حول توران شاه بفضل شجرات، وبأن السلطان وزوجته اعتصما بالعُليّة الخشبية.

رفض توران شاه الخروج من العلية الخشبية فأشعلوا النار فيها. رمى السلطان الذي يحرص على حياته نفسه هو وزوجته كوثر في نهر النيل، غير أن أيّاً منهما، وهما يتصارعان داخل الماء، لم ينجُ.

التزم قادة الجيش المماليك بتعهدهم. – كلفوا شجرة الدر بسلطنة مصر. وكما يفعلون عادة مع بيباريس أبعدوه وكلفوا أيبك بمهمة الأتابك المستشار. ولكن كتلة الخلافة الأيوبية لم تقبل بسلطنة امرأة، وثار الأيوبيون المنحازون إلى سورية بقيادة الناصر يوسف، وتحالف معهم أمراء الشام.

" إن لم يكن عندكم رجل يصلح أن يكون سلطاناً فسنرسل إليكم من طرفنا. ألا تفهمون أن كتاباتنا المقدسة تقول إنه لا يجوز تولية امرأة حكم البلاد؟ وأي أمة تفعل هذا لن تجد حريتها أبداً" أثارت الرسالة التي أرسلها خليفة بغداد المستعصم بالله الجماهير في مصر وسورية والسودان، أي في العالم العربي كله.

تخلت شجرة الدر عن السلطنة كعادتها في المراءاة بسهولة في الحادي والثلاثين من شهر تموز عام 1250. وكلفوا أيبك، مستبعدين كالعادة بيبرس، بالسلطنة بالإضافة إلى قيادة الجيش. ولم يمض وقت طويل حتى تزوجته شجرات زوجةً ثالثة.

XII

لم يكن ممكناً فهم العلاقة بين أيبك وبيباريس: لا هما عدوان، ولا هما صديقان. ومع أن كلاً منهما يمتدح الآخر بقلبه ولسانه، ويغتابه أيضاً، لم ينشرا الخبر إلى الملأ. كلاهما مملوك، وكلٌّ منهما مختلف عن الآخر بدءاً من انتمائه، وفي مسقط رأسه، وانتهاء بلغته، وطباعه. الأول تركماني، والثاني أديغي. حين جاء أيبك محارباً شاباً من الشرق، وأُسِر في بلاد العرب الذين جاء من أجلهم صار مملوكاً محارباً لحاميه. وبيباريس الذي سرق وهو صبي، وبيع في بلاد الغربة نشأ في عالم المماليك هذا. والأرض التي لم يكن في نيته أن يبقى فيها، ليس يوماً واحداً، بل ساعة، صار فيها قائد جيش راغباً فيها أو غير راغب مثلُه مثلُ أيبك.

ولم يكن أيٌّ منهما يشتاق إلى الآخر في أوقات الراحة، في البلاد التي أسسا فيها أسرة ونشأا فيها، ولكنهما كانا يجتمعان في أيام الحروب حيث تُشهر السيوف، وتسفك الدماء، وتنكشف شجاعة الإنسان. وكلاهما كان مخلصاً للبلاد التي صار فيها قائد جيش. وكُرمى للإخلاص كان كلٌّ منهما حريصاً على الآخر في المواقف الحرجة. ولم يكن بينهما تهاتُرٌ من قبيل " أنا غلبتهم، وأنت غلبوك ". وكلاهما كان هدفه الأسمى الانتصار وحماية الإسلام والبلاد. وعلى هذه المبادئ ربّاهما السلطان الصالح الذي رحل عن الدنيا. وعليها يربّون مماليكهم.

وكل هذه الأحداث بدأت وتجذّرت في عهد السلطان الصالح. والآن؟ تعاقب على مصر سلطانان في أقل من نصف سنة. أحدهما دفع حياته ثمناً لصبيانيته، والأخرى لم يقبلوا منها أنوثتها فتضامنت كل البلاد العربية حتى عزلوها.

هل عزلوا شجرة الدر عن السلطنة التي وصلت إليها بدهائها الممزوج بريائها، وبدموعها الممزوجة بالدماء أم تنازلت من نفسها؟ كان لهذه المسألة تفسيرات كثيرة، ولكن ما أصحُّها؟

الخلفاء والسلاطين الذين تولوا حكم مصر بإرادة الناس قليلون جداً. وربما ليس بينهم من لم يسفك دم أحد أو دموع غيره. ولا يخلو عرش أيّ قوم من الحاكم. وليس الطامعون في الحكم من عقلاء ومجانين قليلين منذ أن توصل عقل الإنسان إلى فكرة الحاكم وإلى الآن. يهجم على المهمة من لا يستطيع حملها، ومن يستطيع لا يسمحون له بالاقتراب منها. ومن يجلس على الكرسي لا يقبل النزول عنه. وحين يتصارع الطامعون فيها ولا يستطيعون التفاهم فيما بينهم، يختارون من بينهم من يستطيعون ترويضه، ويُغرقونه بالمديح، وينصِّبونه. ويعيش كلٌّ: المنصوب حاكماً والناصب كما يريد. وسواء قال الحاكم المفروض عليه الحكم إنه لا يستطيع حمل المسؤولية، أو إنه مريض، أو طلب منهم إعفاءه، فإنهم لن يلبّوا له طلبه حتى الممات ما دامت السلطة لن تصل إليهم. وحين يسقط يؤبنونه بالمديح، ثم يحمّلونه ما يستحق وما لا يستحق من مسؤولية الأخطاء، فيحمون أنفسهم.

إن لم يُقَلْ هذا الكلام في السلطانين اللذين سبقا الصالح فإن الصالح نفسه أبعدُ الناس عن هذا النوع من الحكام. كان متحلياً بالرجولة – الحكمة، والدهاء – الصبر، ومع أن له سيادة على البلاد التي أصبح زعيماً لها، فالمرأة والولد الناشئان في بيته، الأشد طمعاً منه في السلطة، هما من كانا يقفان في طريق مشاريعه.

هذه ذريعة فحسب لأن شجرات كانت كشفت عن سلطويتها قبل هذا. بدأت تتصيد سلطنة مصر معتبرةً إمارة الشام قليلة عليها، متطلِّعةً إلى الأبعد.

ومع أن الصالح كان يود أن تكون شجرات من هذا النوع، وترفعَ من شأن زوجها، فلم يكن يقبل منها تدخُّلَها في شؤون إمارته ثم سلطنته. وليس الأمر أن شجرات كانت تريد التدخل فحسب، بل كانت تخطط مسبقاً للأمر. عاش الصالح يقول: المرأة إن بقيت دائماً امرأة، ولم ترتد قبعة مكان غطاء الرأس، فلْتتابع قضاياها النسائية، إلى أن حلت به مصيبته. ولكن ليس من هنا فحسبُ بدأت مأساة أسرة السلطان؛ فأصل المشكلة كلها هو دهاءُ شجرات وفِطنتُها، وطموحها إلى المنصب.

هناك نساءٌ لهن قلوب الرجال ومظاهرهم، وإن نظرت في وجوههن ملأْنَك رعباً، وشجرات ليست منهن. هي امرأة سمراء صبوح رشيقة كأنها لم تنصّف العقد الخامس من عمرها، ولم تعان من الحمل والولادة. عيناها ترتاحان أو تلمعان حسب ما تنظر صاحبتهما إليه أو تتحدث عنه. وأنفها الرفيعُ شبهُ الأحدب يتناسب مع شفتيها المعتدلتين بين الرقة والغلظة. ولا يملّ المرء من صوتِها الناعم غيرِ الصاخب. ومن يجلسْ معها، سواء كان رجلاً أم امرأة، يذبْ في سحنتها الجميلة. استطاعت أن تخفي سبب موت الزوج عن الجميع مع أنها هي السبب. وتحملت فقدان الابن على هذا النحو المفاجئ الذي لم تتوقعه كما حدث، داعية له بالرحمة حيث رحل، عاتبة عليه في سرها أحياناً. أما ما لم تستوعبه إلى الآن فهو أن يُنتزَع منها الحكم الذي تسلطت عليه متجاوزة زوجها وابنها. ومع أنها نصّبت أيبك الذي كان كالعجينة بين يديها، وفرضت عليه أن يتزوجها، فإنها لن تنسى ما فعلوا بحقها.

ربما لم تهتم شجرات بكون أيبك أكبر منها بعشر سنوات." ماذا أريد منه أكثر من أن يدير البلاد كما أريد؟ ! إن انحل الموضوع على هذا النحو فسأعتبر السلطنة التي تجمّعتم عليّ فانتزعتموها مني قد أعدتموها متوسلين إليّ أيها

الظالمون ! أعجيبٌ أن أكون امرأة؟ بينكم أيها الرجال كثير ممن يرتدون القبعة ويجبنون عن خوض الحرب. أيبك رجل وسيم يسلب منك النظر بهيئته. لولا أنه كسول قليلاً في الفراش... وهذه ليست مشكلة، بالقياس إلى زوجي الراحل فهو رجل كامل. سأروّضه بحيث لا يملك نفسه حين يراني. وفي حال الضرورة لا تخلو القاهرة من أمثال قاهر. ما أخبار هذا المسكين يا تُرى؟ لم أستطع أن أمنع أيبك من نفيه إلى الشام. وماذا يقول هذان الرجلان اللذان أغلقا الباب على نفسيهما في الغرفة؟ أيكون بيبرس الأعور يحوك مؤامرة ما؟ هيه، لو كان عنده عينان، لا واحدة، لكان السلطان الحقيقي لمصر، كان موضع ثقةٍ في رجولتِه وإنسانيته و أيّ مهمة توكَل إليه. ولكن البائس توران شاه كان مبالغاً في الإخلاص لوالده"

– ما أخبار من أرسلتُ إليهم الشاي معك؟ – سألت شجراتُ الفتاةَ الرشيقة التي خداها أجمل حمرة من الشاي الذي أرسلتها به. — ماذا جرى لك؟ أأسمعوك كلاماً قاسياً؟

– لا، أجابت بهزة رأس مرتعبة إجابة خائفٍ.

– ما الأمر؛ ألم تستطيعي إيصال الشاي إليهما؟

– ضربتني أمُّ نور علي على ظهري بالقبقاب قائلة: لماذا لاتكفّين عن الحركة؟

– وما شأنها بك؟ وأنتِ لستِ خادمتها ولا رسولها، ولا أي شيء آخر؟ أتتكبر لأنها الزوجة الأولى، وولدتْ له؟ ! وهل تلك الشعثاء تجلس معهم؟

– لا. كانت تنتظرني في زاوية المنعطف لدى خروجي.

– اطمئني، سألقّنها درساً. ماذا يقول السلطان وقائد الجيش الأعور؟

– خُيِّل إليّ أن قائد الجيش بيبرس الذي تسمينه الأعور كان يماري سلطاننا بديل الشمس.

– لا تتخيلي – " اسمع كيف تكلّمني هذه ! ! من أسميه "الأعور" تسميه هي "بيبرس قائد الجيش". مع أن شجرات كان قلبها ينتفض مدارية غضبها فقد مدت قطعة ذهبية إلى خادمتها:

– خذي هذه! لن يقدّم لك أحد حتى تلك الجنية مثل ما أقدم أنا. احتفظي بأذنيك حادّتين.

بعد أن أنهى السلطان عمله مع بيباريس لم تجد شجرات وقتاً لمقابلة الزوج خلال نصف النهار. استدعى مرة أقطاي، وأخرى خُطج. وجاء عماد شيخ السلطان وصلى الظهر معه. وبعد ما انتهوا من الغداء بدأ يُسمَع من غرفة أيبك ضحكُ نور علي الصغير.

ذرعت شجرات أرض الغرفة عدة مرات تضيق بضحك الصبي. ثم جلست أبعد قليلاً من الباب وسدّت أذنيها براحتيها. ولم يكفِ هذا فاستلقت وغطّت رأسها بالوسادة: "مهما قلت لمن يلاعب الصبي الذي سقط من بينه وبين المرأة الأولى المدببة الرأس، فهو يفعل ما تريد قائلاً لي حسناً، حسناً. يخدعني. لا أستطيع أن أجعله يُقدِّر قيمة تسليمي السلطة له دون أن أثير في البلاد حرباً. لا أريد أن أظلمه، ففي نصف العام الأول كان يسمع كلمتي. وإن غبت عن ناظريه جرى ورائي متلهفاً. نعم، وكان يأتيني ليلاً أكثر مما يأتي زوجتيه الأُخرَيين. وكنت موضع سرّه واستشارته. والآن لا أعرف من مِنّا نحن الاثنين صرفوه. نلعب ليلاً ونهاراً لعبة "الطميمة"... ما الذي لا يُطيقه؟ ما الذي يجعله بارداً نحوي؟ إن كان السبب تدخُّلي في أمور البلاد فمن المضحك أن أستمع إليها، دعك من حلِّها. وإن كان يظنني اخترته من بين الرجال لجمال قوامه فهذه مضحكة المضاحك. إن كان واحداً لا ينفع لشيء مثله... من ينسى أحياناً ما فعلتَ لأجله... " رمت شجرات الوسادة وقفزت.

تفقدت ملابسها بنفسها دون أن تستدعي الخادمة، واختارت من بين ملابسها لما كانت سلطانة ثوباً يصرّ قوامها الرشيق. لن يحب هذا الثوب من أنا ذاهبة إليه كما أن الفحل يتعكر مزاجه حين يرى الأحمر. ولكن ماذا يهمني الآن؟ لبست وهي تقول في نفسها: ليتذكّرْ أني كنت سلطانة، وأني سلمته المنصب. وأصلحتْ زينتها بسهولة، وتضوعت بالعطر الذي يحبه أبيك:

– الأب والابن جالسان مرتاحين ، يلعبان معاً – دخلت شجرات الغرفة يسبقها عتابها.

– تعالي يا شجرات، تعالي – نطق أبيك اسم المرأة دون لقبها السلطاني أمام الصبي، مستاءً من اقتحامها الغرفة دون دعوتها.

– سأتفضل، وسأجلس، وسأفسد عليكما جلستكما قليلاً... تعال يا نور علي، اجلسْ على فخذي! لو كنت بعيدة عنك من جهة أمك فأين تذهب بي من جهة والدك، أنا قريبتك.

– أنا انتهيت من لعبي! – أسرع نور علي ذو الأعوام السبعة بالإجابة، وقفز من فخذ والده. وامتطى العصا الفضية المنتهية برأس حصان، وهرب من الغرفة شاهراً سيفاً خشبياً مذهَّباً.

– هذا ما سيفعله بك الكبير والصغير حين لا يكون عندك أولاد! – هزت شجرات رأسها وعينُها على الباب الذي صفقه الصبي النشيط – وأنا حملت وولدت. وربيت. والوحيد الذي ولدته راح ضحية البلادِ التي أخلصنا لها، والسلطنةِ التي مزجناها بروحنا هو والصبي الذي كان في رحم زوجته كوثر. ومن أين لك أن تشعر بألمي وولدُك على فخذك؟ ! لن تفهم يا أبيك، لا ألومك أنت ولا الصبي الذي هرب مني لم يحترمني ولا من ولدَتْه. ولكن سأكمل إذ

بدأت الحديث: يحزّ في نفسي أنك حنثت بوعدك لي قبل أن تصبح سلطاناً لمصر.

مع أن أيبك كان يغلي من كلام شجرات قائلاً " لِتقلْ ما تريد. لم يبق إلا أن تركبي على رأسي. فعلتُ كل ما تريدين. ألا يكفي أني صرت مُضغة في أفواه الناس، وجعلتِني هُزأة بينهم؟ ! لو لم يكن إلا ما قاله لي بيبرس... ألا تتوقفين مرة وتعودين إلى رشدك ! ولكن لن أسمح لك أن تُخرجيني من طوري " فقد انغرز سؤال شجرات السام كإبرة في جسده.

– لماذا تنظر إليّ وكأن لك دَيناً عليّ؟

– شجرات، كفى؛ ماذا جرى لك؟

– أنا من يحق له السؤال، لا أنت – لمعت عينا شجرات وهي تعنِّف زوجها دون أن يهتز قوامها – أنسيتَ، والآن أسألك من جديد، كيف نصّبوك سلطاناً؟

– نسيت ! – جعل صوت المرأة السائلة أيبك ينفجر. ثم كرر بطريقة أعنف:

– نسيتُ، كما نسيتِ أنتِ كيف أوديت بالسلطان الصالح إلى القبر.

– كيف تكلّمني وكأنك لا علم لك بكيفية موته؟ – ابتسمت شجرات الآن دون أن تصرخ، ونظرت في وجهه بشيء من النفاق. – لا تنس أننا سنكون كلانا على حد السيف معاً لأنك أنتَ من حضّني على ما فعلتُ وشاركني فيه. ولا تنس أنك السبب في مصيبة ابني وكَنّتي. وأين ذهبت بالمال الهائل الذي افتدى به ملك الإفرنج وامرأته وأخوه والآلاف من جنوده أنفسهم؟ وما مصدر الذهب والفضة التي تخزنها لابنك وهو لم يكد يولد؟ ولا تحملْني على أن أروي لمن تخدعهم من قادة جيشك من أمثال بيبرس وقلاوون وأقطاي.

– أضبط نفسي إلى الآن، ولكن هل حدث شيء لعقلك أيتها المرأة؟ ! — تأمل أيبك الذي لم يكن يعرف ما يقول ولا ما يفعل في وجه شجرات. ثم سأل نفسه " كيف جعلت من هذه المرأة الجالسة أمامي رِجلاً على رِجل، والتي لا تطرف عيناها، وأنا أعرف أنها امرأة شريرة، شريكةً، وكيف تزوجتها؟ "

– كيف تفسِدني السلطنة التي لم يدَعوها في يدي نصف سنة فسلّمتها إليك؟

– قالت شجرات الآن بمظهر امرأة ألطف وأقرب إلى القلب. وامتدحت نفسها تحت ستار معاتبة الزوج: – لا تأخذ عني هذه الفكرة يا أيبك، لست تعرفني اليوم فحسبُ. وبالقياس إلى المرأتين اللتين كانتا من نصيبك فأنا جئت منذ زمن بعيد من حيث كانوا. — ما أشدّ تناسقي كامرأة وما أعمق حكمتي. لو عرفتُ أنهما ستقبلان بي أن أبقى إلى جانبهما أحترمهما كنتُ علّمتهما كيف تعاملانك المعاملة اللائقة بك كرجل، وزرعتُ فيهما التفكير في أمور البلاد... ما العمل لا أحد غيرُك عندي في هذه الدنيا. أحِبَّني، واحترِمني، ولنعشْ معاً ولو زوجة ثالثة قبل أن تأتي بالرابعة. نعم، عرفتَ ما أفكر فيه يا حبيبي. إن كنتُ قلت لك ما يُزعجك فانسه إن استطعت. لو لم أكن أراك سلطاناً حكيماً وقائداً شجاعاً، ولولا أني أحبك لربما ما عاتبتك. وأنت، ربما لأنك تحبني ولأنك تثمِّنني على قدر أفكاري في الحياة،لم تردّ على كلماتي المُرّة إليك. — قفزت شجرات وارتمت في صدر الرجل، ومدت إليه شفتيها الدافئتين الفاطرتين للقلوب.

– مهلاً مهلاً — تجنّبَ أيبك شفتي شجرات.– عيب إن دخل أحد الغرفة. — عودي إلى مجلسك!

– هيه يا سلطاني الجبان المسكين! — ابتسمت شجرات بعذوبة — أَصغرُ الناسِ وأكبرُهم ، يظل يخاف على حبه ويخفيه حتى يتقاذفه إلى الأعلى وإلى

الأسفل، يلعب به. حسناً، حسناً سأعود إلى مجلسي. على هذه الحالة مُرَّ عليّ الليلة. سنستمتع.

– الليلة دور الزوجة الثانية. ولكني سأتصرف. أخرج من عندها إليك.

– لا تُفْنِ نفسك لأجل هذا الموضوع يا حبي الوحيد... – قالت شجرات وهي تريح نفسها في مجلسها الأول: لن أجلس طويلاً. أود أن أعرف، إن لم يكن سراً، لماذا جاءك بيبرس الأعمى على عجل.

– ليس في هذا سرٌّ يا شجرات. ولكن لا أريد أن أَسمعك بعد الآن تصفين بيبرس قائد الجيش بالأعمى. ليت قادة الجيش الأخرين كانوا مثله. أقطاي وقلاوون وخُطَج يُقلقهم ما يُقلِقنا. مهمومون بالسلم الذي أقامه أمير الأيوبيين في سورية الناصر يوسف مع الصليبيين الكفار. انتهت سلطنة الأيوبيين على مصر ولذلك يتميزون غيظاً. يقولون: علينا مهاجمتهم قبل أن يهاجمونا.

– عفارم يا بيبرس ! – صرخت شجرات وهي تصفّق. – لن يسمع أحدٌ مني ثانية ما كنتُ أصفك به. صحيح، هذا موضوع لا يجوز التهاون فيه. وقبل كل شيء أعيدوا من هاجمني المستعصم بالله إلى مكانه.

– سنحارب الأيوبيين أتباع الناصر يوسف ونهزمهم. ولكن موضوع المستعصم بالله صعبٌ... من المستحيل معرفة ما ينويه لنا. إن كان محظوظاً فلن يدع الصليبيين يخدعونه كما فعلوا مع الناصر يوسف.

– ما سيحدث له واضحٌ – أصلحت شجرات هندامها ونهضت. – أنا، وإن كنت امرأة ضعيفة لا تعرف غير الله، ما فعله بي لن ينجو من عقابه. كان ما رآني الأمراء أهلاً له شوكة في عينه. شلَّ اللهُ الأصابعَ التي كان يمسك بها القلم، والرأسَ الذي خطرت له هذه الأفكار وهو يكتب ما أرسله إليّ من بغداد! وليجعلْني اللهُ دواءَه الوحيد.

" أيُّ امرأة هذه؟ ! نهض أيبك حالما صارت شجرات وراء الباب، وبدأ يذرع أرض الغرفة بخطوات كبيرة – تضع اللقمة في فمك وتنتزعها منه ترغب في كل شيء، تشتهيه. لا تتورع عن أي شيء معك لتحقيق ما تريد: ترفعك إلى السماء وتهوي بك إلى الحضيض، تمشي فوقك مكسّرة عظام ظهرك. حقاً لايعرف المرء الخير ما لم يجرب الشر. عرفت الآن أيَّ عيشةٍ عاش المرحوم الصالح. مَن أتّهم بما جرى لي؟ الذنب كله ذنبي. عيوبها عيوبي؛ وإلا ما استطاعت أن تهزمني. ارتقاء الذروة صعب غير أن الانحدار منها سهل. إن قلتُ رفعوني إلى الذروة التي أنا عليها فلا أقصد أني وصلتُ إليها دون دم، ودون جدارة. ولست عاجزاً عن فعل ما فعله سابقيّ. ولكن ما كان عليّ أن أدعها تخدعني. إن كانت ستبقى تراقبني فلن تدعني أنجز شيئاً، ولن تكون عاقبتي معها خيراً. عليّ أن أفكر في تصريف لها. ليس الآن. بل بعد أن أنجز مأثرة يَفهمني من خلالها المماليك وأحتمي بهم في ظلها. لا يُستهان باحترام الناس لها في مصر مع أن الأيوبيين ورجال الدين تحالفوا ضدها وعزلوها. سأبحث وأنا أسايرها كما تفعل هي وأتوسل إليها حتى أوقِعَها في خطأ ما نتيجة لسانها. والليلة سأستجيب لها دون أن أُبدي مشاعري الحقيقية نحوها "

البطولة التي سيجترحها أيبك ليثبت جدارته بالسلطنة ويدعم مركزه فيها حانت في التاسع عشر من شهر كانون الثاني عام 1252 م. تجابه جيشا السلطان أيبك والناصر يوسف في الناصرة. وبعد معارك دامية استمرت ثلاثة أيام، وفيما هم يعتقددون أن النصر سيدين للناصر الآن أو بعد لحظات، أنهى أقطاي وبيباريس المعركة لصالح أيبك. ولكن خبر المعركة وصل معكوساً إلى القاهرة، وأذيع في الجوامع أن السلطان أيبك قُتل على يد الأيوبيين، وأنه احتُفل بالنصر.

ولكن السلطان الذي عاد سالماً إلى القاهرة أنهى عيد المحتفلين نهاية دامية في القاهرة.

أفهمَ أيبكُ الأعداءَ والأصدقاء بما فعله أن المماليك شرسون يرفضون أن يخدش أحد مكانتهم.

ومع أن أيبك كان ممتطياً حصان النصر الأبيض – ربما كان صحيحاً اختلاط الخير والشر – فقد ظهر من بين قادة جيشه من ينوي إسقاطه من صهوة حصان السلطة. كان أقطاي من يحاججه قائلاً: لستَ أنت من جاء بالنصر بل نحن، فاترك الحكم. ولم يكن وحده بل إلى جانبه بيباريس وقلاوون وتيرماق وبرقت. وكان المماليك البحرية معهم. ولم يكن المخلصون لأيبك من قادة الجيش قليلين، ومن بين أخلصهم خُطَج وقاهر، ومِن ورائهم المماليك الصالحية. على مبدأ أن راكب الحصان والراجل لا يلحق أحدهما بالآخر في السباق، فقد ظَلم أيبك، بمعرفة شجرات ومشاركتها، جماعةَ بيباريس: كلّف جماعةَ خُطج أن يكمنوا سراً لأقطاي ويقتلوه. وظن المماليك البحرية الذين يقودهم بيباريس وقلاوون أن أقطاي قد احتُجز فتجمهروا أمام قلعة أيبك لتحريره.

– ما العمل؟ سأل أيبك.

– إذا كنت سلطاناً فلا تسأل أحداً عن إخلاص جيوشك لك. — سبقت شجرات الجميع. — ألقِ رأس من يطالبون بتحريره إليهم، وأفهمهم رجولتك وجاهزية جيشك.

نظرت شجرات في الماء فاكتشفت فيه سمك الرمح القاتل: حين ألقت إليها رأس أقطاي المقطوع تجمد المماليك البحرية.

المماليك الذين تفرقوا شذر مذر هلعين هربوا إلى سورية غير قادرين على البقاء في مصر. وفعل بيباريس وجماعته ما فعله غيرهم، فرحلوا من مصر مذعورين من السلطان الذي أضحى ذا قوة خارقة.

في السنة التي وطّد فيها السلطان أيبك حكمه بدأ في ترتيب أمور بيته وتحجيم زوجته التي يكرهها شجرات؛ فذهب في بحثه عن زوجة رابعة، جاعلاً تمسُّكَه بالقرآن نقطة ارتكاز له، إلى الموصل. فتزوج من ابنة حاكمه الجميلة. فجعلت شجرات التي لم يهُن عليها تقبُّل ضرةٍ هذا المسلكَ من زوجها آخر نفَسٍ في حياته: أمرت بتسميمه.

انفتح طريق السلطنة من جديد لشجرات، ولكنها لم تفعل، بل بدأت تبحث عمن تكلفه بهذه المهمة من بين أمراء الجيش عارفةً أن أعداءها الأيوبيين ورجال الدين لن يقبلوا. وقد توسلت إلى كثيرين حتى الناصر يوسف سراً وعلناً، والتقت بعدد من أسرة الخلافة، ولكن أحداً لم يقبل تسلُّم السلطنة خائفين من المماليك.

ولم يقف أنصار أيبك من أمراء الجند والمماليك مكتوفي الأيدي: نصّبوا وريث سلطانهم نور علي الصبي في السادس عشر من آذار / مارس عام 1257 سلطاناً، وجعلوا من خُطَج وصياً عليه. وبتعبير آخر كانت مصر في يد أمير الجيش خُطج "الوصي على الصبي" دون أن يكون سلطاناً.

حاولت أم الصبي السلطان نور علي الثأر لدم أيبك كثيراً. غير أنها حين لم تجد من يمد يده على شجرات التي كانت زوجة لسلطانين من سلاطين مصر، بل قامت بمهمة السلطان أيضاً، بسبب الاحترام والتقدير اللذين تلقاهما؛ قامت سراً، وبمعرفة قائد الجيش خُطج، باستدراج شجرة الدر،و كلفت الخادمات الناقمات بقتلها ضرباً بالقباقيب.

ووجد أهل شجرات جثتَها في قناة غير بعيدة من قلعة قره جمال، ودفنوها دون مشكلات.

XIII

ليس في الدنيا إنسان مملوك يستطيع أن يلطّف الحياة التي يتجاور فيها الفرح والحزن، والأمل وفقدان النوايا، والولادة والموت، والدمع والدم. متى يا تُرى سيأتي إنسان من هذا النوع؟

إن وجد العام القديم وقتاً لترقُّب – استقبال العام الجديد، فكذلك تغير السلطان في وقته — غيرِ وقته يُفني بلاد مصر، ويتركها بلا حول ولا قوة.

والسلطان الذي تقلّد الحكم في السابعة دخل عامه العاشر. وزاد عمر أمير الجيش خُطج عامين ونصف. وليست قليلة الشعرات البيض التي تسبب بها الموقع الملتبس الذي وجد فيه نفسه. ورجع بيباريس وصحبه من سورية، وجمعوا مماليكهم، واستعادوا مناصبهم السابقة. ولكن الجميع، من تحقق له ما يريد ومن لم يتحقق، يرقبون القادم مهمومين به.

كان عاما 1257 و1258 عامين حرِجَين، فيهما كثير مما يُخيف. وكان العام التالي لهما 1259 أشد حرجاً منهما.

قائد الجيش المغولي هولاكو الذي احتل بغداد، احتل سورية ويسفك الدم فيها. وقوات الخان كتبغا المختلطة من المغول والأرمن والروم والغروزين لا يوفرون أحداً من العرب المسلمين، ويجهّزون أنفسهم للاستيلاء على مصر بين اليوم والغد. والصليبيون الإفرنج يقتربون.

تناسى أمراء المماليك الصراع على السلطنة، وبدلاً من الصبي نور علي، وبتأييد من أمه، أعلنوا تنصيب سيف مظفَّر الدين خُطج مستشار السلطان، سلطاناً. والمماليك الصالحية والبحرية حين وقعت البلاد في وضع صعب قرروا إنهاء الصراع بينهم.

السلطان المنتخب حديثاً خُطج حين أتى، وهو يشكر مستشاره الأمير، على ذكر العلاقات بين المماليك، تبادَلَ معظم المستمعين نظرة صامتة. وجعل من لم يكونوا يقبلون إلى الآن مقتل أقطاي يُغمضون عيونهم. وكان قاهر هو من تلتمع عيناه بوقاحة من بين العائدين من سورية مرتعبين.

" لماذا فرحة هذا الرجل في يوم حداد الناس؟ – سأل بيباريس نفسه، ورغم أنه لم يكن يكتم أن قلبه غيرُ صافٍ له منذ أن عرف أحدهما الآخر فلم يُظهر هذا الشعور. — إن كان قاهر لا تسعه الدنيا من الفرح بسبب أنهم تجاوزوا بيبرس في السلطنة الرابعة بعد الصالح فهو مخطئ. وستقتله أفراحه يوماً ما. أظن أن موعد امتطائنا السلطنة لم يحن بعد. وإن لم أنتزعها منهم، كما قال لي الصالح، فمتى سيحين؟ على ما يبدو إن كنتَ تريد أن يتحقق لك شيء في الدنيا فعليك أن تكون مثل قاهر. وكيف؟ هل أصبح تحت السيف الرجلَ المطرق الأحدب الذي لا أعرفه؟ أفضّل إذن مفارقة الدنيا. إن أرادوني قرّبوني، وإلاّ أبعدوني" — أفاق بيباريس من أفكاره على هزة رأس إلى أعلى، ونظر في وجه قلاوون. والصديق الذي فهم ما في قلبه بادلة نظرة حزن.

حين انتهى مجلس الأمراء الاستشاري عمله، وبدؤوا بالانصراف، نادى السلطان خُطج بيباريس دون ذكر اسمه:

– يا قائد جيش المماليك البحرية، توقَّفْ قليلاً، أحتاجُك، وأنت أيضاً يا قاهر.

لم يعرف بيباريس لِمَ استوقفه هو وقاهر فيما كان يستغرب الصوت الخالي من الفرح الذي ناداه به السلطان. "ما الذي يجمعني أنا وقاهر؟ منذ أن غرق توران شاه وكوثر في النيل لم يتوجه أحدنا إلى الآخر بكلمة. بدلاً من أن يُربط هو ومن كانت تغطي رأسها ويرجما بالحجر بسبب فضيحتهما نفَوه إلى الشام،

وظل فيها إلى أن طرده الأيوبيون. والآن ماذا يريد وعيناه تلتمعان؟ أيريد إحدى أرامل أيبك؟... ما الكلام الذي لا معنى له مني بحق من انتقمتْ لنفسها" — ما إن انتهى بيباريس من تعنيف نفسه حتى صحا على صوت السلطان يكمل كلامه:

– السبب في استيقافكما هو شأن يتعلق بالبلاد. لا داعي لأن أتكلم على الموقف الحرج الذي وضعَنا فيه المغول والصليبيون والأيوبيون — الإسماعيليون، تكلمنا على هذا في مجلس الأمراء. اليوم أعينك يا بيبرس معاوناً أول لي في قيادة الجيش. وأعين قاهر ليكون أول قائد للجيش بأمرتك. مهمة كل أمير جيش مملوكي محددة. لن نقف حجر عثرة في طريقه إن أراد أن يجترح البطولات أمام العدو. انتهى أمري، ولا مجال للمناقشة. ولكن أظنك تريد أن تقول شيئاً؛ أسمعك.

– لا أعيد ترتيب أمر سلطان مصر. ولكن قائداً كقاهر — ابتسم بيباريس في سره مصرحاً باسم من لا يثق به — لا أريده. وعلى سبيل المثال كنت أريد أن يكون معاوني قلاوون.

– إن كان بيبرس قائد الجيش يقول هكذا يا موفَد الله – قال قاهر منادياً خُطط بهذا اللقب لأول مرة منذ تعيينه سلطاناً، ومخفياً قلقه ولهفته — فبدلاً مني يمكن أن يحلّ قلاوون، وراسم يناسبه. ولكن أحداً لن يتهمني بأني لم أُظهر بطولاتٍ، أو لم أسفك دمي في مصر العربية.

– لم يتهمك أحدٌ بعدم الرجولة، ولم يوقفوا أمر تغييرك — رمى بيباريس بصوت قاس إلى من يقف إلى يساره. ولكن لا تقل لي إن مصر بلاد عربية.

– ما المشكلة إن قلت مصر بلاد عربية؟ أليس صحيحاً؟

– وسورية بلاد عربية – ردّ عليه بيباريس بقسوة – لماذا سمحت لكتبغا قائد جيش المغول أن يطردك من الشام؟

– لا تتشاجرا في حضرة السلطان ! – نهض خطج الآن بقامة قصيرة ممتلئة، وأكمل كلامه بصوت ألطف: – صحيح أن مصر وسورية بلدان عربيان من القديم، تلونا بدماء أصحابها ودموعهم. ويمكن أن تقول إن المماليك حموهما. بالنسبة إليك يا قاهر أنهي أمري عند هذا الحد: أنت معاون أول لبيبرس في قيادة الجيش. انصرف ونفذ مهماتك.– ما إن سمع السلطان الذي كان يتمشى على أرض الغرفة صوت إغلاق الباب حتى تسمّر أمام معاونه قائد الجيش، وقال له بنبرة الآمل بالثقة: – ما هذه الأقوال منك؟ أنسيت ، سواء قال العرب أم لم يقولوا، أننا نعيش في بلادهم. ألا يكفي أنني أنا وأنت أديغة فتضيف إلينا قلاوون؟ لم ينقصنا إلا أن تضيف إلينا برقت. وسائر الأمراء المماليك الأديغة الصغار؟

– لم أنس أني في بلاد العرب أديغي وعربي ! – حسم بيباريس بصوت عالٍ – لم آت إلى هنا للحرب ولكن أحمي بلادي التي اكتملت فيها رجولتي، وأسست فيها أسرة، وولد فيها طفلي، لأنهم جعلوا مني مملوكاً عربياً دون إرادتي.

– وأضاف بعد انقطاع قصير: – لم أنس فيها أصلي الأديغي كما بعضُ الناس. ولن أستطيع تبديله ولو أصبحتُ سلطاناً.

ابتسم السلطان:

– حسب ما يجري فإنهم يحْثُون عينيّ بالرمل دون ريح...

– ولماذا دون ريح؟ ألست من يخاف على أصله الأديغي؟

– أكنّا نتكلم على أديغيتنا لو لم أكن أديغياً؟ – تمالك السلطان خُطج نفسه ولو أن طريقة السؤال أثارته، وتظاهر بأنه يسحب كلامه: – كنت أريد أن لا

نُكثر من أمراء الجيش الأديغة عليهم. ولكن ما المشكلة في هذا؟ لا تنسَ أن الله لا يحمي من لا يحمي نفسه، يا قائد الجيش المملوكي المعتدّ بأديغيته. مع أن السلطان مازح ابن قومه فما قيل له جعله ينتفض.

– لا تخف على نفسك إذ نصبوك وأنت أديغي سلطاناً على مصر العربية. لا أتذكر منذ حملوني إلى هنا سلطاناً عربياً. كانوا أكراداً أو تركماناً. كانوا ينسبون شجرات إلى الترك وإلى الأرمن. وأنت، ولو نسيت لغتك، أديغي.

– يا بيبرس تجاوزتَ حدّك! تعيرني دائماً بأني نسيت الأديغية. ماذا وراء هذا الكلام؟

– أريد أن أقول: لم تعدْ أديغياً! — ردّ على السلطان خطج مصارحاً إياه بما في نفسه، ومعبراً عن عدم رضاه بسبْقِه إياه بالنفاق، وحسده له، عارفاً في نفسه أنه لا يُطيقه.

– إن كنت تستكثر عليّ السلطنة إلى هذا الحد، فأضف إليها أيضاً أن أديغيتي لن تضر بعربيتي. ولكن ليس هذا ما يُقلقني في هذه اللحظة. كيف سنعيش في بلاد واحدة بهذه العلاقة بيننا؟ كيف سنجابه الأعداء المهاجمين لنا من جهتين؟

– هذا أمر آخر. ولكن موضع اختبار سلطنتك ليس أمام مجلس الأمراء. بل إذا أكسَبْتَنا النصر ونحن نتحلى بالوحدة على الأعداء. الله الذي أنزل علينا الإسلام العزيز يعرف أنه سيحدث هذا. قلبي يقول لي هذا لأن من يحمي أرضه هو على حق. والسؤال الذي طرحته عن إمكانية تعايُشنا في بلاد واحدة عندي قبله سؤالٌ رجاءٌ. حين نحقق النصر سيسرني أن توليني إمارة دمشق أو حلب. ما حمّلنا اللهُ بإرادتنا ودونها حِمْلُنا. سنعيش معاً في العالم العربي. وسيَظهر

كلٌّ هناك سواء أكان أديغياً أم قبجاقاً أم تركمانياً أم بوسنياً أم تركياً، على حقيقته.

– صحيح يا بيبرس، في العام الماضي، وأنتم عائدون إلى مصر، أليس جيشك هو من كسر المغول عند غزة؟ لم تفعلوا ما فعلتم اضطراراً. بل حبُّكم لأرضكم. جعل هذا الانتصار مصر كلها تنظر بعين الرضا إليكم. وفي شأن طلبك سأعقد لك على حلب وأرفق بها أراضي أخرى. أما دمشق فأين كنت إلى الآن، أرسلت إليها قاهر. – "انظر ماذا يريد هذا ! أعطيك حلب الآن وأمنحك السيادة على البحر الأبيض المتوسط! أما دمشق فهي بلاد كاملة لن أدع عينك تقع عليها. وإن كنت تريد مقاتلتي فأنا أعرف دواءك. سيكون أجَلُك هو الانتصار على أصحاب العيون الخُزْر" ثم غيّر من نفسه سريعاً:

– أعجيب أن منّيتُ معاونك العسكري؟ إن كنت تفضل الشام فسنفكر في منصب آخر لقاهر. اليوم ونحن في وضع صعب، لم نتبادل يا بيبرس أي كلام يسيء إلى أحدنا. وأنا كنت أعرف منذ زمن بعيد جدارتك بمنصب سلطان مصر. وكنت أعرف أن المرحوم أبيك رحل عن الدنيا خائفاً دائماً منك. وأعرف أن المماليك والعرب والكرد وغيرهم تكلموا كثيراً في شأن تجاوزهم لك في السلطنة ومنحها إياي. ومن أين لك أن تعرف المكان الذي ستلمع فيه أول نجمة في السماء؟ وهذا بالضبط ما حدث لي. وأنت أين سيلمع نجمك؛ في الشام، في حلب، في القاهرة، في بغداد؟ وكما يقول البدو: مهما أحكمت قبضتك لا يمكنك أن تمسك بالماء أو بالرمل، فكذلك السلطنة، ليست مهنة أبدية لأي إنسان، سترى قريباً إن لم تصل إليك. ثق بي أني سأرشحك أول اسم. ماكنت أريد أن أقول صراحة ألستُ أديغياً؟ لن أتجاوزك أنت وأقدمها إلى قاهر أو راسم أو تانقز أو أيٍّ من الأقوام الأخرى.

– لا، لا. لا تظنني طامعاً في مهمتك. ليقنعْ كلٌّ بما قسم الله له. وهو من يعرف كل هذا، ومن نحن في قبضته. — "سأقابلك بطريقتك تماماً لأن ما على لسانك غيرُ ما في قلبك" قال بيباريس لنفسه، وأطلع السلطان على ما يجب أن يفعلوه تماماً:– سنباشر قاهر وأنا أعمالنا ما دمت قررت، سنجمع أمراء الجيش، سنكلمهم ونكلفهم بالمهمات. وسنرسل فرساننا المستطلعين إلى بغداد التي سيأتي منها المغول وإلى الشام التي تحرك فيها الصليبيون، وإلى عكا. سنكون جاهزين متى أعلنت ساعة الصفر.

كانت القاهرة، على سلامها الظاهري، تنوء بقلقها: الأسواق المختلفة تزخر بالحركة، الناس يبيعون ويشترون، ولكن الجميع ينتظرون القادم، ويسألون. يقولون: متى انتشر الجيش المغولي الجائع في المدينة أفرغها من كل ما فيها، فيخفي سكانُ المدينةِ وأرباضِها والفلاحونُ كل ما عندهم من ذهب وفضة، ويجففون الخبز، ويكنزون اللحم المقدد في الأماكن الجافة. وهم مهمومون بما سيفعلون بالخيل والحمير والبقر والجمال؟ والأمهات يبكين أطفالهم بنظرات مؤلمة. ويحلقون شعور البنات لتقبيح مظهرهن ما أمكن، ويكسونهن بالملابس البالية، ويطلين وجوههن بما يحرق بشرتهن. كل الناس بدءاً من الصبيان وانتهاءً بالمسنين يستعدون لحماية بيوتهم ونسائهم. ويسنّون رؤوس شُوكِهم ومناجلهم. ويبتهلون إلى الله في المساجد والبيوت ألا يسمح للأعداء الذين يحملون معهم المصيبة أن يصلوا، وإن وصلوا أن يرقق الله قلوبهم عليهم. ولأن المماليك غير المحبوبين هم أملُهم،يدعون لهم بالنصر ناسين أن السلطان أيبك قبل بضع سنين سفك الدم العربي في القاهرة.

مضى أسبوع لم يحدث خلاله حدثٌ مهم في مصر ولا في سورية. ومضى الأسبوع التالي. ومضى نصف شهر آب. والجيش المملوكي الذي قُسم ستة

أقسام كان جاهزاً، ليس بعيداً عن سهل عين جالوت. كانت الجيوش الأربعة، وبفارق نصف يوم بينها، في مواجهة المغول. والجيشان الآخران في مواجهة الصليبيين، بالترتيب نفسه. ومع أن المماليك كانوا موجهين إلى اتجاهين فكلتا الجهتين كانت تحمي الأخرى. ولم تكن الجيوش كلها بعيدة عن ساحة عيني السلطان خُطج. — والفرسان يأتونه كل ساعة بالأخبار، وينصرفون. ولم يكن المغول والإفرنج يقومون بأي حركة.

ومضى الأسبوع الثالث أيضاً على هذا النحو.

لم يكن السلطان خطج يدَعُ بيباريس القائد الأول للجيش يغيب عن نظره. ولم يكن يرى منه ما يشككه فيه، ولا كان قاهر وراسم والجواسيس الآخرون يأتونه بأي خبر مُريب عنه. ولم يُسمَع من أحدٍ من المماليك ما يريب أيضاً رغم مَلَلِهم من الانتظار ومن الحر المتواصل.

– ما العمل؟ أنبقى هكذا مشتتين في البرية؟ – سأل السلطانُ القائدَ الأعلى لجيشه.

– سأقول لك حين يأتيني رجال الاستطلاع بما أشك فيه — رد بيباريس بلا مبالاة.

– هل هنا سرٌّ لا يجوز لي أن أعرفه؟

– أظن أن كتبغا خان لا يستطيع إكمال جيشه لمهاجمتنا.

– كتبغا خان ليس قائد جيش جباناً.

– ربما ينتظر هولاكو خان.

– ألأنك تعتقد أنه لم يغادر منغوليا بعدُ؟ – نهض السلطان خطج سريعاً من عرشه الوطيء وغضب على العدو الذي وضعه في الانتظار إلى الآن: – إن لم

يكن عنده غيرُ هذه الرجولة فلماذا حشد جيشه في مواجهتنا؟ لماذا يصدع رؤوسنا؟

– ظهر الفرسان الذين كان بيباريس ينتظرهم. وجاؤوا بالخبر اليقين:

– الآن، في أقل من ساعة، يا بيبرس، اجمعوا لي الجيش، الانتصار الذي كتبه الله لنا تأتينا به الشمس التي تشرق الآن. – يقف السلطان خطج أمام الجيش في الموعد المحدد، ويدعو إلى الله متجهاً بيديه المرفوعتين إلى السماء: – يا إلهي العزيز، ارحمنا، وامنحنا النصر. ليتبعني حالاً جيش المماليك الذي وضع أمله في الله، والذي هو أمل مصر كلها !

الجيش الذي يقوده سيف مظفر الدين خطج السلطان، والذي كان يتدافع بضجيج هائل لم يستطع كتبغا خان أن يتحمل صدمة الجيش الأول منه، وانهزم لا يلوي على شيء.

صاح السلطان خطج الذي كان يمسح غمد سيفه بدم الفارس المغولي المتدلي من حصانه:

– الآن الحقوا بأولئك الهاربين الذين لا يلوون على شيء. ارموا أمامي كتبغا خان حياً.

المماليك الذين يقودهم بيباريس وقلاوون وترماق وبقتوت وأنس وقاهر وراسم لم يرأفوا طوال ثلاثة أيام بجيش المغول الذي تفرق في كل مكان. وفي اليوم الثالث وقتَ مالت الشمس للغروب، ظهر الفرسان المماليك الذين رجعوا إلى السلطان، وأمامهم الأسرى. وعلى حارك حصان بيباريس كان كتبغا خان.

– نفذنا أمرك يا موفد الله – قال بيباريس مُسمعاً المماليك الذين حملوا النصر والأسرى. هؤلاء بمن فيهم عدد من قادة كتبغا خان أسراك.

– ارفعوا كتبغا خان القائد من حارك الحصان! – قال السلطان راضياً بقلبه وبصوته. وحين أركعوا أمامه الأسير المغولي كتبغا خان لم يقبل السلطان:

– أنهِضوه وحرروا يديه، لم تتحقق نواياك في بلاد الغربة يا كتبغا خان، صحيح؟

– وأنت لم تولد على هذا المكان الذي تقف فيه. – نظر كتبغا بعين غاضبة إلى السلطان.

– صحيح، – ضحك السلطان – ولكني لم آت إليك كما جئت أنت محارباً سلّاباً. ربوني هنا وأنشؤوني. وعانيت أحزانها وهواجسها. وإن كنت شجاعاً إلى هذا الحد فلأنك في مكان تتخلص فيه من روحك فافعل هذا بنفسك. ولأن المغول يحبون السكاكين فاغرزوا أمامه السكين التي جرّدتموه منها. أليس صحيحاً يا عماد؟ – سأل السلطانُ الإمام.

– صحيح، صحيح يا بديل الشمس! يقول الله تعالى: من جاءك شاهراً سلاحه فسيموت بسلاحه. ثم إن هذا أفضل للكفار.

نظر كتبغا لَأْياً إلى السكين التي غرزوها أمامه والتي ذكّرته بأمور كثيرة. وحين انحنى لالتقاطها هوى محاربوه الأسرى إلى الأرض، ثم مسح الدم المتخثر على السكين بكُمِّ قميصه القصير، وعاد فغرزها في مكانها.

– ليس من عادتنا أن يقتل قادة الجيش أنفُسَهم.

– إن كنت ستنجو منها أمكنك اتخاذُها حجة.– ابتسم السلطان ،ونظر هنا وهناك. ثم سأل برقت: – هل أنت مستعد لمساعدة هذا القائد الشجاع – الجبان في تخليصه من الحياة؟

– إن تكلّفْني بهذا فلا اعتراض يا بديل الشمس. أين سيفُ هذا الكافر؟ قطع برقت بضربة واحدة رأس كتبغا خان.

طار الخبر السار بانتصار المماليك البحرية والصالحية في عين جالوت، وتمزيقهم جيش هولاكو بقيادة واحد من أجلف قادته كتبغا في أنحاء العالم الغربي. ووصل خبراً محزناً إل منغوليا. ووصل إلى جيشهم الذي كان يكتسح شمال القفقاس، نواحي دربند[1]. وسُمع في بيزنطة. وجمّد جيش الإفرنج المستعد للقتال. وأفرح التجار على طريق الحرير العابر لمصر. وكذا البلاد التي لها سلام تجاري مع مصر كإسبانيا والبرتغال من دول البحر الأبيض المتوسط. وبعث إلى غيرها آمالاً حلوة.

نُسِب المديح بانتصار المماليك المرويّ بالدم إلى السلطان سيف مظفر الدين خُطج الذي توّج جبينه به. ولم يكن نسي ما حدث يوماً لتوران شاه. ورغم أنه لم يكن يقبل المديح في حضرته فالناس الذين يعرفون أنه يحبه من وراء ظهره كانوا يزيدون فيه. ومثل هذا المديح المبالغ فيه أو الاغتياب كان يفرق أمراء المماليك، ولا يجمعهم.

وما فعله السلطان بابن قومه بيباريس ليس شيئاً بالقياس إلى ما سبق. لم يمنحه إمارة مدينة حلب التي رجاها، وتناسى أنه كان وعده بإمارة الشام؛ فما إن عاد من معركة عين جالوت حتى أرسل مكانه قاهر. وبحجة أن" كل أمراء جيش المماليك يحتاجونك قائداً أعلى لهم، وسنبقى كلانا متعاضدين بصفة معاون

[1] من أقدم مدن العالم. يسميها العرب في كتب الجغرافيا القديمة: باب الأبواب. والاسم مركب من كلمتين فارسيتين: دار: بوابة، وبيند: القفل أو العقدة. تقع على الساحل الغربي لبحر قزوين وتبعد عن جبال القفقاس ثلاثة كيلومترات، وعن عاصمة الداغستان محج قلعة 121 كيلومتراً. وهي جدار ضخم بين آسيا وأوربا كما وصفها الكاتب الفرنسي ألكسندر دوما.

سلطان موثوق" بدّل نيته الخفية في التخلص منه بكلام معسول. ولكن ما شكّ فيه بيباريس أكده في اليوم التالي راسم:

– لا تؤاخذني يا بيبرس. أنا لا أطمع في شيء من جهتك، ولكن شجاعتك واستقامتك جعلتاني أكشف لك عن هذا السر. — واختتم راسم كلامه: – الله حريص على عباده فكن أنت حريصاً على نفسك. يحضِّرون لاغتيالك اليوم أو غداً.

دلف قلاوون مسرعاً إلى الغرفة. وأخبر بيباريس وضيفه بعينيه القلقتين أنه لا يحمل أخباراً سارة.

– اجلسا أنتما وتحدثا! — نهض راسم.

– لا يا راسم. لا انصراف، ما دمنا تواثقنا، قبل أن نحل قضيتنا. — أعاد بيباريس بصوت هادئ قوي راسم إلى مجلسه، وسأل صديقه قلاوون مُظهراً معرفته بالخبر الذي دعاه إلى القدوم — كيف استللت من صديقنا الموثوق السلطان سرَّه؟ هات يا قلاوون، لا يبقى سرٌّ في مثل هذا الموضع.

– أخبرني مملوك يتمتع بثقتي.

– حسنٌ أني لستُ وحدي — عادت الثقة إلى راسم الذي كان قد جلس وقد فقد وجهه الإنساني.

– وأين سنجد خُطج؟ – نهض بيباريس وقد نفد صبره — أقلتَ إنه في الصيد؟

– ومَن مِن قادة الجيش معه؟ – عدد بيباريس أسماء الأمراء الذين سمع أسماءهم، وأدلى هو برأيه:– على ما يبدو لم نعد نحن وباقتوت وأنس ومَغرِب موثوقين في رحلات صيده. امضِ يا قلاوون، نحن مع أمرائنا الموثوقين سوف...

– وأنا؟ – قفز راسم مشدوهاً ولم يدع بيباريس يكمل كلامه.

– أنت لن تخطو خطوة خارج البيت. هذا أفضل لك.

قابلت جماعةُ بيباريس – قلاوون وباقتوت وبرقت وأنس ومغرب – جماعةَ السلطان وكأنهم راجعون من الصيد. وكان المماليك الذين جهزوهم كميناً في مكان كثيف الشجر من الغابة متيقظين. وحين اقترب بيباريس من السلطان بتحية، كما كان اتفق مع أصحابه، قطع اليد التي مدها السلطان ليقبلها، ورماه من صهوة الحصان. وأجهز عليه قلاوون بضربة سيف فصرعه أرضاً. وتصدى باقتوت وأنس وبرقت للحرس المذهولين الذين لا يعرفون ماذا يحدث. ووصل المماليك الذين خرجوا من الأجمة المكلفون باغتيال بيباريس. وحين رأوا السلطان قُتِل في غمضة عين، ولا يمكن أن يُغيّروا شيئاً في الحادثة، استسلموا للأمر الواقع.

أنهى سيف مظفر الدين خُطط السنة الوحيدة التي تبوّأ فيها السلطنة. وفي غروب شمس اليوم نفسه الثالث من شهر تشرين الأول من عام 1260، وقد مضى شهرٌ على تدمير المماليك لجيش المغول، رجع الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري سلطاناً على مصر. وكما يحدث في كل مرة يتغير فيها السلطان، وفي أي زمان، يُنسى الراحل، ويُمدَح القادم.

XIV

حين مضت أيام الفرح والحزن إليه وإلى غيره، التي أعقبت استيلاء الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري على الحكم بالقتل، وبقي على العرش وحده، ارتعب من الأفكار التي هجمت على رأسه: "هل سنقضي عمرنا نتحارب ويقتل بعضُنا بعضاً؟ أنبقى نتصارع لا نعرف من فينا الأقوى والأحكم؟ ألا يجب أن يسود السلام في البلاد ويهنأ الناس بالراحة؟ ما نحن؟ لماذا لا ثقة بيننا نحن المماليك؟ من المذنب في هذا؟ من يتحمل المسؤولية؟... "

نهض بيباريس وكأن الأسئلة المتلاحقة التي يعضُّ بعضها بعضاً تحرقه. ووقف أمام الله متوضئاً ولو لم يحن وقت الصلاة.

بعدما أنهى فروض الصلاة جلس على ركبتيه يروي لله أسئلة يأسه وأجوبتها. يبتهل إليه أن يجنّبه الخطأ ويُعِينه: "أنت يا إلهي من يبتهل إليه الناس ولا يبتهل هو إلى أحد. أنت القيوم علينا. وأنت من يبقينا أحياء. نقترف ذنوباً كثيرة بإرادتنا أو بغيرها تُحبِط صالحاتنا. حين أقررتني بين مسلميك بعدما حملوني إلى مصر صبياً، تخليت عن وثنيتي واعتنقت الإسلام ديناً لا أحيد عنه مخلصاً وحامياً. اغفر لي يا إلهي حديثي عن ديني في عصر سالف. ما أريد أن أقوله لك هو أنني كنت بلا دين في ذلك الزمن البعيد. أعدّ من حسناتي وقوفي في وجه من يريدون سلْبَنا ديننا العزيز من الصليبيين وعبدة الأوثان المغول وسفكي دمهم ودمي. ولكن إن كنت ترى في كيفية وصولي إلى سلطنة مصر ما تأخذه عليّ فاغفره لي لأنني أرى هذا أيضاً في نفسي. وإن كنت أتهم نفسي في ما حصل فلست المسؤول بل هو. ومحصلة الأمر أن أحدنا نحن الاثنين هو المسؤول، أنا أو هو. ولو لم أتصرف على هذا النحو لربما ما كنت أمامك اللحظة. عندي رجاء لك لأنك غلّبْت حظي على حظه فأبقيتني حياً.

أعنّي على أن أجيب على الأسئلة التي جاءت بي إليك. ولأن مصدر الخير والشر هو الإنسان أبعِد عني الشر، وقرّب إليّ الخير. والآن رجاء آخر: ارحم أمي الغالية مرجانة التي عادت إلى جوارك في هذا الربيع. أتوسل إليك أن تفتح لهما باب جنتك لأن بابا أقطاي وأمي مرجانة كانا خيّرين نحوي ونحو غيري. ومن الجهة الأخرى، من بلادي وراء البحر، أرجو أن ترحم أبي وأمي وجدي وجدتي مهما كان دينهم لأنه لم يكن عندهم دين قويم. افهمني واغمرني برحمتك، واجعل خطوتي الأولى في السلطنة التي وصلتني عبر الدم خيراً "

لم تكن الأسئلة التي قفزت إلى ذهن بيباريس في اليوم الأول لسلطنته من نوع الأسئلة التي تتشابك ثم ينفرط عقدها. كانت تقلقه ليس الآن بل منذ زمن بعيد. — بدأت جذور هذه الأسئلة بعدما شارك في عدة حروب بسيف مملوكي مسلول وجُرح ثلاث مرات. ولكن لم ير أحد أنه ضعف أمام هذه الأحداث. وحدث أن اقتربوا منه وابتعدوا بقدر ما سمع من مدائحهم. وحدث أن وقع في مهالك أخرى تافهة غير الحرب، ونجا منها. ومع ذلك فليس مَن نَفَعَّهم قليلين. وكان الناس يعاملونه بالمثل.

والآن، يوم وقف على أعلى مكان في دنياه، أيُّ أسئلة تدور في ذهنه؟ هل تعب في حروب العالم العربي التي لا نهاية لها؟ أم دوخته المكانة العليا التي ارتقاها والأعداء يتعلقون به يحاولون منعه من الوصول إليها؟

تمشى بيباريس بضع مرات على أرض الغرفة المزيَّنَةِ جدرانُها بالزخارف، بقامة قوية عالية كأنها تطاول السقف، وتوقف عند الرف الذي عليه المصحف. وتلا في قلبه الأدعية التي تسبح الله ثلاث مرات. ثم أمسك بالمصحف حذراً مُعزّاً إياه، ومسح به جبينه، وقبّله، ثم ضمه إلى قلبه وأعاده إلى رفّه. بدأ قلب بيباريس يرقّ كما لم يكن طوال عمره، ولانت أطرافه. وأحس بأن راحتيه اللتين

ملأهما السيف والترس باللحم اليابس تعرقان. لمس جبهته. كانت جافّة. ووجنتاه ليستا ملتهبتين، وقلبه لا ينغّص عليه. ومن بين الأولاد الذين يلعبون قريباً من الأشجار المتناثرة في أرض الدار ميّز صوت ابنه سعيد.

"أتساءل ما الذي يحدث لي ! — نهر بيباريس نفسه. ثم تظاهر وهو يعرف حاله بأنه يلومها ويمزح معها: – ما الذي حدث لي حتى أرثي يوم فرحي" — تجاوز بخطوات طويلة عرش السلطان المزين، ووقف، دون أن يعرف السبب، إلى جانب النافذة المطلة على النيل، والتي لا يحبها.

يتموج النيل بأمواج صامتة. ويتحامل على نفسه مبتعداً عن بيباريس على شكل قبة صفراء إلى حيث تلتقي الأرض والسماء.

ما الذي يمثل أمام عيني بيباريس رغم أن النهار ما يزال في منتصفه. الشمس التي تنبعث منها ألسنة اللهب الحمراء تحترق في الماء... والخراف تتدافع منحدرة من الربوة... السفينة، قلاوون، كوثر... أسواق النخاسة... أقطاي، مرجانة... والعجوز الجنية... والتعطش إلى النقود... وأول حرب للمماليك... يعيد التفكير في ما كان قاله له السلطان الصالح "لن يقلّدوك سلطنة مصر لأنك غريب إلا إذا انتزعتها " وحين تنتصب كوثر وهي تغرق في النيل يقذف بيباريس نفسه إلى ما وراء النافذة.

" السلطنة التي كانوا يرغبونني فيها وأنا لا أريدها — عادت أحزان بيباريس من جديد. وقف إلى جانب السيف المعلق بالجدار. — انتزعتُها بالقوة! وماذا الآن؟ ألأول مرة أقتل إنساناً بهذا السيف؟ هذا رابع سيف لي. حدث أن تكسّر في الحرب، وأن طار من يدي أو طيّروه منها. ولكن كنت مخلصاً لمن أحارب من أجله، حامياً حياتي به. كان الله العزيز في قلبي، فوق رأسي، ولو لم تكن الأرض التي أسفك الدم لأجلها أرضي. وبعلمي أو بدونه جعلني سلطاناً على غير

بلادي وأنا أحفر برأس السيف بئراً. لا يمكن أن تملأ بالندى البئر التي ليس لها عِرق ماء، كما يقول العرب. إن كانت البئر محفورة فاعمل بها شيئاً. أعرف أنه لابد للبئر من دلوٌ وحبل، غير أن أصعب شيء هو ما كانت تقوله لي أمي المسكينة: "أعِزَّ أصدقاءَك الذين من طينتك، بلاد ليس لك فيها أمثالهم أنت غريب فيها دائماً" أليس قلاوون وعماد وتانقز وبرقت وراسم وباقتوت وأنس ومغرب أصدقائي؟ أليسوا من كانوا معي حين كنت أحفر بئر سلطنتي؟ أقول هذا ولكن إن أغرقوني في البئر نفسها كما فعلنا بخُطج لأن ماءها عذبة جداً؟ ما هذه الأفكار وأنا لم أستمتع بعدُ بسلطنتي؟ "ابتعد بيباريس من الجدار كأنه يتجنب سيفاً شهروه في وجهه. واستدرجه إلى أرض الدار أصوات الأطفال.

ما إن ظهر السلطان حتى هدأت الدار: والنساء اللواتي كنَّ يهوّين لمنيرة الحامل بقيت منهن اثنتان وابتعدت الأخريات. وحُماة بيباريس كانوا محيطين به لا يفارقونه. وحين رأى بيباريس ابنه سعيد واقفاً على مقعد وطيء يحارب بسيف خشبي وهو يصرخ تألم قلبه غير أنه ما سمعه أنساه ألمه:

– لا تجثُ على ركبتيك أمامي ما لم أجرّدك من سيفك، انهض! — حين رفض الصبي الذي رأى السلطان أن ينهض فهِمَ سعيد أن وراءه شيئاً فالتفت، ولكنه لم يكفّ لهذا عن نهره والعتاب والإهانة — ألم أقل لك أن تنهض؟ ! لا تظن أني لم أغلبك لأنك ركعت أمام سلطان مصر. إذن اغرز سيفك في الأرض وارفع يديك أمام الناس كلهم علامة استسلام.

ابتسم بيباريس بحيث لا تعرف أأعجبه ما سمع أم لم يُعجبه. وسأل الزوجة كأنه يريد تغيير الحديث:

– أتستريحين يا حلوتي؟

– لا أعرف إن كنت جميلة بهذا البطن المنتفخ. ولكني أظن أن موعد كلامنا في الموضوع إن رحمني الله وغمرني بعطفه هو الأسبوع القادم. — ابتسمت منيرة مُبدية اعتزازها بنفسها، واختتمت طريقة استراحتها بين اللوم والمزاح: – أيجعلك تستريح هذا الذي يصرخ ويثير الضجيج هكذا؟ !

– وما العمل إذن؟ هذه هي دنيانا — قال بيباريس ناسياً أنه السلطان، وأنه في أعلى مراتب الدولة، وأن ما سيجري فيها متعلق به، وأضاف في نفسه "القوي يصرع الضعيف. عليّ أن أفعل شيئاً لم يفعله من قبلي من السلاطين من أجل استمالة الناس وكسب ثقتهم، ومنْحِ المماليك فرصة لالتقاط الأنفاس. أنبقى نحارب إلى الأبد؟ يبدو أننا وضعنا حداً للإفرنج الصليبيين. حرب المغول أهمُّ ما ينتظرنا من مهامَّ الآن. أليس لهؤلاء الخزر العيون أعداءٌ غيرُنا نتحالف معهم؟ من جهة بيزنطة يحارب اللاتينيون عند القسطنطينية التي تهيمن على المضيقين. أرتّب أمور القسطنطينية ومجريات الأمور فيها تاركاً القاهرة التي هي أمام عيني !" — عاد بيباريس إلى وعيه بفضل تأنيبِه نفسَه، وأكمل وهو يحاول تقويم الموقف من التفاته عن حديث زوجته: –نعم، نعم يا حلوتي، ما يشغلني يشغلك. قضايا البلاد فوق كل شيء. ولكن في ما يخص شخصَينا فأهم موضوع هو موعد الأسبوع القادم الذي حددتِه. اجلسي أنتِ، ارتاحي، استمتعي بالنسيم، لا تقلقي لشيء. أنا عائد إلى مكتبي لأني دعوت أمراء الجيش. وسأعيد التفكير في الموضوع الذي سأطرحه عليهم.

– أهناك ما يُقلق؟ – سألت منيرة مهمومة بأولادها أكثر من نفسها.

– لا، أريد مناقشة موضوعين أو ثلاثة في خصوص القاهرة والبلاد. وأنت تعرفين، أطلعْتُك عليها قبل أيام.

اجتمع أمراء الجيش مع صلاة العصر في مسجد السلطان. تحلقوا في المدخل حول الماء، وتوضّؤوا. وترك كلٌّ في مكانه سلاحه وحذاءه وواقية الساق، ودلفوا إلى الجامع بجواربهم. ووقفوا وراء السلطان والإمام على سجادات الصلاة الملونة. والسلطان بيباريس يتقدم الإمام عماد بخطوة. وبقية الأمراء يحافظون على مسافة الخطوة هذه، يصطفون ومرافقهم تكاد تتلامس.

يزداد بيباريس إخلاصاً للدين مع تقدمه في العمر لأنه لم يتأخر في اعتناق الإسلام حين وجد نفسه في العالم العربي. ولهذا ما إن تقلّد سلطنة مصر حتى لقَّبَه كل المخلصين للدين بحامي الإسلام، وقدموه على الجميع في الصلاة. ولا يعني هذا أن السلاطين الآخرين لم يلقَّبوا بهذا اللقب، ولم يُعتَبروا موفدين من الله. ولكن من يتعلق بعلم الإسلام الأخضر أكثر من غيره هو بيباريس. كيف أنيطت هذه المسؤولية بالصبي الذي جيء به من خارج بلاد الإسلام؟ أيُعدُّ غريباً في البلاد التي يمارس فيها السلطنة؟ ربما يكون الجواب على قدر صياغة السؤال. في البلاد الأخرى، حيث لغتهم وعاداتهم مختلفة، يمارَس الإسلام بطريقة مغايرة. ولكن أن تصبح سلطاناً على قوم لستَ منهم... أأصبحَ سلطاناً أم انتزع السلطنة؟ هذا سؤال يستطيع كلٌّ أن يحلله كما يشاء لأنه أمر آخر. بعدما انتهوا من الدعاء اجتمع الأمراء في قصر السلطان وقد تخففت قلوبهم. لم يكن على الموائد الفواكه والعصائر وأنواع الحلويات كما كانت العادة في السابق. وقبل أن يجد المجتمعون الفرصة للتساؤل عن السبب خاطبهم بيباريس:

– كما ترون لم أدعُ كل القادة والأمراء إلى الاجتماع. من دعوتُهم هم مَن يساهمون في أفكاري، مَن إذا استشرتهم أغنوا عقلي. ولا تظنوا أن الآخرين بعيدون عني ولا يتفقون مع طريقة تفكيري. نحن جميعنا، الحاضرون والغائبون،

حماة للإسلام دين الله الذي يسأله الجميع ولا يسأل هو أحداً. كلٌّ وجهُه النظيف موجه إلى السماء وإلى الكعبة حسب عقله ورجولته. وقلبه وأمله مفتوحان لهما. غير أن كثيراً من الموبقات تحدث في البلاد تحت ستار حماية الإسلام والنفس. احترام الذات قليل في مدننا وقرانا، وارتكاب العيب كثير. ينجذب رجالنا إلى التدخين أكثر فأكثر، ويدخل بينهم التخنّث. وبعض نسائنا يعشن حياة سرية كما يُردِن. والنساء الفاجرات عندنا تعلّمن فجورهن من النساءِ المرافقات لرجال الإفرنج ومقاتليهم، الحاسراتِ الرؤوس الوقحات. ومن هذه الناحية ليس المغول القادمون إلينا من الشرق محمودين. هؤلاء نشروا بيننا أمراضاً لم نعرفها قطّ. شوارعنا وسخة. وحماماتنا ليست نظيفة. والأسواق مهملة. وشبابنا يدمرون حياتهم في محلات التدخين. أما مقاهينا فهي ملاجئ للذباب والأقذار.

– ويرمون قُماماتهم في الشوراع — حين قال برقت هذا نظر قلاوون إلى القائد الشاب بعينين قاسيتين يريد أن يفهمه عدم مقاطعة السلطان وأتبع نظراته بنداء: – برقت!

– دعه يتكلم، دعه — ابتسم بيباريس متذكراً أن السلطان الصالح كان يحب برقت. — نسمعك يا برقت، الأفضل أن تبوح بما يزعجك، لا أن تكتمه.

– اغفر لي يا موفد الله — نهض برقت مومئاً إيماءة تحية للسلطان – مقاطعَتك. ليس الموضوع أني أعرف ما لا تعرف، أو أني طامع في شيء. أوافقك لأن كل ما قلتَه صحيح. ولكني أريد أن أعرف أمراً لا أفهمه. وما يدعوني لهذا الكلام ليس الفلاحَ الذي يداه في الأرض ليلاً ونهاراً. بل أهل المدينة الغوغاء الغارقون في الطعام والشراب. حين يهاجمنا العدو يُودِّعوننا طالبين منا أن نصدَّه، ونحمي أملاكهم، ويدْعون لنا. وحين ننتصر على العدو يستقبلوننا بالمديح. ثم حين

يمضي بعض الوقت ويزول الخوف يلوحون لنا من ورائنا بقبضاتهم. ما يحدث من ورائنا يُقلقني كالموضوعات التي تكلمتَ فيها يا موفد الله. لا أعرف إن كنتُ مخطئاً.

الصمت الذي ساد الغرفة أعاد بيباريس إلى وعيه: "كيف عرف هذا ما في قلبي؟ عبّر صراحة عن العلاقة بين أهل البلاد والمماليك. لا شك أن هؤلاء الأعداء الذين يدعون لنا بالانتصار عليهم لو غلبونا واحتلوا أرضهم لعاملوهم كما يعاملوننا نحن الآن. يقول من احتللنا صهوات خيلهم: "قبل أن تدخل فكّر في طريقة الخروج !" أكان ذنبَنا حين ألقونا على سروج خيلهم أن أفسحوا لنا المجال لنمسك بأعنّة الخيل، فتشبّثنا بها؟... نقابلهم بمثل ما قابلونا به. أنا وقعت في أسرة طيبة ربّتني لا تحيجني إلى شيء ولكن هؤلاء الجالسين أمامي، وغيرَهم من أمراء المماليك، بمن فيهم أولئك الذين رهنوا أرواحهم لغير أوطانهم، هل وصلوا إلى مناصبهم العالية دون دماء ودموع؟ ما معنى أن يهددونا الآن بالقبضات؟ ليقفوا إلى جانبنا بدلاً من التهديد، ولْيُقاسمونا دماءنا ودموعنا! ولكن لا يجوز تغليب العنصر المحلّي على المماليك لأنهم طماعون في مناصب القيادة. ما إن تُردفهم على حصانك حتى يرموك من على سرجك. هذا موضوع لا أريد طرحه الآن أمام المجتمعين. سنصل إليه يوماً ما كما وصلنا اليوم " — لم ينس السلطان بيباريس ما سأل عنه برقت:

– لستَ مخطئاً يا برقت. سبب اجتماعنا هو الكلام في هذا الموضوع وغيره. ليس صحيحاً انفصالنا عن الناس. حبسنا أنفسنا في القلعة، وما إن نسمع إشارة النفير "مارْج" حتى ننطلق. لسنا رجال حربٍ فحسبُ. نحن من يحمي مصر وإسلامها، ويقوم بما تحتاج إليه من إجراءات السلام. حسنٌ أن تضموا أهل البلاد إلى الفرسان المماليك المكلفين بحماية المدن والقرى. علينا أن لا

نغيب عن الشوارع والأسواق، وأن نحمي الجسور و المقاهي والمطاعم، وميادين سباقات الخيول. أكلّفك منذ هذا اليوم يا أمير الجيش مغرب بترتيب هذه الأمور. وأعيّن راسم وبرقت معاونين لك. وسيكون مستشارك إمام البلاد عماد. لا أحدد موعداً مستعجلاً، ولكن أطلِعوني دون تأخير على أفكاركم. سنتكلم فيها على نحو أكثر تفصيلاً. وسنجمع أفكارنا، وسأطلع الناس على أوامري في الجوامع. وأنت يا قلاوون فكِّر بطريقة تجنيد السكان في الجيش، الراغبين منهم، لا إجبار. والمطلوبون هم مَن أعمارهم بين الثامنة عشرة إلى العشرين، من ذوي الأجسام السليمة.

– منذ اليوم سأعمل على تنفيذ ما كلفتني به يا موفد الله.– فعل قلاوون كما فعل مغرب: نهض ثم جلس.

– لا تتعجلوا الأمور. اعرفوا لماذا يريد من تخاطبونه أن يكون محارباً، اعرفوا حقيقة نواياه. أفهموه أنه لا إكراه في الأمر، وإن سقط في سبيل الوطن فلا احتجاج ولا اعتراض. والآن قضية أخرى ملحّة: الصليبيون استطعنا تجميد نشاطهم وإن لم ننتصر عليهم نهائياً. انتزعنا منهم أكثر مدننا على البحر الأبيض المتوسط. وهم يحتاجون إلى وقت حتى يقفوا من جديد على أقدامهم. غير أن الأعداء القادمين من الشرق، المغول، أعداء شرسون. ولأجل هزيمتهم نحتاج إلى حلفاء من الشرق. وأتوقع أن يوافقونا لأن المغول يتدفقون من هذا الاتجاه. ولا حاجة للكلام على الإسبان والبرتغال وجزيرة كريت لأن لنا علاقات تجارية معها. أرغب في إرسال مبعوثيّ إلى بيزنطة ولو أن رأس الكنيسة في روما يؤيد الإفرنج. ولأن الملك باليولوغ استقل بالقسطنطينية سأتفق معه

على إعطائي حق العبور في المضيقين. [1] ومن جهة شرق القفقاس فخانات المغول وأليخانات الفرس يحتلونه. والمضيقان اللذان هما الطريق الوحيد لنا إلى الجنوب الغربي من القفقاس سيكونان طريق المماليك. وسأرسل الأمير كوشاربيك للاتفاق مع خان القبيلة الذهبية للوقوف في وجه المغول المتدفقين على هذا الاتجاه. [2] وهنا ننهي كلامنا. فكروا في ما قلت لكم، وإن جئتم إلى اجتماعنا التالي بأفكاركم فسننسق أقوالنا وأفعالنا على نحو أفضل. ولكن قد أحلّ إلى اجتماعنا القادم بعض القضايا التي لن نتكلم عليها. توقف يا قلاوون قائد الجيش الأعلى، أحتاجك.

لم يعد بيباريس إلى عرش السلطان. ذرع أرض الغرفة بضع مرات ويداه متصالبتان وراء ظهره ثم جلس على المقعد المقابل لمقعد قلاوون. وقال لصديقه بالأديغية مُفهِماً إياه صعوبة مهمات الدولة التي كلّف نفسه بها:

– هكذا تجري أمورنا يا قلاوون. لا تنظر حولك، لا أحد يسمعنا. نتكلم العربية في حين نفكر بلغتنا.

– وأنت أيضاً يا بيباريس؟ – سأل قلاوون راضياً بما سمع – لأن هذا يحدث لي أيضاً.

---

[1] المضيقان هما مضيق البوسفور ومضيق الدردنيل.والكلام على الانفصال التاريخي بين الكنيسة الكاتوليكية ومركزها روما، والكنيسة الأرتودوكسية ومركزها القسطنطينية عام 1054.

[2] أو مغول الشمال أو مغول النغوي أو مغول القبجاق. حملوا هذه الأسماء لأنهم استقروا في أرض القبجاق الذين هم النغوي. وتحولت لاحقاً إلى خانات تركية.

– يجري معنا هذا لأننا أديغة، لا نتحرر من قلبنا الأديغي. – ابتسم بيباريس مسروراً لما يسمع وتابع ما انقطع: – ليست العربية لغة تواصل بيننا فحسب، بل نحارب من أجلها، نحمي بها بلادها ودينها. نقلق لحال العالم العربي.

– لا أستطيع أن أقول إن هذا ينطبق على من لم يكن يعترف بأننا أديغة.

– لأنك تعتبر السلطان خطج لم يعد أديغياً، كان بلا رجولة. أنت مخطئ. دفع ثمن كونه لم يستطع تطويع قلبه الأديغي المتناسب مع رجولته. نحن لا ذنب لنا. ليُسكِنه الله الجنة حيث هو إن كان يستحق. اسمع يا قلاوون: دعنا نغني بالأديغية. – أنهى بيباريس فجأة كلامه.

– أي نوع من الأغاني؟

– من أين لي أن أعرف؟ أي أغنية تخطر لك. بل يمكن أن نغني أغنية المهد.

– كيف تتذكر الأغنية التي غنَّوها لك في المهد؟

– ألا يبقى اللحن في أذنك ولو نسيت الكلمات؟ ألا تتذكر؟

– أتذكر الأغنية التي كانت جدتي تغنيها لأخي الصغير.

– ابدأ، وأنا أترنم معك باللحن.

– لاي لاي نُوري،

من ينام الآن ابني،

نار الموقد تشتعل،

ومن سيصبح شجاعاً ابني...

– ساوسروقوه غالٍ علينا،

سوسروقوه نورنا،[1]

[1] أي ابن سوسَر. من أبطال ملاحم النارت الرئيسين.

يقاطع بيباريس مرة أخرى أغنية المهد بكلمات مختلفة. . يكفي ! الآن يعنّف بيباريس نفسه، ثم يبرّئها: – لا تؤاخذني يا قلاوون. لا أعرف حقيقة ما في قلبي. احذر إذا بدأت تطوّع أهل البلاد في الجيش المملوكي؛ لا تُكثر منهم. لا يستطيع الراكب على السرج ورديفه الإمساك باللجام.

XV

كان جهلُ موفدي مصر إلى قائد القبيلة الذهبية بما ستؤول إليه سفارتُهم كجهل المركب على البحر من أين ستهب الريح على الشراع. حين يُقال: من يبدأ رحلة لا بد أن يصل، وإذا كان لكل بداية نهاية، فكيف ستكون النهاية؟ كان السلطان بيباريس وموفده الأمير كوشاربيك قلقين من هذه الناحية. الأول كان في القاهرة محاطاً بحراسه المماليك، والثاني كان على البحر الأبيض المتوسط تاركاً وراءه طريق البر.

"الإنسان عنده أذنان وفم واحد، اسمع مرتين وتكلّمْ مرة واحدة" — لا ينسى كوشاربيك ما قاله له السلطان بيباريس قبل أن يركب الطريق. وكلما فكر في أصل الكلام لم يكتفِ بأن يجد فيه ما يريده هو بل وجد السلطان يخرج من أفكاره بتسع نتائج مختلفة: "لا أتذكر أن بيبرس كان معروفاً بالكلام في قضايا البلاد، بل كان يقال: بيبرس يتحلى بالرجولة. محارب شرس، غير أن عاماً واحداً من سلطنته جعل الناس في مصر ينظرون إليه بعين أخرى، صحيح أنه سفك كثيراً من الدم غير أنه استطاع أن ينشر في القاهرة الأخلاق الحسنة والرهبة. وجعل الناس في بلاد أخرى كثيرة يرفعون من شأنه. ووصل إلى الدول المجاورة أن رجولته وحكمته متلازمتان، وجعلهم يتطلعون إلى الأبعد. إن تحققت مهمة القسطنطينية فطريق الخان الذهبي مفتوح. ثم نخالط الأديغة الذين يعيشون بين البحرين في شمال القفقاس. وسنتصل بالقبجاق البدو. هذا إذا نجحت مهمتنا عند الملك باليولوغ."

مع أن خبر تولي بيباريس السلطنة لم يصل بعدُ إلى باليولوغ فإنه لم يدَعِ الأميرَ الموفد إليه ينتظر طويلاً. — حين أخبروه بالمكان القادم منه، وبأهداف سفارته، أزاح أعماله جانباً ودعاه إليه.

– تفضلْ يا موفد سلطان مصر الذي يحمي طريق الحرير القادم إلينا! أنت واحد ممن أتوا إلينا في مهمة سلام منذ حررنا القسطنطينية. أهلاً بك. وسلطانكم – تلعثم الملك الذي لا يعرف اسم السلطان قليلاً، فنهض موفد السلطان مبدياً احترامه لمن أوفده، ونطق بالاسم الطويل له:

– الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، ولكن باختصار يكفي أن تقول: السلطان بيبرس.

– أهو بيبرس قائد جيش المماليك سلطان مصر الآن؟ – مع أن السلطان تعجب من الخبر الذي سمعه فقد أكمل دون انتظار الجواب: – سمعت كثيراً بشجاعة القائد بيبرس. إنه جدير بمنصب السلطان. أدعو له أن يتقدم في أعماله، وأن تتحقق نواياه، ويكون في صحة ممتازة، وتعيش بلاده في سلام. والآن أسمعك أنت.

– أنقل تهنئة الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري سلطان مصر إلى الملك الشجاع ميخائيل الثامن باليولوغ لانتصاره على أعدائه وتحرير القسطنطينية منهم، وتحرير المضيقين. ويُهديك هذا السيف الذهبي تذكاراً. والصندوقُ الهدية أدعو الله وإلهكم أن يبارك لكم فيه. والآن أطرح في حضرتك المهمة التي أُوفدت لأجلها: يرجوك سلطاننا أن تسمح لسفننا التجارية بالمرور في المضيقين. وما تفرضه رسماً علينا مستعدون له.

"لن نتأذّى من طلبكم بل قد نستفيد منه" – قال الملك لنفسه، وأردف مصلحاً وضع الصليب الكبير على صدره:

– طلبكم سهلٌ علينا بسبب موقع بلادنا من جهة طريق الحرير. ويمكن أن نتصافق على ما يدفعه تجار الطرفين. ما رأيكم في هذا؟

"بدأ هذا يبحث عن مصلحته قبل أن نبدأ في الحديث" – ابتسم كوشاربيك في سره، ثم أجاب بصراحة:

– من جهتكم هذه وجهة نظر مقبولة – لا ضير في الكلام على ما فيه فائدتك. ولكن سلطاننا قد يكون فكر في هذا، وسأطلعك على رأيه: لا يمر يوم على تجاركم، على مدار العام، يغيبون فيه عن مصر طريق الحرير، وما نحن في موضوعه هو رسمُ كل سفرة على حِدة: ذهاب واحد وإياب فحسبُ.

– هل ما قلتَه صدر من السلطان أم جواب ما عرضتُ؟

– لا، أنا أنقل كلام السلطان فقط. أعمل ما فوّضني به. ندفع رسم كل مرة نعبر فيها.

– أقبل. – لم يماطل باليولوغ الملك في الجواب. ولكنه أضاف بسرعة كلاماً لا مواربة فيه: – إن كنت تقول هذا فعقل سلطانكم بيبرس حاد كسيفه. إن كنتم محظوظين أظلَّكم بظله طويلاً. وشاهداً على تعاملي معه بصدق أوصلوا إليه هذا الإناء الذهبي تذكاراً مني. وسيكون ضيفاً عزيزاً عليّ في أي وقت.

تحقق الهدف من سفارة كوشاربيك بأسرع مما كان يتوقع. وبدلاً من يوم أمضى ثلاثة في المدينة دون عمل. وقضى وقته يرفّه عن نفسه، لا يرفض عرضاً بالذهاب إلى أي مكان يُقترَح عليه كُرمى للملك الذي لم يرفض له طلباً. واعتبر، وهو يطير من الفرح، الأيام الثلاثة التي قضاها هناك تساوي الأربعين عاماً التي عاشها إلى وقتها.

– هكذا يجب أن تُسعِد نفسك إن كنت إنساناً يا جلات.– قال كوشاربيك من أعماق قلبه لمعاونه جلات. – ما حياتنا أنت وأنا؟ استنزفتْ سروجُ الخيل قوانا. نعيش ودماء من يموت تحت سيوفنا لا تهز مشاعرنا. نفرح حين نساق

إلى مواجهة الأعداء ، ونفرح حين ننجو بأنفسنا من المعركة... نبتسم للسلطان إن وقفنا بين يديه. ويجب أن نفرح... لمجرد ذِكرِه.

– يا صديقي العزيز كوشاربيك – قال جلات وهو يدور بعينيه متمنياً ألا يسمعه أحد من رفاقهما – والله تكلمت جيداً إلى الملك من أجل السلطان بيبرس. أجبرته على القبول حين أخبرته بأن سلطاننا فكّر في الأمر. لولا دهاؤك كان ملك الكفار، رغم أنك نبّهته ينوي أن يخدعنا، ويفرض على موفد الله بيبرس السلطان الرجل الحكيم الشجاع ما يريد.

– لا تصدق ما قلت لك فتخدعَ نفسك... – ابتسم كوشاربيك ابتسامة خفيفة. من كلمة واحدة فقط يجعلون منك رجلاً حكيماً أو يتهمونك بالجنون. لا تبالغ في الحذر من الجوار إذ لا أحد يسمعنا. أفي هذا اليوم فحسبُ رأيت بيبرس؟... ألستما أنتما من كانا يتضاربان في الشارع ضرباً مبرحاً؟

– نشأنا معاً ونحن صغار في الشارع، وصرنا أمراء في وقت واحد. ولكن لا أذكر أن بيننا عداء كالذي تذكره.

– سمعت بيبرس يأتي على ذكره مرات كثيرة وإن لم تذكره أنت، وكان قاهر يوافقه – وضع كوشاربيك لصديقه النبرة على الاسم الأخير.

– ربما تشاجرنا ونحن أنوفنا ما تزال تسيل، متى جرى هذا؟ – "ارتعش جلات وهو يقول" ماذا يريد هذا " –كان بيبرس في صباه أيضاً قوياً جداً، ولكن ليس محروماً من الرحمة. لماذا يا كوشاربيك كل هذا الاهتمام والتفاصيل من أجل سؤال بريء؟

– لأني كنتُ أريد أن تقول إن السلطان بيبرس كان في صباه قوياً جداً ورحيماً – سحب كوشاربيك الموضوع الذي بدأه حين فهم أنه لن يؤدي إلى أي نتيجة: "كنت أستغرب تعيينك زميلاً لي لأنك إذا كنت أنت عدوه طوال

العمر فأنا صديقه منذ عرفته... إن كان رأيك هكذا فلا تظن أني ساذَجٌ أشرب الماء من أنفي، كما يقال" – نعم، هذا يا جلات، سواء كنا نمزح أم نتكلم الجد، ما وصل إليه عقل السلطان في عام واحد: أوقف في عام واحد الحرب في غرب مصر وشرقها. وفي كل مكان يوطد النظام عن طريق أناس محددين. وإن كان السؤال عن الناس الذين أعدِموا، خارج القاهرة، وفي أي مكان آخر، فهم يستحقون ما فعل بهم لأنهم أشخاص أشرار، ولصوص. وبالنسبة إلى القذارة التي لاحظناها في عاصمة ملك الكفار الذي أوفِدنا إليها فالقاهرة تصبح نظيفة، وتظهر فيها من جديد مظاهر الاحترام. واختفت النساء الفاسقات من المطاعم والمشارب والخانات. يجب أن تذهب إلى مكان آخر وترى ما فيه من أجل أن تغير نظرتك إلى ما هو دائماً أمام عينيك. سنستريح الليلة، ونعود فنركب طريقنا غداً داعين بطول العمر لسلطاننا ركن الدين بيبرس. وإن وجدنا، كما رجاني السلطان نفسه، قريته سلخوت فسندخلها.

– وقلاوون أيضاً أخبرني أنه من هناك، ورجاني.

– حقاً؟ – سأل كوشاربيك مخفياً استياءه من أنه لم يرجه هو – لم يقل لي أنا شيئاً... من الصعب معرفة طبيعة قلاوون، لن يشكرك مهما خدمته. تصبح على خير يا جلات.

مضى على تعارف كوشاربيك وجلات عدة أعوام، بعد وفاة السلطان الصالح. كوشاربيك من القبجاق. قضى خمس سنوات في أسر المغول. ولما كان يعرف العربية والأديغية والرومية والنغوي، ولغات أخرى ظل المغول يصحبونه إلى كل مكان. وحين وصلوا إلى بغداد التجأ إلى المماليك. وتعارف بيباريس وجلات في دمشق، وضُمّا إلى جيش مملوكي واحد. وحاربا جنباً إلى جنب في معارك كثيرة. ولكنما لم يُطلِعا أحداً على موضوع عدائهما وهما فَتَيان. ما علاقة قاهر

بما قاله كوشاربيك أمس في شأن جلات؟ هاهما الآن يحميان بلادهما معاً. أحدهما سلطان مصر، والآخر قائد جيش.

"إن كنت أنا لا أعتب على بيبرس — سأل جلات نفسه وهو يعيد التفكير في الحديث الذي دار بينه وبين كوشاربيك؟ – فلماذا يعتب هذا عليه؟ كان بيباريس قد توسط له مع قُطُز الذي قتلوه، ولما يمض على وجوده معنا إلا بضع سنوات، ليمنحه رتبة أمير عشرة متجاوزاً أمير الخمسة. وفي اليوم الذي بدأنا فيه السفر رفّعه السلطان بيبرس إلى أمير عشرين. إذا كان الوضعُ هكذا فليس عجيباً متى رجعنا إلى مصر أن يلحقني في رتبتي أمير الأربعين، التي حصلت عليها بالدم. ورغم أني أقْدمُ منه رتبة فقد جعله على رأس وفده بحجة أنه يتكلم عدة لغات. ولم يقبل أن يصحبني حتى معاوناً له قائلاً: "أنا أعرف اللغات، أما أنت فأعجم . ماذا تفعل عند ملك الكفار؟" وكان وحده في الأيام الثلاثة التي "تركهم يمتّعونه" فيها. لا أعرف نيته الحقيقية... كان يمكن أن يكون مترجمي!

– يا جلات لا أعرف فيم تفكر في هذا الجو الرائع؟ – ارتفع صوت كوشاربيك — انظر إلى الجبال المطلة على البحر! ما إن تترجل من السفينة حتى تطأ أرض الجنة. لهذا لا ينسى السلطان بيبرس وقلاوون قائد الجيش ومقاتلو المماليك، وعامّتهم، هذه الأرض.

السفينة المرفوع شراعها تسبح تحت شمس الربيع. وكلما اقترب الشاطئ ارتفعت الجبال التي تتلوّن بالأخضر الأبيض. والنسيم الخفيف يحمل رائحة البراعم الفتية. وطيور البحر البيضاء تتقاطع على سطح البحر، وتتراقص على سطح الماء. وبعض الكواسر تحوم كسلى على القمم بأجنحة مفتوحة، تراقب ما حولها. وعلى مسافة أخفض أسراب من السنونو ذوات البطون البيضاء تُلاعب أشعة الشمس. وريح البحر تتلاعب بفراشات الجنة.

"من البديهي ألا تنسى مثل هذه الأرضِ الجنةِ... — تذكر جلات شِجاراته هو وبيبرس في أيام الصبا.- وأنا أشاجرك إن قلت إنها قبيحة مع أني لم أولَد في هذه الأرض. اغفر لي يا بيبرس إن كنت تتذكر لم أكن أولَ من بادر بالعراك، بل قاهر. ولأني لم أكن أعرف كيف أُصرِّف نشاطي العدواني عاركتك. ولكن لا أنسى إلى الآن كلامك إلى عماد وراسم: لا تضربوا الصريع. وقاهر؟ تركني لكم وهرب. وبعدها حدث أن تصالحنا وأن تضاربنا. ولكن لم يؤثر هذا سلباً في حماية بلد واحد"

– يا جلات كأنك تعشق البلاد التي نسبح إليها قبل أن تطأها قدماك؟ – سأل كوشاربيك ثانية جلات بين السخرية والمزاح. وأضاف بسرعة: – هذا هو الفرق بين بلادكم وبلادنا، تجد نفسك في جنة جاهزة.

– كلٌّ يرى بلاده بعينه هو — وضع جلات قدمه في أرض الأديغة مستبقاً بالبسملة – وبلادي التي خُلقت فيها جميلة. والبدو لا يفرّطون في أرضهم الرملية ولا في شمسهم الحارقة، ولافي رياح الخماسين، ولا في آبارهم الجافة. والمغول الذين خربوا العالم يركضون من الشرق وبلادهم في قلوبهم إلى الغرب. أسمع أن هذه الأرض الجنة ملك مشترك بين الأديغة والقبجاق.

– لا ! – استغرب كوشاربيك ما سمع وكأنه يقول: أيُّ سؤال هذا! — الأديغة يعيشون في الجبال وفي السهول، ونحن أصبحنا جيرانهم بعد ما اجتزنا أرض الخزر المفتَّتة باتجاه ريفهم الشرقي. ولا يمكن معرفة طبيعة علاقاتنا، وكذلك صلاتنا، وتَجافينا. من الصعب أن تعيش على أرض لم ترْوِها بدمك وعرقك. لا تحسُّ به بقلبك ولا بروحك. نحن موعدُنا مكان نزولُنا ومكان ترحالِنا. نعيش في الأرض التي أعجبتنا ريثما تُجهِز مواشينا على الكلأ. لا أرض محددة لنا، ولا سماء. ولهذا يقول لنا الأديغة: نار أذيال خيل النغوي موقدة دائماً.

– وهل القبجاق نغوي؟

– ما من شيء لم يُلصقه الأديغة بنا. — ضحك كوشاربيك الآن بطريقة تلاحظ فيها عليه ضيق عينيه.– نحن قبجاق، ونغوي، وقنزال، وخُزر العيون، ونحن نجد ما نصِم به الأديغة... مهلاً، مهلاً يا جلات، هؤلاء الفرسان أظنهم مَن هم في استقبالنا. ظننتم أني متّعت نفسي في القسطنطينية ثلاثة أيام ولكني تابعت موضوع استقبال هؤلاء لنا. — اقترب كوشاربيك من الفرسان وهو يحاول التراجع عن قولِه قبل أيام إنه متّع نفسه لدى الروم — هل أنتم من ينتظرون موفدي سلطان مصر الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري سلطان مصر؟

– أهلاً بكم — ترجل الفارس النحيف ذو الوجه الطافح الذي يتقدم الخمسين من جماعته فترجل الآخرون. — يا ضيوفنا القادمين من جهة مشرق كبير الآلهة الشمس، مصر. تدخلون أرض الأديغة على نية الخير، نقول لكم: تفضلوا. أدعو لكم باسمي وباسم قومي أن تعيشوا يومكم مئةً. أنا اسمي تابُق، زعيم من تبقّى من الأديغة في القرم.

– وأنا اسمي كوشاربيك. كان يريد أن يقول إنه قائد عشرين فارساً مملوكياً، غير أنه صمت لأن رفيقه الذي سيقدّمه إليهم قائدٌ لأربعين.– هذا جلات، والثلاثة الآخرون رفاقنا. لِيوطئنا الله أرضكم بالخير! ولْنُخالطْكم بالخير.

اتخذ الضيوف والمستقبلون وقد اختلط فرسانهم الطريق إلى قرية الزعيم تابُق. وبعدما ساروا قليلاً سأل الزعيم:

– لا أظن رفاقك هؤلاء أيها الضيف يعرفون الأديغية كما تعرف أنت.

– لم تُخطئ يا سعادة المحترم. رفاقي أعاجم في لغتكم. لا تخفْ أن تقول ما تريد أن تقوله. أنا نغوي حقاً غير أني تحولت إلى أديغة منذ زمن بعيد.

– لم أستقبل إلى الآن ضيفاً أُسّرّه. سألت فقط عن رفاقك، مجرد سؤال. وأما كونك نغوي فلم تكن بك حاجة إلى الإفصاح عنه. عرفتك منذ أن نظرت إليك وتكلمتَ.

– أعرف أن لغتي الأديغية ليست جيدة – لم يتناسَ كوشاربيك أن يمتدح نفسه وهو يبرّئها. – ولكن ألا أستطيع التفاهم معك يا سعادة المحترم؟

– ليس التفاهم فحسب، تتكلم جيداً – تراجع دابُق عن كلامه السابق ملتفتاً إلى ضيفه، ولم يكتم إعجابه بهم – لو كنت أعرف لغتكم مثل ما تعرف لغتنا... هل ترى تلك القرية المحترقة في سفح الجبل؟ منهور وقازان قائدا جيش باتي خان اقتحماها، وقتلا كُلَّ من فيها، ونهباها وأحرقاها. ما كان أكبرها وأحسنها ! كانت قرية سلخوت على ظهر البسيطة، ولم تعد عليها.

– هل قلتَ سلخوت؟ – لجم كوشاربيك حصانه – هذه القرية الظاهرة هي سلخوت؟

– ليست قرية سلخوت فحسبُ هي التي دُمِّرتْ – تابع تابُق كلامه غير مكترث لنُطق كوشاربيك اسم سلخوت – بل كل القرى التي كانت في المضيق... – وحين رأى الزعيم وجوم الضيوف عاد إلى وعيه – من أين تعرفون اسم قرية سلخوت، لماذا تسألون عنها؟

– لم نستطع تنفيذ المهمة التي كلّفنا بها سلطان مصر... كيف سنحمل إليه الخبر الفاجع؟ الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري سلطان مصر أصله من سلخوت.

– مهلاً أيها الضيف مهلاً – تلهّف سعادة المحترم تابوق – ما معنى كل ما نطقت به؟ أيكون سلطان مصر من سلخوت؟ قل لي اسمه واسم أسرته الحقيقيين.

– بيبرس.

– ليس عند الأديغة مثل هذا الاسم. ولا عندهم اسم أسرة. حسم تابُق، وسأل وجوه رفاقه الحرس الفرسان فوافقوه. أظن أنه اختلطت على سلطانكم بعض الأمور.

– من الصعب الحكم على الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري سلطان مصر بمثل هذا. وهل عندكم اسم قلاوون؟

– قلاوون اسم أديغي حقيقي. – لم يتمكن أحد الفرسان من ضبط نفسه.

– لأن عند القبجاق أيضاً هذا الاسم.

– عندكم لأنكم اقتبستموه من الأديغة – علق فارس آخر – قل لي ما معناه بلغة القبجاق كي تعرف إن كان الاسم لكم.

– لا معنى له في لغة القبجاق إلا أن أقول معناه بالأديغية. بعد السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري يأتي في مصر اسم قلاوون قائد الجيش. وهو أيضاً من سلخوت. أرسل إليك معنا سلامه الحار.

– أليس في مصر من يرسل إلينا سلامه من الأديغة غير السلطان بيبرس وقلاوون؟ امضِ تنتظرنا الأسرة والقرية هناك. – وفي اللحظة نفسها عاد سعادة المحترم تابُق وأوقف الحصان: – أيمكن أن يكون من تسميه بيبرس هو بيباريس؟

– ربما... لا أعرف إن لم أكذب عليك.

– إن كان بيباريس فليكن بيباريس، وإن كان قلاوون فليكن قلاوون – استأنف تابُق سيره مغمغماً. هنا ينهبنا الأعداء ويحرقوننا، وهناك يجعلون من أنفسهم سلاطين. يحمون بلاداً غريبة لا شأن لهم بها.

أضاف سعادة المحترم تابق أعضاء الوفد المسافر إلى القبيلة الذهبية ثلاثة أيام. في المساء كانوا يجلسون إلى مائدة مفتوحة، وفي النهار يدور بهم على قراه التي

ما تزال قائمة. ودعاهم إلى حفلة رقص أحد الأعراس. ودعاهم إلى تعزية أسرة فقدت أحد أبنائها لأن الدنيا ليست كلها شمساً مشرقة. وأراهم سباق خيل. وإلى بيت فيه حفلة "جابشه"[1] حين يجتمع شخصان أو ثلاثة يتطرق الحديث، سواء كانوا جالسين إلى الطعام أم فرساناً أم مشاة، إلى موضوعات كثيرة. ولكن مهما كان نوع الحديث الذي ينشأ بين الضيف وضائفه فلم يتطرقوا إلى بيباريس سلطان مصر وقائد جيشه قلاوون. وأحياناً حين يتظاهر كوشاربيك بأنه نطق أحد الاسمين عفوياً كان سعادة المحترم تابُق يغير الحديث، إلى أن حان موعد سفرهم.

حين شيّع تابُق ضيوفه إلى معبر بحر آزوف قال لكوشاربيك:

– رافقتكم السلامة، طريقكم خير. سأدعو آلهتنا أن تحقق لكم نواياكم. وحين تعودون إلى مصر قدموا إلى سلطانكم بيباريس وقائد جيشه قلاوون هذا الكيس الذي فيه بعض رماد قريتهما. وقل لهما بالنيابة عني القول المأثور لدى الأديغة: "حفنة من تراب الوطن الذي ولِدتَ فيه خيرٌ من جبل من الذهب في أرض غريبة"

المغول بقيادة هولاكو الذين قدِموا من نواحي إيران، واقتحموا القفقاس عام 1239 بعد أن احتلوا مدينة دربند، ومن كانوا أعداءهم من أبناء قومهم المغول الجوشيد الذين ضموا إليهم القبيلة الذهبية، بدأت أمورهم تتدهور. ولكن أصعب موقف مروا به هو العام الذي طُردوا فيه من نواحي نهر تيريك عندما

---

[1] ما يشبه حفلة سمر تقام للجرحى أو لمن عندهم كسور خطيرة للترفيه عنهم وتخفيف ثقل الليل عليهم، يقدَّم فيها نوع خاص من المعجنات القاسية، الخاصة بهذا النوع من الحفلات يسمى "أُباوه" أيْ شيء يُصدم بالفم. وهي مفتوحة لابتكارات كثيرة متنوعة.

دُمّر جيش قائدهم نغوي خان. غير أنّ انتصار قائدهم بركة – خان على جيش هولاكو على ضفاف نهر تيريك قبل أن يمضي وقت طويل أعاد الجوشيد إلى سابق حالهم.

حين دُعي إلى الخيمة موفدو سلطان مصر إلى بركة– خان استقبلهم بوجه طلق ولو لم ينهض لاستقبالهم، وقال للضيوف الذين أُوقفوا عند عمود الخيمة:

– أسمعكم يا من جئتم إليّ من مصر البعيدة.

– الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري سلطان مصر أرسلنا لنهنئكم بانتصاركم على عدوكم هولاكو يا خان القبيلة الذهبية. ولأن أعداءكم أعداؤنا يدعو لك المسلمون في جوامعهم أن تُعمَّر طويلاً، وأن تزداد إنجازاتك، وأن تمنع لصوص هولاكو من اقتحام شمال القوقاز. وقد فعل سلطاننا هذا بهم في مصر والشام. ويعطيك عهداً أن يفعل بهم ذلك أيضاً. وتقديراً لشجاعتك وانتصاراتك يهديك هذا الإناء تذكاراً.

– لِيمُدَّ اللهُ في عمر السلطان بيبرس — قال بركة – خان وأنهى باختصار مقلّباً الإناء: – صبُّوا لي هنا من الكومس[1] أرفع نخب انتصاراتنا. — احتسى الخان الكومس واقفاً. ثم نزل من المرقاة واقترب من مستودع غنائم السلاح الذي تركه أعداؤه — أيُّ سيف بين هذه السيوف أجبرْنا مينجو قائد الأعداء على التخلي عنه؟ ها هو، وهذه دمغة خاتمه الذهبي. أهدي هذا السيف الذي هو من جملة الغنائم حتى يضحك بيبرس سلطان مصر من صاحبه كلما رآه لأنه يعرف أن الموت في ساحة المعركة أشرف من إلقاء السلاح والهروب، وأُرفِقه بسوطي الذهبي تذكاراً. وبلّغه أن يثق بتصدّينا لهولاكو. — وقف بركة – خان بشيء من

[1] شراب يُتَّخَذ من حليب الخيل المتخمر.

التصنع أمام الضيوف وقد احمرت وجنتاه ،وأضاف إلى مزاحه بشيء من الجد:
– ولكن لنا نحن أيضاً بعض العتب على سلطانكم. ليُعِد جيش هولاكو إلى حيث خرج، ولا يدفعه باتجاه بلادنا، يجلبون لنا المتاعب – قال هذا وضحك، ثم سأل كوشاربيك – لا بد أنك من القبجاق حسب طريقتك في الكلام؟
– من جهة أصلي فأنا من القبجاق يا بركة – خان. أخذوني من هنا صغيراً، وصرت مملوكاً في مصر. وأنا الآن أمير عشرين فارساً في جيش الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري.
– الآن صحّحتَ وضعك، وأرحتني من مزاجي السيء. – استدار بركة – خان وجلس على العرش الذي نهض عنه. وأضاف إلى كلامه: – نحن مستاؤون من القبجاق منذ زمن بعيد، في العصر الذي حارب فيه القبجاق متحالفين مع الألان القائدَين جَبا وسوبدي. مع أننا استطعنا أن نُبعد القبجاق عن الألان بحجة أننا نحن وإياهم من أصل واحد، فلم يصدُقوا معنا وخانونا مرات كثيرة غادرين بنا. وقد دفع الخان قائد جيش النغوي حياته ثمناً. وفي حربنا الأخيرة قاتلونا مع عدونا هولاكو. لا أدري إن كان كلامي على القبجاق لا يعجبك أيها الضيف؟
– لا، ولماذا لا يعجبني. الخائن خائن في نظري ونظر كل إنسان. – أجاب كوشاربيك بسرعة، وأضاف لنفسه: "ما كان عليكم احتلال أرضهم وطردهم منها".
– ومع ذلك أيمكن لعرق كامل أن يكون خائناً؟ تحركت نوازع قديمة في نفسي حين عرفت أصلك، وإلا فأنت مملوك من مصر، ولم تعد من القبجاق. حسناً استقبِلوا ضيوفنا الأعزاء بما يتناسب وعاداتنا، أكرِموا وِفادتهم، اعملوا على تزجية وقتهم. – شدد بركة – خان على حرسه ، ثم استدار إلى الموفدين الذين

أبقاهم واقفين إلى الآن: سنجتمع ثانية قُبيل سفركم. وسنتكلم بمزيد من التفصيلات والوضوح.

"وماذا ستضيف إلى وضوحك هذا؟!" – قال كوشاربيك لنفسه وهو خارج من لدن بركة – خان.

XVI

– متى التقينا آخر مرة أنت وأنا؟ – سأل السلطان بيباريس راسم قبل أن يتجاوز الباب، وأجاب نفسه بنفسه: – قبل شهر وثلاثة أيام.

– صحيح يا موفد الله. اليوم يكون مضى شهر وثلاثة أيام. ودون أن يتحرك من مكانه الذي سُمِّر إليه أكّد راسم كلام السلطان.

– وماذا إذن؟ – توقف بيباريس على أرض الغرفة.

– خلال هذه المدة كان بودي يا بديل الشمس أن أسأل عنك ليس مرة أو اثنتين أو ثلاثاً. ولكن صرفوني عن بابك كثيراً بذريعة أنه سيطلبك هو إن احتاجك، وبحجج أخرى.

– حسب كلامك حراسي يحمونني جيداً. – ابتسم بيباريس، واستأنف تمشّيه الذي يحبه. وقال في نفسه "لستَ وحدك من يودُّني ولا يودّني – من يود مقابلتي، من يود تأملي، من يود أن يبتسم في وجهي. يهتمون بطريقة قضائي نهاري، وأين أقضي ليلي. يتصيدون الوقت الذي يوقعونني فيه في الفخ، يسممونني". وأنتم الذين تحت ظلي، تفرحون مهما حدث لي أو لم يحدث. لا تصارحونني بحقيقة الوضع. أنا لست كالسلطان الصالح وتوران شاه وشجرات، أنا أذكى منهم. لا أعد نفسي فعلتُ ما لم يفعلوا، ولكن إن لم يحمني الله وإن لم أحمِ نفسي فلا ثقة لي بأحد منكم. ما إن تصبحوا ورائي حتى تتحولوا إلى رماة نبل حقيقيين "قال السلطان الذي خرج من أفكاره التي هاجمته فجأة – الآن اجلس أمامي وأسمعني ما جئتني به من أخبار.

– لا أخبار سارة يا موفد الله.

– أنا من يقرر إن كانت سارة أم لا ولست أنت.

– نعم يا بديل الشمس، نعم. مسيحيو سورية يعقدون اتفاقيات سرية مع هولاكو.

– وهل الأمير المكلف بأمور دمشق، قاهر، أعمى، أصمّ؟ – تذكر بيباريس أن السلطان خُطج قبل سنوات رفض تقليده هو حلب أو دمشق، وأرسل بدلاً منه قاهر.

– لا، يا موفد الله. — زاد حرص راسم على نفسه الآن. — لم يتُه على طريق أعدائنا لأنه ليس أعمى، وسمع ما قيل له لأنه ليس أصمّ. حين يقتحم المغول دمشق فسيتظاهر بالتصدي لهم، ويعطيهم الشام، ولن يتصدى كذلك للصليبيين.

– كنت أعرف أن هذا ما سيحدث! أُنشُر مخبريك السريين في سورية، في كل مدينة، يجب أن نعرف نوايا أعدائنا، كل من يتطلع نحو أعدائنا كائناً من كان، أو ما كان، إن كان طائراً أم إنساناً أم شيئاً... لا يرفعوا عيونهم عن أي إنسان موثوقاً كان أم لم يكن. ولا يُبعدوا آذانهم عنهم. تضع بين القاهرة والشام أماكن لتبديل الأحصنة، وتأتيني بالأخبار في كل أسبوع. نحن نُقرُّ السلام في البلاد، نعقد الاتفاقيات مع الجيران، وهم...

"هم يتصرفون معنا كالكلاب الغدارة التي لا تنبح بل تهاجم على حين غِرّة.

– حين بقي بيباريس وحده في الغرفة استأنف الكلام الذي قطعه أمام راسم — لا أعرف ماذا يريدون... لولا نحن، المماليك، لكان الصليبيون احتلوا العالم العربي منذ زمن طويل، وضاع منهم الإسلام الذي أرسله الله العزيز العليّ إليهم، ونهبَنا المغولُ. عقدتُ اتفاقيات تجارية مع ملك سيسيليا أنجويسك، ومع أراغون، وملوك كاستيليا جيمس وألفونس. والذين أوفدتهم إلى القسطنطينية والقبيلة الذهبية حان موعد عودتهم. ما أخبار بلادنا البعيدة يا تُرى؟..."

– عَصَرَ السؤالُ الذي قفز إلى الذهن قلبه، فصاح إلى خارج الغرفة ليتناساه، وقال للحارس الداخل:

– اِستدعوا قلاوون حالاً !

ما إن بدأ قلاوون القائدُ العام للجيش، الداخلُ إلى الغرفة يقدم اسمه وعمله باللغة العربية إلى سلطان مصر حتى جابهه بيباريس باللغة الأديغية:

– كم مرة قلت لك أن نتكلم بلغتنا الأديغية حين نكون وحدنا!

– لا أعرف، استدعيتني على عجل، فإن كان أمامنا مهمة تتعلق بالبلاد...

– عدم تناسي لغتك والكلام بها من مهمات البلاد أيضاً. – بدا بيباريس من خلال صوته كأنه يلوم نفسه وإن كان يتكلم إلى صديق الصبا.

– ولكنّ مَن هو متعلق بها هو أنت وأنا وبرقت، وهذا إذا كنا وحدنا.

– ماذا نفعل إذن؟ – تنهد بيباريس – كان حظنا أن نأتي إلى مثل هذا العالم... ألا يتواصل المماليك الأديغة في ما بينهم بلغتهم؟ – سأل السلطان ثم أجاب بنفسه مبتسماً – أنا من شدد عليهم ألا يتكلم الأديغة وغيرهم من الجنود المماليك في الجيش بلغاتهم. لم يكن بدٌّ من هذا الإجراء. البلاد التي نعيش فيها بلاد عربية، ونحن من يمسك بزمام السلطة. ولكن لم يحدث لهم ما لم يكونوا هم السبب فيه. كان عليهم ألا يشتروا من اللصوص ومن التجار بالمال سوءَ حظنا الذي أودى بنا إلى مأساتنا. ليس ما استدعيتك لأجله يا قلاوون أمراً حسناً وإن كان ما نقوله الآن نوعاً من الترويح عن النفس. الصليبيون يرفعون رؤوسهم من جديد، ويعقدون اتفاقيات سرية مع المغول الذين احتلوا إيران. ويستميلون إليهم أمثال قاهر.

– ألا يكف قاهر عن مناوراته! – احمرّت وجنتا قلاوون، ثم لام نفسه: – ما أكثر ما غفرنا له!

– أعرف ما الذي يُريح قاهر: هذا السيف هناك. ولكن الخبر الذي وصلني اليوم لا يعدو كونه أقاويل. وإن كان ما في قلبه نحونا خيانةً في الوقت الذي يتكلم فيه إلينا شِفاهاً فلا تسامح معه! والآن يجب أن نهاجم الكرك الصليبية. أعطيك شهراً لتجهيز الجيوش.

– نحن جاهزون متى ما طلبتنا يا موفد الله – قال قلاوون الآن بنبرة أخرى.

– شكراً لك، ولكن لا تدعْنا نتسرع في الأمر. أتتذكر كيف أعدم خُطج قبل سنوات موفدي هولاكو خان الأربعة؟

– نعم، أتذكر.

– وهل تتذكر أني لم أوافقه؟

– وأتذكر أن هذا الحادث خلق بينك وبين السلطان خُطج نوعاً من النفور.

– إن كنت تتذكر فأنا أقول لك الآن إني ندمت على ما قلت يومها. خطج رجلٌ ولو أنه كان يحنث بعهده أحياناً. ولكن نحن المسؤولون عما فعلتْ شجرات بالملك لويس التاسع الصليبي. كان علينا ألا نسمح له ولزوجته وأخيه والأسرى الاثني عشر ألفاً بافتداء أنفسهم. ها هم الآن، وقد رجعت إليهم روحهم، يستعدون لغزونا.

ظهر سعيد الذي فتحت له البوابة الكبيرة ممسكاً بيد سلامش الصغير، وركضا إليه وكأنه ليس في الغرفة غيرُ والدهما.

– لا تجلبا لي العار، سلّما أولاً على قلاوون — قال بيباريس بالأديغية لولديه، وأكّد بالعربية، غير أن أيّاً منهما لم يتحرك. — انظر يا قلاوون، ها نحن ننحدر إلى الهاوية، تضيع هُويّتنا الأديغية.

– هويتنا سلبونا إياها منذ زمن بعيد، لا تحمّلْ نفسك همّاً !

– أتريد أن تقول إن هويتنا ضاعت بضياع أرضنا؟ – تعجب بيباريس مما سمع، ثم قال لولديه اللذين لا يفهمان اللغة التي يتحدث بها والدهما: – لا أرى فيّ ما تتعجبان منه. اسمعا ولو لم تفهما تحتفظا في قلبيكما بصوتي الأديغي. أتعرف يا قلاوون متى سنبقى دون قلب أديغي؟ حين نغادر هذه الدنيا الفانية. أعتقد أننا سنحتاج حيث نرحل إلى قلبنا وهويتنا الأديغيين. الأفضل ألا نضع أنفسنا في موقف حرج إن سألَنا الله: ألم تضيعوا اللغة التي وضعتُها على ألسنتكم؟ ثم بأي عين ننظر إلى أبوينا وجدودنا وجداتنا إن التقينا هناك؟ انصرِفا، ينادونكما هناك ! – ربت بيباريس على ظهري ولديه ملاطفاً لهما في الكلام، فانصرف الطفلان فرِحين بخلاصهما من سماع اللغة التي لم يعتادا عليها. – هذان كان يحسن الذهاب بهما إلى قريتنا القديمة وإبقاؤهما هناك. كانا رجعا وقد تعلما اللغة الأديغية، وتشرّب قلباهما بالروح الأديغية. – قال وراء الصبيين.

– وكنت أرفقت بهما صغيري الثرثار ذا العينين الجريئتين. – ابتسم قلاوون، وأتبع بما يشغل باله – قبل أيام حين سألني الصبي عن كلمة قبجاقية. اصطنعت معه الغباء، وغضبت عليه وقلت له بأي لغة تكلمني ولا تتعلم لغة أبيك. وما أجابني به كان عجيباً: وكيف لا تعرف وأنت القبجاقي الراشد لغتك؟

– ما تعلّمه الأم لولدها هو ما يعيش به، أحزنتَ الصبي دون مناسبة – ولم يُبدِ بيباريس على حاله مع أن هذا هو ما يحدث له في بيته.

– صحيح ما قلت. المسؤولية كلها على الأم. ولهذا السبب كثيراً ما يحدث بيني وبين المرأة نوع من الجفاء. نتصالح ونتحادث ولكني لا أستطيع أن أخلّصها من روح النغوي القبجاق.

– أتعيّرك بهويتك الأديغية، أتقول لك ما يسيء؟

– لو فعلت مثل هذا ابنة القبجاق التي في بيتي لانتزعتُ روحها ، ولكن سأقول لك ما أفعل بالمرأة وولدها قبل الوصول إلى هذا الحل: بدأت أتكلم بالأديغية مع الاثنين.

– وكيف يقابلان تصرُّفك؟ ابتسم بيباريس.

– يتأملانني، ولكنهما أصمان أبكمان. ولست جاهلاً بما يُحيل أسرتي إلى أسرة قبجاقية: الأخت الكبرى للزوجة، وهي التي كانت زوجة المرحوم أقطاي. أين كانت ستذهب؟ أتطردها من البيت؟ لا تفارق منزلي ليلاً أو نهاراً. ولا تملّان من لغتهما.

– أتتكلمان لغة النغوي بحضورك أيضاً؟

– لا، تتكلمان وقتها بالعربية.

– هذا هو السبب يا قلاوون، أنت أحياناً لا تقتنع، في أني أمنع الجميع أن يتكلموا إلا بالعربية. نحن الأديغة أكثرية ولذلك لن يشعر الآخرون بالارتياح.

– ولكن لا نفرض عليهم أن يتعلموا لغتنا... نحن وغيرُنا تعلّمنا العربية.

– تعلّمنا لأننا نعيش في بلادهم، لأننا نحتاج إلى لغتهم. ألا يكفي اعتبارهم كل المماليك أديغة؟

– يكفيني — ولكن رجوعَ كلٍّ في الحرب إلى لغته الأم، يصيح بها، ما يزال في سمعي وأمام ناظري.

– ما يقوله كل إنسان في ساحة المعركة أمر مختلف. — تغيرت سحنة بيباريس السلطان. — غير أن الجميع متأبهون هناك في شجاعتهم وفي جبنهم، في دمهم وفي دموعهم. كفى يا قلاوون، لننته اليوم من أفكارنا الأديغية. سنمضي في الأيام الأولى من الشهر القادم إلى الكرك الصليبية. هذه المهمة، وهذا الموعد لا يعرف بهما غيري وغيرُك. حين نمضي بالجيش نخبر مقاتلينا بوجهتنا.

الكرك واحدة من أقوى القلاع الصليبية منعة وتجهيزاً. وما يحدث في العالم العربي من منكرات يأتي من هذه الجهة. حارب بيباريس في هذه الناحية أكثر من مرة، وحمى الدين الإسلامي. وإذا كان سابقاً قائداً للجيش المملوكي فحسبُ، فهو الآن سلطان مصر.

لم يستغرق احتلال الكرك نصف يوم. لم يتحمل حماة المدينة سيوف المماليك المسلولة ولا وقْعَ قوائم خيلهم. لم يتصدّ أحد لفرسان المماليك المحامين عن دين الله، الذين كانت جلَبَتُهم تصل إلى عنان السماء إلا فرسان المعبد الذين يرتدون الدروع والخُوَذ الحديدية، والفُرسان المِضيافون الكماة. [1] وكان هؤلاء قد سقطوا صرعى تحت سنابك الخيل، فدخلت الفرقة التي يقودها السلطان بيباريس شخصياً المدينة. وسفكوا دماء المسلحين وغيرهم بالسيوف والرماح وصدور الخيل. ودمروا الكنيسة التي احتمى بها الصليبيون. وبالقياس إلى الحروب السابقة لم يعمل المماليك على الأَسْر. – لا يستحق الكافر إلا أن يموت كافراً. وفي الأيام التالية توجه جيش المماليك إلى قيسارية من جهات مختلفة. ولم تحمِ القلعة التي أنشأها هنا ملك الإفرنج لويس التاسع الصليبيين ولا سكان المدينة. ومرة أخرى كان بيباريس أول من دخل المدينة بسيف مُشهَر، وفرض عليها الاستسلام. وكانت المدينة الثالثة أمام المماليك هي "أرسوف" [2] فهاجموها

---

[1] فرسان المعبد والمِضيافون جماعات مسيحية متعصبة تأسست عام 1080 تقريباً في القدس لاستقبال الحجاج المسيحيين. وورد ذِكرُهم في كتاب الاعتبار لأسامة ابن منقذ المعاصر لصلاح الدين الأيوبي. وتطوروا أخيراً إلى ما يسمى: الفرقة المالطية.

[2] مدينة كنعانية الأصل تقع خرائبها في شمال قرية الحرم، قريباً من يافا على ساحل فلسطين.

ولكن صعب عليهم احتلالها خلافاً لأختيها. وبعد أن حاصروا القلعة أربعين يوماً لا يسمحون لأحد بالدخول أو الخروج دمروها في هجوم ليلي مفاجئ.

البسالةُ التي أظهرها المماليك في حرب الكرك التي استمرت شهراً ونصف ليست قليلةً. ولكن جيش قاهر الذي كانوا فقدوا ثقتهم به ظهر ممتازاً في أي مهمة كُلِّف بها، وكان في طليعة الجميع. وأما قائده فقد جرح في ساقه ويده ولو جراحاً بسيطة. أفهَمَ بيباريس راسم بعينيه ما معناه: "أرأيت كيف حارب هذا بشراسة؟" " لا تعرفون قاهر كما أعرفه أنا. لن يدعك تمد يدك بسهولة إلى جلدة رأسه... سنرى ما يحدث. أهذا اليوم فقط يلعب معي لعبة الطميمة؟"

الجيش الذي أحرز به بيباريس النصر على الصليبيين طلب جمْعه في ضواحي أرسوف. وقال لهم بصوت زاد خشونة على خشونة:

– يا مقاتلي الله العزيز العليّ! الله راضٍ عنكم في الحرب التي أعلنتموها، كما في كل مرة، على الصليبيين، حرب الجهاد.. وأرضيتموني أيضاً. ندعو لمقاتلينا الذين سقطوا دفاعاً عن أرضهم ودينهم أن يكون مثواهم الجنة.– حين رفع بيباريس يديه قلده المقاتلون. وحين انتهى من دعائه استأنف كلامه: – ارحم من التحقوا بك، وامنح الصحة لمن هم في حضرتك. وامنحهم طول العمر. يا مقاتلي الله ومصر الشجعان. أمنحكم، كما فعلنا في المرات السابقة، المدن الثلاث. لا تأخذوا من الذهب أو الفضة أو الملابس، أو الأواني، أو الأدوات، غير ما يستوعب حارك الحصان. لا سفكَ للدم، ولا فضائح. وما تغنمونه، أذكّركم من جديد، ثلثُه للبلاد.

صادفت عودة وفد كوشاربيك إلى القاهرة ذروةَ الاحتفالات بالنصر على الصليبيين. وكان برقت أميرُ العشرة هو أول من أبلغ السلطان، على عادة الأديغة.

– الموفدون إلى نواحينا، جماعة كوشاربيك، عادوا يا موفد الله.

– من صوتك أستنتج يا برقت، أمير العشرة، أن موفديّ جاؤوا بأخبار طيبة.

– وأنا أرى هذا يا بديل الشمس. — مرة أخرى أكّد بصوت أعلى رأيه — كوشاربيك وجلات على بابك.

– أليس من عادة الناس عندنا يا قلاوون أن يمنحوا من يحمل خبراً ساراً بشارة؟

– أعطى بيباريس سيفه القصير الفضي لبرقت.[1]

– أُرفِق بهذا منصب أمير العشرين. أُدعُ الموفدين إلى الغرفة.

روى كوشاربيك وجلات بالتناوب كل ما جرى للوفد: استقبالَهم في القسطنطينية من قبل الملك ميخائيل الثامن باليولوغ، والاتفاقية التي عقدوها معه. وضيافة الزعيم تابُق لهم، والحديث الذي دار بينهم وبين خانِ القبيلةِ الذهبية بركة — خان، والصعوباتِ غيرَ المتوقعة على طريق العودة والتي أدّت إلى تأخرهم. وأدَّوا إليه هدايا الملك والخان، دون أن يأتوا على ذِكْر هدية الزعيم تابُق. ولم ينسوا المداعبة الخفيفة التي أرسلها بركة — خان بشأن ما يجب أن يفعلوه بالمغول.

– إذا نحن حطمنا المغول هنا في مصر وجعلناهم عاجزين عن أي حركة فماذا سيفعل بركة — خان؟ يريد أن يعيش مستمتعاً بالحياة؟ – ابتسم بيباريس دون نية المزاح. — إن كانوا سيسمحون لبركة — خان أن يرتاح فنحن مِن عندنا سنؤدي له هذه الخدمة. ولكن لو كنا نعيش في مثل هذا العالم... — وبعد سكتة قصيرة قال لكوشاربيك الذي كان حائراً كيف يبدأ بسرد مهمته الثالثة:

– أظن أنكم لم تستطيعوا تحقيق طلبنا أنا وقلاوون لأنكم لم تأتوا على الخبر.

---

[1] في الأصل: قامة: سلاح مشهور لدى الأديغة.

– لا، يا موفد الله، وهذه مهمة أنجزناها... ولكن لا أعرف ما أقول... أرانا الزعيم تابُق قريتكم، ولكن المغول المندفعين نحو الغرب أحرقوها فلم يبق في سلخوت بشرٌ ولا حجر. أرسل إليكم الزعيم تابُق الرماد الذي في هذا الكيس. والقول المأثور الذي أرفقه به أريد أن أرويه ولكن... لا أعرف...

– قُلْه بالأديغية كما نطقه تماماً – نظر السلطان بيباريس حزيناً في وجه قلاوون، ثم في وجوه موفديه.

– أوصانا أن نبلغك "حفنة من تراب الوطن الذي ولِدت فيه خيرٌ من جبل من الذهب في أرض غريبة". لا تؤاخذانا. لسنا نمّامين إن نقلنا كلامهم.

خُيّل لبيباريس وقلاوون أن الغرفة الفسيحة أظلمت. ووقع على ظهريهما سكون مطبق. وقال بيباريس بصوت لم يعد له:

– حياكم الله، أنا راضٍ عنكم.. أنجزتم مهمتكم... حين خرج الموفدون من الغرفة جلس المملوكان بعض الوقت وكأن أحدهما يخاف أن ينظر في وجه الآخر. ثم نهض بيباريس الذي يحمل كيس الرماد وقلبه ينفطر، ولم يستطع قلاوون الاستمرار في الجلوس. – هذا يا قلاوون ما حدث لكلينا... – لم يملك الرجلان اللذان صارا سلطاناً وقائد جيش للبلاد الغريبة إلا أن يبكيا.

XVII

الإنسان يعيش بالأمل والخير.

حين تغيب الشمس ويؤول الإنسان إلى ليل راحته راضياً بمُضيّ النهار على خير، يغرق في السبات عارفاً أنها ستشرق عليه غداً، يقوم مع انبلاج عمود الصبح. وهذا نمطُ حياة كل إنسان ينوي الخير أو لا ينويه، يؤمن بالله أو يجحده، وترتيبُ أموره، ومصدر قوته أو مكمن ضعفه. وبيباريس السلطان ولو أنه في أعلى مراتب الحكم واحد منهم بحسناته وسيئاته لأنه إنسان. ولكن لا أحد يعرف الإنسان كما يعرف هو نفسَه، ولا يفسره.

من أي نوع من البشر بيباريس؟ أسعيد هو أم تعيس؟ السؤال سهل غير أن الجواب صعب. حياة الإنسان بتركيبها تشبه الدنيا التي تشرق فيها الشمس وتغرب، ويخيم الليل وينحسر، بأفراحها وأحزانها، وبمولدها ومماتها. وليست ذكريات بيباريس حين يبقى أحياناً في عليائه، عارفاً من نفسه اتساع قلبه وضيقها، وحين يتفكر في طريق حياته، ناظراً إلى الأمام، ملتفتاً إلى الوراء: طفولته، وكهولته، وقيادته للجيش، وسلطنته، قليلة.

ما تراه العين يساوي ما يعيشه صاحبها. ما مرّ على بيباريس وما رآه كثير، غير أنه يتذكر كل هذا كما لو أنه حدث اليوم. من ينظر من فوق الشجرة ير أبعد ممن ينظر من تحتها. بداية أي ذروة هي أساسها. إذا كان الجذر متيناً صعُبَ هزُّ الساق.

"جذري الوحيد كان قريتي، فأرسلوا إليّ رمادها يقولون: "حفنة من تراب الوطن الذي ولِدت فيه خيرٌ من جبل من الذهب في أرض غريبة". – تألم قلب بيباريس. بقيتُ على ظهر البسيطة دون قرية ودون جذر... ولكن ألم تبق القرى المجاورة والأرض التي كنت أرعى فيها الغنم، والقمة التي خُطِفْت منها؟

فهمتُ ما يريد الزعيم تابُق أن يقوله لي من خلال القول المأثور الأديغي. ولكن ما أملي في البلاد البعيدة التي خُلقت فيها وإن كنت الآن على رأس السلطة؟ لست جاهلاً، أنا والناس الغرباء الآخرون، أن القمة الذهبية التي ارتقيتها مرغماً بالدم والدمع تقوم على قاعدة من الرمال. حتى لو قيل من ورائي مثل هذه الأقوال وغيرُها فأنا أثبّت نفسي هنا بسيفي وبأولادي. يا ربي أيمكن أن يصبح ابني الأكبر سعيد رجلاً يرفع رأسي؟ لو لا أنه يحب أن يفخر بنفسه نوعاً ما... أحياناً يذكّرني بتوران شاه. يُحنى العود وهو طري، لا يكفي أن تُركِبه حصاناً كيفما اتفق وتسلمه اللجام. إنه متسرّع الطباع. في نصف الساعة التي تُمضيها معاً يظل يتنقل من يميني إلى يساري؛ لم أستطع أن أُفهمه إلى الآن علاقات الكبير والصغير في شِرعة الأديغة. سلاماش الصغير بالقياس إليه أفطنُ بكثير"

– كم مرة طلبت منك ألا تقف على يميني حين نكون وحدنا ! — لام بيباريس ابنه، لم يتحمل المزيد — أخاطبك بالأديغية فلا تفهم، بالعربية لا تنتبه. أيُّ إنسان أنت؟

– أنا ابن سلطان مصر الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري. أنا أديغي، ولكن لا أضيف إلى اسمي أني سأكون يوماً من الأيام سلطاناً — قال سعيد دون أن يتوقف عند عتاب أبيه، لا تعرف أهو يمزح أم هو جادّ، وسأل وقد صار الآن على يسار والده: – ألم أقف الآن في مكاني الصحيح؟

– نعم أخذت مكان الأصغر ، ولكن لا تستعجل على ما أضفت إلى اسمك. لا تظن أن كل من يحني الناسُ لهم ظهورهم سعداء!

– لا أعرف لماذا تقول هذا يا بديل الشمس، يُسعِدني كلُّ من يقوم بانحناءة الاحترام لي.

– وهل كل من ينحني لنا ينوي خيراً؟

– أنا لا أجبر أحداً.

– لا تجبرُ لأن رهبتك تجبرهم على ما يفعلون... هل تتذكر وأنت صغير أنك ركضت إليّ تشكو من أن برقت لم يؤدِّ إليك التحية؟

– والآن يمر بجانبي محيياً وحانياً ظهره.

– والذي في قلبه نحوك؟

– لا أهتم بهذا.

– لا تدري ربما ينقلب علينا يوماً ما.

– ليبقَ كلٌّ في مرتبته المملوكية !

– وأنت ألست مملوكاً؟

– لا يابديل الشمس، أنا من سلالة سلطان.

– إن كنت تقصد سلطنتي فأنا مملوك !

– متى كنت مملوكاً؟ لا تُذكِّرْ أحداً بهذا !

قال بيباريس لنفسه ولو أن ما سمعه عصر قلبه ألماً: "صحيح أن يباس الشجرة يبدأ من ذروتها. أنا أتأمل أن يصبح هذا الولد جذراً لي في الوقت الذي يقصّ هو فيه الغصن الذي يجلس عليه. أنا أقول: بيتنا القديم، أرضنا القديمة، قريتنا القديمة، بلادنا القديمة، وهو، لأنه يريد أن يصبح سلطاناً، يقول لي: اِنس أن أصل شجرتك كان يوماً ما نحيفاً. يا حسرتي يا ولدي يا من تنقصه التربية! ما الفائدة الآن من أن أدينك بما لم أربّك له طوال ثمانية عشر عاماً وأنا أسفك الدم وأملّحه بدموعي. "أظن أن ما يقوله أخوالك العرب: إذا بصقت أصبت لحيتك وشاربيك، حدث لي أنا"

– أفضِّل يا ولدي، إن لم يكن بدٌّ، أن أتكلم على مملوكيتي على أن أتكلم على سلطنتي.– قال بيباريس، وأنهى بمزيد من الاختصار: – ولكن اعلمْ: لا أحد يولد حاملاً لقب المملوك، ولا لقب السلطان !

"أأفسدتُ تربية هذا الولد لأعوِّض سوء حظي في صغري أم يولد الإنسان وعلى جبينه حسن حظه أو سوْؤُه؟ – سأل بيباريس نفسه بفكرتين، جواباً للسؤال الأول حمّل نفسه الذنب، وللثاني غلبه رغماً عنه جوابه العاتب. — لا، لا. لا أرى في سلطنتي حسنَ حظٍّ. كلٌّ سينتهي كما أتى. ماذا تقول إحدى آيات القرآن: ﴿ قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾. أريد أن أكون عادلاً ولكن كيف أحقق هذا في عالمي غير العادل؟ حين تكون سلطاناً مسؤولاً عن البلاد يتأمَّلُ منك كل إنسان يحمل إليك قضيته المحلولة أو المعقدة، وقلقه — حزنه، أن يجد طلبُه الجواب العادل. ولكن من الصعب إجابة كل من يحمل إليك سؤاله: ينصرفون من عندك وأحدهم راضٍ والآخر مستاءٌ، وذاك عدوٌّ لك. لا يمكنك إرضاء كل من يبشّ لك لأنه يبحث عن فائدته الشخصية فحسبُ. إذا كان أولادك والأقربون إليك لا يفهمونك فكيف يفهمك الأبعدون؟ أكَونُك سلطاناً يحيِّيك من يُحبُّك ومن يكرهك أمرٌ إيجابي أم سلبي؟ ليس الحكم كالعسل إن أكلته دائماً قطع شهيتك. حين لا تقضي ليلتين متتابعتين في مكان واحد تكتشف حلاوة هذا الحكم أو مرارته. لأجل هذا كان المرحوم الصالح قال لي هذا الكلام: "لا تخاصم حارسك حتى لو خاصمت أميرك".

في أحد الأيام فيما هم راجعون من الصيد قال بيباريس لقلاوون:

– ماذا سنفعل بشأن قاهر وكوشاربيك؟

– لم أثق بقاهر طوال عمري. ولكن لم أتوقع أن ينقلب علينا هكذا.

– نفّذ كوشاربيك المهمة التي عهدتُ بها إليه في القسطنطينية – قال بيباريس، ثم أضاف بشيء من الحزن – ولكنه ألحق بي العار في نواحينا وعند القبيلة الذهبية. ليس قليلاً ما جمعه من ذهب وفضة مدّعياً أني أرسلته يستجدي. أما من لم أثق فيه طوال عمري ولم أبشّ في وجهه البتة جَلات فقد رجع من الوفادة بأخلاقه ورجولته. لا، لا، ليس جلات من حمل إلي الخبر. – ارتسمت ابتسامة على وجه بيباريس، – هذا فمه كصندوق مسمّر. لا يفضي إليك بشيء إن لم تنتزعه من فمه.

– مَن إذن؟– لم يستطع قلاوون إزاء ما سمع إلا أن يسأل.

– لا ضرورة أن تعرفه أنت. وأنا لِأحتفظ لنفسي ببعض الأسرار. – أضاف بيباريس إلى كلامه ممازحاً – أحد عامة المماليك الذي أرفقته بالوفد وضع أمامي كل ما قيل دون أن يسقط منه شيء لأنه يعرف الرومية والأديغية والنغوي. لا أستطيع إقناع جلات أن يشهد على ما نقله رجُلي.

–وماذا يقول؟

– أعتقد أنه لا يثق بي.

– وقبل هذا منذ صباكم لم يكن أحدكما يثق بالآخر. – ابتسم قلاوون – ألا يمكن الجمع بين "رجُلك" وجلات؟

– أفضل عند الضرورة أن آمر بقطع رأسي جلات وكوشاربيك على أن أكشف عن "رجلي".

– وأنا ألا أعرف رجُلك؟ – سأل قلاوون بلهجة لطيفة تنم عن الثقة – ثم أردف لنفسه ألا يمكن أن أستعلم عنه:"وإن كنت لا أعرف؟ الثلاثة ليسوا ثلاثمئة؛ ألن أكتشفه؟ !".

– لا تعرف، ولو سألتني ما أخبرتك. — حسم بيباريس الموضوع، ثم أضاف وكأنه عرف ما في نفس رفيقه: – لن أقبل منك أن تحاول معرفته. سأتكلم غداً إلى جلات للمرة الأخيرة. ولكن إن جعل من نفسه أعمى أصم أبكم فسألحقه هو وسرُّه بكوشاربيك.

كان قلاوون لا يجهل احتفاظ بيباريس ببعض الأسرار. غير أن ما قاله له رفيق طفولته الآن شهد مرة أخرى على انغلاقه على نفسه منذ تبوّأ السلطنة، وتصنُّعه، وتجنُّبه الأقربين والأبعدين عنه أحياناً، ومراءاته لهم أحياناً أخرى. "كيف يمكنك أن تتغير من البارحة إلى اليوم؟ – سأل قلاوون نفسه ببراءة، ودافع عمن لم يقبل أن يودعه ثقته — لا أظن سياسة البلاد سهلة. لا، لا، يجب أن تكون إنساناً سواءٌ كنت كبيراً أم صغيراً. — نقض كلامه حين تفكّر في الأمر، ولكن سؤالاً آخر انتصب أمامه: – ولكن أيمكن لرأس السلطة أن يكون له أصدقاء؟"

في اليوم التالي، حين قيل للسلطان بيباريس إن جلات جاءه من نفسه قبل أن يستدعيه، طلب استدعاء قائد الجيش قلاوون. وقال لجلات الذي أُدخل إلى الغرفة، دون أن يسميه باسمه، بصوت يظهر منه استياؤه:

– لا بد أن لك معي أمراً يشغلك إذ جئت بنفسك. أسمعك.

– لم يمض يوم علينا، أنت وأنا، منذ صبانا لم يكن بيننا شيء مشترك. غير أننا كلينا، صدَقنا مع ما أراده الله منا. وسنصدُق معه إلى يوم امتثالنا أمامه. أريد، كما تريد أنت، أن أصارح كوشاربيك بحضوره أمام البلاد، بما أتهمه به.

– قبل أيام كنت أمامي أعمى أصمّ فماذا جرى الآن؟

– لم أكن أريد يا موفد الله أن أكون واشياً أمامك.

– إن كان هذا رأيك – ابتسم بيباريس – فلن أستدعي الخائن كوشاربيك إلى هنا، بل سأرسلك أنت وقلاوون وشخصاً ثالثاً إلى سجنه.

– والأفضل أن تكون معنا يا بديل الشمس. – لم يكن جلات يتراجع عما يريد. كنت سترى إخلاصي لبلادي بعينك، وسمعت بأذنك.

– حاولت أن أتحملك يا جلات، ولكن ما هدفك بالضبط؟ – استنفرت حواس قلاوون. – أتريد أن تُشهد السلطان على إخلاصك لوطنك؟

– لا نجهل ما قدمنا ثلاثتُنا للبلاد وما قدمه لنا – قال بيباريس كاظماً غضبه بصعوبة – برهنتَ على صدقك مع بلادك جيداً في المعارك التي خُضتها. وأنا شاهد عليك في هذا، غير أني أربأ بنفسي أن أكون شاهداً على أنك غيرُ واشٍ. وصلني ما فعل كوشاربيك حيث أرسلتكم. غير أني كنت أريد أن تقوله لي أولاً، ولكنك صمتَّ حتى استدعيتك وانتزعت الكلام من فمك. وهذا أسوأ بكثير من رفضِك أن تكون نماماً. لا حاجة لأحد إلى جدالك المتصنّع. وأنا أدينك في هذا وفي سكوتك على كوشاربيك.

– لم أشارك كوشاربيك في أي جرم... – ارتجف صوت جلات خائفاً من أن يؤول أمره إلى غير ما كان يتوقعه. – رجعت إلى بلادي مستقيماً نظيف الكفّ.

– سكتَّ يا جلات عن جامع الصدقات وإن لم تشاركه. – انفجر بيباريس غضباً وتطاير الشرر من عينه السليمة الوحيدة. – يستوي عندي المذنب والساكتُ عليه! – "حين كان يشاجرني في الشارع كان يُذكّرني بأني لست في بلادي، والآن، رغم معرفته أني سلطان، يلمّح إليّ، غير متقبّل، قائلاً "رجعت إلى بلادي مستقيماً نظيف الكف" – أكّد على ما قاله في نفسه، وشدد الأمر

لبرقت الذي استدعاه: – الآن احبسوا هذا أيضاً ! انتهيت من موضوعه كما من موضوع كوشاربيك.

حين بقي السلطان وقائد الجيش وحدهما في الغرفة سأل قلاوون:

– هل سيتفهم المماليك وأهل البلاد موقفنا من جلات الذي هو منهم؟

– متى حدث أن قيّم هؤلاء أوامر سلطان مصر؟ أجاب بيباريس بحيث لا تعرف هل استغرب ما سمعه أم لم يستغرب.

– الناس العارفون بعلاقتكم يا موفد الله – أصلح قلاوون الكلام حذراً على نفسه – لأني أريد ألا يعتقدوا أنك تشفّيت ممن لا تودّه.

– لا تهتمّ بهذا! – قال بيباريس وأكمل بمزحة: – متى اعتبرتِ الأمة أن سلوك سلطانها مستقيم؟ بما أن كوشاربيك مذنب فسيلحق برفاقه شيءٌ من قذارته. إن لم نحبس جلات فلن نستطيع إبعاده عن قاهر ذي وجه الثعلب. يتصيّد السلطنة، يراها في أحلامه. لا عدوّ لنا، أنت وأنا، في مصر،باستثناء الصليبيين والمغول، أخبثُ من قاهر.

وبعد مضي عدة أيام على هذه الأحداث اتُّهم كوشاربيك وجلات بالخيانة، وأُعدما في أحد أشد الأماكن العامة ازدحاماً في القاهرة. وكان بين الناس من رأى أن خائنَي البلاد نالا جزاءهما العادل، وليسوا قلائل من انصرفوا مطرقي الرؤوس. والأكثرون لم يعبؤوا بما حدث في المدينة. وما سيكون أثر ما يقال وما يُفعل على الناس الذين لم يعد الإعدام يؤلمهم؟

وفيما بيباريس مشغول بقضايا أخرى ناسياً ما فعله بأعداء بلاده، استغرب سلطان مصر وصول خمسين صبياً هديةً من قاهر الذي أوكِلت له إمارة الشام:

– من أين أتى قاهر بكل هؤلاء الصبيان؛ أهم من الأديغة؟

– كلهم أديغة، ذوو أجسام متينة. – ابتسم قلاوون وما يزال منظرهم في مخيلته.

– شكراً له على أنه لم ينسنا... حريص على البلاد... ولكن لا أعرف من أين جاء بالمبلغ الكبير الذي دفعه ثمناً لهم. وماذا بقي له إذن من حصته من المبلغ الذي دفع كوشاربيك حياته ثمناً له؟ – قال بيباريس في نفسه غير مهتم بالجواب: "والآن أيضاً ينوي الخبيث قاهر التملص من عقابي".

حين عاد إلى الشام الموفدون الذين كان أرسلهم قاهر إلى القاهرة بذريعة فعل الخير، سأل قاهر رئيسهم:

– كيف استقبلكم الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري؟

– صدف أن كان سلطان مصر في زيارة إلى دمياط فلم نقابله. استقبلَنا قلاوون قائد الجيش بوجه طلق، وأعلمني برضاه عما قدمت إليهم. وأرسل سلامه إليك معنا.

– ولماذا لا يكون راضياً وقد أرسلت إليهم ما يتألف منهم جيش مملوكي كامل... كان عليكم انتظار السلطان حتى يعود.

– لم يكن عندنا مثل هذه المهمة يا نور الشام.

– من عرف أن موفد الله سيكون غائباً؟ أنا سأقابل الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري بمناسبة سفري في مهمة إلى القاهرة. – "لن أسمح للأعور الذي لا يعرف أحدٌ غيرُه أين سينام الليلة أن يتخذ مني غريماً " — قال قاهر لنفسه.

XVIII

لم تدُم حياة السلام في مصر بعدما احتل السلطان بيباريس مدينة أرسوف إلا تسعة أشهر.

خبرُ الهجوم المشؤوم الذي شنه الملك بوهيموند السادس ملك أنطاكية على حمص ولم يُبقِ فيها على مسلم أجبر الجيش المملوكي على ركوب الطريق حالاً. وفي طريقه حرر حمص وتوجه إلى قلعة صفد المطلة على بحيرة طبريا وحاصرها من جميع الجهات. ودارت حرب شرسة مدة ثلاثة أسابيع. ولما كان الصليبيون يعرفون ما اقترفوه في حمص لم يكن في نية فرسان المعبد والمِضيافين الاستسلام.

بقي بيباريس على رأس جيشه طوال الأسابيع الثلاثة رغم أنه جُرح خلالها. ولكن، لما كان السلطان يعرف أنه سيخسر الكثير في هذه المعركة، فقد عرض على الصليبيين الذين لا مهرب لهم العفو عنهم إن استسلموا، فرضخوا للأمر الواقع كي لا يموتوا من الجوع.

لم يفِ بيباريس بوعده للمستسلمين: غيرَ بعيد عن القلعة، على سفح التل، قُتل ألفان من فرقة فرسان المعبد.

لم يعرف بيباريس الذي كان يحرز النصر تِلْو النصر التوقف عن الحرب: بعدما احتلّ قلعة شقيف أتبعها خلال يوم واحد بيافا التي كانت تفتقر إلى الحماية.

الملك بوهيموند يتراجع، وبيباريس يلاحقه خطوة خطوة. لم يكن ليغفر للملك تحالُفَه مع المغول المتدفقين على سورية. في عام 1268 توجه بيباريس إلى طرابلس الشام وأنطاكية. وسمح لجيشه أن ينهب طرابلس التي سقطت بسهولة. – قتلوا الناس فيها أو أسروهم. واستسلمت أنطاكية التي لم تستطع الصمود طويلاً أمام المماليك. فسوَّوا بالأرض المدينة التي كان يسكنها مئة ألف. وأعطي عدد من قادة الجيش حوالي ثمانية آلاف من الصليبيين ليبيعوهم أو يستعبدوهم.

وكان المقاتلون المماليك الذين أسكرهم النصر يتقاسمون النقود الذهبية والفضية بأن يكيلوها بالأواني دون أن يعدّوها. ويبيعون العبيد بأبخس الأسعار: الصبيُّ باثني عشر درهماً، والصبيّةُ بخمسة.

كان سقوط أنطاكية مأساة عظيمة للصليبيين. وكانت الأعوام 1269 – 1271 أسوأ مما سبقها. ولم تعد حملات النجدة القادمة من أوربا تنفعهم. وسقطت قلاعهم واحدة تلو الأخرى: صور، وأفاميا، وصيدا، وبيروت، واللاذقية، وبتالومايدي. وكانت أعداد مقاتليهم تتناقص. كان المماليك على صهوات الخيل، والصليبيون راجلين.

حين احتل بيباريس حصن الأكراد الذي كان أقوى القلاع الصليبية في سورية وقف أمام قادة جيشه ومقاتليه، وقال للإمام عماد:

– هات قلمك وأوراقك. واكتب من على صهوة حصانك للملك الكافر الذي لا شأن له ببلادنا: علمُنا الأصفر غلب علمكم الأحمر. وإلهنا العلي أسكت أجراس كنائسكم. وهذا سيكون جزاء كل من يأتي إلى بلادنا بنيّة الشر، وستكون نهايته على ظُبات سيوفنا. واكتب تحتها: سلطان مصر، الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري. اقرأها على جيشنا المملوكي الذي رضي الله العلي عنه، وحاز على رضاي أنا أيضاً، والمكلف بحماية الإسلام والمسلمين. ثم أوصلوها إلى عدونا الملك الكافر. وأخبروه أني لن أنتظر جوابه، وأني سأغزوه بآخر سيفٍ مشهر أستلّ به روحه. وأنت المكلَّف بهذا يا أمير الشام التي نحميها من الصليبيين قاهر.

وقف عماد بأطراف أصابع قدميه في الركاب، وقرأ ما أُملي عليه على قادة الجيش، فأشهد المقاتلون سيوفهم المسلولة في الهواء على تأييدهم لسلطانهم.

أكّد بيباريس على راسم:

– لن تكون مع قاهر المخادع. ولكن لن ترفع عنه رقابتك طرفة عين . وكتم بيباريس أن أحد الثلاثة الذي أرفقهم بقاهر من رجاله هو. ليس المطلوب حمايته، بل لو قتلوه لما اعترضت. كيف رأيت موقفه هو من المهمة التي أسندتها إليه؟

– هو مرتاح لثقتك فيه يا موفد الله. — أليس الأفضل يا بديل الشمس أن نحرص على أنفسنا كما اللهُ حريص علينا؟ – تغير لون راسم — ألا تخشى أن يبقى عند من توفده إليه؟

– لنثقْ به اليوم إذ لم يفعل هذا في العام الماضي ولا هذا العام — ابتسم بيباريس. لا يمكن أن يفوّت إمارة مصر إلى مكان آخر. إن لم يقتله بوهيموند بسبب الرسالة التي يحملُها إليه فسيتبين صدق شكوكنا فيه.

لم يكن قاهر يُظهِر على نفسه معرفته أن السلطان الذي يلاطفه في الكلام لا يحبه من قلبه. ومع ذلك ينفذ أي مهمة يكلفه بها مخفياً ما في نفسه من حقد، مُفهِماً الآخرين أنه هو واثق منه.

اليوم يعود قاهر سالماً من لدن بوهيموند الذي أُوفد إليه غارقاً في أفكار علاقته بالسلطان: "لماذا يكرهني السلطان بيبرس؟ لماذا يتحامل عليّ؟ ألا ينسى شجاراتنا ونحن صِبيان في الشارع؟ كل الذنب كان ذنب جلات الذي اتُّهم ظلماً فأُعدم مع الجشِع كوشاربيك، وليس ذنبي أنا. لم يكن عندي وقتها من القوة ما أقف بها أمام هؤلاء. وحدث أن عاقبني جلات على هروبي من ساحة الشجار. نشأنا في الشارع هكذا وعلاقتنا تتراوح بين العداء والمصالحة ولكن وجب علينا أن نلتحق بعمل واحد سواء باتفاقنا أم دونه. وتجلّت في معارك كثيرة شجاعتنا واستقامتنا. ولكن شجاعة جلات واستقامته وحبه لبلاده لم تستطع حمايته. ماذا فعلت أنا ببيبرس فلا يطيقني؟ أهو توليتي إمارة الشام من

السلطان خُطج؟ والمنصب الذي أسنده إليه لم يكن صغيراً. أمن السهل أن تكون قائداً أعلى للمماليك؟ والآن هو سلطان مصر. ليته لم يتصرف معي تصرفاً أحمق وهو يمدحني ويبشّ في وجهي! تجده في أحرج مواقع المعارك شاهراً سيفه دائماً. كيف لا يلاقيه من يبقر بطنه؟ أأكلّمه؟ كلّمه إن كنت كرهت عيشتك ! — نمر قاهر نفسه بنفسه.

لما كان راسم أول من عاد من المهمة التي نفذها سراً فقد أبلغ السلطان:

– سفيرك قاهر ياموفد الله لم يلتق ببوهيموند الكافر. سلّم الورقة إلى الفرسان الثلاثة الذين استقبلوه، وعاد لم يخسر من رأسه شعرة.

– أعرف أن شعره ابيضّ ولو لم تسقط منه شعرة — ما إن أتم بيباريس جملته حتى ابتسم في وجه قاهر الذي دخل الغرفة — مرحباً بك. يجب أن تكون مهمتكم أُنجزت. رجعتم بسرعة.

– نفذنا مهمتك يا موفد الله — أومأ إلى السلطان إيماءة احترام، وقال بصوت جازم: – أنا شاهد على أنك أرسلت معنا إليه الأرق الدائم ولو أنه لم يسمح لنا بلقائه. وقلبه صار وراء البحر. ولم يثق بالنجدات التي ستأتيه. لا يعرف أين يفر بجلده. عاقبناه بما يكفي.

"أأقول لهذا النفّاج حقيقة أمره؟ أأُفهِمه أني لستُ من السذاجة بحيث أشرب الماء من أنفي؟ – كان بيباريس قد غضب في سره ولكنه عاتب نفسه بسرعة:

– فات موعد القيام بهذا. بالقياس إلى هذا كان المسكين جلات الذي أمرتُ بإعدامه رجلاً. بقيت أقول: حَشّوه، وهو يقول معانداً: حَلقوه، حتى فنينا معاً. صاحب الذنب الأعوج هذا هو من قال لي: حسناً فعلتَ به، وهو السبب في ما حدث بيننا. لا يحتاج الأمر لأصرفه عن وجهي إلا إلى تقطيبة مني... ولكني سأجبره على أن يغمر نفسه بنفسه في خندق الرمل الذي يحفره لي بيديه

ورجليه، ولن أفعل أنا به هذا" – انتفض بيباريس من الأفكار التي نفّس بها عن ضيقه وقال لقاهر:

– إن كنتم تعدون إجبارنا بوهيموند الكافر على الفرار مأثرة فلا أعرف إذن...من سأعدّه رجلاً هو من يحمل إليّ رأسه ! – أكمل بيباريس بصوت أعلى.

– إن كان هذا ما ترى يا موفد الله – الكلام الذي سمعه قاهر على غير توقعٍ جعله يشعر بالانبساط، لا بالانقباض. – فالآن حالاً سنأتيكم برأسه. بل سنأتيك به حياً إلى حضرتك. ولكني سأحتاج بالإضافة إلى مماليكي الحراس المئة إلى خمسين من عندك. وسأقبل أي رفيق لي غير راسم. وإن أرفقت بي قلاوون فهو الأفضل لأنه يساوي جيشاً كاملاً. – "لو خدمتني في هذا وانتزعتُ منك برقت، ابتسم قاهر للسلطان وقلبه يغلي حقداً عليه، كنت فعلتُ بك ما فعلتَه أنت بالسلطان خُطج. وكنت أبعدت عنك عصبتك الأديغية. ألا يكفي كم تقدمتمونا وأنتم تلتفتون إلينا وتعضوننا، بنيتم عُشّاً لم يكن من حقكم..."

– أتسمع يا قلاوون حاجة قلاوون إليك؟ – سأل بيباريس وقد هاجمه وسواس ريبته.

– نعم، أسمع يا بديل الشمس، ولكني لا أفهم ما ينويه لي – قال قلاوون وعدم ارتياحه لحديث السلطان والأمير بادٍ نوعاً ما على صوته.

– ألستَ أنت من قيّموه بجيش كامل؟ – رد بيباريس على السؤال بسؤال متظاهراً بالابتسام.

– لو لم يقل قاهر اسمي يا موفد الشمس لما صدّقته – وكما تعاملوا مع قاهر مزح مع السلطان وأكمل: – أظن صديقنا الأمير يبالغ في مديحي.

– لم أقل ما لا تستحقه برجولتك وإنسانيتك يا قائد الجيش – ولم يتراجع قاهر عما قاله، وأكمل كلامه الصريح قائلاً في نفسه "لو استطعت أن أفصلكما أنتما الاثنين لعرفت ما سأفعل بكما" – أظن أني ما كنت لأعجز عن شيء لو رافقتُ رجلاً عنده مثلُ شجاعتك.

– لا أعرف يا قلاوون إن كان من الممكن أن يثق بك قاهر أكثر من هذا – لم يملك بيباريس إلا أن يسأل رغم أنه كان يضحك في سره – وماذا إذن؟

– إن كنت ترى هذا فأنا رهنُ إشارتك.

– لو لم نكن، قاهر وأنا يثق أحدنا بالآخر ويصدُق معه لما نجونا من المعارك الكثيرة التي خضناها معاً. ولذا إن كنتما ستخلصان لِما أسمعتُكما مما أريده وأرغب فيه فسأقول لكما رأيي في هذه المسألة. شكراً يا قاهر، برهنت على إخلاصك لي وصدقك معي، واستعدادك عند الضرورة للتضحية من أجل دينك الغالي وبلادك الحبيبة وسلطانك، في معارك اليوم والأمس. أنا راضٍ عنك، ولكن من أجل أن تأتيني برأس بوهيموند خلسة لن أضم إليك قلاوون ولا برقت ولا اسم الذي لا تريده. ولا أسمح لك أنت أن تسلك مثل هذا الطريق. هل تعرف أين التجأ حين أوفدتك إليه؟

"لماذا هذا الذي ما في قلبه ليس ما على لسانه، توقّف طويلاً عند هذا الموضوع؟ – لماذا صاح قلاوون مستنكراً الموقفَ الذي صار فيه وما سمعه؟ – حين يتحامل بيباريس على أحد لا يتركه إلا أن يعترف الآخرُ بأنه أقوى منه وأحكم، دون أن يحطم أنفه. إن لم توافقه على رأيه كان مصيرك مصيرَ السلطان خُطج، أو يفعل بك ما فعل بجلات. إذن أنظل نصفق له مهما قال؟ وإلى الآن، وقد صار ربَّ أسرة، وصعد أعلى المراتب، لا يزال في سيرة كوثر. أيكون السببُ أنه لم يغفر لقاهر تزويجها من توران شاه؟"

– صحيح سألت لأنك لا تعرف في الموضوع. – أجاب بيباريس راضياً على السؤال – أعرف كل شيء بدءاً من اهتزاز أعالي شوك البلّان، إلى حركة رمال الصحراء. التجأ الملك بوهيموند إلى أتباع دينه الأرمن؛ لا أعرف إن كانوا سيحمونه. هذه الوجهة هي ما يجب يا قادة جيشي أن توجهوا إليها رؤوس خيلكم وبسالتكم. وإن شاء الله تتحقق نيتك هناك يا قاهر. أنا قلت، والفعلُ عليكم.

"أنت تقول ولكن نحن أيضاً نعرف ما علينا فِعلُه... سأجعلها آخر مرة تركب فيها. سنرى من سيغمر الرمل رأسه..." – انصرف قاهر من حضرة السلطان مغمغماً في داخله.

– لستَ اليوم على ما يرام يا قلاوون – قال بيباريس لقائد جيشه بعد سكتة– لا أعرف إن كان هروب بوهيموند منك يصيبك بالاكتئاب. لا تهتمّ ! أنت تعرف كما أعرف أن الملك يصعب الإمساك به في ساحة المعركة. لهذا السبب رجعتُ ومزحت مع الثعلب المرائي قاهر. هذا الرجل الهُمام سيجيئُني برأس بوهيموند برفقتكم! ليته لم يرمِ برأسي أنا أمامكم بدلاً من رأسه!

– أيُّ أفكار غريبة تسمح لها أن تخطر لك يا موفد الله؟ ! – وجّه قلاوون لصديقه السلطان ما لم يسمعه ولم ينتظره قط، وقد ظهر انفعاله من وجهه وصوته. ولكن سرعان ما رجاه عارفاً خشونة كلامه – سامحني، لم أقصد أن أهينك. ولكن مثل هذا يا بيباريس – الآن انتقل إلى لغته الأديغية بنبرة ألطف – لا تقلْه أمامي، ولاسيما أن من نعيش بينهم لا يحبوننا.

– أغفر لك يا صديقي العزيز إن كنت تعترف بعنادك، ولكنك رجعت وأيّدت ما قلتُ سواءٌ كنت مختاراً أم مكرهاً. أأكون خارج هدف أيّ صياد؟ لا تصبر

بهذه الذريعة. لا تنس أن الماشي يتابع بعينه راكب الحصان. وإن كنت تركب غير حصانك فمن سيرميك من الخلف ومن سيسخر منك أكثرُ وأكثر!

– أيفعلون بك هذا وأنت تحمي لهم بلادهم من الشرق ومن الغرب، وفي الوقت نفسه أنت صِهرُهم؟ – سأل قلاوون ناسياً أنه حسد السلطان قليلاً.

– لا تخدع نفسك يا قلاوون.– قال بيباريس ثم سأله: – إذن هل تعيش دون أن تحسد أحداً في الدنيا؟

– لا أعرف كيف أعبّر لك عن هذا – ابتسم قلاوون – أتتذكر كيف كنتما أنت وجلات تجلسان على ذُرا الأشجار؟ صحيح كنتما تصيبانني بالدوار غير أني كنت أحسدكما.

– والآن؛ ألا يدوخ رأسك؟

– ولماذا يدوخ؟ – تظاهر قلاوون أنه لا يفهم سبب السؤال. ابتسم ثم مزح معه –كيف أدوخ وأنا على القمة التي رآني الله، ثم أنت، مناسباً لها؟

– ومن أين أعرف؟ – ابتسم بيباريس بخبث – انظر ها هو سعيد، رغم أنه ابني يُخيَّل إلي أنه طامع في سلطنتي. هذا عادي. نحن أيضاً عشنا عمرنا نشتهي ونطمح. أنت لا أعرف رأيك. أما أنا فلا أريد شيئاً سوى أن تكون بلادي حرة.

– وأنا أيضاً يا موفد الله هذا ما أعيش لأجله وأسفح دمي – قال قلاوون وهو يغلي في داخله. ثم أردف لنفسه "قلنا ما علينا قوله؛ لماذا لا يزال هذا يحوم حولي؟ لا تظنني طامعاً في منصبك، لن أسيء إليك الدهر كله. ولكن، من يدري ما يحدث في هذا العالم المتصارع، إن وجدتني أهلاً له فلا مانع عندي. وإن تجاوزتني فلن أقبل منك"

مع أن هذه الفكرة نفسها كانت في ذهن بيباريس فلم يكن يستطيع الإفصاح عنها "لم أقابل إنساناً، عاقلاً أو مجنوناً، لا يطمع في عرش السلطان. أنا وهذا الرجل عبرنا المشقات نفسها، وعانينا ما عانينا. ونحن صديقان. وكلٌّ منا يثق بالآخر. تتعثر رجلك بعقب حذائي مشغولاً بمراقبة ظهري، أليس لهذا السبب تطمح إلى المرتبة العالية التي لا تستطيع قدماك الوصول إليها. أمراء الجيش كثيرون والسلطان واحد. – أأصارحه إن لم يفهم تلميحي؟ لا، لن أشكك الصديق القريب الوحيد لي بمثل هذا الكلام. قبل أيام أسأت، دون فائدة، إلى برقت أيضاً بين المزاح والوخزات. " نحارب كثيراً ولا نفعل شيئاً داخل البلاد " كان لمّح لي، على صغر سنه، بهذه الفكرة. في كلامه نصيب من الصحة. وأنا لا أنكر هذا، أعرفه في شخصي. غير أن أعداءنا لا يمهلوننا حتى نمسح الدم عن سيوفنا. لا يسمحون لي بإكمال ما بدأت ببنائه من مساجد وجسور ومدارس... سنستأنف أعمالنا التي علّقنا العمل فيها متى دمّرتُ كنيسة الأرمن في كيليكية فلا أسمع صوتها ثانية. وعلينا توسيع ميناء الفسطاط. وعلينا مساعدة الفلاحين بإنشاء قنوات الري؛ وإلا بقينا تحت تهديد سنوات المحْل. ولكن مهما خدمت البلاد فمن لا يريد رؤيتك لا يرى ما فعلت، ومن لا يريد سماعك لن يسمع. ومن تعتمد عليهم يمكن أن يتحولوا من الفرح لمنجزاتك إلى الحسد. وإن لم تلتفت إلى هؤلاء من حين لآخر فتعضَّهم ظنوك فقدت أسنانك" – استفاق بيباريس من أفكاره المتلاطمة، وقال لقلاوون:

– يا قلاوون أؤمن أنك، مثلي، عمود للبلاد، ولكن لن نستطيع التفكير ما دامت أجراس كنائس الأرمن في كيليكيا تصدع رؤوسنا.

خلال أشهر الخريف الثلاثة دمر الجيش المملوكي بقيادة بيباريس شخصياً الجيش المختلط للأرمن والمغول. وأنهب جيوشَه حواضرَ الأرمن من أضنة إلى طرسوس. وأمر الجيش بإحراق المدينة العاصمة "سيس"

– أتسمع يا قاهر، لم يعد يُسمع من سيس غيرُ صوتِ سقوط نواقيس الكنائس، ولكننا لم نستطع هذه المرة أيضاً اعتقال الملك بوهيموند. — قال بيباريس لقاهر وهما على التل، غيرَ بعيدين عن المدينة التي تحترق. ودون انتظار الجواب، قال مورّياً شاملاً نفسه بكلامه: – أيكون هرب إلى أصدقائك – أصدقائنا الإسماعيليين الحشاشين؟

– لن نألو جهداً للقبض على بوهيموند الجبان يا موفد الله – قال قاهر غيرَ مُظهِرٍ بلونه وبصوته عدم رضاه عن كلام السلطان — أيُّ شخص أخبرك أنه التجأ إلى الأرمن ضلّلك. لا شك أنه عبر البحر لأن ملاذه الوحيد هو بلاد الإفرنج التي جاء منها. ولكن إن كنت تعتقد أنه هرب إلى أصدقائنا — أعدائنا الحشاشين الأشرار فنحن جاهزون لأي مهمة لأن جيشك المملوكي موضع ثقتك دائماً.

– لستُ صاحب القرار في هذا — قال بيباريس بصوت عالٍ أسمع الواقفين أمامه وغير الواقفين — القرار بيد الله الذي يتوسل إليه الجميع ولا يتوسل هو إلى أحد. نحن بإرادته نغزو أبناء قومنا العصاة. يقول الله يا قلاوون: اتبعوني! قوله قولُنا، وفِعلُه فِعلُنا.

احتل المماليك تباعاً قلاع الإسماعيليين الحشاشين: مصياف، والقدموس، والكهف، وعدداً من القرى. وهنا انتهى استقلالُهم وصاروا جزءاً من مصر. واعتبروا بيباريس الذي لم يعترفوا به يوماً سلطانهم.

ومرة أخرى كان السلطان بيباريس راضياً عن النصر الذي أحرزه، والذي أغنى البلاد مادياً، ولكنه رجع إلى القاهرة التي بدأت فيها خصومات ومشكلات كثيرة غيرَ راضٍ عن عجزه عن الإمساك ببوهيموند الملك. ولكن تعليقه الحزين على الخبر الذي نقلوه إليه بعد انتهاء مشكلات القاهرة بأيام، هادفين إلى إسعاده به، كان مختلفاً:

– هيه يا بوهيموند، بوهيموند ! سخرنا منك حين نجوت بجلدك من ساحة الحرب ولكننا كنا نعرف شجاعتك. كان الأنسب لمقامك أن تقضي في ساحة معركة معنا من أن تموت من سقطة من على الحصان. ولكن ما العمل؟ لو كان كل شيء يجري في الحياة كما نريد... كان الملك بوهيموند مخلصاً لدينه، مات وهو يحميه، لنقمْ احتراماً لمثل هذا المحارب ولو كان كافراً، ولْنقدِّمْ له مشاعر الاحترام ! — نهض السلطان فتبعه الحاضرون. ثم دعاهم إلى الجلوس، وطمأن قلوبهم — أنا مسؤول أمام الله عن تحيتنا للملك الكافر. سأدعو ربنا العلي القدير أن يفهمنا ويرحمنا.

XIX

لماذا اتخذ السلطان بيباريس من جبل المقطم القريب من القاهرة مزاراً له، ولماذا يحبه؟ ليس عليه ما يسرُّ العين، ولا ما ينعش القلب من خضرة أو غابة، ولا تسيل منه سواقي الماء، ولا تغرد فيه الطيور، ولا يختزن الثلج على قممه. الريح تلعب فيه وتصفر، تنزلق على الصخور الصلبة، وتحتّ الرخو منها. وتعبث بذرات الرمل التي تحملها. بقيت في ذاكرة بيباريس هذه المناظر مهما كانت، وتتبعه حيثما توجّه. ومنذ رجع إلى القاهرة كان الجبل مَراد عينه ومحطّ سلامه ليلاً ونهاراً.

وها هو اليوم على الجبل مع عدد محدود من الفرسان. ومن بين أمراء جيشه اكتفى ببرقت رفيقاً وحيداً.

– اتخذتك رفيقاً غير أني أخشى أنك لا تحب هذا الجبل. — قال بيباريس مازحاً لبرقت.

– لا يجوز يا موفد الله أن نسمي هذه جبالاً، لا أرى هذه التلال قبيحة لأنها تذكّرني ببلادنا.

– وأنت ترى هذا يا أخي الصغير؟ – سأل بيباريس على طريقة الأديغة ناسياً أنه سلطان، واعتصر الألم قلبه — لنجلس قليلاً هنا، وأنت هل في البلاد التي جلبوك منها جبال عالية؟

– في نواحينا الجبال تعادل الشمس — تنهد برقت — كبيرة، جميلة، مغطاة بالغابات، قممها مكللة بالثلوج. تكثر فيها السواقي والطيور والفراشات.

– على روايتك جبالكم وجبالنا في القرم متشابهة.– قال بيباريس وقلبه في مكان بعيد. " لست وحدي، هذا أيضاً لا ينسى مسقط رأسه. إن كنتُ تجاوزت الستين ولم أنس فكيف به ! أي مصيبة وقعنا فيها؟! نسفح الدم

والدمع متجمعين في أرض غريبة يسمونا فيها بالمماليك... مهلاً ، وهلاً، إن كنت أنا أقول هذا فما بال هؤلاء المساكين؟ إن اجترحنا بطولات مدحنا أنفسنا بأنفسنا. وإن قُتلنا أصبحنا تحت الرمال لا يبكي علينا أحد. السلطان الصالح مات، وأيبك لحق به، وخطج فارق الحياة وكأنه عاش ولم يعش. والمسكين أقطاي؟ ومِيتة شجرات؟ وهؤلاء مثلي ومثل برقت كانوا أغراباً عن الأرض والبلاد. عاشوا حياتهم لا ينتهون من صراعاتهم كما تتنازع الكلاب على قطعة جلد. الآن ربما استراحوا ! انقطع ذِكْرُهم. لا أعرف كيف يستريح المرء في رمل بلاد غريبة..."- لماذا لا تقول شيئاً يا أخي الصغير؟

- وماذا أقول؟ أنظر حيث تنظر أنت نحو النيل. يُذكّرني ببحرينا.

- النيل بالقياس إلى بحرينا ساقية صغيرة.- أعادته سلطنته إلى نفسه ولو أنه اصطنع ابتسامة. — ولكنه يبقى من حظنا أنه هنا، يُطعِم البلاد كلها. انظر إلى هؤلاء الفلاحين كيف يستغلون القنوات التي حفرناها لهم. إن بقيت بلادنا في سلام دون هجوم المغول علينا فسنقوم بمشروعات كبيرة أخرى. شيدنا في الإسكندرية حيث كانت ترسو الحملات الصليبية وفي دمياط ، في هليوبوليس مقر الروم، وفي الفسطاط، المساجد والمدارس والجسور وميادين سباق الخيل. وفي القاهرة سنشيد في الربيع إن أعطانا الله عمراً مسجداً ومشفى. وسينتهي بناء معمل الورق بين يوم وآخر. حين وطنّا المرتزقة [1] في الضواحي والمدن لم يقبل قاهر وبضعة أمراء آخرون ولكنهم كانوا مفيدين. ورهبتهم ملحوظة مما يحسّن سلوك الناس. لا يعيش العالمُ يا ولدي بالسيف وحده. لو كانت الحياة

[1] أجناد الحلقة من غير مماليك السلطان، وقد يدخل فيهم من ليسوا في الأصل محاربين، فهم أشبه باحتياطي الجيش.

قائمة بمجملها على الأحزان واليأس وحدهما لانتهت منذ زمن بعيد. ونحن ما كنا استطعنا أن نرفع رؤوسنا هنا ونضع أقدامنا على سلّم السلطة... يا برقت اخرجْ من أفكارك، أظنك لا تنصت إليّ.

– لا تظن يا موفد الله أني لا أنصت إليك إذا كنت أنظر إلى العقاب الجاثم على طرف تلك الصخرة. أقمتَ في البلاد المساجد والمدارس والمشافي والجسور، وألّفت تنظيمات من المرتزقة. ليس بالسيف وحده يحيا البشر... — أعاد برقت بسرعة أقوال السلطان. "ليتك أقمت بنواحينا ما تعدده مما فعلت هنا..." أضاف لنفسه ما كان يتمناه.

– حياك الله يا برقت — ابتسم بيباريس مرتاحاً لِما سمع — ولكن كنت أتمنى في هذا اليوم فقط ألا تُبدي سلطنتي بتعابير "بديل الشمس" و "موفد الله". مهما ارتقينا كلانا بأي سلّم فأنا وأنت أديغيان، وهنا مملوكان... — تنفس بيباريس بثقل، ومسح العرق عن جبينه بقبعة سلطنته.

– ولكن يا بيباريس — لأول مرة خاطب برقت جليسه باسمه — إن لم أخاطبك بما شرفوك به هنا؛ أليس فارق العمر بيننا كبيراً؟

– لا تعتب عليّ، ولكن احفظ ما سأقوله لك في أعماق قلبك. سلطنتي صنعتها لنفسي بالسلاح وليس منحة من أحد. أتعرف ماذا يقول أهل البلد وكل من لا يودّني من وراء ظهري؟ ينادونني بسلطان المماليك من أجل ألا أنسى مملوكيتي. لا ألومهم، يسموننا باسم مصيبتنا: الرقيق الأبيض. لم يبدأ هذا الموضوع بنا، ولن ينتهي. والآن ما سأعلّق به على ماسميته "احترام الأسنّ" شيء آخر: حين سمحت لك أن تجلس فجلستَ إلى يساري، إشارة إلى أننا لم ننس هويتنا الأديغية في هذه البلاد، وجدتُ نفسي لا تتسع قبعتي السلطانية لرأسي. شكراً لك، ليرضَ الله عنك يا أخي الصغير! لا يجوز أن ننسى هويتنا

الأديغية أينما كنا، وفي أي موقف فرح أو حزن. — جلس بيباريس ريثما هدأ الحزنُ — البلبلةُ الذي غزا الرأس، ثم سأل برقت فجأة: – أتودّ أن تعود إلى نواحينا، إلى بلاد البحرين يا أخي الصغير؟

– لم أقابل إلى الآن.– جعل السؤال غيرُ المنتظر برقت ينتفض برأسه — إنساناً لا يرغب في العودة إلى بيته.

– لستُ متأكداً، أعرف كثيرين لا يستطيعون.

– إن قلتُ إني من هؤلاء فأنا أكذب عليك، غير أني لا أستطيع أن أفعل مثل هذا.

– ألأنك لا تستطيع، ليس في قدرتك أم لا تثق بي؟

– يقولون إن المسافر لا ينقطع في الطريق، وأنا واثق منك، ولكن لا أستطيع أن أفعل هذا.

– ما الأمر؟ – سأل بيباريس مستغرباً ما سمع، وعاتبه بكلام يغيّر الموضوع — من يُمنحْ حريته يفرحْ، ومن يجدْ بيته، بلاده، يعتبرْه من حسن الحظ.

– إذا تسللت من مأساتك — حزنك، وهربت لأجل مصلحتك ممن قاسمتهم طفولتك ويُتمك يا موفد الله فلن تكون سعيداً، ليس في بلادك بل في بيتك نفسه.

– في ما قلتَ شيء من الصحة يا أخي الصغير. أنت شاب بالقياس إليّ، وما زلت في سنّ انتظار الحظ السعيد. أنا اليوم في موقع أقدِّم لك فيه ما لم يقدمه لي أحد طوال عمري. استفدْ مني. وأفرِحني، ونفّس عن ضيقي. سأعدّ نفسي رجعت إلى بلادي معك ولو أني مقيم هنا: أسمعتَ بالقول الأديغي المأثور "حفنة من تراب الوطن الذي ولِدت فيه خيرٌ من جبل من الذهب في أرض

غريبة"؟ إن كنت لم تسمع فاحفظه لأن من قيل فيه هذا إنسان مثلُنا؛ ربما نفعك يوماً ما.

– كلام حكيم. ربما كان هذا تعبير تفكُّرٍ حزينٍ من إنسان ألجؤوه أن يمس أعماق قلبه... – قال برقت، وأضاف بصوت منكسر – "إن أزهر البيلسان ورجع كلٌّ إلى أصله" فلن أستطيع أن أفعل هذا تاركاً إياك وقلاوون هنا. وأكون هكذا جنيت على المماليك. وأما في ما يخص قولك لي إني شاب، والحظ أمامي فحياك الله، وأنا أيضاً أعد نفسي صاحب قلب شابّ، ولكن إن كنت تريد أن تُحسِن إليهم فأنا أعرف كثيراً من الصبيان المماليك الذين لا يغيب الغرب عن عيونهم، ويظلون يبكون مستنجدين بأمهاتهم...

قفز الفرسان الذين وصلوا من صهوات خيلهم، وقال كبيرهم:

– يا موفد الله، لا خبرَ ساراً. أهل النوبة ثاروا، وينهبون قرى النيل الأعلى.

– وهل قلاوون قائد الجيش مطّلعٌ على الأمر؟ – سأل السلطان الذي ركب واثنان من المماليك يمسكان برأس حصانه واثنان بركابيه.

– قلاوون طلب من قادة الجيش انتظارك يا موفد الله.

– وهل يعرف سكان القاهرة أن أهل النوبة هاجموا مصر؟

– المنادون أعلنوا الخبر في الشوارع والأسواق.

قال قلاوون لبيباريس ساعة اتجه الجيش إلى النوبة:

– لم يكن من الضروري هذه المرة أن تصحبنا إلى تلك الأرض البعيدة يا موفد الله.

– لا، لا. – لم يدع بيباريس قائد جيشه يُكمل كلامه. – أي شفقة نحوي خطرت لك! أنسيت أن السلطان يجب أن يكون على رأس جيشه؟ لا تكلّفني ما لا يجوز لي فِعْله! أرسل فرسانك السريعين إلى أمير سورية يبلغوهم !

– وهذه المهمة أنجزتها يا موفد الله، فرساننا على الطريق.

– وقاهر. ما قلته لك بشأن قاهر؟

– ولن ينسوا الأمير قاهر – أجاب قلاوون كاظماً نفسه "ماذا جرى لهذا الرجل على جبل المقطّم حتى يعود وفمه يقذف النار؟ ! أيكون أحدهم وشى بي إليه؟

– سأل نفسه – أيكون برقت زلّ لسانه؟ لا، لا" نهر نفسَه.

في شهر تموز من عام 1267 اقتحم جيش المماليك الذي يقوده بيباريس بلاد النوبة. وحاصروا جيش الأعداء بين موقعي عبد الحميد وبربير، وقتلوا الجميع لم يسمحوا لأحد بالنجاة.

وإثر هذا النصر أجبر العربُ أهلَ النوبة على اعتناق الإسلام، رافعين الأذان في كل مكان.

وهنا في القاهرة ارتفع الدعاء في المساجد أن يزيد الله في انتصارات بيباريس، وأن يمد الله في عمره، وتزدهر الأعمال في بلاده. ولكن كيف تميّز من بين هؤلاء من ينوي خيراً للسلطان ومن ينوي الشر، ومن يريد أن يستمر في سلطنته ومن لا يريد؟.

XX

"لا تموت الحية من سُمِّها" – ردد قلاوون من جديد القول العربي المأثور، وسأل نفسه: – لماذا يظل بيباريس يكرر هذا القول المأثور بعدما رجعنا من بلاد النوبة؟ أحياناً أتشاءم غير عارف السبب وعاجزاً عن التحليل. لا أعرف ماذا حدث له، لم يكن هكذا. يتجنب الناس، ويسخر من الأمراء، ويتناسانا نحن. ليلاً ونهاراً على سجادة الصلاة. ينام والقرآن في قلبه، ويصحو وهو على لسانه. ومهما قال بدأ كلامه بـ "الله أكبر" واختتمه به. ونحن مسلمون، ونُعزُّ الله، ولكن أأقول يا إلهي ما لا يجوز؟– ارتعب قلاوون في داخله – ولكن اغفر لي وارحمني وافهمني لأنك أنتَ من علّمنا "إن كنت خائفاً فلا تقل، ولكن لا تخفْ بعد أن تقول". أعرف أنك حين تكون سلطاناً لا يمكنك إرضاء كل الناس، وسيعتب عليك الكثيرون. ومع ذلك لا أريده أن يخطئ لأن بيباريس مثلُ أخي، ونشأنا من بين عذابات دنيانا الفانية، ليّنْ قلبَه، أنت القادر على هذا"

حين تطل من نافذة القصر العالي الذي بناه قلاوون في العام الماضي ترى قمم جبل المقطم قريبة جداً، تحركها الظهيرة الحارقة، وتختفي في نسيم الصباح. وفي المساء يبدو الإرهاق على وجوهها. قلاوون ليس مهتماً بمثل هذه التغيرات الوقتية. يرى صباحاً وظهراً ومساءً قلعة الجيش المملوكي البادية من القمة الأقرب إلى القاهرة. وفي طريقه إلى البيت يلتفت إليها عدة مرات. وحين يصل يقترب، قبل أن يضع سلاحه، من النافذة التي هو عندها الآن، ويتفقد تلك الناحية. وحين يقرر الركوب إلى القلعة التي ينتظرونه فيها لا يخرج من البيت قبل أن يبشّ للقلعة ويحييها.

اليوم ليس قلب قلاوون على ما يرام. — الصباح الباكر ثقيل يبعث على الضيق. لا يستطيع مفارقة النافذة رغم أن الفرسان الحرس ينتظرونه عند البوابة الكبيرة. ينظر ولكنه لا يرى غيرَ ما في القلب. ولا يسمع غيرَ ما يقوله له.

ارتفعت في أذنه أصوات الصبيان المماليك الثلاثة الذين أغلقوا على أنفسهم الباب ليلاً قبل أيام. وتذكر أنه أسند رأسه إلى صدر بيباريس مرة وهم في سفينة النخاسة وبكى: "يا حسرتي يا بيباريس، بيباريس. ماذا نبغي في حياتنا؟ وما عيشتنا؟ نشتري صبيان الأديغة المسروقين في بلاد الغربة ونكلّفهم بحماية غير بلادهم ونحن نمتدحهم ممنّين إياهم أنهم سيصبحون رجالاً، منسين إياهم أمهاتهم وآباءهم وأوطانهم. أتظن أن من نحميهم بالدمع والدم راضون عنا؟ لا أعرف... ربما لأن رهبة سيف المماليك فوق رقابهم. نحن غرباء إليهم. ومن نحاربهم غرباء أيضاً. من نحن إذن؟ نحن من سلبنا البلاد والحكم من أصحابهما رغماً عنا ! ثم تقول لي "لا تموت الحية من سمها"!

يمضي قلاوون قائد الجيش إلى قلعة المماليك، ويترجل على باب بيباريس السلطان. ولما كانت البوابة الكبيرة فُتحت من أجل سعيد ابن السلطان فقد قال للرجل الثاني في السلطة بصوت أجبر الجميع على الإطراق برؤوسهم:

– أين تحيتك يا قلاوون؟

– لو تصرفت على قدر عمرك لرددت على سلامك. — قال قلاوون إلى من وراءه غير عابئ بالتصرف الصبياني لعاشق السلطنة.

حين أخبره برقت أن السلطان بدأ للتو صلاة الظهر توضّأ قلاوون وصلى إلى يسار السلطان وإلى الخلف.

حين انتهيا من الصلاة بشّ السلطان لقائد الجيش:

– "عاش من شافك" يا قلاوون، لم نلتق منذ زمن بعيد.

– اليوم هو الثالث. – أجاب قلاوون الذي هدأت نفسُه بعد الصلاة – كنا أول من أمس في سباق الرمي بالسهام، والقفز من الحصان، والقفز على الحصان الجاري وراء فارسه. لا أعرف إن كان عرضُ المماليك أرضاك. وهبت علينا رياح الخماسين فلم نستطع التحادُث.

– لم يدخروا جهداً. مماليك اليوم أخشن من زماننا. ولكن لا تدعوهم يتراخون بحجة أن البلاد في سلام. ابتكِروا لهم ألعاباً قريبة من الحركات القتالية. ولا يُستبعد أن يقضي بعضهم فيها. لا يصبح مقاتلاً من لم يشمّ رائحة الدم البشري. لا تعرف من أين يهجم أعداؤنا بغتة. ثم ما الأخبار؟

– تدور في العالم أخبار كثيرة. يا موفد الله. ولكن ما يخصّنا منها قليل. – نظر قلاوون في وجه السلطان كأنه لا يعنيه شيء. وقال له في سره: "أسمِعْني أنت ماذا تفعل !"

– لا تتصاغر إلى هذا الحدّ ! – ابتسم بيبارس – صحيح أن العالم غني بالأخبار، ولكن ما أسأل عنه هو ما يحدث في بلادنا. ولكن إن لم تكن سلطاناً وكنت مجرد قائد جيش فمن ينقل إليك ما يُنقل إليّ؟ ومن أين لك أن تعرف؟. لا، لا، لا أقصد أنك غير مهم، وأنك غير موثوق... كلٌّ يعيش بما يناسبه." أسمعت كلام العرب المأثور "لا تموت الحية من سمها"؟

– سمعت يا موفد الله. – أجاب بحذر شديد – أنت تردد هذا كثيراً. ولكن لا أعرف ماذا تقصد به.

–ما أقصده... إن كنت ستفهمني...

– أنت وأنا يا موفد الله لا أتذكر أنه حدث بيننا سوء تفاهم أو عدم اتفاق.

– حقاً، حقاً – أيد بيبارس صديقه سريعاً – وربما كان هذا ما يحمينا في البلاد التي أُجبرنا على العيش فيها. نعم، نعم، البلاد التي نعتلي سلطتها. نعم

لا تستغرب قولي: "أُجبرنا" ألا تشعر أن الغصن الذي نجلس عليه يصبح أكثر هشاشة، وينحني تحتنا كلما مددنا أيدينا إلى أشد التفاحات خُضرة على الشجرة التي نرتقيها؟

– لستُ أشعر فحسبُ. بل يصدف أن أخجل من مملوكيتي.

– كيف ستفهم هذا؟ – ارتفع رغماً عنه الآن صوتُه نتيجة ندمه على سؤاله.

– يا موفد الله قلت لك رأيي لأني أفهمك ولأنك سألتني.

– يبدو أني لست الوحيد المهموم بمملوكيتي... — قال بيباريس الآن بصوت أشد انكساراً، ثم لام نفسه على يأسه — كيف تفهمك البلاد إذا كانت أسرتك لا تفهمك؟! أتعرف بِمَ لمّح لي ولد السلطان الذي التقيتَ به قبل قليل على الباب؟ أصلح لسانك العربي إذا كنت سلطاناً على مصر العربية. حزنتُ ولكني أخفيت انفعالي لأن كلامه قريب من الصحة. أفهمُ أن اللغة التي لم تضعها أمك في فمك لن تصبح لغتك الأم، ولن يجري شيء من عذوبتها على لسانك، وكما يقول العرب الذين وقعنا بينهم، وصرنا حكامهم: إن كنت أسود البشرة فلن يبيضّ وجهك ولو غسلته بمئة صابونة. أتلوم ابنك المتمرد إن كان يردد ما يسمعه في البيت وما يسمعه في الشارع؟

– لست الوحيد الذي يحدث له هذا — قال قلاوون ما يحزنه ويواسي نفسه به، كاتماً معاملة الصبي الأرعن على الباب — ونحن نسمع أمثال هذا في بيتنا. ليس لأنهم لا يحبوننا ولا يحترموننا بل يريدون أن يجعلونا مثلهم، لأنهم يسمعون في الشوارع وفي الأماكن الآمنة مثل هذه الآراء.

ضحك بيباريس:

– يُجهدون أنفسهم عبثاً. أيصبح الخنزير حصاناً إن ألبسته سرجاً؟ لو كان من حظنا أنت وأنا مثلُ المرحومة كوثر لربما ما نشبت في البيت مثل هذه المشكلات.– تنهد بيباريس من الضيق الذي هجم على رأسه.

"اسمعِ الاسمَ الذي نطق به هذا، وماذا تذكّر !" – لم يكتم قلاوون ما استغربه:

– أنسيت ما فعلتْ بنا؟ نطقتَ اسمها على نحو جميل!

– لا ألوم كوثر. وأنت لا تعتبْ عليها. لم ترتكب خطأً. هي أيضاً عاشت مثلنا. صارت كمن قال: ليتني كنت سلطاناً ريثما ألبس قبعتي. ولكنها سيئة الحظ.

– تكبُّرُها كان السبب في نهايتها.

– ليس كبرياؤها السبب، بل نحن... ركضنا إلى بغداد فدمرنا حياتها وحياة البدوي المسكين الذي ربّاها. أتتذكر مجيئه للتعزية مع أولاده حين سمع بما جرى لكوثر؟ وكيف بكوها كلُّهم؟ نحن كنا على الضفة حاقدين عليها فتركناها تغرق تحت أبصارنا. الذنْبُ كلُّه ذنبُ قاهر. لو لم يتدخل بيننا لربما كان لكوثر مصير آخر... قاهر يوسّخُ ما يضع يده فيه. يحفر تحت جذورنا من خلال مديحه لنا وابتسامه في وجوهنا.

– كيف له أن يصل إلى مقامك العالي؟... – ضحك قلاوون من الاستخفاف الذي رافق كلامه.

– لا تتهاون بهذه الحجة. هذا له مقاربات كثيرة. ألا ينحني غصن هذه الشجرة التي نجلس عليها؟ يمكنك أن تحفر تحتها وتهزها لأنه لا مكان عالياً دون جذور. وماذا تريد أكثر من هذا؟ يستطيعون استدراجك إلى النزول وهم يمتدحونك، ويغنون لك، ويصفقون، ويدعونك إلى الرقص معهم. ولكننا لن نسمح، ليس لقاهر فحسب، بل لمصر كلها، أن يفعلوا بنا هذا. لم يجبرهم

أحد، ماكان عليهم أن يشترونا. الحجر الذي تقذفه أمامك تتعثر به إن لم يُصِبك. بالنسبة لي شخصياً لا ضرورة أن أقول هذا عن نفسي. ولم تكن كوثر تعيسة عند البدوي. هذا نحن، ويمكن أن تعدّ عدداً من الأسماء. وأنتم؟ آلاف الصبيان؟ وأنت كم مرة باعوك واشتروك؟

– كان الأمير الصالح خامسَ مشترٍ لي. والسابقون له كان همُّهم الحصول على أكبر ربحٍ متّي. ولم يعِدني أحد أن يُعيدني إلى الأرض التي سُبيتُ منها.

– سكت قلاوون قليلاً بعد عتابه، ثم أكمل – ونحن لسنا أفضلَ ممن كانوا يتاجرون بنا. نحن ظالمون جداً إذ نشتري المماليك ناسين ما جرى لنا.

بعدما توقّف قلاوون عن الكلام ابتسم بيباريس الذي كان يكظم نفسه بمشقة:

– تكلّمْ، تكلّمْ؛ أسمعك !

– لا أعرف ماذا أقول أكثر من هذا. رويت لك ما يُهمُّني لأنك كنت قلت: إن كنت ستفهمني. إن كنت أخطأت لقلة انتباهي فاغفر لي. وعلى رأيكَ لستُ مطّلعاً على كل الأسرار التي تُنقَل إلى السلطان. غير أني لا أقصد بهذا أن قولَك ليس قولي وفِعلَك ليس فعلي، بل لأني أعرف لماذا قلت إننا ظالمون جداً، وأعرف السبب.

– حياك الله، الآن صححتَ كلامك. أعتبر أننا تقاسمنا بالتساوي الاتهامَ بالظلم مع أن مسؤولية الجزء الأعظم منه عليّ. لسنا نحن من أسرج حصان المملوك الشَّموس، ولن يتوقف عندنا. يتصيّدنا من سيُلقينا عن ظهر الحصان متى أرخينا العنان قليلاً. غير أني أستغرب تجاهلك موضوع الأمير الذي أُبرز لك اسمه أحياناً.

– يا بيباريس ! تحول قلاوون الآن إلى لغته الأديغية بصوت أعلى – مصر لا تتسع لمعروفك ورجولتك. ويجبران أعداءك أن يخفضوا رؤوسهم، وأنت موئل من

يتأملون الخير. أربأ بك، ليس أن تتكلم على قاهر، بل أن يجري اسمه على لسانك. لا يساوي قُلامة ظفرك.

– حتى لو لم يكن يساوي قلامة ظفري فهو ينوي أن يتزعم أمراء سورية.

– وأنا عندي نوايا كثيرة. ما فائدة أن تنوي ما لن تقدر عليه؟ !

– هذا ليس مثلك ولا مثلي. — سرت على شفتي بيباريس ابتسامة كسلى — ينظر إلى أبعد مما ننظر نحن. يريد أن يصبح سلطاناً على سورية فيفصلها عنا. يقول إنه حان الوقت للتخلص من نير مصر.

– إن كان قادراً على حمايتها فليجعلْ من نفسه سلطاناً أو ملكاً أو خاناً. وإن كان يرى هذا فهو يحفر لنفسه نهايته. لم أعرف أن هذه النية نهايةُ فطنتِه — جنونِه. لا يَقصّ الغصن الذي نجلس عليه بل ما يجلس عليه هو. لا أعرف ما الذي جرى له، راقبته كثيراً في المعارك فلم ألاحظ عليه ولا على مماليكه ما يُريب. لم يكونوا يتأخرون عنا إن لم يسبقونا.

– وأنا طلبت مراقبته. لا تنظر إلى مراءاته وطلاقة وجهه أمامنا. ما على لسانه غيرُ ما في قلبه. يرسل إلينا نحن خمسين صبياً من المماليك، ويشتري لنفسه ثلاثمئة. إن بقي يتصرف هكذا فسيتجاوز عددَ المماليك في مصر. وفي الشهر الماضي جمع أمراء مماليك سورية في حلب دون استشارتنا. والآن يستعد لاستضافتهم في دمشق.

– وماذا قال للأمراء في حلب، وماذا سيقول لهم في دمشق؟

– ما نقوله نحن بالضبط. سيحمي العرب والمسلمين من الأعداء. هذا ما على لسانه. يستعرض نفسه أمامهم، ويعوّدهم عليها لأنه يعتقد أنه ليس أدنى من أمراء القاهرة الذين يعتبرهم أغراباً. وربما كنت أغفر له هذه التصرفات لولا أنه يهمس في آذان أصدقائه بوجوب أن يحكم البلاد سلطانٌ منها.

الكلمات الأخيرة للسلطان جعلت قلاوون الذي كان جالساً شبه كسلان يصرخ:

– هذا لايجوز يا موفد الله ! مهما طلبت مني فأنا وجيشي جاهزان من هذه اللحظة.

– حياك الله يا قلاوون – ابتسم بيباريس في قلبه "تركيبة الإنسان عجيبة، لا يهتم بالأمر إن لم يكن هو المقصود. وإن لمست ما له انفجر" – لن نستطيع اللحاق بذنب الحصان بعدما أفلتنا رأسه. غير أني أعرف كيف أجعل الحصان يتعثر ويلقي براكبه. كل فاكهة تنضج في موسمها. إذا كنت صبرتُ على قاهر كل هذه الأيام فلا بأس أن أصبر أياماً أخرى. – وبعدما جلس السلطان الذي كان يبدو تعيس الحظ انحلت رغماً عنه عقدة السر الذي حافظ عليه عدة سنين: – لن أغفر له ما جناه عليّ بشأن كوثر.

– بعدما أصبحتَ ربّ أسرة يا بيباريس !... – فجّر السرُّ الذي كان يشك فيه قلاوون منذ زمن بعيد لسانَه.

– لا داعي ! – نهض بيباريس، وحين وصل إلى النافذة المطلة على النيل رجع بسرعة.– أقصد ما سمعتَه... كان بوده أن يضيف "لا تموت الحية من سمها" غير أنه كتمه قائلاً: ما فائدة هذا الكلام الآن؟!

جاء اليوم الذي كان ينتظره بيباريس وكأنه كان يعرف: جاء المغول من جهة آسيا الصغرى، وانتشروا في سورية من اتجاه أبليستين.[1] رتّب بيباريس جيوش المماليك التي يقودها في عدة مواقع. حين رأى سعيد الذي يشارك في الحرب لأول مرة في حياته الجيشَ الذي يقوده قلاوون وقاهر سأل والده بقلب مهتاج:

[1] في آسيا الصغرى، تركيا اليوم.

– وأين من ننتظرهم؟ وماذا سنفعل؟

– لا تتعجل الأمور. المستعجل تنطفئ نجمته. جئت بك إلى هنا لتستنشق ريح الحرب. وليس لأُشركك في مبارزات السيوف الجدية. راقب وأنصِت، واحفظْ ما تلاحظه في قلبك.

– إن كانت حربك هكذا فلن أستطيع أن أبقى وسيفي يتدلّى في حين سيفا قلاوون وقاهر مسلولان يحاربان. لِنمضِ يا برقت إن كنت رجلاً.

– توقف، اهدأ ! — دفع بيباريس ابنه وهما على حصانيهما بطرف مرفقه فرماه عن ظهر الحصان.– لا يهبون إلى الحرب بحثاً عن المديح. اركب قبل أن تفضحني.

– لم يصدف أن خاض بيباريس حرباً أقصر من هذه !

عاد قلاوون وصحبه عند الظهيرة دون أن يتركوا وراءهم محارباً مملوكياً واحداً. وبلّغوا إلى السلطان هروب المغول دون قتال.

– وهل كان جيش المغول ضالاً فيتراجع؟ ! — سأل بيباريس متظاهراً بالمزاح، وسأل قاهر: – بما أنك أنت أمير البلاد التي حميناها دون دماء ودون أحزان، يا أمير الشام المنير يحق لنا أن تضيفنا وتحتفي بنا.

دارت المآدب في مطاعم الشام وفي دار إمارة قاهر الكبيرة. وحين قفزت المائدة التي يجلس إليها بيباريس من الصراخ والضجيج إذا بالسلطان الذي ارتمى من على المائدة طريحُ الأرض، والزبد يخرج من فمه، وشفتاه تختلجان. ولا يفهم كلامَه قلاوونُ الجاثي على ركبتيه عنده .وحين يشير إليه بيده يضع بيباريس فمه على أذنه:

– والآن مرة أخرى غلبني قاهر! وضع محل صحني صحناً فيه شراب الكومس المسموم. لا يغبْ ولداي عن عينيك. لا تدعْهم يقتلعون جذر المماليك. احموا أنفسكم!

أسبل قلاوون جفني السلطان الظاهر بيبارس ركن الدين البندقداري الذي حكم مصر سبعة عشر عاماً في اليوم الأول من شهر تموز من عام 1277. وغُطيّ جثمانه بالعلم المملوكي الأصفر.

وتأمل قلاوون الذي فقد لونه البشري في بلبلة الأمراء الذين لم يكونوا يفهمون ما جرى، وسأل عمّن لم يكن يراه بينهم:

– وأين قاهر؟

– أنا هنا، هنا. — دخل قاهر إلى الساحة التي فيها الجثمان شاعراً بالعار مما جرى على مائدته، قائلاً في نفسه "لن يؤاخذوني على ما رددتُ به على من كان ينوي قتلي"

– أيُّ شرٍّ فعلته بنا يا عديم الإيمان ! قطع قلاوون بضربة سيف رأس قاهر. وكتم أن من تسبّب في الموت هو السلطان نفسه. وقال للأمراء الذين ابتعدوا عن الحلقة: – كان سمُّ قاهر هذا السببَ في موت سلطاننا. الآن، كما نفعل في كل مرة، دون أن ندخل في جدالات وخصومات، أُعلنُ ونحن ما نزال في المأتم اسم من سيكون سلطان مصر: سلطانكم هو الابن الأكبر للسلطان الظاهر بيبارس ركن الدين البندقداري الذي مات قبل أوانه، سعيد ناصر الدين بركة. حيُّوا سلطانكم. — وبعد سكتة قصيرة أضاف: – وأعيّن الأمير برقت أميراً على الشام. وأرشحه لمنصب أمير المئة.

الكتاب الثاني

I

كلٌّ يروي الخبر على هواه. هذا يزيد فيه، والآخر ينقص منه. والثالث يدور به. والرابع يكتمه. ومهما زادوا فيه أو نقصوا يعود إلى حقيقته: لا تستطيع قلبَه ولو دفعته. ولا تستطيع هدمه ولو خطوت فوقه.

ليس قليلاً من حَزِنَ لخبر ما فعله السلطان بيباريس بنفسه، وللأمير قاهر الذي راح ضحيته، ومن فرح به، حين طار من الشام. دار الخبر في مصر كلها، ووصل إلى بلدان المشرق والمغرب. ولكن أكثر من قلقوا للخبر هم أهل البلاد الذين جرت الحادثة بينهم. قال بعضُهم: "المماليك يتذابحون"، وأضاف إليه غيره: "يختلفون على أيهم الأقوى وأيهم الأذكى" وسأل غيره: "يتنازعون مناصبهم... مَن سلاطينهم، وإلى أين يأخذوننا؟" وأجاب آخرون: "ألا ترون حماية المماليك للبلاد والإسلام، وبناءهم المساجد والمدارس والجسور، وحفرهم السواقي والقنوات، ومنعهم الشرب، وتصديهم للمفاسد الأخلاقية لدى الشباب، وللنساء الفاجرات، ومحاولتهم تحسين شروط عيشنا" وليسوا قليلين من كانوا يتهامسون "اتخاذ الغريب سلطاناً والذئبَ راعيَ غنمٍ سِيّان... لماذا نتأمل أن يقدم لنا الأديغة الأغراب ما لم نستطع أن نقدمه لأنفسنا. إن كنا اشتريناهم فليبقوا في عبوديتهم! ولينظفوا روثَ خيولنا، ليمسكوا بأزمَّتها وركابها حين نمتطيها. وليقفوا في حضرتنا خافضي الرؤوس !"

حين نُعي الرجل إلى منيرة نصّت برأسها عالياً ولم تقفز قائلة "أي مصيبة حلت بنا !" ولم تصرخ، ولم تلطم فخذيها، ولكنها أسرعت بالقول عفوياً في شأن ابنها بين الخوف والرجاء المحدودَين:

– يا للمصيبة ! وهل سعيد حيّ؟ ! – حين أخبروا منيرة أن ابنها عائد إلى القاهرة سلطاناً سألت عن الزوج قائلة في نفسها "إن كان هكذا فلا مشكلة" – أين جثمان السلطان؟

– نحن في صدد جلب جثمان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري سلطان مصر – أجاب راسم قائد المبلّغين، وعاد برأس مطرق إلى الجماعة التي خرج معها.

– شكراً لكم. كل إنسان مهما حدث له يجب أن يعود إلى بيته... حين لم يتوقف عن نشاطه الحربي توقعت له مثل هذا المصير. – قالت منيرة زوجة السلطان، وأكملت وهي تمسح عينيها اللتين لم تجد الدموع طريقاً إليهما:

– ماذا نعمل، ما الذي بيدنا؟ كان الله قدّر هذا. الميت انتهى أمره والمهم الآن هو الحي. سنقوم بواجب كلٌّ منهما.

لولا أن الحياة تتبع الموت لما بقي للدنيا منذ زمن طويل مشرقٌ ومغرب، ولضاعت حرارة الجنوب ببرد الشمال، ولتجمدت الأرض في الظلام الأبدي. كان جثمان بيباريس ما يزال دافئاً بعدما فاضت روحه. وحين قُطع رأس قاهر لم يكن دمه تجمد حين نُصِّب سعيد سلطاناً، وبرقت أميراً على الشام. وكان بيباريس ما زال يُندَب حين صار مديح السلطان سعيد المقدام الذي لم يتجاوز التاسعة عشرة في معارك ضد المغول في أنحاء فلسطين، ينتقل عن طريق المبلّغين في شوارع القاهرة، وفي أماكن التجمعات البشرية الأخرى. وبين السامعين كان من لا يودّه، ومن يوده، ومن يُصمُّ أذنيه عنه، ومن يبتسم قائلاً: هذه هي عيشتنا. ومن كانوا يتفلون إلى خلفهم لسماع الخبر لم يكونوا قليلين. والخبران

المتنافران اللذان لا يتفق أحدهما مع الآخر، كما تقول منيرة التي وُضعا أمامها، ويحدثان كثيراً في الحياة، كان مأتم أحدهما، وعرس الآخر.

في اليوم التالي لتشييع بيباريس اجتمع السلطان الجديد وأمه في الغرفة التي فيها العرش، وشددا على الحرس ألا يسمحوا لأحد بالدخول. ومع أنك يمكن أن تعرف منيرة من ملابس الحداد السوداء فقد قالت لابنها ووجهها خالٍ من أي علامة حزن:

– يا ولدي، اجلس على عرش سلطان مصر، ودعني أنظر إليك!

– نعم؟ – سأل مستغرباً طلب أمه — صدف أن أجلستِني عليه كثيراً في غياب بابا.

– كنت وقتها صبياً، والآن سلطان حقيقي، سيكون العالم العربي في قبضتك، وقائماً عليه.

– أتتذكرين كيف نهرك بابا حين رجع ودخل الغرفة فرآك أجلستِني عليه؟

– وقبل أن يصل إلى حيث مضى توقّف السلطان سعيد والتفت بوجه مذعور.

– الآن لم يبق من ينهرنا، أو يجلب الحزن إلينا. اجلس عليه دون أن تفكر في هذا أو في مثله. فكّر في كيفية الاستمتاع به. إن سمعتَ كلمتي حُلْتُ دونك ودون الخطأ.

حين جلس سعيد على عرش السلطان انفعل كما لم يكن يحدث أيام صباه. وارتعش جسمه ويداه ورجلاه دون إرادته. وهاجمه عَرَقُ الضيق. ولكنه نظر في وجه أمه كأنه يقول لها: أليس هذا العرشُ مفصَّلاً على قدري؟ وشجعته الأخرى وقد عرفت ما يريد ابنها:

– نعم يا ولدي، نعم. كأنهم فصّلوه على مقاسك. ليبارك لك الله فيه. أنت بالنسبة إلى من سبقك من السلاطين، بمن فيهم والدك، ستكون محظوظاً في أي

مهمة. وليمنحنا أنا وأخوك الصغير سلامش الحظ السعيد معك، وليُسعدِنا معك !

– شكراً أمي. والدة سلطان مصر حكيمة كبيرة – حيا سعيد أمه ويده على جانب صدره الأيسر، ومازحها: – كان الأفضل ألا تأتي على ذِكر سلامش الثرثار. يقول أي شيء يخطر له بمناسبة ودون مناسبة.

– يقول لك لأنه أخوك الأصغر. – أضاءت شفتا منيرة الغليظتان بالفرح – بعد الآن لن يقول لك شيئاً.

– لن يقول وأنا سلطان كل العرب.

– ماذا تقول؟ – ارتعبت الأم مما سمعت، ولو أن ماسمعته أرضاها.

– قلت إني سلطان كل العرب – كرر سعيد الذي كان يتآلف شيئاً فشيئاً مع العرش بصوت أشد حزماً، ولو أنه حدس من طريقة سؤالها ما تريد. ثم سأل:

– هل فهمت منه شيئاً غير مقبول؟

– لا، لا. يسرني أن تقلق لحال من تنتمي إليهم من جهة أمك ولو أن والدك أديغي. تتكلم من داخل قلبي... لا تحاول بصفتك سلطاناً ما ليس بمقدورك فِعلُه الآن. ولا تنس أنك صرت سلطاناً على جثتي رجلين. – "بدا عليه من أول تصريح سلطاني أن جهودي منذ طفولته لاستمالته إلينا وزرْعِ قلب عربي في صدره لم تذهب سدىً. ولكنه صريح متسرع أكثر مما ينبغي. إن اكتشف فيك هذا الميلَ المماليكُ الأوغاد جماعةُ قلاوون فلن يدَعوك على العرش ليس يوماً بل دقيقةً. لا تدعْنا، كلينا، ننهج الطريق الخاطئ لتوران شاه وأمه شجرات" – الله حريص على عباده فكن أنت أيضاً حريصاً يا ولدي. الأفضل ألا يكون كل ما في قلبك على طرف لسانك.

– اطمئني من هذه الناحية يا أمي – ابتسم السلطان سعيد الذي ليس فيه شيء من ملامح والده إلا عنقه الطويل راضياً عن نفسه – سيكتشف المماليك الذين لا يعيرونني أهمية اليوم أني غيرُ ما توقّعوا مني. ألا يكفي كم سخروا منا، وعيّرونا متهمين إيانا بقلة العقل، وفقدان الرجولة – الأخلاق، وفِناء البيت مرحاضنا. أيجوز أن أترك العرش الذي أجلستِني عليه يا أمي؟

– اجلس، اجلسْ وتمرّنْ !– لم تملك منيرة رغم لذة سؤال ابنها إلا أن تسأل عما خطر لها فجأة: – أمللتَ منه؟

– أأملّ ولما أجلس عليه؟ ! – لا أدري على كل حال... أنا أجلس عليه، وأنت هناك...

– أنا لن أجلس عليه أبداً ! ولكن تصورْ يا ولدي أني جالسة معك.

سُمع من وراء الباب صوت سلامش الصغير الذي يثير ضجيجاً مع الحرس.

– وصل الآن... – نظر سعيد نحو الباب مثبّتاً جسمه على العرش – لن يدعنا نتحادث. شدّدتُ على الحجّاب ألا يسمحوا لأحد بالدخول. ولكن سأقول لهم ألا يُدخلوا هذا أيضاً.– وحين هم بالتصفيق للحرس اعترضت أمه:

– لا حاجة أن يعرف أحد مشاحناتكما أنت وأخوك. ما يلاحظه عليكم الغرباء سيعيّركم به أقرب الناس إليكما. كأنك لا تعرف عناد سلامش وحميّته. يذكّرني أحياناً بأديغية والدك وقسوته وسلاطة لسانه. لو كان فيه شيء مني: أنفي، عيناي، ضحكتي، طباعي، لاكتفيت. غير أني ولدته ورغبتي في ابنة فأين أذهب به؟ لو أغلقتَ من دونه سبعة أبواب بسبعة حراس، لتجاوزهم. سترى إن لم يدخل الآن.

دخل سلامش الغرفة كما لو رأيت بيباريس في طفولته وكهولته في تركيب جسمه، وطباعه، ويديه الطويلتين. وقال لأخيه ويداه على خاصرتيه:

– جلست على عرش السلطان سريعاً.

– جلست لأنهم نصّبوني سلطاناً.

– ابتعد قليلاً ودعني أجلس معك.

– لا يتسع لشخصين.

– بلى،يتسع.

– لا تتشاجرا، أسرعت الأم.

– أقول له: دعني أجلس معك، ولا أشاجره.

– لِمن قيل: لا يسمحون لأكثر من شخص بالجلوس على عرش السلطان أيها المزعج؟ – غضب السلطان سعيد الذي تصوّر أنهم يغصبونه العرش. ثم قال وفورةُ غضبه تهدأ:– يُجلسونك حين يرشّحك الأمراء كما فعلوا بي.

– ومتى سيحدث هذا؟ – لم يكن سلامش ذو الأعوام العشرة ليسكت.

– سأقول لك — جعل النزَقُ سعيد يقول: – بعد أن أموت كما مات والدي.

– يا مصيبتي ! ماذا تقول؟ – لطمت منيرة صفحتي فخذيها — لا يُقال مثل هذا، بل لا يجوز التفكير فيه.

– ألم أقل لك إنه لن يدعنا نتكلم ! — قال سعيد بصوت ناعم يفيض بالانقباض.

– إن كنت تريد أن تتكلم فلا تكلِّم أمي وأنت على العرش، لم يكن السلطان بيبرس يفعل هذا.

– يا سلامش! — مع أن منيرة ارتفع صوتها رغماً عنها فقد نصحت نفسها واختتمت حريصة على نفسها — لا سرَّ نخفيه عنك يا ولدي. نحن انتهينا من حديثنا. اترك الباب وتعال إلى هنا.

– حسنٌ إن انتهيتما – أنهى سلامش المستعيرُ سحنةَ رجل – أنا ينتظرني هناك رفاقي الصبيان الذين سأحارب بهم المغول الخزر العيون. إن كنت تحب أن ترانا يا سلطان مصر فاخرج من الغرفة – خرج سلامش معتداً بنفسه خلافاً لطريقة دخوله الصاخبة، وقبل أن يمسك عمود الباب التفت وفصّل لأخيه سبب دعوته له للخروج: – من أجل أن تراقبنا، وليس من أجل أن تترأس محاربيّ المماليك.

نزل سعيد من عرش السلطان من نفسه دون أن يعرف السبب، أو يأمره أحد، وقال وهو يجلس مقابل مقعد أمه:

– إذا كان سلامش سيُلازِمُني فلن يدعني أعمل شيئاً يا أمي.

– أبهذه البساطة يا سلطان مصر العربية أخرجك من طورك أخوك الثرثار الصغير؟ – أصرّ السلطان سعيد على ما كان يُقلقه وإن مازحته أمه:

– ولكن ألم تسمعي كيف كان يحاججني؟ كيف قال لي: راقِبنا فحسب، ولم يقل إنه سيؤمّرني عليهم؟ – سامِحْه، يقول هذا لأنه يحبك – ابتسمت منيرة لابنها، ثم أنهت بكلام أشد برودة: – سألحّ عليه ألا يتسلط عليك.

– هذا المجنون الصغير لا يفهم ماذا يمكنني أن أعمل به – قبل أن يطيب وجه السلطان سعيد الذي احترق من الشرر المتطاير من عينيه المائلتين للصفرة آلم السؤالُ التالي قلب الأم ثانية: – لماذا كان سلامش أحبَّ إلى بابا مني ومنك؟ ألأن عينيه زرقاوان كعيني أبيه؟

"ارحمنا واغفر لنا يا رب؛ من أين يأتي بهذا السؤال؟ – جحظت عينا منيرة المستديرتان الصغيرتان الصفراوان من محجريهما الغائرين، وهي التي ظلت عمرَها تحسد أصحاب العيون الواسعة، – أيعيرني ابني بما كنت أُسمِعه إياه أحياناً على سبيل التنفيس عن همومي أم يضيف إليه تعكُّر مزاجه؟ كيف أشرح لك هذا؟

ووالدك أيضاً رحل دون أن يفهم هذا الأمر. تزوجت من والدك وأنا أعرف أنه بعين واحدة مع أني لم أكن في شبابي قبيحة، ولا جميلة. ولكني لستُ من كانت في قلبه بل كانت كوثر الفتاة التي من قومه، والتي سبَوها معه. وحين رفضتْه زوجاً لم يعتبر رفضها له إهانة. وظلت في قلبه وهي زوجة رجل آخر. ومع أنه كان يعرف أنها غرقت مع زوجها فكم مرة أيقظته في الليل وهو يردد اسمها. ولكني في السنوات الأخيرة، وأنا أمنّي نفسي بأن يعود كلما هرم إلى وعيه، أصبحتُ أعارضه حين يتحدث عن حبه الأول أمامي دون مواربة. لا أعرف ما الذي جرى له في شيخوخته حتى يدفع هو وقاهر الذي لا ذنبَ له حياتيهما في سبيل هذه المرأة المشؤومة. لن أقول هذا لأحد، ولن أفضح نفسي، إن لم يشِع عن طريق قلاوون ذي الرقبة المكتنزة لأني أظنه يعرف بالموضوع..." قالت منيرة لابنها حين خرجت من أفكارها الثقيلة:

– لا تدعْنا نتكلم اليوم على موضوع والدكما؛ أكان يحبنا أم لا. ستفهم الأمر متى كوّنت أسرة فجابهتَ الموضوع. والأفضل أن نتكلم على شؤون سلطنتك لأن من مات مات، والحي حي. أتعرف بمَ تبدأ يا موفد الله؟

– أسمعك يا أمي.

– يجب أن تعوّد أي شخص يحدثك على "موفد الله" و "بديل الشمس". واجعل أكبرهم وأصغرهم ينحني لك حتى ترى ظهره.

– بمن فيهم قلاوون قائد الجيش والأمراء القادة؟ – سأل السلطان الذي سمع ما أراد حرفياً.

– في يوم قادم سترى ظهر قلاوون أيضاً. ولكن لا تستعجل عليه – تأمَّلِ الأمراء، وعامِلْ كلّاً منهم حسب ما يتصرف معك. استمِلْهم، وأرهِبْهم. وارمِ بينهم العداوة، ثم أصلحْ بينهم ! لماذا سألت عن قلاوون؟ أفي قلبك شيء عليه؟

– لاحظت عليه مراراً قبل سلطنتي أنه لا يطيقني. ولكنه أول من أعلن اسمي سلطاناً.

– لم يبدأ توريثُ السلطان منصبَه لابنه مع قلاوون. ولو لم يعلنك هو لكان غيره أعلنك.

– وهذا صحيح. والأمراء أيدوني حين سمعوا صوتي. ولكن سأقول لك عتبي على قلاوون: لم يستشرني حين عيّن الأمير الخامل برقت أميراً على دمشق.

– أكنتَ في موقف يمكنه أن يستشيرك فيه؟ – ابتسمت الأم ولو أنها كانت مرتاحة لتَحلّي ابنها بعنادها هي.

– ما إن صرت سلطاناً على مصر حتى كلّف برقت بمهمة. ولكن أكثر ما حزّ في نفسي هو أنه أرفق تكليفه بإمارة الشام بلقب أمير المئة.

– برقت ليس مشكلة لأنه لن يملك جذوراً في دمشق. وكونه بعيداً عنا أفضل لنا. ما يجب أن تفعله هو أهم شيء اليوم. حُرّاسُك، من تثق بهم ومن لا تثق، يجب تغييرهم. وتبدأ بحُجّابك.

– نعم يا أمي. فكرت في الموضوع حين دخل سلامش الغرفة رغماً عن الحُجّاب. وما رأيك في راسم أمير الجيش؟

– راسم أهو أمير جيش أم جاسوس؟ – ابتسمت منيرة — خدم بهذه الصفة كثيراً من السلاطين بدءاً بالسلطان الصالح، وانتهاء بوالدك، كان عيناً لهم وأذناً. أمثال هؤلاء، باعتبارهم عبيداً لشخص واحد لا يجوز أن يعرفهم أحد، سيخلصون لك العمر كله. لا تقل له شيئاً حتى يهمس هو في أذنك. ترقّبْه !

– فهمت. سأحتاج إلى راسم. ثم ماذا عليّ أن أفعل مع عماد الإمام؟

– اليوم سألتَ عن أمور كثيرة، يا موفد الله. وأنا أحب أن أسمع شيئاً من أفكارك. ولكن سأجيبك لأنك سألتني: لتحملْ في قلبك الخير لرجال الدين

لأنك في بلد يُعزّ الإسلام. – وفي هذه اللحظة ارتفع الأذان من جوامع القاهرة – حان وقت صلاة الظهر. سنمثل أمام الله مرة أخرى. وسنبتهل إليه أن يحقق لنا شيئاً مما نريد، ويمنّ به علينا.

II

خاض قلاوون مشقات كثيرة. ونجا من مواقف كثيرة كان الموت قريباً إليه فيها. وضربات السيوف على جسمه كاد ينساها لولا أنها تؤلمه أحياناً. ولكن لم يحدث بعد ما رحل بيباريس أن فقد الأمل كما الآن: كما أن السيف متى فقد إحدى شفرتيه القاطعتين صار تطويعه صعباً، فهو لا يرى طريقه إن نظر أمامه. ولا يفرح بما قطع من الطريق إن نظر إلى الخلف. ليس لأنه لا يعتدّ بنفسه، ولا لأنه يبكي وحدته. قلاوون أرفع من أن تصفه بهذه النعوت، ولن يصدّقك من يسمعك كائناً من كان. ومع أنه يتظاهر أمام الناس بالسعادة ففي وحدته يشعر بأن تلة الرمل التي يقف عليها ستخسف به، فلا يجد مخرجاً من الموقف الذي وقع فيه.

"من سيفهمني إن رويت له همومي وآلامي؟ يؤنب قلاوون نفسه ويبكّتها– رحل الصالح وأيبك وخطج وأقطاي وجلات وبيباريس وقاهر، وكوثر التي لم نسامحها، وغيرهم. ولم يبق غيري أنا وراسم وعماد وبرقت. ورحل أمراء كثيرون عن الدنيا وهم يتأملون أن تتحسن أمورهم. ومات آلاف المقاتلين المماليك الباحثون عن حريتهم في ساحات المعارك. من بدّلت من السلاطين في حياتي ليس سلطاناً واحداً ولا اثنين ولا ثلاثة، ولكني لا أتذكر سلطاناً واحداً مات على فراشه. أفهم أن ميتة العدو ليست مثل ميتة الحبيب. وأعرف أنه لا يُحقَد على الميت. غير أن ميتة من اجترح كل هذه البطولات من أجل العرب كسر ساقيّ. وبقيت وحدي بين من يبتسمون لنا من خارج قلوبهم. ما الأمر؛ أأعيش دون أسرة وأولاد؟ وبيباريس كان عنده أسرة وأولاد. ولكن زوجته وابنه تصرفا معه حين مات بما لا يستحق. بدّلا حراس بيباريس، غير أني لا أعرف نيتهما الحقيقية. وأبعدا المقربين منه. وكلفا "رجالهما" بالحجابة، واتخذاهم ثقاتٍ. وغيّرا

خدمهم من الرجال والنساء. غير أن أعجب شيء، ويدعوك إلى الريبة والانقباض أنه ليس بين هذه الحاشية الجديدة أي شخص من الأديغة أو القبجاق أو الأكراد أو التركمان أو الترك. — كلهم من أهل البلاد. ما كان يتسرب من المرحوم بيباريس أحياناً بخصوص امرأته يتبين صدقه اليوم. وعلى ما يبدو سيصلنا التغيير قريباً. ماذا يمكنه أن يفعل بنا؟ أيمكن أن يُحلّ الفلاحين والبدو محل المماليك؟ لم يستطع أحدٌ إلى الآن أن يفعل هذا. ولا أظنه سيستطيع..."

الريح التي عصفت فجأة كسرت مزالج النوافذ وفتحتها على مصاريعها. واقتحم صوت الهواء الحامل ذرات الرمل البيوت. وأظلم النهار، وبدأت السحب السوداء — الصفراء تلامس الأرض.

ينظر قلاوون نحو المقطم الذي تقوم عليه قلعة المماليك وروحه وقلبه في الاتجاه الذي تهب منه الريح. "ما أخبار المماليك يا تُرى؟ – ألأول مرة يَخبرون رياح الخماسين؟ هؤلاء مرت بهم عواصف كثيرة لا يعرفون ما وراءها. والآن لا أظن أن ما ينتظرهم قليل. غير أني أظن أن أعقد مشكلة سترمي بنا إلى حيث لا نجد مخرجاً هي مشكلة من بوّأناه العرش. لا أحد يعترض، كلهم صامتون، وأنا من ينتظرونه. دعْك من برقت ! هو في دمشق، بعيد عنا. وليس سهلاً ما حمّلناه. وراسم؟ وعماد؟ لماذا هما صامتان؟ ألأنهما من أهل البلاد؟ كل المسؤولية على بيباريس! جعلَنا نعثر على كوثر، وكان عثورنا عليها نحساً علينا، ودون أن أعرف نيته نحوها، ثم ما فعله بنفسه وبنا وهو سلطانٌ، ورب أسرة، ومتقدم في السن، عيبٌ. وماذا كان ذنبُ قاهر الذي قضى تحت حد سيفي؟ ألأنه كان عرّاب كوثر وتوران شاه؟ وقاهر كان أهان الصالح ولكن لم يفعل شيئاً به، ولا أمر غيره أن يفعل... ليس لأني نادم على ما فعلتُ بقاهر. تُقترف كل يوم في

العالم مظالمُ كثيرة، ويُقترف ضدنا أيضاً. أعرف ما يستحق سعيد ومنيرة اللذان يعطفان على السكان المحليين. وليس عليهم وحدهم بل على العرب والبدو الذين لا يعرفون ركوب الخيل ولا استعمال السلاح والذين يسموننا بالغرباء. ليت المماليك أُبعدوا عنهم وقيل لمن لا يريدونهم: حارِبوا أعداءكم واحموا بلادكم ودينكم ! اغفر لي وارحمني يا الله على أن سمّيت الدين الذي اعتنقته بـ "دينكم". حدث لي في حضرتك ما يقال فيه: حمّيتك تحرقك أحياناً " دخل راسم الغرفة بوجه يكسوه الغبار وعتابه يسبقه:

– لا أحد على بابك في حين أن الآخرين لم يسمحوا لي بالاقتراب من نواحيهم.

– ومن هم "الآخرون"؟

– من نصّبته سلطاناً في حضرة جثمان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري. قال لي الحراس: إن لم تكن من أقربائهم فلن نسمح لك بالدخول، وصرفوني.

– لم يحر لك ما لا تستحق. لماذا ذهبت إليه دون أن يستدعيك؟

– أكان عليّ الانتظار حتى أخطر له؟ – ارتفع صوت راسم رغماً عنه خلافاً لعادته. ثم اختتم بنبرة أكثر حرصاً: – ألا ترى كيف يتصرف؟ وماذا يفعل؟ كنت أريد أن أكلمه بالعربية كما يفهمها العربي.

– ماذا قلت؟

– لا تستغرب يا قلاوون، قلتُ ما سمعتَه. كنت أنوي أن أُطلِعه على عروبته إن كان يعد نفسه عربياً حقيقياً ونحن غيرَ عربٍ.

– أكنت تريده أن يقطع رأسك وأنت تعرف أن كلامك لن يعجبه؟

– ستصيبنا نحن والبلاد الكارثة ونحن مكتوفو الأيدي أمامه.

– أتظن حالنا وصل إلى هذا الحد؟ مع أن قلاوون سأل وابتسم في سره فقد قال لنفسه "أمزح مع راسم ولكنه يتكلم من قلبي. هو على علمٍ بأمور كثيرة لا أعرفها بسبب مهنته السرية. ما لا يستطيع البوح به قد يتعلق بشخصي"

– ليس مجرد ظن. استطعت الحصول على بعض المعلومات المتعلقة بك من حديثه هو وأمه.

– قل !

– ينوون تسريحك من منصب القائد العام للجيش.

– وأنا أريد أموراً كثيرة غير أنها لا تتحقق لي – تظاهر قلاوون بالسخرية من نفسه وابتسم، وقال لنفسه "كان منصب السلطان من حقي بعد بيبرس. كنت في موقف مناسب جداً ولكن تجاوزت نفسي مقابل سلطان قتيل لأنه كان ترجاني فنصّبت ابنه الفارغ الرأس سلطاناً. وبهذا اعتبرت نفسي وفيتُ بعهدي. ولن أقبل من أحد مهما قال لي أو فعل. يكفي ما عشته من أجل الآخرين. والآن سأتابع موضوعَ شخصي"

– يريدون أن يعطوك منصباً أعلى.

– ليس في مصر منصب أعلى من منصب السلطان ومنصب القائد العام.

– ينوون تعيينك معاوناً للسلطان بدلاً من الذي مات في الشهر الماضي.

– ليس منصب معاون السلطان منصباً صغيراً غير أن منصب السلطان أفضل.

– وأنا قلت الكلام نفسه. يا قلاوون. لا تسمع أي شخص مهما قال. حتى لو كنت تريد فلن يقبل المماليك منك.

– إذن سنتصرف حسب رأي المماليك. – تريث قلاوون بعض الوقت ثم غير نبرة المزاح: – لا تؤاخذني ولكن سأسألك عما يقلقني: – أتقول لي هذا الكلام لأنهم لم يسمحوا لك بدخول غرفة السلطان أم ما نيّتُك الحقيقية؟

– لا أؤاخذك على عدم ثقتك بي يا قلاوون – لم يسمح راسم للكلمة القاسية أن توهنه – ولكني أؤاخذ نفسي بنفسي على ما أثير صراحةً حول وضع أهل البلاد في نصف العام هذا فأظنني أنا صاحب العلاقة لأنني عربي منهم. من البؤس ألا يفهمك من تحسن إليه وتضحي بروحك من أجله. لست وحدك فأنا أيضاً ألوم نفسي وأظنني المقصود. وأعد نفسي أهانني أبناء قومي. هذا هو سبب زيارتي للسلطان حتى لو كان رأسي سيُقطع. الحق، ليس إلى السلطان بل إلى أمه. كانت منيرة من أقصدها، ولكني أطلعتك على ما جرى لي. لا أدري إذا لم يُبلَّغوا بوقوفي على بابهم.

– إطلاعي على ما في قلبك، وموقفك مني أمر جيد، وسرّني حقاً. – قال قلاوون ثم تنهد وأكمل: – كان الأفضل ألا أسمع أنك كنت على بابهم ولم يُطلِعوهم. هؤلاء يعرفون حتى ذرة الرمل التي تتحرك الآن في بيتهم. ولكن حصل خيرٌ بعدم سماحهم لك بالدخول، وعدم اتخاذك منيرة التي لها وجهُ الإجّاصة محدّثةً. ما كنت لتحصل منها على خير وهي تنظر في عينيك وتبتسم لك. إنها واحدة من الذين دمروا حياة بيبرس المرحوم. يغيرون حرسهم وخدمهم ولْيرشِّحوا إن أرادوا بديلاً لمن رشحوه لمنصب معاون السلطان، ولكن لا تنس أن جيوش المماليك تساندنا نحن. هناك في نواحينا يقول الأديغة "من لا يهدأ في الداخل يجد نفسه في الخارج" الأمر يتجه بالأم وابنها إلى هذه النهاية.

– ولكن – استعجل راسم – يرسلون فرساناً سريين إلى الأمراء، ويدفعون لهم الرشاوى. ويُطمعونهم في مناصب جديدة.

– يُغرون أمير العشرة بالعشرين – ضحك قلاوون بوجه مُراءٍ، وجارى راسم بصوته – والعشرين بالأربعين، والأربعين بالمئة. غير أن كل موفد سرّيٍّ يعود إلى القاهرة يفقد حياته.

– ثم تقول لي إنك لا تعرف شيئاً !

– لا، لم أقل لك شيئاً من هذا القبيل. إذا جمعنا معلوماتك إلى معلوماتي فلن يستطيع أحد أن يلقي بيننا ذرة رمل. حياك الله يا راسم. أقول لك باسمي وباسم بيبرس إني راضٍ عنك. ولكن كما تقولون أيها العرب الذين صرتُ منهم: لا يستطيع راقصان أن يرقصا على الحبل نفسه.

توقفت الريح بعدما هبّت شهراً كاملاً. فنظّف الناس البيوت. وأصلحوا السطوح والأسيجة التي خربتها. وكنسوا الرمال التي تكدست أمام بيوتهم. وشذبوا أغصان الأشجار التي كسّرتها. ورفعوا الجدران المتداعية. وتعاقبت أيام ولياٍل. وهطل قليل من المطر الحار. والأعشاب التي شرعت تبسم عن شيء من الخضرة أحرقت الشمس أطرافها.

لم يهدأ قلاوون طيلة أسبوع كامل. وحين أُبلِغ بضرورة مقابلة سلطان مصر لم يستغرب الدعوة كثيراً لأنه كان ينتظرها منذ زمان. وقال لأول فارس رآه، ولا يعرف اسمه:

– سآتي كما طلبوا مع صلاة الظهر.

– لا، ستأتي معنا، كما كلفنا موفد الله.

– قل لبديل الشمس إنني أعرف طريق قصر السلطان، وأنْ لا أحد يمسك معي بلجام حصاني.

– ستأتي مناسبةٌ نبلغ فيها موفد الله بهذا الكلام. – أجاب بفظاظة الرجل الأسود الضخم المدجج بالسلاح من جانبيه — وأنت لا تتأخرْ في الاستعداد. ننتظرك.

– أنتم تتناسون أني القائد العام للجيش المملوكي.

– إن كنت نسيت أن سلطان مصر الملك السعيد أعلى منك مرتبة فأنا أذكّرك. لا حاجة أن نتكلم كثيراً. ننتظرك على مدخل بابك.

– أتريدون أن تحملوني على ظهر الحصان؟ – ابتسم قلاوون.

– لا، بل طلبك الملك السعيد سلطان مصر، ولذا ستصحبنا إليه.

– هل أنتم كثيرون؟

– اثنا عشر فارساً.

– هذا عدد قليل عليّ. – جلبت صفقة قلاوون إلى الغرفة ثلاثة فرسان ليسوا أصغر من الفارس الأسمر، وأمرَهم بحزم – قيّدوا هذا القبيح حالاً – اقترب قلاوون من الذي صرعوه وهو يردد"أنا موفد سلطان مصر" وقال له، وهو خارجٌ من الغرفة – اتبعوني وهو محمول على حارك حصانه.

ترجل قلاوون الذي يرافقه خمسون فارساً على باب السلطان. وقال لمن أمر بتحريره:

– امش أمامي، وقلْ لموفد الله بصوت أسمعه ما فعلته بك.

– وإن فعلوا بك هناك مافعلتَه بي؟ – غمغم الفارس الذي لم تردعه الإهانة التي ألحقوها به – ولكن حين صاروا في حضرة السلطان لم يدعه الأخيرُ يكمل شكواه حادساً ما حصل بينهما:

– أرسلتك إلى الشخص الثاني في مصر بعد السلطان لتبلغه أني أريد أن أراه. ولم أكلفك أن تأتي به مخفوراً بالفرسان. اغرب عن وجوهنا ! غباؤك على قدر ضخامتك. توقّفْ لحظة ! لا تؤاخذني يا قلاوون يا نجمة الجيش المملوكي المضيئة، سأتصرف مع من تصرف معك بهذه الطريقة المهينة كما تُقرّر.

– لا حاجة! ليعشْ إلى أن يصبح عاقلاً. أعدّ ما قلتَه له ضربةَ سيف. سيعيش هكذا إلى أن يحطم أحدهم أنفه. ما اسمك؟

– قَرَه خان، يا نجمة المماليك المضيئة.

– هذا هو يا قلاوون، ياصديق الوالد المخلص. – قال سعيد السلطان بصوت يقطر رياءً – ترى من بقي لنا من جنودنا. لا أعرف أين صار الناس الصالحون الثقات في الدنيا. من نعتمد عليهم يتبين أنهم أغبياء مثلَ من طردناه الآن. قره خان من مسلمي النوبة. رغبت أن يكون من حُماتي لجسامته. فضحَنا أنا وأنت. لن أسامحه حتى لو سامحتَه أنت.

– سامِحْه ! من يرجعْ عن خطئه يغفرِ الله له. ما العمل؛ نحن في دنيا فانية.

– نعم، نعم، كما تقول أمنا. أنت الوحيد صاحب الرجولة العاقلة الذي بقي لنا. والآخرون أمراؤنا، يعشقون المديح. حسودون، ومتهورون. يريدون أن يصرعوا من يقف في طريقهم بصدورهم، وكذابون، لا همّ لهم إلا المال.

– حياك الله يا بديل الشمس. إن كنت ترفع من شأني هكذا فلا طلبَ أرفضه لك كُرمى لوالدك. ولكن، كما أن الناس كلهم، من كبيرهم إلى صغيرهم مختلفون، فكذلك أمراؤنا.

– وأضف إليهم مماليكنا الشباب. قاطع السلطان كلام قائد الجيش مرتاحاً لِما يسمع.

– لا يا موفد الله ! لا تدعني أخطئ أنا أيضاً في شأن مقاتلي المماليك، ولا أنت. يظهر أمراء وقادة جيش وسلاطين ويختفون. أما المماليك فهم حماة البلاد الحقيقيون. هم من يرفعون من شأنك ومن يخفضون. أوافقك في من تصفهم بالمتهورين والكذابين وعبدة المال. يعيشون على الأرض لا يعرفون متى يتفجرون كالزبد على سطح النيل.

– وأنا أفكر أحياناً بهذه الطريقة. كلٌّ ينال ما يستحق من جزاء، غير أن ما طلبتُك لأجله أمرٌ آخر. أريد أن أستشيرك، لن تدعني كرمى لوالدي أخطئ في حق البلاد التي أنت مخلص لها، سأتصرف كما تُشير.

– أسمعك يا موفد الله – "لا تسقِني من ماء وسخك كما توصيك أمك اللئيمة".

– سيمر قريباً عامٌ على توصيتك بتنصيبي سلطاناً؛ أأجلس مكتوف اليدين؟ يُخيّل إليّ أن مصر بفلاحيها ومماليكها وأعدائها لا تعرف أني سلطان. ماذا تشير عليّ أن أفعل؟

– هناك طرق كثيرة يعرفك من خلالها الناس. أحسِن إلى ناسِك إن كان عندك أو عند البلاد مال: افتتح لهم المشافي والمدارس وملاجئ الأيتام والمطاعم المجانية ومآوي لقضاء الليل. وأنشئ السواقي في كل مكان...

– من أين آتي بكل ما يفي بما ذكرت والوالدُ لم يترك لي مُلْكاً يُذكر؟ – قاطع السلطانُ سعيدٌ وقد بان الاستياء عليه كلامَ قلاوون. – وكما تقول أمي لا أعرف أين ذهب والدي بمُلكه وقد تبوّأ العرش سبعة عشر عاماً إن لم يأخذه معه إلى الآخرة. لم يورِّث إلا قميصاً واحداً وسروالاً وسيفاً وخوذة.

– لا تُهِن والدك السلطان الظاهر بيبرس ركن الدين البندقداري! – احتدّ صوت قلاوون، واختتم بالحدة نفسها:– السلطان العظيم بيبرس حمى البلاد ولم يجمع مُلكاً.

جثم على الغرفة صمتٌ ثقيل. ومن الغرفة الأخرى سُمع سعال منيرة تريد أن تُشعرهم بوجودها.

– لا أريد أن أسيء إلى والدي – كسر السلطان صمْت البيت وهو يبرّئ نفسه. – أفلتَتْه مني همومي. ولكن مع ذلك يجب أن نفعل شيئاً. لا يجوز أن

أقعد مغلول اليدين كما تقول أمي – مرة أخرى لم يستطع إلا أن يأتي على ذكر الأم. الصمت سيثير الشغب. وأعداؤنا الصليبيون والمغول صمتوا.

– حسنٌ أن يسود السلام البلاد. هذا إنجاز السلطان بيبرس.

– يقال إنه تحدث أمور في كيليكيا الأرمنية؛ هل هذا صحيح؟ – تجاهل السلطان كلام قلاوون، ووجه الحديث إلى حيث يريد.

– تحدث أمور كثيرة في أي مكان يا موفد الله. ليس لمرة واحدة هاجمْنا كيليكيا وأحرقناها. لم تعد لديها القدرة لتؤذينا.

– حتى لو لم تبق عندها القدرة سنهاجمها من جديد! – حسم السلطان الأمر.

وفي هذه اللحظة قالت منيرة وهي خارجة من الغرفة الأخرى:

– نعم يا قلاوون، الملك الصالح السلطان سعيد لا يتراجع عما قرر.

– نعم، ولكنها حرب !

– أعجيب أن تكون حرباً؟ ! المحاربون هم المماليك والأمراء المتخمون. سيكون معك الملك الصالح سلطان مصر. وسيستظل بظلك. ستعيده إلى بلاده والسيف أصمّ عنه والنبل أعمى، راكباً حصان النصر الأبيض. هذا أمرٌ، وليس موضوعَ نقاش !

III

الشمس الباهتة التي حمّمها الصيف العكِر تشرق بصعوبة من السماء الغائمة في عالم العرب. ولا ريح قوية أو ضعيفة تحطم ثقل الصباح الذي لم يجد الليل القصير الوقت ليحمله. ومنذ بعض الوقت ضاعت أصوات الأذان في سماء القاهرة، والمصلون والأسواق وباعة الماء والشاي، وشاحذو المقصات والسكاكين، وبائعو الأحذية والحدادون، وغيرهم من عامة الناس والعمال استأنفوا أعمالهم منذ بعض الوقت.

وحدات الجيش القادمة من المقطم وقلعة الروضة تجتمع في الريف المحاذي للمدينة. وقلاوون الذي سيستقبل السلطان السعيد متى ظهر، على صهوة حصانه، ومن سيصحبه، جاهزون.

"أمرَنا بجمع الجيش بحجة أننا سنتحرك قبل طلوع الشمس، وهاهي الشمس تعلو رؤوسنا وهو غائب.– قلاوون يغلي قلبه ولو أنه يكتم انفعاله – كيف يصدُق معك من لا يصدق مع نفسه؟ ليس في الموضوع تراجُع. طلب مني استنفار الجيش، حتى قبل أن يحين الموعد المقرر، ومهما قلت له لم يستمع إليّ مستعجلاً يريد أن يكسب الصيف. الجيش جاهز إن كنت أنت جديراً بأن تقوده. سنمضي إلى حيث تقودنا لأننا تحت سلطتك. ولكني أقول لك مجدداً: لن تكسب الثناء من مهاجمة من لا يودُّه قلبك. لست أنا من يقول هذا بل والدك الذي لم يعد له تقدير عندكم. كنت أرضى عنك لو ورثتَ شيئاً ولو قليلاً من حكمته وشجاعته..."

منيرة فرحة بالسلطان السعيد الذي كان الجيش المملوكي ينتظره، تقف أمام الجيش تودعه على طريق الحرب بكل بساطة واثقة أن النصر صار في يده:

– يا ولدي، دعني أنظر إليك مرة أخرى. نعم، أيها الملك السعيد سلطان مصر، لباس الحرب يليق بك، مُفصَّلة على قياسك. وأنت مجهَّزٌ لها. رافقتك السلامة والحظ السعيد. لا تنس ما قلت لك. لا تدع أخلاق والدك وتهوُّرَه تتمكن منك بحجة أنك قائد المماليك. دع قلاوون والأمراء الآخرين الذين يقولون إن الأرمن الكفار فقدوا قوتهم يقاتلون أمامك. وأنا أوصيت قائد جيشك الأعلى بكل هذه النصائح. كلامك أنت ما يسري، لا كلامه هو. هل فهمت؟

– فهمت أن السلطان هو قائد مصر كلها ولا أحد يخرج عن طوعه يا أمي.

– قال السلطان موهماً أنه يشدد قبضته على ما في يده، ونظر نحو أخيه سلامش متفقداً ملابسه وعدته، مصطنعاً ابتسامة.

– مع السلامة إذن – كان قلب منيرة يتألم ولكنها أخفت انفعالها – لا تُخرج جيش المماليك من القاهرة بسرعة. دع الناس يعرفون وجهتك. واترك لهم الفرصة ليتأملوك، واكسب ثقتهم وتقديرهم. لا ضرورة أن تُبقي قلاوون إلى جانبك كما كان يفعل والدك الذي لم يكن يسمع الكلمة. ليكن وراءك بمقدار رأس حصان.

– ألا يمكن أن أضع ورائي الحصانين المتشابهين اللذين يسيران عادة أمامي؟

– لا، هذان ليسا مجرد مظهر، بل يفتحان طريقك.

– ولكن رائحة وسخهما تنفرني.

– عليهم ألا يُطعموا أحصنتهم في المسافة القصيرة التي يراها الناس فيها، ولا يسقوها!

الجيش الذي يقدر طوله بعدة غلوات حصانٍ يغادر القاهرة. والسلطان السعيد وراء الفارسين المتشابهين في كل شيء: في مظهرهما، وحجمهما، ولباسهما،

وانتهاء بحصانيهما. والغطاء المطرز بخيوط الذهب والفضة مسدول على حصانه الكُميت. ومن حينٍ لحين يشد لجام الحصان الذي يشكو من حثِّ راكبه المستمر. — يجبره أن يقفز، ويسيل رغامه على لجامه.

والمنادون المنتشرون في أرجاء المدينة يمتدحون السلطان الذي سيحمي الإسلام من الأرمن الكفار. ويدعون إلى الله أن يعودَ بالنصر، ويجعلَ يومه مئة، وتتوهَ عن رأسه ضربات السيوف، وتضِلَّ نبال الرماة. ولا ينسون منيرة التي ربّت السلطان على البسالة والرحمة والإنسانية والبراءة والحياء.- يصفونه بكل ما يستطيع اللسان من حسنات.

ابتسم قلاوون: "الابن والأم المناسبة جيداً في حين لا نعرف نحن شيئاً عن الموضوع." لم تبق ضرورة لأن نكمل طريقنا ولا أن نسفك الدم ونذرف الدمع. حتى من يعود بالنصر لا يتلقى كل هذه المدائح. أيُّ دنيا نعيش فيها؟ نحارب، نأكل، نبكي، نمدح أنفسنا بأنفسنا. أنخدع أنفسنا بأنفسنا أم نطلب ذلك من أحد؟ حتى لو كان الذنبُ ذنبَ بيبرس في مقتل قاهر ألستُ أنا من قتله؟ تستحق ما يجري لك إذ تُصمّ أذنيك وتسكت على أيّ شيء يقال فيك. ألستُ من نصّب الرجل الذي يلعب مع حصانه أمامي؟ ولكن ما الخيارات الأخرى التي كانت لديّ ساعتها، وماذا كان بمقدوري؟ نقول هذا، نفعل بهم ما نريد، ونسمح لهم أن يفعلوا بنا ما يريدون، ثم نبحث عن الأعذار... لا يستوي الفارس والراجل، ولكن الحصان الذي أركبه ليس أصغر مما يركبه. ربما لهذا السبب حاول أن يغير الأمراء. ولكن لم نسمح له أن يحقق ما في ذهنه... أُطرِق برأسي وأسكت حين يكلمني الابن والأم بلسان معسول. ألستُ من كلفوه قائلين "سيكون معك الملك السعيد سلطان مصر، سيكون تحت ظلّك، ستعيده إلى بلاده بالنصر والسيف أصمُّ عنه والنبل أعمى" متى سمحت لهؤلاء

أن يوطدوا أنفسهم فلن يدعوك على وجه الأرض! يجب أن نفكّر في حلٍّ قبل أن يمدوا جذورهم. القتل مرة أخرى؟! هذا ما نحن فيه منذ وعيت وإلى الآن. ما العمل، نعيش حياتنا ثأراً بثأر. لِنر ما يحدث. ما نذهب إليه ليس مضافة..."

ما إن أصبح الجيش خارج القاهرة حتى انقطعت جلبته وأصوات طبوله وزماميره. وبدأت فرحة السلطان بحظه السعيد تتبدد شيئاً فشيئاً، وشرع يفكر في نظرات الناس الذين يراقبون الجيش على أجناب الشوارع. " كانوا ينظرون إليّ من أطراف عيونهم باستياء... ومن لم يحْنوا ظهورهم لي كانوا الأكثيرية... هؤلاء الذين أراهم لن يشكروك مهما خدمتهم. انتظروني فحسبُ إلى أن أعود. ووقتها أعرف ما تستحقون"

– يكفي مسيرك ورائي يا قلاوون – صاح السلطان إلى الوراء. – قف إلى جانبي، لا أعرف مكانك حسب شرعة صديقك والدي الأديغية. أهو على يميني أم على يساري؟

– ما سمعته مرة في طفولتي لا أنساه إلى الآن – حثّ قلاوون الحصان ووقف إلى يسار السلطان.– إن كان الاعتبار لعمري المتقدم عليك فمكاني يا بديل الشمس على يمينك. ولكن السلطان سلطان دائماً دون اعتبار العمر فأنا أقف إلى يسارك لأننا اثنان فحسبُ.

– نعم، نعم، يانجمة المماليك المضيئة. ذكّرتَني الآن. حين يكون الركب من ثلاثة فالكبير في الوسط والصغير على اليمين.

– شكراً يا موفد الله على أنك لم تنسَ – امتدح قلاوون السلطان وأفهمه دون أن يبدي استياءه: – لا تنس أن الأهم من كون والدك صديقي هو كونه سلطان مصر وإنجازاته الكبيرة. مهما قلتَ ومهما فعلتَ فسيظل الناس يقارنونك به.

سأل السلطان بعد قليل، وهو يستمع إلى وقع حوافر الخيل، غير خجلٍ من تكبره:

– حتى لو كنت أحكَمَ منه وأشجَع؟

– إن أحسنت إلى والدك بيبرس استحسن الناس فعلك، ولكن إن كنت تنوي إن تُنسيهم إياه فأنت مخطئ.

– نيّتي ونيتك ونية والدي سلطان مصر متشابهة. مهمتي الأولى هي تقويةُ مصر التي أوكل الله تعالى حكمها إليّ وحمايةُ الإسلام. – قال السلطان، ثم التفت إلى الجيش الذي لم يلتفت إليه حتى الآن، محاولاً الخروج من الموضوع الذي ملّ منه، ولم يكتم الأمر الذي يشغله من قبل أن يركب الطريق – لن نصل إلى كيليكيا الأرمن إن كنا سنسير هكذا متجمعين يجرّ بعضُنا بعضاً. وستتكسر حوافر خيلنا. ونحن سنمتلئ غباراً. ما رأيك أن ندفع بالفارس المتقدم إلى الأمام؟

– أنت قائدنا يا موفد الله، كما تريد.

– حياك الله يا قلاوون، يا نجمة المماليك المنيرة. حتى لو كنت تخاطبني على قدر واجبي – خفض السلطان صوته الآن يريد ألا يسمعه أحد – أذكّرك أني يجب أن أعود إلى القاهرة، كما قالت لك أمي، على صهوة حصان النصر.

– لو كنت وحدي المسؤول...

– من غيرُك المسؤول؟ – سأل السلطان بوجه صبي مرتعب.

– الله – أجاب قلاوون كأنه كان ينتظر السؤال – وبعد الله يعود كل شيء إلى قوة المماليك ورجولتهم.

– لم أقدكم إلى السفر دون علم الله – قال السلطان دون أي أثر حياء في وجهه – المماليك أملي كما ثقتي بك.

مسيرة الشهر جعلت كتفي السلطان تتدليان. ثم حين ظن بعدها أنه نجا من العاصفة الرملية، عانى من مطر خريفي استمر أياماً، بدأ يعيد النظر في المشروع الذي باشره ويبحث عن ذرائع للتراجع. "ماذا أبغي وأنا سلطان، والبلاد والجيش في قبضتي، وليس على رأسي من ينقض كلامي، أبتلع الغبار، ويبللني المطر البارد؟ من طردني من فراشي الناعم، ومن أبعدني عن الإبريق والطشت؟ لا تريد أمي أن تسمع اسمه ولكن والدي أول من قال لي: لا يذهبون إلى الحرب طلباً للمديح. ورفيقي هذا الجسيم ذو الرقبة الثخينة والساعدين المفتولين يظل يردد هذا الكلام. نعم، نعم يا أمي، وهذا سنسايره، نربت على كتفيه ونمسح عليهما إلى أن ينفذ لنا ما نريد..."

– يا قره خان ! — صاح السلطان من الخيمة التي يتناثر عليها مطر الخريف الناعم، وقال للرجل الجسيم الداخل — لا أعرف إن كان أصابني البرد، غطّ كتفيّ بغطاء سميك، وغطِّ ركبتيّ. واسقني شاياً ساخناً. وأنت كيف تجري أعمالك؟

– لا عمل لي إلا خدمة موفد الله يا بديل الشمس.

– شكراً — ابتسم السلطان متذكراً كيف أعادوه إليه على حارك الحصان — أنا راضٍ عنك. تنفذ مهامك جيداً. وأعتبر تجاوزك الإهانة التي تسبب لك فيها قلاوون نوعاً من الرجولة. أقول هذا ولكن لا أعرف ماذا في قلبك أنت.

– لا، لا. يا موفد الله. لا يمكن أن تعتب على السلطان مهما قال لك أو فعل. أنا مخلص لك قلباً وروحاً، وصادقٌ معك.

– لم تدع لي أي شك في الموضوع حاضراً، ولن تدع لي مستقبلاً. ليس كل من يتحدث إلى سلطان مصر جديراً بالثقة، ولا حامياً له. من عنده من الثقات من أمثالك معدودون جداً. أريدك أن تفهم هذا وتقف إلى جانبي وتخلص لي.

وليس اليوم أو البارحة فكرت في الموضوع. وبما أني بدأته فلن أكتمه: الكلمات التي وجهتُها إليك كان هدفي منها اختبارَك وليست من قبيل الأحقاد. وبما أنك تعرف اسم المذنب في هذا – ابتسم السلطان ثانية – فهاتوه دون أن يبلغوه ما قلتَ أنت له.

"ليس هذا الرجل مثل ما يتصوره من لا يعرفه ولو أنهم شهروه بخفة العقل والتهور..." – قال قره خان في قلبه وسأل نفسه حذراً – ماذا ينوي لي؟

حين سمع السلطان صوت قلاوون صادراً من جهة باب الخيمة سعل متظاهراً بالمرض، وبادر بالسؤال:

– هل أصابك البرد يا موفد الله؛ أراك تسعل؟

– وأنا أرى هذا. يا نجمة المماليك المنيرة. أيقظتني نوبة البرد فألبسوني ثياباً دافئة كما ترى، وسقّوني شاياً دافئاً. – تظاهر السلطان ثانية بالسعال.– ليس شخصي المشكلة، أنا في خيمة ولو لم تكن دافئة تماماً، بل الجيش؛ ما حال الجيش؟

– الجيش جيش، ولذا اعتاد على الحر والبرد والريح. أنت المشكلة، تحتاج إلى فراش دافئ.

– ومن أين آتي بمثل هذا؟ – فرح السلطان دون أن يبدي على نفسه حين سمع بحاجته إلى فراش – لو لم تكن الشام بعيدة... – حين انتهت نوبة السعال التي "داهمت السلطان" توسّل – اكتموا عن الجيش أني متوعك، لا تحملوه على اليأس. كنت وقفت على رجلي لو وجدت مكاناً دافئاً، ورجعت إلى قيادة جيشي... هل الشام بعيدة؟

– لن ندخل الشام يا موفد الله. سننعطف إلى اليسار بعد أن نسير إلى المساء. ولكن إن أردت أوصيت بإيصالك إليها. ستشفى ريثما نصل نحن إلى الأرمن، وتلتحق بنا.

– نعم، حقاً. يا نجمة المماليك المنيرة. سأنضم إليكم بعلم الله وفضله. وسنجعل الأرمن الكفار يعرفون حدهم. كنت طلبت كتمان مرضي عن الجيش ولكني أتوقع أن يفهم حالتي التي قدرها الله. ليت الأمير برقت كان في دمشق، ولكنك قلت لي إنه يحشد جيشه على طريق كيليكيا، ولذا لن نُربِكه.

في اليوم نفسه، وفي خلال ساعة، جهز السلطان السعيد نفسه، وسافر إلى دمشق. وسمع الجيش بخبر توعُّكه. ولم يُعِر المماليكُ الأمرَ اهتماماً كبيراً مادام السلطان سيشفي نفسه ويلحق بهم.

توقف المطر في اليوم التالي، وأشرقت الشمس، فوصل الجيش بقيادة قلاوون خلال بضعة أيام، إلى حيث ينتظرهم برقت أمير الشام. وتوقفوا على المرتفع يطلون على العاصمة سيس. واحتلوا السهل الضيق بكامله.

أعاد الجيش المملوكي الذي اجتاز مسافة كبيرة تجهيز نفسه. وعاد الجنود والخيل إلى سابق حالهم بعدما استراحوا. ومرت الأيام القليلة التالية دون شعور بالملل. ولكنهم بعد ذلك بدؤوا يتساءلون: من ننتظر؟ ولماذا لا نتحرك؟ وبعد بضعة أيام أخرى نشرتْ أخبارُ سلطانهم المتناقضةُ البلبلةَ في صفوفهم. وشرع المقاتلون المماليك يرسلون أمراءهم إلى قلاوون.

– لا تدَعونا نتكلم على السلطان من خلال الأقاويل يا راسم — مع أن الأخبار المختلفة الواردة إلى قلاوون كانت تزرع في نفسه الشك فقد نصح الأمير — لولا أني رأيته بأم عيني متوعكاً لكان لي كلام آخر. وأنا سمعت أنه نسي جيش المماليك ويمتع نفسه بالنساء الفاسقات ،ولكن دعنا ننتظر ما

سيأتينا به رُسُلنا. ما مضى كثيره سيمضي قليله. لا يمكن إن كذبت عليّ أن تكذب على الجيش وعلى البلاد. حين كان يُغضِب أباه بيبرس كان يقول: إن كنا محظوظين فلن تبقى البلاد تحت رحمة هذا الفارغ الرأس. والآن اصطدمنا بالمشكلة بجباهنا.

– الذنبُ ذنبُك يا قلاوون – صرّح عماد أيضاً، جعلتَنا نستعجل فلم تترك لنا فرصة للتفكير.

– أنسيتم الموقف الذي وجدنا أنفسنا فيه؟ – حققتُ توسُّلَ بيبرس.

نظر الأمراء نحو الفرسان القادمين من جهة الشام. وبادر أحدهم بالقول:

– اتهمْنا السلطانَ ظلماً، ها هو عائد... – ولكنه سرعان ما تراجع – ولكن عددهم قليل بالنسبة إلى حراس السلطان الكثيرين.

ترجل قره خان الذي كان في طليعة الفرسان القادمين، وتوجه إلى قلاوون بوجه قلق:

– لي كلام سري معك يا نجمة المماليك المنيرة.

– قل، ليس لي أسرار أمام أمراء جيشي.

– لم يكن السلطان مريضاً في الحقيقة. كذب عليكم وعلينا. أمر بقتل حارسه الذي صارحه بأن ما يفعله غير صحيح فالجيش بانتظاره، ورجع إلى القاهرة.

سأل قلاوون الذي لم يكن يعرف الموقف الذي يتخذه مما سمع، قره خان:

– ألم تعد حارساً للسلطان؟

– لا يجوز أن تكون ليس حارساً لمثله، بل حتى أن تناديه بالسلطان.

سحب قلاوون الجيش من تخوم كيليكيا، وعاد به إلى القاهرة على جناح السرعة. وقبل أن يعود الجيش إلى حاله الطبيعية حاصر قصر السلطان. وبدلاً

من الذي ألحّوا عليه بالخروج خرجت أمه بغطاء رأس أسود يصحبها سلامش الصغير، ووقفت على العتبة:

– ليست مشكلتنا معكِ – قال قلاوون دون أن يسميها – خصومتنا مع السلطان عديم الإحساس الذي تركنا في الجبهة وأسرع عائداً إليك.

– اعتبروا منذ اليوم أن من خذلني وخذلكم وجلب لنا العار جميعاً لم يعد سلطاناً. أرثيه بغطاء رأسي الأسود وهو ما يزال حياً. أين أذهب به؟ أأستطيع أن أقتله؟ ولا أظنكم أنتم تستطيعون هذا. ولكن أتوسل إليك يا قلاوون كرمى للظاهر بيبرس إن كنت ستفهمني: إن قبلت أن تكون وصياً على سلامش الصبي فهو جدير بالسلطنة.

– لستُ من يقرر هذا – توجس قلاوون مما سمع.– هذا سيقرره مجلس الأمراء.

******

في اليوم نفسه اتخذ مجلس الأمراء الاستشاري قرارين: الأول: نفي منيرة وابنها سعيد من القاهرة، وإبعادهما عن أي شأن من شؤون البلاد. ورُحّلا على الأثر ليعيشا في دمياط. والثاني: تنصيب العادل بدر الدين سلامش ودياً، ودون سفك دماء، بشرط أن يبقى تحت وصاية قلاوون إلى حين بلوغه الثامنة عشرة. وجرى هذا عام 1279 م.

ولم يمض نصف عام حتى أجبر المنصور سيف الألفي قلاوون الأتابك سلامش على التخلي عن السلطنة.

IV

– يا لمصيبتي! ماذا فعلوا بي مرة أخرى؟ – صرخت منيرة حين سمعت خبر ابنها الأصغر: – خلعوا أملنا الوحيد وتركونا دون جذور!

– ما الأمر يا أمي؟ خرج سعيد من الغرفة الأخرى وهو يصلح وضع زناره اللامع بالذهب والفضة على قميصه الطويل؟

– لم يعد أخوك سلطاناً!

– وهل كان أخي الأصغر الفارغ الرأس سلطاناً؟ إن كان الخبر صحيحاً فقد جرى له ما يستحقه.

– اسكتْ!

– أنا أغلق فمي غير أنك لن تستطيعي إغلاق أفواه الجميع. – باح سعيد بسُخطه المخبوء في قلبه، وجلس على المقعد الوثير.

– لا تلفّ رجلاً على رجلٍ أمامي! – لم تتحمل الأم لامبالاة ابنها الأكبر.

– وماذا تريدينني أن أفعل؟ سأل سعيد الذي حرر رجله بسرعة.

– ما الفائدة أن تسأل عما لم تستطعه وأنت سلطان؟ مزقت عينا منيرة الصغيرتان الصفراوان الدامعتان صوتها. غير أنها عادت بسرعة إلى حالها – لا أريد إلا أن نتكلم، وأنت تسمع كلامي، على ما يهمنا.

– لو سمعتُ ما قلتِ لي... لا أعرف يا أمي وقتها... – غمر الحزن سعيداً شاعراً بالإهانة من تلميحات أمه.

– كفى! ما الفائدة الآن من البكاء؟ تعال إلى هنا – واست منيرة ابنها ورأسه في حضنها – كُفَّ عن البكاء، لا تَهِج أحزاني وأحزانك! نحن ما زال علينا أن نعيش، وأنت – في سن الزواج تماماً، والفتيات اللاتي كن يرتمين عليك ربما نسينك. وليس هذا كل شيء، بل الرجال والنساء الذين كانوا يقفون أمامنا

حانين ظهورهم. من منهم تفهّمنا؟ – حين جعل حضن الأم الدافئ ويداها الناعمتان سعيداً يرجع إلى تباكيه لطمته أمه على ظهره بخفّةٍ — ألستَ يا ولدي من قالوا له كفى؟ كل الناس الذين كانوا يلازمون بيتنا حين كنتَ سلطاناً، وفي مقدمتهم "بيبا" زوجة هذا القبيح قلاوون نسونا. أيُّ أمل أمامنا؟ هذه حال دنيانا التي يختبرنا فيها الله. وانظر الآن ماذا جرى لنا؟ لم يكْفِ ما فعلوا بنا نحن الاثنين حتى انتزع القبيح قلاوون السلطنة من الصبي. ماذا يقولون في مثل حالنا: كما أن الجبل لا يستطيع الاختباء من الغيوم فكذلك الإنسان من المآسي التي تنتظره. سترى يا ولدي إن لم يدفع هو نفسُه ثمن ما فعل بنا من سلطنته.

– ما كان عليّ يا أمي أن أسمع نصيحتك أن أبقى في الشام حين زحفتُ بالجيش إلى كيليكيا.– همس سعيد بما يحزنه دون أن يصارح به.

– نعم، اشمتْ بي! أنا المسؤولة عن كل شيء. — مع أن منيرة استاءت مما سمعت وبان عليها انفعالها فقد أكملت لابنها بنبرة أنعم: – ما قلته لك كان يجب أن تتعامل معه بعقلك. من كان يدري أن صديق والدك سيتصرف معنا بهذه الطريقة؟ طلبت منه أن يحرص عليك، وأن يُبقيك في رعايته، وأن يعيد السلطان بمظهر الشجاع. ولم أطلب منه ألا يخوض حرباً بالجيش، وأن يُعيدك. وحين أرسل وراءك أسرعت فهربت إلى القاهرة بدلاً من أن تأمره بخوض الحرب ما دام هو قائد الجيش، وأن يُحرز النصر لك.

– كانوا سيقتلونني يا أمي.

– ما كان أحد ليتجرّأ على قتلك في حمايتي. كيف لم يقتلوك إذن حين حاصرونا؟ أنت ترى ما فعل بنا القبيح قلاوون الثخين الرقبة في الوقت الذي

كنت أظن فيه نفسي أرائيه بشأن الصبي سلامش. وانظر ما فعل ثانية بشأن سلامش إذ دفع مجلس الأمراء لتنصّيبه مكانه.

– ما الأمر؟ هل مات أخي؟

– ليُبعد الله الطاعون عن فمك! لا أعرف ما تقول. قلت إن سلامش عُزل عن السلطنة ولم آت على ذِكْرِ ما خطر لك.– "كل ما حدث لنا مسؤوليتي أنا يا الله ! — صرخت منيرة في قلبها — هذا الصبي كان في بدايته نشيطاً، ولكن أبقيتُه على طراوته وأنا أشكِّله كما يُشكَّلُ رغيف الخبز المشروح. أيّ نَحْسٍ ربط مصيري بمصير الشركس، فدفعتُهم إلى تدمير حياتي؟ تزوجت من قائد الجيش المملوك الأعور وكلُّ ظني أني سأُسعد نفسي فإذا بي ينطبق عليّ المثل: من يضع في فمه لقمة كبيرة يختنق بها. وبقيت محرومة من كل شيء إلا من عيشتي التي لا أُحسَد عليها. وهذا الولد بقي حملاً عليّ لا أعرف ما أفعل به كما يحتار المروِّض مع حصان لا يُحسن السباق. والآخرُ الذي تسببتُ في تعاسته لا أعرف إن كان يزال حياً رغم أني عنّفتُ أخاه على سؤاله. لا يُسمَح لنا أن نخطو خطوة خارج الدار ولو أنهم لا يحيجوننا إلى شيء. ونحن عمي وصُمٌّ تجاه ما يحدث في البلاد. ولو لم أسمع بأذنيَّ ما حدث لابني الأصغر لما أطلعوني عليه إلى الآن. يا إلهي ألن ترفع عنا يوماً حِمْلَ هؤلاء المماليك الشراكسة الكريهين؟ ! لا يسمحون لغيرهم، أمثال أولادي، الذين غرستَ فيهم دينك العزيز أن يرفعوا رؤوسهم. وإن قلتُ ما لا يقال فاغفر لي وارحمني واحمِني. غير أني أعتقد نفسي أقول الحق. — خرجت منيرة مرتعبة من أفكارها وسألت ابنها: – يا ولدي، يجب أن نفعل شيئاً بخصوص أخيك. ما أفضل ما نفعل لأجله؟ ألا يسمح لي كبير حراسنا أن أسافر إلى القاهرة إن دفعتُ له رشوة مقبولة؟

– لن تذهبي يا أمي إلى أي مكان من دوني — حسم سعيد بجواب غير منتظَر.

– ماذا؛ أتعرف حلاً آخر؟ – استغربت منيرة، ثم أكملت وهي تبتسم في سرها – متى كنا معاً أنت وأنا، وقتها لن يتركونا البتة.

"أمي، ولو أنها حكيمة، وتستشرف آفاقاً كثيرة بعقلها، لا أعرف أنها نجحت في أي مشروع بعد وفاة أبي. حين تقع في أزمة تُضيّع كل ما قالت أو فعلت. – كان سعيد يسخر من أمه غير أن الخاطرة التي هاجمته جعلته يغير رأيه – أقول هذا ولكن حين انقلب علينا قلاوون فأبعدنا عن السلطة وجدتْ مخرجاً عن طريق أخي فلم تسلّمني إليه. أكان هذا في صالحي أم ضده؟ لو تكلمت مع قلاوون صراحة لربما نجونا،كرمى لوالدي، مما حدث لنا. وخبر استلامه السلطنة من أخي الأصغر وصلَنا ولكن لا نعرف ماذا فعل به... أيقتلون كلَّ من يعزلونه عن السلطنة؟ ها نحن أحياء ولو لم نكن أحراراً تماماً. الشراكسة الذين يجري دمهم في عروقي، سواء اقتنعت برأي أمي أم لا، قوم ظالمون.. ووالدي قتل ابن قومه خُطج وانتزع منه السلطنة؟ وإعدامه كوشاربيك وجلات على باب زويلة؟ وحين كانت كوثر التي يعتبرها أخته تغرق في النيل لم يتحرك لإنقاذها؟ وقتلُ قلاوون لقاهر أمامي؟ "

– يا سعيد يا ولدي. إن لم تكن في مكان بعيد جداً فاخرج. كأنك نسيتني – نادت منيرة ابنها مازحةً، وانتشلته من أفكاره – لا أتذكر عمّ كنت سأسألك.

– وأنا لا أخلو من حلٍّ للمسألة يا أمي. سأُسمعك ليس واحداً ولا اثنين...

– حكمة شخص واحد تبقى في رأس مئة. أسمعك يا ولدي.

– أرى أن نقابل من انتزع مني ومن أخي السلطنة.

– وكيف تقابلان من تركتكما، أنتما الأخوان، دون شيء؟

– ألستُ حراً في السؤال عن أخي الأصغر؟ – سأل سعيد وكأنه غيرُ ذاك الذي كان يبكي على صدر أمه، ثم أجاب نفسه بنفسه برأس مرفوع – لي

الحق، ألسنا أنتِ وأنا مسلمين؟ نعم مسلمان، أنتِ حججتِ ولكن ألا يجب أن أحجّ أنا أيضاً؟ بلى، ما كنت أريد أن أُفصِح ولكن هل فارق والدنا السلطان بيبرس الحياة ولا أحد يرعى كرامته؟ لا، لم يفارق.

– اهدأ قليلاً! – أوقفت منيرة ابنها ووجنتاها تحمرّان ولكنها سألته وهي تمدحه فخوراً به – حسنٌ أنك تذكرت هذه الأمور. ولكن كيف أسمح لك أن تقابل من لا يريدنا؟

– سأكتب إلى مجلس شورى السلطان.

– تكتب، ولكن لن يسمحوا بوصول الرسالة!

– لن أكتب فيه ما يُزعج يا أمي، من الذي سيوقفها؟

– بيبا التي كانت تعدُّني أختها، والتي هي زوجة السلطان الآن، كتبتُ أنا أيضاً إليها العام الماضي وهذا العام، ولكن دون جواب.

– لا أعرف إذن. انكسر صوت سعيد. ثم تصنع التصلب وغضب: – إذن هل نجلس هكذا ننظر في وجوهنا، ونتبادل المراثي، ولا نتكلم إلى أحد. اغفري لي إن رفعتُ صوتي.

– لا يا ولدي، لا أرى عيباً في صراخك النابع من أحزانك. هذا الذي تقوله وتفعله كان أوانُه حين كنتَ سلطاناً وكلامي نافذاً عندك. منعتُك أن تعيش حراً بقلبك وعقلك وأنا أعتبر ما كان يمنعني منه والدك الشركسي النزق قد تحقق لي بك. ولكن ما فهمته أمرٌ واحد: أبناء قومي الذين أفني نفسي من أجلهم لا يحتاجون إلى امرأة سلطانة، و حجتهم ما في القرآن العزيز، وما ليس فيه. لا يعني هذا يا ولدي ألا تسمع كلامي. ها نحن قد تحادثنا في ما يقلقنا كلينا. إن لم أقلق وتقلق لوضوع أخيك الأصغر فمن يقلق له؟ اكتب إلى السلطان الذي جلب لنا الكارثة. ليس مستبعداً أن يتذكر أباك فيفهمنا. وبين الأمراء من لا

يتفق مع السلطان ولكنهم يخافون. حسناً اقترحت؛ لا يجوز أن نقعد مكتوفي الأيدي. هناك مخارج كثيرة. وأهم ما أمامنا الآن هو سلامش الصغير.

– إن كان ما يزال حياً... – لم يستطع سعيد إلا أن يعبر عن هاجسه.

–لا، لا. لا تسمح لهذه الفكرة أن تخطر لك. – انقبض جسد منيرة، ثم أنّت بصوت أكثر ارتياحاً – لا يحدِّثني قلبي بمثل هذا. مهما كانت شراسة قلاوون فسيلجمه إكرامه لأبيك. ما الأمر؛ أتخفي عني شيئاً؟

– لا يا أمي، إن لم يكن يحزنك فسأسألك أمراً.

– اسأل، سيجد هذا الحزن مكاناً بين أحزاني الكثيرة.

– تقولين دائماً "كرمى لوالدكما "؛ لماذا إذن تعتبين عليه؛ ألأجل كوثر؟

شحب لون منيرة من السؤال المفاجئ. كظمت قلبها الذي كان ينفطر، ونظرت بعين شبه باردة في وجه ولدها وتنهدت:

– ما سألتني بشأن أبيك حملتُه في سري سنين طويلة. – "على ما يبدو أفنيت نفسي دون جدوى، لم أستطع أن أبرّد عواطفك نحوه. ما الفائدة الآن من مناكفة الميت. ليس فقط صديقَ من كان يمسك بعصا السلطنة، بل من قومه الأقربين..." – ليس في الأمر أحقاد، أقول شيئاً في ساعة غضب، لم يكن والدك بيبرس محروماً من الرجولة والإنسانية. افتتح مشاريع كثيرة في البلاد، وحماها من الأعداء، وحافظ على ديننا. ولكنه لم يُسعدني وإن كان الناس يذكرونه بالخير. – مع أن منيرة كانت مدت يدها إلى عينيها النديتين الصغيرتين فقد تظاهرت بأنها لا تستحسن البكاء في حضرة ابنها. –كانت المرحومة أمي تنصحني بعدم الزواج من غير قومي مهما كان زوجاً عظيماً لأنها كانت تعرف مصيري هذا... ومع أن ما جرى جرى وانتهى فاسمعْ يا ولدي: إن كان قلبك نحو والدك بيبرس السلطان هكذا فلا تتأثر بي فتحتقره.

– كنت أتهم كوثر بعدم تفاهمكما.

– لا أريد أن أسمع هذا الاسم الذي نطقتَه. ليُذِقْها الله عذاب جهنم. هذا أمر لن تفهمه الآن. سنتكلم ثانية في الموضوع حين تتزوج ويصبح عندك ولدان... كفى، لنتكلم في موضوع آخر يسرُّ القلب!

– يا حسرتي لا أعرف موضوعاً يسر القلب. — ارتخت كتفا سعيد الذي كان جالساً إلى الآن بقوام متين.

– ولماذا لا تعرف؟ – عادت الأم إلى وعيها مما رأت وسمعت — لولا أننا لا نعرف خبر سلامش ها نحن في صحة جيدة بفضل الله، والشمس تشرق علينا. ونجد ما نأكل وما نلبس. وسيكون غدنا مثل يومنا يا ولدي. أتظننا سنعيش إلى الأبد في هذه الدار المتربة الصغيرة؟ السلاطين يأتون إلى السلطنة، ومن يرفض التنازل يعطونه السم، يطيحون به. كم سلطاناً عاصرت في عمري! وفي خلال عمرك القصير بعد السلطان الصالح سأعدّهم لك: شجرات، أيبك، نور علي، قطز، وأبوك، وأنت، وأخوك الأصغر. وإن لم أخطئ فالثامن هو من انتزع منكم سلطنتكم قلاوون القبيح. وهو لا يعرف ما ينتظره غداً. ولكن لعنتي ستصيبه. سيرتدّ ما فعله بنا نحساً عليه. ولذا لا داعي لليأس. ولما كنا بدأنا الموضوع فسأقول لك ما أشتهيه منذ جاؤوا بنا إلى هنا قبل عام، وأدعو إلى الله من أجله: لو كنت أستطيع لمكّنتُ الأعداء من احتلال مصر، ليُفنوا المماليك عن بكرة أبيهم.

– يا أمي ! — صاح سعيد وعيناه تجحظان رغماً عنه.

– ماذا؟ ألا يعجبك هذا أيضاً؟

– لا يجوز تمنّي مثل هذا الشر للبلاد! — لم يتراجع سعيد بصوته وبمظهره.

– لا أعرف إذن ما أقول... – نهضت منيرة عاجزة عن الاستمرار في الجلوس. وفيما هي خارجة من الغرفة جعلها القلب المتمرد تتغير – إن كنتَ ما زلت تتأمل من قلاوون الشركسي العديم الرحمة ناسياً ما فعله بنا فستنتظر حتى يسقط فكُّك.

لا تنام منيرة هذه الليلة أيضاً كما لم تنم في الليالي السابقة. تستلقي في فراشها تعيد التفكير في المواضيع التي تحدثت فيها هي وابنها، تبكي وتسكت. تبلل الوسادة بالدمع ثم تنشفها بخدها الملتهب. يذهب بها فكرها إلى موضوعات كثيرة، تجرحها ثم تشفيها. تُخاصم سعيد ابنها وتُصالحه. وليس قليلاً ما تتهم به نفسها. ولكن حين يتعلق الأمر بها فما تبرّئ منه نفسها أكثر: "ما الخطأ في أن أتمنى لو احتل الأعداء مصر؟ لم أقصد بكلامي الصليبيين الذين يقارعون المسلمين. المغول ذوو العيون الخُزْر القادمون من المشرق لا يحاربون الدين بل نهابو أموال. مهما قلت لسعيد ومهما رد علي فأنا راضية عن إسخاطه. الآن فحسب لاحظت فيه شيئاً من طباع والده سواء كان خيراً أم شراً. ولكن لا أندم على ما قلته له بشأن قلاوون. لينكبْه الله في أسرته كما نكبَنا في أسرتنا! لو حدث لبيبا ذات المِقْعَدة الضخمة مثلُ ما حدث لي لرأيتُ كيف تصرفتْ. صحيح ما يقال من أن قائمة البقرة لا تقتل عجلاً.

تصالحت الأم وابنها. وبعدها أتت أيام تماريا فيها وتصافيا وكلٌّ حريص على الآخر. حين تكون محبوساً في دارٍ لا حرية لك أن تفتح بابها، ولا تعرف ما ينتظرك فلا عجب أن تجد نفسك في مثل هذه المواقف.

هبت رياح الخماسين شهراً كاملاً من جديد. ولم تحمل، ليس شيئاً من المطر، بل قطرة منه. ولكنها لطّفت الجو الجاف على نحو ملحوظ.

رفعت منيرة رأسها فجأة حين سمعت أصوات الفرسان التي صدرت من جهة البوابة الكبيرة. وسألت سعيد بقلب قلق متوقعة خبراً سيئاً أكثر مما تتوقع خبراً ساراً:

– أيُّ أصوات حوافر خيل هذه؟

دخل الإمام عماد وراسم أمير الجيش وبينهما سلامش إلى الدار.

– أأنت حيٌّ يا سلامش يا بني؟! أنا بكيتك منذ زمن بعيد. – ركضت الأم نحو ابنها، وركض الصبي.

– نحن جئنا لقضية تتعلق بالبلاد – قال عماد بصوت جافّ – حمْلنا قرار المجلس الاستشاري باسم المنصور سيف العدل قلاوون الألفي السلطان. اقرأ يا راسم!

– "بعد مرور سنة، وبناء على طلب قلاوون السلطان، وإكراماً لوالده السلطان العظيم بيبرس، نعلن رفع دعوى الاتهام بحق سعيد عنه، ونعلن إعادته إلى الجيش. القاهرة عام 679 للهجرة. هيا يا سعيد؛ لنعد إلى القاهرة.

– وأنا؟ – صرخت منيرة لا إرادياً. – هل ستتركونني أقيم هنا وحدي؟

– أنتِ غيرُ مشمولة بقرار المجلس الاستشاري. – أجاب عماد – الأفضل لك ولنا أن تظلي بعيدة عن ولديك ولا يتأثرا بتوجيهاتك. ولكنهما مُنحا الحق في رؤيتك مرة في السنة.

– إن كان هذا قرارَكم، وانتزعتم مني ولديّ فأيُّ حرية لي؟ – قالت منيرة ضامّة قبضتيها الصغيرتين. – أنا أقبل حكمكم هذا لأن كل ما يفعله الله بالإنسان يتقبله. ولكن الله نفسه لن يغفر لكم تمزيق أسرتي. تعال يا سعيد يا ولدي. إن كنت تتقبل قرار إعادتك إلى الجيش فسأجهزك للطريق.

اكتفى سلامش بمتابعة أمه وأخيه الداخلَين إلى الغرفة، ولم يتحرك من مكانه. وحين بقيت منيرة وحدها لم تتحمل ما جرى لها مهما كانت قوية – ففي الليلة نفسها شنقت نفسها على النافذة.

V

تجري في العالم أمور كثيرة. ولا يمر يوم دون أن ينبت خبر في مصر. ولكن هذا لا يمنع الشمس من أن تشرق من جهة شرق البلاد، ولا أن تغرب في غربها. وماء النيل يصفو وإن تعكّر، والأيام الصافية، وإن هبت عليها رياح الهَبوب المُثيرة للغبار فهي تتوقف أخيراً وتعود تصفو. الصدق والكذب يتصادمان. والسلطان قلاوون ليس استثناء، واحد من هذا العالم — من طينه، ورمله، وهوائه، وصُداعِه، وأسئلته التي بلا جواب.

ما زال يتساءل أحياناً بعد مرور بضع سنين على رحيل بيبرس وكأنه لم يتأثر بحلاوة ما حارب من أجله ومرارته: أتصدّقهم حين ينادونك "موفد الله، بديل الشمس"؟ لا شيء يتغلغل في نفسك ويذوب فيها كالمديح المرائي. لماذا لم تكن سلطاناً إلى الآن إذا كنت موفد الله وبديل شمسه؟ بدأت أسيراً مملوكاً فلماذا لا ترتاح الآن إلى لقب السلطان الذي قرّبه إليك سابقُه "نجمة المماليك المنيرة" الذي زينوه في نفسك؟ لا منصب أغلى ولا أعلى في البلاد منه. أم ارتعبت من الحصان الحُرِّ من اللجام الذي قذفتَ بنفسك إلى صهوته؟"

تطلع قلاوون إلى سلامش الواقف إلى يمينه، ورمى إلى مَن على يساره سعيد النظرة الخفية نفسها. ذكّره مظهر كلٍّ منهما وطريقة امتطائه الحصان ببيبرس. سعيد، وإن كان يشبه بعينيه وأنفه أمه التي رحلت عن الدنيا قبل عام، فهو يشبه أباه بظهره المستوي ورقبته المديدة. وإن ناديت سلامش بعد بضع سنين باسم بيبرس فلن تُخطئ. "هذان، لو أذنبتُ بحق أمهما، فمن حظهما وحظي أن عدتُ فوصلتُهما ثانية إليّ، ولم أتّخذهما عدوين. وفي العالَم الآخر، ماذا كنت لأقول لوالدهما بيباريس إن التقينا، وبأيّ عين كنت أنظر إليه؟! كنت سأجد ما أقول له وما يقول لي بشأن منيرة، لا أرضخ لما فعلت إذ يخيل إليّ أني لم

أتصرف على نحو صحيح مع المرأة. لو عرفت أن المسكينة كانت هشّة إلى هذا الحد، ولن يوقفها شيء عن قرارها لأطلقتُ سراحها هي الأخرى من الإقامة الإجبارية؛ أما كانت زوجةَ صديقي الأكبر، زوجةَ سلطان، أمَّ الولدين اللذين معي؟ لو لم يُصرّ راسم وبرقت على موقفهما، ولولا تشبُّث الإمام عماد، لحملت المجلس الاستشاري على إطلاق سراحها... هذان، وإن لم يقولا لي شيئاً بشأن أمهما ألا يحملان في نفسهما عليّ؟ "

أوقف قلاوون حصانه حين رأى وهو نازل من المقطم طرف الشمس الحمراء المستديرة تتسلل إلى وراء كومة الأحجار العالية التي ترتفع عن الأرض. وانقطع صوت حوافر خيل الحراس الخمسين من ورائه، وقال السلطان:

– لنشكرْ الله على يومنا هذا! وهو يودعنا. اقتربْ يا عزيز وقل شيئاً بشأن هذا المنظر الحزين الجميل أمامك.

– يا ربّ ابعث لنا ليلك المريح، واجمعنا على خير في غدك — ابتعد عزيز، شاعرُه منذ العام الماضي، عن رفاقه الفرسان، ونظم كلماته الحبيبة بصوت جميل — نخطب لسلطاننا قلاوون أن ينمي أسرته، ويقلَّ أعداؤه، وتغلب عليه رجولته، ويبقى يقودنا طويلاً طويلاً.

– آمين! — ما إن قالها أحدهم حتى ردد الجميع معه. والسلطان قلاوون الذي ردد معهم تظاهر متصنعاً القسوة، مع أنه كان مرتاحاً للدعاء، فنصح شاعره:

– كان الأفضل ألا تضيف الفقرات الأخيرة إلى الخطاب. — وبعدما مشى من صدّق رياء السلطان ومن لم يصدّق جنباً إلى جنب مسافةً، سأل السلطان دون أن تعرف إلى أيٍّ من ربيبيه يوجه السؤال: – ألا تشعران بشيء من الاكتئاب لحظة غروب الشمس؟

– لا أعرف نظرة سعيد إلى المشهد غير أني من جهتي ينفعل قلبي – أجاب سلامش بسرعة كأنه كان ينتظر السؤال.

– أنسيت أنك كنت ترتمي في حضن أمك ما إن يبدأ الظلام ينسدل؟ – سأل سعيد دون مواربة. وتنهد ربما لأنه أتى على ذكر أمه. ولكنه أضاف مخفياً تنهده – شروق الشمس وغيابها سيان عندي.

– هذا مستحيل – نصح قلاوون سعيد حذراً، ثم عاد فغيّر كلامه – ولماذا لا يمكن أن يكون لك هذا الموقف الشخصي من شروق الشمس وغيابها؟ ها أنتما، مع أنكما شقيقان، لا يتطابق رأياكما. ولكن هذا لا يعني ألا تتفاهما، وألا يحرص أحدكما على الآخر.

– ما قاله سعيد صحيح في رأيي، يا موفد الله. كنت أخاف من الظلام في صغري. ولكن لحظة غروب الشمس، لا أعرف كيف أعبّر، ينفعل قلبي بطريقة مختلفة عن الماضي. سعيد، ليس قلبه كما يقول، لأنه يتصنع الرجولة، أليس هكذا يا سعيد؟

– كفى، ما أكثر ما علّقت على كلامي – تظاهر سعيد بمعاندة أخيه الأصغر، وأفهمه كما يريد – إن كان هذا رأيك فليكنْ! نحن في دنيا فانية كما كان أبي وأمي يقولان.

– إن كان هذا رأي الأخوين – تعمق قلاوون في كلامه – إذن تتطابق آرواؤنا ثلاثتنا. ولسنا وحدنا. وسأقول اسم رابعنا: والدكما.

– كان والدنا يحب رؤية الشمس المشرقة ومحادثتها.– حين قال سعيد هذا فجأة خُيّل إلى قلاوون أن الصوت الصادر من الظلام قد تمزّق، فسأل بنبرة خاطفة:

– وأنت من أين تعرف هذا؟

– كان يوقظني في صغري ويُريني المنظر راكباً على كتفيه.

– بأي لغة كان يكلمها؛ بالعربية؟ – سأل قلاوون يتحرى الموضوع وقلبه يتفطر ألماً راغباً في أن يكشف سعيد ما يعرفه قلاوون نفسه.

– كان يبدأ بالعربية "لما كان مسقط رأسي الذي سُبيتُ منه في جهة غروبك فخبريهم أني ما أزال حياً وبلغيهم سلامي" ثم ينتهي بالشركسية.

– وأنا حين قررت أن أتعلم الشركسية لم تقبل أمي! – أسرع سلامش الذي كان ينصت إلى الحديث.

– ربما لم تكونا متفقين – حمى قلاوون والدة الشابين الراحلة، وامتدحها – حين كنت أقول لها أحياناً كلمة أديغية كانت تبتسم لي مُشعِرة إياي أنها فهمتها.

– كانت أمي تقول لبابا أحياناً بضع كلمات شركسية وإن لم أعرف معناها "لا تصدع رأسي" "أيها الحامي الطباع" "يا نزِق".

– أحقاً كانت منيرة تقول للسلطان مثل هذه الكلمات؟ ! – سأل قلاوون غير مدرك ما وراء الكلمات. وفيما هو يقول لنفسه "الآن أفهم لماذا كان بيبرس المرحوم محبَطاً من ناحية أسرته" أيّد سعيد ما كان يتوجس منه.

– نعم كانت تصدر منها مثل هذه الكلمات حين تحتج غاضبة؛ ما الأمر؛ أهي كلمات سيئة؟

– لا، ولماذا تكون سيئة إذا كانت من لغة والدكما الشركسية... لم أعرف أن منيرة تعرف كلمات من لغتنا.

– وأنا أعرف كلمات شركسية – تدخّل سلامش ثانية في حديث أخيه والسلطان، ونطق بضع كلمات: – "قامة" "سيف" "أعطني ماء" "كن مهذباً".

– هذه كلمات شركسية حقيقية. – قال قلاوون راضياً، ثم سأل – من علّمك إياها؟

– أخواي الصغيران علي وخليل، وبيبا السيدة الكبرى.

– أيكون ابناي حفظا ما أقول لهما بالشركسية؟ – مزح قلاوون مع سلامش كأنه لا يصدق ما يعرفه، وكلفه بمهمة – إذن اشكرْ باسمي أخويك الماهرين بالشركسية. وأنا سأشكر السيدة الكبرى – قال قلاوون في نفسه "يبدو هذا الحديث الذي نبت بيننا فجأة حسناً، ولكن أنكون نزرع في نفس سعيد غيرِ المشارك في الحديثِ الشكَّ في أمه؟" ثم سأله ليكون شاهِدَه – أليس صحيحاً يا سعيد؟

– طبعاً يا موفد الله، ليس سيئاً أن تعرف لغةً أخرى إلى جانب لغتك، ها نحن لا نعرف لغة أعدائنا الصليبيين أو المغول. والفارسية والتركية أيضاً.

– صحيح، ليس هناك لغة لا حاجة إليها – أضاف قلاوون ما يريد، قائلاً في نفسه: "لو أضفتَ اللغة الأديغية إلى اللغات الكثيرة التي عددتَّها لسررتني" – أبوك وأنا تعلمنا العربية فلم تضرنا إن لم تنفعنا.

– نعم، حقاً يا موفد الله، هذه فائدةُ ما أجبروكم على تعلمه – قال سعيد حذراً، ثم أضاف لنفسه ما بقي في ذهنه من كلمات أمه "ليتكم ما جلبوكم إلى مصر، وليتكم لم تتعلموا لغتنا".

– وفي الإجبار فائدة، لم نكن أحراراً كما ترانا – أجاب قلاوون قائلاً في سره "انظر هذا التلميح منه، أهو كلامه أم كلام أمه" وغيّر الموضوع بسرعة – لنمضِ! الشمس غربت، والصلاة بانتظارنا، لنسرع إلى البيت.

مضت سنتان ونصف فترةَ سلامٍ لا يتذكر الناس مثلها في مصر وهي المدة التي استلم قلاوون الحكم فيها بدلاً من سلامش بحجة الحرب. تنفس الناس الذين

كفّوا عن التفكير في ما قد يحمله الصباح أو المساء، الليل أو النهار، أو اليوم التالي من أهوال، الصُّعَداء. والأسواق ازدهرت، والأعراس كثيرة، وأصوات الأطفال المرحة ترتفع إلى السماء ، والسفن على النيل تزداد، وسباقات الخيل انتعشت، والناس في الشوراع بوجوه طلقة، ويرتدون ملابس حسنة.

ولم تأت بين السنتين التاليتين، خلافاً للسنوات الماضية، سنةُ مَحْلٍ. وأخصبت الأرض في نصف السنة الماضي فجنى الفلاحون نتاجاً جيداً. ويجهزون للموسم الثالث. وخبز القمح المبارك كثير في كل مكان. والدكاكين مترعة بالبضائع. والناس المبتهجون بحياة السلام يعمرون البيوت. وينظفون الأراضي. ويمدون السواقي إليها. والناس يربطون بين حياة السلم وبين قلاوون وأصله الأديغي ولو أنه لم يساهم بشخصه كثيراً. ويدعون له في الأفراح والمآتم، وفي سباقات الخيل، والجوامع، وفي كل المحافل.

ولم يمنع هذا الاستقرار قلاوون من أن يحرص على حماية بلاده. يدير شؤون البلاد بشخصه وأسرته دون أن يُبرز شخصه، حريصاً على توطيد الوضع، غير متذرعٍ بكونه سلطاناً، وبأن كل شيء في يده ورهنُ أمره. وأضاف إلى خمسة الآلاف من مماليكه الشخصيين خمسة آلاف أخرى. وكان أكثرهم من الأديغة، يبحث عنهم في كل مكان. ومن أجل أن يكسب ودهم كان يُحسن إليهم كثيراً من ملكه الشخصي: يُقطع من يؤسس أسرةً القطعة التي يستطيع استثمارها من ملكه الشخصي. ويضيف إلى راتبه الشهري نصفه. ويسرح الجندي المملوكي الملتزم بجيشه في سن الأربعين، ويتفق معه على استدعائه وقت الحاجة بمقابلٍ معين.

هذا جانب. والجانب الآخر كان مرتبطاً بأمور البلاد، لا بشخصه هو. كان، كما علّمه بيبرس، مطلعاً على كل ما يحدث في البلاد اليوم أو العشية، – ولم

يكن لمشاته وفرسانه المستطلعين أي راحة. وكانت عيون السلطان وآذانه موجهة إلى خان المغول أباقا بن هولاكو الذي يستعد للزحف من إيران، أكثر من اتجاهها إلى الصليبيين. كان أباقا ينوي ما منع بيبرس أباه من تحقيقه ويحضِّر جيش منجي – تيمور للزحف على سورية. ولا يتراخى قلاوون عن متابعة هذا الخطر ولو أنه لا يثير حوله ضجيجاً: برقت،أمير الشام التي على طريق إيران، مطّلع على الأمر. والجيشان المساندان له صارا على الطريق. وهو جاهز لركوب الطريق في اللحظة التي يتم إخطاره فيها.

ابتسم قلاوون حين تذكر زحفهم قبل أعوام على كيليكيا الصغرى لمحاربة الأرمن بناء على تخطيط سعيد وأمه: "ماذا كان بيدي؟لم أكن في وضع يسمح لي بمجابهة السلطان.كان ذلك العام ملهاة– مأساة. والعجيب أن أباقا خان لم يهاجمنا. ربما لم يكن مطلعاً على أحوالنا. لو هاجمنا لتجاهلتُ أقوال السلطان وأفعاله، ونفذت مهمتي كقائد جيش متمثلاً ببيبرس، ولو أن وضعي كان كوضع الحمار "لما سألوه من أبوك؟ أجابهم: الحصان عمي". ما أشبه الحياة بحبل معقد صعبٍ فكه. سامحني على ما فعلت بابنيك يا بيبرس. نفذت لك ما رجوتني من أجله في شيخوختك في اللحظة نفسها أمام جثمانك، ولكن سعيد لم يكن صالحاً للسلطنة بسبب إفساد منيرة له. والآن ضممتُه إليّ، ويعيش معي، سأراقبه وسأمنحه مهمة يصلح لها. أما سلامش فلا تقلق لشأنه، أظنه مشروع رجل. ويذكرك دائماً بالخير. ولما كان صبياً جداً على استلام الحكم الذي نصبتَه له وجب عليّ أن آخذه منه وأقوم أنا به؛ ليس لأني كنت أشتهي منصبك، بل فعلتُ هذا لأننا نحن الأديغة وجدنا أنفسنا في وضع حرج أمام أعدائنا القبجاق والإسماعيلية. ولكن إن كنت تأمل حين يكبر سلامش أن أعيد تنصيبه فأصارحك أن هذا ليس بمقدوري. وكما قلت لك: لما كنت آمل

من سلامش أن يصبح رجلاً موثوقاً فلن أتركه دون منصب في مصر. ثق بي، وإن كان هناك ما لا تثق بي فيه فاغفر لي. أنا راض، وليفتح لك الله باب الجنة حيث رحلت. — حين صحا قلاوون من أفكاره وقد نفّس عن ضيقه قال لنفسه بوجه شبه باسم لا تشوبه أي ضغينة: حسنٌ أني لم أُخبره كيف رحلت منيرة... حين يلتقي الزوج والزوجة ليحلّا مشكلاتهما بنفسيهما !"

VI

لا يتحقق كل ما تريده في الدنيا. وهذا من حسن حظ الناس. أفي الدنيا إنسان يغيب الشرق والغرب ،الشمال والجنوب، عن خياله وأفكاره؟ إذا كان من لا يحب السكر يحتاج الملح فلماذا تستغرب إن كان هناك من يفضّل ساعة أسرار الليل على ساعة انكشاف النهار؟ إن لم يبق في عين الإنسان وفكره ما هو عجيب، فلْيعشْ يستوي عنده مهما حدث في الدنيا، ما دام يجد وسائل عيشه، إن كان الجو حاراً في الجنوب، وبارداً في الشمال، إن أشرقت الشمس أم غابت، أو هبت الريح أو أرعدت السماء أو برقت؛ لأن حياته بلا معنى.

ليس غريباً أن يعيش أناسٌ يفكرون في إبدال الشرق بالغرب، ومن ينوون قلب منابع الأنهار، ومن يفكرون في تحويل مشرق الشمس ومغربها، ومن يحبون إغراق الدنيا بدماء الحروب، ولكن أمثالهم معدودون. ومن في قلوبهم الخير أكثر. ما يفعله الإنسان لنفسه من نفسه، خيراً أم شراً، لا يستطيع أحد أن يفعله له. الدواء والمرض يحومان حوله. وحين يُنهي طريق حياته يذكرونه تبعاً لما قال أو فعل، كالحصان حين يموت يبقى نعله تحت حافره، والإنسان يبقى اسمه. ليست مراحل حياة الإنسان مهمة – حسب القياس هي طرق طويلة وطرق قصيرة. والإنسان لا يرى نهاية الطريق في بدايته غير أنها تتسمر أمامه دون أن يعرف من أين سقطت في يوم تعاسة. والموت لا يميز شاباً من عجوز لأنه بارد مظلم لا يعرف الرحمة، ولا غنياً من فقير، ولا شجاعاً من جبان. — لا أحد يفلت منه.

سلامش نما هذا العام جسماً وعقلاً بحيث لا تتعرفه؛ صار في الثامنة عشرة. وخطا أخوه سعيد عامين فدخل في الخامسة والعشرين. ليس عمرا الأخوين كبيراً فتستطيعَ أن تتكلم عليهما. ولكن إن قارنتَ ما عاشاه بأبيهما حين صار

سلطاناً، فقد استلم الأب السلطنة في السابعة والثلاثين. حقاً إن ابني السلطان بيبرس الرجل الطيب الضخم مارسا السلطنة ولو لم يكن عندهما إنجازات هامة. وبقيا في تاريخ مصر ولو أنهما أُجبرا على ترك المنصب بعلمهما أو بغيره، وإن ضمهما قلاوون إليه ويؤدي لهما ما لا يؤدي إلى أولاده، فهل السبب أنه يكفِّر عن ذنبه، أم يُكرم صديقه الراحل، أم يخجل من كلام الناس؟

هذه وغيرها من القضايا تدخل في أفكار قلاوون. ولا يغيب عن ذهنه، سواء أكان يدين نفسه أم يبرّئها أم يلومها، أن أسرة بيبرس تمزقت وأن فارسيها لا يتفقان. ينصحهما ويلاطفهما، وفيما يظن نفسَه أصلح بينما يجدهما تخاصما. ولو أن تنافُر الأخوين كان يبقى في البيت ولا يخرج من الدار لظل الأمر مقبولاً. ولكنه يصل إلى الشارع، ويدخل في أفواه الأعداء، وتنتشر الأقاويل في البلاد، ويَسمح للأعداء الباحثين عن نقاط الضعف أن يرفعوا رؤوسهم.

كما في الأسابيع الماضية اشتبك سعيد وسلامش. بدأ الكبير، ولم يسكت الصغير:

– أعرف أنك الأكبر وأني الأصغر يا سعيد – قال سلامش وهو يغلق دفتي الباب الشبكي. – ولكن أمور البلاد لا تعترف بالكبر والصغر. انسَ أنك كنت يوماً سلطاناً، ودعنا نقف إلى جانب صديق والدنا قلاوون، ونوافقه على ما يقول، ونفعل معه ما يفعل. وربما يصل عقلي إلى أمور لا تصل أنت إليها ولو كنت أصغر منك. اسمعْ كلامي.

– ما وصل إليه عقلك تجاوزته منذ زمن بعيد. – ردّ سعيد بقسوة على أخيه دون أن يرفع رجلاً عن رجل، كما يحب، أو يحل يداً عن أختها فوق صدره – حكمتُ مصر أكثر من سنتين. ولن أضع نفسي، كما فعلتَ أنتَ، تحت

قدمي من انتزع منك السلطة ودمّر حياتنا في الوقت الذي أودعْنا أنا وأمي أملَنا فيك. ألم تفهم أنه أجبر أمَّنا المسكينة أن تشنق نفسها؟ – انفجر سعيد.

– كفى ! كم مرة قلت لك ألا تبكيَ أمامي! – نهر سلامش أخاه مصلِّباً عنقه الطويل وكتفيه، وأمطره بأسئلته – ماذا ينقصكم؟ ألا يكفي كم أهنتما والدنا؟

– اسمع ماذا قال لي! – نهض سعيد.

– قلت لك لأنك أرهقتني – تصدى سلامش لأخيه الأكبر، وقال بصوت ألطف – لم يدّخر قلاوون جهداً. يلبي لنا ما نطلب، ولا يُنسينا والدنا.

– وأمُّك، أمُّك، ألم تنس أمي؟ – اندفع سعيد فقاطع كلام أخيه.

– ليس في العالم من يُنسيني أبي وأمي، إلا الله – جزم سلامش باختصار وغمغم وهو يعود إلى مجلسه – تفني نفسك وأنت تردد هذا الكلام.

– لا أفني نفسي! – أفكر في ما فعلوه بي أنا وأخي الأصغر، وماسيفعلونه بنا. أعمل على حماية أنفسنا. وليست أحوالنا على ما تظن. – رجع سعيد إلى المقعد الناعم الذي كان قفز عنه وأضاف بصوت الواثق – قابلَني قبل أيام بضعةُ أمراء، وأنا كلَّمْتُ غيرهم، والآن سأقابل غيرهم اليوم وغداً.

– ما الذي تحوكونه؟ ماذا تقول لهم، يقولون لك؟ – تعرّق قلب سلامش مما سمع.

– أنتركهم يسلبوننا السلطنة التي ورّثنا إياها والدنا؟ أنتركها لابني قلاوون الثرثارين علي وخليل؟

تألم قلب سلامش من الأسئلة التي تدفّقَت ممن لا ينتظر. ولكنه سرعان ما عاد إلى وعيه وإن انقبض في البداية: " كنت أظن أن سعيد الذي أراعي عمره استخلص حكمة مما مرّ عليه من أحداث، ولكن ما يفكر فيه تدبيرُ مَن لا

عقلَ له... إن سمع قلاوون ما يقوله وما يفعله؟ سيعيده إلى حيث جلبه منه. ولكن الأمر لن يتوقف عند هذا الحد..."

– ولماذا أطبقت فمك الآن؟ ألم تسمع سؤالي؟ – نظر سعيد في وجه أخيه مرتعباً من الترتيبات السرية التي طرحها، ولم يستطع أن يكتم عدم رضاه – عرفت أنك لن تقف معي...

– لا تخطئ في هذا. ولكن لم تقل لي شيئاً ولم أسمع. لا تدع الناس يقولون إن صراعاً نشب بين ابني السلطان بيبرس، ولْنحمِ وجهه وإنسانيتنا. لا ندعِ الناسَ يقولون: خيرٌ لك أن يكون عندك مئة عدوٍّ على أن يقيم معك في البيت عدو واحد.

– أقول لك يا أخي الأصغر: لماذا سمحت لهم أن يخدعوك في شأن سلطنتك ما دام عندك مثلُ هذه الفطنة؟ – قال سعيد مبتسماً ثم هدّأ سلامش الذي كان يتهيّأ للانقضاض بعينيه الجاحظتين – كفى، كفى، لم أقل لك شيئاً، ولم تسمع شيئاً. ولكني أعرف ما سأفعل...

قطع علي وخليل اللذان فتحا الباب بصخبٍ كلامَ سعيد. وسأل عليٌّ الذي يلف على معصمه سوطاً فضياً:

– لماذا حبستما نفسيكما في الغرفة؟ دعونا نذهب إلى سباق الخيل! نهض سلامش للتو وقد وجد حجة ممتازة، وقال لأخيه الأكبر:

– تعال، لم تحضر سباقاً منذ زمن بعيد.

– اذهبوا أنتم. اتفقنا أنا والشاعر عزيز أن نلتقي بعد صلاة الظهر. – وجد سعيد الحجة للتخلف عن سباق الخيل. "ما حاجتي إليكم وأنتم لستم من جيلي"– أضاف لنفسه.

– وأنت هل تنظم شعراً؟ سأل خليل.

– لا، ما الذي يجعل مني شاعراً؟ بل من أجل مناقشة إحدى سور القرآن الكريم.

– وعزيز ذهب مع السلطان لحضور السباق – قال علي أيضاً ما يعرفه.

– هكذا؟ – تظاهر سعيد بأنه يسأل – اذهبوا أنتم إذن، وأنا سأنتهي مما أقرأ من القرآن على روح أبي وأمي.

في أحد الأيام دخل سعيد والقرآن على صدره إلى غرفة قلاوون. وحياه برأسه، وقال له:

– يا سلطان مصر المنصور سيف الدولة قلاوون جئتك برجاء.

– لا تقف على الباب؛ اجلسْ!

– لا، يا موفد الله. مكاني مناسب لي. أأجلس في حضرة سلطان مصر؟ !

– حياك الله يا سعيد على احترامك للسلطان. ولكن لبِّ لي طلبي كما تلبي لوالدك. – حين أجلَسَ قلاوون سعيد أمامه أفهَمَه أنه لم ينطق بما هو مُستهجَن في شأن الجلوس في حضرة السلطان. – يقول الأديغة، حين يقول لك الكبير: اجلسْ، فلن يعود ويغتابك، لذا ارتحْ في جلستك. ماذا تريد أن تقول بطريقةِ ضمِّك للقرآن إلى صدرك؟

– من أجل هذا القرآن العزيز الذي أنزله الله جئت إليك يا بديل الشمس. أريد أن أحج إلى الكعبة الشريفة وأنا مؤمن بهذا القرآن، حافظٌ له في قلبي.

– هل كل من يحجون يتوسلون؟ – "أظن أن لقاءه ببعض الأمراء جعله يرتعب نوعاً ما من جديد. ولكني لن أخبره بأن ثِقاتِه وشَوا به إليّ ". سأل قلاوون وهو يبتسم في سره.

– لا أريد أن أركب طريقاً دون علمك يا موفد الله. ثم إن أغلى رجاء لي يأتي مع هذا – قرّب المصحف إلى جبينه وقبّله.– سيسرني أن ترسل معي باسمي وباسمك قطعة القماش التي يُغطى بها الحجر المقدس المنزل من الله تعالى.

– لا حاجة إلى الرجاء من أجل ما آمنت به. إن سافرت فستعود وقلبك أكثر ارتياحاً.

– حياك الله، ولْيرضَ عنك يا بديل الشمس.

– سنفكر معاً أنت وأنا في موضوعين متى عدت من الكعبة.

– وأي موضوعات؟ – نظر سعيد في وجه السلطان مرتعباً.

– أحدهما موضوع يتعلق بالبلاد –لم يُظهر قلاوون الثقة التي يراها في ابن صديقه – والآخر ليس سهلاً عليك وعلينا، موضوع أسري.

– هكذا؟ – عاد الدم إلى وجه سعيد الشاحب – لاحقاً، في وقت آخر.

– وأنا لا أقول في هذه اللحظة. حين تعود من الكعبة.

في اليوم نفسه، اجتمع السلطانُ قلاوون والأمير سلامش في أرض الدار اللطيفة الجوِّ.

– تحدثت اليوم مع أخيك الأكبر؛ أتعرف أخباره؟

– لا يا موفد الله – سأل سلامش رغم أنه قال لنفسه: "أيكون السلطان يعرف ما تحدثنا به قبل أيام؟!" وارتعب – أحدث له مكروه؟

– يحج.

– هذا كان يجب أن يؤديه منذ زمن بعيد. كان قلبه سيلين على كل حال.

– وأنت ترى هذا؟ – نظر قلاوون بعين راضية إلى سلامش، ثم سأله: – أتعرف شيئاً عن سعيد لا أعرفه أنا؟

– ما أعرفه عنه تعرفه أنت أيضاً يا موفد الله؛ أليس أخي الأكبر! يحزنني أنه يسمح لهم أن يدنّسوه.

– حياك الله يا ولدي – قال قلاوون عبارة "يا ولدي" بالأديغية لسلامش – ويسرني أنك حين لم توافق على ما يُسرّه أخوك.لم تركض إليّ تخبرني عدم موافقتك، وأعدّه رجولة منك. وسأغفر لسعيد ذنبه. وربّما يعود من الحج سأبعد عنه الأمراء المقربين منه. ولكن إن عاد ثانية إلى خيانته، ستكون نهايته بنفسه على يدي، والله سيغفر لي.

VII

لن تفهم طبيعة السوق الشرقية إن لم ترها، وتشتر منها مرة: البائع والشاري يبحث كلٌّ عن مصلحته. ومَن جيبه مليء ومَن جيبه خاوٍ يحدوهما الأمل. هذا يخرس كل شيء، وذاك يغتني. إن كنت تحمل مالاً – فأنت فارس فيها، وإلا اكتفيتَ بالاشتهاء.

ما الذي لا يباع في أسواق القاهرة؟ تجد فيها إن كنت محتاجاً من التراب الأسود، إلى التراب الأحمر، إلى التراب الأصفر... وانتهاء بقطع من الذهب.

– ليس في القاهرة ولا في الدنيا كلها مثلُ ذهبي أنا !

– إن يشرب العجوز من مائي يرجعْ شاباً، والشاب يتحقق له ما يريد.

– هذا السيف كان للملك الصالح الحاج أيوب السلطان، وبعده للظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، ثم للمنصور سيف الدين قلاوون الألفي. من يشتره مني يزد من شجاعته، وحظُّه دائم السعد. أقول لك ما أعرف. ولا أتكلم على ما لا علم لي به. لا تتجاوزوه ! ستعودون إليه.

– ما الذي يقوله هذا؟ – توقف قلاوون المرتدي جلباباً طويلاً متسخاً وسأل سلامش المرتدي مثله – إنه يذكر اسم أبيك واسمي؛ تعال لنرى!

– وإن عرفك؟

– تعال، تعال. إذا كان فرسان الأمير مغرب الذين واجهونا لم يعرفونا، وظنونا طالبي صدقات، فلن يعرفنا هذا.

كان من عادة السلطان قلاوون ارتيادُ السوق مرة في الشهر بلباس فلاح من عامة الناس. واليوم فعل هذا برفقة سلامش. وكان يسأل عن أسعار الذهب والأغذية والملابس وغيرها وإن لم يشتر منها شيئاً ذا بال. ومن كانوا راغبين في أن يشتري منهم كانوا يقابلونه بالترحيب. ومن ير ملابسه الرثّة وهيئته المنفرة لا

يجيبونه. وليسوا قلائل من كانوا يعطونه كسرة خبز أو يمدون إليه كأس شاي. ومنهم من لم يكن يسمح له بتخطي عتبة دكانه.

مظهر الرجل الذي كان يردد أسماء سلاطين مصر لفتَ نظر قلاوون السلطان: كانت الكتف اليسرى للرجل الضخم الذي غرز السيف الوحيد أمامه مبتورة. وله رجل من خشب.

– سيفك له تاريخ طويل، لا أعرف إن كان صحيحاً؟ – مزح قلاوون مع الرجل الضخم المتعرق الوجه.

– لا أقول ما ليس صحيحاً، ولا أتكلم على ما لا أعرف – جزم الرجل المعوق.

– أيكون مُلْكَ هؤلاء الذين تذكر أسماءهم؟

– إن كنت تحتاجه فاشتره، وإلا فاغرب عن وجهي، لا تعطّلني. – حاول الرجل المبتور الكتف أن يكظم غضبه ولكنه اهتاج. ثم رجع ولامه مقارِناً من نَهَره بنفسه: – أنظر إليكما فأراكما لستما أغنى مني. لو بعته لتصدقت عليكما عن روح أبيك وشجرات. أتتذكر أنه كان عندنا أمثال هؤلاء السلاطين؟

– وكيف لا أتذكر وأنا ابن مصر وأعيش فيها؟

– حقاً؛ مضى زمان من هذا النوع... دفعت في خلاله يدي ورجلي. ولكن لم يقل لي أحد لاحقاً: ما عيشتك وكيف تدبر أمورك. لا أقف على الشارع أمد يدي للناس ولو بقيت دون أسرة. أخدم نفسي بما لم تقدمه لي البلاد. هذه السوق، وهذا المكان تحديداً مكان عملي. وهذا السيف مورد رزقي. أعمل، أعيش بما أكسبه.

– عرفت من أول نظرة أنك إنسان صالح ولو أن الحزن يغمرك؛ ما اسمك؟

– لو كنت أعيش على قدر اسمي... – ضحك ضحكة خشنة ونطق اسمه: – ينادونني: أتا مراد.

– اسم جميل وغني. وليس سيئاً أن تنوي أن تكون أباً للتركمان. – مزح قلاوون مع من تقرب إليه، وأضاف بسرعة: – الآن فهمت لماذا تريد أن تُحسن إلى ابني قومك أيبك وشجرات.

– طبعاً – ارتفع صوت أتا مراد ثانية لا إرادياً – الأمراء المماليك الشراكسة تحالفوا واحتكروا السلطنة لأنفسهم. وأنتما؟ ما اسماكما؟ وما أصلكما؟

– ونحن لسنا دون أسماء حتى لو كنا نعيش ومنزلُنا حيث نلقي عصانا، وموطئُ أقدامنا طريقنا. وأنا اسمي قريب من اسمك: أبو، والشاب المرافق لي: جانتَمر.

– إذن كلاكما عربي. حسنٌ أنكما لستما من الشراكسة.

تبادل قلاوون وسلامش نظرة خفية. وابتسم أتا مراد لأنه فهم أن الشاب لم يُعجبه ما سمع:

– أقلتُ ما لا يجوز؟ أتكون أنت شركسياً؟

– قد أكون شركسياً وعربياً وتركمانياً، غير أني لست ممن يفرقون بين الأعراق!

– جابَهَ سلامش على غير توقعٍ الرجلَ المعوق دون إشفاق – اِمضِ!

– توقفْ قليلاً أيها الشاب! – غضب أتا مراد – أأنت أعقل مني حتى تهينني وتربيني؟ ! لو كنتَ حقاً عاقلاً لما تسوَّلْتَ في الشارع وكيسك على ظهرك!

– يا أتا مراد – لو عرفت أنك ستسمع كلمتي – قال قلاوون بصوت حاسم هادئ – ما كنت سمحت لك أن توجّه كلمتك الجارحة الأخيرة إلى هذا الشاب.

– ما الأمر؟ أرفيقك ابن إله؟ – لم يكن أتامراد الذي شعر بالإهانة ينوي السكوت: كانت كتفه المستأصلة تنتفض رغماً عنه، وعيناه على السيف المغروز أمامه كأنه سينتزعه بين لحظة وأخرى.

– هذا الشاب الذي معي ليس بعيداً عن أن يكون ابن إله يا أتامراد، إنه مهذب ومتعلم – أجاب قلاوون بهدوء – أجابك على قدر كلامك ولم يكن ينوي أن يهينك أو يربيك. أليس كذلك يا جنتمر؟

– نعم يا أبو – لم يجِد سلامش عن الكلمة التي سببت هذا الهرج رغم أنه وافق السلطان مؤدياً دوره ببراعة – ولكن لا أتراجع لأن في كلامي شيئاً من الصحة.

– بالله عليكم، كفى – ظهر من صوت الرجل الضخم أن سورة غضبه هدأت – لو كانت الدنيا مركبة من الصدق الصِّرف لربما لم يحدث لي ما حدث. أعجيب أن قلت "أنا تركماني" و "أنت شركسي"؟ وإخواني في العرق التركماني لم يُسعِدوني في ما حدث لي إن لم يدمروا حياتي. والسلاطين الشراكسة الذين استلموا السلطة من بعدهم لم يفيدونا. أتظنوني وحدي؟ مَن في مصر من أمثالي كثيرون. ما الذي نتكلم فيه؟ الآن فقط، وقد وقعتُ في موقف صعب، فهمتُ أن الجائع والشبعان، والفقير والغني، لن يتفاهموا أبداً، ولكن لا داعي لليأس.– أنا سليم، وعلى رجلي، وأتنفس. أتحمل ما حمّلني إياه الله. لا أشكو. لندعُ إلى الله أن يحسِّن حالكم وحالنا، يرحمنا. كفى كلاماً، يجب أن أبيع هذا السيف. وأما أنتما فليس معكما ما تشتريانه به. – رجع أتامراد يحاول بيع سيفه: – هذا السيف كان للملك الصالح حاجي أيوب، والظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، والمنصور سيف الدين قلاوون الألفي السلطان...

– مهلاً، لا تستعجلْ، لماذا لا نشتريه – قطع قلاوون ما كان يرويه أتامراد – كم ثمن السيف؟

– لم يصدّق أتامراد ما سمع. تفحص الرجلين ثانية كأنه يراهما أول مرة: "أنا بائع ماهر ولو كنت معوقاً، لست متسولاً مثلكما بكيس على الكتف. حتى لو كنت أضيف نصف قيمة ما أشتري فأبيع به لست سارقاً. إن نسبْتُ هذا السيف لمن لم يكن لهم فلست كاذباً، فهؤلاء أيضاً لم يكونوا صادقين. عاشوا حياتهم في صراع على السلطة والمال حتى أفنى بعضهم بعضاً. وكلٌّ حسبَ ما يستطيع أن يؤمّن به أسباب عيشه لأن هذا السلطان الشركسي الذي يحكمنا الآن ليس رجلاً يُعتمَد عليه..."

– أيكون رخيصاً السيف الذي كان في قبضة السلاطين الذين رحلوا والسلطان الذي لا يزال حياً؟ سأل أتامراد وأفكارُه تتصارع. وأضاف لهما وكأنه يقول: إياكما أن تندما – سأحسم من ثمنه شيئاً بسبب أننا ثلاثتنا متماثلون، وصرنا معارف. حين جلبوا سلطاننا الشركسي الحالي إلى مصر وهو صغير، أتعرفون كم كان سعره؟

– ومن أين لنا أن نعرف؟ – ابتسم قلاوون في قلبه.

– إذن – ضحك أتامراد من أعماق قلبه – سأسألكم سؤالاً آخر. لماذا أضفت وأنا أسرد اسم السلطان قلاوون لقبَ "الألفي"؟ أتعرفون ما معناه؟

– معناه "ألف قطعة ذهبية" – أسرع سلامش الذي ما عاد يطيق النظر إلى الرجل الجسيم المعوق.

– صحيح. إذا دفعتم هذا المبلغ، ليس ذهباً، بل دراهم فضية فسيف السلطان لكما. وأقول لكما إن ساومتماني فلن أتنازل إلا عن بضعة دراهم. أتستطيعون دفعه؟

– ولماذا لا نستطيع؟ – وسنضيف إليه أكثر مما وعدت أن تنقصه. أعطه ألفاً وخمسمئة درهم يا جنتمر.

– تدفع سعراً مبالغاً فيه – احتدّ سلامش للسعر غير المنتظر.

– اسكت! – تظاهر قلاوون أنه يعنّف الشاب، ثم نصحه – ألا يساوي سيف السلطان غيرَ هذا؟ إن سمعَنا أحدٌ وشى بنا.

– نعم، نعم، ما يُدري هؤلاء ما عانينا نحن، ما يزالون شباباً – وافق أتامراد الذي كان يعد النقود دون أن يرفع عنها رأسه – وُشاةُ راسم ومغرب كثيرون في السوق، في المطاعم، وفي الشوارع.

– ومَن هذان؟ – سأل قلاوون عن صاحبَي الاسمين وكأنه لا يعرفهما.

– ألا تعرفان هذين المجنونين؟

– وكيف نعرف؟ نحن قادمان من الشام.

– هكذا؟ ! لماذا إذن لم تخبراني إلى الآن؟ هؤلاء أنصار قلاوون الذي اشتريتم سيفه. – همس أتامراد لمن كانا يستعدان للانصراف – احذرا أن تقعا في أيديهم. يلاحقون اللصوص والمتسولين، لا يدعونهم يتحركون. حياكما الله، أمّنتما لي نفقة سنة كاملة. – وقال في إثرهم بقلبه "الشام التي قدمتم منها لها أمير ظالم. يقال إنه يجبر الناس على أن يوردوا الكلاب الماء. إن كان السلطان قلاوون أطلق مماليكه الشراكسة فسيحتلون العالم العربي بكامله..." – نحن التركمان سلمونا السلطة مرة واحدة فتحاملوا على أيبك حتى قتلوه. ومزقوا أسرته الجميلة. وألحقوا به أولاده.

ترك قلاوون وصاحبه سوق البُسُط الملونة، وبعد ما سارا مسافة لفتَ انتباههما صوت مألوف من ورائهما يقول "سأبيع بثمن معتدل سيفي الذي قطعتُ به عدداً من رؤوس الصليبيين إن كان هناك من يشتري":

– أتسمع ما يقول الآن؟

– أتامراد يقول الآن كلاماً صادقاً عن سيفه. — تابع قلاوون السير باسماً.

– إذن هذا السيف الذي اشتريناه منه كله كذبٌ في كذب. — غمغم سلامش — كان علينا الانصراف من عنده حين طلبتُ... جعلتنا ندفع له كثيراً من النقود عبثاً.

– لا تندم على ما فعلت! — قال قلاوون دون اهتمام — وهذا يجب أن يعيش. ألا ترى كيف بقي تعيساً يائساً؟

– رأيت. إنسان بائس كان الأفضل له ألا يعيش... ولكنه ظالم! أما سمعت ما قاله عن الشراكسة؟

– هذا ليس ذنبَه — جلس قلاوون على أول جذع شجرة مقطوعة صادفه. وأشار إلى سلامش أن يجلس على يساره. جلس قليلاً ثم أضاف إلى كلامه بهزة رأس: – نحن، السلاطينَ، المذنبون. ظللنا ندفعهم إلى الحرب وإلى حمايتنا حتى إذا أصيبوا بعاهات، ولم نعد في حاجة إليهم رميناهم في الشارع. يستحقون مهما فعلنا لهم. يجب أن نفكر في حلٍّ لهم.

– فهمت يا موفد الله إشفاقك على هؤلاء ورغبتك في أن تفعل شيئاً من أجلهم.– لم يستطع سلامش الآن إلا أن يكشف عما حزّ في نفسه وهو يوافق قلاوون بصوت أنعم. — صحيح، غير أنه أهاننا نحن الشراكسة.

– لا تكترث بما قاله لنا أتامراد، سامِحْه! أتعرف لماذا لا يطيق الشراكسة؟ لأنهم سلاطين ويمسكون بدفة الحكم. وإن استلم غيرنا الحكم سيحكمون عليه الحكم نفسه. الراجل يحسد راكب الجمل. هذا كلام صحيح.

– لا بأس إذن... – اختتم سلامش بعد وقفة قصيرة – بعدما نصّبتموني سلطاناً بعد سعيد لم يقبل رغم أني أخوه الأصغر. ولكني لم أحمل عليه حقداً لهذا السبب.

قضى قلاوون عدة أيام لا يفارق أتامرادُ ذهنَه وعينيه. يضحك من نفسه بنفسه كلما تذكر تاريخ السيف الذي اشتراه. وكلما تمثلت له تعاسة المملوك آلمه قلبه.

في الجمعة الماضية جمع عشرين من كبار الأمراء المستشارين. ولم يكن يرتاح نفسياً مع أنه أوصى أن يُدفع للمماليك مشوهي الحرب ما يعيلون به أنفسهم. كان مستعجلاً على إبلاغه بتعدادهم. وكلما فكر قلاوون بهم وبأمثالهم رغب في رؤية أتامراد.

استدعى قلاوون مغرب وقال له:

– هاتوا لي أتامراد الذي ذكرته لك قبل أيام دون أن تخبروه أنه ذاهب إلى السلطان.

– هذا الجني لا أظنه يأتي معنا من نفسه يا موفد الله إن لم نحضره مربّطاً.

– لا علاقة لي برأيك فيه! أحضِرْه حين أطلب منك إحضاره إليّ!

– قولُك قولي، وفِعْلُك فعلي يا موفد الله – خرج مغرب من الغرفة دون أن يولي السلطانَ ظهرَه.

VIII

إن لم تكن تعرف ما يجري في شرق بلادك وغربها، وشمالها وجنوبها، ولم تعرف ما تكتمه عنك الدول المجاورة فأنت أعمى وأصمّ. لم ينس قلاوون ما كان يقوله بيباريس: يأتيه راسم مرة في الأسبوع في وضح النهار.

– عرفت من وجهك أنك لم تحمل خبراً سيئاً يا راسم – استقبل قلاوون ضيفه بوجه طلق وإن كان مزاجه معكراً.

– لم أر يا موفد الله على مغرب الذي قابلته للتو شيئاً من هذا القبيل – أفهَمَ راسمٌ السلطانَ متصنعاً الضحك أنه ينفذ أي مهمة تُطلب منه.

– وهل لاحظت هذا أيضاً؟ – تظاهر قلاوون باستغراب ما يسمع.

– هل كنتم تُبقون عليّ في منصبي منذ السلطان الصالح وإلى عهدك لو لم أكن ألاحظ مثل هذه الأمور؟ – ندم راسم على ما قاله بشأن مغرب قائلاً في نفسه في حذر "لا أعرف إن كنت أجعل هذا الذي يبتسم في وجهي يثرثر أم أنا أثرثر".

– لا تمدح نفسك. لولا بيبرس لقطعت رأسك منذ زمن بعيد. – قال قلاوون، ثم مزح – ولكن من حظي أن الله وبيبرس تدخلا فكظماني. وإلا فأين كنت أجد مثلك؟ أتتذكر ونحن ذاهبون إلى كوثر في بغداد أن الصالح أرفقك بنا كي تتجسس علينا؟

– ومن أين عرفتما بالأمر. من ألقمكما الخبر يا بديل الشمس؟ سأل راسم عن الموضوع الذي مر عليه كثير من الأعوام وكأنه يحدُث اليوم.

– ألستم أنتم من يقولون "من لا يتنصت فهو أصمّ ومن لا يراقب فهو أعمى" لو لم تتصرفوا هكذا ما كنت أنت أيضاً شككت في مغرب. مهلاً، أظن أن مغرب يعتبر المهمة التي كلفته بها ليست من صلب مهامه.

– أنا لم أقل شيئاً لمغرب، ولا قال لي – أعاد الحذر الذي كان نسيه راسماً إلى وعيه – تبادلنا التحية ومضى كلٌّ في سبيله فحسبُ.. ولكن إن لم أقل لك أنا فمن يقوله لك يا موفد الله؟ لم يكن في وجه الأمير مغرب رضاً ولا دفءٌ. كنت أود أن أعرف – إن لم يكن سراً – ما الذي لم يعجبه.

– إياك بهذه الحجة أن تتبع برجالك مغرب! – رفع قلاوون رأسه الكبير – أنا واثق منه. إن كان بيني وبينك أسرار فالعادة أن تبقى بيننا. ما كلّفت به المرتزق بختيار ليس سراً. وهو الأمر الذي أوصيت المجلس الاستشاري للأمراء أن يصدره بشأن مشوهي الحروب من المماليك. تكلموا على رجل جسيم في سوق قيسارية فقد رجله ويده. وطلبت منه أن يوصلوه إليّ. – تظاهر قلاوون أنه لم ير ولم يكلم الرجل الذي أخفى اسمه – وربما سمعتَ أنت أيضاً خبره. لا يطلب صدقة بل يبيع السيوف.

"انظر كيف يكلمني مع معرفته أننا كنا نحيط به حين دخل السوق في ذلك اليوم وعلى كتفه كيس ووراءه سلامش. – ابتسم راسم – الوحيد الذي لا نعرفه عنك هو ما في قلبك. نعرف عدد خطواتك ليس في النهار فحسبُ بل في الليل أيضاً. أنت ماذا، نحن راضون عنك. بيبرس هو من كان شاغلنا، لا نعرف أين يقضي ليله وأين يفيق. جاءني رجالي بكل ما قلتَه لأتامراد وما قال لك، وشرائك منه السيف والمبلغ الذي دفعته إلى آخر فلس. ومع أنك كنت تعرف هذه الأمور فقد ظللت تقول لستُ سارقاً ولا كاذباً، وتجعلني أصدّق، وتعدّني عاطلاً عن العمل، تحدّق في عينيّ وتسألني" أجاب راسم على السؤال الموجه إليه بسؤال:

– ربما تقصد الجنّي أتامراد يا موفد الشمس.

– نعم، هو المملوك أتا مراد ذكّرتَني باسمه. وأنت هل تنادي هذا المملوك المعوق باسم الجنّيّ؟

– لستُ وحدي، كل السوق تناديه هكذا.

– حتى لو سمّته القاهرة هكذا فلابد أن يحضره مغرب إليّ.

– لن يجده مغرب على السوق.

– لماذا؟

– حبسته قبل أيام.

– هل سرق؟

– لا، يا موفد الشمس.

– هل قتل أحداً؟

– لا، يا موفد الله.

– لماذا حبسته إذن؟ بِمَ اتهمته؟ – ارتفع صوت قلاوون، وانتصب عنقه بسبب ما راوده من الشك، وهو الذي لم يعتد طرح الأسئلة المتلاحقة.

– أُبعدُه عن الناس لسلاطة لسانه.

– أتغلقون فمَ كلِّ من لسانه سليط؟

– أغلقته لأنه سليط اللسان يا موفد الله، لأنه كان يثرثر كثيراً، يلوك سيرتكم أنتم السلاطين، وسيرة الشراكسة. — بدأ راسم يندم على ما فعله قائلاً لنفسه "ماذا لاحظ على هذا الذي يصارعني لأجله؟ لماذا يحاسبني بهذا الإلحاح؟"

– مَن على دنيانا الآن ليس فمه مفتوحاً ولسانه سليطاً؟ – تظاهر قلاوون بالضحك وإن كان قلبه لم يعدْ يُعينه، وما سيقوله حاضراً. ثم أضاف بعد سكتة قصيرة: – ما العمل، لا فرق بين عربي وشركسي وغيرهما، كل الناس الذي لهم ألسنة هم من هذا النوع. نسمع حين يمثلون أمامنا مدائحهم. ونتألم عندما

يديرون ظهورهم من تجريحهم لنا. لا أقول لا تُرهبهم حين يقترفون ذنباً حتى يعرفوا قيمتهم. ولكن هذا لا يعني أن نحبس المذنب والبريء. موضوع المسكين أتامراد مختلف تماماً. ماذا كنا سنقول، لو كنا مكانه، لمن دفعونا إلى الحرب ثم أهملونا، وماذا كنا نفعل؟ يبدو لي أن الموضوع الذي جمعتكم من أجله يوماً كاملاً لم تَفهم جانب الرحمة منه. ماذا سيكون موقف الناس حين يسمعون أن مملوكاً بائساً مقطوع اليد والرجل دخل السجن لأنه يثرثر تنفيساً عن ضيقه؟ الآن حالاً، ولا أمنحك مهلة ساعة، مُرهم بإطلاق سراحه، ودعهم يأتون به إليّ معززاً مكرماً.

– لا أستطيع أن أفعل هذا يا موفد الله، سامحني — تراخى راسم المتصلب الأعضاء عادة في غمضة عين.

– ماذا فعلتم بالمحارب المملوكي؟ لم ينهض قلاوون بل قفز.

– قاوم حراسه فقُتل على أيديهم.

– راسم! — انتفض قلاوون كضربة سيف — اغرب عن وجهي، لا تدعني أفعل بك ما لا يليق بي!– ثم نادى في أثر من وصل إلى الباب بصوت غفور: توقف! — وقال لنفسه "أنا أعرف ما تستحقه". رجع قلاوون الذي كان نسي مسؤول المخابرات المُسمَّر عند الباب إلى وعيه بعدما ذرع أرض الغرفة بضع مرات، ثم قال وهو يدعوه إلى الجلوس في مقعده وكأنه ليس مَن سمع كل هذا التقريع: – لو كان كل شيء يجري في الدنيا كما تشتهي... عُد واجلس أنت أيضاً. لا تؤاخذني... لأنك لم تساعدني على تحقيق طلبي. ولكن استشِرْ أحياناً في ما تفعل.

– لم يتحمل الناس ما كان يقوله بحقك فوضعَنا في موقف حرج. من الآن سأحرص أكثر.

–لا يجوز الاستعجال في أي قضية. الأفضل ألا تفقأ الدمّلة التي لم تتقيح بعدُ.

– شكراً يا بديل الشمس. فهمت أن في قلبك رحمة عظيمة نحوي ونحو من تسبّبوا في موته. أنا سأحاسب المرتزقة الذين لم يسمعوا ولم يستشيروا.

– اتركهم ، لا تُعادِهم. إن اتهمت من كلّفتهم بالعمل فقدوا ثقتهم بك. — قال قلاوون وما في قلبه غيرُ ما على لسانه. — لنتناس الآن ما قلنا وما فعلنا، وأسمعني ما جئتني به من أخبار!

– كما عرفتني من وجهي فالبلاد بفضلك في سلام. وإذا ساد السلامُ البلادَ عاش الناس مرتاحين . وارتفع ضحكهم وغناؤهم. كل شيء بخير لولا أن المطر لم يهطل في مصر العليا، والنيل يضيق.

– موضوع المطر وزيادة النيل ونقصانه لسنا نحن من نقرره. بل الله الذي يتوسل إليه الجميع ولا يتوسل هو إلى أحد. ارحمنا يا رب وحقق لنا أمانينا في السلام. وأعِنّي على عمارة الجوامع والمشافي والمدارس في غياب الحروب.

– آمين ! — وافق راسم الذي كان الخوف يتراجع عن قلبه.

– وكيف يتصرف معنا المماليك البرجية؟

– رضخوا يا موفد الله.

– أأرهبناهم بسلطنتنا البحرية؟

– لا، يا موفد الله ارتاحوا إلى سياسة سلطانهم في البلاد فتحلّوا بالحكمة.

– لا تتعالَوا بهذه الحجة — ارتسمت على شفتي قلاوون الغليظتين ابتسامة دافئة – على المماليك البحرية. هكذا كما ترى تجري أمورنا. والمغول الذين صاهرتُهم في العام الماضي هل عادوا إلى الهدوء؟

– لا تؤاخذني يا موفد الله. تأمّلنا هذا ممن صرنا أقرباءهم ولكن من الصعب الثقة بهم. لا يتطابق كلامهم ونواياهم.

– لا أستطيع أن أحكم بهذا على "أسلون خاتون" ذات اللسان المعسول. هذه نهارُها شعاعُ شمس، وليلُها نور. على ما يبدو لم يتوقف إلى الآن أليخانات الفرس – المغول. لا ينسى أباقا – خان ما فعله السلطان بيبرس بوالده إذ هزمه شر هزيمة في فلسطين؛ يريد أن يثأر له. سنرى، سنرى، ونحن لسنا جالسين مكتوفي الأيدي. إن كانت سورية عالقة بقلبه فسنجعلها آخر أمنية له. ألا يستحق؟

– ليس يستحق فحسب يا موفد الله، بل لن يجدوا حتى عظامه. – تشفى راسم المهان من السلطان بالكلمات المغايرة التي في متناوله: "هذا الذي يكاد يلتهمني عاشق حرب وهو الذي يدعي أنه سلطان سلام، هذا يحتاج إلى مأتم من أجل أن يلطم خدوده"

– إذا كان العنيد لا يفهم ما يقال له فسيحدث له مثلُ هذا – لطم قلاوون فخذيه، واختتم قضاياه المغولية – اِمش إلى عمالنا لنرى أين وصلوا في بناء المشفى والمدرسة!

العمال محتشدون رغم حرارة الجو وضيقه حول المشفى والمدرسة اللذين يُبنيان حول الجامع في شارع المُعِزّ: ينحتون الأحجار، ويقطعونها، ويجبلون الرمل والتراب، وينصبون الأعمدة تحت القبة الحمراء التي تعلوها مئذنة. والدواب تأتي بالماء في أوعية من الجلد. وتُسمع أصوات الفؤوس والمطارق من كل مكان.– العمل لا ينقطع. يتألق.

– من هؤلاء الذين ينحتون الأحجار؟ سأل قلاوونُ قائدَ المئة سنقرَ وقد هبط قلبه مما ارتاب فيه.

– أسرى صليبيون يا موفد الله.

– هل اعتنقوا الإسلام؟

– لا، من لا يتقبل ديننا نوجهه إلى أشقِّ الأعمال.

– أتسمعون ما يقول! – صاح قلاوون مغتاظاً مما سمع.

– العمال قليلون، لا نستطيع تلبية حاجتنا منهم.

– اسكت يا عديم الإيمان! – نهر السلطان الأمير سنقر، ولم يدعه يكمل كلامه – ما تفعله حرام، لا تَدَعْ مَن يحاربون ديننا الغالي يدنسون بيت الله. أبعِدهم عن وجهي! أتعرف ماذا يستحق هؤلاء؟ أن يرعَوا المعوقين مثل المرحوم أتامراد؛ أفهمت عليّ؟ – ترك قلاوون راسم الذي وجه إليه السؤال أولاً وتوجه إلى سنقر – هل العمال قليلون ولا يفون بحاجة العمل؟ سوقوا هؤلاء العاطلين الذين يتسكعون في الشوارع! واتركوا الأطفال والمسنين. أنا لا أبني الجامع والمشفى والمدرسة لشخصي. هي لكل المسلمين. ولماذا أنت واقف إلى جانبي ملتصقاً بي؟ – صاح قلاوون على راسم.

ما إن غادر الفرسان الذين يقودهم راسم وسنقر حتى وصل مغرب. وهمس في أذن السلطان دون أن يذكر اسم الشخص المعنيّ:

–لم أجده يا موفد الله. أخبرني من سألتهم أنهم لم يروه منذ بضعة أيام.

– تعال إليّ بعد صلاة العشاء أقلْ لك أين هو.

IX

ليس سهلاً إن كنت سلطاناً أم من عامة الناس، راكباً جملاً أم سائراً خلفه، ممتلئاً مالاً أم معدماً، يهوّون لك أو يظلّونك بمظلة، أن تحج إلى بيت الله حيث ولد مُحَمَّد نبيُّه. إن كنت منطلقاً من مصر فأمامك طريقان: من جهة تدور حول البحر الأحمر، ومن جهة أخرى تماشي النيل حتى تجتاز البلاد بطولها وتتجه إلى البحر تاركاً أسوان على يمينك. وبعد أن تصل إلى ميناء جدة في يوم واحد تكون في بضعة أيام في الكعبة.

الطريقان سيّان لسعيد: "المهم أني غربت عن وجه حاشية السلطان الضخمة. وهناك ستجري أموري كما كتب الله. — أو يتوفّاني إليه فيرفعني من دنياه الفانية، أو ينصرني على السلطان الذي تسبب في مآسي حياتي. حسناً فعلتُ إذ فارقت الأمراء الذين ساندوني. ليس لأني لا أريد صحبتهم، فأنا بقلبي وروحي ما أزال في بلادي عندهم، وهم يقفون مني الموقف نفسه، وهم مرتاحون لأني توصلت إلى ذريعة الحج لأغيب عن الساحة. الأمير سنقر رجل حكيم وحازم وله أعوان كثيرون من المماليك، وكلامه نافذ عند عدد من الأمراء. والآن يحاول مع غيرهم. ليتصرفوا كما يريدون فلن أعترض طريقهم. سأبقى هنا، في الحج إلى أن يخبروني أنهم أعادوا لي سلطنتي. ولكني لم أفهم لماذا أرفقوا بي "وَزْدَمر" البليد. ولما سألت سلامش لم يُجبني واكتفى بالابتسام رغم أنه أخي. أليس مأساةً أن يفعل بك هذا مَن ولدته أمك؟ انتظِروني حتى أعود إلى سلطنتي! ستريان ما سأفعل بكما أنتما الاثنان"

– يا حاج وزدمر، يا نجمة المماليك المنيرة — سأل سعيد رفيقه القوي البنية ذا الكتفين العريضتين — ألم أكن عاقلاً إذ لم آتِ بكم من طريق البحر الأحمر؟

– هذا طريق مختصر لولا أنه يحتاج إلى عبور البحر.– أجاب متمهلاً بصوت خشنٍ، وزدمر الراكب جملاً بين سناميه على بساط ملون ، وعلل إجابته — ولكن لو فكرنا في إعادة قطيع الجمال هذا لوجب علينا أن ننفق في سوق جدة مبلغاً دون فائدة.

– وأنا فكّرت في هذا يا نجمة المماليك المنيرة — نظر سعيد إلى الجمال العشرة المحنية ظهورها وراءه" حين طلب مني سلطانك الذي تحبه أن نتخذ الطريق بعشرين جملاً ما كان عليّ أن أوفّر المال لمن ورث الأموال الطائلة من والدي. إن لم تأخذ ما تُعطى تبق في الدنيا كما بقيتُ أنا دون شيء. ومع أن هذا الضخم الرأس يشبه سلطانه المجنون الذي انغرس حبه في قلبه، فهو والجِمال، وصندوق الذهب الذي يحمله من يسبقني والكيس ملفوف على جسده، ورفاقي المماليك والأمراء المخلصون لي الذين سأصحبهم إلى القاهرة حتى تتحقق أمورهم فيها، يشكّون في أن يعودوا من حيث أصحبهم إليه..." — لأن حياة الصراع التي نعيشها يومياً جعلتنا حكماء. حتى لو لم أتكلم على ما جرى لأسرتنا، ولو اكتفيتُ بحياتي القصيرة، فهم لم يتركوا الحكم بيد أخي الأصغر سلامش نصف سنة.

– لم يكن سلامش أكمل العاشرة حين نصّبوه سلطاناً.

– وأنا؟ !– كان عمري اثنين وعشرين عاماً حين انتزعوها مني. — أفلت من فم سعيد ما يُقلقه. ولكنه عاد بسرعة إلى نفسه: – لا، لا. أنا أدين نفسي بنفسي ولا أتهم أحداً. أنا راضٍ عن السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الألفي ولو إكراماً لوالدي السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس أو لغيره كائناً من كان. لم يدخر جهداً من أجلي. وقد حضّر المنصب الذي سيبوّؤني إياه حين أعود من الحج. ويربي أخي سلامش، واتخذه مستشاراً رغم صغر سنه. — وجد

سعيد ذريعة للخروج عن الموضوع في الفواكه التي على المائدة قائلاً في نفسه: "حين يثور الأمراء سأرى المنصب الذي هيّأه لي إن كان حسناً أم رديئاً وقد أولجوه في أنفه" – فواكه البارحة، لا أعرف ماذا يُطعموننا، كانت ذابلة، خالية من الماء! اقطفوا من البساتين الفواكه والبطاطا والخيار والفجل! — وحين وضعوا على مائدته الفواكه المحمّلة على ظهور الجمال، اختتم بصفاء مزاجه — هذا جيد، اسقوها، لا تبخلوا عليها بالماء، هذا ما جرى لي شخصياً ولأسرتي يا نجمة المماليك المنيرة. غير أني لا أحمل حقداً على أحد.

"نحن على الطريق منذ أسبوعين، وكلما انقضى يوم جدد الموضوع وليس له همٌّ آخر" — يبتسم الأمير وزدمر في قلبه — كما يقال "من لم يصبح بعدُ ذئباً يخاف من الذئاب" أيكون غير راض عني؟ يلقبني بـ "نجمة المماليك المنيرة" كما يربي الكلبَ من يخاف من الذئب، إن كان يظن نفسه يشبّهني أنا به فسترى ما يُضحِك" — قال وزدمر متظاهراً بأنه ينظر إليه نظرة رضاً:

– يسعدني أنك اكتسبت عقلاً مما جرى لك دون أن تحمل الحقد في قلبك مع أنك لا تزال شاباً. سواء كان بسبب ما شهد قلاوون في حياته أم كرمى لوالدك أم كرمى للبلاد التي يحكمها، فقد عمل على أن يبقى الحبل موصولاً بينكما أيها الأخوان. وما لا يغفره لنفسه غفره لك، وأعادك إلى مهمات بلادك. حين تعود إلى القاهرة تجده حضّر منصباً كبيراً لك، وأنت قلت هذا بنفسك، وأنا لا أعرفه غير أني سمعت الأمراء يتحدثون فيه. وأعرف مصيبتك بأمك وأعرف ثقلها عليك، وأنك لا تنساها. ما العمل؟ لا حيلة إلا الصبر. أعدّ لنا الله ما يبلونا به في هذه الدنيا الفانية. وقد صفّى فيها من هم أحسن منا وأطهر. وأمامنا مزيد من التصفيات.

– حياك الله، ورضي عنك يا نجمة المماليك المنيرة. نصحتني كما كان أبي وأمي سينصحانني. وكلمتني كما كان أخي الأكبر – لو كان عندي – سيكلمني. ولكن سأطلعك على السبب الحقيقي لحِجتي ما دامت الرحلة قرّبت بين قلبينا. دفعني البحث عن غفران ذنبي لأني أعتبر نفسي المسؤول عن الطريقة التي ماتت بها أمي... – ارتخى صوت سعيد وتظاهر بأنه يمسح عينيه.

– مهلاً، مهلاً. أنت لم تذكر المأساة التي دفعتك إلى طريق الكعبة، ولا أنا سمعت! – استعجل وزدمر – ليفهمك الله ويعطف عليك. ليس من أجل مسألة كهذه يحجون ويصعدون إلى عرفات. بل لتكريم الأماكن المقدسة التي ولد فيه نبيه مُحَمَّد.

– أنت تعرف في هذا الموضوع أكثر مني يا نجمة المماليك المنيرة – أيد سعيد رفيقه الأسنّ – ولستَ أول مرة تزور فيها الكعبة. وقد اخترتك من بين الأمراء الذين أُقتُرحوا لمرافقتي لأنك حججت مع الظاهر بيبرس والدي ومع السلطان قلاوون.

– لك الشكر على اختيارك لي. كنت برفقة والدك السلطان والسلطان قلاوون بفضل الله. والحجة الثالثة برفقتك. ليسهّل الله طريقنا علينا. ولْنذهبْ ولْنرجعْ بسلامة ! – "لا أعرف لماذا يُشيعون عن هذا الذي جعلوني رفيقاً له خفة العقل؛ أكيد ليس من هذا النوع. يتودد إليّ بكل لطف. ويعمل جاهداً كي أفتح له قلبي. يُتبع كل خطاب لي بـ "نجمة المماليك المنيرة".

– نعم، يا نجمة المماليك المنيرة، لِيُيَسِّرِ الله طريقنا إلى الكعبة وعودتنا. ومهامُّ كثيرة، كما قال المنصور سيف الدولة قلاوون الألفي، تنتظرنا في مصر. ولأن سلطاننا الكبير وعد بإنجاز الجامع المتضمن مدرسة ومستشفى – "سيُنهي ولكن لن يُعطوه الفرصة لافتتاحه" – فلو لحقنا بافتتاحه لاعتبرنا أنفسنا

محظوظين. ولكن هذا بيد الله، لا نحن. والآن سأتناسى ما قلته بشأن رغبتي في الحج من أجل غفران ذنبي نحو أمي، وأسألك في شأن آخر: – إذا نحرت جملاً قرباناً في الحج من أجل ماحدث لأمي – كاد يقول "ما فعلوا بأمي" ثم أحلّ محلها "ما حدث لأمي" – أفلا يجوز ان أبتهل إلى الله أن يغفر لها؟

– هل حدث لها أم فعلتْ بنفسها؟

– سيكون جواب سؤالك صعباً لأنه يتضمن أموراً متعددة. ولكن إذا كان الجواب الاثنين معاً فأنا أتأمل من الله تعالى أن يتفهّمني.

– لا أحد في الدنيا لم يُحبه الله سبحانه. ولكنه لا يعتبر من يُزهق روحه بنفسه من عباده.

– صحيح يا نجمة المماليك المنيرة، غير أنها لم تتحمل الإهانة.

– ليس كلُّ من يشعر بالإهانة يقتل نفسه. نسمّي دنيانا دنيا عارية أو فانية لأن الله تعالى يبلونا فيها بالخير وبالشر. عندما يحين موعد عودة من عاش دون أن يتجاوز الأعمدة الخمسة التي غرزها الله تعالى في الإنسان[1] يتوفاه إليه ويُسكِنه جنته. وأما من لا يردعه شيء ويتصرف على هواه من كذب وسرقة وموبقات أخرى فسيختبره على السراط الذي هو الجسر إلى جهنم.

هذا صحيح وحقٌّ، ومع ذلك فسأبتهل إلى الله من أجل أمي المسكينة.– ارتخى صوت سعيد. – لا تؤاخذني كلما تذكرت أمي لم أُطق صبراً على نفسي.

– نعم، نعم. أمك منيرة، يرضيني أنك لم تنسها ولو أنها لم تترك شيئاً إلا فعلتْه بك. وصحيح ما يُقال من أنه لا أمَّ سيئة بل ابنٌ سيء. مع أني جُلبت إلى هنا طفلاً، وتزوجت في هذه البلاد،لم يمرّ عليّ يوم واحد لم أتذكر فيه أمي. أُدعُ إلى

[1] أو الأركان الخمسة للإسلام: الشهادتان والصلاة والصيام والزكاة والحج.

ربك أن يُسهِّل عليها سراط جهنم الذي قادوها إليه سواء كنتَ مشتاقاً إليها أم لا. فربما، من يعرف، يتفهَّمك ربّك ويعطف عليك. حبُّ الأم يحدوني إلى ما أقول ولو أنه لا يجوز الاستغفار لمن أهلك نفسه بنفسه. اغفر لي يا إلهي إن قلتُ حراماً.

– لا، لا، لم تقل ما هو حرام يا نجمة المماليك المنيرة. حياك الله. تبيّن لي أنك عطوف على أمي المسكينة بالقياس إلى أخي الأصغر. وبالمناسبة فسلامش يُصِمّ أذنيه ويتنكب بجسمه. هل يجوز أن تكون هذه نظرتك إلى أمك التي ولدتك، أليس عاراً؟

– أفضِّل أن أصف موقفه بغير الجائز على العيب. غير أنه يصعب عليّ الحكم في ما لم تستطيعا، أنتما الأخوان، الاتفاق عليه. لا أريد أن أجني على أحد. الأفضل أن تتفقا دون تدخُّل أحد. أضاف وزدمر صراحة وهو يحدّث نفسه – "ليتك كنت مثل سلامش، قولُه يطابق فعلَه. ولا يتعامى عن أمه. ولا يتصامّ عن أبيه" – ولكن أخاك لا ينسى أباه كما تنساه أنت.

"أنا فتحت معه الموضوع وأصابني منه ما كنت أتوجس منه!" – لم يُبِن سعيد على حاله وإن غضب على نفسه – ما شأنك أنت إن كنت أحب أمي ومستاءً من أبي؟ تضافرتم أنتم الشراكسة العنيدون بهذه الحجة فدفعتم أمي إلى الانتحار. برّدتم عواطف أخي نحوي. وجعلتم من لا يعرفونني يلوكون في سيرتي. لست أجهل أن السلطان الشركسي الغريب ألحقك بي عيناً وأذناً وإن كنتُ ادّعيت أني أخترتك من بين الأمراء رفيقاً. ولكن لن أسمح لك بتحقيق مرادك وإن لبستَ قناع الجنون. أنت واحد ممن سيسبق إليهم سيفي. وسأُلحق بكم أخي الذي تمتدحه !..."

– يسرني يا نجمة المماليك المنيرة أن أخي الأصغر سلامش لا ينسى والده. وأنا أيضاً لا يغيب عن بالي. ربما أذكر سيرة أمي أكثر لأننا حين أُبعِدنا إلى دمياط تحمَّلْنا معاً سنواتِنا الصعاب يا نجمة المماليك المنيرة. لا أنسى أمي، أستمد الثقة من أبي.

– حسنٌ أنك هكذا. وأنا، إن شئت الحق، هذا ما كنت أريد أن أسمعه. ولكني لا أعرف لماذا تناديني بـ " نجمة المماليك المنيرة "

– ما الأمر؟

– لأني لم أصل إلى مرتبة أستحق معها مثل هذا اللقب.

– ألست مثل الأمراء راسم ومغرب وسنقر وبرقت؟

– أنا أمير أربعين فارساً، ومن عددت أسماءهم أمراء مئة. ومقربون من سلطان مصر. وثقاتٌ عنده. ومستشارون لديه.

– وهل أنس وسنقر ومالك ومعن من ثقاته المقربين؟

– لا يسمح سلطان مصر لمن لا يثق بهم أن يرافقوه. — جزم وزدمر.

– هذا صحيح، ولكني سأقول لك سبب سؤالي عمّن ذكرتُ أسماءهم. أستغرب أنك ما تزال إلى الآن أمير أربعين. ترافق السلاطين من يوم ما عرفتك. وكنتَ، بعد والدي مقرباً مني ومن أخي. وها أنت الآن من ثقات السلطان العظيم قلاوون. لماذا لا يعيد النظر في مرتبتك بين الأمراء؟ ألأنه ليس عندك من يوصل رغبتك إليه ويشجعه؟ متى ما رجعنا من الحج طرحْتُ هذا الموضوع في مقدمة ما أطرح أمام السلطان.

– لا، لن أسمح لك بهذا! — انتزع وزدمر زمام الحديث غير المنتظر من سعيد، وشرح السبب: – ليس كلُّ ما يُرجى يتحقق.

وفي اللحظة نفسها توقفت الإبل، وتردد صوت المؤذن من على ظهر أحدها عبر الرمال: "الله أكبر، الله أكبر..."

أنقذ صوت الأذان سعيداً الذي لم يكن يعرف تفسير ما قاله وزدمر، ولا ما سيجيب به:

– هكذا نقطع المزيد من الطريق دون أن نشعر بالملل مع حديثنا، وحانت صلاة الظهر. بعد الصلاة حين ننتهي من الوقوف في حضرة الله سنستأنف حديثنا. – ترجل سعيد من الجمل قائلاً في نفسه "سأستدرجك إلى حيث أريد من خلال الحديث، وسأكتشف إن كنت ستصبح موضع ثقتي" وتوضأ، ثم صعد إلى ظهر كثيب ليصلي بعيداً عن رفاقه. – هذا الكثيب لن يتحملنا كلنا ولكني سأقف وحدي عليه لأكون أقرب إلى الله تعالى، وأنتم تجمعوا ورائي أسفل الكثيب.

الشمس تغلي في السماء الباهتة المُطبِقة على قفرٍ أصفر يمتلئ بالكثبان، ولا مخلوق فيه إلا قافلة الجمال. والريح الحارة تعشش في النخاع. والرمل يتموج من تلقاء نفسه. والجمال المنيخة والواقفة تجترّ. والناس المتجهون إلى القبلة يصلون ويدعون إلى الله. يجثون على الرُّكَب، ويحنون رؤوسهم. ويلقون التحية إلى اليمين واليسار. وكل مصلٍّ لايسمع دعاءه إلا هو والله.

في كل اتجاه من الصحراء العربية الواسعة – من الشرق والغرب، ومن الجنوب والشمال، – يسود السلام والراحة لولا أنها مُضجرة. ولكن البرق الذي لمع فجأة في سماء الله التي ليس فيها أي سحابة، مزق السكون. وحين دوى الرعد للمرة الثانية قبل أن يعي المصلون ما يحدث انتشرت في البرية حركة تموج الرمال والكثبان. وفي اللحظة نفسها، وعلى مرأى من الجميع، خسفت الأرض بسعيد فاختفى.

صارع وزدمر وجماعته الرمال المتحركة دون أن يتمكنوا من قهرها، منتزعين منها من تحاول ابتلاعه من البشر. وقبيل الغروب، حين ظهر من تحت كثيب غيّر مكانه مرتين أصابع سعيد، سحبوا جثته متعاملين بلطف وحذر مع الرمال القاتلة.

– ما حدث لنا مأساة. — قال وزدمر للمحيطين بالجثة جلوساً ووقوفاً. ولما كان الله هو من قدّره فلندعُ إليه. سنقضي الليلة مع هذا البائس ولو كنا في موقف حرج ثم ندفنه غداً. لا، لن نكمل إلى الكعبة، لماذا نذهب بمأساتنا إلى الأماكن المقدسة. سنعود إلى مصر.

دخل الحجاج العائدون إلى القاهرة ساعة تناول الشاي. وسمعوا أصوات المنادين الفرحة:

– اليوم فرح السلطان المنصور قلاوون سيف الدولة الألفي بقدوم صبي له من زوجته أسلون. ليبارك له الله فيه. وسمَّوه الناصر مُحَمَّد. هنيئاً لنا به. ولنهنأ معه بحياة ليس فيها إلا السلام والطاعة.

– آمين يا الله. — حين قال وزدمر وافقه رفاقه. ولم يستطع إلا أن يتفكر في المأساة التي حدثت له على الطريق، وفي الفرحة التي عادوا إليها: "أحدهم يرحل عن الدنيا بأبشع ميتة، وغيره يأتي إليها بأعظم الفرح..."

X

لا ينس أباقا – خان إلى الآن أن بيباريس هزم والدَه هولاكو – خان في سورية. كان يخاف أن يقتحم سورية بقواته ما دام بيباريس سلطاناً. وحين فعل هذا مرة تراجع بالجيش دون أن يخبر أمراء جيشه. والآن كانت السنوات القليلة الماضية على وفاة بيباريس فرصة لأن استعداد المسلمين غيرُ كافٍ. ولكن تبين أن السلطان قلاوون الذي حلّ محله أكثرُ مُخادَعةً: تزوج من أسلون ابنة أشهر الأمراء خاتون – خان فأبطل فكرة الثأر التي يحملها أباقا. وليس قليلاً الوقت الذي استغرقه تبديده لأعدائه. وخلالها حدث عداء بين خاتون – خان وقلاوون الذي صاهره، ولكن هذا لم يُحسِّن العلاقة بين خانيَ المغول. عاشا في بلاد الفرس وما على لسانيهما غيرُ ما في قلبيهما، يتبادلان الابتسامات إلى جانب نظرات الارتياب، يتنافسان على من الأقوى ومن الأحكم فيهما حتى نصّب إيلخانُ كورلوتايُ أباقا – خان على رأس الخانات.

كل بلدان العالم، ومنها بلاد الفرس، لها شرق وغرب، وشمال وجنوب. وفيها الجبال المتدرجة الارتفاع، والبراري المتلاصقة والغابات الفسيحة والسهول – الغابات. وليست الأنهار الكبرى فيها قليلة. وأمواج البحر الفارسي وبحر قزوين، بما فيها أمواج بحر عمان ترتطم بها. بعض أراضيها ذات تربة سوداء، وبعضها حمراء، مقطّعة بشرائط صفراء. والسماء تمطر فيها وتُثلِج. وتهب الريح ويدوّي الرعد. وتعيش فيها أجناس متنوعة من البشر. ومعظمهم يدين بالإسلام. وعليٌّ رجُلهم المفضَّل. وكما نشر المغول ديانتهم البوذية على ظهور الخيل سيطردونهم على ظهور الخيل أيضاً فلا يعبؤون. ولا ينقطع صوت الأذان مع أن الجيش المغولي المؤمن بديانة بوذا منتشر في بلادهم، ويزداد المصلّون. يسبحون بالمسابح ويختمون القرآن.

– كرهت أصوات هؤلاء! – هب منغو – تيمور من مكانه مع أصوات مؤذني الظهر المتجاوبة.

– أما أنا فتُعجبني – ابتسم أباقا – خان بعين ضيقة خبيثة، ومسح براحته على لحيته الرقيقة – يخبروننا بقدوم غدائنا.

– نعم، نعم يا خان الخانات – مازح منغو – تيمور ابن عمه مؤيداً إياه. وحميرهم لا تتناسى وقت الظهر. ها هي رائحة غدائنا في أنفي.

العمود المغروز بقوة وسط الأرض المبلطة بالبلاط المزخرف يرفع الخيمة الفسيحة. والشمس الكسلى تخرق بصعوبة النوافذ الأربعة المغطاة بالأَسَل المضفور الرقيق[1]، كلٌّ في اتجاه. – ويُخيّل إليك أن الخانين يقيمان في مكان انحدار الجبل. وتلمع المطرزات والموشّاة بالذهب والفضة، من أغماد السيوف، والسكاكين، والملابس وواقيات الساق وأعالي القبعات. والآن يسلي عرش أباقا – خان الذهبي العالي اللماع المتروك جانباً نفسه – يلمع في كل اتجاه. وما يحتاجه ليلاً ونهاراً من أوانٍ على رفٍّ آخر. والطشت النحاسي المقصدر في إحدى الزوايا.

ومع أن خيمة أباقا – خان الفسيحة نظيفة فهي مليئة برائحة الجلود المتعفنة والعرق البشري التي لا يحس بها هو وأهله إذ اعتادوا عليها.

حين فتح خدمُ الطعام ستارة النافذة الملونة اقتحمت الخيمةَ رائحةُ لحم خيل مسلوق. والطباخان وراء حاملَي الطعام الاثنين. وهذان يحمل كلٌّ منهما قطعة من لحم الغنم المخمَّر، ووراءهما من يحمل شراب الكومس في دلو خشبي. وفتاتان ضيقتا العيون تغنيان واقفتين وراء الخانات أغنية لطيفة.

---

[1] نبات ينزل على ضفاف الأنهار والمستنقعات، تُصنع منه الرماح والحصائر.

وقف الرجلان اللذان حملا الطعام وراء الخانات، فقال أباقا – خان للطاهي كما في كل مرة:

– ذُقْ من كل لون طبختَه لنا. واختبِرِ الكومس. وأنتما أيضاً – قال للفتاتين المتوردتي الوجه الواقفتين إلى جانبي الباب. ولما خرج المُختبِرون سليمين من الخيمة أمسك أباقا – خان بأدسم قطعة لحم وعضها حتى سال الدسم من شِدقيه. ومزح مع منغو – تيمور الذي كان يفصل اللحم عن العظم:

– هل فقدتَ أسنانك؟

– لم نصل إلى هذا بعدُ، يمكنها أن تهشّم هذه العظمة.

– عُضّ اللحم قبل أن يتجمد الدهن تعرف حلاوة هذه العظمة التي ستهشِّمها. – قال قائد الجيش للخان الذي كانت لحيته الرقيقة تقطر دسماً. وأضاف إليه ما أمامهم من مهمات بنبرة مزاح: – لا تستعجل على أسنانك وعلى سِكّينتك بهذه الحجة. لا يزال أمامنا المكان والزمان اللذان سنطحن فيهما عظام السلطان قلاوون.

– إن قلت اليوم أو حالاً فأنا جاهز يا خان الخانات! – غرز منغو – خان سكينته في راحة كفه حتى وصلت إلى العظم وأنهى بصوت أعلى وهو يمسح لحيته بدهن يده – لن أهدأ حتى آخذ بثأر عمي!

– يا أخي الأصغر كان الوقت الصحيح لما تقترحه هو عهد بيبرس الأعور. رحل عن الدنيا قبل أن أقلع له عينه السليمة الأخرى. شرب أباقا – خان مغرفة الكومس يغسل بها عاره، وغيّر الموضوع: – ما لا أفهمه هو طريقة تناول الشراكسة للحم. يسلقونه بالماء المالح فيزيلون طعم الحلاوة من اللحم. لا يذوقون لحم ماشية قبل أن يفصلوا عنه طعم الحلاوة.

– ولا يكتفون بسلقه في الماء المالح بل يفركونه بالثوم المملَّح. – وافقه منغو – تيمور بابتسامة ساخرة.

– يمضغ سنّ الثوم لمعالجة اللثة فحسب؛ لماذا تبذِّر به بخلطه بالملح؟ الحيوان هو الذي يحتاج إلى الملح.

– الشراكسة يأكلون الملح لأنهم حيوانات يا خان الخانات.

– لا يوصَف الشراكسة الذين مات جدي على يد أحدهم بيبرس القبيح، بأصدق من هذا.– ضحك الخان من أعماق قلبه – اسمع، دعنا نأكل من الدم المخثّر ثم نشرب فوقه الكومس. – أضاف الخان بحماسة وقد توردت وجنتاه من الكومس: – سنتجول برأس قلاوون الثخين الرقبة على رأس الرمح في العالم العربي الذي استولى على الحكم فيه، ثم نحمله إلى البلاد التي سُبي منها صغيراً، بلاد الشركس. وليس وحده بل سننبش قبر بيبرس ونُرفق عظامه برأس قلاوون.

– والمماليك؟ أسرع منغو – تيمور بالسؤال وكأن موضوعهم انتهى، ثم خصّ ما سأل عنه: – أقصد المماليك الشراكسة.

– كل هؤلاء سيتحولون إلى عبيد لنا! ولن نحرم الأسر المحلية من حصتها لنكسب قلوبهم.

– أهناك هذا الكمّ من المماليك؟

– أكانوا تسلطوا على حكم العرب الفارغي الرؤوس لو لم يكونوا كثيرين؟ وسنرفق بهم التركمان والألبان والترك، والآيرات جماعتَنا الذين استسلموا لهم أسرى، واعتنقوا الإسلام.

– هؤلاء أُسِروا رغماً عنهم، وأُجبروا على اعتناق الإسلام يا خان الخانات.لم يدع أباقا خان قائد الجيش منغو – تيمور يكمل كلامه الحامل رائحة إشفاق:

– لا تُكمل – أن تقع في الأسر وأنت مفتَّح العينين يعني أنك جبان. – والأشد مهانة من هذا أن يستأصلوا جزءاً من عضو رجولتك لتصبح مسلماً. المحاربون الستمئة من آيرات تجمعوا على بعضهم كقطيع غنم ، وسمحوا لهم أن يستدعوهم واحداً واحداً وينطقوا "الله أكبر". وهم يصلون كل يوم خمس مرات: يجثون على ركبهم ثم ينهضون، دون أن يعرفوا لمن يحنون رؤوسهم. أن يفعل بك الرجال المحاربون الذين تعتمد عليهم مثل هذا يتجاوز درجة الإهانة. تركوا والدي – عمَّك في ساحة المعركة، تسحقه سنابك خيل المماليك... ثم تشفق أنت على هؤلاء! – انتصبت أمامه صورة مماليك بيبرس يجولون بوالده معلقاً برؤوس رماحهم، ويتقاذفونه، ويهرسونه بحوافر خيلهم، وصورته هو جريحاً أسعفه حامل علمه من ساحة المعركة لا يستطيع نجدة والده، فصرّ على أضراسه وكأنه يريد أن يسحق ضلع الخروف الذي في فمه.

– لا، يا خان الخانات. لا تظن أني أتكلم عن شفقة.– عاد منغو – تيمور إلى وعيه وقد شحبت وجنتاه المحمرتان. – في كل الأحوال أنا حاقد عليهم منذ زمان بعيد. سأريك من سمحوا للمسلمين أن يتلاعبوا بأجدادهم وقد خصيتهم. وسأفعل بخاتون الجبان هذا الأمر بيدي شخصياً.

– ليس هذا ما سنفعله بخاتون – خان – نفض أباقا خان رأسه المتطاول الذي حنته بضع مغارف من الكومس، وتصنَّع الضحك بصوت حاد متقطع – سنجبره أن يمارس الجنس بنفسه مع ابنته زوجة قلاوون الرابعة أسلون ذات الردفين الرجراجين.

– هذا أفضل اقتراح، وجدتَ الفكرة المناسبة له تماماً ! – صرخ منغو – خان مما سمع، وتذكر الخبر الذي كان حمله إليه ونسيه فأضاف بصوت أخفض – هذه ولدت حديثاً.

– أتقول إنها ولدت حديثاً؟ – سأل أباقا خان بنبرة لا تعرف منها إن كان يستغرب أم لا، واختتم بأن أجاب نفسه بنفسه – هكذا أفضل، المرأة المرضع شبقة دائماً. – شرب الكومس فوق الضحكة الساخرة "ها، ها، ها" ونظر باتجاه ستارة الباب الموشاة بخيوط الذهب والفضة، وصفق بيده – أين هن مغنياتي ذوات الشفاه الرقيقة؟

XI

رحل السلطان بيبرس الذي لم يتمكّن منه أعداؤه الكثيرون المحيطون به من كل جانب، ثم قضى نتيجة تآمره فوقع في الحفرة التي حفرها لقاهر. وتبعته منيرة نتيجة حبها لأصلها ولحِدّة مزاجها. وابتلعت رمال الجزيرة العربية سعيداً في أثناء حجه. ومع أن أمه دمرت مستقبله فقد ظل يحاول سراً استعادة سلطته التي فقدها لعجزه عن مسؤولياتها. ومن بقي من الأسرة وحيداً دون أهل هو سلامش.

إذن أليس صحيحاً أن الحزن والفرح يُنطقان بسهولة غير أن مضمونهما صعب. ثم إنه ما لم يحدث مثل هذا لأسرتك الكبيرة فسيكون من الصعب فهمه. ولكن أصعب ما في الأمر هو أن يرتبط اسم الأسرة بالمناصب العليا للدولة خارج إرادتها.

مر سلامش إلى أن تصلبت عظام كتفيه بثلاثة مآتم. أيكون نسيها بعدما ترك كلٌّ منها جرحاً فحسبُ؟ صحيح أن جرح السيف يُشفى غير أنه يترك ندبة أبدية. ومع أن سلامش كان يعرف مِيتة أبيه، والطريقة التي فارقت بها أمه الحياة، وابتلاع الرمال لأخيه فإن ما فعلته الأم بنفسها هو ما لم يكن إلى الآن يستطيع تفسيره. من شنقت نفسها فقد شنقت نفسها؛ ما الذي لا تفهمه في هذا الأمر؟

من السهل الكلام على مثل هذه المأساة إن لم تكن حدثت في أسرتك الصغيرة أو الكبيرة، ولكن من الصعب الإجابة عليها. هذا مثلُ تلازم الحزن والفرح، والرغبة والحسد، واللِّين والصُّلب، والكذب والصدق، والحقد والشفقة. أحدهما يُحْييك والآخر يصرعك، وغيرُهما يُقيلك من سقطتك، ورابعها يحفر لك قبراً. لو

لم تكن حياة الإنسان مركبة هكذا من الفرح والترح، والدمع والضحك، لزال عن الوجود منذ زمن سحيق.

خلّف سلامش السلطنات الثلاث، بما فيها سلطنته هو، في سنيه العشر، قبل أن تتمكن حلاوة الأم، وفرح الأب، من نفسه. وقلاوون هو الرابع. ما وقْعُ هذه الأحداث على سلامش الذي بلغ العشرين؟ حين تبقى في الدنيا غصناً مبتوراً؛ سواء كنت تستحم بماء الذهب أم تربط حذاءك بأمعائك، أليس من الواجب حين يقوم سؤال في ذهنك من هذا النوع أن تجيب إجابة محزنة؟

كان عند سلامش قبل الآن من يجيب على مثل هذه الأسئلة: أمه وأخوه الأكبر. هذان كان سرُّهما المعلن واضحاً. والآن؟ كلاهما رحل عن الدنيا مثبتاً صحة الحكمة القائلة: " كل الناس يولَدون بطريقة واحدة ويموتون بطرق مختلفة". ولكن مع أن أمه روت له مرة في غمرة هياجها طريقة موت الأب السلطان الكبير فربما أنساه إياها حبُّه الطفولي لأبيه. اليوم فحسبُ رجع السؤال إلى الذهن مفاجئاً: "إذا كنت أعرف ميتة أمي وأخي فلماذا لا يجوز أن أعرف ميتة أبي؟ أهي إشاعة أم حقيقة؟ عدوك هو من يُشيع عنك مثل هذه الأخبار. أكانت أمي معادية لأبي إلى هذا الحد؟ ما خطر لي يتجاوز حدّ الظلم. من يعرف حقيقة الأمر هو قلاوون، ولذا آن الأوان لأسأله"

في أحد الأيام استدعى قلاوون سلامش. وحين دخل سلامش بقامته الممتلئة وذراعيه الضخمتين المسبلتين وعنقه الطويل وعينيه الزرقاوين الحادتين تذكر قلاوون شباب بيباريس فقفز من مقعده، واستقبله، ومازحه وهو يعانقه ويربت على كتفيه:

– إذا نَموتَ كل يوم بهذا المقدار أصبحتَ بحجم والدك حتى الخريف. دعني أدقق النظر فيك. – رجع قلاوون قليلاً وتفحص سلامش بعين راضية –

لباسُك وسلاحك يليقان بك جداً، ولكن لا أعرف سبب اكتئابك. هل أساء إليك أحد؟

– لا، لا شيء من هذا – قال سلامش ثم سأل نفسه كاتماً السؤال الذي يسبب له منذ هذا الربيع قلقاً لا ينتهي "أأسأله؟ ماذا سيضيف إلى ما لمّحت به أمي؟"

– لا تكتم ما سينكشف يوماً من الأيام – قال قلاوون للشاب الذي أجلسَه قبالته، متأملاً عينيه – ما قلته لي، وما قلته لنفسك سِيّان. لا تحمل معك ما يُقلقك بل ارمه عنك، أسمعُك يا سلامش!

– سأسألك يا موفد الله ما دمت قد بدأت الحديث.

–مهلاً، مهلاً. – قاطع قلاوون بصوت حاسم الشاب الجالس قبالته – لا أريد أن أسمع ما له مثل هذه المقدمة. أنت وأنا إن بدأنا نلعب "الطميمة" بيننا فكيف سيتصرف معنا الأمراء والمماليك والفلاحون؟ وماذا سيكون مصير البلاد التي نحكمها؟

– أنا لا أحكم أحداً يا موفد الله.

جعل ما سمعه قلاوون رأسه الكبير ينتفض.

– هذه مأساتك أم تقول هذا عرَضاً؟

– لا يا بديل الشمس – عاد سلامش فوعى إلى نفسه بسرعة، – لم أستطع أن أعبّر على نحو صحيح عمّا أثار ارتيابك. أريد أن أعرف حقيقة ميتة والدي. لا يفارق ذهني تعبير أمي "مات نتيجة شرّانيته"

– إذا كانت أمك قالت لك هذا – تنهد قلاوون مع هزة رأس حزينة – فلستُ نادماً على إبعادها عنك. ولم يحدث لها ما لم تفعله بنفسها. الأم أمّ فاغفر لي إن أسأت إليك من جهة أمك. – أجبر الحزن السلطان على أن

يتوقف أكثر من مرة. ثم أكمل: – يقول الأديغة "ما من أحد صنعوا له مهداً إلا حفروا له قبراً" ولكن عند العرب هذا القولَ المأثور "إن نفق الحصان بقي منه نعله، وإن مات الإنسان بقي منه اسمه" ليس بيبرس مجرد اسم. لا حدود للنجوم التي تلمع في الليالي الصافية، وكلها، وإن كان بعضها أصغر وبعضها أكبر، تحمل اسم: نجمة. – ولكن ما يُحاط بكل هذه النجوم يسمى: القمر. ومثله السلطان بيبرس. لا تَرْتَبْ في إنسانية والدك ورجولته مهما قيل لك. بل افتخِرْ به! من السهل ارتكاب الخطأ كل يوم وكل ساعة في هذه الدنيا الفانية التي يبلونا فيها الله العليّ العزيز. طوال معايشتي لوالدك لا أذكر أنه أخطأ إلا مرة واحدة – وهو الميتة التي فعلها بنفسه. ولكن، حتى لو كان المعروف يضيع مع خطأ واحد فأنا واثق أن بيبرس ليس من هؤلاء الناس، وأن الله تعالى نظر إليه بعين العطف وتفهَّمه. لا تحمل في قلبك تجاه أبيك إلا الخير. نحن نتقدم في القضايا التي أورثَنا إياها دون حل. لِندعْه يهنأ في الجنة التي توجه إليها.

– حياك الله يا بديل الشمس – قال سلامش بصوت مفعم بالعِرفان. خفّفت حملي الآن لأني أعرف أن لا أحدَ غيرك يعرف استقامةَ والدي في الحياة الدنيا، واستقبالَه في جنة الله، وارتياحَه فيها. ولا أريد أن أذكر أمي وأخي بمكروه. وليس بعيداً أن يجتمعوا – كان يريد أن يذكر اسم الجنة فلم يستطع – ثلاثتهم في المكان نفسه.

– أتريد أن تقول رجعوا أهلاً في الجنة؟ – ندم السلطان على طريقة سؤاله فتراجع في الحال – نعم، ليس بعيداً. من يدري؟ ولكن هذه أمور يبتّ فيها الله يوم القيامة فلا نتحدثْ فيها!

صحيح ما يقال إن "من يسأل يجد مخرجاً في أعلى الجبال، ومن لا يسأل يتُهْ في الفلاة الواسعة" – قال قلاوون في نفسه، – هذا الشاب بالقياس إلى سعيد

الذي كان يعمل ويقول كثيراً ولا يحقق شيئاً، أعقل بكثير. أظنه يريد أن يسأل عن أمه تحت ستار السؤال عن أبيه. ماذا أقول لك؛ وأنا يائس مثلك. إن قلتُ لا علاقةَ لي بما حدث لأمك ولأخيك الأكبر فأنا أكذب عليك وأكذب على نفسي. ولكن إن لم تقابل بسيفك من يُشهر سيفه عليك كانت نهايتُك على يده، ترى بعينك ما حدث لنا. لماذا إذن قال لي "أنا لا أحكم أحداً" أيمكن أن يقاتلني لأن من يشتهِ يغلب عليه عتابه الخفي؟ إذن لن أستعجل على المهمة التي استدعيتُه من أجلها. سأترقبه بعض الوقت كي لا أكون مثل راكب الحصان الذي يُردِف أحداً وراءه فيستولي رديفه على الحصان. من سيكون أشدّ إخلاصاً لي: هذا أم برقت؟ برقت اتخذ قوام رجل وحارب إلى جانبنا أنا وبيباريس في أكثر من معركة، وجرب سيفه وجسده فيها. وأراحني من ناحية سورية ملازماً بين عقله ورجولته، يمكن أن يصبح الآن معاوناً جيداً لسلطان مصر. وإن فعلت هذا فسيثير من يكرهوننا، جماعة سنقر، أهلَ البلاد ضدنا بحجة أن الشراكسة تحكّموا في مصر كلها. هؤلاء أستطيع أن أسدّ أفواههم بسلامش وإن كان أديغياً لأن أمه عربية. ولكن سأتريث قليلاً كما قلت بانتظار ما سيكون،وسنعطيه جواباً لم ينتظره"

– يا سلامش أريد أن أستشيرك في أمير نعرفه كلانا، ما رأيك في أمير الشام برقت.

– طريقة سؤالك يا موفد الله — ابتسم سلامش في قلبه — يمكن أن تفسره بأكثر من طريقة. ولكن سأقول لك.

– نعم، نعم، أريد أن أعرف ما له وما عليه.

– لا أستطيع يا موفد الله إلا أن أُحِبَّ من كان يحبّه أبي. ليس برقت أميراً فقط. إنه رجل محارب فيه الشجاعة والإخلاص. ولكن يحزّ في نفسي أن يكون بعيداً عنا. كنا التقينا في هذا الربيع.

– على ما تقول يشتاق أحدكما إلى الآخر. ولكن لا أعرف – أكمل قلاوون بعد وقفة قصيرة: – وأنا محتاج إلى برقت هنا غير أني لا أجد بديله. لا تستغرب فالأمراء كثيرون، ومن تثق بهم معدودون. قل إن كنت تعرف!

"أمن أجل هذا دعوتني" – نظر سلامش في وجه السلطان بحذر شديد – قل لي بكل صراحة ما تريد بالضبط؛ ألا تثق بي؟ لم يعرض لي موقف من هذا النوع. أيكون يظن أني أعاركه من أجل سلطنتي المفقودة كما فعل سعيد؟ لن أستطيع هذا، وإن استطعتُ فلن يكون والدي راضياً عني. إن لم تثق في من يساندك فبمن تثق من أهل البلاد؟ إن كنت ستستغل من تستميله إلى أن يعرف سرّك أفليس في كلام أمي لأبي، وفي تطويعها لأخي، نصيب من الصحة؟ – يتذكر سلامش كيف كانت أمه توبّخ أباه في غيابه بكلمات قبيحة، وتتكلم عليه بالسوء، وكيف كانت تتوسل إليه وتمدحه في حضوره، وكيف كان أبوه مشغولاً بتغيير مكان نومه ليلاً . – ليس الحكم بين أبي وأمي من مهمتي. لا شك أن نهاية سعيد أخي كانت في هذا الاختلاف. ومع ذلك لم يألُ قلاوون جهداً للعثور على رفات أخي وإعادته إلى جانب قبر أمه. ومع أني تأثرت لعدم دفنه سعيداً إلى جانب أبي فقد تصرف على نحو صحيح. – كلُّ إنسان تنتظره آخرته في قبره الذي أعدّوه له في دنياه الفانية " – حين قال سلامش لنفسه هذا الكلام تذكر أنه لم يُجب على السؤال المطروح عليه.

– بلادك في سلام يا موفد الله حتى لو كان الأمراء كثيرين والموثوقون قليلين. الفلاحون راضون عنك والباعة والشارون مشغولون بأنفسهم. والسفن ليست

عاطلة عن العمل. وأما الأمير وزدمر فهو يساوي الكثير من الأمراء. وبرقت وسنقر ومغرب وقره خان المستشارون لا يخرجون عن طاعتك. ومن جهتي أنا لا سند لي ولا أمل غيرُك. لا تظن أني أبالغ في كلامي. إن قلت لي: اجعل من نفسك سيفاً فولاذياً وضعه في قبضتي فأنا حاضر من هذه اللحظة. – ارتجف صوت سلامش واغرورقت عيناه بالدموع، ثم وجد طريقة لتبرئة نفسه – اغفر لي يا بديل الشمس، لأنك ذكّرتني بأبي بيبرس.

– حيا الله أصلك يا سلامش، ملأتَ نفسي ثقةً وأملاً. فهمتُ أني لن أكون وحدي في أي وقت خلافاً للعادة في كون السلطان وحيداً. الأفضل أن نحرص على أنفسنا لأن الأمور لا تجري كما نشتهي. – قال قلاوون في نفسه "هذا سيصبح معاوناً حقيقياً للسلطان. ولكني سأسأله عن برقت دون أن أخبره بما أنويه له" ثم ابتسم للشاب اللبيب، وقال له – يسرني أنك وبرقت على وفاق. إن وافقتني فسأقول لك لماذا سألت عن برقت. أفكر في أن أولّيه إمارة أمراء الجيش في مصر.

– فكرة ممتازة! – وافق سلامش السلطان حالاً. وسأله عمن سيُحلّ محله: – ومن سترشحه لإمارة الشام؟

– لولا أني أطمع فيك لمنصب أعلى لولّيتك إمارة الشام. – نظر السلطان في وجه سلامش بشيء من الخبث وسأله: – وأنت من تفضّل؟

– هذا من اختصاص السلطان يا موفد الله – قال سلامش ناظراً في وجه صديق والده، ثم قال كلمتين من كلماته الثلاث التالية بالعربية والثالثة بالأديغية: – من تقول اسمه يكون ثَوري.

– ماذا قلت؟ ! – أما كنت تقول إنك لا تعرف الأديغية؟

– لم أنس بضع الكلمات التي علّمني إياها والدي.

– الآن فهمت مصدر الكلمات القليلة التي يعرفها الناصر مُحَمَّد الصبي الصغير من خلال أخويه علي وخليل. من غيرُك يمكنه أن يعلّمهم إياها؟ – تنهد قلاوون رغماً عنه، ثم لام نفسه بنفسه – والدة علي وخليل من القبجاق، ووالدة الناصر مُحَمَّد مغولية...إن عرفت أن أولادي سيحبون أباهم وعِرقهم مثلك فلن تسعني الدنيا فرحاً يا سلامش! ولكن لابد إن عاشوا أن يكتسبوا طبائعهم الخاصة. الآن دعنا ننهي الموضوع الذي بدأناه: أنوي أن أرسل الأمير مغرب إلى الشام بديلاً للأمير برقت. ولكن يمكن أن يدخل في الموضوع شيء أتوجس منه.

– لا تخف على الأمير مغرب يا موفد الله. كان السلطان بيبرس يصفه بالرجل الحقيقي. ولكن لا أعرف من سيخلفه.

– سأُخرج راسم الذي عاقبتُه في شأن المسكين أتامراد وأعيده إلى منصبه السابق. من يعرف من أسرار البلاد أكثر مما ينبغي يصفّونه جسدياً أو يُبقونه قريباً. من هو مدين لك يمكنك أن تدعه يخدمك في أي وقت. ولكن ليس هذا ما أتوجس منه. إذا تولينا السلطة في مصر نحن الاثنين برقت وأنا، كلانا أديغي، فماذا سيكون موقف قوم والدتك الذين لا نغيب عن ألسنتهم؟

– ألم تكونا أديغيين، السلطان بيبرس وأنت قلاوون قائد الجيش، حين كنتما تحميان مصر من جهة الشرق ومن جهة الغرب؟

– كنا في ذلك العصر أكثرَ تمسكاً بهويتنا الأديغية من يومنا هذا.

– والآن ماذا؟

– الآن تتغير الأوضاع في العالم أكثر من ذي قبل.

– لستُ أَحكَمَ منك يا موفد الله. – التمعت عينا سلامش وقامتُه الممشوقة تزداد قوة وكأنه ليس ذاك الذي يصغر قلاوون بأربعين عاماً.– ولكن يبدو أن

النائمين أفاقوا، والمستيقظين رفعوا رؤوسهم فتحسبون حساب ما سيقولون بحقنا.

– مهلاً، مهلاً. – ابتسم قلاوون وهدّأ سلامش الذي احتدّ كالسيف المسلول – لا تدعنا نصف سكان البلاد بمثل هذا وإن كنا غاضبين منهم. هؤلاء كانوا يعيشون عِرقاً من البشر قبل أن نمتطي حصان سلطهتم. وكانت شمسُهم تشرق كشمس اليوم وتغرب. وكان نيلُهم يجري، ويغيض ويمتلئ ويفيض. ولم يكن فراعنتُهم سلاطينُهم قليلين. وصنعوا لأنفسهم تماثيل تفوق الخيال. ونشأ هنا علم الحساب والكتابة العربية والإسلام وما لا ندري من أمور أخرى. ثم من نحن بالقياس إلى الحكام الذين سبقونا؟

– إذا كان أولئك صنعوا تماثيل وصروحاً لأجلهم؛ أفلا تبنون أنتم الجوامع والمدارس والمشافي لأجل الناس؟ – لم يتراجع سلامش مع أن ما قيل له يستدعي التأمل – ألم تحموا بلاد مصر والإسلام من الكفار؟ ألا تعملون كل ما تستطيعون من أجل أن يعيش أبناء مصر وتحافظ على كيانها؟

– نعم، نعمل من أجلهم، ونحميهم ونحمي أنفسنا.

– ألا ترى أن من احتلوا مصر زمن الفراعنة من روم ويهود وفرس، وغيرهم من الغزاة النهابين لم يفعلوا ما تفعلون؟ !

– ربما كان كلٌّ يعيش بعقلية زمانه... حقاً يا سلامش، تجعلني أفكر في البعيد فتعيدني إلى عصرنا هذا، من أين لك هذه المعرفة؟ لا يضيع تأثير صداقتك مع الشاعر عزيز الأكبر منك سناً. وأنت هل تنظم شعراً؟

– لا، يقول عزيز إذا عرفت تاريخ بلادك تألمت لها وأحببتها. وأنا أؤيده في هذا.

– هذا صحيح. إن لم تعرف ما مرّ به أبناء قومك، ولم تتألم لهم، فلن يفهمك أحد، ولن يتألم من أجلك. – مع أن قلاوون كان يوافق من سيعيّنه معاوناً له فقد كان ما يفكر فيه شيئاً آخر: "لا أعرف إن كان هذا يعود شيئاً فشيئاً إلى الأفكار التي دفعتْ أمه حياتَها من أجلها مع أنه يعتدّ بأبيه ظاهراً. ليس في هذا ما هو غريب. فكما كان بيبرس يقول: البيلسان يُزهر، وكلٌّ يعود إلى أصله. نحن من ليس عندنا طريقُ عودةٍ حتى لو كنا بلا جذور حيث زرعونا. كيف سيتصرف معي هذا إن جعلتُ منه معاوناً للسلطان؟... " نعم، نعم، لم تقل كلاماً خاطئاً يا سلامش. كل ما جرى بيننا من حديث مما يستدعي التأمل والتفكير. لأجل هذا أقول إن عالَمنا يتغير كل يوم. ونمط حياتنا العربية يتقدم، وتدخل فيها دون إرادتنا وجهات نظر مختلفة. ولذا لا أريد أن تتطابق وجهات نظرنا. لا أقول إن أحداً لن يُثير في يوم قادم ما جرى لنا من مأساة أمك وأخيك، فالأفضل أن نحرص على أنفسنا.

– أفهم ما تريد أن تقوله يا موفد الله –كان الكلام موجهاً إليه مع أنه ظاهراً يحوم حوله، فأجاب سلامش مخفياً علمه به رغم أن الكلام آلمه – ثقْ بي في هذا الموضوع. ما في عروقي من دم أديغي ودم عربي سِيّان عندي. مهما قيل عنك فلن أقبل منه ما ترتاب فيه.

قال قلاوون بعد وقفة حزن قصيرة:

– شكراً أيها العادل سلامش. لم أنتظر منك جواباً آخر. وإذا كان هذا رأيك، ولأني واثق منك، فسأقول لك الآن نيتي الحقيقية: أريدك أن تصبح معاوناً لسلطان مصر. وسأطرح موضوعك في اجتماع مجلس الأمراء الاستشاري في هذا الشهر.

– ألن يعترضوا يا موفد الله بحجة أني ما أزال شاباً جداً؟ لم يستطع سلامش إلا أن يفكر في أول هاجس له.

– من اعترض حين منحناك لقب سلطان مصر وأنت في العاشرة؟

– متى جرى هذا؟ كان هذا في عالم آخر.

– سنتصرف الآن وفق ما يجري من تغيرات جرت خلال عشر سنوات. —كان جواب قلاوون قصيراً.

XII

راسم الذي له علاقة بكل الأمور السرية والعلنية في السلطنة دون أن يظهر على السطح لم يكن عنده عِلمٌ بما سيجري له وإن كان يعرف سبب حبسه. أيُطلقون سراحه أم يُعدمونه؟

"ما الموضوع الذي يعمل فيه الآن قلاوون الأسود القبيح – يقول راسم – لم يجِد عما رسموا له. قيّدني، رماني على حارك حصانه، ثم رماني على الأرض. والأمراء الآخرون الذين كانوا يبتسمون في وجهي؟ مغرب ووزدمر و سنقر، ومن معهم من المماليك؛ ألم أحارب معهم؟ ألم أحمِ البلاد معهم؟ كم من الأعداء الذين لا يريدون له الخير أبعدتُهم عن سماء مصر؟... أمثلي من تُلحق به هذه الإهانة؟ مهلاً، مهلاً ما يجري في البلاد شيء عجيب... إن استثنيت سنقر من بين الذين حبسوني فالسبعة الآخرون من عِرق واحد. أليس إذن كلام المصريين الذين كنت أكمّ أفواههم وأُرهبهم صحيحاً؟ حتى لو كان عند سنقر مثلُ هذا العداء للشراكسة فهو من الذين سلبوني حريتي! ما لم أفعله به فعله بي..."

– قفز راسم من مكانه وصاح وهو يطرق الباب بأصابعه التي فقدت إحساسها بالألم:

– أرسِلوا إليّ أحد ثقات السلطان الكبير قلاوون، ويمكن أن يكون سنقر. سأبلغه أن هناك خطراً عليه شخصياً، وخطراً على السلطنة...

كان الباب الذي طرقه راسم في الأيام القليلة الماضية أصمّ، ومخاوف راسم في غير محلها: كانوا يبلغون السلطان بما يقول في السجن وما يفعل، فغضب السلطان يوماً:

– ما الذي يعرفه هذا مما لم يقله لي إلى الآن؟ أُرسِلك إليه يا سنقر إن كنتَ من ثقاته.

– لا، لا، يا موفد الله – ارتعب سنقر بوجهٍ هرب منه الدم وهو يتذكر أن راسم اتخذ منه في عهدٍ مضى موضع ثقة متوداً إليه – لن أجعل من نفسي موضع ثقةٍ ممن لا يُخلص لك. إن كنت تجبرني على الذهاب إليه ذهبتُ، غير أني لن أسمح له أن يكلمني وحدي.

– لا إكراه في هذه المهمة. أيكون في رأس هذا الذي أوقفتموه أمرٌ كان نسيه؟ أمثال راسم لا يمكن أن تفهم أسرارهم العلنية، ولا عَقْدهم للأمور وحلّهم لها. ولا أين يبدؤون وأين ينتهون. قد يقعون في الشبكة التي ينصبونها لغيرهم. ليفكِّرْ مرة أخرى بما أمر بفعله مع أتامراد المسكين، ولْيستنتج منه عبرة! ومهما تصرف معك، ومهما أطلعك على أخبار جيدة أو رديئة، فليعرفْ أني أفكر في إعدامه على باب زويلة.

"كنا نصف بيبرس بالظالم غير أني أظن أن هذا سيجعلنا نتحسّر عليه. – برد شيءٌ في جوف سنقر – يقول: "حبستموه " فيبرّئ نفسه ويرمينا بما يأمرنا هو بفعله... – من المعيب أن تساوي الأمير راسم على ما فعله بأتامراد الثرثار. أيّ مشكلة وقعتُ فيها؟ أنا مثلُ من يقال فيه "لا تركض وراء الريح لأنك لن تستطيع الإمساك بها، ولا تتبع ظلك لأنك لن تلحق به" لن أدع من نخدمه يشك فيّ وإن وقعتُ في مشكلة".

في اليوم نفسه زار سنقر راسم، وعاد.

– ما الخبر الذي جئتني به؟ – سأل قلاوون موفده باسماً.

– يا موفد الله لم يخبرني إلا بأنه مخلص لك، ويحب بلاده، ومستعد أن يضحي بروحه من أجلك، وبأنك اتخذت سلامش معاوناً – وكتم سنقر أن راسم همس له حين أدار الحارس الذي كان معهم في الغرفة ظهره قائلاً: "إن عملتَ على إطلاقي فسأعطيك من الذهب ما يعادل فخذك"، وجوابَه وهو يُسمع من كان

معه في تلك اللحظة "لا أبيع شرفي" غير أن سنقر سقط منه قلبه وقد فهم نظرة السلطان وأسئلته التي تشي بأن لا أسرار في السجن:

– حسنٌ أن راسم لم يحقد علينا. ولكن بِمَ همس إليك؟ –جحظت عينا قلاوون السوداوان – العسليتان، وأضاف وهو يهز رأسه: – راسم لا قعْرَ له رغم أن الحبل في عنقه. إن كنت لم تغفر لمن عرض عليك ما يكافئ فخذك ذهباً فأنا سأغفر له. فإن كان غنياً إلى هذا الحد جعلته يُحسن إلى المقاتلين في المشافي. غير أن إحسانَ من وصل به الشر إلى هذا المبلغ لن يُقبَل منه. أظن أن الحبل مشتاق إلى عنقه.

"حتى لو كان هذا رجلاً متكتماً جداً – قال سنقر لنفسه حذراً جداً على كلماته – فإنه رجل نزق بلا رحمة. ليته ما دمر حياتنا وهو يبتسم لنا! لسنا نحن مشكلة إن لم يجلب المصيبة إلى مصر... خلق فتنة في أسرة بيبرس وهو يمدح أقواله وأفعاله فاقتلعها من جذورها. لولا أن سعيد لم يتمكن من الأمر في حينه فالمسكين كان أول من فهم خُبث هذا الرجل وقسوته... يزيد من تعداد المماليك الشراكسة كل يوم. إن لم نوقفه عند حده قبل أن يحوّل مصر إلى بلاد شركسية فستكون نهايتنا على يديه. أندم على أنني لم أؤيد منيرة حين قالت لي: "وأنتم أيها القبجاق سيُسقطكم هذا الثخين الرقبة من مناصبكم العليا وهو يبتسم لكم" مَن مِن القبجاق غيري مع هذا الرجل؟ لا أحد في السلطة غيرُ الشراكسة ! وأين الآخرون؟ عامّةُ المماليك من أبناء قومه ينظرون إلينا من أطراف عيونهم مع أننا أمراء. يتنمرون علينا سواءٌ كنا ماثلين أمامهم أم لم نكن..." – حين أفاق سنقر من الأفكار الكثيرة التي غزتْ رأسه سأل مموهاً رعبه بالسؤال:

– أقلتَ شيئاً يا موفد الله؟ لا تؤاخذني؛ شردتُ.

– أنا ما قلت شيئاً. ولكن أطلِعني على ما أبعدك عن محضري إن لم يكن سراً. يقال إن من يفكر يركب الفرس بسهولة فلن ألومك إن لم تكاشفني بما ركبت. إن كنت ركبت مركب خير فأنت حسن الحظ، وإن كان الشر اعتاد عليك فأنت سيئُه. هذه دنيانا. الخير والشر جانبا سرجه.

– لا، لا. يا بديل الشمس. كيف أخفي عنك سراً وأنا، بعد الله، من أمتك!

– توسل سنقر الذي كان يخاطب نفسه: "يقال: يبقى الخنزير خنزيراً ولو بترت ذيله أو أذنيه. فلا تنظر إلينا بهذا المنظار حتى لو اعتليت حصان السلطنة رغماً عنا" – فكرُك فكري، وقلقُك قلقي. وسلاحك سلاحي. أنا جاهز متى ما أمرتني بالركوب!

– شكراً، التي قالها قلاوون للأمير على سبيل إبداء حسن النية، أضاف إليها في قلبه: "أنا مجنون إن كنتُ أجهلُ أنك إن استطعتَ كسرتَ ساقيّ، ولست جاهلاً أنك وسعيد كنتما يوماً تتبادلان الأسرار. وافرحْ لأني غفرت لك كُرمى لمن مات قبل أوانه في أرض الغربة" – حسناً هذا ليس مهماً. لنتكلمْ على أبناء قومك الذين يرفعون في وجهنا قبضات التهديد من أرض فارس. ما الذي يثرثر به أباقا – خان؟ بلغني أنه يحارب حماي خاتون – خان. أصحيح هذا؟

– وأنا يا موفد الله كان وصلني مثل هذا الخبر التافه، غير أني لم أصدّق. محاربة خاتون – خان قائدِ الجيش مثلُ رفس هرم خوفو بمقدمة حذائك.

– وأنت هذا رأيك أيضاً؟

– أجانبتُ الحقيقة يا بديل الشمس؟

– لأن مغرب كان قال لي الكلام نفسه قبل أيام – نظر قلاوون بعينيه السوداوين الحادتين في عيني سنقر الضيقتين – هذا بديهي. اتفاق رأيي أميرين مخلصين لي خيرٌ من اختلافهما. ولكن سنتقدم ما دمنا بدأنا المسير. أنا أشفق

على والد زوجتي خاتون – خان وإن كان عنده من الشجاعة ما يمنعك من أن تمد يدك على رقبته. مهما تصلّبتَ أضعفك شيئاً فشيئاً قلقُ زوجتك.

"ثم إن المرأة الشابة حين تصهر قامتها الرشيقة الدافئة فيك تستطيع أن تحملك على قول أي شيء أو فعله". – أضاف سنقر في نفسه إلى كلام السلطان الذي لا يثق به.

– ولكن من تلك الناحية – مطّ قلاوون كلامه بشيء من التصنُّع – صدر خبر مقلق: تصالح أباقا – خان وخاتون – خان؛ أيكون الخبر صحيحاً؟

– ليس هذا مستحيلاً يا موفد الله – لم يدع سنقر السلطانَ ينتظره قائلاً في نفسه: "لو حدث مثل هذا وهاجمونا لكان خيراً " – المغول يقدّمون مسائل البلاد على المسائل الشخصية.

– هذا ليس طبع المغول وحدهم – لم يُظهر قلاوون استياءه مما سمع – إن لم يتصرف أي عرق من البشر هكذا أفنى نفسه بنفسه من الوجود. لن نهاجم المغول الذين وضعوا نُصب أعيُنهم احتلال العالم. ولكن إن هاجمونا فسنتصدى لهم دون اعتبار لـ "صهر" أو "قريب" أو "أخوال ابني" وسنحمي أرضنا وبلادنا.

"من تسخر منهم عندهم أرض وبلاد – تنهد سنقر من قلبه – أنت من لا أرض ولا بلاد له"

مضى على راسم نصف عام في السجن. ولكن إن كانت هذه المدة قصيرة في عمر الكون فهي نصف العمر لمن لا يملك حريته.

أنجز قلاوون كثيراً من الأعمال في مصر غير عابئ بما يشيعه أعداؤه، مستفيداً من السلام الذي وطّده في البلاد. ومهما فعل في داخل البلاد أو خارجها كان

سلامش معاون السلطان مساعده وسنده. إن قال له: اِمشِ ! ركض، وإن قال: أُركضْ امتطى حصانه.

الحياة لا تتوقف وإن استهلكتِ العمر. كان قلاوون ينظر إلى جهة الشرق وإلى جهة الغرب، ولا ينسى الجنوب والشمال قائلاً: سِيّانِ مَن في المهد ومن حبس نفسه في البلاد. ولم يكن يميز بين مسلم ومسيحي في عقد صلحٍ معه إلا من أجل مصلحة مصر. وفي مهلة نصف العام القصيرة أقام سلاماً مع اليمن وسيلان البعيدتين. وعقد اتفاقيات تجارية مع غينيا وكاستيليا وسيسيليا الكاتوليكيات. ولم يقطع العلاقات التي أقامها بيبرس مع القسطنطينية والقبيلة الذهبية إن لم يوطّدها.

ومثل كل البلاد التي لها ملوك تعيش مصر بأسرار معلنة مطوية ومحلولة.

— الفقير يضيق عليه حذاؤه، والمفرط في الغنى أعمى عما تحت قدميه.

قال قلاوون: "لا يجوز لسلطان وإن كان على عرش من الذهب، ولو ركب أسرع حصان، ولو شرب من آنية الفضة، أن ينسى المحروم والقلِق". واستدعى قره خان:

– أنسيتم أنه مضى على اعتقالكم راسماً ذا الأذن المرهفة نصف عام هذا اليوم؟

– إن كنت ترى هذا فأنا أقول هذا أيضاً يا موفد الله.

– ولو لم أخبرك؟

– لو لم تتذكره كان حدث له ما كان والدنا يقول: متى توقف الناس عن ذِكرِ أحدٍ بخير أو بشرّ فقد مات. أقول الكثير، اغفر لي يا بديل الشمس.

– لا ثرثرة في ما يستفيد منه العقل. والدك رجل حكيم؛ أما يزال حياً؟

– لا، فارق الحياة.

– لينظر إليه الله بعين العطف في آخرته!

– حياك الله.

– ومتى فارق الدنيا الفانية؟

– مضى زمن غيرُ قصير... – أجاب قره خان قائلاً في نفسه "لا أدري إن كان السلطان يشكّ في أن الوالد كان قائد النوبيين الثائرين قبل أعوام"

– ولكن ما سمعه بعدما أجاب أعاد إليه رباطة جأشه.

– ما العمل؟ لا قرار لنا في ما قدّره الله العلي العظيم. يرزقنا بولد ثم يَتَوفّى إليه غيرَه. أتعرف بِمَ أشبّه الأمر يا قره خان؟ بالشرق والغرب، والليل والنهار، ولذا أطلِقْ سراح راسم الذي أمضى عقوبة نصف عام. وأحضِره حالاً إليّ !

– ألا ننتظره قليلاً ليُعنى بهندامه يا موفد الله؟

– ألا يصلّون في سجوننا؟ أليس فيها حمامات؟

– يا بديل الشمس ما تسأل عنه متوفر في سجوننا بعناية.

– ثم ماذا؟ أضاف قلاوون بعد وقفة قصيرة وبصوت مختلف – إن لم يقف كل مسلم أمام الله خمس مرات نظيف الروح والجسد فلْيعرفْ من نفسه أنه ليس مسلماً! – وأنهى بكلام مختلف عما هاجم به السجين، وكأنه ندم على كلامه القاسي – ليس راسم من هؤلاء الذين يقال فيهم مثل هذا الكلام الجارح...

لا فرق عند الفرح والحزن بين فارس وراجل – والاثنان يستوي عندهما السلطان المدلل وعامة الناس. أحدهما يجعلك تقول وقلبك يمتلئ فرحاً "يا لحسن حظي!" والآخرُ يجعلك تصرخ وقلبك يتلوى: "من أين جئتِ يا مصيبة؟ !"

– سقط الناصر الصغير من الشجرة. وانخلعت ركبته !... – جعل الصراخ والبكاء اللذان ارتفعا في الدار السلطان وراسم ينتفضان برأسيهما.

XIII

الحياة كلها مزيج من الأسئلة والأجوبة. من يعرف الجواب الصحيح لكل سؤال! ليس هناك اختيار سهل؛ فالطريق المستقيم تملّ فيه، والبرية الواسعة تضلّ فيها. ودروب الجبال الصاعدة النازلة خطيرة. والأفق، حيث تلتقي السماء بالأرض تبدو قريبة ومع ذلك يبتعد دون أن يسمح لك بالوصول إليه. نور الفجر منبثقاً من الظلام بعديد من الأسئلة والأجوبة يحمل معه النهار فيُفرح من يحمل إليه الفائدة، ويُحزن من لا يحملها إليه. ثم يصمت في حمرة الشفق.

الدنيا بليلها ونهارها، بمطرها وجفافها، بخصبها وجدبها، بحربها وسلمها، تمشي في طريقها. يستوي عندها السلطان والعامل، والسليم والمريض.

إن كان الخير والشر متجاورين في الحياة فمهما حرصت على نفسك، مستقيماً كنت أم ملتوياً، يرفعك إن لمسك طرف منهما ويخفضك. إن كنت راجلاً يجعلك تحسد الراكب، وإن كنت راكباً يجعلك تعدو وراء من هو أمامك. فإن لحقت به كان خيراً. ولكن إن لم يتحقق لك فالحسد يُنسيك ما هو خير في الحياة فتقضي عمرك في الحسد والغيرة.

مرّ قلاوون في حياته بكل هذه التجارب. لا يعني هذا أنه منذ أن كان صبياً مملوكاً لم يحسد أحداً، ولم يشتهِ شيئاً. الحسد والرغبة مختلفان ولكن الحسد الذي يتولّد من الرغبة يسيطر شيئاً فشيئاً على حياة الإنسان. والسلطان إنسان فإلى أين يذهب تاركاً قومه؟ إن جاؤوا بك إلى البلاد وأنت صبي بلا حيلة فستغبط من له أب وأم، ومن هو شبعان، ومن هو لابسٌ. وستشتهي كسرة الخبز التي ليست بين يديك. وحين كان على درب السلطنة التي لا يعرفها شعر قلاوون مرة واحدة على نحو مفاجئ، ودون أن يدري هو بالحسد — وكانت هذه المرةُ حين تجاوزه بيبارس وهو يُحتضَر وترجّاه أن ينصِّب ابنه الأكبر سعيد سلطاناً

مع أنه يعرف ابنه. وكلما ارتاح على العرش الذي صنعه لنفسه بعد تعاقب الأخوين سلطانين لم يعرف السبب في أن تطفو ذكريات الأيام الماضية البعيدة على السطح. أيدفعها التصرف السريّ الذي يحتفظ به لنفسه، أم يعد نفسه صار ابن إله لأنه سلطان؟

كان قلاوون سأل برقت في أحد الأيام:

– ستصل سريعاً إلى نصف الستين عاماً، عمري الآن؛ أتعرف تصرفاً تخجل منه فيما عشتَ؟

– يبدو لي أن سلوكنا كله خطأٌ باستثناء الليل الذي نستريح فيه من تعب النهار يا موفد الله. – أجاب برقت بطريقة لا يُفهَم منها إن كان في الجواب مزاح أم لا. وتأمل وجه السلطان كأنه يقول له: لا أفهم طريقة سؤالك.

– أقصد ما ارتكبتَه بنفسك، فما ارتكبه الآخرون ليس تصنيفُه من شأنك. – تظاهر قلاوون بأنه يشهد على صحة ما قاله، مخفياً ما أبداه صوته من عدم ارتياحه للجواب – لا أظن أن هناك أحداً على سطح الأرض، كبيراً كان أم صغيراً، تخلو حياته مما يُقلق.

– نعم، نعم. – وافق برقت السلطان وإن لم يتراجع في داخله عن الجواب. – لا تستطيع ألا تقلق للسرّ الذي أفلت منك. ولكن مهما كتمنا من أسرار فالله تعالى يعرفها. أدعو إليه أن يغمرنا بعطفه يوم القيامة. كل يوم نرتكب خطأ ما. أقول: نخطئ لأننا ما نزال أحياء. ولكن دنيانا العربية التي يدخل فيها قولك وعملك تعيش في سلام، إنهم أناسُك.

– ماذا؟ أقلت "دنيانا العربية"؟ – قاطع قلاوون كلام برقت مستغرباً.

– نعم، قلت دنيانا العربية؛ أليس صحيحاً؟

– لا، لم ترتكب خطأ – حتى لو لم يكن السلطان مصدقاً ما سمعه فقد فصّله – هذه هي حالها، وهكذا يجب أن تكون. أسمع أديغياً نطق بهذا بعد بيباريس. يُريحني أن تكون هكذا – وسأل بعد سكتة قصيرة – أم تغني أغنية من تركب عربتهم؟

– لا أقبل على نفسي هذا التمثيل تماماً. غير أني أجرّ حِمْلَ النير الذي ربطوني إليه.

"دنيانا العربية... أجرّ حِمل النير الذي ربطوني إليه" – لا ينسى قلاوون ما قاله له برقت مرة: "على ما يبدو أنا واحد ممن يجرّون حِمل الدنيا العربية؛ ولست مجرد واحد منهم، بل أنا سائطهم، وأملهم. سلطانهم الغريب..." لم أستطع إلى الآن الاعتياد على البلاد التي رويتها بدمي ودمعي، وأسست فيها أسرة، وصرت سلطاناً عليها " أنا أعيش على الأرض العربية وهذا سري السلبي، وإن كان بيباريس يحدّثني عنه أحياناً. أأنا عبد أم محارب أم غريب؟ ما الفائدة في أن أبحث اليوم عن جواب بعدما حدث ما حدث؟ أألجأ في شيخوختي إلى طفولتي البائسة؟ أأنهي شيخوخة حياتي أحنّ إلى شمس صباي الدافئة وأنا هنا، تعبر السواقي قلبي، وجبالها البيضاء القمم ماثلة أمام عينيّ. أنصت إلى أصوات مطرها الناعم؟... "حفنة من تراب الوطن الذي ولِدت فيه خيرٌ من جبل من الذهب في أرض غريبة" – حين رأى قلاوون ابنه الناصر يركض نحوه يعرج وقد عجز أمهر المجبّرين عن شفاء رجله، وهو يتذكر كيف بكى هو وبيباريس حاملَين رماد قريته المحفوظ في كيس، عاوَدَه ألم قلبه:

– لا يسمح لي خليل أن ألعب معه لعبة "الطميمة"!

– ما الأمر؟

– يقولون لي: أنت تعرج، لا يمكنك مجاراتنا.

– أعجيب أن تعرج بعض الشيء؟ ! مسح قلاوون على رأس الصبي الذي ضمه إليه – لا يسخر الناس مما فعل الله بالإنسان.

– ليس اللهُ من فعل بي – صرخ ناصر بقلب مهتاج – لو لم يدفعني خليل لما سقطت من على الشجرة.

– نعم، نعم. نعرف. وبّخناه بما يكفي. وإلى الآن لم أستطع مصالحة أمك وأمه. هاتان ليستا أختين، لا تسمعوا لهما. أنتما، أنت وخليل، أخوان. لا تُعادِ أخاك وقد حدث ما حدث وانتهى. إذا أردتَ لعبتُ معك الطميمة. أنا أغمض عيني أولاً وأنت اختبئ !

– كيف نستطيع أن نتجارى أنت وأنا! – أفضى ناصر الصبي بما في قلبه ناسياً حزنه فابتعد راكضاً عن أبيه كما جاء، وصرخ مولّياً: – سيرى خليل ما أفعله به إن لم يسمح لي أن ألاعبه الطميمة!

" أنا لا أرضخ لِما حصل لي.. – قال قلاوون وهو يتابع الصبي – أقول له: اِرضَ بما حدث لك. ألأني أحاول أن لا يتعادى ولداي اللذان من صلبي؟ لماذا إذن أسمح لمأساتي التي مضى عليها نصف قرنٍ أن تتلاعب بي؟ ليس بي عاهة تحمل الناس على أن يقولوا لي "أنت أعرج، أنت أبتر اليد، أنت أعمى". ألأن من أرى ظهورهم المحنية في حضوري يخاطبونني من ورائي بالغريب؟ أنا سلطانهم ولو نادوني. وأنا بديل شمسهم. ومن يراني يحثو على ركبتيه. وأمتي تدعو لي في الجوامع بطول العمر والانتصار على الأعداء. ما الذي لا أملكه؟ ماذا أريد؟

– في هذه اللحظة قفز إلى ذهنه "جبل الذهب وحفنة التراب" ولكنه أبعد الفكرة عنه قائلاً: من ينتظرني في تلك البلاد؟ ولكنه بعد قليل نفّس عن غضبه موبّخاً من لم يعتدْ عليهم طوال سنين: – شمسُ هؤلاء تغلي في السماء، وطبيعتهم مُغمّة. وقمم جبل المقطم مللتُ منها..."

استدعى قلاوون بعد صلاة الجمعة الشاعر عزيز، وقال له قبل أن يتجاوز الباب:

– أنشِد لي يا عزيز القصيدة التي أحبها.

– دربند مدينة صغيرة – كبيرة – يقرأ عزيز على الباب بعينين مغمَضتين. – أعبر البوابة الكبرى المفتوحة لك من الغرب –حصاني يقضم لجامه، ما يأتيني من تلك الناحية من سحب بيضاء على مرأى مني – ومن الأرض يُسمع صليل سيوف الشراكسة التي تحمي الأرض من خلال الريح التي تسفّ وجه الأرض.

نهض قلاوون بقامته الفارعة وأكمل القصيدة:

– هرب المغول ذوو العيون والأفواه الضيقة بعدما وقعوا في المصيدة. يعودون إلى حيث انطلقوا وقد تهرّأت نعال خيولهم. أحسنتم يا شراكسة ! – يضيف هو من عنده إلى القصيدة آخر كلمتين. شكراً يا عزيز، نَظَمْتَ قصيدتك وكأنك ترى شجاعة الشراكسة رأْيَ العين. أحسستُ أنك كنت معهم بقلبك وروحك.

– ألا يكفي يا موفد الله أن المغول يسرحون على ظهر البسيطة سلّابين نهّابين! وإلى الآن لا تزال بلاد الفرس تحت نعالهم. لم أستطع الوصول إلى بلاد الشراكسة، ولكنهم لم يسمحوا لأعدائنا أن ينهبوها. وحين سمعت أنهم تصدَّوا لهم نظمت القصيدة من أعماق قلبي.

– وأنا وصلني هذا الخبر أكثر من مرة. لا تظنني أقول لك هذا الكلام لأني من تلك الأنحاء. الشراكسة في كل عصر محاربون أشداء.

– وقد سمعت المغول يصفون الشراكسة بالصفة نفسها يا موفد الله. كل من يحمي أرضه قويٌّ وعادل. عاشق الحرية في أرضه على عقبيه. وشمسه دافئة. وسماؤه جميلة. وقطرة مائه عسل. وإصبع من أرضه تساوي قلبه.

"اسمعْ ما يقول عزيز الشاعر! – صرخ قلاوون من قلبه مما سمع – لم يقل غير الحق. ولكن أينشده لنفسه أم يحوم بها حولي؟ سأرى".

– ما قلته عن الحرية صحيح. ولكن هل تظنه مناسباً لمن نحتفظ بهم هنا من المماليك؟

– إن لم أجنِ سوء تفاهُمٍ يا موفد الله، فلن أكتم حقيقة ما في قلبي.

– سأغفر لك أيها الشاعر مهما كشفت لي من سر جارح لأني لا أعدل بشعرك شيئاً. أسمعك.

– ما يحميه مماليكك يا موفد الله ليس أرضهم، ولا بلادهم، ولا أنت.

– من يحمون إذن؟ – سأل قلاوون وإن خمّن ما سيقوله عزيز.

– ما يحمونه هو نفوسهم فحسب. من مات منهم استراح، ومن عاش حمى نفسه.

– وأنا؛ كيف تنظر إلى سلطنتي إذن؟ – ابتسم قلاوون – متى وضعتَ رجلك في الركاب فاركب!

– وأنت مملوك، لا يعرف إلا الله ما ستحميه، وما سيحدث لك. إن كنت محظوظاً فلن تصحو البلاد التي نصبت فيها عرشك... لا تؤاخذني. يقولون: ما يقطعه السيف يلتئم، وما يقطعه اللسان لا يلتئم.

– لن أؤاخذك ولو قلت لي أسوأ ما يمكن قوله لأني لم أسمع ما لم أتوقعه. ولكن إن أسررت لأحد بما تكلمنا فيه، سواء كان عربياً أم مملوكاً، فلن أسأل عنك مها نظمت فيّ! هل فهمت أيها الشاعر؟ – أكمل قلاوون بصوت أنعم،

وبعدما أنشد قصيدته الأديغية الآن دعا الله لنفسه: – ارحمنا يا إلهي، ارحمنا من أعدائنا في كل مكان.

XIV

تعرف رضا الإنسان من خلال لونه وجِلسته وطريقة كلامه. وتراها في ضِحكته وفي إشارة يده. ولا يتعلق كونُك محظوظاً ولو لعدة دقائق بمنصبك: سلطاناً أو عاملاً أو أسيراً أو محارباً. هذه الليلة لم يكن قلاوون مجرد سلطان. كان رجل الحب غير المحدود الذي يذيب القلب ويمنحه الطيبة والحياة، وأسيرَه العاشق. لم يعرف قلاوون منذ زمن بعيد راحة النفس التي يعيشها هذه الأيام روحاً وقلباً وجسداً. ألأن التقدم في العمر، وهو ما يخافه، لم يُهنه في الفراش، على مُضيّ الأيام والشهور والسنين، أم ما يمنحه إياه شباب أسلون الحار من فحولة؟

نظر قلاوون المرتدي صداراً مطرزاً بخيوط الذهب والفضة إلى أسلون المديرة ظهرها من خلال فتحة قميصها فقال لها وقلبه يقفز في صدره:

– ما أسرع ما استيقظتِ يا أسلون!

– الشمس تكاد تشرق يا روحي الوحيدة. ألا يكفي ما أمضيناه في الفراش.

– كنت أفضّل من جهتي لو تأخرت الشمس قليلاً.

– أما كفاك نومك يا شمسي المنيرة؟ – مازحته أسلون بسؤال خبيث ولو أنها فهمت ما يقصد زوجها.

– كنت أريد أن نبقى كلانا كما الليلة نجمتين دافئتين أحدنا للآخر، خيراً من أن أكون شمساً منيرة– توسل قلاوون بصوت خارج عن سيطرته كما لو أنه ليس سلطان بلاد العرب.

– حين تغيب الشمس ستنبثق ثانية نجمتان دافئتان من كبد السماء. – التفتت أسلون بوجه محمرّ وشعر منسدل، ولم تكتم ما كانت تريده الأنثى في داخلها — ولكن إن كنت تشتهيني فتعالَ، لا شيء أُمسِكُه عنك.

خلع قلاوون الصدار نافداً صبرُه، وضم أسلون الرشيقة، وهمس في أذنها محدقاً في عينيها الضيقتين الجميلتين الحارّتين:

– أتلبّين ما أطلبه أم تريدينني؟

– أريدك يا حبي، أريدك – مدت أسلون شفتيها الحمراوين إلى الرجل وهما ترتجفان، وحين اندمجا في كيان واحد على فراش الحب همست ثانية في أذنه في شوق خفي يفرط القلب: أريدك، أريدك، لم أعد أخجل منك لأنك تقول لي: لا تخجلي! أريدك دائماً. متّع نفسك ومتّعني أنا! أتسمعني؟ أنت، أنت من يملكني...

ما الذي جرى لقلاوون في شيخوخته؟ أي حب لا نهاية له نبع في قلبه نحو زوجته الرابعة أسلون؟ كان قلاوون في بداية عامه الخمسين حين تزوج من ابنة خاتون – خان من أجل لجم المغول الذين كانوا يقدمون من الشرق. وكانت تصغره بثمانية عشر عاماً. ومضى العام الأول من زواجهما في حب لا يعرف الملل ولا ينتهي.

ومع أن زوجاته الثلاث الأوليات كن يتصبّرن متذكرات شغفهن الأنثوي في عمر الشباب، قائلات في أنفسهن، مبتسمات: إن " كل امرأة شابة تمتع الرجل" فقد كانت الأولى التي احتجت على فوات دورها هي بيبا التي ولدت له عليّاً وخليلاً. ولم تكن الزوجتان الأُخريان دون أطفال – منحته كلٌّ منهما أكثر من طفلة. حين يقول "البنت تضيّع النسب" تجيبه الأمّان "ليُدمك الله فوق رؤوسنا مزيداً من الوقت، إن كنت رجلاً فالبنات هن من سيندبنك"، يجيبهن باسماً "حين أصل إلى هذا العمر فمن سيبكونني ومن سيفرحون كثيرون"؛ رغم كل هذا كان يلبي للبنات كل ما يردنه، على مبدأ: حتى من يعيش في دار من الحديد يحتاج إلى إبرة. ومع أنه كان يحب أبناءه الثلاثة حباً لا يقارن بغيره فقد

كان يعاملهم بمنطق الأب القاسي، ولكنه كان لطيفاً مع الناصر على مبدأ أن الأصغر أحبُّهم إلى أبيه، إضافة إلى عرجه.

كانت بيبا الزوجة الأولى ترى، بينها وبين نفسها، سُمْنتها عيباً، وترى نفسها أمام الآخرين جميلة سيدة، ورغم ذلك لم تملك نفسها أن قالت مرة لزوجها على سبيل المزاح:

– ها هو الأمر يا بديل الشمس — من أين لنا أن نسترجع شبابنا؟ – كانت عينا بيبا تغليان بحيث تنسيانك تقدمها في العمر وسُمنتها — ونحن كنا شباباً إن كنت تتذكر، كان خصري بثخن ثلاثٍ من أصابعك.

– أتذكر، أتذكر — ابتسم قلاوون — ولكن من أين نأتي بالشباب الآن!

– إن لم تجده فيّ من جديد فلستُ على هذه الدرجة من السوء تماماً... — حاولت بيبا أن تستعرض إمكاناتها من خلال قوامها فلم يطاوعها، فقالت:

– ألم تملّ منه، تصحب شهوتك إلى من تجد فيها طلبك.

نظر قلاوون في وجه زوجته الأولى بودٍّ معتدّاً بما لُمِّح به إليه من مسألة الذُّكورة. وتذكر أنها كانت يوماً رشيقة ولذيذة، وأنه كان يحترق في أعماق قلبه شوقاً إليها، وبدأ شبقه إليها، وهو الذي كان اضمحلّ منذ زمن بعيد، يستيقظ في جسمه، فلام نفسه: " أقول عنها ناسياً نفسي: صارت بدينة، عجوزاً، فأجحفت بحق هذه المرأة معتقداً أنها لم تعد ترغب فيَّ. ما الذي بيدي؟ الهرمُ عدو الشباب دائماً. وهكذا تسير الدنيا، القديم يزول، والشاب يصعد إلى السطح... وأنا هل أملّ من الحب يوماً؟ إن لم تملّي أنت فلماذا أملّ أنا؟... يقول الشاعر عزيز: "استمتع ما دمت قادراً ولو أن الدنيا فانية، ولن تأخذ معك شيئاً إلى حيث ترحل سواء أكان ما عندك كثيراً أم قليلاً " — في هذه

اللحظة امتثل لقلاوون السلطانُ الصالح وشجراتُ، وحين نظر من الفرجة رأى وراءهما قاهر، نفض الثلاثةَ من ذاكرته بحركة رأس عنيفة، وقال للمرأة:

– لا تلوميني أيتها السيدة التي استرجعت شبابها، بما أن الله سمح لمن يرتدي قبعة بأربع نساء فأنا أعيش لا أخالف هذا القانون.

– امتلاك أربع نساء لم يفهمه يا بديل الشمس الرجال الذين أحسن الله إليهم. كثير من الرجال يتناسون إن كانوا قادرين على متطلبات الأربع.

ضحك قلاوون من أعماق قلبه. تأمل ثانية المرأة التي تناست استدارة قوامها "كيف أُرضي هذه في الفراش بعد أسلون الصغيرة اللذيذة التي تضيع في صدري وتذوب في لحمي. نكابر فندّعي الرجولة ولكن بشق النفس"

– على ما تقولين يا حبي الأول – قال قلاوون ولو من خارج قلبه – وأنا تعدّينني بين هؤلاء.

– لماذا إذن تجعلني أقضي لياليّ التي لا تنتهي وأنا أشتهيك سنين وسنين؟

– كنت ارتحت إلى حالك لأنك لم تُشعريني بمثل هذا الإحساس. – ارتخى صوت قلاوون الذي يعرف ذنبه تجاه زوجة شرعية له، غير أن عدالة ما سمعه أعادته إلى الوعي.

– لا يؤسس الرجل أسرة كي يُبقي على المرأة زينة في البيت: من أجل تقاسُم الفراش، وتربية الأولاد، والإبقاء على النسب.

– شكراً، أنا راضٍ عنك. – لاطف قلاوون من كانت ترتب الفراش رغبة في أن يُسكت الأنثى التي تحاججه بإلحاح.

– كان عندنا مثل هذا الحب في زمان ما. متى كان هذا؟ –... خلعت بيبا ثوبها الحريري المفتوح وارتمت في الفراش – تعال لنحيي حبنا.

– في عز الظهيرة؟ – الحب الذي كرّهوه إلى قلاوون بسبب المهاترات حرّضته الآن عليه.

– هذه الغريزة موعدها متى تخطر لك. لا تميز ليلاً من نهار؛ ألست من كان يقول لي هذا في شبابنا؟ إن كنت تتذكر ففي ربيع العام الماضي كنت أسمعتني إياه. تعال إليّ، لا تنظر جهة الباب، اطمئن هو مغلق. يكفيني أن تنام معي مدة في الفراش، أن تنام مقابلي.

"نامت بجانبي وبطنها كالبرميل الخشبي، وتنظر في وجهي كأنها تقول "أرضِني إن كنت رجلاً !"– قفز قلاوون ناهضاً غاضباً من إهانة فحولته، وبدأ يرتدي ملابسه – لا أوافق الإمام عماد ولكنه على حق حين يقول لا يجوز أن تُطمِع أي أمرأة من نفسك. وهذا وارد في كتاب الله العزيز" تذكر أنه قبل أعوام، زار متنكراً دار بغاء في أحد حمامات الفسطاط، فأمر بجَلدِ النساء العاريات والرجال، وسَوقِهم في الشارع عراة في عز الظهيرة. وفي اللحظة التي أمدّته فيها الذكرى باللطافة، جعله الكلام المسموم الذي سمعه ينفض رأسه:

– ما الأمر؟ لماذا تنهض مسرعاً؛ هل تخاف أن أعضُّك؟

– أنتِ ترغبين، ولكن لا تجبري الرجل على ما لا يستطيع.

– أتقول أسلون ذات العينين الضيقتين مثل هذا الكلام؟

– ما المنكر الذي يخرج من فمك؟ لا تنسَي أني سلطان يا امرأة!

– أعجيب إن كنت سلطاناً؟ ! – رمت بيبا اللحاف عن جسدها وجلست في الفراش.

– لا تدعيني أفعل بك ما لا يجوز فِعلُه ! – جحظت عينا قلاوون السوداوان.

– أعرف أنك شجاع في ما تريد فعله... – قالت المرأة التي غلبها الخوف بصوت منكسر، ولكنها سرعان ما بادرته بما أعاده إلى الوعي – ألا يكفي ما

فعلتَ بالمسكينة منيرة؟ ألا تعرف أن سلامش الذي تضحك عليه الآن لن يغفر لك يوماً ما؟ أعرف أنكِ إن لم تلبي للرجل رغبته الملحة فلن يدع شيئاً لا يفعله... — انفجرت بيبا باكية رغم أنها لم تكن تريد أن يبدو عليها الشعور بالإهانة: – دعهم يفعلون بي ما تشاء — أصدرْ أوامرك أن يقتلوني، أن يشنقوني، ولكن ولديّ لن يغفرا لك.

– لا تنسي أني جئت بهذين الولدين إلى الدنيا بقوتي ورجولتي. إن سمحت للمرأة الغاضبة في الفراش أن تلاسنك فلن تجد منها منطقاً — رمى قلاوون المرأة بهذا الاستنتاج وخرج من الغرفة.

– هذا هو، – قالت بيبا في إثر الرجل — بدلاً من أن تُرضوا زوجاتكم الشرعيات بمطالبهن ما أنتم مفلحون فيه أيها الرجال. تحاربون، تصارعون، ترتبون أمور البلاد، وتنشرون الفوضى في كل مكان.

قضى قلاوون بضعة أيام بعد ما جرى بينه وبين الزوجة الأولى لا يُطيق رؤية أيٍّ من زوجاته باستثناء أسلون. ولم يكن ليعطله هذا عن القيام بمسؤوليات السلطان. يُمسك مشرق البلاد ومغربها. ينصت إلى جهة بلاد الفرس، ويتطلع. ويعرف ما يجري في بيزنطة البعيدة. وأحياناً يرتمي بقلبه جهة بلاد الأديغة متنهداً. ويعرف أخبار الصليبين القريبين والبعيدين وتحركاتهم: ما يقولون وما يفعلون. ويُعرض عليه ما يجري داخل البلاد بخيرها وشرها.

ويتابع راسم بحذر أعماله التجسسية بعدما أُطلق سراحه من السجن مواسياً نفسه "وأنا سيتاح لي يوماً الانتقام". ويخفي ارتيابه في أن كلاً من سلامش وقره خان يلاحق أخباره مستقلاً عن الآخر، دعْكَ من سنقر الذي يعرف راسم كل خطوة يخطوها، ولكن زيادة في الحرص، وعلى مبدأ "من يُحرقه الحليب ينفخ في

الماء" فقد أنهى علاقتهما التي اضطره إليها وجوده في السجن، بل إنه يخاف من مجرد أن تقع عينه عليه.

يقلق قلاوون لعدم الوفاق في أسرته رغم أن مسائل الدولة فوق الجميع. وقد مضى شهر على خروجه من لدن بيبا بصفقة الباب. وكلما فكّر في سلوك الزوجة الكبرى معه قضى لياليه مع الزوجات الثلاث الأخريات، كلاً بدورها، متشوقاً إليها. يستقبلنه بالحب الممزوج بالشوق والرضا، ويودعنه من غرفهن بلمسات المرأة الناعمة. ويقضي هو أيامه متلهفاً على موعد نومه.

"والأُخرى؟...وما العجيب إن كانت الزوجةَ الأولى؟ ألم يُلبسني الله تعالى، دعْكَ من مسألة السلطان، قبعة قائلاً: أنت رجل؟ ! مع أنها تعرف أن الله أكد على أن لنا الحق في أن نتزوج أربعاً فالوقحة عديمة الإيمان التي دللتها في بيتي لم تخجل مني ولم تخف. ولا ترتدع من شيء. أنا المسؤول ! ما زلت أقول: هي المرأة الأولى، منحتني ولدين، قاسمتني مشاقّ سنواتي الأولى حتى أصيبت بالغرور فسمحت لها أن تعبث بي في شيخوختي. وهل كنت سلطاناً حين تزوجت الثانية؟ ! وهذه الأخرى تعبت معي، وأهدتني ابنتين كلٌّ منهما أحلى من الأخرى. والثالثة امرأة ودود، ظلت تلوم نفسها على أنها جاءتني بابنة لا بولد ، فصبرت معي إلى الآن منعشة روحي. وأسلون الرقيقة هذه ألذُّ من الحلوى. تذوب في الفم، وتُخصب في الصدر. ولا يُمل منها. ماذا كنت أعمل لو لم يكن عندي ثلاث زوجات وبقيت تحت رحمة بيبا القبجاقية السليطة اللسان؟ لن ترحمك حتى لو كنت فارساً أو سلطاناً أو ترتقي جبلاً من الذهب. ولو استطاعت لتركتْهم يأسرونك، ويشنقونك... أنا لن أفعل بك شيئاً أيتها المجنونة، ولكن من تندب يأتيها ما تندب لأجله كما يقال، فأنت ستجلبين لنفسك الويل بنفسك..."

– هناك ما يُقلقك يا روحي الوحيدة، ولا تستطيع البوح به – لاطفت أسلون زوجها – لا تكتمني، أتحمله معك.

– الحمد لله لا داعي للقلق – صحا قلاوون وقال في نفسه "لماذا أكلّفكِ بعبء عدم فهمي للمرأة إلى الآن فأعذبك معي؟ !" – البلاد بسلام، وأهلها مرتاحون. ولكن أتعرفين ما فكرت فيه حتى صار مضحكة لي؟ – تظاهر قلاوون بأنه يضحك عن صدق وإن كان قلبه لا يساعده – أتتذكرين ما حدث لنا في العام الماضي بشأن الوفد الذي جاءنا من سيلان؟ من حسن حظنا أننا – الطرفين – كنا حكيمين يداً وعيناً. الآن عندما نسافر إليهم أيمكن للشاب العربي الذي بعثناه معهم ليتعلم لغتهم أن يصبح مترجماً لنا؟ ألم أفعل حسناً إذ اخترته من بين الشبان المماليك الذين جاؤوني بهم؟

– ليس حسناً فحسبُ يا بديل الشمس، كنت مرتاحة أيضاً لانتباهك السلطاني إلى الأمر. – وفي اللحظة نفسها تذكرت أسلون صبيها الأعرج وتألّمت ولكنها كتمت ألمها – أخرستَ مرة أخرى ألسنة أهل البلاد الذين يزدادون سخطاً يوماً بعد يوم. كثيرون من الناس سجلوا لك نقطة إيجابية بإدخال اللغات الأجنبية في المدارس من الإفرنجية والمغولية والرومية والعبرية.

– أقول شكراً لكل من فهمني، ولكِ يا أسلون. – قال قلاوون مرتاحاً، وأكمل – وهذا يجب أن نضيفه إلى مهامنا الحالية نتيجة إهمالنا في الماضي. إن لم تكن تعرف لغة أصدقائك وأعدائك فأنت أخرس في الدنيا. لا بد أن يظهر من بين الصبيان الذين يتعلمون في المدارس صبي لبيب ولو أنه يقال إنك لن تتعلم حتى لو شربت الحبر. إذا كان ما تراه العين يساوي الإنسان كله فلا يجوز أن تنغلق في بلادك. ها هم، سترين، سيكون معظمهم أمل البلاد، وعينها، ونورها.

– علي وخليل يسخران من صبينا الصغير ولكنه يتعلم الإفرنجية والمغولية بشغف في المدرسة. — امتدحت أسلون ابنها وخداها يتوردان من فخرها به.

– أنا راضٍ عن الناصر مُحَمَّد بالقياس إلى من ذكرتِ اسميهما من أخويهما. – كان قلاوون قد أنار بكامله من الفرح، غير أنه وجه إليها مزحة صادقة: – لا تركّزي بهذه الحجة على لغتك المغولية!

– لا، لا، وأنا حذرة من هذه الناحية — استعجلت أسلون ثانية موصِلة إليك تمزيقها المحبب للغة العربية التي لا تتقنها — ولكن أتعرف ماذا يقول الناصر مُحَمَّد؟ يقول عليك تعلُّم لغة أعدائك.

سكت قلاوون برهة ثم أنطقه قلقُه:

– أمزح معك ولكن من المؤسف أن تعادي من يتكلمون لغة أمك، ومن يجري دمهم في عروقك. ويجري هذا معي من جهة لغتي. لا أقصد أني أعادي الشراكسة الذين أنا منهم. ما ذنبُ هؤلاء؟ كل الذنب على وضعي كمملوك. حتى لو كان أبناء قومي معي في قلبي فمن غيّبهم عن لساني هو كوني سلطاناً. ما زلنا نقول: يجب أن تتلاءم مع من تقيم معهم، ونتوسل إليهم، فغنينا معهم الأغاني التي ليست في دمنا، وأكلنا معهم ما لا يعجبنا من الطعام، وارتدينا الملابس التي ليست ملابسنا، ورقصنا معهم وإن لم نستطع مجاراتهم. وإلى الآن، وإن صرنا سلاطين عليهم، لا نزال نتوسل إليهم، ونتصاغر أمامهم، وأخاف أن أُدرج اللغة الشركسية في المدرسة... ولن ينطق الشاعر عزيز بأصدق من قوله "تحمون بلادهم من أجل أن تحموا أنفسكم" وفارق بيباريس الحياة وهو يقول "البلاد التي لا تحبها من قلبك لن تصبح فيها بطلاً ولو اجترحت فيها البطولات". وأنتِ ألا تراودك أحياناً مثل هذه الأفكار المقلقة يا أسلون؟ نحن

مجبرون، أما أنتِ فلا تحتاجين إلى شيء من هذا، لا تسمحي لهذه الأفكار أن تغزو رأسك، ولا تصدعيه بها.

يستولي على جسد أسلون قلق ورهبة من كلام السلطان الصريح الحزين الذي كان كل أملها، ويخفق قلبها الصغير كما قلب العصفور الذي جاؤوا به من مكان بعيد وحبسوه في قفص لم يعتدْ عليه. وبتصارع في جسدها البرد والحمّى. ومع أن مظهرها الرشيق يوحي بأنها لن تستطيع احتمال أيسر المشقات فقد أنطقتها القوة التي تعود إلى كل امرأة ساعة الضيق:

– لا تقلق عليّ إلى هذا الحد يا روحي الوحيدة. وإلى رأسي أيضاً تأتي بعض الأفكار. ولكن إن لم نكن أنت وأنا واحداً، وإن لم أقاسمك أفكارك وقلقك، فلا فائدة فيّ. ثبّت نفسك على سرج حصان العرب الشموس الذين أنت سلطانهم إن كنت ركبته من نفسك، ولا تُفلِت لجامه من قبضتك. لا أعرف أنك فعلت ما تخجل منه طوال السنوات التسع التي عشتها في بيتك. إن كنتُ أنا معروفة بأني مغولية من خلال عيني الضيقتين فلا تكتم عمن يعرفونك أنك شركسيٌّ بعلامة رجولتك.

– شكراً يا أسلون — لم يستطع قلاوون أن يضيف شيئاً إلى ما قاله، ثم برّأ نفسه: – ماذا بيدنا؟ هذه دنيانا التي نعيشها — ثم بعدما هدأ قلبه كان بوده أن يقول لها "لا تكتمي إن كانت إحدى زوجاتي، ولا سيما الكبرى باعتبارها سليطة اللسان، أساءت إليك" ولكنه لم ير التنبيه مناسباً.

XV

بدأت في سوق قيسارية المعركة التي نشأت من تجابُه الناس المتجافين، ووصلت إلى أماكن أخرى، والتهبت في الشوارع، وأسرعت إلى أفنية البيوت، واقتحمت البيوتَ نفسَها. وتجمَّع فوق القاهرة تصايُح الرجال وبكاء النساء والأطفال. تُسرع من جهة قلعة الروضة جيوش المماليك من فرسان ومشاة مدججة بالسلاح. وتنحدر من أعلى جبل المقطم. ومن جهة النيل الضيق، ومن مدينة الفسطاط.

أسرع قلاوون الذي أُبلِغ بالخبر المزعج فارتدى ملابسه، وخرج من القصر. وحين امتطى السرج المغطى بالقماش الأصفر الموشّى بالذهب سأل قائد الجيش برقت وإن كان يعرف ما يجري في البلاد:

– ما الذي يجري في المدينة؟

– الشراكسة والعرب يتحاربون يا موفد الله.

– وما الذي يتنازعونه؟ – سأل قلاوون عما كان خائفاً منه في قلبه ولكنه سرعان ما غيّر الموضوع – ومَن المبادرُ من الطرفين؟

– إلى الآن لا يمكن معرفته. الشراكسة والروم متحالفون من جهة، ومن الجهة الأخرى العربُ والقبجاق. ومسألة النزاع السني الشيعي...

– والجيش المملوكي؟ – سأل السلطان عما كان يُهمُّه، ولم يكن في حال تسمح له أن يسمع ما يقال له.

– الجيش المملوكي يحجز بين الطرفين.

– لماذا توقفنا، امشِ ! – حين همز قلاوون حصانه اعترضه سلامش معاونه:

– لن أسمح لك أن تنزل إلى الساحة الآن !

– أيّ إهانة ألحقتها بي؛ ابتعدْ !

– ألست أنت يا موفد الله من يقول: من يتعرض للإهانة يجد فرصة للانتقام؟ نحتاج إلى وقت. أرسلْنا أورخان، ولذا سنفكر في ما سنفعل بعد رجوعه.

– أي تفكير؟ هل بعدما تدَعون أهل المدينة يتذابحون؟ – لم يكن قلاوون ليتراجع وإن كان صوته يبدو ينخفض – لا أفهم ما تنوون...لماذا أنت واقف هنا يا برقت؟ – صرخ عليه، ثم ترجاه بالأديغية رجاء من يثق به: – إن كنتم تنوون بي شيئاً فلا تكتموا عني !

– لا أحد عنده مثل هذه النية نحوك ولكن...

– ما هذه الـ "ولكن" – غير قلاوون لغته إلى العربية وقاطع برقت – لا أحتاج إلى مناوراتك، أريدك أن تقول حقيقة الوضع.

– قلتُ "ولكن" يا موفد الله لأني لم أكن أريدك أن تدخل بينهم فترى الفتنة القذرة، وتسمع ما يخرج من أفواههم. –كان برقت يبرّئ نفسه مهموماً بتهدئة السلطان غير عابئ بما يقال له – الجيش المملوكي حاصر المدينة بحيث لا مدخل ولا مخرج. وكل شيء تحت سيطرتنا. – وأضاف بالأديغية إلى ما قاله بالعربية: – لا قلق عليك ولا علينا. نعمل على القبض على المجرمين الذين سنأتي بهم إلى حضرتك في باب زويلة.

– إن لم يكن لك ما تُسِرُّه إليّ – قال قلاوون بالأديغية. ثم أكمل بالعربية – فقل بلغة بلادنا كي يفهم الجميع – سنحاسب كلاً على جريمته دون اعتبار لأصله: شركسياً كان أم عربياً أم تركياً أم كردياً أم رومياً أم يهودياً... تعال يا عماد، سننتظر قليلاً إن كان أمراؤنا سيعيدون المدينة إلى حالها. وسندعو الله أن يرأف بالأبرياء. وسنناقش ما سنفعله بالمذنبين. – حين ترجل السلطان من الحصان فعل الآخرون مثله.

كان بوُدّ قلاوون وهو يعبر حراسه الممسكين بزمام حصانه أن يدعو برقت إليه ولكنه أبى أن يُشِيع الريبة في قلوب السامعين من تهامس الأديغيين فلم يفعل. وزاد في ارتياحه أن ترك علي وخليل بين حماة القصر. وبرقت وسلامش وإن رفع صوته عليهما أليسا أديغة؟ يتوقع منهما عند الضرورة أن يفهماه. "أقول هذا ولكن من الصعب أن تعرف كيف سيتصرف أقرب الناس إليك حين تقع في وضع حرج. كل الأماكن العالية في كل زمان خطيرة، يُسقطونك منها. أو تدوخ فيها. إذن هل وصل أمري إلى هذه النقطة؟ مضت سبعة أعوام على تسلمي السلطنة. وخلال سبعة عشر عاماً قضاها بيباريس في السلطنة لا أذكر فتنة بين طائفتين متعاديتين في القاهرة. أتحكّهم جلودهم لأني أشعت السلام أعواماً طويلة في البلاد؟ أم حدث لنا نحن المماليك ما يتوقعه أهل البلاد لنا؟

تخطى الصبيُّ الناصر مُحَمَّد وهو يعرج السلطانَ ومرافقيه، ومع أن الأخير كان مرتاحاً لنظرة التأمل الخاطفة من الصبي إلى الوراء فقد قال في أثره وقلبه يتألم: "وأنا ورّطتُ هذا الصغير. مهلاً يا ولدي، مهلاً. لن أغفر لمن يقول عني "الأسد ولو تثلّمت مخالبه يبقى أسداً، والكلب ولو ولد بين الأسود لا يخفى أصله" إن لم يقترف أعواني خيانة ما من ورائي... المكان الذي تعرف فيه من معك ومن ليس معك هو مثل موقف اليوم..."

يعود قلاوون إلى قصر السلطان وعيناه إلى الوراء. يود أن يلتفت إلى الوراء ولكنه لم يكن يريد أن يرى أحدٌ، ليس ما يعرفه من نفسه من الرعب، بل أيَّ أثر للخوف على وجهه. ولم ير من المناسب أن يجعل الإمام المرتدي عباءة سوداء ضافية يرتاب في شيء منه. القامة الجسيمة المدججة بأسلحة مختلفة: الزرد، والسيف، والترس، والفأس، والسكين، والقوس، منتصبة. والرأس الكبير الذي ازداد ضخامة بالخوذة مرفوعة. والسوط الرصاصي المطوي في قبضته،

والإمام المستدير الوجه، الشائب اللحية يحاول بخطواته القصيرة التي ترسم " لام ألف " مجاراة خطوات السلطان الفسيحة فيستطيع ولا يستطيع. وخدم الدار والبوابون الذين لا يعرفون حقيقة ما يجري في المدينة يختلسون النظر إليه من أطراف عيونهم حانين ظهورهم. كان السلطان المحط الوحيد للأمل وإن كان يخفي ما يصطرع في داخله من قلق.

غير أن قلاوون الذي يعقد الجميع آمالهم عليه ينظر إلى نفسه بعين أخرى. ويخاطب نفسه من خلال قلبه الذي يتجاوب معه: "هل أَصبتُ إذ عدتُ دون أن أقابل الحاقدين من أمتي بالسيف. لا يستوي مهاجمو بلادي من الأعداء الخارجيين وهؤلاء الذين يتقاتلون. لو انخرطت في صفوفهم، لو رأوني... ألا يعرف هؤلاء أني مقيم في المدينة، وأني سلطان البلاد؟ ألا يردعهم جيشي المملوكي؟ أي فتنة شيعية سنية كان برقت يريد أن يبلغها إياي؟..." التفت قلاوون إلى إمامه بقلب هائج وعين حارة ولكن لم يقل له شيئاً. وحين دخل الغرفة سأله عما كان يُهمُّه في لحظتها:

– ما رأيك يا إمام في ترجُّلِنا عن خيولنا؟

– لا تندم على ما فعلت يا موفد الله وإن كان استلال السيف سهلاً. ضعْ ثقتك بالجيش المملوكي.

– أليس الجيش المملوكي سيفي أنا؟ – ردّ السلطان، ثم طرح السؤال الذي طرق الرأس في حينه: – أيّ فتنة شيعية سنية كان برقت بدأ يرويها؟ – ألم يتوقف هؤلاء إلى الآن؟ ما لم يستطعوا أن يفعلوه بحق الفاطميين ابتداء من القائد الأسود للجيش جوهر، مروراً بمعزّ والحاكم، فعله الصلاح والصالح الأيوبيان السنيان. ما الذي لم يحققوه إلى الآن أيضاً، وماذا يريدون؟

– لم ندّخر جهداً يا موفد الله بحق الشيعة الذي ينقضون دين الإسلام. — برّأ الإمام نفسه — اختلطوا بنا سراً مدّعين أنهم سنة، كي يهدموا ديننا. والدروز هم الذين انخدعوا بهم تماماً.

– الخلاف على موقع ابني فاطمة بنت النبي مُحَمَّد الحسن والحسين في الإسلام مقابل أسرة بني أمية الطامحة إلى الحكم هو أصل الخلاف بين المسلمين بعد أن التحق النبي المنير مُحَمَّد بالله تعالى، وتفرّع الدروز والإسماعيليون وفرق أخرى من هذا الخلاف... مهلاً !... — اقترب قلاوون الذي لم يكن ينوي نزع أسلحته من النافذة، – كأن الفتنة تقترب منا، من باب زويلة... أين الجيش المملوكي؟ رجع إليه الارتياب الذي كان بدأ يفارقه، قائلاً: ربما خدعني من كانوا يقولون لي "لن نسمح لك بالنزول إليهم الآن، لا داعي للقلق". وما إن قال قلاوون "إن لم يكن الأمر هكذا فأين علي وخليل؟" حتى ظهر الصبي الأصغر من خلل الباب فناداه: – ادخل، لا تنظر من وراء الباب، ماذا يجري يا ولدي؟

– أنا جئت دون سبب، هكذا...

– حسناً فعلْتَ إذ جئت — نصح قلاوون الصبي وهو يستعيد وعيه: – لا تفزع، تجري لنا أمور كثيرة من هذا القبيل. البؤس يا عماد في أننا أسبلنا أيدينا هكذا.

الباب الذي انفتح على السلطان على مصراعيه دون ذنبٍ له في الأمر أفزع قلاوون وعماد وناصر حتى رفعوا رؤوسهم فجأة. قال السلطان لبرقت وسلامش وقره خان من ورائهما متظاهراً بأنه غير مهتم بعدما عرف أنهم يحملون خبراً ساراً:

– أسمعكم.

– مولِعو الفتنة ينتظرونك يا موفد الله على باب زويلة. – قال سلامش باختصار.

– لا تمييز بين بريء ومذنب بين من حملوا السلاح بنية القتل في مدينتي وفي بلادي. ستكون عقوبة الطرفين واحدة. هيا يا عماد، وأنت يا ناصر اركبْ إن كنت ستتحمل ما ستراه اليوم.

الشمس الشاحبة التي تغلي وسط السماء الشاحبة كانت تتسلل من ساعة الظهيرة حين وصل السلطان قلاوون وعماد إلى باب زويلة محروسين بالفرسان الثلاثمئة. لما رأى الفرسانُ المصطفون في ثلاثة أنساق، حراسُ البوابة العريضة، السلطانَ قادماً ترجلوا ووقفوا إلى جانب أحصنتهم ممسكين بأعنّتها. ووقف مَن أمامهم في وضعية الاستعداد. وحنى سكان المدينة المستدعَون إلى الساحة ظهورهم إشارة احترام. وركع أغلب المذنبين المقسومين إلى مجموعتين على ركبهم، وبقي عدد منهم واقفين على أقدامهم.

– لماذا قسمتم هؤلاء إلى مجموعتين؟ – سأل السلطانُ راسماً، والتقط المنادون كلماته فبلّغوها إلى الحاضرين من أهل المدينة –هل وزعتموهم حسب أعراقهم؟ المجرم لا انتماء له؛ ضمُّوهما ! والواقفون فوق رؤوسهم أليسوا منهم؛ لماذا لا يركعون على ركبهم؟

– يرفضون لأنهم استغنوا عن حياتهم يا موفد الله – أجاب سنقر بدلاً من راسم، وأنهى الكلام بما يريد قائلاً في نفسه: "من أين جاء هذا المجنون الذي تجحظ عيناه؛ ظننا أنه في عداد القتلى" – هؤلاء من يجب أن يُعدَموا أولاً.

– ألا تعرفون ماذا تفعلون بهم؟ – كان السلطان بلا رحمة – أصدِرْ أمرك بكسر سيقانهم، وسترون حين يساقون من أمامي، لاحقاً، أين ستشنقونهم.

– لن أكلّف أحداً بهذا يا موفد الله، سأفعل هذا بيديّ – أسرع سنقر نافِد الصبر،حاملاً الفأس واقترب من الرجل الذي كان ينظر إليه، وصرخ عليه بصوت عالٍ ليُسمِع من خرج من بينهم: – لماذا لا تركع على ركبتيك أمام موفد الله؟ !

– لأنك لستَ ممن يفون بوعدهم – لم يُجب الرجل المغضوب عليه بالعربية التي خاطبه بها سنقر بل بلغة القبجاق.

– كم مرة قلت لك إنه ليس في بلادنا إلا اللغة العربية؟ لا الشركسية ولا القبجاقية!

– ليس إليّ يوجَّه هذا الكلام – تكلم الآن بالعربية القبجاقيُّ الذي ماكان يطيق صبراً – الحركة التي كنت تحرّضنا عليها، والتي تحاول لملمتها الآن...

– ماذا تقول يا عديم الإيمان ! – حين ضرب سنقر بكل عزمه رأس الرجل الضخم أسقطه قبل أن يُنهي كلامه. وهزّ الفأس التي تقطر دماً للثلاثة الذين هوَوا إلى الأرض: – من أيضاً كره روحه؟ !

"لم يبق على البسيطة إنسان تثق به – يعود سنقر مقتنعاً بما عمل ، ضارباً سوق الذين ينظرون إليه من أطراف أعيُنِهم، مهتماً بما سيكون عليه استقبال السلطان له، – لو لم أفعل هذا بابن عِرقي المجنون لأزهق السلطان روحي وروحه... لن تستطيع أن تؤذي هذا السلطان الشركسي بإثارة الفتنة وتحريض المدينة ضده. يجب التفكير في طريقة أخرى معه. إما زوجته الكبرى البدينة، وإما زوجته الصغرى. وإما حين ندخل معاً ساحة إحدى المعارك... وأباقا– خان كسول، لا أعرف لماذا لا يتحرك..."

توقع سنقر أن يمدحه السلطان على ما فعله بالمجرم الذي قدر على قهره، أو ينتقده، غير أنه لم يفعل، إذ لم ينظر السلطان إلى الجهة التي اتخذ مكانه فيها،

بل لم يرد على تحيتِه هزةِ رأسه. قال سنقر لنفسه: "قل ما تشاء ما دمت أنا وضعت نهاية للأمر الذي أخفقتُ فيه. ما الذي يهمني من كلامك" وفيما يظن أنه أنقذ نفسه من المهلكة التي وقع فيها همس له راسم المفتوح الأذنين دائماً:

– كان عليك أن تدع الرجل الذي قتلته ينهي كلامه !

– اسمحْ لأي شرير أن يفتح فمه لا يوفّرْ بحقك شيئاً – أجاب سنقر على التلميح كأنه غير مهتم، واختتم بصوت عالٍ نزقٍ: – أكنت تريدني أن أسمح له باغتياب سلطاننا العظيم أمام عينيّ؟ ألا يكفي ما قاله المجرمون في المدينة وما فعلوه؟ لا يزال أمامنا متسع من الوقت لهم.

– لحظة ! — السلطان يتحدث فلْنسمعْ — قاطع راسم كلمات سنقر المتعالية المرائية، وابتسم قائلاً في نفسه: "أظنه وقع بيدي الآن"

– أيها المسلمون الذين أدعو الله العلي العظيم أن يشملهم برعايته، اسمعوا سلطانكم الذي ندعو له بطول العمر، ومن يسمع يبلّغْ الأبعد، وليصلْ كلامه إلى الجميع !" — أصوات المنادين المتجاوبة تعلو في السماء من باب زويلة، فتتناثر على الشوارع، وتطوف الأسواق، ويتردد صداها على نهر النيل، ويبدؤون يتعاورون كلمات السلطان:

– يا أيتها الجماعة التي أدعو لها الله أن يرأف بها. لن أطيل الكلام لأن ما حدث في القاهرة اليوم أمر محزن. أعزّي الأسر التي جلب المجرمون الحزن لها. وأدعو لمن سقط بريئاً منكم أن يفتح الله له باب الجنة. سنواجه كل مجرم بجريمته.

أعدِموا حالاً هؤلاء العشرة بمن فيهم مَن قُتِل أمامنا. والآخرون الذين أفلتوا منا لن يذهبوا بعيداً. هذه العقوبة تنتظرهم.

نظر راسم نحو سنقر حين أتى السلطان على ذِكْر الذي قُتل بالفأس كأنه يقول له "أتسمع يا سنقر !" وردّ عليه في قلبه الآخرُ الذي كان تلقى إشارة بالمرفق "ليس الأمر كما تظن تماماً"

******

في اليوم نفسه، مع اقتراب أذان العصر، قال قلاوون للناصر مُحَمَّد الذي لم يفارقه:

– ادعُ أخويك الكبيرين! سنصلي معاً أمام الله.

– ليسا في البيت.

– وأين هما؟

– صحبهما راسم للبحث عن المجرمين.

– وأنت؟

– أنا كنت مع السلطان ورجعت معه.

تأمل السلطان الصبي الجالس أمامه وابتسم له وفي ظنه أن أحداث هذا اليوم عمّقت في تفكيره:

– يسرني أني وجدتك اليوم يا ولدي – وسأله بعد قليل: – أأنت من قال: يجب على المجرم أن يعرف جريمته، ألم تخف؟

– لا، لم أخف – أجاب الصبي بسرعة وكأنه كان ينتظر السؤال، ثم خصّ بكلام كالرجال تماماً – ألست يا موفد الله من قال: على المجرم أن يعرف جريمته؟

– أنا، ولكن لست متأكداً؟

– لم أجفل حين قَتل الأميرُ سنقر المجرمَ ! ولكني خفت حقاً صباحاً حين ترجلتَ من الحصان ودخلتَ الدار.

– ماذا، ما الأمر؟ – استغرب قلاوون ما سمع، ثم سأله متسائلاً في نفسه "أترى ظهر عليّ ما جعله يرتاب؟"

– لأني لم أرك قطُّ غاضباً إلى هذا الحد.

– هذا ما تعنيه؟ ! – تظاهر قلاوون بالضحك حين وجد مخرجاً من ورطته – ما الذي يجمع الغاضب والمرتعب؟ إذا كنت سلطاناً وجدتَ نفسك في مواقف كثيرة من هذا النوع. أتعرف ما أصعب الأمور تمييزاً؟ الصدق والكذب.

– وما الصعوبة في هذا؟ أجاب الناصر مُحَمَّد بعقله الطفولي ضاحكاً – الصدق صدقٌ والكذبُ كذبٌ!

– لو كانت الدنيا كما تتصورها أنت... ستعرف حلاوتها ومرارتها حين تصبح سلطاناً فحسبُ.

– ومتى هذا؟

– وأنت تريد أن تصبح سلطاناً؟ – ندم قلاوون على أنه ألقى بموضوع السلطنة على مسامع الصبي.

– إن أراد خليل أن يصبح سلطاناً فأنا أيضاً أريد.

– إذا كنتما الاثنين تريان هذا؛ فما رأيُ عليٍّ؟

– وهو أيضاً يريدها – لم يكن الصبي يتراجع عن موقفه مصدّقاً ما يقول.

– ليحقق الله مرادكم ! الإخوة الثلاثة تحفرون لي جيداً – ضحك قلاوون – ولكن إن لم تعزلوني عن السلطنة فلا أنوي أن أسلمها لكم ما دمت حياً.

– ليس هذا الآن يا موفد الله، حين نصبح أمراء للجيش.

– أهذا رأي أخويك أيضاً؟

– أيسمحان لك أن تعرف ما في قلبيهما؟ ! أنا أخبرتك بما في قلبي.

– شكراً، إن كان الأمر هكذا فلا مشكلة. امضِ لنتوضّأ ونصلي لله كي يتفهّمنا سواءٌ كان ما عملنا اليوم خيراً أم شراً. — "بين من أعدمناهم اليوم مَن ليست هذه بلادَهم بل يحمون أنفسهم فيها، هم من أبناء قومي الأديغة" لم يغب هذا الموضوع عن بال قلاوون ريثما وقف على سجادة الصلاة هو وأبناؤه، بالإضافة إلى موضوع رغبة أبنائه في السلطنة. وفكر كيف يقول هذا لمن وقف في حضرته. ولم ينس أن يدعو إلى الله أن يغفر له اصطحابه ابنه إلى ساحة إعدام باب زويلة، وثرثرته بعد الأحداث معه.

XVI

اعتبر قلاوون ما حدث له إهانة: متى نام تلاعبت به، ومتى أفاق هاجمته من جديد. ومتى ركب ليتسلى عنها ارتفع صدى الحادثة من وقع حوافر الحصان. يسكت لأنه يعرف القول المأثور: "سرُّك أسيرك، متى أفشيته صرتَ أنت أسيره" مِن أين له مَن يفهم عليه حزنه، ويجعله ينظر من فوق جبل المقطم، ويجعله يفكر في ما سيحدث غداً؟

سلامش معاون السلطان؟ برقت قائد الجيش؟ الأمير وزدمر؟ جيوش المماليك؟ مع أن قلاوون يعرف أن من الصعب فهْمَ كل إنسان، ومعرفةَ ما في قلبه فالآن يتذكر أكثر مما في الماضي كلام بيباريس "أودعْ ثقتك بأقرب الناس إليك، ولكن لا تنس أن ترتاب فيه من وقت لآخر". من المؤكد أنه ليس من النوع الذي يقال فيه "من لم يختبر الحزن فقد لا يعرف قيمة الفرح"، فعلى ظهر الدنيا آلاف ممن لا يتحملون ما تحمله هو من المشقات، والأموات أكثر. حين تضع نفسك أمام الناس فعليك أن تحمل معهم حِمْلهم، وتتحمل معهم أحزانهم.

"أكان من يتأملون فيّ يفعلون ما فعلوه من منكرات في حضرتي لو كانوا واثقين مني؟" – حتى لو كان قلاوون حنق على نفسه اليوم كما فعل أمس وأول من أمس، وفي الأسابيع الماضية فقد امتدح جيش المشاة الذي صفّوه أمامه كما امتدح جيش الفرسان:

– أنا راضٍ عنكم، ولْيرض الله عنكم أيضاً ! ولكني لا أحكم على نفسي بالرضا. أتحمل كامل المسؤولية عن كل ما جرى لنا لأني، وبعلم الله، حاكمُ البلاد التي ربوني فيها وأنشؤوني، ولأني أول من يحاسبونه على الطالح قبل الصالح. أقول لكم أيضاً إني كنت ممتطياً الحصان الذي لم أستطع تطويعه. لن أغفر لأحدٍ، ولو لإحدى عينيّ، أن يسيء إلى بلاده. وأنتم متى رأيتم مني منكراً

من هذا القبيل فلا تغفروه لي. ما يزال أمامنا الكثير في هذه الدنيا التي يبلونا الله العلي فيها. ولا تدَعونا ننسَ الرجوع إليه طاهري الروح والقلب. عاشت مصر العربية التي يضيء فيها نور الإسلام! وليحيَ أناسها سعداءَ! الله أكبر، الله رحيم، الشكر والحمد له! – ومع أن الجيش المملوكي وافق قلاوون الذي شدد على الكلمات الأخيرة، فقد قضى عدة أيام نادماً على أنه لم يأت على قضية السلام التي كانت تُقلقه.

كان أولُ مَن لمّح إليه بحياة السلام في البلاد هو الإمام عماد ولكن لأنه كان مستحيلاً الكلام عليها في ذلك اليوم العصيب فقد ضاعت المسألة بينهما كما بدأت. ليس السبب أن قلاوون لم يكن يجد من يقاسمه همومه. كلُّ مَن حول السلطان مستعدون أن يلتقطوا أي شيء يسقط من يده. وهؤلاء لا يميزون بين راكب وراجل، وكبير وصغير. ناوِلْهم طرف الخيط فحسب يرتّبوا لك المسألة برمتها إذ لا حاجة بهم إلى العقل. وما هو مُرٌّ على لسانك يُحلّونه لك. ولكن السلطان لم يكن يجد من اللائق الكلام شخصياً بسوء على حياة السلام التي نشرها في البلاد؛ كان يريد من شخص آخر الكلام في هذا الموضوع. – ومن يلمّح لهم إليه كانوا يسكتون أو لا تصل عقولهم إلى إدراكه.

"ما الذي في هذه المسألة مما لا يدركه عقلك؟ ! – مع أن قلاوون كان يغضب أحياناً فإنه حين يفكر في السوء الذي يخالط قلبه يدين نفسه وينصحها: – نعم، نعم، المطر الناعم ينتظره الإنسان، ولا ينتظر الصحو. وأنا لا أريد هذا. غير أن الجدب يُحرقك. وحين يحملك تتطلع تتوسل إلى السماء لا تميز سحابة بيضاء من سوداء. ليس هؤلاء ممن يحمون رؤوسهم فحسب مثلي. – ينظرون إلى الأبعد. يهتمون بطريقة عيشتهم. أما أنا فالسلام الذي أقمته لأمتي ما زلت أحسدهم عليه فأُذنبُ بحقهم. من غيرُ الله يعرف أن الفتنة التي نشبت في سوق

قيسارية لم أحلها من جذرها، بل حصرتُ اهتمامي بالقاهرة لأحمي نفسي، واتهمت المذنب والبريء. إن كان ما قاله لي راسم قبل أيام بحق سنقر... سننتظر ما يحدث لأنه قال إنه سيتابع ما يشكّ فيه. أفليس الجيش مشاركاً في القضية إن صحّ التوقع؟ هذا غير ممكن! ليتقاتلْ أهل المدينة مئة مرة إن شاؤوا شريطة ألا يُشركوا جيشي المملوكي. مَن مِن أسلافي السلاطين قال إن السيف إن طال مكثه في غمده صدئ؟ من الممكن أن يحدث هذا للمحاربين أيضاً. المملوك الذي قال لي قبل أيام بين الجد والمزاح "صدئت سيوفنا لتعطُّشها للدم" لن يفهمك إنت طالبته أن يعيش حياة السلم سواء عنّفته أم لاطفته. أمثال هؤلاء، وأنا منهم، هم من يُعدّونهم منذ طفولتهم للحرب. من حسن حظنا أننا لم نغز بلاداً غريبة للسلب والنهب. نحن نعُدُّ هذه مفخرةً، ولكن هل من الصواب والعدالة أن يكون جيشك عبداً لأمتك؟ !..."

في نصف العام المنصرم لم يكن قلاوون يهدأ باحثاً لنفسه عن الذرائع المفيدة وغير المفيدة. حراسه الفرسان الثلاثمئة خفض عديدهم إلى النصف، وهم في الشوارع. وسوق قيسارية والأسواق الأصغر منها تحت رقابته. وزار مرفأ النيل، وأبحر في مركبه الشراعي الأصفر في النهر. وحين عاد إلى المدينة مرّ على المستشفى ولو أنه تفقّده قبل أسبوع. ونفض عنه حراسه الكثيرين، وتوقف برفقة سلامش وأوزدمر وراسم وسنقر على الباب، وحيا كبير الأطباء الذي استقبله، وقرّب إليه ابنه خليل:

– قدّم ألف القطعة الذهبية التي جئنا بها باسم أسرتنا وخدمنا إلى المشفى. وأنت يا راسم؟ إن كنت تتذكر ما وعدت به سنقر فسيسرنا أن تتبرع بنصفه فقط لصالح مماليكنا الشجعان.

– لا شيء يا موفد الله يعزُّ على أبطالنا الذين لم يتخلَّوا عن رجولتهم. لم يمرّ عليّ يوم لم أزر فيه هؤلاء الأبطال وأتفضل عليهم. وكما يقال: الجزعُ يسنّ سكينته لنفسه، نظر راسم نحو سنقر الذي أوقعه في الورطة — يمكنني أن أعطي ما لا يقلّ عن الألف ولو لم يكن عندي المبلغ الذي ذكرتَه.

– شكراً يا راسم، لا إكراه في هذه المسألة. يمكن أن تقدم الذهب أو الفضة، كلٌّ وما تجود به نفسُه. وأنتم سلامش ووزدمر وسنقر؟ حماتي هؤلاء ليسوا فقراء؛ ليمدوا أيديهم إلى جيوبهم! وأنت أيضاً يا قره خان. — حين وُضِعَت الجرة الملأى بنقود الذهب والفضة أمام قلاوون قال مُسمِعاً الجميع: – أدعو لكم أن يضاعف الله لكم ثوابكم أضعافاً. ولكن أقول ثانية لكم، وأُطلع من لا يعرف: المشفى الذي فيه فضل الله هو أغلى مكان في مصر. المرضى الذين هنا ليسوا ممن تُدفَع إليهم الصدقات. – يعيشون فيه وهم يجدون من أملاك البلاد كل ما يريدون. أمثال هذا المشفى قائمة في الإسكندرية ودمياط والفسطاط. ونحضِّرها في أماكن أخرى. وفي سورية افتتح الأمير مغرب منها. ليكن إحسانكم ورحمتكم سبباً في شفاء المقعدين من المقاتلين في سبيل بلادهم. آمين يا الله!

في أحد الأيام، اقتحم الناصر مُحَمَّد غرفة السلطان وهو عائد من المدرسة يزاحم من يُدافعونه عند الباب.

التفت قلاوون ذو الرقبة الثخينة بصعوبة بعدما رفع يديه عن الطبل بسرعة. ومع أنه ابتسم للصبي الذي ذُهل لما يرى مع أبيه السلطان لأول مرة، فقد لامه:

– ما الذي حدث لك يا ناصر مُحَمَّد كمن جمع حوله الكلاب والصقور؟

– مرة أخرى لم يسمح لي بوابوك بالدخول. – قال الناصر مُحَمَّد شاعراً بالإهانة من سلوك حرس السلطان معه، واختتم باستيائه: – أأنا طفل صغير حتى تأمرهم بالإمساك بطرف ثوبي؟ !

– إن فعلوا بك مثل هذا فلن أقبل منهم – مع أن قلاوون كان يبتسم في سره فقد كان مسروراً لنمو الصبي جسداً وعقلاً، واقترابه منه يوماً بعد يوم. واحتفظ بولاء حراسه – ولكن ربما لأني أكّدتُ عليهم ألا يسمحوا لأحد بالدخول إلى غرفتي.

– ألأنك يا موفد الله تعدُّني بين هؤلاء الذين تسميهم "أحد"؟

– ألستَ إنساناً فلا أعدَّك بين هؤلاء الـ "أحد"؟ – تظاهر قلاوون بالمزاح مع من كان يماريه، ثم مدحه: – أعرف أنك لست من الذين يأتونني دون أي سبب.

– إذن لم تعرفني هذه المرة – ابتسم ناصر في وجه أبيه بين التعالي عليه والتصنع – جئتك لأني اشتقت إليك، أريد أن أراك، هكذا دون سبب، ألا يجوز؟

– أوَ تسأل عن هذا يا ولدي؟ ! لم أسمع في الشهر كله أحلى من هذا الكلام. إن كان عندك مثل هذه النية الصافية فتعال كل يوم، وأنا لن أملّ منك – بدأ قلب قلاوون يتفتت فغيّر موضوع الكلام كي لا يلاحظ الصبي حبه له:

– كيف تجري أمورك في المدرسة؟

– ندرس!

– أتتقدم في لغتك الإفرنجية والمغولية؟

– ليستا وحدهما بل أتعلم الشركسية أيضاً.

– وكيف؟ – رفع قلاوون رأسه الثقيل استغراباً لما سمع – من دون علمي، لغتنا، اللغة الشركسية أأدرجوها في منهاج المدرسة؟ أيريدون أن يثيروا بيننا الفتنة مرة أخرى؟

– لا يا بابا – نادى الناصر مُحَمَّد أباه بـ "بابا" دون إرفاقه بـ "موفد الله" – زميل لي شركسي في المدرسة يعلّمني.

– لماذا لم تخبرني إلى الآن أن عندك زميلاً شركسياً؟

– هذا العام يا موفد الله كنت تتحاشى أبناء جلدتك الشراكسة فلم أشأ إخبارك. هو ولد طيب.

– ما عمره وما اسمه؟

– عمره خمسة عشر عاماً، أكبر مني بعام واحد. واسمه "شَتَه أبْش" [1]

– ماذا قلت اسمه؟

– قلت: شته أبش.

– لا أعرفه ولو أنه يحمل اسماً أديغياً صميماً.

– إذا أردت يا بابا عرفتك عليه يوماً ما. وأنت تعرف أباه جيداً.

– ومن أبوه؟

– الأمير وزدمر.

– هاه، لم أعرف أن لدى الأمير وزدمر مثل هذا الغلام!... ما سمعته عجيب. يعيش وزدمر حياته لا يعرف أحد شيئاً عما يفعله أو يقوله. – صحا قلاوون بعدما كان يحدّث نفسه: – لا داعي أن تعرّفه عليّ. ولكن احرصا كلاكما على نفسيكما. ولا تبالغا في لغتكما الشركسية.

[1] يعني باللغة الأديغية: ساعد السيف.

– ما الأمر يا موفد الله؟ – أهناك أمرٌ بألا نتكلم الشركسية؟

– لا وجود لمثل هذا الأمر إلى الآن. ولكن إن أصدرتُه...

– إن فعلتَ هذا... – اختطف الناصر مُحَمَّد الكلام من السلطان – فسيفرح من تصدره إليهم. ولكن ستجد من يقول: السلطان يقول ما يريد، ونحن نفعل ما نريد.

– كفى ! – قاطع قاوون كلام ابنه دون غضب – جئت إليّ اليوم بدافع الحب والشوق، ثم تقول لي أشياء عجيبة، لنتكلمْ في موضوع آخر!

– حسناً إن كان هذا رأيَك – ولكن لا أعرف حاجتك إلى الطبل الذي كنت إلى جانبه.

– هذا؟ – ابتسم السلطان – أسلّي نفسي، وأتعلّم.

– ماذا ستفعل به؟

– وأنا لا أعرف... من أجل أن أجمع السكان الذين لا يحبوننا إن هاجمَنا أقرباؤك من جهة أمك المغول.

– انتظر إذن إلى أن يسمعوك ! – أسرع الناصر مُحَمَّد بالجواب، وحين تذكّر من شبهوه بالطبل تحول إلى مضحكة له: – يقول عزيز عن المعلم الذي يعلمنا العربية: صوته عالٍ ولكنه أجوف كالطبل.

– أتريد أن تقول إن قامة هذا المعلم تشبه قامتي أنا؟ سأل قلاوون متفقداً قامته مازحاً.

– لا يا بابا. وكيف تشبهه أنت! هو مثل عصا الطبل نحيف جداً، متكبر، منخاره في السماء، رغم أنه ضئيل الجسم.

– لا بأس إن كان هكذا، لا تهتمّ لهذا يا ولدي – أراح الأبُ الصبيّ الذي كان يحاول التمويه على ما قاله – إن شئتَ علّمتُك القرع على الطبل.

– ما أريده هو حمل السيف، والتقطيع به، لا القرع على الطبل.

– لا تتعجل الأمور يا ولدي !

– بلغتُ الرابعة عشرة وأنت تنصحني بهذه النصيحة. إن كان السببُ هو عرجي... – انفجر الناصر مُحَمَّد بكاء ورأسا كتفيه قد ارتفعا – فأنا لن أكون راجلاً بل فارساً.

– مهلاً، أيّ عيب تفعله بحضرتي وأنت الرجل الكبير؟ ! إن كنت تقول هذا فهات لي أحد سيفيّ المعلقين على الجدار.

قفز الناصر مُحَمَّد من مكانه، والتفت إلى الوراء في طريقه إلى السيفين وهو يعرج:

– الأكبر أم الأصغر؟

– ما تستطيع استعماله.

انفتحت بوابة السلطان الكبيرة، ودخل قره خان مستعجلاً:

– جاء حالاً يا موفد الله موفد مستعجل من مغرب في سورية.

– أدخِله ! – نهض قلاوون متوقعاً خبراً سيئاً وقال للفارس الذي حياه بقوة:

– أسمعك !

– أباقا – خان يحشد قواته على حدودنا يا موفد الله.

– أخبِروا أباقا – خان أني سأتصدى له بنفسي. إن كان واثقاً من رجولته فليختر المكان الذي يريد !

******

لم يُطل قلاوون مجلس الأمراء نصف ساعة. قرروا السير بالجيش الجاهز دائماً. أبعد السلطان ريثما ارتدى عدة الحرب ما كان متردداً فيه، ودخل الغرفة التي تنتظره فيها نساؤه لتلبية رجائهن. تقدم قليلاً داخل الغرفة، وقال لهن بكلمات حاسمة:

– لم يكن من عادتي أن أودّعكن قبل سفري، ولكني نقضت عادتي لأنكن رجوتنّ رؤيتي. يسعدني أن مأساة البلاد جمعتكن هكذا اليوم. أَكبرُ الصِّبيةِ عليٌّ، معي، بعد الله. والصبيان الآخران وأخواتهم في عهدتكن. أتريدين أن تقولي شيئاً يا سيدةَ القصر،كبيرةَ الزوجات؟

– ندعو لكم أن يثلم الله سيوف أعدائكم، ويكسّر نبالهم يا بديل الشمس. — لم تدع بيبا السلطان ينتظرها — مع السلامة، حظاً سعيداً!

– حيّاكنَّ الله، ليسدْ الوفاقُ بينكن ! — قال قلاوون لنسائه، وحين وصل إلى عمود الباب عاد فأوصى الثلاث الكبريات: – إياكن أن تسئن إلى صغراكن بحجة أن المغول أعداؤنا. ارعينها. أنت يا بيبا المكلفة بهذه الوصية لأنك كبراهن.

XVII

– أحسنت! يبدو أن أباقا – خان واثق من نفسه، لم يحنث بتهديده – قال قلاوون حين رأى الجيش المغولي على مرتفعات حمص، واختتم: – اللحظة التي ستتجلى فيها شجاعته هي لحظة التقاء سيفينا.

وافق سنقر السلطان بهزة رأس وإن كان يسخر منه في قلبه قائلاً: "بدأت تسلخ جلد الدب قبل قتله":

– نعم يا موفد الله، لم أقابل بعدُ عدواً نجا من تحت سيفك، السلطان قائدنا، وشجاعته سيفنا المسلول.

– لا تلعب بسيفك في الهواء بهذه الحجة يا سنقر – رد عليه السلطان شاعراً في قلبه أن سنقر يسخر منه، وأكمل ما انقطع من حديثه: أستمع إليك يا مغرب.

– ليس أباقا – خانُ قائدَ الجيش المغولي يا موفد الله.

– من رشّحه لمقابلتي إذن؟ – شحب وجه قلاوون.

– منغو – تيمور – خان.

– وهذا الذي ذكرتَ اسمه ليس قائداً جباناً ولكن إن كان أباقا – خان يريد أن يُهينني بهذا... – إن رجعت سنة ونصفاً، في صيف عام 1277، مع أن اجتياح المغول الذين كان يقودهم منغو – تيمور ، ونغوي لأرض الأديغة آلم مرة أخرى قلاوون، فقد أنهى بكلام صريح ما كان يفكر فيه: – ولو أرفق به نغوي قائد الجيش لكان حسناً.

– منغو – تيمور – خان له رفيق، ولكن هذا ليس خبراً سعيداً لنا.

– لا عجيب في ما لا تستطيع البوح به يا مغرب – مع أن قلاوون كان يتأسف للخبر الذي عرفه منذ البارحة، فقد تظاهر بالضحك – على ما يبدو

لم يخدع كلٌّ من الصهرِ وحَميه الآخر. لن يستطيع كوني راضياً عن خاتون – خان بشأن ابنته، وكون ابن ابنته ابني، أن يفلّا حدّ سيفي. أتتذكر يا وزدمر القول المأثور الذي يقال في نواحينا في مثل هذه المناسبة؟ – سأل قلاوون وهو يأتي لأول مرة على ذكر مسقط رأسه أمام الأمراء، وأجاب بنفسه على نفسه:

– من يعتدِ على عينك فاعتدِ على روحه!

لم يمرَّ يوم على قلاوون نسي فيه ما رُوي له عن المظالم التي اقترفها المغول والنغوي في أراضي الأديغة وإن لم يرها بعينه. ثم إن قلبه كان يتألم أكثر في هذا اليوم، خلافاً للأيام السابقة، ربما لأنه وجد نفسه في موقف يستطيع فيه الثأر. ولم يكن القول المأثور "حفنة من تراب الوطن الذي ولِدت فيه خيرٌ من جبل من الذهب في أرض غريبة" يفارق ذهنه، يحمله معه أينما ذهب. وكانت حفنة رماد قريته مصدر قوة خفية ضد كل الأعداء.

أيُعقلُ أن تكون بلاد الأديغة التي ولد فيها قلاوون أهمّ اليوم من مصر التي هو سلطانها؟ ! لماذا إذن سأل وزدمر في يوم ضائقته عن القول المأثور؟ وفي البلاد العربية كثير من هذه الأقوال الصائبة. – لام قلاوون نفسه وهو يعرف من خلال روحه الأديغية التي ألهبها القول المأثور أنه ليس على حق: "من رباك وليس من ولدك !" عجباً ما الذي جرى لي اليوم؟ – غضب قلاوون على نفسه، ثم سأل راسم:

– ماذا ينوي الذين قمتم باستطلاعهم؟

– ينتظروننا.

– أنحن ضيوف فينتظرونا ! نحن نحمي أرضنا. سنتصدى لهم متى تحركوا. ثم ماذا الآن؟

– الآن خبر سعيد يا موفد الله.

– لا يمكن أن يكون بين الجيشين المتجابهين خبر سعيد – أدلى قلاوون برأيه في ما سمع – إن قلت إن الجيش المغولي يتراجع فلن أعده خبراً ساراً لأنهم سيعاودون هجومهم يوماً ما. ومع ذلك فأنا أنصت إليك.

– الليلة استدعى أباقا – خانُ خاتونَ – خانَ إليه.

–كنت توقعت أن يجري هذا لوالد زوجتي... إن لعبت مع خيالك جرى لك مثلُ هذا. – قال قلاوون بطريقة لا تعرف معها إن كان الخبر أفرحه أم أحزنه، وأنهى ما يقلقه اليوم وهو ينظر إلى الشمس البازغة من الجبل الشرقي: – سيكون الغد أحرّ من اليوم. ولكننا لن نهمل متابعة منغو – تيمور، سنفسح له المجال ليفعل ما يريد.

تفقد قلاوون إلى بداية المساء مواقع الجيش: جيش مالك مُحَمَّد يحتل القطاع الأيمن من المرتفع، وأمامه عيسى بن معن. وإلى اليسار، ومغطياً السهل، جيش سنقر. وفوق هؤلاء بقليل الجيش التركماني. والجيش المكوّن من أربعة آلاف من الفرسان الأديغة الذين اختارهم قلاوون بنفسه، ويقوده بشخصه، وسط هؤلاء. والتلة التي سيعسكر فيها السلطان محاط بمئات الفرسان. والفرسان الخمسمئة لبرقت، ومثلهم لوزدمر كانوا في تمام الاستعداد.

لم يهدأ منغو – تيمور – خان طوال النهار: تصرف براحته إذ بقي الجيش المغولي في قبضته. – بدّل وغيّر فيه على هواه. كلّم قادة جيشه بصراحة. واستعرض الجيوش المستقلة التي كانت معه من الإفرنج والأرمن والغروزين والترك والفرس. ووعدهم أن يطلق أيديهم في سورية متى انتصروا على المماليك. وأبلغ أفراد جيشه أنه سينصّب من يأتيه برأس قلاوون، كائناً من كان، سلطاناً على سورية.

"ما أعجب تركيبة دنيا الإنسان!"... – غلب على قلاوون وثنيّته في طفولته فجعلته الشمس الغاربة يسأل نفسه – "تجعلك تنتظرها ساعة الشروق، وتودعها بنظراتك ساعة الغروب".

دعا قلاوون لنفسه مُسمِعاً من معه، مخفياً ارتعابه من أفكاره:

– شكراً لك يا ربّ، ها قد مضى يوم من أيام اختبارنا بسلام، فاجعلنا نستقبل الغد ونحن صادقون !

– آمين – دعا راسم وبرقت أيضاً إلى الله.

– لا داعي لليأس. – هواجس قلاوون دفعته إلى القول – نحن ثلاثتنا فقط، بعد الله، من يعرف أن الجيش المغولي المواجه لنا يفوقنا عدداً مرتين، غير أن من يحمي أرضه وعِرضه أقوى دائماً.

ليلة خريفية مقمرة. تحسّ أن الرطوبة المنبثقة من الأرض تغلب الضيق الذي يخلّفه النهار العكِر. ويبدو أن الدنيا لم يبق فيها إلا نخير أحصنة الجيشين المتقابلين، وهمْس الجنود.

حين سمع قلاوون المتوسد سرج حصانه حركات ابنه التي تنم عن أرقه همس في أذنه متذكراً ليلة الأسر في المركب:

– ألا تستطيع النوم يا ولدي؟ أتشعر بالبرد؟

– لا، تراودني هواجس غريبة مع هذه الشهب.

– أهذه هي؟ – ليست هذه أرواحاً بشرية. ونحن كنا نعتقد هكذا في ماضٍ بعيد.

– وأنا أقول هذا غير أن خليل يعارضني... بالمناسبة هل صحيح إذن يا بابا أن الشراكسة يقيمون في الغرب منا حيث تغرب الشمس؟

– وهذه من معلومات خليل أيضاً؟ – مزح قلاوون مع ابنه.

– لا، بل ناصر.

– إن كان كلام ناصر فهو صحيح. – الآن اختفت نبرة المزاح من صوت قلاوون. خطر له أن يخبره أن المغول سفكوا الدم في الجهة التي يسأل عنها ولكنه قال لنفسه: ولماذا أملأ نفسه يأساً، فلم يكمل – الآن أنت وأنا يا علي لنتحلّ بشيء من الرجولة فننعسَ.

حين بدأت أبواق المغول وطبولهم تصدع دنيا العرب كان الجيش المملوكي على الخيل جاهزاً للتصدي.

وحين غُرز في المرتفع الآخر علم منغو – تيمور – خان، غُرز للسلطان قلاوون علمه أيضاً.

وحين اتجه فرسان الجيش المغولي الخارجُون من وراء الجبل باتجاه موقع الأمير مالك مُحَمَّد إلى اليمين، قابله الجيش المملوكي بسيوف مسلولة. وبعدما تحارب الطرفان قرابة نصف ساعة دون أن يدين النصر لأحد الطرفين، بدأ المغول الذين تخفّ كثافة فرسانهم شيئاً فشيئاً يتراجعون إلى وراء الجبل الذي خرجوا منه، ما جعلهم يتركون وراءهم قتلاهم وجرحاهم في ساحة المعركة. يمتدح قلاوونُ قائدَ الجيش المملوكي الذي يعرف خُبث المغول:

– عفارِم يا مالك مُحَمَّد! حسناً فعلتَ إذ لم تلاحقهم. غيّرْ جيشَك قبل أن يُطلقوا موجة هجوم جديدة. وأرسل مشاتك إلى الأمام.

لم يستغرب قلاوون رؤية جيش الإفرنج قادماً مدرَّعاً أفرادُه وخيوله بالحديد مكان الجيش المغولي المنسحب. أفزعه ما يحدث في جانبه الأيسر: جيش سنقر يحارب بعضُه بعضاً. بعضهم يهرب إلى حمص المدمرة عن بكرة أبيها، والآخرون يحاربون إلى جانب المغول الجيشَ الذي يقوده برقت ومغرب.

– هذه خيانة ! – امتطى قلاوون الحصان: اركب يا ولدي !

– أليس سنقر هو من أسرع إلى موقف خان المغول؟ – صرخ قره خان من غرابة ما شاهد.

وفي اللحظة نفسها، توسل وزدمر إلى السلطان ممتطياً حصانه بسرعة على غير عادته:

– انتظِرْني ريثما أصل إلى حيث يقف الخان يا موفد الله – وشدد على المماليك: – ليتبعْني عدد من الفرسان !

حين تعرّف سنقر على وزدمر الذي علّق خرقة بيضاء على رأس رمحه ظن أنه يجري ليستسلم فقال لمنغو – تيمور – خان:

– هذا سيكون حليفاً جيداً لنا يا خان الخانات !

– كان الأفضل أن يأتيني برأس سلطانه من أن يركض إليّ بعلمه المتّسخ. – أمر منغو – تيمور خان حراسه مبتسماً أن يسمحوا له بالعبور إليه.

حثّ وزدمر حصانه فتخلص من الحارسين المغوليين اللذين تعلقا به، فسدد الضربة الأولى إلى منغو – خان، وبالثانية جزّ رأس سنقر.

الحراس الذين رأوا منغو – خان الساقط من على ظهر حصانه مغمى عليه يتصايحون، ويقاتلون الفرسان المماليك الذين اقتحموهم، ويُخلون قائد جيشهم الجريح. وآخرون يهربون.

– علمُهم، أسقِطوا عَلَمَهم ! – لفظ الأمير وزدمر روحه وهو يأمر جنوده.

لم يفهم المغول في البداية ما حدث في مكان وقوف الخان، وسببَ اختفاءِ علمهم. ثم حين يرون منغو – خان يُخلي جريحاً على ظهر حصان، والسلطان قلاوون يحاربهم بشخصه بسيفه المسلول، يتراجعون وقد غلبهم الرعب، ومن لم يسلّموا أنفسهم يهربون من الساحة، ويفرّون إلى حيث خرجوا، إلى جهة بغداد، ويختبئون بين قصب نهر الفرات. والمغول الذين فروا باتجاه إيران

يلاحقهم المماليك الذين يقودهم برقت ومالك مُحَّد. والفرسان الباقون في ساحة المعركة يكرون ويفرون. ومن كل مكان يصدر أنين الجرحى وصهيل الخيول.

قتلى الطرفين يملؤون المضيق كنهرٍ غاض ماؤه فبانت صخوره. وكلما تقدم النهار امتلأ جوّه الخانق برائحة دماءِ المقاتلين والخيلِ المتناثرة فداخت الرؤوس. والجوارح التي شمت رائحة الحرب تحوم في السماء.

– أشعِلوا النار في قصب المستنقع ! – أمر قلاوون الذي تختّر الدم على كتفه اليسرى، وقال محرَجاً من السؤال عن ابنه علي الذي لا يراه: – لا أرى راسم ومغرب بينكم، وكذلك عليّ.

– ها أنا واقف هنا – أخبر عليّ.

– هكذا؟ – سأل السلطان ثانية عن الأميرين دون أن يلتفت إلى علي، وإن كان بدا من صوته فرحُه بسلامة ابنه – وأين راسم ومغرب؟

– استشهد راسم ومغرب... وهاهو جثمان وزدمر يأتون به... – لم يستطع قره خان الاستمرار في الكلام.

حين جيء بجثمان وزدمر على ظهر حصان ترجل السلطان من حصانه وجثا على ركبتيه أمام الجثمان. وقال للمقاتلين الذين نزلوا عن صهوات خيلهم:

– أحيي رجولتك يا وزدمر. أنت وجهُ انتصارنا اليوم وشرفُه. ليُغطِّ علمُ مصر وجهَك إلى الأبد !

قصبُ نهر الفرات الذي يقف عنده جنود المماليك يحترق بلهب متطاير في كل مكان أشد حرارة من الشمس المنحدرة إلى الغروب، والمعتدون الذين لا خير في قلوبهم يحترقون فيه.

******

قضى منغو – تيمور – خان من جرحه قبل انقضاء أسبوعين على إخلائه. ولحق أباقا – خان بقائد جيشه عاجزاً عن تقبُّل الإهانة التي ألحقها به المماليك. واعتنق أخوه الأصغر الذي نصبوه على عرش المماليك الإسلام وسمى نفسه أحمد لأنه فهم أنه لن يتغلب على المماليك، وصالحَ المنصورَ سيفَ الدين قلاوون الألفي سلطانَ مصر.

XVIII

طاف مديحُ النصر الذي أحرزه السلطان قلاوون على المغول القادمين من الشرق عالمَ الإسلام، ووصل إلى بعض البلاد المسيحية. أعداؤه بالأمس حذرون منه اليوم. ومن كانوا ينتظرون ما سيحدث يجهزون وفود التهنئة. ويحضّرون إجراءات عقد السلام معه. والمنادون في المدن والقرى لا يقر لهم قرار: تتجاوب أصواتهم في طول البلاد وعرضها. وأنجز الشاعر عزيز قصيدة مديح. وابتهالاتُ المصلين تبدأ بقلاوون وتنتهي به.

مع أن الناس كانوا يحممون قلاوون في ماء المديح فإن الصحوة الأهلية التي تحركت في القاهرة لا تنسى إلى الآن التمرد الذي أثارته. قد يكون صحيحاً أن كل إنسان يصبح أسير حقده، فيحرقه الحزن الذي لا يستطيع ابتلاعه: "مهما خدمت هؤلاء فلن يشكروك – يقول قلاوون – كلهم يريدون أن يصبحوا سلاطين، ولم يعودوا يرضون لأنفسهم لقب المملوك. من سمّيتموهم بالعبيد البيض لا يكرهون حياتهم. بل يحمون عِرقكم وبلادكم وشرفكم. لا أتحدث عن الدين الإسلامي العزيز، هذا ملكُنا جميعاً. ماذا تريدون الآن إذن؟"

انتصبت أمام مخيلة قلاوون ساحةُ الحرب في حمص. وأحد الفرسان الثلاثة الذين يحاربونه يصيح به:

– اثنان من أمراء جيشك استسلما؛ استسلم أنت أيضاً !

– اعرفْ أولاً أين خائنُكم وأين علمُكم! – ضربة سيف السلطان تُسقِط المغولي القبيح من على الحصان. يهرب مَن لم يعودوا يرون الخان وعلمه.

"وزدمر يا أخي الأصيل المستقيم ! – تألم قلب قلاوون – لم أعرفك طوال وقوفك معي. ولم يحدث بيننا ما يوغر صدر أحدنا على الآخر، ولا ما نختلف عليه. مضيت إلى عدوك وأنت تعرف أنك لن تعود فضحيت بنفسك من أجل

أن تزهق روح العدو. الآن فهمت لماذا كان مسنّونا في بلادنا يقولون "من يُرهب جيشاً فهو جيش بحاله" ولكن هل سيتفهّم من قدّمت أنت والألف الآخرون من "الشراكسة الغرباء" أرواحكم من أجلهم قيمة تضحيتكم؟ كونك رجلاً يحتاج إلى رجولة. كيف سأُفهم ابنك ما فعلتَ وأنا حيّ بين أسرتي وأولادي؟ كثير من الناس ينصحونني بالاحتفال بنصرنا على المغول، ولكن كيف سنرقص على أجساد شهدائنا؟ قد نفعل هذا في المستقبل، ولكن ليس اليوم ولا غداً، بل حين نفعل بالإفرنج والأرمن، حلفاءِ المغول، ما فعلنا بأحمد خان ففرضنا عليهم اعتناق الإسلام. اغفرا لي يا راسم وأنت يا مغرب، لا تظنا أني نسيتكما وأنا مشغول بقضايا أبناء جلدتي المفاجئة.

ندمت كثيراً يا راسم على أني أذنبت بحقك طويلاً. لن أدع أحداً ما دمت حياً يتهمك بأنك لم تكن صادقاً مع بلادك، وأن فكرك كان يتجه إلى غيرها"

استدعى قلاوون في أحد الأيام سلامش. وبعدما تكلما في أمور البلاد المتنوعة: إقطاع أراضٍ للمحاربين المماليك المسنين أو المرضى، وافتتاح الطرق، وتوسيع ميناء الإسكندرية، والاهتمام بالسلام بين البلاد المصاقبة للبحر المتوسط ، وزيادة مخصصات العاملين في تعلُّم الحساب والرمي، وفي غيرها، صرّح قلاوون بما كان يُهمّه:

– انسَ احتفال يوم النصر الذي تكلمنا فيه يا سلامش! خسرنا الكثير من الأرواح، حرام. الأفضل أن نفكر في الثأر لشهدائنا.

– كيف يا موفد الله؟

– لن أدع الإفرنج الذين حاربونا مع منغو – تيمور – خان قبل أن أردّهم إلى ما وراء البحر الأبيض المتوسط، وكذلك الأرمن الكفار، إلا أن يهتدوا إلى الإسلام. وسنغزو الغروزين أيضاً في القفقاس وندمرهم.

– طرابلس الإفرنجية قريبة، وكذاك كيليكيا الأرمنية، ولكن أليس الغروزين بعيدين يا موفد الله؟

– ليسوا بعيدين — حسم قلاوون النقاش بكلمتين، واختتم بالمأساة التي لا ينساها البتّة: – حين حملونا إلى هنا، والدك بيباريس وأنا، كانت بعيدة. والآن نحن في عالم آخر. من يدري إن غلبني عمري فلم أستطع أن أحققه فلا تنسياه أنت وبرقت!

سنكون حاضرين متى أمرتنا بالركوب، يا موفد الله — أجاب سلامش مخفياً أنه متردد في ما قاله.

– حياك الله يا سلامش — ابتسم قلاوون مدركاً أنه بالَغَ في الانتقال بتفكيره إلى البعيد رغم سعادته بما سمع من سلامش. — جعلتَني أظن أننا ركبنا إلى ديارنا البعيدة هناك. لن أعيش إلى هذا الموعد، ولكن ألا يجب أن تزوروها في وقت ما، ليس بالحرب، إن كان من نصيب أحد أولادي الثلاثة؟ ما سأطلبه منك الآن سهلٌ حلُّه. أتسمع ما يقول عني هؤلاء المنادون؟ لماذا وضعوني في أفواه الناس؟ المبالغة في المديح مبالغةٌ في الاغتياب،كما يقال. — قام قلاوون مشحوناً بالغضب الخالي من المزاح. — لستُ أنا من يجب أن يمدحوه، بل شهداء المماليك، وزدمر ومغرب وراسم أمراء الجيش وغيرهم، هؤلاء الذين حموا عالم العرب والإسلام.

أمر قلاوون بوقف نداءات المنادين فاستراح أياماً ولكنه بدأ يمل مما يسمع الآن "هل سنبقى نرثي شهداءنا دائماً؟ لا أدري كيف كانت ستجري حياة الإنسان لو كانت ليلاً مستمراً... الشمس هي ما لا نمل منها، ولكن لو لم تكن تغرب في استراحة ليل ربما مللنا من نورها. إذن هل يمل الإنسان من حياته؟ – وفي اللحظة نفسها تذكر قلاوون كيف رحلت منيرة عن الدنيا فنهر نفسه: – لماذا

لا تتركني المرأة الجنية التي جنت على نفسها الحرام والذنب؟ ! أيكون سلامش عاتباً عليّ من أجل أمه؟ ربما يحن إلى السلطنة التي أبعدتُه عنها في صباه؛ فالإنسان مركب من مجاهل كثيرة... لماذا أقول هذا؟ أولادي، مع أني راكب حصاني، ينظرون إلى قمة رأسي كأنهم يستطلعون: أقدماي في الركاب أم لا، أيطيع الحصان لجامي أم لا؟ وهذا لم أعد أعتبره مشكلة. يحزنني أنهم ينظر بعضهم إلى بعض شزراً. وما لمّح به إليّ ابني خليل حين رجعنا من معركة حمص؟ !"

– ما الأمر يا بابا؛ أتجهز عليّاً ليأخذ مكانك؟

– ألا تعرف يا ولدي أن لسلطنتي نهاية؟ – مزح قلاوون مع ابنه دون حقد.

– أعرف – حسم خليل النقاش بكلمة لا رحمة فيها، ثم اغتاب أخاه الأكبر:

– هذا الذي تصحبه في رحلاتك لا يتمتع بأي رجولة.

– خليل ! – صرخ قلاوون بصوت عال على ابنه، ثم سأله بصوت أهدأ: – أأنت من وقف في وجه المغول شاهراً سيفه؟ أأنت من جُرح؟ لا تصف أخاك بمثل هذه الصفة. لم يمض يوم لم يذكركما فيه طوال رحلتنا.

– ونحن يا بابالم ننسكم، ولكن علي يكبرني بسنتين فقط. لو بقينا الثلاثة معاً لحرص كل منا على الآخر أكثر... – كان خليل يريد التراجع عما قاله ومع ذلك لم يتناسَ عدم رضاه. قال في نفسه مضيفاً إلى أبيه "تريدنا أن نعتاد مردداً مثل هذا الكلام على ما تحضّره لأجله. ولكن لنرَ ما يحدث"

– حسنٌ أن يحرص أحدنا على الآخر في ساحة المعركة يا ولدي، ولكن حاميَ كل إنسان هو رجولته.

– إذن احتميتم جميعاً، بمن فيكم علي، برجولة وزدمر؟ لا يسمع خليل ما قيل له مفضّلاً السخرية.

– هذا صحيح، بمن فينا أخوك الأكبر، ولسنا وحدنا. وأنت، مع أنك تسكن في القاهرة، وكل سكان البلاد حمتهم بطولته. لو رجع وزدمر حياً – حقاً لم أكن أريد أن أقول هذا ولكن – في أي موضوع أقحمتنا؟ – غضب قلاوون، ثم اختتم بمزحة: – إن كنت ذكياً إلى هذا الحد فلْنلعبْ لعبة الكعوب المتقابلة !

– سنلعب، ولكن ستفهم حالاً أن أسناني أحدّ من أسنان علي – جلس خليل معتدّاً بنفسه قبالة السلطان.

مع أن ما تذكره قلاوون كان يطفو على سطح الذاكرة ولا يطفو لم يمر يوم كاليوم لا تتجدد فيه. وفي كل مرة كان ينتصب أمام عينيه ابنا بيباريس. كانت الأم هي من تفتن بين سعيد وسلامش ولكن من يستطيع أن يوغر بين علي وخليل؟ بيبا من يوم ما تزوجها لا يتذكر أنها اهتمت بأمور البلاد بل بنفسها وشبقها. "لا، لا، لماذا اتهام الإنسان باطلاً؟ – عاتب قلاوون نفسه بنفسه – لا علاقة للأم بالعلاقة بين الأخوين. شكت لي أكثر من مرة نزق خليل وميله للظلم... والناصر مُحَمَّد الصغير، كان خليل السبب في عرجه، وإن كتمنا. وفي كل الأحوال أين أذهب به؟ إنه من صلبي، وربما فيه طبائع كثيرة لا أعرفها"

طيلة شهر كامل، ومع أنهما كانا معاً في مصر العليا، جاء عماد إلى السلطان بعد ثلاثة أيام فقط من رجوعهما. واستقبله السلطان على الباب بسؤال ملتبس:

– أيها الإمام: أليس صحيحاً أن السلطان لا يجوز أن ينسى المضطر والملهوف ولو كان يجلس على عرش من الذهب، و يركب أسرع الخيول، و يشرب الماء في قدح من الفضة؟

– صحيح كما جلوسي في حضرتك يا موفد الله – أجاب عماد وهو يُريح جسده على المقعد الوثير.

– إذن أصحيحٌ أنه متى انقطع ذِكرُ الإنسان بخير أو بشرّ يكون قد نُسي؟

– وهذا صحيح أيضاً كما يجعلنا الله العلي نحسّ بالليل والنهار، والخصب والجدب. أسمعك يا بديل الشمس إن كان هناك ما يشغل بالك.

– يا إمام، دنيانا الفانية دارُ قلق. أفهم ما يحدث للسلطان حين يخلد إلى نفسه. ولكن يُخيَّل إليّ أن في استقبال الفلاحين لنا في مصر العليا شيئاً من الرياء الإجباري.

– الله فحسبُ من يعلم دخيلة الإنسان يا بديل الشمس. أنا لا أشعر بشي من هذا بين أفراد أمتك. يفرحون لك، ويعتدّون بنصرك. ومن البديهي أن يكون بينهم من لا يصفو وده لنا. وفي الدنيا كثير ممن ولدتهم أم واحدة ولا يتفقون.

– السلام خيرٌ من الارتياب — وافق قلاوون الإمام وهو يتذكر حديثه مع خليل، وأضاف قائلاً لنفسه: "هل بلغه عدم رضا ابني؟" حسن يا إمام إن كنت فهمت ما يجري في مصر العليا على هذا النحو. ما يشغلنا دون كلل أو ملل هو قضايا هؤلاء وقضايا البلاد. ولكن، أنت أيضاً، لا أظنك جئت إليّ دون أن يكون عندك ما يُقلِقك.

– حمّلتْني أمة الإسلام التي عهد الله العلي بها إليك يا بديل الشمس رغباتهم. وفي مصر العليا هذا التوسل أيضاً. وفي القاهرة. وكذلك حمله إليّ موفَدُ الشيخ الذي جاءني من مصر السفلى.

– أيّ طلبٍ يا إمام تمهد له بهذا التفصيل؟ سأل قلاوون، ثم أضاف بصوت خشن: – أستمع إليك.

– منعُك المنادين من ذِكرك لا يُرضي أمتك الإسلامية يا بديل الشمس. – أجاب الإمامُ السلطانَ ملطّفاً نبرته، ثم أكّد على الموضوع: – يجب أن يعيش السلطان في قلوب الرعية.

– إن كان من أوفدوك يرون هذا فالشكر لهم، وأنا راضٍ عنهم. ولكن أخبِروهم أن صليبيي طرابلس، وأرمن كيليكيا الذين تحالفوا مع المغول، حاربونا والرعيّةُ تمدح السلطان، وأنهم لا يزالون ينوون محاربتنا. وأفهمهم أني لن أغمد سيفي، سيفَ الشريعة، ما دام هؤلاء على ظهر الأرض. سأقول لك ما دمتَ بدأت: ما إن يمضي قيظ الصيف حتى أجابههم بالجيش المملوكي. ولن أتوقف حتى أسوّيَ قلاعهم في طرابلس ومرقب بالأرض، وأثأر لدماء أمراء جيشنا. وبعدها لن أهدأ في دنياي الفانية حتى أدمر عكا وسيس. ما رأيك أنت يا إمام؟

– أعداء الإسلام أعدائي يا موفد الله. أنا جاهز متى طلبتني.

– اعتبرْ نفسَك بلّغتُك. وحضّرْ رجال الدين معك.

وافق مجلس الأمراء الاستشاري بالإجماع على مقتَرح السلطان، فكان قد وجب عليه ركوب طريق الحرب في الوقت الذي لم يكن راضياً فيه عن ولديه الأكبرين، فقال لهما "حين أعود وقد تصالحتما سنتكلم بمزيد من الصراحة". ولم يكن علي مهتماً كثيراً بما حدث بين الإخوة. بل كان خليل الذي لن يوصلوه إلى السلطنة التي يشتهيها سراً هو من يأكل الغضب قلبه.

الجيش المملوكي الذي كان جاهزاً لأي نوع من الحروب انتصر بسهولة في مرقب. – وأجبرها على الاستسلام. وبعد أقل من أسبوع احتل طرابلس على شاطئ المتوسط. ولأن ما كان بقي هو عكا أكبر القلاع ففي الليلة التي أنجزوا حصارها انتفض رأس قلاوون من الأغنية التي سمعها.لم يخطئ، ما سمعه كان لحناً أديغياً. أحد المماليك يغني والآخرون يرددون:

"سماء البلاد التي ليست بلادنا مظلمة.
نسفك دماءنا على حد السيف فوق الأرض الرملية.
ومن يحاربنا قريب من بلادنا فمن يحملني إلى حيث روحي مغروسة؟
هيّا، يا مملوك لا تتراجع ! لا تُهن وجه الأديغة. قابل العدو بسيف مسلول"
لم يسمع قلاوون الذي عاش ستين سنة من سني عمره السبعين في بلاد العرب مثل هذه الأغنية الأديغية الصريحة. ماذا سيكون رأيه فيها؟ أيقول لأبناء قومه الذين سيهبون إلى المعركة مع أول ضوء أن يسكتوا؟ !
– أتسمع يا سلامش الأغنية؟ – سأل قلاوون ودفع بصعوبة التنهيدة التي كانت تضغط على صدره.
– أسمع. – قال سلامش المصغي ماداً أذنيه نحو مصدر الصوت – يخيَّل إليّ أنها أغنية رجولية حزينة. لا أعرف إن كنت مخطئاً.
– لا، لم تخطئ – الآن تنهد قلاوون.
– أيّ أغنية حزينة تجعل الصليبيين يسخرون منا في منتصف الليل؟ ! – غضب قره خان معتقداً أنه يُرضي السلطان – الآن حالاً سأُسكتهم !
– توقف ! لم يقبل برقت.
–هكذا طبع الإنسان... – تغير لون قلاوون من الأفكار الحزينة التي داهمته. – لا يسمع شيئاً غريباً عن لسانه، ولا لحناً من خارج قلبه.
في ليلة خريفية تصادف العاشر من تشرين الثاني عام 1290 لم يستطع قلاوون الاستغراق في النوم. – لحنُ أغنية المماليك تقذف به إلى المكان الذي بدأت فيه طفولته التعيسة. وحين يعيده ألم القلب إلى وعيه يحمله إلى الأرض الغريبة المرملة التي سالت فيها الدماء على ظبات السيوف: "هيّا، يا مملوك،لا تتراجع. لا تُهن وجه الأديغة. قابل العدو بسيف مسلول..." – يردد الكلمات مسبلاً

جفونه. ثم تهاجمه شيئاً فشيئاً أفكاره العشوائية. الصالح، شجرات، أيبك، خُطج، بيباريس، كلهم يمثلون أمام عينيه، ثم يختفون. وحين يرى كوثر وتوران شاه يغرقان في الماء، ثم حين ينضم إليهم أتامراد ووزدمر وراسم ينهر نفسه: "لماذا كل هذا التعلق بالناس الراحلين الذين نجوت من بينهم؟ ! لا يزال أمامي تدمير عكا. ولم أثأر لشهداء جيشي... وأولادي..."

يتقلب قلاوون على الجنبين. وينصت من خلال ظلمة الليل: "هيه يا أديغة، الأديغة المنحوسون. أنت أديغي أينما كنت، تدفع روحك تحاشياً للعيب وتلبية للرجولة. وأولادي؟ هؤلاء أنصاف أديغة. لا، لا. لماذا إذن سألني علي عما إذا كان الأديغة يعيشون في الغرب. والناصر مُحَمَّد، الأعرج الصغير يطالبني إلى الآن بأن يتعلم الأديغية. وخليل؟ لا أعرف. لا أفهمه. لا أديغي، ولا عربي، ولا كردي، ولا قبجاقي... إن كنت تعد السلطنة عِرقاً فهذا انتماؤه الوحيد. من ولد في بلاد غير التي ولدتَ فيها، ومن لم يلعب على أرض بلاده، ومن لم يذق نتاجها ولا ماءها، كيف يصبح مثلك؟ مهلاً مهلاً، وأنا مثل من؟ وممن؟ أأنا أديغي أم عربي أم كردي؟ أنا سلطان عربي لا يدع أحداً يقطع ذنب حصانه، أو يكسر حافر حصانه... أنا ما إن أعود..." — ما إن غلب النوم السلطان الذي كان غارقاً في ضيق الذكريات حتى أيقظته نوبة حمى ترجّ جسده الهائل. قعد قلاوون الذي ما كانوا يستطيعون تدفئته مهما غطَّوه. كان يريد أن يقول شيئاً غير أنه سقط غير قادرٍ على أن يملك جسده. وقبل أن يبلّغوه أن علياً ابنه الأكبر مات مسموماً فارق الحياة.

الكتاب الثالث

I

مضى على وفاة السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الألفي عشر سنوات. في تعداد السنين أشرقت الشمس على مصر وغربت كثيراً، وحملت أمواج النيل نفسها إلى البحر المتوسط. وعصفت رياح الخماسين، وهدأت. وولد كثير من الناس، ومات كثيرون. وتنازع كرسي السلطنة ما يزيد على عشرين، سواء اتسعت لهم أم لم تتسع.- المخلوعون منهم، والذين عادوا بالقوة إلى العرش، ومن دفع حياته ثمناً للكرسي لم يكونوا قليلين. ومن كانوا يشتهونه في نفوسهم كانوا أكثر وأكثر. ولكن قبل أن يمضي شهر واحدٌ على تولّي خليل منصب أبيه انكشف لسلامش من أي نوع من الناس هو:

– لن أطيل عليك الحديث في سبب استدعائي لك – قال خليل لمن أبى أن يسمح له بالجلوس قبالته – أنت من هذه اللحظة لم تعد معاوناً لسلطان مصر ولو أني أعرف أنك ابن بيباريس، وأعرف ما حدث لأسرتكم، وأعرف قربك من والدي، وحتى لو كنتَ أولَ من أعلن أني سلطان مصر.

– أنت حرٌّ في أن تنتزع مني المهمة التي أوكلها إليّ سلطان مصر العظيم قلاوون. ولكن ألأني ارتكبت خطأ ما؟

– أنا لا أعيد الكلام في ما قررت! – حين وصل السلطان الذي كان يذرع أرض الغرفة إلى سلامش قال له هذا الكلام وهو يحدِّق في عينيه. ثم انصرف.

– فهمت! – حسم سلامش واختتم بما كان يقلقه – ولكن كنت أريد ألا تحيد عن الخط الذي اختطه والدك ووالدي.

ساد الصمت في الغرفة الكبيرة في منتصف الليل. والسلطان الذي توقف لِما سمع استدار بعد قليل:

– كلٌّ يعيش بنفسه ولنفسه. ما أريد أن أسمعه الآن هو الجواب المختصر لما قلتُ لك.

– أعلمتك أني فهمت سبب استدعائك لي في منتصف الليل، وأنك أزحتني من منصب المعاون، وأنك اخترت لنفسك طريقاً آخر، ولكن لا أعرف لماذا لم تسمع... ولكن مجلس الأمراء الاستشاري...

– لا تُسمعني الـ "ولكن" ! – غضب خليل، ولم يدع سلامش يُكمل ما بدأه. وحين اعتلى العرش أخبر من لا يكنّ له الود ما يمكن أن يفعله به: – إن تجاوزت هذا فلن يدَعوك تخرج من الباب الذي دخلتَ منه بل سيُخرجونك من الباب الآخر ولن يجدوا بعدها شيئاً من رفاتك.

"هذا الذي أمامي حتى لو كانت النار تخرج من فمه – ابتسم سلامش – فسأعرّفه، كما كان يقول والدي، أني لم أسقط من قمة شجرة":

– أُعيد إليك المنصب الذي شرّفني به والدك السلطان العظيم قلاوون. ولكني أقول لك إنك غيرُ قادرٍ على ما توعّدتني به في موضوع رفاتي.

– لا تنسَ أنك في حضرة سلطان مصر!

– وأنا أعرّفك أن المماليك الذين رفضوا استدعاءك لي في منتصف الليل واقفون على بابك.

– أيجب أن تعارك السلطان إن دعاك إليه؟ – بدا على خليل من نهوضه ومن ذرْعه أرض الغرفة أنه لان وإن سأل بصوت جلِفٍ – إن كان رأيك هكذا – توقف خليل الآن على أرض الغرفة – فحسنٌ أنك تخليت عن منصبك بحكمة، غير أني لن أقبل منك التدخُّل في شؤوني سراً أو علناً.

– لما كنتُ وُلدت للتخلي عن المنصب... – ابتسم سلامش ملمِّحاً أن والد من يماريه الآن كان انتزع منه منصبه – فأنا لن أعاندك في هذا... – ملك سلامش نفسه قائلاً "من يُهَن يجد الوقت للثأر".

نادى السلطان، وقد تحقق له ما يريد، من ينتظره في الغرفة الأخرى:

– تورونتاي!

– أنصت إليك يا موفد الله – قال الرجل النحيل المجدور الوجه وهو يتخطى الباب.

– أكلّفك راضياً بالمنصب الذي تخلى عنه سلامش لأن التقليد أن يكون لسلطان مصر معاونٌ. كرِّس رجولتك وحكمتك وحيويتك لمنصبك!

– قولُك قولي، وفعلُك فعلي يا موفد الله! – قال تورونتاي بسرعة "لولا أنا ما وصلتْك السلطنة، وما كنتَ انتزعتَ ممن يقف بجانبي منصبه. سنرى الآن ما سيعودون ويفعلونه بك..." أضاف في قلبه لمن أدى له تحية الاحترام.

– أتفهمُ أني لا أتراجع عن قراري؟ – ما إن خرج سلامش من الغرفة حتى سأل خليلُ تورونتاي، وأكّد عليه دون انتظار الجواب: – أقول لك ثانية: لا أحد غيرُنا أنت وأنا يعرف سرنا. – رفع راحتيه إلى السماء مغمغماً "بدلاً من أن أقطع رأسك بعدما كلفتُك أن تفعل بعليٍّ المنحوس ما فعلت وجب عليّ الآن أن أتوسل إليك لتقبل منصب معاون السلطان الذي كنتَ تتوق إليه" – قل آمين، لندعُ إلى الله أن يبارك لك في منصبك. – والحق أن خليل كان يدعو لشخصه لا لغيره – يا إلهي اقترفت الذنب في دارك العاجلة فاغفر لي لأنك تعرف كل ما يجري عليها. وما تعاقبني به أتحمله. وحين يأتيني أجلي فالسراط على نارك الموقدة مختبري. مُدَّ لي في عمر ما حققتَه لي! أقسم أن أحمي الإسلام

الذي أنزلته علينا، وألاّ أحيد عن أوامرك ونواهيك. افْهَمْني، واغفرْ لي، واحمِني من الإثم يا ربّ !"

حين سمعت بيبا المنادين ينادون في الصباح الباكر باسم المعاون الجديد للسلطان تورونتاي، حتى قبل أن يعتاد الناس على سلطان مصر الجديد، توجهت دون أن تعرف السبب إلى ولدها وثوبُ حِدادها وغطاءُ رأسها ينشران الظلمة حولها، وسألته قلقة:

– يا ولدي، هل ما يقوله المنادون صحيح؟ هل حدث بينك وبين سلامش سوء تفاهُم؟

– ما يقوله المنادون، يا أمَّ سلطان مصر، صحيح مثلي أنا. وسلامش الذي سألتِ عنه على قيد الحياة، وبصحة جيدة – قال خليل برأس عال يشرح القلب. وأضاف لنفسه "الطامحون – المماورن ، والمداحون – المنافقون سيتحركون أيضاً. ولكني لن أغيّر ما فعلت لأجل أيٍّ كان. ولن أسمح لأحد أن يخدعني. أفراحي وأحزاني على قدر طاقتي أنا..." – لم أمسّ إمارته ولا أملاكه. ولم أفعل بأسرته إن كنت تتذكرين ما فعله والدي بالأسرة.

– لماذا عزلته إذن عن منصبه؟ لماذا أحللت تورونتاي الذي لا نعرف عنه شيئاً محلّ من نعرف رجولته وفضله؟

– كان يجب أن أفعل هكذا !

– ليس سلامش مجرد أمير. لا تنس أنه ابن بيباريس، وأن والدك كان قد أخذ منه سلطنته. ما غفروه لقلاوون لن يغفروه لك.

– إن كان والدنا في ذلك العهد، حين فعل ما فعل، قائد جيش فأنا سلطان مصر! – مع أن ما حدث لخليل جعل صوته يرتفع فقد عاد إلى نفسه سريعاً

– هناك ما يدعوني أن أفعل واجبي فلا تدَعينا نتكلم في الموضوع يوم تأبين والدي، وعليٍّ الذي مات قبل أوانه.

– يا لمصيبتي، أيّ ميت قبل أوانه تتكلم عليه! – صرخت بيبا – هل لسلامش علاقة بالموت المفاجئ لابني علي؟

– لاحقاً، قلتُ فيما بعد – اتهم خليل الآن، وكأنه يوصي أمه، مَن لاذنب له بالجريمة التي دفع شريكَه لأن يفعلها بعدما سمع السؤال الذي كان يشتهيه: إذا كنتِ أنتِ أيضاً شككتِ فيه فماذا سأضيف؟ لِيبقَ الموضوع بيننا نحن الاثنين!

شحب جداً وجه بيبا الأسمر المستدير، ومسحت العرق المتصبب من على جبينها حين لم تجد دموعاً في العينين اللتين هُرعت إليهما بطرف غطاء رأسها. ثم سألت ابنها وقد دفعت برأسها إلى الأعلى:

– هل ما سمعته صحيح أم مجرد شك؟

– إن كنت لا تصدّقين ما رويته لك بحذر شديد – تنهد خليل المتظاهر بانه نسي كونه سلطاناً – لا أعرف إذن...

– لا يمكن أن يكون صحيحاً لأن سلامش لم يكن في القاهرة يوم توفي ابني علي، ولا في نصف السنة التالية إذ كان يحارب الصليبيين برفقة والدك. – قالت بيبا، وسألت بنبرةِ غيرِ المصدّقةِ المرتعبة: – أتكونُ اقترفْتَ خطأ أو دفعوك إليه؟

– لا أريد أن تنظري إليّ أنت ولا غيرك هذه النظرة – عاد خليل إلى وعيه – سنعمل بما يمليه علينا الله لأنه وحده من يعرف ذنب أي إنسان وبراءته. ولكن أقول لك إني سأثأر لعلي. ولا تصرّي قائلة إن سلامش لم يكن في القاهرة يوم المصيبة، ولا إنه كان يحارب. ولم أكن جاهلاً أنه كان له ضلع في كل مسألة،

وأنه لازَمَ والدي أينما كان، وأنه كان يطالب سراً بمنصب السلطان الذي فقده دون اعتبار لنا نحن أولاد قلاوون.

– إن كنت ترى هذا – لم تدع بيبا ابنها يكمل كلامه – هذا العديم الإيمان والدك قلاوون...

– لا، لا. استعجل خليل – من كان يعرف بميتة والدنا هو الله ولا علاقة لسلامش بالأمر. لماذا نتجنّى عليه ! ولكني لم أقل له: تخلَّ عن منصبك لأنك قتلت أخي. أفهمته أننا لا يمكننا العمل معاً لأننا لم نكن على وفاق منذ صغرنا. حين يعتاد المماليك والناس على تغيير معاون السلطان يكون أمره انتهى.

– يا ولدي، أستمع إليك فأراك تصرفت بحكمة لا توحي بها سنواتك الاثنتان والعشرون. إذا مرت سنة حِدادنا وجعلتني أحضر عرسك فسأكون راضية عنك روحاً وقلباً. ولكن سأصارحك بخطئك دون اعتبار لموضوع رضاي عنك: لو استشرتني لما سمحت لك أن تسمي تورونتاي معاوناً للسلطان. تناسيتَ أن تورونتاي وكِتبغا صديقان، وأن أسلون العنيدة من عرقهما، وابنها الناصر مُحَمَّد الأعرج الصغير كلهم سيتسلطون عليك لاحقاً.

– أهذا ما يُقلقك يا أمي! – ابتسم خليل من خارج قلبه – لا تعبئي بالمغول ذوي العيون الخُزر. هؤلاء، بمن فيهم أسلون، سأبيدهم خلال سنة على الأكثر.

– وكذلك الناصر الأعرج الصغير! – توقدت عينا بيبا.

– مهما فعلت من أجلك فهذا لن أفعله – أجاب خليل بسرعة كأنه كان ينتظر السؤال – هذا، وإن لم تلديه أنتِ، أخي الصغير.

– حقاً، حقاً. – أصلحت بيبا موقفها وهي تتراجع عما قالته – هذا الصغير هو الوحيد الذي بقي معك حياً. عندك أخوات بنات سلطان ولكنهن

متلهفات على الزواج. الأهل لذيذون، غير أن الروح ألذّ. لا تسمح لأحد مهما قال لك أن يستدرجك إلى الخطأ لأن الأشرار كثيرون في دنيانا الفانية. والأم هي الوحيدة التي لا تملّ من ابنها، ولا تكرهه... — نهضت بيبا وقد أجهشت بالبكاء.

"حتى لو كانت الأم أماً والابن ابناً — تنهد خليل، وقال في إثر أمه — فكلٌّ يحمل معه السر الوحيد الذي يكتمه حتى عن نفسه. وليكن الحزن الذي حملني على السفر من هذا القبيل. ولكن أيبقى ما يعرفه معك شخص آخر سراً؟ ! فوّتّتُ ما كنت أنويه بحق تورونتاي وأنا مشغول بالمأتمين وبالسلطنة، وبدلاً من أن آخذ منه بثأر أخي المرحوم أوكلت إليه مسؤولية المنصب الثاني في البلاد. لا، لا. إذا كان السر الذي بين اثنين سيدري به شخص ثالث فلا بد من تصفيته ! حين تكون رأس البلاد، وتمتطي سلطتها فالجميع يرونك، ويتابعونك. ومن يحب أن يستمع إليك يجد صوتك عذباً، ويفهم ما تقول له. ومن لا يودّك لا يراك ولو كنت على صهوة حصانك، وسيجد في أجمل كلامك ما ليس جميلاً. وسيتخيل أن رجليك ليستا في الركاب وإن كانتا حقاً فيه لأنه هو يريد ذلك. وسيتصور حزام حصانك محلولاً حتى لو كان مشدوداً.

ربما لأن خليل السلطان شهد مأتمين، فإن مجلس الأمراء الاستشاري وافق على إجراءات السلطان خلال نصف عام: إبعاد سلامش عن منصبه، وإحلال تورونتاي محله. وإطلاق سراح كتبغا الذي زجّ به قلاوون في السجن. وعدم اكتفائه بتغيير أمير الشام لاجين واعتقاله، بل بإحلال أحد أزلامه محله. ووافق على تعيينه خمسة من الأمراء المقربين منه في المجلس. حين سمع السلطان خليل أن المماليك اعتبروا قتله بيده تورونتاي الذي حاول قتل السلطان والحلول محله رجولة، ولكنهم لم يقبلوا تعيين بيدار الذي لا يعرفون أصله مكانه، وجد مخرجاً:

حشد خليل في الخامس من شهر نيسان عام 1291 جيشه عند عكا التي لم يجد قلاوون الفرصة لتدميرها.

عكا من أكثر القلاع الصليبية تجهيزاً. المدينة التي كان يحرسها ثمانية آلاف من الفرسان المرتزقة من إفرنج وإنجليز وقبارصة، ومن البندقية، وجنوة، بالإضافة إلى المشاة الأربعين ألفاً، دمرها المماليك وفي قلوبهم قلاوون، رجعوا في صيف العام نفسه إلى القاهرة معتدّين بالنصر، محمَّلين بالغنائم، قبل أن يتاح للسلطان خليل الذي يستحم بالمديح رفعُ سيفه.

استدعى خليل الذي كان يستحم بماء المديح الشاعر عزيزاً، وأمره بحزم:

– اقرأ أيها الشاعر ما نظمتَ!

– لا شيء أرفعُ منك، ولا كلام لا تستحقه يا موفد الله، ولكن ما طلبته لم ينضج بعدُ.

– مضى زمن طويل على عودتنا من عكا بعد تدميرها؛ فماذا تنتظر إلى الآن؟

– يا موفد الله، وضعتُ فحماً في فرن مشغلي وأشعلت النار، ونفخت فيها، غير أن الحديدة التي وضعتها فيها لم تحمرّ إلى الآن.

– أريد أن أسألك أيها الشاعر هل جرى لعقلك شيء حتى تهذي!

– يا موفد الله، عقلي على حاله، ورأسي لا يعجز عن التفكير، غير أن ما قصدتُه بـ "الناضج" بلغة الشاعر، كيف أُفهِمك؟... لا يُطرق الحديدُ قبل أن يحمى؟

– ولن تستطيع طرقه ولو بدأت فيه.

– والماء لا يغلي ما لم يكن تحته النار.

– حتى الطفل يعرف هذا.

– أيقطفون الكرز الفجّ فيأكلونه؟ كلامي من هذا القبيل. إن لم ينضج في الذهن...

– كفى ! – أشار خليل إلى الشاعر أن يسكت – ما أكثر ثرثرتك! كنت أظن أنك تنظم الشعر وأنت تسافر. ما مضى كثيره سيمضي قليله. أُمهلك شهراً آخر. يجب أن تكون قصيدتك أعلى مما نظمت لبيباريس وقلاوون. أريدك أن تأتيني بالقصيدة أولاً فإن أذنتُ لك قدّمتَه للمنادين. – عاد وأكد الطلب.

– لا تشكّ في أن اليوم القادم أحسنُ من الماضي يا موفد الله، سأنظم لك شعراً يتعجب منه السامع... – وخرج من البيت وهو يختتم ما قاله بحضرته: "إن لم يحدث للسلطان الذي وعده عزيز ما حدث للطائر الصغير حين حاول أن يبيض بيضة بقدر ما باض الكبير. ثم إني لا أنظم شعراً في غمرة مسيري، هذه عادة مثلك من الخراف الشبعى التي يتناثر البعر من مؤخراتها..."

من حسن حظ الشاعر عزيز أن معاون السلطان بايدار الذي كان يرتقي السلَّم الناعم لسيده وضع حداً لحياته. حين أسرع كتبغا الذي سمع بما حدث في قلعة جزيرة الروضة بمئتين من فرسانه فقتلوا الطامح في السلطنة بيدار، وصاروا يُلحقون أتباعه به، كان الأمير لاجين الذي فهم أن لا أمل بعد الآن هو الوحيد الذي استطاع النجاة من هذه الموقعة – المجزرة.

وريثما طافوا برأس بيدار على الرمح في القاهرة أثبت الأمير شوجي قائد قلعة المقطم أنه أخبثُ الجميع: أبعد المراكب التي كانت تصل إلى الجزيرة كي لا يسمح لكتبغا بمغادرتها فتركه بعدما ظن أنه صار سلطاناً بلا معاون.

II

ظهر بوضوح خلال سلطنة خليل التي استمرت ثلاث سنوات الصراعُ على السلطة الذي استمر خفيةً قرابة قرن من الزمان بين المماليك البحرية والمماليك البرجية.

– ما العمل يا برقت؛ أنت قائد كل الجيوش المملوكية؟ مع أن شوجي كان يستمد الثقة من حبسه لكتبغا في جزيرة الروضة فقد اكتشف أن المهمة التي طوّق بها عنقه ليست سهلة، وظهر من سؤاله قلقه منها – إن لم نوقف هؤلاء فكتبغا الذي سمعتَ أنه اعتلى العرش سيمسك بزمام الأمور، وسيحبسوننا في البلاد بلا أي حرية في التصرف. يقول كتبغا ذو العينين الضيقتين: "يكفي ما مارس الأديغة من السلطنة".

– إن كان كتبغا يقول هذا فقد عملتَ أنتَ واجبك. وماذا بعد؟ – سأل برقت باسماً وقد اختلط جده بهزله.

– مضى على البلاد ثلاثة أيام بلا سلطان. ما رأيُك أن نرشح سلامش؟

– أوافقك إن قبِل.

– ولماذا لا يوافق؟ ! – ارتفع صوت شوجي رغماً عنه، ولكنه أصلح الموقف بسرعة: – سامحني يا قائد كل الجيوش المملوكية، غلبني قلقي. إن كنت ترى أني عملتُ ما عليّ فسأعمل الآن بما تشير به.

– لا تنس أني لم أعد منذ العام الماضي قائد كل الجيوش المملوكية يا شوجي. وقفتُ إلى جانبك قلقاً مما حدث في القاهرة وفي مصر. فإن كنت تطلب مني أن نتكلم إلى سلامش الذي لم يعرف هذا فسأركب معك حالاً. غير أني أريد ألا أتسبب في خطأ في هذا الموضوع. كنت أريد أن نمنع البرجية – البحرية من

التقاتل بعدما ظل خليل يبعد عنه أمراء قلاوون فرمى العداء بين الطرفين. والأديغة بين المماليك الذين حبستَهم في الجزيرة ليسوا قليلين.

– لا أنوي مثل هذا يا برقت. ولكن، لو لم يبق غيري، لن أسمح بوجود الابن الأصغر لبيباريس أن ينصَّب كتبغا المغولي الخائن سلطاناً على غير بلاده.

– على ما تقول — ابتسم برقت — الغريب أعمى ولو كان حادّ العينين. ونحن؛ نحن الأديغة من نكون؟

– عرفت أنك ستقول هذا. ولكن أقول لك: نحن لسنا مثل كتبغا الذي خان قومه المغول، ولا مثل القبجاق. نحن صرنا من مصر وإن لم نولد فيها.

– لا أوافقك تماماً — لم يغير برقت رؤيته المملوكية التي كان عليها منذ صباه — نعيش حسب مصيرنا الإجباري. صحيح ما يقوله الأديغة في نواحينا من أن من تأتي على ذكره تجده على عتبة الباب: ها هو سلامش آتٍ إلينا برفقة عدد غيرِ قليلٍ من المماليك.

هُرع المماليك المنتظرون على شاطئ النيل إلى تتبُّع الجهة التي كان يأتي منها سلامش، وحيّوا القادم بسيوف مسلولة مفعمة بالأمل. وأنزلوه ممسكين له عنان حصانه علامة احترام. وأطلع شوجي سلامش على الأحداث المؤسفة التي جرت في القاهرة طوال الأيام الثلاثة الماضية. واختتم بمديح:

– يسرنا أنك جئت تشاركنا خلافاً للأمراء الآخرين الذين اعتكفوا في بيوتهم.

– أتسمع يا برقت أننا أنت وأنا لسنا كسائر الأمراء؟ – ابتسم سلامش وتابع كلامه: – أستمع إليك يا شوجي، أستمع.

– أرغب أن أسألك أيضاً كما سألت الأمير برقت. القبجاق أنصار كتبغا الذين حبستُهم في الجزيرة يطلبون أن نتفاوض؛ فما الجواب الأفضل؟

– لا أعرف رأي برقت في هذا الموضوع. لو كان الرأي لي لفضّلت أن تتفاوضوا على أن تتبادلوا التهديدات. سيأتينا الصراع المملوكي بنكبة لا مخرج لنا منها. وهذا هو السبب في أني لم أقبل أن يتسبب تركي منصب معاون السلطان في مشكلة. وكنت راضياً عن سلوك برقت الحكيم. ولكني لا أقصد بهذا أننا غيرُ مهمومين بما يحدث في البلاد. وشاهدي على هذا ركوبي إليكم. يا شوجي تحلّيتَ بالرجولة في الوقت الذي وضع خليل ووتورونتاي وبايدار وكتبغا البلاد في وضع حرج. لم تحِدْ عن طريق بيباريس وقلاوون. أنا متضامن معك.

– حياك الله – قال شوجي، وجعله ما ظن أنه تحقق له وانتهى يستعجل:– إن كان هذا رأيك فنحن نريدك سلطاناً.

– أنا مضى عهدي منذ زمن بعيد. – تغيّر لون سلامش بحيث تعرف منه أن قلبه آلمه، ثم عبّر عن عدم رضاه: – يحزنني أنك تجاوزت الناصر مُحَمَّد الابن الصغر لقلاوون. إنه المرشح للمنصب الآن في مصر. أتراه ما يزال صغيراً على المنصب؟

– من أين لي أن أعرف... إذا كان كتبغا من الخُزر العيون، ووالدة الناصر مغولية...

– وهل علينا نحن الأديغة ألا يثق بعضنا ببعض؟ ! – أجاب سلامش بوضوح على ما كان شوجي عاجزاً عن الإفصاح عنه.

وهكذا أبدعت النزاعات المملوكية بين البحرية والبرجية[1] هذا هو التاريخ الرسمي، أما كاتب هذه الرواية فيعيد الغالبية العظمى من حكام الدولتين إلى الشراكسة كما هو واضح لمن يقرؤها. في أواخر عام 1293 سلطاناً جديداً إلى الحكم، هو الفتى الناصر مُحَمَّد ذو الأعوام الستة عشر. وعُيِّن شوجي وكتبغا مستشارين له. ولكن سلطنة الناصر مُحَمَّد لم تدم إلا عاماً واحداً. والمشكلة كلها أتت من المستشار كتبغا ووالدة السلطان. حين اختبأ شوجي الذي كان كتبغا أمر بقتله كانت أسلون التي غلبتْها "مغوليّتها" هي من دلّتهم على مكان اختبائه وسلّمته لهم. ولكن لم تنته الأمور كما تأملت أسلون. فقد استولى كتبغا على منصب ابنها، واحتفظ به سنة ونصفاً. وفي هذه المدة القصيرة امتلأت القاهرة ومصر بالمغول بتدبير من كتبغا. وجمع إليه مئات من أسرته "أوفايرات" ومنحهم أفضل أماكن السكنى في القاهرة. وظل يُقصي الأديغة والعرب مقرباً أنسباءه إليه في الأعمال. وكان كل بوابيه وخدمه ومرافقيه الفرسان انتهاء بطباخيه وخدم المائدة، من المغول.

كانت بيبا أول من فرحت بتنحية الناصر مُحَمَّد من السلطنة ولكنها، عاجزةً عن أن تجد من تبثّه حزنها وشكواها، تلوم نفسها بنفسها. كان موضوع المغول يبعد أسلون التي نسيت أنها كانت الزوجة الأثيرة لدى قلاوون عن ابنها فأصبح

---

[1] المماليك البحرية، أو ممالك الترك، سلالة أغلبها من الترك أو القبجا (التتر) حكمت مصر والشام 1250 – 1382 م. وتعني كلمة البحرية النهر، وتشير إلى جزيرة الروضة في نهر النيل، حيث بنى السلطان الصالح الأيوبي قلعة لهم. والمماليك البرجية، أو الشراكسة، حكمت بعد سقوط البحرية حتى عام 1517 م، عام الاحتلال العثماني. ويحملون هذا الاسم لأنهم كانون يسكنون في أبراج قلعة الجبل.

الناصر قريباً من ضرّة أمه. وتفكيره الأديغي – العربي هو وصديقه شته أبش ابن الأمير وزدمر ينمو ويتوطد.

مرة أخرى تحلى بالرجولة لاجينُ قائدُ الطرف الأديغي في أثناء النزاع البرجي – البحري: هاجم سراً مع عدد من المماليك المسلحين كتبغا، وطرده من الحكم. ولكنهم سلكوا معه السلوك نفسه قبل أن تكتمل سنتان. وحين عجز قادة البحرية والبرجية السلار والجاشنكير عن توازع السلطة أُعيد الناصر مُحَمَّد مرة أخرى إلى الحكم.

ومع أن سلار والجاشنكير كان وضعهما على هذا النحو فقد كان عداؤهما الخفي يزداد. والمناسبة التي كانا يتوحدان فيها هي حين يهاجم الأعداء مصر.

حين بلغ السلطان الناصر مُحَمَّد الذي ازدادت خبرته في قيادة البلاد عاماً بعد عام الثانية والعشرين مراقباً الأميرين اللذين يحيطان به دون أن ينحاز إلى أحدهما، خدع سراً الأمراء المتنازعين: ادعى أنه يحج إلى الكعبة فذهب إلى الكرك. وأرسل إلى القاهرة خبر تنازله عن السلطة التي منحها الله له بسبب أن سلار والجاشنكير يمنعانه من مزاولتها. وحين لم يعد السلطان الذي أرسلوا إليه: "عُدْ حالاً دون أن تتصرف بصبيانية" أُبعِد أقلُّ الأميرين أنصاراً وهو سلار، ونُصّب الجاشنكير للسلطنة.

تبيّن من الخطوة الأولى أن الجاشنكيرَ المحاربَ القاسيَ لم يكن صالحاً لأمور الحكم: فبدلاً من أن يفهمَ أن أغلب المماليك وسكان القاهرة والفلاحين يتضامنون مع ابن قلاوون الأصغر، ويتعاملَ مع الموضوع بلطف وحكمة بدأ يصارعه. والناصر مُحَمَّد لم يكن مستسلماً ودون نشاط. – نادى أنصاره، وتحالف معه أمراء سورية، وأتته مجموعات من الفرسان المماليك من مختلف أنحاء مصر. وحين وصل إلى الشام على رأس جيش من عدة آلاف استقبله

أهل البلاد بالترحيب. وفتحوا له طريق القاهرة. وحين سمع الأمير سلار بالأمر أرسل عدة فرسان يستقبلون القادمين، معلناً تأييده للسلطان المظلوم. والجاشنكير الذي أدرك أن أمره انتهى، وحقناً للدماء، غادر القاهرة من نفسه. وبالقياس إلى السنوات السابقة فالسلطان الناصر مُحَمَّد الذي حنّكته التجارب مارس سلطنته الثالثة بمزيد من الحكمة. "وضم إليه الجاشنكير من أجل منع الصدام بين مختلف طوائف الجيش، قائلاً له "أغفر لك ما فعلت من أجل حقن الدماء في مصر، وأعيّنك معاوناً للسلطان" ثم أعدمه. وختم حياة سلار بالنهاية نفسها. ولكن السلطان الناصر مُحَمَّد الأعرج المسكين الذي مارس السلطة أربعين عاماً، يُعزَل ويعود، لم يستطع أن يفعل شيئاً بالنزاع البحري – البرجي. ولم يستطع من تبعه من السلاطين إلى أن جاء برقوق مصالحة المجموعتين.

III

العام 1340، على ساحل البحر الأسود.

الصيف قائظ في مدينة "كفا"[1] والناس يتمايزون في السوق بلغاتهم وبأصواتهم. والصبي المعصوب الساقين جالس في حرّ الهاجرة يائساً متجمداً كذبابة في التراب.

– ماذا تنوي أن تفعل بهذا؟ سأل التاجرُ وسمَني، متردداً بين الرغبة وعدمها، الرجلَ الواقف وراء الصبي.

– إن كنت ترغب فيه بعتُك إياه.

– أنت وأنا هذه مهنتنا. كم تطلب فيه؟

– لن أتجاوز السعر الدارج.

– قُمْ!

– سيقوم ولكني لن أحلَّ رجله.

– لماذا؟ رفع وسمَني حاجبيه دهشة.

– وهو على كل حال ضعيف جداً.

– أهو عنيد جداً هذا المُقْعَد؟

– لستُ مُقْعداً! – ارتجت كتفا الصبي الذي صبر إلى الآن، ولمعت عيناه.

– ومن أنت إذن؟ – سأل وسمَني متظاهراً بالمزاح الصبيَّ الذي كان يتجاهله.

– أنا برقوق، أنا إنسان... – احمرت عينا الصبي السوداوان المدوران – إن أردت شرائي فاشتريني وخلّصني من هذا المجرم. ولن أنسى معروفك أبداً.

---

[1] يذكر ابن بطوطة مدينة في القرم اسمها الكفا ويقول إنها مدينة عظيمة مستطيلة على ساحل البحر. وتغيّر اسمها لاحقاً إلى فيدوسيا.

– أتسمع يا من أدعو له بالرحمة ماذا يقول رغم تقييده؟ منذ ثلاثة أيام وأنا أجرّه ولم أستطع تليين قناته رغم الضرب والوخز. أبعِده عن وجهي وادفع ما تشاء. لا أعرف ماذا سأفعل به إن لم أصرّفه غداً.

– لا يكفي أنك سرقتني؛ ماذا ستفعل بي بعدُ؟ – ابتسم برقوق وكأنه يقول: كما تريد، يُسعدني جداً كلامك.

حين اختطف المجرمُ السوطَ هجم التاجر وسَمَني على يده فأجبره أن يرميه من يده. ولكنه نفّس عن ضيقه:

– ألا تعرف أني لن أعبر بك بحر آزوف ثانية! سألقي بك في البحر طعاماً للأسماك.

– أرجوك لا يجوز هذا، لا تظلم الصبي إذا كان يدافع عن نفسه!

– أقول أيها التاجر وسَمَني، وأنت وأنا في الجملة — مزح المجرم الذي كان مغتاظاً يملك نفسه بصعوبة: – أتعرف في هذه الدنيا عدالةً!

– هذا الجالس أمامنا مستقيم.

– وكيف؟

– هذا ليس لصاً ولا قاتلاً.

– إن كنت شفيقاً هكذا فاشتره ودعني.

– قد أفعل هذا. خذ، هذه ثلاث قطع ذهبية!

– هذا ليس حيواناً وإن كان ثرثاراً. سعره أغلى مما تدفع. ولكن لما كنتُ قلت ادفع ما تريد فلن أتراجع. بارك الله لك فيه!

– أظننا، أنا وأنت يا برقوق، سنتفق.– قال وسمني لمن كانوا يفكون قيده، وسأله: – أتعرف العَدَّ؟

– إذا كان في كل يد من يدي خمسُ أصابعَ فالمجموع عشرة.– اعتبر برقوق ما سمعه حُسن حظٍّ – وإذا أضفت إليها أصابع رجليّ كان الناتج عشرين.

– وأضف إليها خنازيرك الوليدة! – قال المجرم الذي كان يلمّ الحبل في جيبه ملتفتاً إلى الوراء.

– أيّ خنازير؟ ألستَ مسلماً؟ أأنت مسيحي؟ – استعجل التاجر لما سمعه مما لم ينتظره.

– إلهي ليس إله المغول – النغوي، ولا صليب المسيحيين. – قال الصبي الذي كان لا يزال يعرج من آثار القيد كلامَ مَن يعرف الكثير – آلهتي هي هذه الشمس، وهذه السماء، وهذه الأرض. إنها تحميني؛ أعجيب هذا؟

– لا، ليس عجيباً، ربما كلٌّ منا يحب عمله... هذا المجرم الذي يظن نفسه سعيداً بسبب القليل من الذهب الذي صار في يده يعيش في هذه الدنيا، ما العمل، وأنا كذلك، وأنت. أنا كنت قررت اصطحابك إلى حيث جنة الله لأني ظننت أنك مسلم.

– أي مكان هذا؟ – نطق برقوق بسرعة وندم – ولكن ألم تعدني أن تُطلقني؟

– كنت، غير أني أراك صبياً صالحاً. أليس عندك أب وأم؟

– لا، زفر برقوق – لم تعمَّر أمي سنة واحدة بعدما أسر الروسيك والدي وأخفَوه نهائياً. أنا يتيم لا أهل لي. منذ سنتين أرعى الخنازير.

– هكذا إذن! – تظاهر وسمي بالتنهد – على ما تقول أنت وحيد مقطوع من شجرة. إذن لا يهمك في أي مكان تعيش. ولأنك سألت عن مكان جنة الله على الأرض فسأخبرك: في جهة الجنوب الشرقي. ولكن لا تربى الخنازير هناك. وإن قلتَ لا فسنتجه إلى الروم الصليبيين، سنذهب حيث تشير لأني أتوقع أن تكون رفيقاً جيداً لي تلتقط ما قد يسقط من يدي، فالتاجر لا وطن له يبيع

ويشتري في أي مكان. قال في نفسه: "هذا صبي فطين، أظنه يناسب ما طلبه مني قائد الجيش يلبُغا"

والأديغة في أي جهة يكثرون؟

– أهناك جهة ليس فيها أديغة؟ – صرخ وسمني — في جنوة الغربية، وفي اتجاه الروم تلتقي بالأديغة. ولكن المكان الذي يكثرون فيه هو بلاد المسلمين في الجنوب الشرقي: هل سمعت بأسماء مصر، الشام، بغداد؟

– لا، – نظر الصبي بفرحِ الأملِ في وجه التاجر.

– إذن هل سمعت باسم المملوك؟

– أليس المماليك أديغة؟ – لمعت عينا برقوق، ثم خص بكلامه: – بيباريس وقلاوون هما سلاطينهم.

– ومن أين تعرف هذا؟

– كانوا يتكلمون في الموضوع في مضافة العجوز الذي عملتُ راعياً لخنازيره.

– ما سمعتَه صحيح. غير أن بيباريس وقلاوون فارقا الحياة منذ زمن طويل.

– وإذا كان المماليك دون سلطان فكيف تجري أمورهم؟

– هل رأيت الأديغة يوماً بلا قدوة، والمماليك كذلك. — لن يبقوا دون سلطان. لنمضِ؛ لماذا توقفنا؟

– وأين نذهب؟

– إلى البحر.

– ماذا سنعمل فيه؟

– كيف سنسافر وأنت متسخ الوجه، وملابسك...؟ سأحممك وأكسوك.

– هكذا؟ – لحق برقوق راضياً بالتاجر.

– أتعرف السباحة؟

– أنعيش على الساحل عبثاً؟ أعرف السباحة وركوب الخيل والرماية بالنبل والقفز على النار. وأتسلق أشد الأشجار استقامة. وإن أردتَ ألّفتُ أغنية وغنيتها... – شرع برقوق يثرثر ربما لأن وسمني أتاح له حرية التعبير خلافاً لِما توقع. – المواشي لا تظل ترعى، أليس كذلك؟ حين تستريح المواشي ظهراً ألا أسلي نفسي؟ كنت أخترع لنفسي كثيراً من الألعاب. كنت أركض وحدي، وأقفز، ولعبت مع نفسي كثيراً لعبة "دق الحابي، والقرص والعصا، والطميمة.[1]

– نعم، نعم يا برقوق. لاحظت من أول ما لمحتك أنك صبي نشيط ولو أنك كنت مقعياً كذبابة الخريف الكسول. حسناً فعلتُ إذ خلّصتُك من ذاك المجرم.

– شكراً يا كبير. لن أنسى معروفك ما عشتُ.

– لستُ من يجب أن تشكره بل الله الذي يتوسل إليه الجميع ولا يتوسل إلى أحد. هو الوحيد الذي حمانا أنت وأنا من ذلك المجرم فاقد الشرف. على ما فهمت، أنت جاهز لتسافر معي إلى الجنوب الشرقي حيث يعيش الأديغة المماليك.

– إن كنا سنعود إلى نواحينا كما فعلت لي اليوم، فلا مانع عندي ولو كان للتو.

– طبعاً سنعود. لهذا السبب يقول الأديغة "ما تراه العين يساوي العمر" – "إن كنت سعيد الحظ أُعجِب بك يلبغا معاون السلطان... ولماذا لا؟ إن لم تُعجبْه

---

[1] الأولى معروفة شعبياً باسم: بُري. تُلعَب بعصا وقطعة أصغر تُنصَب على حجرين وتُقذف بالعصا... والثانية تُدفع قطعة خشبية على شكل القرص بالعصا. والثالثة تُعرف بالطميمة أو الاستغماية: يُغمض أحد اللاعبين عينيه ويعدّ إلى رقم محدد يختبئ خلال التعداد رفاقه فيبحث عنهم...

فأنا أعرف لمن أبيعك. وهو إن لم يكن أغنى من يلبغا فليس أفقر. ولكن إن أرضيتُ من وعدته فهو أفضل له ولي ولهذا الصبي. أليس معاونَ السلطان، الرجل الثاني في البلاد؟ !"

في الصباح الباكر، ساعة انطلاق الجوارح الكبيرة على جانبي بحر آزوف، – جهة البحر وجهة الأرض، الطبيعة جميلة تأسر العين وتمتع القلب: السماء ليس فيها، حتى سحابة تائهة، صافية. وتظهر قمم الجبال البيضاء من بعيد. والأمواج الكسلى تجرف الحصى إلى الشاطئ، ثم تستعيدها. والسفينة التي صواريها منصوبة وأشرعتها جاهزة ترتجّ على سطح الماء. وطيور البحر البيضاء تتصايح. وبعض العقبان تحوم بأجنحة مفتوحة ثابتة.

تُسمع في سوق كفا مئة صوت متمايز.[1]

– يضحكون، ويتساومون، ويتشاجرون، ويتصالحون، ويبكون، ويسكتون. كلٌّ ونفسه، وما فيه مصلحته.

على طرف السفينة يقف وسمني والصبي راعي الخنازير السابق بأبهى حلة وكأنهما غيرُ من كانا البارحة.

– لماذا يسوقون هؤلاء الصبية المقيدين أحدهم إلى الآخر إلى داخل السفينة؟ سأل برقوق وسمني رغم تألمه من المنظر.

– أتقصد هؤلاء؟ – تظاهر التاجر بأنه ليس من اشترى هؤلاء الصبيان، وبرّأ نفسه بما هو مفيد له:– ها هو يا برقوق، وأنت أيضاً لولا أني اشتريتك من المجرم لكنتَ مثلهم. تعال، لا نريد أن نجلب الألم لقلوبنا، لنبتعدْ!

– ألا تستطيع أن تشتري هؤلاء وتطلقهم مثلي؟

[1] كانوا يشبهونها بإستانبول لكثرة الأعراق فيها.

– من يفعل الخير يُعزّه الله. ولا يحاسِب من لا يقدر عليه. الدنيا التي نعيش فيها دار عاجلة كتبها علينا الله. بعضهم يغتني فيها، وغيره يخسر ما عنده. ولكنه يختبر غنينا وفقيرنا فيها. إن فعلت معروفاً بتخليصك أمس فسيغفر لي عجزي عنه اليوم. ارفع راحتيك ودعنا ندعُ إلى الله أن يكتب لنا السلامة في سفرنا.

– ولكن إلهي أنا هو هذه الشمس، وتلك السماء – نظر الصبي ذو الآلهة الوثنية المتعددة في وجه وسمني.

– ادعُ إلى الله لأنه القائم على الشمس والأرض والسماء. سيفهمك، وسينظر إليك بعين العطف.

حلّ التاجر وسمني مسألة الصبيان الأسرى خلال ثلاثة أيام دون أن يُطلِع عليها برقوق، واجتازوا سورية مروراً بحلب ومنبج وحمص ودمشق. وحين دخلوا إلى مصر سأل التاجرُ برقوقَ عما كان يقلقه طوال الشهر:

– ألا يعجبك المكان الذي جئت بك إليه؟ لماذا لا تقول شيئاً؟

– ومن أين لي أن أعرف ما سأقول لك! نمشي ونأكل وننام. ثم نعاود السير. ولم أر في طريقي غير الرمل والحجر. ألا تنبت الأشجار هنا؟ ألا تنبع الأنهار؟ وأين المماليك الأديغة؟ أهذه جنة؟ الجنة بلادنا نحن!

– مهلاً، مهلاً. ما أكثر أسئلتك! أظن الحرّ أثّر فيك.

– بديهي أن يؤذيني إذا كان الناس هنا لا يعرفون غياباً للشمس. ليلُهم ونهارهم سِيّان. ولا تهطل قطرة مطر. لا أعرف، إلا إذا كانت الحياة في ما تسميه مصر أفضل.

– لن نميز أنفسنا ممن جئنا إليهم يا برقوق لأن الله العلي العزيز يبلونا في دنيانا. ولن نحيد عما يأمرنا به موفد الله. وسنُحسن التعامل معه.

– ومن هو؟

– هو سلطان مصر، الأشرف ناصر الدين شعبان الثاني.

– أهو أديغي؟ وإن كان كذلك فلماذا هو الثاني وليس الأول؟

– سبقه سلطان اسمه شعبان.

– لا أعرف من أي نوع من الأديغة هذا. يسمح أن يطلقوا عليه لقب "الثاني" بدلاً من الأول. لو كنت مكانه لما سمحت لهم.

– أسمعك فأراك تتكلم من قلب الأشرف ناصر الدين شعبان. وهو يقول الكلام نفسه. لا يسمح لهم أن ينادوه بـ "الثاني".

– إذن هو أديغي حقيقي.

– ولكنه يقطع ألسنة من يخطئون فتخرج من أفواههم كلمة "الثاني"... أنا لم أقل شيئاً وأنت لم تسمع. ليس السلطان الأشرف أولَ من سأقابلك به، بل معاونُه يلبغا.

– أأنتما معارف؟

– أكثر من معارف. نحن أصدقاء قلباً وروحاً. إن كنت تسأل فهو من يعيش في الجنة. ستراه ما إن نصل إلى القاهرة.

– ياه ما هذا! — سأل برقوق الآن عما كان يشغله أكثر من غيره، وقد نسي تكدُّر مزاجه، واستدارت عيناه: – السلطان؟

– إذا قال لنا "أهلاً وسهلاً" [1] ندخل.

– ماذا؟ ألا يعرف السلطان الأديغية؟

– وكيف لا يعرف! بل لأنه يتعارب أحياناً.

---

[1] في الأصل بالعربية.

– وكيف تصبح عربياً وأنت غيرُ عربي؟ !

"اسمع ماذا يقول أيضاً !..." – ابتسم وسَمَني في قلبه، وتجاوز السؤال: – هل ترى هؤلاء الفرسان السود هناك؟ هؤلاء هم البدو.

IV

مع أن برقوق كان يظن أن وسمني التاجر متقدم في العمر فقد تجمد راعي الخنازير السابق حين رآه في الصباح بعدما نام مرتاحاً، وشذّب لحيته وشاربيه، ولبس قميصاً حريرياً أبيض وبنطالاً أخضر عريضاً من الأسفل، وقدماه في حذاء ذهبي، وخصره ملفوف بقماش عريض أحمر، والعطر يفوح منه:

– ما الأمر يا برقوق؟ ألم تعرفني! – ابتسم وسمني وهو يُصلح العمامة الحريرية البيضاء على رأسه.

– أعرفك، ولكن أراك ترتدي مثل هذه الملابس لأول مرة. ثم إني ظننتك أكبر عمراً من حقيقتك.

– والسنوات الأربعون ليست قليلة... – مع أن وجه وسمَني اكتسى حزناً فقد صحا سريعاً – ولكن لو كان عندي خمسة عشر عاماً مثلك، وعندي ما عندي الآن، وأعرف ما أعرف، ولو لم تحدث لي المصيبة التي مررت بها، لاعتبرت نفسي أسعد إنسان على الأرض، نعم، نعم، على هذه الدنيا الفانية، ورغم ذلك، كما ترى، لستُ سيء الحظ. حسناً ليس هذا الأمر مهماً الآن. كيف قضيت ليلتك؟ هل نمت جيداً؟ هل ارتاح بالك؟

– كان سريري مريحاً، وقميصي الحريري منعشاً، نمت وارتحت. – أجاب برقوق مُظهِراً رضاه بطريقة تقطيعه لكلامه – واستيقظت مع شمس هؤلاء.

– في هذا الوقت المبكر!

– إن لم تستيقظ باكراً فلن تنمو مواشي القطيع، ولن تشبع. لا يقول الأديغة عبثاً "من يُفق باكراً يولد له عجل" – قال برقوق كعجوز حكيم، واختتم بما استغربه ولم يجد له تفسيراً. – رأيت شيئاً عجيباً في أرض داركم، وعلى العشب

وراء الحائط، بللت مقدمة حذائي كأن الندى يسقط عليها... من يا تُرى يرعى خنازيري الصغيرة الآن هناك؟

– رحلت بقلبك إلى نواحينا ولم تقض إلا ليلة واحدة هنا. لم أكن مثلك حين كنت صغيراً في عمرك كانوا أنسَوني المكان الذي جلبوني منه.

– وأنت هل جاؤوا بك إلى هنا مثلي؟ – حمل فزع القلب والريبة برقوق على السؤال.

– لو خرجت شاباً مثلك يا أخي الصغير لعددتُ نفسي محظوظاً. قضيتُ لياليَ كثيرة في البيت الذي نمتَ فيه الليلة، وفي بيوت أخرى مشابهة أو أحسن منها في القسطنطينية وجنوة وأفني[1] وكفا، وفي مهالك الدنيا. ما الفائدة منها؟ لو لم يدمروا حياتي بمنبِج فيتسببوا في تعاستي لأسست أسرة جميلة... هذه حكايات ليس عليك أن تسمعها غير أني أقولها لك من قهري. احذر النساء، إنهم عِرق شرير. لا شيء يخطر لهن فيتورعن عن أن يفعلنه بك. لا، لم يأتوا بي إلى حلب دون أن يُحيجوني إلى الطعام وإلى النوم. ألم تر الصبية الأسرى الذين كانوا معنا في السفينة؟ وأنا كنت مثلهم في يوم مضى. أيُّ ذكريات فارغة أُرهِقُ بها نفسي الآن! أفضل من كل هذا أن نُفطر فطوراً ممتازاً. — صفّق وسمني، وقال للشاب النظيف الرشيق الذي ظهر على الباب: – نحن قادمان إلى الفطور!

قضى برقوق شهراً كاملاً في المدينة ووسمني ينسى اصطحابه إلى يلبغا معاون السلطان: أراه التاجرُ الأسواق والمساجد والمدارس والدكاكين والجسور والمقاهي، ومقاصد الناس الأخرى. غير أنه لم يأت في حديثه على المماليك وثكنات الجيش المملوكي.

---

[1] في المغرب.

– يعرفونك أينما ذهبنا، ويستقبلونك بالترحيب، وتسمع الأصوات الأديغية كثيراً.

– عفارم يا برقوق! ما أشد ما التصقت هذه الكلمة بقلبك بوضوح. حسناً يا أخي الصغير، حسناً. لن تضرك إن لم تنفعك. إن تعلم الإنسان أكثر من لغة سهُلتْ حياته لأن الناس يتكلمون لغات كثيرة. ها أنا أعرف الأديغية والعربية والرومية والجنوية وقليلاً من الروسية تعلمتها في مهالكي فلا تُثقِلُني. وأما ملاحظتك أني معروف في كل مكان فلا عجب إذ أني أعيش في المدينة، وتاجر.

– ما أعجب هذا البحر! – خُيّل لبرقوق حين صار على ضفة النيل أنه على شاطئ بحره.

– هذا ليس بحراً. هذا ما يسمونه نهر النيل. – قال وسمني.

– المراكب عليه كثيرة ولو لم يكن بحراً... – انهار صوت برقوق، وحين أدار ظهره للنهر عَرَضاً بدت له القلعة المملوكية على جبل المقطم. – ولماذا هذا البيت الجميل على ظهر الجبل؟

– سأجيبك لأنك سألت – شحب وجهُ وسمني – ولكن اِنس الموضوع حالاً. هذه هي قلعة سلطان مصر. وتلك التي تبدو من جزيرة الروضة له أيضاً. امض، حان موعد صلاة العصر.

ركب برقوق وهو يقول في نفسه: "لماذا لا يحب وسمني قلاع السلطان؟..."، واتخذ موقعه المعتاد على اليسار. – في طريقنا إلى مصر كان يمدح السلطان ومعاونه، وكان مقرراً أن يعرِضني عليهما. والآن كلما رأى جنود المماليك شحب لونه وتجنّبَهم. ما الأمر يا تُرى؟ ليس ما بينه وبين يلبغا معاون السلطان معرفة فحسبُ. كان صرّح لي بأنهما قريبان قلباً وروحاً...:

– ما سبب ما تفعل يا كبير؟ – سأل برقوق وسمني.

– يجب أن تكون نظيفاً وجهاً وجسداً من أجل أن تقف في حضرة الله للصلاة كما أنت طاهر روحاً وقلباً. إن كنت تحب أن تقف إلى جانبي علّمتك الوضوء.

– ما الصعوبة في أن تغسل وجهك ويديك ورجليك؛ ألا نفعل هذا كل يوم!

– لا تقل مثل هذا! – قاطع وسمني برقوق – لم أسمع شيئاً! قلت لك: إن أردت، ولم أجبرك. الله العزيز العلي يرى كل شيء ويسمع. ينصح من يخطئ، ويبارك في عمل فاعل المعروف. ليس لنا غيرُه يفهم علينا حزننا وفرحنا وضلالنا.

– ولكن حين نعود إلى ديارنا، أيقبل منا آلهتنا ما أفعله هنا؟ – انتقل برقوق إلى موضوع آخر وهو يلمّح إلى تردده في ما يُغرونه به – في نواحينا عندنا سماء وشمس والجبال والغابات والأنهار والمراعي كثيرة. وما أستغربه هو أن الأرض هنا صفراء، أو شبه حمراء، وعندنا: سوداء.

– نعم، حقاً أنت نشيط ودقيق الملاحظة. كل يوم تثبت لي صحة انطباعي عنك في أول يوم رأيتك فيه. وهذا هو السبب في مناداتي لك بأخي الأصغر. وما قلته كله صحيح إلا في موضوع السماء والشمس. السماء والشمس هما هما عندنا وهنا. كان في عهد بيباريس وقلاوون شاعر حكيم اسمه عزيز. يروون أن السلطان خليل أمر بإعدامه لأنه كان يقول بأن السماء والشمس مُلكٌ مشترك بين كل الناس.

– أمن أجل هذا أمر بإعدامه؟ ! – نفض برقوق رأسه مما سمع ناسياً ما كان قاله هو بشأن الشمس والسماء.

– نعم، ولكن يقال إن سبباً آخر أُضيف إلى الأول وهو أنه لم ينظم له قصيدة تتغنى ببطولاته وفضائله. الصدق في دنيانا العارية مثلُ حقيقة الشرق والغرب

والشمال والجنوب ولو أن قول الحقيقة سبب في هلاك الإنسان بكل بساطة. في هذه الأنحاء تشرق الشمس وتسير في الفضاء حتى تغرب في نواحينا. وكما عند العرب شرق وغرب فللأديغة أيضاً.

– تقول هذا يا كبير ولكن شمس هؤلاء تبدو من السماء الباهتة بصعوبة؛ أيكون السبب الحرَّ الدائم هنا؟ وفي نواحينا ولو كانت الشمس طلقة الوجه مستديرة فإنها تُحرق الجبل الذي تغيب وراءه وترعب القلب.

– ولكن هذا لا يمنع شروقها غداً؛ أليس كذلك؟ – مع أن الأفكار المتصلة السريعة للصبي ذي العينين الواسعتين نشرت البرد في أوصال وسمني فقد أجاب الجواب الذي يريده، ومنع برقوق الذي كان يريد إضافة شيء إلى كلامه، قائلاً في نفسه: "هذا الشاب يهتم بأمور كثيرة، ويلاحظ كل شيء، سيكون له شأن". — هذا فيما بعد، لاحقاً. سنكمل حديثنا بعد الصلاة لأنك يجب أن تقف في حضرة الله بعد الوضوء وليس في قلبك إلا الخير.

بعد صلاة العصر، لم يستكمل وسمني وبرقوق الحديث كما وعد. ومع أن وسمني قال له إنه ماضٍ إلى مكان ما في عمل فسلِّ نفسك إلى المساء، فإن ضِيقه هو ما دفعه إلى الركوب بصحبة فارسين، وليس لأمر هام ينتظره. "الخير والشر متلاصقان، الشر والخير متلاصقان... — ما يعتمل في صدره تقذف به حوافر حصانه إلى الوراء. — ما أسهل أن تكون في هذه الدنيا سعيداً أو تعيساً !... لن أستطيع أن أعطي برقوق لأحد إلا إذا انتزعوه مني بالقوة. لو كنت أنوي فِعل الخير لأطلقته فور شرائه من المجرم، وما كنت وقعت في ورطتي. ألا يكفي ما عشته ناثراً الشر خلفي أينما توجهت! بيباريس وقلاوون ظلا يحميان نفسيهما وحريتهما منذ الصبا حتى تبوّأا السلطنة في بلد غريب، واستقرا في

التاريخ العربي. وأنا لأجل من أعيش؟ ولمن أجمع المال؟ إن كان المال ندىً ففي أي جهةٍ سمائي وشمسي؟..." – لجم وسمني فجأة الحصان ودار به إلى البيت.

رأى وسمني برقوق يتأمل المصحف الذي على رفّ الموقد ويداه إلى الخلف كما فعل قبل أيام، فسأله:

– أتحب أن تعرف ما في القرآن؟

– لابد أن يكون ما فيه مهماً إذ هو موشى بالذهب. ولكن لا أعرف كيف سأفهم ما ليس بلغتي.

– الله يسمع ويفهم بأيّ لغة كلّمتَه – أمسك وسمني بالقرآن – إن أردت قرأت لك ما كُتب بالعربية، ثم ترجمتُه إلى الأديغية.– قرأ وسمني بلحن جميل السورة الأولى الفاتحة. إن أردت أن أشرح لك بالأديغية ما استمعت إليه كان المعنى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. اللهُ مالك الكون كله، له المديح، ومن بيده يوم الحساب... نبتهل إليه أن يعيننا، وأن يقودنا إلى الطريق القويم، لا طريق الذين غضب عليهم، ولا الضالين طريقهم" – وبعد أن أنهى بقليل سأل وسمني برقوقَ: – أليس حسناً، أليس ما يقوله صحيحاً؟

– إن كان يقول هذا فأنا لم أسمع إلا الصدق والخير.

– بديهي أنك لم تسمع غيرهما لأنه ليس فيه إلا الخير. وسورتا الإخلاص والفلق تقولان "الله واحد، الله مقصود، لا ولد له، ولم يلده أحد. ولا أحد يساويه" و"الله الذي بيده انبلاج الفجر، أدعو إليك أن لا يمسني ما يحدث في ظلام الليل بسوء..." – إن حفظنا هذه الأفكار في قلوبنا فسيرحمنا الله الذي يتوسل إليه الجميع ولا يتوسل هو إلى أحد. وسيحمينا ، وسيحقق لنا أمنياتنا. قل: آمين! يا أخي الصغير.

– وفي نواحينا يُقال مثلُ هذا... – قال برقوق ولم يردد "آمين".

قضى برقوق عدة أيام وفي قلبه سور القرآن، وما في ذهنه من الأسئلة كثير، ومن الأجوبة قليل. كلماتٌ من قبيل "شرير" "شيطان" "جنّ" "مذنب" "إنسان قذر ليس في قلبه خير" هي التي لم يكن يستطيع تفسيرها. "إن كان إله هؤلاء يكره هؤلاء الأشرار فلماذا يسمح لهم أن يشتروا الأطفال!" كان الصبي يحمل هذا السؤال إن نام أو أفاق، وإن جلس إلى المائدة أو نهض عنها، أو ركب الحصان أو ترجل. وكان يخاف أن يسأل وسمني الذي وعده أن يُعيده إلى حيث جلبه منه، خائفاً أن يُغضبه.

وهكذا اعتاد برقوق على تجاوب أصوات المؤذنين نهاراً وليلاً. ومضت بضعة أشهر أخرى وهو يتعلم بعض الكلمات العربية، ويحفظها عن ظهر قلب. ومضى شهر آخر ولم يقرر وسمني بعدُ ماذا سيفعل بالصبي اللبيب. وفي صباح اليوم التالي لقرار وسمني: "إن كنت سأعمل معروفاً يوماً فسأعيد هذا الصبي إلى وطنه دون أن أسبب له الأذى. سأُنسيه رعي الخنازير، وسأقدم له بعض المال".

سأل برقوق فجأة:

– أتسمع المنادين؟

– المنادون ينادون كل يوم. — تظاهر وسمني بعدم الاهتمام بما قاله الصبي.

– ينادون، يدعوننا إلى سباق الخيل الذي سيقيمه السلطان. — ابتسم برقوق بشبه رياء.

– من أين تعرف ما يقولون وأنت لا تعرف العربية؟ !

– "الحصان" و"سباق الخيل" من بين الكلمات التي حفظتها عن ظهر قلب.

– هكذا؟ – رفع وسمني حاجبيه الأسودين متعجباً مما سمع. — أتريد حضور السباق؟ ولكني كنت أنوي أن أسافر بك غداً!

– كيف لم تُخبرني؟! — سأل برقوق وعتابه امتزج بفرحه.

– كنت أنوي أن أجعلها مفاجأةً ساعةَ الركوب لأن طريقي دائماً مفتوح. ولكن إن قلتَ: الآن! فأنا حاضر.

– هيّا! قفز الصبي من مجلسه.

– إن كنتَ خفيفاً هكذا فلنمضِ! – نهض التاجر وسمني.

V

أيكون شخص ما مثل برقوق هو من دفع العرب إلى أن يقولوا: "اليتيم يقطع سُرّته بنفسه"؟

استقر برقوق بين رفاقه ربما لأن أكثرُهم من الصبيان الأديغة. – في كل مجال: تعلُّم العربية، والحصول على أوسمة المحاربين، والأخلاق الحميدة – لاحظ يلبغا معاون السلطان تفوقه على أقرانه، فبدأ يُبرِزه من بين الجميع، ويقرّبه إليه.

حياة الناس – بغضّ النظر عن لغاتهم ولباسهم وطعامهم وأغانيهم – متشابهة في كل مكان، ولذا كان بين صبيان المماليك من لا يُعجبه سلوك يلبغا مع برقوق. ومن شكّ فيه برقوق في هذه المسألة هو من أصبح صديقه المقرّب من أول يوم: بارچ.

برقوق وبارچ من عمر واحد. وكانا من المنطقة البحرية الأديغية نفسها. وكان سريراهما متجاورين. ويجلسان على المائدة يحرص كلٌّ منهما على أن ينال الآخر كفايته من الطعام. ويعملان معاً في تعلم العربية والأدعية. ويشتركان في ملكية المصحف. ويتسابقان في الجري، والوثب، ورمي الرمح، والرمي بالسهام، وتسلّق الأعمدة. ويتصارعان. غير أن بارچ كان عاجزاً عن اللحاق ببرقوق في الفطنة والنباهة ودقة الملاحظة، والإصرار.

في أحد الأيام لمّح بارچ لصديقه في شبه مزاح:

– أنظر إليك يا برقوق فأرانا كلينا من القامة نفسها، ومن عمر واحد، وآكل مما تأكل، ومملوك مثلك، فلا أعرف لماذا تغلبني في كل مجال. كأنّ وسمني ربّي فيك ذخيرة من القوة.

– لا تُسمِعني سيرة هذا الكذاب! انتزع مني أملي الذي عشت عليه سنة كاملة في يوم واحد. ظل يعدني أن يعيدني إلى حيث جلبني منه، وانظر الآن أين أنا، هذا النذل، عديم الشرف!

– لم أصادف هنا إنساناً ليس عديم الشرف. — غمغم بارچ، وأنهى كلامه: – وأوّلُهم يلبغا الذي اشترانا... لم أقل شيئاً ولم تسمع.– ألحّ على الكتمان.

– ألا تثق بي؟ – استدارت عينا برقوق.

– أثق، ولكن لا أعرف... يلبغا يؤثِرك علينا.

– كأنك لا تعرف أني لا أعتبر من هو حسن السلوك معي وسيئَه مع غيري إنساناً صالحاً!

– أعرف، أعرف. أجبني دون أن تغير الموضوع: أهو لأني قلت لك إنك تغلبني؟

– لا تدعْنا يا بارچ نتنافس في مثل هذه الأمور! كل الناس، كما كان يقول العجوز الذي رعيتُ خنازيره، ليسوا متشابهين في عقولهم وفطنتهم وصحتهم الجسدية، ولذا لنتعاضدْ إذ وقعنا كلانا في موقف صعب، ولا ننسَ أننا أديغة!

– هيه، وكيف صرت مسلماً وأنت راعي خنازير سابق! أضاف بارچ بحيث لا تدري إن كان يمزح أم يسخر.

– إن لم تكن حراً حدث لك مثلُ هذا.

– لا تذكر لأحد هذه الحكاية بحجة أنك لم تكن حراً. لماذا صمتّ؟ ألأول مرة ترى الشمس تغرب؟

– مهلاً يا بارچ، ارفع يديك لندعو إلى الله لأن الشمس إلهنا الكبير تغرب حيث يقيم الأديغة، لنقلْ له: مع السلامة! ولندعُ لها أن تشرق علينا غداً بالخير.

– كفى يا رجل، سيسخرون منا!

– لا يُسخر ممن ربُّه الكبير في قلبه. – صاح برقوق دون أن يغير مكان دعاء ربه، وراء صديقه المنصرف.

كان المماليك صنفين في دنيا العرب. وهما الصِّبْيانُ الذين اشتراهم الأمراء الكبار من أمثال يلبغا، والذين يُحتفَظ بهم في أماكن الأسر. ومن حرروهم من المحاربين.

وكان ليلبغا، معاونِ السلطان، الذي يغتني من حروب المماليك التي لا نهاية لها أكثرُ من أربعة آلاف بين صبيان ومحاربين. وليست قليلة الأراضي التي يتحكم فيها، سواء بالملك أم بمشاركة الفلاحين أم بالاغتصاب في أنحاء مصر. وعلى نهر النيل كان له عدد من مراكب الشحن. وما يملكه في المدن من دكاكين ومطاعم وحمامات ومحلات للتدخين وغيرها يُدِرُّ عليه دخلاً كبيراً. ومع كل هذه الأملاك كان من تجار العبيد سراً وعلناً، معتبراً أن ما عنده قليل بالنسبة إلى ما عند الآخرين. غير أن ما يُنسيك كل ما سبق هو ظلمه، وخلوه من أي شفقة، وابتسامته المرائية.

– كأنك تجمع بين الإسلام والوثنية؟ – سأل يلبغا برقوق وهو يبتسم له.

– ما هي "الوثنية"؟ – سأل برقوق عن الكلمة التي يسمعها لأول مرة.

_ أتجهل الوثنية؟ – ضاقت عينا يلبغا المغوليتان أكثر مما هما عادة _ أتكذب عليّ؟ لا، لا، أمزح معك فحسبُ. لم يخطر لي مثل هذا الشكّ، ولكن معناها هو دينُ الآلهة المتعددة الذين لا تنساهم.

– أتقصد آلهتنا الكثيرين؟

– أنا لا أمل لي إلا الله العزيز العليّ! – أسرع يلبغا بالقول بوجه مذعور، ثم أكمل بصوت أنعم وأشد نفاقاً: – أنا منذ زمن بعيد نسيت آلهتي المتعددين.

وأنت إن لم تفعل هذا فلن تستقر مع الناس الذين وقعت بينهم. ستظل تحت رعايتي لأني أراك حاد الفطنة. لا حاجة للمتابعة الدائمة للشمس الغاربة.

– وسمني الكذاب هو من أبلغك! — احمرت وجنتا برقوق، ثم شحبتا.

– ليس وحده — ابتسم يلبغا.

– إذن بارچ أيضاً.

– ومن هو؟

– هو من تفل عليه الجمل الذي كنت تركبه قبل أيام.

– وهو من أصدقائك المقربين؟ – تظاهر يلبغا بأنه لا يعرفه.

– ليس مجرد صديق بل هو من مسقط رأسي.

– حسنٌ أن علاقتكما جيدة هكذا. ولكنك ذكرت اسمه بلا فائدة. لن أدعك تخطئ لأني اخترتك منذ اليوم الأول من بين المئات من صبياني المماليك. وأنا عندي أصدقائي الأعوان، وأبناء مسقط رأسي. غير أن من أثق بهم معدودون جداً. وإذ أراك شاباً قوياً حكيماً أريدك أن تكون بين أقرانك المماليك بعينيّ وأذنيّ وتفكيري غير أني لا أعرف رأيك في عرضي.

"ماذا ينوي لي هذا الرجل؟... — لم يفهم برقوق في البداية ما سمع. ثم ارتعب حين تفكّر في الأمر: – أيريدني واشياً؟ ألهذا سرقوني، وجاؤوا بي إلى هنا بالخداع؟ لِيبلُ اللهُ المجرمَ الذي سرقني والتاجرَ وسمني!" — دعا برقوق الذي نسي وثنيته الآن بأقذع اللعنات على المجرمَين، مودعاً كل أمله بالله.

– أراك لا تقول شيئاً؟ – لامه يلبغا ثم نصحه: – لا تستعجل، لا أُجبرك. سترى نفسك بعد بضع سنوات حراً، أميراً لعشرة من المماليك في جيشي. حسنٌ أننا نتحادث بثقة رغم الفارق بين عمرينا. غير أن ما استدعيتك لأجله أمرٌ آخر. في أواخر هذا الشهر يقيم سلطان مصر سباقاً كبيراً للخيل. ولا

يقتصر الأمر على السباق بل يتضمن منافسات بين الفتيان المماليك. فإن كنت على قدر المسؤولية أشركتك فيها.

– لن أدّخر جهدي في مسابقات أقراني يا نجمة المماليك المنيرة. غير أني لا أعِدك بما تسميه بـ "عين" و "أذن" إن كنا سنتعامل بصدق. لا تأخذْ عني مثل هذه الفكرة! – حسم برقوق الموضوع كرجل قوي راسخ الرأي.

– وكيف أراك بهذا المنظار! – صرخ يلبغا بما ليس في قلبه، واختتم بما يريد: – أثق فيكم لأن أغلبية مماليكي من الشراكسة. – قال يلبغا في نفسه: "من أين نأتي بكتبغا السلطان، ولايته القصيرة كانت عهدَ سيادتنا نحن المغول. كنا نملأ أحياءً عديدة في القاهرة. ها هو؟ ما موقعي أنا بين الشراكسة الذين يريدون امتلاك البلاد كاملة؟ ! من حسن حظنا أن البحرية يتصدَّون للبرجية. أيمكن أن تعود سلطنتنا إلى مصر يا ترى؟ نحن على حافة العرش برجل واحدة" – ثم أضاف: – أثق بك في مباريات المماليك الراجلة، ولكني متردد في شأن سباق الخيل.

– ما الأمر؟ – حمل قلق معاون السلطان بشأن سباق الخيل، وهو ما كان يشتهيه برقوق على السؤال: – أتخاف ألا أسبقهم؟

– لا، لا يجوز أن تسبق حصان السلطان الأشرف الناصر شعبان. يجب أن يربح كل سباق.

– ليس هذا سباق خيل إذن!

– ولو أنه ليس سباقاً فهذه مشكلتنا في كل مرة. حين حاولت أن أعطيه حصاني الذي لا مثيل له في مصر، لم يقبله.

– لم يقبل لأن الأديغة لا يعطون غيرهم السلاح والحصان.

– وتعرف هذا أيضاً؟ !

– أإن نطقت بالقول المأثور الأديغي أكون حكيماً؟

– وهذا صحيح، ما العمل؟

– سنسبق حصان السلطان.

– لا يمكن!

– إذن أشرِك مع حصانه حصاناً بطيئاً.

– كيف تبدل في كل سباق الحصان الذي يراه السلطان؟

– لا أعرف إذن... لا أرى أن أعدك بما لا أستطيع. ألا يمكن أن يحل فارس آخر محلي؟

– سأفعل، وليس صعباً عليّ أن أطوّعه. إن لم يكن السلطان ذكرك بالاسم هذه المرة. نعم، نعم، لا تستغرب. لم تبق في مصر قضية لا يعرضونها على السلطان الأشرف ناصر شعبان. بل يعرف كم كلباً ينبح في القاهرة ليلاً. كان سألني عنك قبل مدة فمدحتك له.

– كما تقول — يا نجمة المماليك المنيرة — زفر برقوق — ما حمّلنا الآلهة نتحمله، ما العمل؟ نسمح لحصان السلطان أن يسبقنا!

– شكراً يا برقوق، فهمتني. – كنتُ فضّلتُ لو قلتَ: الله الأحد، وليس "الآلهة". ومع ذلك أنا راضٍ عنك. رجائي الوحيد عندك هو أن تسمح لحصان السلطان أن يسبقك كما اتفقنا دون أن تغلبك حماسة الشباب، ويبقى هذا سراً بيننا.

مضت عدة أيام بعد حديثه مع يلبغا، وبرقوق يشعر أنه ينمو جسداً وقلباً. ولا يشعر أين يذهب بنفسه كلما اقترب موعد منافسات المماليك. سباقات المشاة ليست مشكلة. هذه لا مجال فيها للخِدع. كلٌّ وإمكاناته. السباق أهمّ ما رجاه

منه. "أنفذ لمن رجاني ما طلب فأكسب لنفسي بنفسي ذنباً. والحصان؟ من المسؤول عن خسارة الحصان البريء؟ أنا أم يلبغا أم السلطان؟ "

– قل لي ماذا جرى لك حتى تختبئ طوال النهار؟ – سأل بارچ برقوق وقد وجده وراء الإسطبل.

– ولماذا أختبئ؟ – برّأ برقوق نفسه – حفظت عن ظهر قلب سورة القدر، اسمع ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر. وما أدراك ما ليلة القدر. ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر. تنزّلُ الملائكة... فيها بإذن ربهم من كل أمر. سلام هي حتى مطلع الفجر﴾.[1]

– حفظت جيداً. ولكنك أسقطت اسم جبريل.

– هيه، إذن أنت تحفظ هذه السورة. متى حفظتها؟

– في اليوم الذي اجتمعتما فيه أنت ويلبغا. لا تدعْ هذا الخبيث يخدعك! قال لك: كن لي "عيناً" و"أذناً" و"ثقةً"؛ صحيح هذا؟

– لن أطيعه لو أعطاني ملء خزانة من الذهب! – حسم برقوق، وكتم عن صديقه موضوع سباق الخيل قائلاً "هذا الرجل همس في أذنه".

[1] سقطت كلمة "الروح" التي تفسَّر بجبريل من الآية بعد "الملائكة" كما سيرِدُ في الحوار التالي.

VI

لم يكن فجر الخريف ينوي البزوغ بعدُ حين غطت سحابة رقيقة باهتة سماء القاهرة. تسللت أولاً بهدوء من جبل المقطم، ثم وصلت إلى البيوت والمآذن والمخابز. وانتشرت في أحياء المدينة. والتفّت حول المراكب على نهر النيل. وخيّمت على قلعة الروضة.

جلس برقوق بسرعة كأن أحداً دفعه بمرفقه. المهجع الذي يضم ثلاثمئة مملوكٍ هادئٌ لولا أن بعضهم يشخر، وبعضهم يئنّ. وبارچ الذي دفع بلحافه إلى قدميه ينام بهدوء. مساء أمس، وهم يستعدون للنوم بعد صلاة العشاء كانت السماء مرصوفة بالنجوم. أين هي الآن؟ برقوق ينصت. ظلام الليل يزرع الحزن في نفسك. والوقت كم هو الآن؟ والديكة أين هي؟

لمّ برقوق ملابسه، وخرج من المهجع على رؤوس أصابعه. "أي دنيا هذه؟"... مع أن الخريف حلّ فسماؤه وأرضه وسحابه كلها جافّة. لا أريد اليوم أن يهطل المطر علينا في سباقاتنا. غير أنّ استنشاق هواء بلا أدنى رطوبة طوال العام يساوي الجلوس إلى نار الفرن. والشمس العظمى ها هي تفيق من سحابة فجرها الرقيقة. — تلفّت برقوق ورفع يديه إلى السماء: "يا إلهي، اليوم قابِلني بخير. أنا هنا لا إرادة لي فاغفر لي ما أجبروني أن أفعله. حين تصل إلى نواحينا بلّغ سلامي إلى قممي البيضاء، وإلى أنهاري المضيئة، وأمواجي المتلاطمة، ومراعيّ الخصبة، إلى أهلي الأديغة. وحين انتهى من ابتهاله تلفّت من جديد حوله، ولكنه برّأ نفسه مما كان أرعب قلبه: – اغفر لي يا إلهي إن أذنبت في قولي أو فعلي إذ لم أكن أنوي الشر".

ودون أن يعود برقوق إلى المهجع توجه إلى حصان سبْقِه. استقبل السائسُ المغولي العجوز الأعرج برقوقَ وكأنه لا يعرفه:

– ما الذي أتى بك إلى هنا مع الفجر؟

– أريد أن أرى الفرس الغراء – "ما الذي لا يجده هذا الأخزر كأنه سيقتلني، مع أنه يعرف أني سأعطيه شيئاً" – خذ هذا الفلس اليوم.

– سآخذه منك، ولكني لن أسمح لك أن تقع عينك على الفرس قبل شروق الشمس.

– ما الأمر؟ – سأل برقوقُ، مع أن الوقت كان وقت الضيق الملازم للفجر، العجوزَ المرتدي قلنسوة من جلد الثعلب.

– لا تناقشني حين أقول لك "لا". حتى لو أضفت إلى ما أعطيتني قطعة فضية لما حصلت مني على جواب. – حين ابتسم العجوز أصلح من حاله وأحدُ قواطعه الصفراء يهتز: – ولكن بما أني أراك شاباً بريئاً فطناً فسأقول لك: – لا خير!

– لم أعرف هذا – كان ما سمعه برقوق عجيباً عليه.

– تعلّمْه إن لم تعلم! أستغرب أني وإياك يعرف أحدنا الآخر منذ زمن غير قصير فلا تناديني باسمي. أتظنني بلا اسم؟ تنادونني بالأخزر، ولكن اسمي الحقيقي هو "آيرات" أتسمع؟ – كرر بصوت مكتوم لطيف – اسمي آيرات. بهذا الاسم ناداني أمي وأبي هناك في سهوب المغول. ولكن خلال رفقتي ليلبغا أربعين عاماً لم يعد أحد يناديني به. وقد بدّل خلال سنوات ستة عشر حصاناً فلم يسمِّ أياً منها بغير اسمي. والحصان الأغرّ الذي ستركبه اليوم هذا هو اسمه وإن أخفاه عنك.

– وأي سرٍّ في هذا؟ – كان العجوز الذي ينفّس عن ضيقه مدعاة لضحكِ برقوق.

– لماذا لم يخبرك باسمه إن لم يكن سراً؟ – تنهد آيرات ووضع تحت ذقنه العصا التي كان معتمداً عليها براحتيه الرقيقتين.

تشتّتَتْ أفكار برقوق بسبب السر الذي ما كان السائس الثرثار العجوز يكشف عنه. ما الأمر؟ لماذا صرتُ موضع ثقة لديه اليوم خلافاً لما كان عليه سابقاً؟ ما يبدأ بالحديث عنه يتوقف عند لبِّه. وإذا سأله أجابه بالسؤال نفسه. ومهما قدم إليه يلقيه في جيبه قائلاً: "ماذا سأفعل بهذا بعد الآن، آخذه منك لأنك أعطيتني"، ثم يربت عليه ويبتسم.

– ليس ضرورياً أن يخبرني يلبغا باسمه – يرد برقوق الذي امتلأت نفسه قلقاً على العجوز _ أيمكن أن تسبق حصان السلطان!

– لا تُشرِك الغراء في السباق بهذه النية – رفع آيرات العجوز ذقنه فجأة من فوق العصا – وأنت هل وشوشوا لك؟ هل وعدوك أن يرفعوك إلى رتبة أمير العشرة؟

– ومن سيوشوش لي، ومن سيعِدني؟

– لا تتصنع الجهل! – ضرب العجوز الأرض بطرف العصا، ثم غمغم بصوت نادم كسير: – ظننتك أكثر رجولة... انظر، ها هي الشمس تشرق، تعال! – دخلا الإسطبل ووقفا عند النافذة. – ادع إلى ربك الشمس العظمى، وأنا سأدعو بلغتي. نعم، وآلهتي الكثيرة في قلبي، كما هي في قلبك.

– من أين تعرف؟

– لستُ أعمى وإن كان ما بقي لي من أيام معدوداً، ولست أصمّ. ألاحظ عليك كل يوم دينك ذا الآلهة المتعددة.

– حين دعا برقوق وآيرات إلى الشمس التي بزغت من وراء الفجر ظهر من لونهما ارتياحهما النفسي. ولما جلس العجوز بظهره المحني جداً وراء الجدار بصعوبة سأل برقوقُ عما كان يشغل باله:

– ماذا سنقول الآن لله العلي القدير؟

– متى حلّت صلاة الصبح توضّأنا ووقفنا أمامه. — قال العجوز وكأنه لم يعبد يوماً آلهة متعددة. إن كان يعتبر ما فعلناه ذنباً فسنبتهل إليه أن يغفره لنا ويغمرنا برحمته.

– ألا يجوز أن نفعل هذا حالاً؟ – أسرع برقوق — أمامنا اليوم نهار ثقيل. أنا من عادتي حين أدعو إلى إله الشمس أن أدعو إلى الله بعده.

– ادعُ إليه، أُدعُ — ابتسم العجوز، ثم تنهد — لا أظن عذاب يوم القيامة أشد مما لقيت هنا. لا تأخذني مثالاً، بل اعمل لنفسك بلا كسل. لا تتخلّ عن الصدق والعدل. ولا تسمح لهم أن يخدعوك في الدنيا الخِدْعَةِ.

– خدعوني وانتهى! — قال برقوق الواقف قبالة الشمس مقاطعاً دعاءه إلى الله.

– ربما هو يلبغا المجرم الذي استنزف أكثر عمري؟ – سأل العجوز الآن وقد كفّ عن الخوف الذي عقد لسانه إلى الآن.

– لا – حسم برقوق ثانية باختصار.

– من إذن؟ لا أعرف في مصر شخصاً يفوقه في عدم الإنسانية ! أعيش وروث الخيل فراشي ووسادتي لأنه لم يعد بحاجة إليّ... — تمتم أيرات من تحت أنفه العريض الأفطس، ولم يكمل ما أضافه — لولا مُججَّلتي... [1]

– وهل التاجر وسمني رجل صالح؟

---

[1] الفرس في قوائمها بياض.

– لا تُسمِعني اسم هذا الخصيّ القذر! — بصق العجوز لعاباً عفناً، ثم عمّق كلامه متظاهراً بالخجل من تصريحه: – ربما كان ينوي لك شيئاً؟

– وماذا كان يمكن أن ينوي لي؟ – سأل برقوق الذي لم يفهم تورية العجوز الموارِبة، ثم أجاب على ما شغله طيلة عام كامل: – جاء بي إلى هنا زاعماً أنه سيُريني موضع الجنة، وباعني إلى يلبغا. لماذا تضحك؟

– لأني أريد أن أقول لك: إن كنت لا تعرف عن هذا البغيّ أكثر من هذا فافرح بأنه لم يورّطك في مفسدة أخلاقية. كفى، لا نريد أن نصدع رؤوسنا بمن فقد مظهر الرجل. اسمعْ إذن: "غرّائي" [1] ليست من عرق مغولي. إذا عدت ثلاثين سنة إلى الوراء فالمهرة التي جئنا بها من بلادكم شركيسيا هي الجدة الخامسة لها. ولكنها ليست فرساً شركسية فحسبُ بل امتزجت بها عروق عربية. وهي، ولو أنها لا تجري فيها قطرة دم مغولية، مفعمة بفرحي وعَرَقي وأملي وحزني ما دامت تحمل اسمي. هي في عزّ عطائها جسداً وعمراً. وإذا أشركناها في عدة سباقات أيضاً، كما طلبوا منك، فلن تعود قادرة على الجري. وكما يقول أبناء قومك الشراكسة: إن كنت رجلاً فتحلَّ بالرجولة وانتشلني، لذلك دع الغراء تسمع لآخر مرة الثناء عليها. — ارتعشت أجفان العجوز وسالت دموعه على خديه الأصفرين الغائرين. ودان نفسَه وهو يمسح عينيه بيده اليمنى التي لم يبق فيها إلا إصبعان: – سامحني، لم أعرف أنه ما زال في عينيّ الجافتين دموع.

حين سمع برقوق أن الغراء فرس شركسية جيء بها من بلاد الشركس رفع رأسه بوجه شاحب، وقلبُه الذي لم يستسلم للإهانة يزداد خفقاناً. لم يعد يريد شيئاً

---

[1] الفرس في جبهتها بياض.

في هذه اللحظة. – كل شيء، من حمرة الصباح، إلى الغيمة التي كانت تتبدد فيها، إلى العجوز المغولي، إلى السباق الذي كان يحلم به، إلى النهار الذي أضاء من جهة الشرق، كلُّها كانت قبيحة في نظره، ظالمة.

كيف ستكمل حياتك في هذه الدنيا؟ كل يوم يتلو سابقه بإحباط أشد. "يبدو أن هذا العجوز ذا الأسنان العفنة، المتظاهر بالمسكنة، عاش في بلادنا! حارب فيها ومارس الإجرام والنهب. ألا يمكن أن يكون هو سبب تعاستي؟ ثم يسخر لي من بعضهم: يلبغا، وسمني..."

– ماذا، ألم تصدّق ما أخبرتك به؟ – قطع العجوز أفكار برقوق غير المريحة.

– صدّقت أنك كنت في نواحينا محارباً ! — اندفع برقوق غيرَ مسيطر على حميّته، وسأله بالصوت العالي نفسه: – والآن ماذا تريد غير هذا؟

– أنا لا أريد شيئاً... — ابتسم العجوز، وبعد قليل أنهى كلامه بصوت حزين:

– طلبي الوحيد ألاّ يُطعموا جسدي للغربان، بل يدفنوني تحت الأرض كإنسان. أكنت اتخذتك ثقةً من بين أقرانك الكُرد والقبجاق والترك، وأبناء قومي المغول، لو كنت أخفي أني حاربت في نواحيكم، بين البحرين؟! لا تقاطعني؛ أعرف ما ستقول. قد أكون أنا من قتل أباك وأمك وأهلك. في الحرب لا يُسأل عن الصالح والطالح.

– ولكن الأطفال، والنساء؟ – ارتعش صوت برقوق.

– لن أنسى بلاد الشركس أبداً. أبناء قومك لا يميزون في الحرب بين رجل وامرأة وطفل. كلٌّ يحمي بيته وأرضه. من الصعب الانتصار على قومٍ مبدؤهم: "إما أن تموت، وإما أن تموت" هذا هو السبب في أنه وجب علينا أن ننفذ بجلودنا ما إن هاجمناهم.

– ولم يمنعكم هذا من أن تأتوا بحصانهم إلى هنا. — مرة أخرى لم يتمالك برقوق نفسه.

– وليس وحده. جئنا بأسرى كثيرين، وأموال كثيرة. وتركنا وراءنا نصف جيشنا. وها هي أصابعي الثلاث تركتها هناك. وكسروا ركبتي. اعتبِرْني مذنباً واحتقِرْني إن شئت!

– حقاً ما كنت أريد أن أقول لك شيئاً ولكن — اهتاج برقوق الآن، وقاطع كلام العجوز — لماذا تروي لي كل هذه الأخبار؟ ما حاجتي إليها!

– ستحتاج إليها لأنك مملوك، لأنهم يُعِدّونك للحرب! — صرخ العجوز آيرات بصوت هائج، ولام برقوق قبل أن يتابع الحديث الذي قُطع عليه: – هل من عادة الأديغة أن يصرخ الأصغر في وجه الأكبر؟ أنا عجوز.

– سامِحْني ! —كلٌّ يقيَّم عمله عند الله سبحانه وتعالى، فلنَدَعِ الأمرَ له!

– هذا صحيح، مقبول. منذ زمن بعيد لم أسمع مثل هذا الحكم العادل. العمر الذي ستفهمني فيه أكبر من عمرك الآن، بعد قرابة عشر سنين. غير أني قد لا أعيش، ليس عشر سنين، بل عشرة أيام أخرى... لا أتذكر أني تحدثت في سنواتي الخمس عشرة الأخيرة حديثاً بهذا الطول. لنُنهِ الحديث الآن. ولكن أقول لك ثانية: تحلّ بالرجولة، ولا تشدّ عنان الغراء لأنه ليس في مصر حصانٌ يجاريها، وإلا أذنبتَ بحقها. أنا قلتُ ما عليّ، وأنت حرٌّ في ما ستفعل. امضِ وعد إلى أقرانك الذين فارقتهم. لا تُحزِن الغراء، سأخبرها أنك جئت تزورها. مهلاً، توقف لحظة! من يدري ما سيحدث لي... حين تعود من السباق ابحث تحت رف الموقد. والآن رجاء آخر: حين يكون حصان السلطان والغراء يجريان منخاراً إلى منخار أسمِعها اسمي آيرات، لن تكسفنا أنت وأنا. سأدعو لكما الله لأن يلبغا لا يُشركني في السباقات التي تشارك الغراء فيها. نعم، نعم سأدعو إلى

الله، وإلى بوذا، وإلى الأوثان، ولن أبخل بلغتي المغولية، ولا العربية. وسأمزجها ببعض كلماتكم الشركسية القليلة التي أعرفها.

كان ميدان السباق يضيق بالمشاهدين. والنهار الذي صحا من بين السحب الرقيقة جميل. وساعةَ التقاء شمس الخريف وهي ماضية رويداً رويداً بالفجر أعلنت الأبواق والطبول بأصوات تصل إلى أقطار الأرض الأربع عن وصول السلطان الأشرف ناصر الدين شعبان. ولم يجلس الناس المنتظرون بظهور محنية، بمن فيهم يلبغا، حتى جلس السلطان على عرشه. وكان الفتيان الذين سيتسابقون على الأرجل بعد سباق الخيل جاهزين.

السلطان في خيمته الصفراء، والرجلان اللذان يحركان له الهواء إلى جانب العرش. والمائدة التي عليها الماء البارد والحلوى والفواكه ليست بعيدة. وإلى جانبها الرجل الذي يدفع الهوام عنها.

وأسفل كرسي السلطان يجلس الأمراء المستشارون، يفصلهم عن السلطان معاونُه. وأسفلَ منهم عددٌ من الأمراء والمتنفذين على عدد أحصنتهم. وحرس السلطان أكثر من كل الحضور الذين في الخيم الواسعة. وهم في كل مكان متنكرين بحيث لا تتعرفهم، جاهزين لأي طارئ. ويجلس بينهم عامة الناس.

– كم حصاناً سنُشرك اليوم في السباق بإذن الله؟ – سأل السلطان دون تسمية المسؤول.

– إن شاء الله يا بديل الشمس _ نهض يلبغا مسرعاً — سيكون عندنا عشرة سباقات.

– أليس العدد كثيراً؟ لا يزال أمامنا سباقات المماليك الراجلين.

– يقول منظمو سباقات الخيل إنها لن تستغرق أكثر من ساعة ونصف. مسابقات اليوم، يا من ندعو له بطول العمر، يا سلطاننا المبارك. تجري احتفالاً بمرور سنة على تبوئك السلطنة. نفتتحها باسمك، ونختتمها.

– وهل مضى هذا الوقت على سلطنتي؟ – سأل كأنه يمازحه، وأضاف إليه "الله وحده يعلم ما ساور قلوبكم أنت وسائر الأمراء الطامحين إلى السلطنة الذين تجلس بينهم" — إن كان هذا رأيكم فأنا آذنُ لكم أن تفتتحوا سباقاتنا اليوم برعاية الله وحفظه.

علت في الجو من جديد أصوات الأبواق والطبول. وحين اقترب الفرسان الثلاثة الذين سيدورون في الميدان بعلم السلطان الأصفر من منصة السلطان الأشرف ناصر الدين شعبان، وترجلوا وحيَّوه، نهض الجالسون من جديد. ولم يعد أحد فيجلس ريثما دار الفرسان بالعلم الأصفر الذي يعكس أشعة الشمس.

حين أُخبر بارچ باسم الفارسين اللذين سيفتتحان السباق قال لصديقه:

– وأنتم؟ متى ستنزلون إلى الميدان؟

– هذان يفتتحان السباق، ونحن سنختتمه.

– لا أعرف كيف سيتصرف الحصان المنافس لحصان السلطان غير أنه ممتاز من مظهره، متوقد.

– ليس حصاناً سيئاً. يبدو عليه أنه غيور. — ابتسم برقوق في قلبه، ومسح على كتف الغراء التي يمسك بزمامها.– ولكن كل شيء يتعلق بمن سيركبها.

– كفى ما مدحت به نفسك حتى قبل أن تشارك في السباق. — لم يستطع بارچ إلا أن يلمّح بما كان يخشاه وإن تظاهر بممازحة صديقه: – سنرى وأنتم تتسابقون !

– وماذا إن نظرتم إلينا... – قال برقوق ورد بما عانى منه في الأيام القليلة الماضية: – إن كنت رجلاً هكذا فلا تدعهم يلجمون حصاني بهذه الطريقة.

– ألم تعُد تتحكم بقلبك ويديك! – سأل بارچ برقوقَ عمّا لم يكن يستطيع البوح به إلى الآن.

– أكنّا مماليك في أرض الغربة لو كنا أحراراً بقلوبنا وأيدينا!

– اسمع ماذا يقول ! – صرخ بارچ، ثم أنهى متمتماً: – دعْه يسبقك إذن!

– لا تظلم الخيول والفرسان. – لم يقبل برقوق – الأسرع هو من يسبق.

نظر بارچ بطرف عينه إلى صديقه، ولم يُجب. وكان بوده أن ينصرف، غير أنه لم ير من اللائق أن يتركه وحده.

ساير بارچ من كان معه، سواء الفرحون من قلوبهم أم المنافقون، لأن ميدان السبق لم يعد يتسع للفرح بكسبِ حصان السلطان سباقه الأول، وأخذ بضع حبات من التمر الذي كان يُدار به على الناس فرحاً. وأتبعَها بالماء البارد.

بعد الحصانين اللذين افتتحا السباق، تسابق الفُرسانُ عُشاراً وخُماساً ورُباعاً وثُلاثاً... غير أن ما كان الجميع بانتظاره هو السباق العاشر والأخير بين الفارسَين.

– سامحني إن أسأت إليك... – رجا بارچ صديقه عندما حان دوره... – كنت أريد أن تسبقهم، كما تواتيك الظروف، ولكن لا تنس رجاء آيرات العجوز!

حين سمعت الغراء اسم آيرات دبّبت طرفي أذنيها، وصالبت بينهما. وراوحت في مكانها. ركب برقوق وهو يقول: ومن أين يعرف بارچ رجاء المغولي العجوز حتى يقول لي "لا تنس رجاءه" ووقف كما ألحّ عليه يلبغا، إلى يسار منافسه.

– يا يلبغا معاون السلطان – سأل الأشرف ناصر الدين شعبان – هل تنوي أن تسبقني اليوم؟

– لن تجد من يسبقك يا موفد الله، دعْكَ مني، في مصر ولا في كل بلاد العرب والجوار. ولكن، قال يلبغا مُسمِعاً الحضور أنه قادر على ممازحة السلطان أحياناً: ألا يجب أن يسبق حصاننا أحد أحصنتك يوماً ما؟

– حسنٌ أن تفكر بهذه الطريقة شريطة أن يفهمك حصاني المُحَجَّل– مزح السلطان معه عارفاً أن أسرع الأحصنة لن يُسمح له بتخطي حصانه. – أتذكر فرسك الغرّاء، غير أني لا أعرف من هذا الصبي الأعوج الذي سلّمته إياها. أهو من قلت إن وَسْمَني باعك إياه؟

– نعم، يا موفد الله. من أولئك الذين حصلت عليهم في العام الماضي.

– وخِبْرَتُه في السباقات؟ – سأل السلطان، ودون انتظار الجواب نظر في إثر الفارسين اللذين انطلقا. وحين رأى خصمه متأخراً عن حصانه أنهى ما سأل عنه بنهاية ساخرة: – لا يستطيع تطويع الفرس الممتازة، يُلحق الضرر بها... ماذا قلت لي اسمه؟ انظر ماذا يفعل؟ يلحق به! – أنهى الآن بصوت منكسر.

"بالله عليك لا تنفعل إلى هذا الحد. سترى إن لم ينته السباق هكذا ! – ضحك يلبغا في سره، ونصح نفسه كما لو كان سينصح السلطان صراحة لو كانا وحدهما. – أكنتُ أسلمه الفرس لو لم أكن واثقاً من هذا الذي تسخر منه؟ سيجني من المال ما يكفيه العمر كله اليوم. سنرى صدقه وصلابته اليوم.

– ماذا تفعل يا من بارك الله في نسلك. تجعله يسبقك ! – صاح بارچ في إثر الصديق الذي كان يحاذيه؟

كان برقوق ممسكاً بلجام الأغر ولا يُرخيه له، قائلاً في نفسه: "لا تستعجل يا بارچ، لا تستعجل !..." ولكن حين ناداه قبل النهاية بنصف غلوة:

"آيرات!" زاد في سرعته وجانبَ غريمه. فقفز الناس منتظرين ما سيحدث، متصايحين.

– هل حدث لعقلك شيء؟ – صاح فارس حصان السلطان على برقوق، وهمز الحصان بسوطه.

– آيرات، أنت حرة الآن! لا تدعهم يهينوك. — حين يهمز برقوق الفرس بطرف كعبه، تسبق غريمها بقامة حصان كاملة، وتكسب السباق.

غير أن ما يفعله الشاب الذي غُلب عجيب: يحاذي برقوق، ويسوطه، ثم يُتبعه بالفرس:

– ألا تعرف أن حصان السلطان لا يجوز أن يسبقه أحد؟

جابه بروقوق غير قادر على تحمل المزيد:

– إن كنت رجلاً فلا تضرب حصاني. بل اضربني أنا. سأريك كيف تقاتل.

– إلى أين تذهب! — لم يقبل السلطان حين نهض يلبغا فزِعاً — أتريدني أن أركض وراءكما أحجز بين المتقاتلين! هاتوا لي ابن أختي المقاتل! والمملوك الآخر. — حين جاؤوا بالشابين اللذين تمزق قميصاهما إلى حضرة السلطان، عنّف ابن أخته: – ما الأمر؟ أتقاتل من سبقك!

– لستُ يا موفد الله من سبقوني، بل حصان السلطان.

– لأن فرسه أسرع — ابتسم السلطان الذي كان مغتاظاً، وسأل برقوق:

– وأنت ماذا أخيراً؟

– وماذا سأكون يا موفد الله – قال برقوق بالأديغية — أحرزت الغراء السباق.

– هذا صحيح — وافقه السلطان.

– أظن أنه حدث في هذا الموضوع خطأ ما يا موفد الله — حين قال يلبغا هذا، برّأ برقوق نفسه شاعراً بأن الخطأ منه:

– ليست المشكلة في أنه بادرني بالضرب، بل لأنه ضرب حصاني.
– عفارم؛ كنت رجلاً ! وتتكلم الأديغية جيداً. – غيّر السلطان عربيّته إلى الأديغية.
– أتكلم الأديغية لأني أديغي. – لم يدع السلطانَ ينتظر.
– يسعدني أنك لا تنسى أصلك الأديغي. ماذا يُرضيك إن قدّمت لك؟
– إن حررتنا بارچ وأنا وأعدتنا إلى بلادنا فلن أنسى معروفك أبداً.
– ومن هو بارچ؟
– هو واحد مثلي جيء به من نواحينا، وصديقي.
– رجوتني يا برقوق في الأمر الوحيد الذي لا أستطيعه. – خاطب السلطانُ برقوقَ لأول مرة باسمه مُسمِعاً الأمراء. وأنا مثلُ الأمّة التي يبلوها في الدنيا الفانية اللهُ العلي الذي يبتهل إليه الجميع ولا يبتهل هو إلى أحد. ما كتبه على جبيننا – إن كنا سلاطين أم أمراء أم مماليك – حِمْلُنا جميعاً. قولوا: آمين! ادعوا ربكم الذي بيده ملك السموات والأرض والشمس والقمر أن يغمرنا بعطفه، ولا يُضِلّنا. – حين نهض السلطان الأشرف ناصر الدين شعبان فَعَلَ مثلَه كل من حضر السباق. ولم يتأخر برقوق الذي لم يكن يفهم ما كان يردده الحاضرون عن تقليدهم.

******

وفيما برقوق الذي كسب سباق الخيل وسباق المشاة عائد إلى القلعة همس بارچ في أذن صديقه مُسمعاً رفاقهما:
– أنا راضٍ عنك ولكن لا أعرف كيف تصرّف يلبغا معك.
– وماذا سيتصرف معي. حاول أن يقول شيئاً فلما لم يقبل السلطان سكت.

– يا لك من خبيث! – فاجأ بارچ صديقه بالسؤال عما يريده: – ما كل هذا الحديث إلى السلطان ومن السلطان؟

– ألم أقل لك إنه أيّدني، وحظيتُ بثنائه. ولكن حين سألني عما أريد منه لم يُلبّ لي ما طلبت. هذا ليس سلطاناً صالحاً. هل تعرف ماذا قال لي حين طلبت منه تحريري أنا وصديقي بارچ؟ "لم يستطع غير أن يقول لي: "لا أملك شيئاً لأن هذا مكتوب على جبينكم". ثم إنه أسمعَ الحضور بمن فيهم يلبغا.

_ أقلتَ اسمي للسلطان؟ – سأل بارچ عن شخصه متجاوزاً أحزان برقوق.

– نعم، قلت. ما العجيب في هذا؟

– لا أدري... لأن السلطان لا يسمع أسماء كل المماليك. لا يسأل عنهم. والله يا برقوق أنت رجل، وصديق حقيقي!

أوقف صوت الصهيل الصادر من جهة القلعة برقوق:

– مهلاً، أليس هذا صوت الفرس الغرّاء؟ ! – أسرع برقوق.

فهم برقوق من صهيل الفرس ومنْعِه الناسَ المتجمعين من الاقتراب من باب إسطبله المفتوح أن مأساةً ما وقعت في الدار.

– الدابة خرجت عن طورها، ابتعدوا – يقول يلبغا لجنوده.

– مهلاً يا نجمة المماليك المنيرة، أنا سأهدّئ الفرس الغراء – يركض برقوق متوسلاً متلهفاً باتجاه يلبغا. وحين تسمع الغراء صوت صديقها تنظر بعينيها الواسعتين باتجاه مصدر الصوت. وتصهل كأنها تقول: أين أنت ، تعالَ بسرعة. – اهدئي يا غراء، هذا أنا. ماذا جرى لك؟ ها أنا أصل حالاً. من الذي أساء إليك؟ أين آيرات؟ تعال يا بارچ، وأمسك بالغراء! – حملته الخاطرة التي غزت رأسه إلى الإسراع إلى الإسطبل.

خرج برقوق بآيرات الذي كانت المدية مغروزة في صدره من الإسطبل. وأفلتت الغراء من بارچ، فأسرعت إلى الجثة.

******

بعد مقتل العجوز آيرات ببضعة أيام قفز برقوق من مجلسه بسبب ما تذكره:

– تعال يا بارچ!

حين سحب برقوق الكيس الجلدي الصغير من وراء الدف الخشبي ارتبك صديقه:

– ما هذا؟

– لا أعرف. كان المرحوم آيرات قبل أيام أوصاني أن أبحث عنه هنا... حين فتح برقوق رباط الكيس وجد بِضعَ القطعِ الذهبية والفضية التي كان منحها هو له.

– أهذه هي الحفنة التي أورثَنا إياها العجوز بعدما عادينا الناس من أجله؟ !...

حين قال بارچ نادماً على ما فرح لأجله نظر إليه برقوق بعين عاتبة:

– يا بارچ، لا تُخطئ بحق العجوز!

– نعم، نعم، خرجت عن طوري قليلاً... ظننت أنه ترك لنا ما يكفينا للعودة إلى ديارنا.

– لن أذهب إلى أي مكان قبل أن أثأر لدم آيرات، ولا أنت! لا أحد غير يلبغا قام بهذه الجريمة. وعليّ جزء من المسؤولية في هذا.

– لا تندم على رجولتك الإنسانية !

– ما كنت لأندم لو لم أتسبب في موت إنسان... أعرف ما سأفعل بهذا المجرم!

– كفى، اصبرْ ! لا تُعاد هذا المتنفذ الكبير بهذه الحجة، ولا تجعله يتخذك عدواً. سيأتي يومنا نحن أيضاً. إن لم نحارب من أجل أنفسنا ولم نعرّهم بأنفسنا فسنقضي عمرنا مماليك إلى الأبد.

– ألم تعد تنوي الرجوع إلى ديارنا؟ – سأل برقوق صديقه.

– لا أسمح لنفسي أن أنسى هذا الموضوع. ولكن من ينتظرنا حيث سنعود ونحن في هذه الحالة المزرية أيتاماً مهزومين؟ أليس من الأفضل أن نعود ممتلئي الصدور والجيوب، يحترمنا الناس، ونحمل لقب أمير، ومن يرانا يحسدنا؟

– ألا تريد أن تكون سلطاناً؟ !

– لن أرفض إن أمكنني – مازح بارچ صديقه – ولكن بما أنك كلّمت السلطان قبل أيام فأنا أوكل إليك هذه المهمة؛ أنت وما تستطيعه!

– ومن أين لنا أن نصل إلى هذه المنزلة... ولكن، بارك اللهُ في كلامك، ربما يستجيب الله لك... – قال برقوق وتهيُّبه ممزوج بمزاحه وصدقه، ثم ضحك من نفسه.

VII

مع أن برقوق وصاحبه كانا يعرفان أن لا أحد في مصر قادر على مجابهة يلبغا إلا السلطان فقد مضت سنة وهما يستعدان لتنفيذ التزامهما بالتخلص منه. العامُ التالي وضع الفتيين جسماً وعقلاً وقلباً في قالب الرجولة. وزاد من احترام المماليك لقوامهما وعمرهما. واحتفظا في أي مهمة بحضورهما.

ولولا أن جِدّة بارچ كانت تتدخل أحياناً في علاقتهما لكان كل شيء بخير. وليس الأمر أنه كان يتكبر على برقوق وسائر المماليك. بل كان ما يضره هو أنه يتصرف بمزاجه المتقلب. ومع أن هذا الطبع المتقلب كان لا يؤذي الأصدقاء إذ كان يصالحهم بسهولة كما يغضب بسهولة فإن برقوق لم يكن يتورع أن أن يعيّره بهذه الطبيعة النزقة:

– أيُّ إنسان أنت؟ تثق بكل من يبتسم لك!

– أعرف أن يلبغا لا يحبنا مع أنه يبتسم لنا، أنت وأنا، حين نقابله – عارضه بارچ بذريعة تبرئة نفسه. – بهذه الحجة تُطيل أمد قضيتنا. قبل أيام لم تقبل مني أن نقتله حين كنا في موقف مناسب جداً.

– لم أوافقك لأنه كان معه كثير جداً من الحرس. وأبناء جنسنا بين هؤلاء قليلون. لا يمكننا تنفيذ مهمتنا بواسطة بضعة أشخاص. لا نزال بحاجة إلى بضعةٍ آخرين.

– أستطيع اختيار عدد ممن تقول إنهم يستقبلونني بوجه طلق. – عاد بارچ إلى حاله إثْر نظرة قاسية من صديقه مع أنه كان تسرّع في التصريح. – ولكني لم أُطلِع هؤلاء على سرّنا.

– حسناً فعلتَ ، نحن لا نعادي يلبغا، نحن معه، نحن من رجاله؛ أفهمت؟

– يا برقوق ما تزال تراني غيرَ أهل للسرّ، تريد أن تعلِّمني ! كفى، كفى، فهمت. ولكن لأني أرى ألا نبتعد عن المماليك من أمثالنا. أليس هؤلاء أيضاً يكرهون يلبغا!

– أنا أعرف أن المماليك لا يحبونه، غير أننا إلى الآن لم نرهم ينظرون صراحة إلى أحد بعين الاحتقار. كم من الجرائم مرت علينا في السنوات الأخيرة من نوع ما فعلوا بالمسكين آيرات؟ وحين أطعمنا من لحم الغراء بعدما أمر بكسر قائمتها، اضطُررنا للسكوت. ستكون نهاية يلبغا في جريمة من هذا القبيل.

– ومن سيقوم بها؟ أنا أو أنت، أنا حاضرٌ من هذه اللحظة.

– ليس اليوم موعد هذه العملية. بل حين يوكل إليك مهمة حراسته مثلي.

– ومتى سيكون هذا؟

– هو يسأل عنك، يجمع معلومات عنك.

– ألم يعرفني إلى الآن؟

– الفرق كبير بين أن تكون مملوكه وأن تكون حارسه. لهذا أقول لك: كن حريصاً على نفسك.

– إن عرفت أن هذا المجرم ستكون نهايته تحت سيفي فلن أكتفي بالحرص على نفسي، بل سأجعل من نفسي ممسحة تحت رجليه! ــ أسرع بارچ، ثم تشفى منه لائماً نفسه: لن أتذلل له إلى هذا الحد بل سأزهق روحه في اليوم الأول.

حين زار برقوق يلبغا غمغم بارچ صديقُه في إثْره: "ها هي حالنا، وهو يؤجل من اليوم إلى الغد. هو يهدّئني، وفي الوقت نفسه يحوم حوله. لا يُخبرني ولكنه يعِده بشيء ما. إن خدعني فلا أعرف وقتها... أيعرفني اليوم فحسب ليسأل عني؟ نسي بسرعة أنه حاول أن يشغِّلني عنده مخبراً. وأعجبُ العجائب أنه لم يُعادِنا على ما لم ننفذه له حين سبقْنا فرس السلطان. ضمّ برقوق إلى حرسه،

ويعِدني أن يُرفقني به. ماذا ينوي بنا؟ أيتأمل منا أمراً أم يخاف منا؟ صديقي لا يثق بي غير أني لم أتكلم إلى أحد غيرنا في هذا الموضوع. ولم أجعل نفسي عُرضةً للشك"

قضى بارچ نهار تموز الطويل ليس في ذهنه غيرُ هذا الموضوع. ولكنه هذا اليوم، خلافاً للأيام الأخرى، لم يكن يفهم ما جرى له. أيكون السببُ الحديثَ الصريحَ الذي دار بينهما؟ ومع أن بارچ كان يسخر من نفسه قائلاً: "ليست قليلةً التجاذبات التي حدثت بيننا نحن الاثنين" فإن قلقه كان يُعيده باستمرار إلى همّه.

– ما الذي تحدّثتما فيه طوال النهار؟ – استقبل بارچ صديقه بالسؤال.

– لم نتكلم في غير موضوعك، – مزح برقوق معه ورضاه في قرارته ظاهر من لونه، ثم اختتم بصوت حازم: – غيّرنا حراس يلبغا المماليك الخمسين فلم نحتفظ منهم إلا بخمسة.

– وأنت ما شأنك في الموضوع؟

– أنا منذ اليوم رئيس حراسه. وأنت منهم.

– دون أن تسألني؟ – تظاهر بارچ بمعاتبته وإن كان تحقق له ما أراد، ثم انتقل إلى السؤال الأهم له من موضوع مصيره: – والثلاثة الآخرون الموثوقون الذين لا أعرف أسماءهم؟

– وهؤلاء من بين الخمسة الذين احتفظتُ بهم.

– الآن ريّحتني ! ولكن ألا يمكنك مصارحتي بأسماء هؤلاء الثلاثة دون الاكتفاء بالتخمين؟

– لا، قال برقوق على نحو قاطع. ثم أضاف متصنعاً الابتسام: – لا أكتم أنك رابعهم وأني خامسُهم. وما سأقوله لك الآن لا تملك تجاوُزَه: خذ أشياءك الشخصية إلى مقرّ الحراسة، ومن هذا اليوم سيكون المقرّ مكان إقامتنا.

لم يكن بارچ يعرف سبب تغيير يلبغا حراسه بهذه السرعة فنظر في وجه صديقه غير أن الأخير لم يخبره شيئاً. ولم يكن بارچ مهموماً بهذا الأمر، ولكنه كان يبتسم في قرارته، قائلاً لنفسه: ليس سيئاً أن تعرف ما لا تعرفه، وأن يُعمقّوا معرفتك بالموضوع الذي تتابعه. ولم يملك إلا أن يسأل برقوق رغم معرفته بأنه إنسان متكتّم:

– أتظن أن ما نحاوله سيتحقق لنا بسرعة؟

– هذا فيما بعد، لاحقاً... – تجاوز برقوق السؤال.

– تظل تقول هذا... هل سنعيش على "فيما بعد"؟

– أعرف أن الشمس ستشرق غداً – ابتسم برقوق – غير أني لا أعرف إن كانت ستمطر الليلة أم لا.

– حسنٌ أن تكون حكيماً هكذا... قل لي إذن ماذا ينوي يلبغا بحقنا.

– ما من أحد ليس عنده نوايا.

– يا برقوق ! – غضب بارچ الآن دون أن يملك نفسه: – كفاك يا برقوق، متى ستتخلّى عن توريّاتك وتصرفاتك المريبة.

– أقول لك متى سيحدث هذا – مزح برقوق مع الصديق الذي اعتاد على حميته الزائدة – حين أفارق الدنيا الفانية كما يقول العرب الذين مصيرنا أن نعيش معهم. ولكني لن أحقق هذا لأحد قبل أن أفي بنذري.

– هذا جواب مقبول، الآن أرضيتني – غير أني أفكر في السبب الذي من أجله أحبّنا مَن ميّزَنا مِن غيرنا من المماليك فاتّخذنا حراساً، فلا أفهم.

– ابتهِلْ إلى الشمس التي تغرب في نواحينا كي تفهم السبب.

ليس سيان أن تكون من عامة المماليك وأن تكون من حراس معاون السلطان. حراس يلبغا يعيشون في الجنة بالقياس إلى المماليك الكثيرين جداً. — طعامهم ولباسهم وسلاحهم... انتهاء بإسطبلات خيلهم متميز. يقيمون في غرف منفصلة كل ثلاثة معاً. وينامون في وقت معين ويفيقون. يجلسون معاً في كل وجبة إلى مائدة واحدة. وفي كل أسبوع يصلّون صلاة الجمعة مع يلبغا. ومعاون السلطان لا يُطلع أحداً على مواعيد ركوبه. وحين يلبس للركوب يستدعي برقوق ويُبلِغه بأنه سيركب دون أن يخبره عن وجهته. وليست هذه من إبداعات فكره، فالترتيبات نفسُها يقوم بها سلطان مصر.

في أحد الأيام قال بارچ لبرقوق:

– هذا المملوك أَشير الذي يقيم معنا لا يعجبني.

– لماذا؟ أيتأمر عليك؟

– لو فعل هذا لفجّرته! — غضب بارچ، ثم ضحك. يمدحنا ، ثم يتحرى أحوالنا.

– وماذا يريد؟

– لا أعرف. يقول أنتم قوم شجعان، محاربون ممتازون. صدقُكم وإنسانيتكم وحكمتكم عالية. جعلتم الذين استعبدوكم يرضخون لكم. تحقق لكم هنا ما لم يتحقق لنا نحن المغول.

– أيستغلّ كون يلبغا مغولياً، والسلطانُ شعبانُ ابنَ مغوليةٍ " — احتدّ برقوق — أنسيَ أن أبا شعبان، الناصر مُحَمَّد الأعرج حكم مصر أربعين عاماً، ومارس فيها ما مارس؟ أيستقلّ ما فعلتْه جدَّتُه أسلون ذات العينين الضيقتين بعد وفاة قلاوون إذ ملأت مصر بالمغول؟ ونحن — إن كنا صالحين أم طالحين — لا

يُطيقنا أحد. احذر من هذا الواشي! هو من كانت نهاية آيرات وأمثاله من المغول والفرس الغراء على يديه.

– المغولي الأخزر أحترمه بذريعة أنه أسنّ مني – غمغم بارچ – الآن فهمت لماذا تتملق إليه.

– لا أدري إن كنت أتملق – برّأ برقوق نفسه بدلاً من أن يغضب – يحدث أن تتصرف مع العدو كما يتصرف معك – الأفضل أن يتخذك ثقةً من أن تكونا خصمين يتماريان باستمرار.

– وهذا صحيح. – قال بارچ، ثم جلس قليلاً وردّ على برقوق – أستمع إليك يا برقوق فأجدك خبيثاً !

– وهل الخبث من أجل أن تحمي نفسك عيب؟ ما لا أفهمه أنا شيء آخر: كيف تجاوز أشيرَ وباتو وجالساراي، وكلهم أسنّ مني فاختارني قائداً لحرسه. هؤلاء يحملون منذ زمن بعيد رتبة أمير خمسة فرسان.

– إن كنت مهموماً بما أهتم به – لم يدعه بارچ يُكمل كلامه.

– أستمع، أستمع.

– وماذا إن كنت تنصت إليّ! لم تقبل مني في حينه ولكن واتتنا فرصة جيدة قبل أيام... دعْك من هذا يا برقوق؛ أتكون تراجعتَ؟ حسناً، لا تنظر إليّ بهذه الطريقة، مزحتُ معك فحسبُ. لن آتي على ذكر هذا الموضوع معك مرة أخرى. ولكني سأكون جاهزاً حين تخبرني.

مهما كان موقفنا من بارچ فقد فوّتا في الشهر الماضي، وفي الأسبوع الفائت، فرصتين للتعامل مع يلبغا. يغضب برقوق على نفسه أحياناً لا يعرف ما يحدث له، ويسألها: "أأكون تراجعت كما لمّح لي بارچ قبل أيام؟ إذن لا أعرف... أعجيب أن اتخذني يلبغا رئيساً لحرسه؟ يغيّر كل ثلاثة أشهر حرسه... مهلاً،

مهلاً... لماذا لا يغيّر أشير وصحبه إذن؟ لم يغيرهم منذ عامين. وفي الوقت نفسه لم يبوّئ أحدهم منصب قائد الحرس. لماذا نصّبني أنا رئيساً للحرس؟ كلما التقيت به كان أول حديثه هو سؤال السلطان عنا أنا وبارچ. وبعد قليل يُضيف: "يُحابي أقربائه من جهة جده ويتخذهم مستشارين متناسياً أن أمه مغولية، وحماته وخدمه منهم. أنا لا تفرقة عندي: أثق بمن ليسوا من عرقي، من الشركس والعرب والترك أكثر من أبناء قومي..." ماذا يريد يلبغا من مثل هذا الكلام؟ "

في أحد الأيام، بعد صلاة الظهر استدعى يلبغا إليه برقوق وبارچ. وحين طلب منهما الحارسان على الباب نزع سلاحيهما، اعترض يلبغا:

– برقوق رئيس حراسي، ثم إنهما شركسيان ليس من تقاليدهما نزع الأسلحة.

– لا يا نجمة المماليك المنيرة، لا تدَعْنا نخالف النظام. — حين انتزع برقوق القامة فعل بارچ مثله.

– ها قد لبّيا طلبكما — قال يلبغا لحارسَي بابه . — فارتاحا الآن. تعالا إلى الغرفة الأخرى، هي منعشة أكثر من هذه. سنجلس ونتحدث. تابعتكما خلال عام كامل، وانتظرتكما شهرين، فلما لم يبدر منكما ما يريب طلبتكما لأعرف إن كنتما راضيين عني. تفضلا وتناولا من الفواكه، واشربا من الماء البارد. برقوق قابلني أكثر من مرة من خلال منصبه، وأنت يا بارچ، بما أنها أول مرة، فلا تخجل، لا غريب بيننا. لولا ثقتي فيكما لما وضعتُ حياتي في يديكما. غير أن موفد الله الأشرف ناصر الدين شعبان يُلحُّ عليّ...

"ماذا يقول هذا؟ !" — غمغم بارچ غير مرتاح لثرثرة هذا الرجل غير المتناسبة مع جليسيه، ونظر إلى برقوق بطرف عينه، غير أن الأخير تجاهل الموقف كله.

– لا، لا. – تابع يلبغا كلامه المعسول – يترجاني موفد الله، ولا يقول ما يُزعج. يطلب مني أن أبيعكما له، لا أن أعطيكما. وأنا لا أريد أن أفقد إنسانيتي، فأسألُكما: ماذا أفعل؟

"مرة أخرى دبّر لنا هذا الخبيث أمراً ما... حالاً ! لن نجد ظرفاً أنسبَ من هذا!" – ابتسم برقوق ليلبغا وإن كان الشرر يتطاير في قلبه:

– ما دمنا نحن وأنت يا نجمة المماليك المنيرة لسنا أحراراً في أنفسنا فما ستفعله واضح، وسنتصرف كما تأمرون. – هجم برقوق براحتيه الصلبتين على عنق يلبغا، وخنقه في غمضة عين أمام بارچ الذي لم يفهم ما يجري. ثم قال لصديقه وهو يُصلح هندامه وكأنه لم يفعل شيئاً: – أمامنا أيضاً مهمة أخرى يا بارچ. سنستلم سلاحنا من الحرس دون أن نجعلهم يشكّون فينا، ونركب.

******

في موعد صلاة العصر فحسبُ عرف حرس معاون السلطان يلبغا أنه فارق الحياة!

وحين أُبلِغ السلطان الأشرف ناصر الدين شعبان وهو على سجادة الصلاة بالخبر، كان قد مضى على ركوب برقوق وبارچ الطريق إلى سورية بأقصى سرعة ساعتان أو ثلاث.

– إن كنتَ سنداناً فاصبر، وإن كنت مطرقة فاطرق!... – قال السلطان الذي جلس بعض الوقت كمن لا يهمه الخبر، ثم سأل ولونه يشحب: – أقبضتُم على المجرمين؟

– انشقت الأرض وابتلعتهم يا موفد الله! – حيّا أشيرُ قائدُ الخمسةِ السلطانَ، ثم نظر إليه بطرف عينه الضيقة حذِراً.

– لا تنشق الأرض من أجل المجرمين، هذا من شأن الله. اعثروا عليهم، وليمثُلوا أمامي!

– قلبْنا المدينة، وقطعنا طرق الشام وبغداد والمدينة المنورة.

– والساحل؟

– لم ننسه أيضاً.

– إن لم أخطئ فأنت من حراس المرحوم يلبغا.

– نعم، يا موفد الله. لست حارساً فحسب بل أنا مخلص له قلباً وروحاً، ومن ثقاته، غير أني لم أستطع حمايته... — سرى الحزن إلى قلب أشير فأسرع يمسح عينيه.

– هذا كلام غيرُ مفيد لي! — حسم السلطان الموضوع باختصار، ثم ردّ على المملوك بما لم يستطعه: – إن أفلتّ رأس الحصان ثم لحقت بذيله فلا فائدة!

– نعم يا موفد الله. نحن مذنبون. لم نستطع حماية معاونك الرجل العظيم. وما يحمله علينا نتحمله. ولكن الآن خبر مزعج آخر: هرب نصف مماليك يلبغا!

– لماذا واقفون هنا إذن؟ هذا أخطر الأخبار ! — قفز السلطان الآن وقد أنساه الخبرُ الثاني ما سبقه — ألم يبق في البلاد نظام غيرُ هذا؟ اعترضوهم حالاً بمماليكي، واجمعوهم. من أخطأ فسامحْه، ومن يقاوم فأنتم تعرفون جزاءه. وأنت يا أشير أمير الخمسة توقف! أنا محتاج إليك.

– أستمع إليك يا موفد الله — وقف المملوك بين يدي السلطان بساقين مرتجفتين.

ذرع السلطان الأشرف ناصر الدين أرض الغرفة بضع مرات، ثم وقف فجأة وقال للمملوك:

– لا أثق بك!

– يا موفد الله، بديل الشمس.

– اسكتْ وصارحني بما تخفيه عني.

– أنا لا أخفي عنك شيئاً يا موفد الله، صادقٌ معك – مع أن أشير المملوك هوى قلبه وهو يخاطب نفسه: "من أين يعرف هذا ما يسأل عنه؟ من سيشي بي إليه؟ من سيكون إلا أحد من أدخلْنا في سلك حراسه؟" فقد غيّر شخصه بسرعة شديدة كما يفعل في المواقف الحرجة – ولكن لا أعرف كيف أخبرك بمن أشكّ فيه، ولست متأكداً منه. لو لم يقتل برقوق وبارچ اليوم معاونك لكان ينوي أن يقتلك على يدهما، ويحل محلَّك.

– ماذا تقول؟ هل اختلّ عقلُك؟ – انفجر صوت السلطان، ثم اختتم بصوت منكسر: – هذا ما سيحدث إن كانت صحتك هشّة. لهذا يقولون: الله يفعل بك، والناس يذمونك به. أُنصت إليك يا مملوك، أُنصت...

VIII

كان برقوق وبارچ مهمومين طوال الليل بالاقتراب ما أمكن من الشام، ولم يلتفتا. وطوال هذه المدة أراحا حصانيهما مرتين، ومرّنا هما أرجلهما أيضاً. وفي وقت احمرار سماء الصباح رأيا أرضاً ملأى بالقصب منفرجة أمامهما. انعطفا في غمضة عين إلى اليسار. وقال برقوق حين وقفا إلى ضفة بركة أمامها بعض العشب:

– لنُرخِ حزام الحصان دون أن نُنزِل السرج.

– حسنٌ أن نعرف كم قطعنا من الطريق، وكم بقي لنا. — قابل بارچ أفكار صاحبه بما في ذهنه هو.

– وكيف؟ – سأل برقوق الذي كان يمسح العرق عن ظهر حصانه.

– لابدّ أن عشيرة بدوية تعيش إلى جانب هذه المقصبة.

– اِنسَ البدو إن كنت تريد أن تنجو بجلدك! — قال برقوق بكلمات حازمة دون عنف، ثم أصلح موقفه: – أنت تعرف كما أعرف أنك لن تجد عند هؤلاء صدقاً أو رحمة. عندنا مهلة ساعة لنصلي ويرعى حصاانا. ارتحْ يا بارچ، وافرح بما كسبناه لأنفسنا بأنفسنا من حرية. لا داعي لليأس.

– لو لم يتسبب بحثنا عن الحرية في القتل... — بدأ بارچ، ولما لم يكمل كلامه، عبّر برقوق عن رأيه في الموضوع بالنبرة نفسها:

– لو لم يسرقونا، لو لم يبيعونا، لو لم يخدعونا... لربما ما كنا فعلنا ما لا تستطيع قوله. غير أني لستُ نادماً على ما فعلنا بشأن يلبغا.

– وأنا أيضاً.

– ماذا إذن؟

– وكيف أعرف!... لا يفارق ذهني إلى الآن ما فعلته بهجوم مفاجئ على الرجل الذي طلبَنا إليه. ولا أفهم كيف جرى.

ابتسم برقوق في سرّه. وسأل نفسه "ما الذي يريد أن يقوله هذا؟ ما الذي لا يستطيع البوح به في الوقت الذي وافقني فيه على ما أقول وما أفعل. لا أعرف ما الذي جرى له، يبدأ بـ "ولكن" ولا يستطيع الإكمال. لم يكن إلى الآن هكذا. أيكون السببُ وقوعَه اليوم في مصاعب لم يتوقعها. أكانت حياته بصفة مملوك سهلة عليه أمس وأول من أمس والعام الماضي؟..."

– لا شيء غيرُ مفهوم أو يدعو إلى العجب في هذا. — خرج برقوق من أفكاره، – لم يكن لنا مخرج آخر. لا تدعْنا نندم على ما فعلنا.

– لا، لا، لأني أقول مع ذلك: من يعرف؟... إذا كنت لا تعرف ما ينتظرك فستفكر في مثل هذه الأشياء. — برّأ بارچ نفسه، وأنهى بمزحة: – لا يضرنا لو أفطرنا أي شيء، ولكن لا أعرف من أين. انظر، هاهي شمسنا الكبرى تُشرق!

– قلْ آمين ! — نهض برقوق الذي لم يكمل وضوءه. ورفع يديه إلى السماء — لِتُشرقي علينا بالخير، ولتحملي إلينا نهاراً سعيداً. ما شهدتِه مني أمس لم أفعله عن غفلة عقل بل كنت مخلصاً لما فعلت وراضياً. انقلي تحياتنا إلى أهلنا حيث ستحطين رَحْلكِ آخر النهار. وبلغيهم أننا لم ننسَهم فلا ينسَونا! مع السلامة، أشرقي علينا غداً أيضاً بالخير. وبلِّغْنا نحن آمالَنا!

– آمين ! — وافق بارچ برقوق من أعماق قلبه.

– والآن سنمثل أمام الله الكبير الذي يبتهل إليه الكثيرون ولا يبتهل هو إلى أحد. — استأنف برقوق وضوءه كأنه لم يصلّ للشمس الإلهة الوثنية. ولم يتأخر بارچ عن صديقه.

سار برقوق وصاحبه يوماً وليلة أيضاً متجنبين الناس، حذرين. وفي اليوم الثالث بدأ بارچ الحديث موريّاً من بعيد ولو أنه لم يعد يُطيق صبراً:

– هل هو بعيد يا تُرى مفرق طريق الشام وبغداد وحلب؟

– موعدُنا زمانُ وصولِنا. – أنهى برقوق بعد انقطاع قصير عارفاً أن رفيقه ينتظر الجواب: – أينتظرك أحدٌ هناك؟

– يا برقوق لا تظنني مغفّلاً! – غضب بارچ، ثم لامه مسوّغاً غضبه: – لا تتظاهر أمامي أنك لست جائعاً! ها قد مضت ثلاثة أيام لم نذق فيها شيئاً، ولا حبة من الدُّخن. جعلْتَنا نتجاوز الرعاة البدو بحجّة أننا لسنا لصوصاً ولا متسولين.

– عفارم يا بارچ، أنا راضٍ عنك. تحلّيت بالصبر ثلاثة أيام، وصبّرتني أنا.

– أخرج برقوق الكيس الصغير الذي يدّخره من تحت مقدمة سرجه، ومدّه لصديقه: – خذ من الكيس بضع كِسرات من الخبز اليابس. ولا تستعجل عليها. امضغها جيداً تسندْك أكثر.

مزح بارچ مع أن بضع الكسرات هزّت جسده، وسكبت العرق على جبينه:

– لن أستعجل عليها إن بقي في الفم الجاف شيء من اللعاب، ولكن أتدري ما أستغربه؟ ما أجده عندك كل يوم مما لم أكن أنتظره.

_ أهي حسنةٌ أم سيئة؟ – رد برقوق بالمزاح دون أن يعبأ بالسؤال.

– كلها حسنة. لولا أنك متحفِّظ أكثر مما ينبغي.

– هكذا؟ – ابتسم برقوق – أتعرف ماذا يقول العرب بخصوص السرّ؟ أنت أسيرُ سرّك، فإن أفشيته أصبحت أسيره مدى الحياة. والسر يصبح علناً يوماً إن لم تدخل فيه الخيانة كما أنك لا يمكنك أن تكتم الحب والحبَل وركوب الجمل وهبوب الهواء.

– صحيح، صحيح. – قال بارچ، وسأله عما يشغل باله: – ما الذي ينتظرنا يا تُرى في المكان الذي نقصده؟

– أعرف أنه لا ينتظرنا إلا أملُنا – تجاوز برقوق السؤال ثانية مع أنه يعرف أن صديقه لن يقبل إلا الجواب المناسب – إن كنت تريد سماع الحقيقة فلا أنا ولا أنت نعرف ما سيحدث لنا غداً أو بعد غد. وافهمْ أنه لن يلحق بنا أحد منذ يومنا هذا، دون أن يعني هذا التهاون، ولا إهمال حصانينا.

– عرفتَ ما في قلبي – أسرع بارچ – سيكفينا هذان الحصانان أجرة للسفينة.

– وهل وصل أمرُنا إلى هنا؟ لا تُشمّر عن ساقيك قبل أن تصل إلى المخاضة.

– حين نصل.

ربما كان قولُهم "حتى راكب الجمل يعضه الكلب" صحيحاً: بدأ حصان بارچ يعرج قبل أن يصلا إلى الشام بيوم.

– أظنني أصبت حصاني بنفسي بالعين...– رفع بارچ حافر حصانه الأيسر وفحصه. ثم عرضه على برقوق: – لا فائدة. تهرّأ الحافر فبان اللحم. هنا انتهى مشواري أنا... – أقعى بارچ تحت بطن الحصان، وأمسك برأسه بين راحتيه ناسياً صديقه.

– ماذا جرى لك؟ – سأل برقوق صديقه الذي كان يهزّ رأسه.

– ألا ترى سوء حظي؟! – تأمل بارچ صديقه بعينين حمراوين هامدتين.

– أتظن أننا سيئو الحظ منذ هذه الساعة فحسبُ؟ ابتسم برقوق مُدرِجاً نفسه معه، وأضاف إلى كلامه – أتيأس لأن حصانك يعرج؟ اركب ورائي !

– وهذا؟ – سأل بارچ وقد عاد إليه شيء من الأمل.

– سنحتفظ به إلى أن نصل إلى قطيع الخراف ذاك.

مع أن الفتى الراعي استقبل الرجلين الغريبين بثلاثة من كلاب الحراسة فقد فهم أن من عرّجا عليه هما في ضائقة سفرٍ فهدّأ الكلاب، وقال بما لا يتناسب مع عمره:

– قولا لي ما تتأملانه مني. سأفعل ما أقدر عليه، ولكن لا أعدكما بما لا طاقة لي به. أقدم لكما الماء، وأطعمكما جبن الخراف.

– حياك الله – ثمّن برقوق فِطنة الصبي الراعي، واعترف له بفضله – نقدم إليك هذا الحصان كي لا يذهب سُدىً. داوِه، وبارك الله لك فيه !

– لم يعاملني أحدٌ إلى الآن بمثل هذه الإنسانية. إن كان هذا رأيكما أخذته، ولكني أقول لكما إنكما ستجدانه متى احتجتماه.

– بارك الله لك فيه، لا نريد إلا ألّا تُسيء إليه فحسبُ – قال بارك وهو يلتهم الجبن – نحن في سفر بعيد لا عودة لنا منه. ألا يكفي كم أُهِنّا في بلاد الغربة؟ نحن عائدان إلى بلادنا. ما أحلى حديث هذا الذي لا يزال شاباً... – اختتم بالأديغية.

– كنت أشك في أنكما مملوكان. – تغيّر لون الراعي الفتى. غير أني فهمت الآن أنكما شركسيان. من حظنا أنكما لم تقابلا البدوي صاحب الخراف التي أرعاها. كان قتلَنا ثلاثتَنا قائلاً: إن المماليك الشراكسة خربوا بيوتنا.

– وهل أنت بدوي؟

– لا. حسم الراعي، وحدد انتماءه – أنا درزي جبلي إن كنتما سمعتما بهذه الطائفة. من أولئك المقيمين في نواحي الجبل. وإن شئتما معرفة اسمي فهو "دروز". وأنتما عرّفاني اسميكما إن أمكن!

– ولماذا لا يمكن؟ – لم يستغرب برقوق كلام الراعي الذي تقرّب منهما بنفسه – أنا برقوق، وهذا بارچ.

– أهلاً وسهلاً. الكرام يسمَّون أسماء حسنة، كما كان يقول والدي، وأنتما لا شك رجلان صالحان. – بشّ لهما الراعي الذي كان يُقاسمهما زاده.

– صحيح أن الآباء والأمهات لا يسمّوُن أولادهم أسماء رديئة. – نهض بارچ – ولكن لا أستطيع أن أقول إن أسماءنا، وأنت معنا، جلبت لنا الحظ السعيد. إن كنا جُلِبنا إلى هنا قهراً وبؤساً فأنت أسير البلاد التي ولدتَ فيها. ألا تفهم هذا؟

– يا بارچ ! – أسرع برقوق بالأديغية – لا تقل له مثل هذا الكلام، دعْه في حاله. – وعاد سريعاً إلى اللغة العربية – الدنيا ضيقة على كل إنسان. نحن حين نعود إلى ديارنا وقد عاد إلينا وعيُنا فربما عاد دروز أيضاً إلى دياره.

– مضى وقت طويل على تفكيري في هذا الأمر، غير أنه لا أمل لي... إن كنت محظوظاً فلن يزورني البدوي القبيح صاحب القطيع قبل أن يُشفى حصانكما الذي قدمتماه إليّ. وإن جاءني فلن يلقى مني خيراً.

– أهو بعيد؟ أيزورك كثيراً؟ – سأل برقوق الراعي وراءه وهو يشد حزام الحصان.

– يعيش وراء تلك الكثبان البعيدة. يأتي مرة في الأسبوع لحلْبِ الخراف. البارحة كان هنا. ألن تُشفى قائمة الحصان إلى وقتِها؟

حين سمع بارچ صهيل الحصان ضمّ رأسه إلى ظهر برقوق وقال له:

– حصاني المسكين يناديني. أسرعْ، لا أتحمل سماعه.

– اطمئنّ ! – قال برقوق كأنه لا يسمع صوت الحصان – صار حصانُك في عُهدة إنسان صالح.

– أأنت واثق منه؟

– أنا واثق من كل من وقع في العبودية. – توقف برقوق قليلاً، ثم تابع:

– أسدينا خيراً إلى دروز، وأذنبنا بحقه.

– كيف أذنبنا بحق من أعطيناه حصاناً مقابل بعض الماء والجبن؟!

– إذا كان الحصان، وهو حيوان، ينادينا في إثْرِنا، فلماذا لا يحنّ إلينا دروز ويتابعنا بنظراته؟ ولماذا لا يغبطنا؟ أليس إنساناً مثلنا؟

– إن كان مثلنا فليحرّرْ نفسَه !

– أتتخيل أننا صرنا أحراراً لأننا هربنا بجسدَينا؟... – أحسّ برقوق أنه كلما مرّ الوقت خفّتْ سرعة الحصان الذي يثقل عليه الراكبان.

في الأسبوع التالي، ساعة افتتاح السوق، دخل برقوق وصاحبه الشام، وبيدهما زمام الحصان. ومع أن الوقت مبكّر فالمدينة في حركة نشيطة. الشوارع تعجّ بدواب الحمل من حمير وإبل، وبالعربات ذات العجلتين. والناس الحاملون أكياساً تتدلى على الظهر والبطن غيرُ قليلين. – الجميع يتجهون إلى السوق. وفي كل مكان تُسمع أصوات فتح أبواب الدكاكين ونوافذها، ونداءات السقّائين وباعة الشاي. ويعبق الهواء برائحة الخبز والفطائر المقلية بالزيت. ونداءات المؤذنين تملأ جوانب المدينة.

– سنسقي حصاننا، ونعتني به قليلاً.

– وبعدها؟

– بعدها سنبيع حصاننا الذي أنقذنا من مكان خطير. – وأسلحتنا أيضاً.

– حلب ليست قريبة... – قال بارچ غير عابئ ببيع الحصان والأسلحة. – ثم ألا يجب ان نأكل؟ !

– قلْ لي يا بارچ، أيُّ "ثمّ" علقت بلسانك؟ ! وأنت أيضاً فكّر بشيء مفيد! – غضب برقوق، ثم تراجع – عندنا أيدٍ وأرجلٌ. سنعمل. أتعرف ماذا سنفعل؟

إذا انضممنا إلى إحدى قوافل الجمال بصفة حمالين فستكون رحلتنا أسهل وأقل كلفة. سنتكيف مع الظروف، لا داعيَ لليأس !

"حسناً، حسناً – ابتسم بارچ في نفسه، سُبينا فقراء، وسنعود فقراء... إذا كنت أنت راعي خنازير فأنا سُبيتُ من أسرة غنية..."

– هل قلتَ شيئاً؟ – سأل برقوق وكأنه حدس ما يفكر فيه صديقه.

– وماذا أقول؟ ألم تقل إننا سنعمل حسب الظروف، ولا داعي لليأس؟ – أجاب بارچ بأي كلام.

ما إن باعا الحصان والأسلحة حتى دبت حركة غيرُ اعتيادية في المدينة فبدأ الناس يلجؤون إلى بيوتهم، وإلى الدكاكين والمطاعم ، ويتسلقون الأشجار، لم يفهمها بارچ في البداية. غير أنه لما رأى الأسد الشارد صرخ إلى برقوق وهو يتسلق غصن شجرة:

– أسرعْ، الأسد!

لم يكن لدى برقوق الوقت، ليس للنجاة بنفسه، بل للارتقاء إلى حيث صاحبه. ولما كان أمله الوحيد هو مُديتُه القصيرة فلحظة مدّ يده إليها وصل الأسد إليه واستلقى أمامه.

وفي اليوم نفسه حين سمع أميرُ الشام فيصل ما حدث في السوق أرسل رجاله يبحثون عن برقوق وصاحبه، حتى عثروا عليهما.

– مَن مِنكما هدّأ الأسد الهائج؟

– هذا هو – أشار بارچ برأسه إلى رفيقه، وهمس بالأديغية جانباً – لا تُخبِرْه أننا قادمان من مصر!

– أأنتما أديغيان؟ ! – حملت اللغة التي سمعها الأمير على السؤال: – هل قدومكما من مصر سرٌّ؟ أنا لا أدين من فعل بالمجرم يلبغا ما فعل، بل أُثني

عليه. ولكن لا أدري إن كان السلطان شعبان الذي لم يكن يفهمنا سابقاً سيفهمنا الآن. الحفرة التي كان يحفرها له وقع بنفسه فيها. كان يريد إزاحتنا نحن الأديغة، وينصِّب نفسه سلطاناً علينا، ولكن الخبر الذي وصلني يقول إن اثنين من مماليكه الأديغة لم يُمهلاه إلى أن يحقق طموحه. حسناً، ليس هذا مهماً. على السلطان نفسه أن يحلل ما حدث في القاهرة. ولا يرسلْ إليّ رُسُلاً. ولا يأملْ مني شيئاً. الأفضل من كل هذا أن تروي لي كيف هدّأت الأسد. أتكون تحمل قناعاً سحرياً ضد المفترسات؟

IX

"النار يغلي عليها الماء، والماء يُطفئ النار" – منذ نصف عام يخطر للسلطان شعبان هذا القول العربي المأثور. وحين يفكر في ما شهده في سنوات عمره التي قضاها هشّ الجسم تجاه الأمراض منذ طفولته وحتى الستين، فإن ذنب المجازر التي ارتكبها بحق المماليك منذ يوم مقتل يلبغا وفي أقل من أسبوع، والتي لن يسامحوه عليها ولو صلى أو دعا إلى الله صار هماً لا يترك له فرصة للراحة. النار تحرقك وتصيبك بالعاهة في الوقت الذي تدفئك فيه وتعيش عليها. والماء يمنحك روحه والحياة. ثم يغرقك سيله ويسلبك الحياة.

"على ما يبدو – يقول السلطان الذي نسي مرض صدره –جلبت لنفسي الذنب الأبدي في الدنيا الفانية حيث لا يعرف غير الله وحده براءتي. وإلى الآن أجبرت نفسي على أن أكون صالحاً حتى لا أضع نفسي في أفواه الناس كجدّي ناصر الدين مُحَمَّد؛ فكيف أُكفِّر الآن عن الذنوب التي دفعني إلى ارتكابها المجرم الذي كان ينوي قتلي؟ وأنت يا إلهي هو من يقرر وأنت من في يده حياتي. أخجل أن أطلب منك أن تفهمني وتغفر لي. أتتذكر، إن رجعت بضع سنين إلى الوراء، حين قالوا لي: يجب أن تصبح سلطاناً على مصر أغراني المديح فلم أستطع الرفض رغم معرفتي أني غير قادر جسدياً وعقلياً على أعباء المهمة. لا أظن أحداً لا يحب الحلو والدلال، وأنا عوّدوني عليهما، وجعلوني ألتذُّ بهما. ولكن مهما وجدت نفسي في موقف حرج فأنت ترى أني لم أرتكب ذنباً غير استجابتي لهذا الإغراء. لم أسفك دم أحد في حرب أو في أي مظلمة أخرى. ولكن لا أندم على أمري بإعدام المماليك الخمسة الذين دسّهم يلبغا بين حراسي. ولكن ما ذنبُ الآخرين الهاربين الذين وقعوا في قبضتي فاتهمتهم ظلماً؟..."

حين ضاق صدر السلطان فعجز عن التنفس هجم على النافذة ففتحها على مصراعيها. غير أن هواء الصيف الحار لم ينفعه إن لم يضره: غادر النافذة والسعال يخنقه، وسقط على أرض الغرفة. ثم عاد إليه وعيه دون أن يتذكر كيف زحف إلى عرش السلطان. ولما كان الصمتُ يسود الغرفة فقد نظر نحو الباب الذي تنسدل عليه البسط المطرزة بالذهب، وغمغم: "لن يسمعك مَن وراء الباب حتى لو داهمك الموت... لماذا أتّهمهم ظلماً، وأنا الذي أكّدتُ عليهم "لا تأتوا إلا إن استدعيتكم !"

كل إنسان، يحمل في داخله دون أن يدري قطبين متناقضين: أحدهما يفيده، والآخر يدفعه إلى الأسفل. وحين يحاول الاستفادة من الطرفين يبرزان له كطرفي عصا مدببين لا مهرب لهما. يمكن اعتبار ما يقوله السلطان شعبان عن نفسه "لم أسفك دماً من خلال الحروب، ولم أظلم أحداً، أنا إنسان مسالم" صحيحاً. ولكن كيف تجيب على النزاع الذي يسود البلاد من خلال الأعراق المتنافرة المتربص بعضُها ببعض، وعلى الأعداء الذين يرفعون رؤوسهم في الشرق والغرب؟ ألا يمكن أن تكون هذه أسباب انشراحه لمخططات يلبغا؟

"في قلبي الخيرُ للجميع – هاجمت السلطانَ من جديد أفكارُه. – هم كانوا ينوون قتلي... لو عثرت على المملوكين اللذين حمياني بمعرفة الله للبيّت لهما كل ما يطلبان. هذان هما ملاكاي! انشقت الأرض فابتلعتهما فلم نجدهما طوال نصف سنة. ولم يكن أيٌّ منهما بين المماليك الذين أعدتُ جمْعَهم. سواءٌ وافقنا العرب والكرد والترك أم لم نوافقهم، فالمسألة بدأت من جدتي أسلون، وتحمّس جدي الناصر مُحَمَّد جداً لها، ووالدي وأنا لم نشأ مخالفتهما، فكانت النتيجة أننا سمحنا لعدد كبير جداً من المغول أن يرفعوا رؤوسهم في مصر. وهؤلاء لا يجوز أن يقتربوا من مسائل الحكم. تناسيت وصية جدنا الأكبر في عِرقنا قلاوون.

بالغتُ في مدّ يدي إلى القادمين من بلاد المغول الذين كان منهم من ينوي قطع رأسي، مسوِّغاً لنفسي أنني أديغي، ولا أريد أن يتحسس أهل البلاد من توزيع مناصب الإمارة على الأديغة... ليس أهل البلد الجبناء الطامعون في المناصب مَن حمَوني من الموت. — "بل الأديغيان اللذان يقال فيهما: انشقت الأرض وابتلعتهما..."

نهض السلطان ليُبعد عنه أفكاره الثقيلة. وجلس إلى جانب المصحف المفتوح. بدأ يقرأ على هواه ولكن، وقد وجد لصوته أعذاراً ومسوغات، نادى إلى الخارج، وأطفأ نار غضبه بالمملوك الحارس:

– أأنتم صُمٌّ فلا تسمعوا! — ملأ الحرُّ الغرفة الآن؛ من الذي فتح النافذة على مصراعيها؟ ثم نادى الرجل الضخم الخارج من الغرفة بعدما أغلق النافذة:

– توقف لحظة ! من أي عرق من البشر أنت؟

– أنا أيها السلطان الأشرف ناصر الدين شعبان، موفد الله، من حرس السلطان. — قذف بالجواب دون تفكير كأنه كان ينتظره.

– أعرف هذا — ابتسم السلطان في سره — ما سألتك عنه هو ما لا أعرفه.

– أنا مملوك، محارب لدى موفد الله — حسم الرجل الضخم من جديد باختصار.

– كفى، كفى، فهمت — أشار بالخروج إلى المملوك الذي لن يحصل منه على الكلمة المطلوبة باللين أو بالعنف، وثم صاح وراءه: – أبلغ أمير العشرين المنصور الذي أنساك أصلك أن يأتيني حالاً.

"حالنا يدعو إلى الضحك والبكاء معاً ! — نهر السلطان نفسه — بعضهم يحفر لي أساسي، وغيرُهم يكتم عني أصله. من أمامي يحنون لي ظهورهم، من ورائي يقتلونني بنظراتهم، ويلوّحون لي بقبضاتهم. لن يرضوا عنك وإن أحسنت إليهم،

ولن يرضخوا لك إن حاولت إرهابهم. وبالتعابير الموروثة عن السلطان بيباريس لا تقعد في البيت، ولا تخرج، ولا تدعْني أدخلْ وأنت فيه !"... يا ناس، إن كانت المشكلة في منصب السلطان فأنا أتخلى لكم عنه ابتداء من اليوم. لم أكسب منه إلا وجع الرأس والصدر. ولست حراً في أن أتكلم وأضحك وأمزح كسائر الناس... أيُّ حياة هذه!"

– هل أنت منصور؟ – سأل السلطان أمير المماليك الداخل إلى الغرفة.

– نعم يا موفد الله، بديل الشمس، أنا قائد الحرس. – أجاب الرجل قائلاً في نفسه: "هل اختلّ هذاا الرجل فيتظاهرَ بأنه لا يعرف اسمي؟ وبأي نظرة قاسية ينظر إليّ؟"

– سألتك عن اسمك، لا عن عملك.

– اسمي منصور يا موفد الله.

– أتعرف معناه؟

– ألست عربياً، كيف لا أعرف... – بدأ منصور ساخراً من طريقة سؤال السلطان، وعاد سريعاً إلى الواقع: – من يأتيه النصر، ومن يساعد عليه، يا موفد الله، يا من ندعو الله أن يجعل لنا الخير في طول عمره. – توسل منصور إلى السلطان وهو يقول في نفسه: "ما الذي لا يستطيع هذا الرجل أن يقوله؟ ما الذي يدور حوله؟" – إن كنتَ لن تؤاخذني، وإن كنت ستنظر إليّ بعين العطف فاسمح لي أن أبدي رأيي ما دمت وقفت أمامك موقف صدق لأني فهمت عليك ما تريد أن تقوله لي.

– قل إن كنتَ ذكياً هكذا – مزح السلطان مع منصور ببراءة. ثم لامه على إصراره على صدقه: – أيعرف أحدنا الآخر هذا اليوم فحسب؟ طلبت منك

المثول أمامي لأني واثق منك. حين وجدتُ نفسي في مأزق بسبب قضية يلبغا كنتَ أول من تفهّم الحادث. وكنتَ من جعلتني أوقف المجزرة ضد المماليك.

– أنا راض عما جعلتنا نعاقب به أنصار يلبغا الخائن. ولكن اغفر لي لستُ راضياً عن استثناء أشير الأخزر من بينهم.

– ما أخباره؟ – سأل السلطان كأنه غير مهتم ولا يعرف ما سيفعل به.

– في السجن متأملاً أن تأمر يا موفد الله بإطلاق سراحه.

– أسمعتهم يقولون: من يتكلم بنعومة مثلُ من يتكلم في الخفاء؟ ابتسم السلطان، ثم اختتم ولونه يتغير: – أمثال هؤلاء لا يُمنحون الأمل. الليلة قرروا مصيره. أهذا ما تريد أن تقوله لي؟

– لا يا بديل الشمس. اعتبر أن مصير أشير الواشي قد تقرر. والموضوع من بين المواضيع العربية التي سألتني عنها. سأقول لك ما يُقلقني منذ العام الماضي لأنك وثقت بي. لن أكتمك، وإن أخطأت فسدّدني:

– أستمع يا منصور، أستمع.

– ما سأقوله لك يا موفد الله، فرحت لأجله بعد ما كان يلبغا ينويه لنا. وملأني باليقين. لا أظن التنوع العرقي لمن أمّرتني عليهم مناسباً. سلطان مصر البلد العربي، كائناً من كان، يجب أن يكون حُماته، لا أعرف رأيك في الموضوع، من أبناء مصر. سيكون مناسباً للسلطان ومُرضياً للسكان المحليين. أليس الأفضل، مهما كانت بسالة حراسك، أن يتكلموا لغة واحدة من أن تتنوع لغاتهم؟ نعيش معهم دون أن نعرف ما في نفوسهم، ودون أن نفهم كلامهم.

كان ما في قلب السلطان شعبان نحو ما يقال له غيرَ ما تعبّر عنه هزة رأسه: "اسمع ما يقوله لي هذا المتملق ! إنه حريص على حياتي أكثر مني. منذ متى

يتحلى هؤلاء الكسالى الذين تمتدحهم بالصدق والبسالة؟ لا نستطيع لملمة ما يتناثر منكم من الكذب"

– أستمع إليك يا منصور، أستمع – لاطف السلطان منصوراً ثانية.

– ما دفعني إلى أن أقول هذا هو أننا رأينا بأم أعيننا كيف كانت نهاية يلبغا الشرير على يد هذا الخليط البشري. إن كان من أتحدث عنهم ليسوا موضع ثقتك يا موفد الله – غيّر الأمير منصور موقفه بسرعة كمن قرأ أفكار السلطان – لو كانوا الشراكسة فهذا جيد جداً، ولكن الكرد والمغول والترك لا يصلحون. قلت لك ما في نفسي، ما يُقلقني يا بديل الشمس. والله شهيد على ما أقول.

– لا يُتَّخذ الله شاهداً! – حسم السلطان بكلام صارم، وأنهى بنبرة ألطف: – سيفهمك وسيغمرك برحمته لأن معروفه لا حدّ له. والكلام الآخر لك فيه نصيب من الصحة. ولكن ما لن أوافقك فيه أكثر. لو لم نكن أنا والعرب نتبادل الثقة لما كنت سلطاناً عليهم. أليس المماليك الذين يحمون مصر إلى الآن ولم يُخرجوها، من أعراق متنوعة؟ الخبث لا يسلم منه أي قوم، فالرجل الذي ذكرتَ اسمه يلبغا فداني منه المملوكان اللذان لا أعرفهما ولا علاقة لي بهما. ماذا قلت لي اسم هذين المملوكين اللذين تحلّيا بكل هذه الشجاعة؟

– أحدهما برقوق، والآخر بارچ، قال منصور، ثم تابع في نفسه: "ما أشد ما كرهْنا هذا المرائي !"

ـ أليس برقوق هو من سبق حصانه حصاني في أحد السباقات؟

– نعم يا موفد الله، وبارچ صديقه الحميم، والاثنان شركسيان.

– تذكرت. كان برقوق شاباً نبيهاً يبشّر برجل ممتاز. ومن سميته بارچ سمعت باسمه. بقيتم تقولون: انشقت الأرض وابتلعتهما فلم تجدوا مَن أحسنا إليّ حتى الآن. أيحتمل أن لم يسمعوا ندائي؟ كثير من المماليك سمعوني فرجعوا.

– بعد نصف عام من الغياب ظهر البارحة عدد من المماليك. أما الاثنان الآخران فلا نعرف ماذا ينتظران، اللهم إلا أن يكونوا رجعوا إلى شركستان التي جاؤوا منها.

– هذا يحتاج إلى مال – ظهر من صوت السلطان أن ما سمعه لم يعجبه.

– وهذا صحيح... ولكن، لا أعرف مدى صحة الخبر، يقال إنهما حملا معهما كثيراً من مال المقتول.

– ومن يقول هذا؟! – مع أن السعال هاجمه فقد وجد الفرصة ليجيب إجابة ساخرة:– أتهتز القشة دون ريح؟!

******

في أحد الأيام، وفيما برقوق آتٍ من جهة هضبة الجولان، حين رأى أمام دار الأمير فيصل خمسة أحصنة مسرجة سأل، وهو يرتاب في ما خطر له، بارچَ الذي استقبله:

– من هم هؤلاء الفرسان؟

– أرسلهم السلطان الأشرف شعبان من القاهرة مكلّفاً نفسه عناء إرسالهم.

– ما أشد الحماسة التي نطقت بها اسم السلطان؛ أتكون اشتقتَ إليه؟!

– أليس الأفضل أن يتذكرك السلطان من أن تُهمَل وتُترَك وحيداً؟ أليس حُسنَ حظٍّ؟ – قال بارچ وفمه لا يتسع لما يقول من الفرح، ثم سأل: – ماذا سنفعل؟

– أرى أنك ركبت إلى مصر وانتهى أمرك. ولكننا سنتصرف حسب ما يأمر بديل شمسنا.

– اسمع، اسمع ! – جعل الفرح بارچ ينفجر قائلاً: – ما قلته بالضبط هو ما قاله للموفدين، وأنا سألني عن رأيي...

– وماذا بقي لي إذن؟ – دخل برقوق غرفة الضيوف حيث الموفدون، وهو يمزح مع صديقه.

******

في الصباح التالي، حين ركب الموفدون الخمسة وقد زادوا اثنين همس بارچ في أذن برقوق:

– انظر هناك. ها هي نفبسه[1] واقفة إلى جانب النافذة تُجهِشُ بالبكاء...

[1] الاسم مؤلف من جزئين: نفه:نور،و بسه: روح، ما يعني روح النور أو الضياء.

X

عام 1373 صباح يوم خريفي باكر.

الغبار يغطي سماء القاهرة واصلاً السماء بالأرض حتى لا تميزُ الليل من النهار. والشوارع الخالية تملأ النفس باليأس.

– لاتعجبني طريقة استقبال القاهرة لنا... – تمتم بارچ ساحباً رأسه إلى الداخل.

– وأنت كيف كنت تريدها؟ – سأل بعد قليل برقوق الذي كان يتظاهر بأنه لا يعرف شيئاً.

– هل كنت أسمح لكل ما جرى لي أن يجري لو كنت أعرف ما أريد! – حين نفّس بارچ عن ضيقه لائماً نفسه اعتدل كلامه: – كما تقول يا برقوق لا داعي لليأس. ومع ذلك لا نعرف كيف سيتعامل معنا من يستدعينا... – لم يستطع إلا أن يُتبِعه بما يُهمّه دائماً.

صرخ برقوق في نفسه تجاه بارچ: "مللتُ من تقلُّب مزاج هذا وارتيابه الدائم!" – يقول شيئاً ثم ينقضُه. ولا يستقر حيث يقف، ولكنه لا يفتقر إلى الرجولة، ولا إلى الصدق. وإن وقعت في مأزق وقف إلى جانبك. وإن ناقشته في أفكارك وجدت عنده كلاماً ونصائح. غير أن كل هذا يفقد قيمته مع مزاجيته. وأنا أريد الكثير..." – انتشل برقوق نفسه من أفكاره دون أن يدري ما حدث له.

– كفى يا بارچ؛ لا تدعنا نتكلم في ما لا فائدة فيه مسايرين الدنيا المضطربة!

– والله هذا صحيح – ردّ بارچ على صديقه في نفسه وإن لم يعجبه ما سمع، متظاهراً بأنه يوافقه: – "نحن نحتاج الكثير!"

"مهلاً، مهلاً – جفِل بارچ من السؤال المفاجئ الذي قفز إلى ذهنه – لماذا صرفَنا الأمير فيصل من حضرته إذا كان محتاجاً لنا؟ أيكون خاف من سلطان

مصر؟ لم نسمع منه خلال نصف عام إلا استياءه منه. أتكون لقصة "نفبسه" التي كانت تتابعنا وعيناها تُجهشان بالبكاء علاقة بالموضوع؟ نعم، نعم، لا داعي للسؤال عن الموضوع. حسنٌ أن جرى الأمر هكذا وإلا كان دخل بيني وبين رفيقي ما لا حاجة لنا به... أكنتُ أشير إلى برقوق أن ينظر باتجاه النافذة، مثيراً فيه الغرور لو لم أكن مغفلاً! يا ربّ ماذا ينتظرنا في البلاد التي نعود إليها؟ أيُّ عودة هذه. نحن لا نعود من أنفسنا بل يعيدوننا. لا يجوز الوثوق بالسلطان. سيظلون يأخذوننا ويعيدوننا إلى أن يعيدونا إلى دار الأسر. لا ذنب للأمير فيصل. أنا من شجعته حين سألني: بِمَ سنجيب الموفدين الذين جاؤوا في إثرنا. وبرقوق لم يرفض. تبيّن أنه كان متلهفاً إلى العودة أكثر مني رغم سخريته مني. لا أعرف، لا أعرف... لو كان الفرح ينتظرنا لما استقبلتنا القاهرة بهذا الجوّ المعكَّر..."

كانت أفكار برقوق مختلفة عن أفكار بارچ. صحيح أنه كان قال لصديقه: "كفى، لا تدع الجو المعكّر يستدرجنا إلى أفكار لا فائدة فيها" ولكنه لم يكن يملك جواباً للأسئلة التي تعصف في رأسه. "يقول من أرسلهم وراءنا إن السلطان يمتدِحُكما، ولا شيء لا يلبيه لكما، ولكن هل من البطولة أن تقتل إنساناً في غير ساحة المعركة؟ ! ثم إنه ليس من أجل السلطان شعبان فعلتُ ما فعلت. لو كان إنساناً صالحاً إلى هذا الحد، لما أجابني حين رجوته في ذلك العام أن يُطلِقنا أنا وبارچ، بأنه لا يملك من الأمر شيئاً. هو سعيد لأن عدوه قُتل وظل هو حياً، ويُثني على القاتل. كانت أرواح آيرات والغراء، والمماليك الذين قضَوا قبل أوانهم، ويلبغا، غالية عليهم كما روحك. لا أندم على ما فعلتُ بيلبغا ولكن أن تحمل لقب القاتل... مِنْ نَحْسِ طالِعنا أن صادفْنا الأسد في سوق الشام فحرفَنا عن طريقنا. الريح ستهدأ، والشمس ستشرق ثانية ولكن

لن يفتح لنا أحدٌ طريق حريتنا. ولكن ألم يكن ممكناً ألا ننتصر على الوحش الذي أجبر بارچ على تسلق الشجرة؟ وكيف نجح أمير الشام في العثور علينا؟ وكيف تبيّن أنه رجل صالح تجاهنا؟ وكيف كانت "نفبسه" تتابعنا بعينين دامعتين؟... مَن منّا نحن الاثنين كانت تودّع؟..."

– إلى أين يقودنا هؤلاء؟ ! – حين سأل بارچ صحا برقوق من أفكاره، وأجاب على التخمين:

– الأرجح إلى السلطان.

– وفي هذا الوقت المبكر؟

– وكيف يكون مبكراً؛ ألا تسمع أذان الظهر؟

– ألم تلاحظ أن السماء تصحو؟

– لا تتجادلا. – تدخّل الأمير منصور في نقاش المملوكين باسماً، – موعدُنا وصولُنا إلى حضرة السلطان الأشرف ناصر الدين شعبان. كان قال لي إنه في انتظارنا في أي وقت نصل فيه، ولذا سأفعل كما أمرني. – "منذ شهر أنا في الطريق مع هذين وكلما قال أحدهما شيئاً نقضه الآخر. من السهل جداً أن تستفيد من اختلافهما وتدفعهما إلى الاقتتال" قال في نفسه، وأضاف السلطانَ المتشوق إلى رؤيتهما منذ شهر إليهما مادةً للسخرية.

حين طلبوا من السلطان الإذن بدخول الضيفين المستقدَمين من الشام إلى الغرفة استقبلهما بشخصه عند الباب. ولم يكتف بمصافحتهما بل عانقهما. وخاطبهما بالأديغية محدقاً في عيني كل منهما على حدة:

– مجازفتكما بروحيكما، بعلم الله العليّ، هي ما أنقذتني، فالشكر لكما. أنت برقوق، أتذكرك وهذا أليس بارچ؟

غيّر الأمير منصور وضعية وقوفه على رجليه، لا يُطيق سماع لغة غير لغته، قائلاً في نفسه: "كيف يتصرف هذا، وكم يتصاغر!... – يتناسى أنه يحكم بلاداً عربية. هل سيأتي يوم يا تُرى يختفي فيه هؤلاء من أمام عيوننا؟ !..."

– أأنت منصور الذي ترتجّ قدماه تحته؟ – لم يكتم السلطان ما لاحظ من حركات منصور – هذان قطعا الطريق الذي قطعته أنت ولكنهما صابران. نعم، نسيت أن الأمير منصور لا يعرف إلا العربية. لهذا أقول من البؤس أن تكون أعجم. هيا نادوا الصبي علاء الدين! – طلب من الأمير بعدما سخر منه، واستأنف الكلام: – أعُدّ يا برقوق رفضي تلبية طلبك يوم السباق، إن كنت تتذكر أن أحررك، من حسن الحظ؛ وإلا مَن كان حماني من عدوي المجرم؟ – وقال للصبي ذي الأعوام العشرة الذي قفز إلى الغرفة وقد انقطعت أفكاره: – هذان هما برقوق وبارچ الملاكان اللذان حميا والدك فلا تنس معروفهما سواء كنت معك أم لا. سأترجى برقوق وبارچ أن يتوليا منذ اليوم تربيتك على الرجولة والاستقامة. سلّم على من سيكونان أتابكَين لك. لا تخالف أوامرهما يُنجياك من الخطأ.

"اسمع ماذا يقول لولده الأهبل، ويطلب منه؟ ! – كان الأمير منصور الواقف إلى جانب الباب يبتسم فحسبُ ولا يُبين على حاله. – إن كنت ستقرب إليك القاتلين، وتمنحهما ثقتك ناسياً مرضك المزمن، وتريد أن تعيش المزيد... فالحية لا تستنفد سُمّها من لدغة واحدة..."

بعد ما مرّ شهرٌ على توليهما مسؤولية الأتابك – الأتاليق[1] للصبي قال بارچ لبرقوق:

– لم تقبل مني حين قلت لك إننا صرنا في الجنة، ولكن ها نحن سعيدان، ومع ذلك سأسألك إن لم تعتب عليّ سؤالاً واحداً.

– اسأل – ابتسم برقوق بتصنّع بريء – لماذا أعتب عليك، سأتحمله منك كما تحملت غيره.

– إن كان رأيك هذا فقاسِمني حزني. إن كنت أديغياً فأنا أيضاً. وإن كنتَ مملوكاً فأنا مملوك. ونحن من عمر واحد؛ لماذا أنعم عليك السلطان بلقب أمير العشرين وأنزلني أنا إلى أمير العشرة؟ أهذا عدل؟

– إذا حاولت الكلام على العدل والظلم أمكنك أن تقول الكثير يا بارچ، فلا ندخلْ في الموضوع. وإلا أمكنني أن أسألك بالمقابل: لماذا أحدهم سلطان والآخر مملوك؟ وهذا فارس والآخر راجل؟

– ها هو قد بدأ الآن...

– انظر، ها هو علاء الدين يركض؛ إياك أن تخبره بشيء!

– أيمكن أن أشكو له، أهو من أترابي؟ – غضب بارچ، ثم أنهى بنبرة أنعم: – أنت وأنا كلما حاولنا الكلام في موضوع ما اندسّ بيننا هذا الولد الهزيل...

---

[1] الأتابك من مصطلحات العصر الأيوبي وما تلاه، كلمة تركية تعني مربّي أولاد الملك. والأتاليق نظام كان لدى الأديغة وغيرهم، يودِع فيه عليّة القوم أولادهم عند أُسَرٍ أدنى مرتبة بقليل لتربيتهم على شيء من شظف العيش، واكتساب نوع من الأقرباء – الحلفاء.

XI

انقضى الخريف، وانقضت الأيام التالية المعتدلة من الشتاء مع أمطار خفيفة مستمرة. وقبل أن تجد الحشائش الوقت للاخضرار، والأشجار للبرعمة، ضاعت في ثنايا الهواء الصيفي الحار.

تستنزف تبدلات الجو في خلال العام صحة السلطان شعبان. ولما كان دواؤه نافورة الماء في أرض الدار الواسعة فهو يقضي أيامه إلى جوارها. ويقضي عنه باسمه برقوق أغلب مهامه السلطانية. ولبارچ حصة في هذه المهام، ولكن السلطان، وقد عرف تقلّبَ مزاجه، وبحْثَه عن لذاته الشخصية، خفف اعتماده عليه. وحين يكون في الصلاة، أو عند نافورة الماء يستمتع بالهواء الرطب منها، يدعو لربه أن يحفظ عليه حياته لحين بلوغ علاءِ الدين بعد عامين الخامسةَ عشرةَ، سنَّ قالب الرجولة.

– "ما العمل إذن؟ لابد من الامتثال لما كتبه الله عليك. يقول السلطان — أنا راضٍ عنك يإلهي. منذ أن رزقتني الولد الذي انتظرته سنوات طويلة، نصرت حظي على أعدائي لأني سلطان مصر. — لم تُتح الفرصة لأحد إلى الآن أن يشن علينا حرباً. ولم تسمح لحرب أهلية في البلاد. ولا تدعُ أي مسلم ينسى، وهو يوازن حسناته بسيئاته، حسابَ الجنة والنار. إن قلتُ إني عملت كما انتظرتَ مني فأنا أخدع نفسي. وحدث كثيراً أنْ سلكتُ طرقاً ملتوية للوصول إلى مبتغاي. اغفر لي خطاياي، وامنحني بعدُ قليلاً من العمر برعايتك. وأرِني ابني رجلاً. هل سيكون مثلي هشاً نحو الأمراض يا ترى؟ بديهي ألا يخرج من صلبك ولد صحيح بعدما تجاوزت الخمسين. ومع ذلك فقد أسعدتني. انظر إليّ بعين الرضا. لا أقول إنه يشكو من هذا، ويعاني من ذاك، ولكني مهموم بنحالته وهشاشة بنيته. حتى بيباريس يروون أنه كان ولداً نحيلاً بعين واحدة،

غير أنه هذا لم يمنعه عن أن يصبح سلطاناً حازماً. وجدُّنا قلاوون؟ لا يزال الناس إلى يومنا يتكلمون على جسامته ورجولته. نحن الاثنين، ابني وأنا، كأننا لسنا من نسل جدنا. وأنت لم تفهمنا من هذه الناحية — ارتعب السلطان من كلماته الأخيرة، – لا، لا، لا أتهمك. أنا سلطان ولو نهشني مرض الصدر. يا إلهي سماؤك المسالمة تُظِلّني، وشقّقتَ من أُرومتي وأنا عجوز هشّ هذا الغلام. خير لي أن أستعد لرحلتي إلى الكعبة في الخريف من أن أُفني نفسي في أفكاري السخيفة"

– يا ولدي، يا علاء الدين، تعال إلى هنا — نادى السلطانُ الصبيَّ الواقف إلى جانب شجرة الجوز التي زرعوها له بمناسبة بلوغه عامه العاشر. — أنت تسقي شجرتك وتتأملها؛ أتراها تنمو بطيئة؟

– لا أعرف ماذا تنوي. — عبّر علاء الدين عن عدم رضاه بما يلاحظ على شجرته — يغلظ جذعها، وتمتد أغصانها عرضاً، ولكنها لا تصعد إلى الأعلى. نَموتُ أنا في السنوات الثلاث أكثر مما نَمَتْ هي.

– نقضْتَ كلامك يا علاء — انفعل السلطان لِما سمع وإن لاطفه في الكلام:

– كيف أنقض كلامي؟ أتظنني بارچ المتقلب المزاج؟!

– لم ألاحظ على مربّيك مثل هذا.

– ومع ذلك يعِدني باصطحابي إلى الصيد ثم يتراجع.

– أهذا ما تعنيه ! — سأل الصبيَّ في ما يُهمه هو دون الاهتمام بشكواه: – أليس من المبكر ذهابك إلى الصيد؟

– وهذا هو رأي برقوق؛ أأنتما متواطئان؟

– إذا كان والدك يعرف كل ما يجري في مصر فلا عجب أن يعرف أخبارك.

– ابتسم السلطانُ الذي غفلتْ عنه نوبةُ سعاله في وجه ابنه – ولذا هناك فرق بين ما تقوله من أن بارچ يتراجع عن قراره، وبين ما أسميه تناقضاً في سلوكك. شجرة الجوز تتوسع في أسفلها دائماً ثم ترتفع إلى الأعلى.

– هذا صحيح، غير أن شجرة الكرز التي زرعناها معها أزهرت هذا العام.

– لا تستعجل عليها يا ولدي. كل شجرة لها موعدها في الإزهار. ستثمر شجرة الجوز في سنتين أو ثلاث. أأعيش أنا إلى يومها؟ – تنهد السلطان ثم قال لنفسه مع هزة رأس: – كان حسناً أن أزور الكعبة مرة أخرى. ارحمني يا إلهي ونوّلْني مناي! – غيّر السلطان موضوع الحديث حين جلس علاء إلى جانب والده وأسند رأسه الصغير إلى كتفه وإن انفعل – هذه هي الحياة: شجرتك ستنمو، وأنت ستصبح رجلاً... لا تلم الأمير بارچ، سيصحبك يوماً ما إلى الصيد. وربما رافقتُكما.

– إن كنت ترى هذا يا موفد الله فلي رجاء عندك: أريدك أن ترفّع بارچ إلى أمير العشرين.

– أهو طلبٌ منك أم تريد أن تسدي إليه معروفاً؟

– وهل تتصور أن يطلب بارچ مثل هذا!... – صاح علاء الدين كعجوز صغير، وحدد سبب طلبه: – يُخيل إليّ أنه يحسد برقوق على إمارته للعشرين.

– يسعدني أن تكون عندك هذه الدقة في الملاحظة وهذه الرحمة أيها الملك العلي – نظر السلطان إلى ابنه راضياً وأعاد السؤال: – أليس الأفضل أن تعمل لتحصل بنفسك على أن تحسد من عنده؟

– إذن أتعُدّ منصور الذي رقيتَه قبل أيام إلى قائد الأربعين لا يستحق هذا بجهده؟

– ما الذي أوصلك إلى موضوعه؟ – كان استياء السلطان بادياً من نبرة صوته فأسرع بتعديل موقفه — يسرني يا علاء اهتمامك بأمور السلطنة، غير أني أقول في نفسي ألا يكفيني ما أعاني منها حتى أصدع رأس ابني بها.

– ما يقوله الأمير برقوق لي مختلف.

– أيقول لك ما يسيء؟ – تغير لون وجه السلطان.

– يقول لي: "احفظ في قلبك ما يقال لك؛ لم تعد طفلاً"

– هذا كلام جيد. يربيك على ما ستكون عليه. ولكن إذا لبّيت لك رجاءك بشأن بارچ وجب عليّ أن أرفّع برقوق أيضاً.

– لا، لا. استعجل علاء فزِعاً. — أنا أريدهما أن يتساويا في الرتبة.

– لو كان كل ما نريد يتحقق لنا... — ابتسم السلطان الأشرف ناصر الدين شعبان.

– ألستَ سلطاناً؛ لماذا لا يتحقق لك؟ – أسرع علاء بالسؤال بكل براءة.

– أنا سلطان — ضحك السلطان الآن من أعماق قلبه — إن كنت تقصد هذا فأنا سلطان مصر. ولكن لم يتحقق لي فيها كل ما أريد... كنت أنوي ان أحقق للبلاد إنجازات كبيرة لولا مرضي. ولا يعني هذا يا علاء أن نقطع الأمل. لا أمل لي بعد الله غيرُك. ولكن دعْنا لا نستعجل في موضوع الأمير بارچ. ليس لأنه غيرُ مخلص لنا بل قيل لي إنه مهموم بأموره الشخصية أكثر من هموم السلطنة. وبلغَني قبل أيام أنه اشترى مجدداً خمسين مملوكاً؛ لا أعرف من أين جاء بهذا المال؟ والأمير منصور المخادع الذي لمّحتَ إليّ به أحسنت إليه بإمارة الأربعين وسايرته، طلبت منه مرافقة برقوق إلى الإسكندرية في مهمة، فحين يعود نتكلم في قضايانا بتفصيل أكثر. لا داعي لأن تواجه مباشرة كل من يواجهك، بل أبعدهم عنك بأن تُحسن إليهم وتؤمّلهم أيها الملك العليّ،

وبعدها يسهل عليك ما ستفعل به. برقوق أنا راض عنه، شكراً له. وتوصلتُ بتفكيري إلى أن أكلّف الأمير منصور بإمرة سجن الاسكندرية. ضعْ برقوق مثالاً لك. وبالقياس إلى بارچ الذي يستهويك أحياناً فبرقوق أحكم بكثير، ولكن احذرْ، لا تدعْه يخدعك.

– برقوق إنسان صالح، على أني لن أسمح له أن يخدعني ! — حسم علاء الدين الموضوع ونهض.

– أثق بك في هذا يا ولدي. — أكمل السلطان كلامه في طريق عودته إلى البيت: – قلت "لا يخدعْكَ، احذرْ منه" لأني لاحظت على برقوق تعصُّبه لأبناء قومه الشركس، كما على الأمير منصور نحو قومه العرب. نتهم منصور الثرثار ولكننا نعيش في بلاد عربية. فالأفضل، كما كان يقول جدنا قلاوون، أن نعيش ولحمنا ينضج دون أن يسودّ سيخُنا.

– لم أسمع برقوق وبارچ يقولان مثل هذا.

– وهل يدَعانك تسمعهما؟

– ألن يخطئا مرة فأسمع منهما؟

– أتتسمع إليهما؟

– أحياناً.

– وإن تكلما بالشركسية؟

– أعلّمتني بعض الشركسية عبثاً؟ ربما لهذا السبب يتكلمان غالباً بالعربية في حضوري.

– هل فهمت لماذا نصحتك بالحذر منهما؟ وهما يحذران منك. حسناً يا ولدي، لا تدعهما يشكان فيك. لهذا السبب أقول: ما من لغة غير مفيدة. ما أحسن ما تحادثنا اليوم بالمصادفة والمفاجأة، ودون أن تهاجمني نوبة صدري.

حتى لو كنت أعرف أن لا أمل لي غيرك – وما فائدة البنات اللواتي ولدتْهنّ لي ضرائرُ أمك؟ ! – غيّرتَ نظرتي إليك. ليتني شهدت بعد حِجّتي بلوغَك السادسة عشرة.

– وهل بقي إلا سنة واحدة! – أجاب علاء الدين بسرعة كأنه كان ينتظر هذا السؤال، ثم سأل – وهل هذا كثير؟

– العام الكامل بالنسبة إلي قد لا يكون طويلاً عليك يا ولدي...

مضى شهر على الحديث بين الأب والابن. وحين عاد برقوق راضياً عن المهمة التي أنجزها في الإسكندرية، قابل السلطان أكثر من مرة. تكلما في موضوعات كثيرة. وأتيا على ذِكْرِ بارچ، ولما لمّح السلطان إلى موضوع شرائه المماليك تظاهر برقوق أنه لم يسمع. وحين تطرق الحديث إلى موضوع معاون السلطان قال برقوق:

– هذا أهمُّ شيء يا موفد الله. وأعضاء المجلس الاستشاري يطالبون بهذا. ولم يكن للأمير منصور شاغل غيره طوال رحلة الإسكندرية.

– أيكون راغباً في المنصب؟

– لاحظت هذا ولكن لم يقل بصراحة.

– وما رأيك في هذا؟

– إن كان منصب معاون السلطان فسأُطلعك على رأيي يا موفد الله: أرى أن لا ضرورة له.

سكت السلطان الأشرف ناصر الدين شعبان برهة، ثم ضحك.

– إذن ليس عندك رأي ثابت يا برقوق. ما أريد أن أسمعه هو أحد الاثنين اللذين ذكرتَهما.

– لو كنت أنا السلطان لما اتخذت معاوناً لي يا موفد الله.

"ما أعجب ما قال لي !... – ارتجف السلطان في داخله. – يقول لي " لو كنتُ أنا " فيقيس نفسه إليّ. كيف سيتصرف هذا مع ولدي بعد أن أرحل؟ نحن نمتدحه، ونترك له حرية الحركة. ألا يمكن أن يكون هو السبب في دفعي إلى نقل الأمير المنصور إلى الإسكندرية البعيدة؟ وهو الآخر لو كان أميراً صالحاً لربما لم أتصرف معه على هذا النحو. قلْ لي الآن بمن تثق؟..." – حين صحا السلطان من أفكاره عدّل توجّهه إلى برقوق:

– قل لي: لماذا لا تريد لي معاوناً للسلطان؟

– لأني لم أنس ما كان ينويه يلبغا يا موفد الله.

– هذا صحيح، ولكن ألا يجب أن نسدّ أفواه أهل البلاد من أمثال منصور الذين يحملون علينا لعدم اتخاذه معاوناً؟ – مَن مِن أمرائهم عندنا يمكن أن تجد عنده الصدق والإنسانية؟ كان أفضل مرشّح لهذا المنصب هو أنت. ولكن لا أريد إطلاق أفواه أهل الحضر والبدو الكسالى ضدنا.

– انسَني في شأن الموضوع الذي نتكلم فيه يا موفد الله. أستمد الاعتداد من الثقة التي أوكلتَ إليّ بسببها تربيةَ علاء الدين علي. ولست وحدي في هذا بل بارچ أيضاً. إن كنت تريد معاوناً لك من العرب فسنبحث لك بجدية. – قال برقوق للسلطان ولكن هذا بعد عودتك من الحج يا موفد الله.

– نعم، صحيح. لا داعي للاستعجال. من أريده هو شخص يتفهم كلامك ويكون مرناً معك.

******

كان الأمير برقوق أولَ من تلقى خبر وفاة الأشرف ناصر الدين شعبان في مكة ودفنه هناك، ولذا استدعى على عجل بارچ الذي كان في رحلة صيد قريبة وسأله:

– ماذا سنفعل؟

– سنستولي حالاً على منصب السلطان.

– هذا غيرُ مناسب، لا يفعلون مثل هذا.

– لماذا تستشيرني إذا كنت تعرف ما ستفعل؟ قلْ !

– سنخبر علاء الدين أولاً. ونعزي أسرة المرحوم. ونعلن الحداد في البلاد ثلاثة أيام.

– ثم ماذا؟ سأل بارچ الذي لم يكن يعجبه ما يسمع.

– ثم نعقد مع ترتيبات العزاء مجلس الأمراء الاستشاري، وننتخب علاء الدين علي، وريثَ السلطان الأشرف ناصر الدين شعبان سلطاناً.

– نعم، نعم، رتبت الأمور جيداً... — ابتسم بارچ، – ولكن هل فكرت في أن دمارنا سيكون على يد الأمير المغفل العليل الذي تتلهف عليه؟ أنظر إليك فلا أفهم من أي نوع من البشر أنت. هل أسرعنا بالعودة إلى مصر لترتيب إجراءات مأتم السلطان؟

– اسكت يا بارچ، أنت تأثم هكذا.

– أيّ إثم؟ – ردّ بارچ على صديقه.

XII

كان السلطان هو من يفتتح عادة مجلس الأمراء في مصر ويديره. ولكن مَنْ سيقوم بهذه المهمة اليوم في غيابه؟ – مضى على اجتماع الأمراء الواحد والستين بضع دقائق.– يتبادلون النظرات خلسةً، ويتهامسون. كلهم طامع في الحكم إن أوكلوه إليه سواء كان قادراً على تحمل مسؤولياته أم لا. بعضهم يتظاهرون بأنهم لا يرون علاء الدين المقرر سلفاً، الجالس بين برقوق وبارچ. والآخرون يبشون في وجهه وما في قلوبهم غيرُ ما على أفواههم. وآخرون يُشعِرونه بالعيون على موافقتهم له.

– ماذا ننتظر؟ لماذا لا نبدأ الجلسة؟ – قال منصور، وأردفه بعتابه الشاكي: – لهذا السبب كنت أقول، ولو أن أحداً لم يكن يصغي إليّ، إن السلطان يحتاج إلى معاون.

– ونحن لم نكن صامتين، غير أن كلامنا لم يكن يتحقق — أضاف أحد الأمراء.

– ومن أنت حتى ينفذوا ما تقول؟ ضمّوك إلينا في هذا الربيع فحسبُ... — سخر منصور الطامح في السلطة من القائل، ونظر إلى أعوانه قائلاً: "ماذا تنتظرون؟ ألا ترونني !" — قولوا من سيفتتح اجتماعنا، كل بلاد العرب تنتظرنا.

– ومن أنت حتى تُهينني في انتمائي؟ ! — رد عليه الأمير الذي سخر منه — إن كنت متلهفاً على حال البلاد هكذا فتجاوزْ نفسك ورشّحْ غيرك.

– ما كنت أريد أن أقول هذا أيها الأمير الشركسي! — غير منصور موقفه دون أن ينهي كلامه، متظاهراً أنه يلوم من لم يساندوه مع أنه كان غاضباً، عارفاً في نفسه أنه أخطأ في اسم الأمير: – حسناً إن كان هذا ما شرعتم فيه فلست جاهلاً بمن هو اسم أميرنا. ليفتتحْ جلستنا برقوق الأمير الذي كان مخلصاً قلباً

وروحاً للسلطان الأشرف ناصر الدين شعبان الذي فارق الدنيا الفانية، وكان أتابكاً لمن سنختاره اليوم سلطاناً علاء الدين علي، ورباه وأنشأه.

"وهل هذا هو فقط !"... همس بارچ في أذن برقوق بالأديغية مهتاجاً مما سمع:

– لماذا ما تزال جالساً، ماذا تنتظر؟ إن كنت لا تريد فرشّحني أنا !

ردّ برقوق بالعربية بجواب آخر، وكأنه لم يسمع شيئاً:

– ليكن أصاغرنا سناً غالين علينا، وأكابرنا محترمين. ليفتتح الأمير فيصل الجلسة لأنه أكبرنا سناً!

– صحيح. وافقه الكثيرون.

– ولكن قبل أن نفعل هذا – أكمل برقوق كلامه – لندْعُ من أجل السلطان الراحل!

بعد أن دعا بارچ للسلطان المتوفى، أضاف لنفسه عدم رضاه عن تصرف صديقه برقوق: "هذا هو طبعه... يتركهم يأكلونك وهو يبتسم في وجهك. مع أني نبّهته فقد وصل إلى الشام وأتى على ذكر الأمير فيصل. ما الذي تأمّله منه أكثر مما تأمّل مني؟ أنا لا لوم لي على الأمير. ضمّنا إليه حين كنا في مأزق، ولا أنسى إنسانيته وزاده إلى الآن. ما الذي ترجّته نفسه التي كانت تتابعنا من النافذة من أبيها؟ أنا نسيتها منذ زمن بعيد إن كانت ما تزال حية. يا من بارك الله فيك، هل يجوز وأنت في القاهرة وحولك أجمل البنات أن تشتهي فتاة بساقين عجفاوين؟! كان الأفضل أن نستولي على السلطنة كما اقترحتُ عليك من أن نرسل وراء كل هؤلاء الحاسدين. لا أعرف ماذا تنوي، وماذا تنتظر، وماذا تتأمل من هؤلاء. ستندم يوماً ما، ولكن بعد فوات الأوان! كم يقف هذا المنحوس حجر عثرة أمام مطامحي !..."

– إن كان هذا رأيَكم، ووافقتموني – بدأ الأمير فيصل الكلام – أفتتحُ مجلسنا الاستشاري، لن أطيل الكلام، أريدكم أن تقولوا من سيكون سلطان مصر.

– أنا قلت اسمه منذ زمن – صاح منصور ثانية منتزعاً زمام الكلام منهم. ثم بشّ في وجه المرشح للسلطنة كأنه يقول: لا تنسَ فضلي عليك ! وأَجْمَلَ معه برقوق وبارچ. غير أن ردّ فعل الأخير لم يكن كما توقعه:

– اسكت أيها الأمير منصور ولا تعتبرنا من مساجينك. لم تنطق اسم أحدٍ. لا تنتهي من الافتخار بنفسك.

– أأنا أم أنت مَن لا يفرغ من امتداح نفسه؟ ! _ قفز منصور من مجلسه كسيف مسلول – أنت من كان يجب أن يكون سجيني. أنسيت قبل سنوات، في البلاد... – حين التقت نظراته بنظرات برقوق تراجع عما كان يريد أن يقوله مع سَورة غضبه بشأن يلبغا، وجلس مغمغماً.– لولا أن هناك شخصاً أراعيه لكان لي كلام معك.

– ليس مجلس الأمراء مستودع أسرار – ردّ الآن أمير الفسطاط غورغين – قلْ ما عندك ولا تبتلعه كي لا يخنقك.

– أبعدْ عني عينيك الضيقتين، يكفي ما فعلتم في البلاد العربية! – قابل منصور الكلام العنيد للأمير – لو كنتُ مثلَكم – لا جعلني اللهُ مثلَكم ! – لسكتُّ خجلاً من غُربتي.

– اسمعوا ماذا يقول، وإلى أين وصل! – مرة أخرى لم يستطع الأمير الشركسي أن يكظم غيظه.

– سأقول لك ما وصل إليه – أجاب بارچ مبتسماً، ليس في صوته نبرة غضب – يدينوننا لأننا نحمي لهم بلادهم.

– لا تنسوا أنكم صرتم بشراً في بلادنا ! — حين قال إسلام أمير دمياط الذي كان ساكتاً إلى الآن، استغرب أن عدداً قليلاً وافقه بهزة رأس، غير أن ما استغربه أكثر هو ما سمعه.

– أيها الأمير فيصل الذي أدعو له الله بالرضا عنه — نهض علاء الدين علي — نصبوك رئيساً لأنك أكبرهم سناً، فسامحني، وأنت يا برقوق، على أني لم أصرّح بما أنوي فعله. — ذهب وجلس على العرش الخالي كمن كان عليه طوال عمره، ثم أكمل كلامه: – إذا كان اجتماع المجلس من أجلي فأنا أعلن قبولي تحمل المسؤولية من أجل الكفّ عن التنازعات بينكم.

– حسناً فعلتَ يا موفد الله. هذه رجولة وحكمة. — أسرع الأمير إسلام الآن بالتأييد كمن كان ينتظر هذا التصرف.

– اسكت! — لم يقبل علاء الدين — لا يُقيَّم ما قرره الله سبحانه وتعالى! — ثم سأل بعد وقفة قصيرة بصوت أهدأ: – أتعرفون ماذا كان يقول والدي السلطان الأشرف ناصر الدين شعبان الذي انتقل إلى جنته تعالى حين يقع في مثل هذا الموقف؟ البيت الذي بلا قطّ تعبث فيه الفئران. قف إلى يميني يا برقوق. ربيتني أيام كان أبي حياً، وما تزال. ومنعتني من أي تصرف خاطئ. وأنت يا بارچ لا تقف بعيداً، قف إلى يساري. كنت تملأ فراغي حين نلتقي وإن لم تكن لقاءاتنا متباعدة. إذا كنا بدأنا اجتماعنا مع شيء من التنافر، فالآن وقد انجلى الموقف، لنُنهِ أعمال مجلس الأمراء عند هذا الحد! ولندعُ إلى الله أن نتناسى خلافاتنا، وأن ينشر السلام في البلاد العربية، وأن يعيش الناس في تفاهم وحرص متبادلين، وأن ينصرنا على أعدائنا. قولوا: آمين! — حين نهض السلطان علاء الدين علي من على عرشه ورفع يديه بالدعاء فعل الأمراء مثله.

"هذا الولد الأعجف لم أكن أعيره اهتماماً ولكنه مهيب – قال بارچ لنفسه بدلاً من الدعاء – لن تستطيع زحزحته عن العرش مهما دفعته. لهذا السبب حين أخبرتُ برقوق بوفاة والده السلطان طلبتُ الاستيلاء على العرش بسرعة. وانظر الآن ماذا جرى لنا! هل بقينا خدماً إلى الأبد عند هذا الثرثار؟! أظن أن برقوق خاف أن أنافسه. الحقّ أني لم أكن أريد لنفسي السلطنة. كنت أكتفي بمعاون السلطان كي لا ينادوني بالمملوك. ثم كنا سنتصرف حسب ما يحدث... برقوق الخبيث هو السبب في أن هذا الذي لم نحسب حسابه تحدى أمراء البلاد المختارين ، وثرثر بكل هذا الكلام، وفعل ما فعل. نسي أنه بكى حين قلت له "كنت أريد اصطحابك إلى الصيد غير أن الأسد سيفترسك" وانظر الآن ما فعل بنا! ربّيتَه، غير أنك ستندم حين يحرد..."

حين اختتم السلطان دعاءه بهذه العبارات "آمين، ارحمنا يا الله" كرر بارچ الذي انتُشِل من أفكاره الكلمات التي سمعها، وقال لربيبه محيياً إياه بإيماءة رأس:

– ليجعلك الله لنا سلطاناً خيّر القول والفعل يا علاء الدين علي! حسناً فعلتَ إذ أبعدت منصب معاون السلطان عن الأمراء الحسودين. – حين قال بارچ هذه الكلمات بشيء من اللامبالاة لم يفسح برقوق المجال للسلطان ليرد عليها بل التفت إلى صديقه وهو يُخرج السلطان من بين الأمراء كمن يقول له "ولماذا لا تزال واقفاً".

– انظر إلى هؤلاء كيف يسحبون السلطان الأعجف الخبيث من بيننا محيطين به – همس الأمير منصور في أذن الأمير إسلام. – لأجل هذا أقول إن أبناء قومنا اللامبالين لا يُصغون إلينا... نسلّم البلاد للشركس تحت أنظارنا.

– ليس أمرنا على هذه الدرجة من السوء – مال إسلام على منصور وهمس في أذنه – وجماعتنا يرفعون رؤوسهم، ويمتلكون الوعي. انتظر إلى الاجتماع القادم للمجلس؛ سأجعلهم يعينونك معاوناً له.

– ماذا يحوك الآن هؤلاء الذين أُحبِطت آمالهم؟ – حثّ الأمير الشركسي باسماً الأمير غورغين أن يتابعهم.

– هؤلاء ! – يسخرون من أبناء جنكيز خان الخُزر العيون متناسين كسلهم وجبنهم... ها ها ها!

******

في اليوم نفسه، عند غياب الشمس، التقى بالمصادفة بارچ وبرقوق.

– مهلاً، مهلاً، ماذا جرى لك، أيلحقون بك؟ – تظاهر برقوق بممازحة صديقه.

– أنا لم يجرِ لي شيء، ولا أحد يلحقني – غضب بارچ وعيناه الحمراوان تجحظان رغماً عنه. – أريد أن أعرف ما جرى لك، وما الذي يجعلك لا تهدأ. أيُّ عرسٍ – مأتمٍ جعلتنا نشهده اليوم؟ عضّاتك المباغتة أعرفها منذ زمن بعيد. وإن أردتَ أخبرتُك.

– قل – ابتسم برقوق الذي كان يكظم غيظه بصعوبة.

– بعد أن خنقت يلبغا البريء بهدف التقرب من السلطان.

– بارچ ! انفجر برقوق.

– لا تحسبُ حسابي ولو أنك تنطق اسمي جيداً. لماذا تصامت حين طلبت منك أن يجعلوني زعيماً من أجل افتتاح الاجتماع فقط؟

– ألم يكن عقلك يستوعب أنه في حضور الأمير فيصل لا مكان لك أو لي؟

– أنا عقلي يصل إلى أمور كثيرة. وفي اليوم الذي ستفهم فيه هذا... – قطع بارچ ما كان يريد البوح به في سورة غضبه، وألقى إليه سؤالاً آخر: – ما الذي دفعتَ الصبي الذي لا يزال يسهو، ولا يعرف الكلام على نحو صحيح، إلى فِعله، مشيراً إليه بطرف مرفقك، غير عابئ بي، دون أن تفسح المجال للأمير فيصل ليمارس رئاسته إن كنتَ احترمتَه إلى هذا الحد؟!

– ألم تسمع الأمير منصور وجماعته من المصريين، بمن فيهم إسلام يتصايحون، ويهددون بنشر الفوضى لو لم يتحلّ علاء الدين علي بالشجاعة كما رأيت خلافاً لما يوحي به عمره. أما اعتراضك الآخر على سهوِه فأنا أعرف مرضه كما تعرف. غير أني حققت اليوم لوالده ما كان رجاني بشأن ابنه. وتحللت من قسَمي.

– نعم، نعم – ضحك بارچ بشيء من السخرية، وأجاب برقوق – أعرف ما تُضمر. غير أني لن أسمح لك بتحقيقه ولو لم يبق غيري! – صفق الباب بأقوى مما فعل حين دخل، وخرج.

"هيه أيها الأديغة، الأديغة ! – لام برقوق نفسه وهو يهز رأسه – هذه حالنا أينما كنّا. نهجم على من يحاول أن يرتقي نريد إسقاطه، ونخِز من ارتقى، ونسخر منه. وبعد أن نُسقِطه نشفق عليه. نشتهي ما ليس عندنا، ونحسد مَن عنده. نحترم مسنّينا، ونُعزّ شبابنا. وبدلاً من أن نحمي بلادنا الأم ونقويها نسترجل في البلاد الغريبة فنستولي بالقوة على مناصب الحكم فيها. من المذنب في هذا؟ لا يؤاخذْنا أحدٌ إن جاهرْنا بمن تسببوا في نكبتنا بجريمتهم! كان الحكام الذين اشترونا ليستعبدونا يطلبون منا أن نتوسل إليهم ولم نكن نحن من يتوسل. والآن لِيرَوا إن كان ما نفعل بهم حسناً. أهذه رجولة؟ ربما كان ما دفع الأديغة إلى أن يقولوا: "من مدّ يده إلى عينك فمُدّ يدك إلى روحه !" جواباً لمثل هذه

الحالة. لماذا لا أتحرك ؟ أأنتظر حتى يفعل بي بارچ تهديده؟ "إما أن تموت، وإما أن تموت" كما يقول الأديغة، سأجابه الليلة من يهددني ما لم يكن لديّ مخرج لي غيرُهما، وأنتهي من أمره. أنا لا ذنبَ لي يا إلهي، سأمد يدي إلى روح من هددني أن يمد يده إلى عيني" —حين نهض برقوق ليتجهز بلباسه وعتاده أبلغه الحارس بقدوم الأمير منصور.

– هل سمعتهم يا منصور يقولون: "اذكر الذيب، وهيّئ القضيب"؟ – استقبل برقوق ضيفه بوجه طلق.

– سمعتهم يقولون: القلب يرى قبل العين.

– إذن هل سمعت بقولهم: العين والقلب يعرف أحدهما الآخر؟

– إن كان هذا رأيك فربما كان مثل هذا القول المأثور.

– القولان اللذان سألتُك عنهما يا نجمة المماليك المنيرة — قال برقوق لضيفه على سبيل المزاح وهو ينظر في وجه محدِّثه — هما من أقوال الشراكسة الذين تعاديهم. ولكن كنتَ خطرتَ لي قبل لحظات أريد مقابلتك لأني أعرف أنك لا تحمل كرهاً كبيراً لهم. لم يُرضِني سيرُ أعمال مجلس اليوم. غير أن ما حدث أفضل لك ولي. إن كنا نستطيع الاحتفاظ بالثقة التي تبادلناها في طريقنا إلى الإسكندرية فأنا أريد أن نتكلم على موضوع خاص لا يعلم به غيرُنا.

– ولا حتى الأمير بارچ؟

– انتبهتَ إلى الأمر. ما سنتكلم فيه سراً هو موضوعه.

– وكيف لا ألاحظ ! ما كان بدأ يقوله بشأنك في هذا الربيع ولكن لم أسمح له... يُسعِدني أنك عرفتَ أخيراً أيّ نوع من البشر هو. أستمع إليك، يا نجمة المماليك المنيرة.

– ألا يكفي يا منصور سواءٌ وافقْنا مَن نعيش في بلادهم أم لم نوافق – بدأ برقوق يدور حول الموضوع بشيء من الرياء – كم ظل الكرد والقبجاق والأوزبيك والشركس سلاطين عليهم! أنا من جهتي لا أريد شيئاً. أريد فقط أن أتحرر من أعباء الحكم حتى لا يقال إن الأتابك قد هرب، ثم أعود إلى بلادي. ولكن أحد ثقات بارچ أخبرني قبل قليل أنه يستعد للاستلاء على منصب معاون السلطان الذي أرشّحك له كرمى لقومك. هذا الرجل في قلبه شيء، وما سيقوله وما سيفعله شيءٌ آخر. ما العمل يا منصور؛ ليس لي مستشار حكيم غيرك؟

– ما سنفعله واضح – احمرّ وجه الأمير منصور – سنعتقله فوراً.

– لا يكفي اعتقاله!... سيتمرد أعوانه الموثوقون. مثلُ هذا تُزهَق روحه! إن تحليت بالرجولة وفعلتَ هذا فأنا أقول لك على مسمع من الله أنك ستكون منذ الغد معاوناً للسلطان. وستمنحني حريتي وأعود إلى بلادي.

– إن كنت ترى هذا يا برقوق فسأنهي لك موضوع هذا العاصي الليلة. – نهض الأمير منصور متصلباً قوياً واثقاً من نفسه. وحين وصل إلى الباب قال معتدّاً بنفسه: – والأمر الآخر الذي سألتَ عنه لا تقلق من أجله: سأرسلك إلى بلادك مع ملء سفينة من المال. أليس من أجل هذا أقول: أن تكون سلطاناً في بلادك خيرٌ من أن تكون سلطاناً في بلاد الغربة.

******

انتشر في القاهرة خبران كلٌّ منهما أعجبُ من الآخر. والاثنان يتحدثان عن العثور على جثّتي أتابك السلطان بارچ، وآمر سجن الإسكندرية الأمير منصور. في الشارع.

تنهّد برقوق حين تأكد من صحة الخبر، ونهر نفسه بنفسه: "الآن لا شيء يقف في طريقي" – انفتح طريقي إلى السلطنة. وبعد لحظات دعا إلى الله: يا إلهي اغفر لي ما فعلتُ، وارحمني وافهمني. – وحين امتثل لعينيه مَن قاسى معه أيام مملوكيته الصعبة بارچ، كاد يبكي ولكنه وجد في نفسه حالاً من القوة ما يكفيه: "كان ما فعلتُ ضرورياً..."

XIII

تتقاطع في العالم طرقٌ كثيرة. ولكنها مختلفة. بعضها عريض والآخر ضيق. وغيرُهما ملتوٍ. وهناك طرق قريبة وبعيدة تشبه آمال الناس ونواياهم. وليس قليلاً أن تتوه عليها، وأن تغتني، وأن تهلك.

أيكون برقوق بدأ طريقه البعيد بالنحس، ثم انتهى إلى منتصف طريقه القريب سلطاناً سعيد الحظ، قاطعاً طرق التيه – الهلاك؟

إن سألت هذا السؤال إلى من أصبحوا سلاطين وخلفاء وملوكاً بالدم والدمع أجابوك أنهم سيئو الحظ، فعلوا ذلك رغماً عنهم من أجل الناس. ولكن جرّب أن تطلب منهم مرة النزول من المكان العالي الذي هم فيه!

كيف يُستثنى برقوق من هؤلاء، وإلى أين يذهب بنفسه ولما تمض ساعة على سلطنته؟ لا يشعر بأن ما تحقق له اليوم في بلاد الغربة كَسَرَ جِسْرَ نيّته – الأمراء الذين تجاوزوا أدوارهم إلى مجلس المستشارين يبتسمون له من قلوبهم أو من خارجها متنافسين على فصاحة اللسان.

"لو عرفتم ماذا يجري في صدري، لو تركتموني مع أفكاري... – لم يكن يمثل أمام برقوق الذي يقول هذا، وقد أحاط به الأمراء، إلا الطريق الذي سيخرج منهم عَبْرَه. – السلطان الصغير المنحوس، وأنا أرعاه وأحرص عليه، رمى بنفسه في اللحظة الوحيدة التي غفلت فيها عنه من المئذنة قائلاً إنه سينتقل بروحه إلى الله تعالى بأقصى سرعة... أي فرحة لا ينتهي منها هؤلاء؟ في أقل من نصف سنة عايّنا جنازة السلطانين، الأب والابن. وبارچ؟ حين خطر له الأخير دون أن يعرف من أين قفز إلى ذهنه وجد لنفسه الكلمات التي يواسي بها نفسه: – ما العمل وإن أذنبت بحق هذا المسكين؟ وضعني في وضع حرج. أبّنته، بأمرٍ سلطانيٍّ، كما يؤبّن أعظم الناس. مرّ بي ليس مأتمان بل ثلاثة. الأمير منصور؟

وهذا لأنه كان مثل الأمير إسلام الذي يتظاهر بتهنئتي، قضى حياته ثمناً لاحتقاره الأديغة. ما ذنبُنا نحن؟ أكنتم تريدون أن نبقى مماليك عبيداً لكم إلى الأبد؟... " مهما كان قلب السلطان برقوق مُثقَلاً فقد قال للمجلس دون أن يبين عليه شيء:

– شكراً لكم أيها الأمراء الأعزاء على تشريفي بعلم الله تعالى بسلطنة البلاد. حمّلتموني حملاً ثقيلاً، ولكن سأحمله مهما كان ثقيلاً لأن الله تعالى يرعاني بعطفه.

"اسمع، اسمع ! صرخ الأمير إسلام في قلبه لأنه لم يسمع ما يريده. يقول "البلاد" ولاينطق باسم أصحابها المساكين. ولغته العربية ممزقة. أهي بلادك الشركسية التي تعيش فيها؟ هذه مصر! هذا يجب أن ندبر له مكيدةً ما قبل أن يستقر على الكرسي وإلا هلكنا على يده. أيُّ مصيبة شركسية تلك التي وقعنا فيها؟ !..." استغل الأمير إسلام الممتلئ قلبه غيظاً فرصة وقفة للسلطان، وسأل مشدداً على الكلمات الثلاث التي يريدها هو:

– بلاد مصر العربية ألا يعرف المنادون أن لها سلطاناً جديداً؟

– وأين البواقون؟ – سأل آخر.

– لا تدَعونا نفعل هذا في ظل وجود حِدادَين في البلاد! ولا تدَعوا الناس يقولون إننا اختتمنا الحداد بِعيدٍ! — لم يذكر برقوق الأمر الذي أصدره إلى المنادين والبواقين بعدم إذاعة الخبر بل أجاب بما رآه مناسباً، مُسمِعاً الآخرين. ولكني أريد أن نتغدى معاً دون أن يتخذ الطعام شكل مأدبة. حين ينتهي الحداد سأعيد النظر في ما لم أنفذه لكم. بما أنك أدرت اجتماعاً ثقيلاً أيها الكبير — توسل إلى الأمير فيصل — افتتحْ لنا مائدتنا بدعائك النفيس.

"أيّ مأتم، وأيّ حِداد؟ أيقيمون مثل هذا لمن ينتحر!... – الأمير إسلام يأكل وينفّس عن غضبه ببعض التقريع – بعدما طلبتَ من الولد الأهبل المريض الذي خلّفه شعبان أن ينصّب نفسه سلطاناً، ثم دفعتَه إلى الانتحار ترى كل ما تفعله لأجله مناسباً. هكذا يستطيع الغريب أن يمسك بزمام الأمور حين تقبل أن يدخل الغرباء بلادك، ثم تقدِّمُ هذا الغريب على أبناء قومك حاكماً، وهو لا يعرف شيئاً من عاداتكم وتقاليدكم. ألم يكن هذا راعي خنازير! هذا ماقاله لي المسكين بارچ. ألا تراه جالساً بكل هدوء وأدب وكأنه ليس سلطاناً. لم يدَعنا اليوم أيضاً ننتخب معاون السلطان. استطاع تطويعنا، متوداً إلينا، قائلاً " كان يسرني أن تنوّروني بمعرفتكم بعدما وقع اختياري على بضعة أشخاص أعجبوني". سيأتي من عنده بشركسيٍّ ما ولن يُبلِغنا المنصب. لو عاش المرحوم منصور لكان معاوناً جيداً. لا أعرف من سيرشِّحني، كنت سأوقظ أهل البلاد الخجولين الغافلين شيئاً فشيئاً عَبْرَ هذا المنصب. من أين نأتي أنا وهم بمثل هذا الحظ؟..."

اجتمع برقوق وفيصل بعدما انفضّت جلسة الأمراء. وكان برقوق الداعي:

– والآن أيها الزعيم المبارك أيمكننا التحدث بصراحة بلغتنا الأديغية؟ – بانت من صوته سعادتُه العميقة، سأل برقوقُ أكثرَ الأمراء احتراماً إليه.

– ألم نعد أديغة فلا نتكلمَ بلغتنا؟ – جزم فيصل باختصار، ثم نقض مازحاً كلامه: – ولكنك اعتباراً من هذا اليوم لم تعد أديغياً.

– ما الأمر؟ فوجئ برقوق بادئ الأمر فرفع رأسه دهشة، ثم سأل عما لاحظه:

– ألأني سلطان؟

– عرفتّ، لو كنت سلطان الأديغة وحدهم ما قلت لك هذا. هيه يا أديغي، هيه. أنت بائس أينما كنت. هذا ما كان يقوله والدي "شته أبش"[1]– مهلاً، لحظة، أيها الزعيم المبارك. ما سمعته عجيب. — أضاءت عينا برقوق الذكيتان — إذا كان الأمير شته أبش والدَك فالأمير وزدمر جدُّك. هذان كانا رجلَين حازمين. كانا أميرين في جيش بيباريس وقلاوون. وإن لم أخطئ فالأمير شته أبش والسلطان الناصر كانا صديقين في طفولتهما. ويروون أنهما افترقا في شيخوختهما. وإن صح الخبر فقد كانا يتنازعان السلطنة.

– ما قلته أولاً، وما أضفته، كلاهما صحيح يا موفد الله.

– أيها الزعيم المبارك — أسرع برقوق بالرجاء دون خُبث أو رياء — لا تخاطبني بـ "موفد الله" بل كما نتنادى نحن الأديغة بأسمائنا.

– يسعدني أنك أديغي، في صدرك قلبٌ أديغي — ابتسم الأمير فيصل بعينيه الهامدتين في وجه من نصبوه سلطاناً على مصر، وأضاف إلى ما قال بهزة رأس حزينة: – ولكني قلت لك: لم تعد أديغياً لأنك منذ اليوم سلطان على بلاد لا تُظلُّها شمسك ولا سماؤك.

تغير لون برقوق. وحين عاد الدم إلى وجهه اختلجت عضلة صغيرة تحت حاجبه الأيسر، ثم همدت. وتبددت التجاعيد التي اجتمعت في الجبين المجوف. وسأل في غمضة عين كمن لم يحدث له شيء:

– يبدو أني تخليت عن أديغيتي مقابل سلطنتي.

– ما أقصده بكلامي يا برقوق هو أن تنسجم مع من كُتب عليك أن تعيش بينهم.

---

[1] سبق التعريف به وبمعنى اسمه، وهو ابن الأمير وزدمر. ومعنى اسمه: ساعد السيف.

– نعم، نعم، أيها الزعيم المبارك. لم تقل لي شيئاً غير صحيح. ولكني لا أعرف كيف تصبح مثل من لستَ مثلهم. ها أنا قد مضى عليّ عشرون عاماً ألبس لباس الناس الذين أعيش بينهم، وآكل من طعامهم، وأتكلم بلغتهم، ولكني لا أفهم إلى الآن طبيعتهم البشرية، وطريقة حبهم لبلادهم. من الصعب الوثوق بهم، يقولون في حضرتك شيئاً، ويفعلون في غيابك غيره. يظلون متعلقين بأرضهم وبلادهم إلى أن يداهمهم عدوٌ، وحين يداهمهم ينسون تعلقهم، ويتبددون موكِلين إلى المماليك مهمة التصدي لهم. أو يبيعونك بقطعة نقد ذهبية بكل بساطة.

مع أن برقوق كان يتكلم من قلب الأمير فيصل المشحونةِ حياتُه بالمشقة والآمال، ورفْضِ الإهانة، والرجولة فلم يكن يسرّه أن يكون لدى السلطان مثل هذا الجفاء المكشوف نحو أهل البلاد: "لا أقول إننا عشنا في ظلهم لم يُجشّمونا العناء، ولم يُهينونا، ولم يخونونا، ولكن ألا نقيم في بلادهم ونمشي على أرضهم، وتشرق علينا شمسهم، وتُظِلّنا سماؤهم؛ فما الذي جرى حتى لا نحمل أي عاطفة دافئة نحوهم؟ ! حارب أبي وبرقت من أجل البلاد التي ليس قلباها فيها وهما يقولان الكلام نفسه. ورهنا روحيهما لها، وآلاف المماليك عملوا عملهما. جدي وزدمر وبرقت وغيرهما من المماليك جيء بهم من بلادهم أطفالاً غير أن أبي شته أبش وسلامش وآخرين ولدوا هنا، وتلقوا تربيتهم. أيُّ قلب أديغي لا ينضب كان عندهم! وأنا لست بلا قلب أديغي، ولا يندر أحياناً أن أنحاز إليهم وأُحابيَهم. وأحياناً يهيج قلبي الأديغي، ويُخرِجني عن طوري، ولكني لستُ أعمى فلا أرى نهضة العرب أهل البلاد. لست عديم الملاحظة. في السنوات الخمس – الست الأخيرة نما برقوق جسداً وقلباً. الجسد ليس مشكلة غير أن ما يجري في القلب... هذا لا يجوز "

– لا أظن أحداً دون نقص أو عيب – قال فيصل بحذر، واختتم بصوت أرزن:
– إن سمعت نصيحتي فلن أقبل أن تصف القوم كلهم بهذه الصفات. خرج من بين العرب حكماء وقادة جيوش شجعان. والنبي مُحَمَّد طوّع العرب كلهم وحده، وغرز فيهم معرفته. ولا تتخيل أن لم يكن له أعداء كثيرون، وأنه لم يخض حروباً كثيرة، وأن حلفاء كثيرين لم يتخلّوا عنه ويحاربوه مع أعدائه، ويوصلوه إلى حافة اليأس.

– لم يتراجع مهما تصرف معه الناس وعاملوه – اختتم برقوق كما يريد موافقاً الأمير – نحن المماليك نحمي لهم الإسلام الذي غرسه فيهم. أهذا صحيح؟ بيباريس وقلاوون، ومن سبقهما ومن لحقهما لم يخرج من هؤلاء الذين يكلفوننا بحمايتهم سلطان صالح. ولا أظنه سيخرج من بين من سيأتون بعدي. لا أعرف كيف تعيش دون أن تعبأ بمصير القوم ودفع الإهانة . سأسألك إن كنت ستسامحني أيها الزعيم المبارك: أيمكن أن يتعايش الصدق والخيانة، والرجولة والجبن؟

ضحك فيصل ماسحاً براحته لحيته البيضاء الخفيفة المحلوقة حديثاً:

– يمكن أن أسألك بدوري: هل يتعايش النار والماء، والجليد والحر؛ أسمعك يا برقوق.

– إن كان هذا رأيَك فسأعتبرك أجبتني لأن سؤالي يدور حول بطولة جدك وزدمر، وخيانة سنقر. ولكن لا أظن الأديغة قالوا عبثاً: "حفنة من تراب الوطن الذي ولِدت فيه خيرٌ من جبل من الذهب في أرض غريبة"، ومن كان السبب في قولهم هم أمثالُنا من الفقراء التعساء... – زفر برقوق السلطان على أول يوم ثقيل من حظه السعيد، وأجاب إجابة أملٍ على الأمير الذي قطع عليه فجأة يوماً من الأيام طريق عودته إلى بلاده – لا داعي لليأس أيها الزعيم المبارك.

نجونا من أزمات كثيرة، إن كنت سأحظى بدعم أمثالك ووقوفهم إلى جانبي، فلن أدعكم، ما دمتم شرفتموني بالسلطنة التي لا أستحقها، أنتم وكلَّ المماليك الآخرين تنصرفون من عندي محبَطين مما تطلبون.

– لسنا وحدنا — توقف الأمير فيصل وقفة قصيرة كي يُفهِم السلطان ما يريد — وأهل البلاد أيضاً — ثم فصّل: – والبلديون الذين نصّبوك سلطاناً عليهم. إن لم يقفوا معك دخلتِ البلادُ في الفوضى. وزاد عدد من يتآمرون عليك. أعرف ما تريد قوله: أتريد أن تقول: لا سُلطة في بلاد لا رهبة فيها؟

– هل ما تسأل عنه أيها الزعيم المبارك بدأ مني وسينتهي بي؟

– حياك الله، أنعشت قلبي. إن كنت سألت هكذا فسنتكلم الآن بصراحة أكبر. ربما لا تتطابق أفكارُنا. سأقول لك ما في قلبي نحوك بالضبط لأنهم يقولون: من الاختلاف يأتي الاتفاق.

– وهذا ما كنت أريده، ولأجله دعوتك في أول يوم من سلطنتي.

– إذن سأعود إلى ما تسببتُ به في الضرر لك — بدأ فيصل كلامه الصريح بالمزاح ــ وسأنتهي بالقليل من فائدتي التي بدت عليك. أنت وأنا، مع أن كلاً منا ولِد في بلد غير بلد الآخر، ولا يعرف أحدنا الآخر، فقد اجتمعنا بفضل الأسد المفترس. فإذا كان في تركي لك الحرية دون أن أقول لك "افعل هذا، لا تفعل ذاك" دورٌ مؤذٍ — مفيد إذ غيّرتُ طريقك، وصرتَ سلطاناً على مصر، فلا تدعْنا الآن نعيد الكلام في ما كان الله كتبه لك. ولكن كنت أريد أن تمتع الناس بحياتهم دون أن تخطئ لأن الله يختبر في دنياه العارية كل الناس بالتساوي.

– هذا غيرُ ممكن! — حسم برقوق مدفوعاً بشبابه وحميّته — بعضُهم راجل والآخر فارسٌ، بعضهم مملوك والآخر حُرّ.

– يجب أن نرضخ لهذا لأن الله كتب على كل إنسان مصيره. ما أقصدُه أمرٌ آخر: أقصد ألا يكون في البلاد تمييز بين أديغة وعرب وترك وكرد ويهود.

– ألا ترى أيها الزعيم المبارك كيف تصرفت معنا جماعة الأمير منصور ونحن ننصّب علاء الدين علي سلطاناً؟ ليُحلّه الله حيث رحل منزل راحة، كان الأمير منصور ينغّص علينا حياتنا محرضاً أبناء قومه علينا. – قال برقوق وكأن غيره هو من أمر بقتل منصور، واختتم دون الترحم على صديقه – من أين آتي الآن ببارچ المسكين؟ أكان الأمير إسلام تعامل معي بوجود بارچ كما فعل سابقاً.

– لم أر اليوم خطأ في سلوك الأمير إسلام. – استغرب فيصل ما سمعه.

– لم تر لأن الأمير الشركسي وضع له حداً أمس وأول من أمس. أنت لا تعرفهم أيها الزعيم المبارك؛ هؤلاء القليلون من الأمراء المحليين الذين بقوا في المجلس الاستشاري مستعدون أن يعدمونا واحداً واحداً في باب زويلة. يكرهوننا إلى هذا الحد.

– أنا أعرف هؤلاء جيداً – ضحك الأمير العجوز بصوت متمزق، وأنهى كلامه: – غير أني أستغرب ما تتوقع أن يفعلوه بنا.

– لماذا؛ ألا تصدّق؟

– نحن نستحق أيّ شيء يتوعدوننا به لأنه لم يبق من هؤلاء في مجلس مصر إلا ستةُ أمراء. إن أردت أن تمد جذورك في غير بلادك، وأن تحملهم على تقبُّلك، فاختر من بين الأمراء العرب معاوناً لك. ارتحتُ لعدم استعجالك اليوم على هذه المسألة. لو كنت واثقاً أنك ستسمعني لطلبت منك اختيار الأمير إسلام الثرثار معاوناً.

– أتريدني أن أُردف الأمير إسلام على حصاني! – لم يطق برقوق الانتظار – ألم تسمع القول الأديغي المأثور: من تُردِفه يحتل مكانك على الصهوة؟

– سمعت.

– ماذا إذن أيها الزعيم المبارك؟ – لان الآن صوت برقوق.

– سأقول لك ما كان يعلق به والدي وبرقت: لن يضرّك أيٌّ تردفه إذا كانت قدماك ثابتتين في الركاب، وسرجك متيناً، وتتحكّم في زمام الحصان.

– وأنا سمعت المرحوم والدي مرة يقول هذا — تنهد برقوق تنهيدة مؤثرة في نفسه على ذِكرِ والده — متى سمعت هذا؟ ربما كان عمري سبع سنين... والآن أترى أيها الزعيم المبارك ما تحقق لي في بلاد الغربة. ربما فهم آلهتي أني كنت أعيش لا أعرف إلا ربي فكافؤوني على ما قاسيت من مشقات.

– أيُّ آلهة تأتي على ذكرها يا موفد الله؟ ! – ارتعب فيصل لِما سمع، وقطع الكلام المشحون بالرياء وبالصدق الذي كان يقوله برقوق لنفسه، ونصحه بحزم:

– لا إله عند العرب المسلمين إلا الله. لا تنس هذا! ربما يصف العربُ المماليكَ بأنهم من دون إله لأن أحدهم قال عفواً مثل هذا الكلام. نعم، نطقتَ دون إرادتك! — أنت منذ اليوم موفد الله العلي العظيم. قل آمين. ولنقرأ معاً "قل هو الله" بعين جامدة ورأس مطرق!

سأل برقوق حذراً بعدما قرأا سورة الإخلاص:

– أيمكن لي أيها الزعيم المبارك أن أتكلم على فكرة من أفكارك لم يقبلها عقلي؟

– أسمعك، وأنتظر جوابك على ما قلت لك بشأن الأمير إسلام.

– إذن سأبدأ ما لا أقبله. لم نأت إلى هنا لنثبّت جذورنا في غير بلادنا، ونحمل العرب المسلمين الذين لقبونا بالمماليك على أن يتقبلونا، ونحبِّبَ أنفسَنا إليهم. أيدينوننا لأننا حمينا من جهة الشرق ومن جهة الغرب مَن لم يتفهّموا طفولتنا، وحرمونا بلادنا، يدينوننا على أننا استولينا على الحكم الذي استعصى عليهم

تثبيته؟ ليكفّروا عن ذنبهم أمام الله لأننا نحن بريئون! لن يكون من سياستي التمييز العرقي ما دام الممالك متنوعي الأعراق. وسأفتح قلبي وباب سلطنتي لكل من يسكن البلاد حسب تقاليد الحكم القائمة. وإذا كان هذا رأيَك في الأمير إسلام فسأطيعك في هذا طبقاً لما يقولون: طرف السوط يحجز الهواء وراءه. وفي شأن قيادة الجيش لا تشفع لهؤلاء. لا ثقة لي في الجبناء المتنافرين.

– شكراً لك على أنك لعبت معي لعبة الطميمة — نهض فيصل راضياً بعدما ضرب براحتيه فخذيه كمن لم يتجاوز الستين.

– وأنت أيضاً شكراً لك على أنك لم تكتمني ما في قلبك. لأجل هذا كنت أود استشارتك قبل أن أركب الطريق. ألا يقولون: رأسان خيرٌ من رأس واحد. لو لم تكن تقيم بعيداً لتجالسنا وتشاورنا أكثر.

– سأحلّ لك هذه المشكلة بسرعة إن وافقت.

– وكيف؟ – سأل السلطان برقوق بعينين صافيتين وقلب بريء محدّثه.

– ألا يكفي أني بسبب جفاء السلطان شعبان — ليجدْ راحته حيث حلّ — أقيم في دمشق منذ سنين؟ أنا هرِمتُ، وفات وقتُ تقاعدي. وأسرتي تفضل القاهرة على دمشق. وأولادي ولدوا هنا وأقاموا. ولذا حضِّر محلي أميراً ممن تثق بهم.

– إن كنت قررت هذا، وسنقيم في مدينة واحدة، أيها الزعيم المبارك، فلماذا لا أقبل؟ – قال برقوق ونفبسه تتمثل لعينيه — لن أنسى ما قدّمتَ لأجلنا أنا والمرحوم بارچ حين وقعنا في أزمة صعبة. وأنا سأفكر في أمير موثوق. ولن أتجاوز من ترشحه من الشام.

– وأنا أعرف مثل هذا الأمير الرزين ولكن إن لم تقبل...

– لا، لا – قاطع السلطان كلام الأمير – إن كان من أهل البلاد فلا تذكره لي. انتظرْني شهرين أو ثلاثة أضعْ مكانك أميراً لن يحرجك مستقبلاً. وبإمكانك إرسال الأسرة إلى هنا مقدماً. وسأرعاهم أنا.

– الأسرة هنا منذ بعض الوقت، لم أستطع إيقافهم حين سمعوا أن السلطان شعبان فارق الحياة.

– كيف لم أعرف؟ – لم يستطع برقوق أن يكظم لومه ونفبسه تتمثلُ أمام نظراته الحارة.

– لم أشأ إزعاجك في ذلك الوقت يا برقوق وأنت مشغول بالسلطان المتوفى لأن وريثه المغفل الصغير جلب العار للبلاد كلها. والآن بعدما سمعت أخبار أسرتي سأعيش القليل الباقي من عمري في دمشق مرتاح البال، وباب بيت الأسرة مفتوح لك لأنك لست غريباً... – خرج الأمير فيصل من الغرفة وما خجل أن يقوله للسلطان بشأن ابنته بادٍ على وجهه.

******

جاء رئيس الحرس الشركسي مرة أخرى إلى السلطان الذي لم يعتدْ بعدُ على السلطنة:

– منذ ثلاثة أيام يا موفد الله يأتينا شخص عنيد، نطرده فيعود، لا يتركنا نرتاح.

– وماذا يريد؟

– لا أعرف، يريد مقابلتك.

– حسنٌ أن يلتقي شخصان؛ دعوه يقول السبب!

– لا يقبل. يدعي أنه كان من معارفك.

– كان عندي معارف كثيرون؛ ما اسمه؟

– يتكلم على حصانٍ ما، يقول أنا دروز. لابد أنه من دروز الجبل.

– هل قلت دروز؟ – نهض برقوق لما تذكر الراعي الشاب – أرسلوه الآن حالاً.

نظر دروز في عيني السلطان بعدما دخل بقامة ممشوقة قوية وكأنه غيرُ الراعي الصبي الذي التقاه قبل سنين.

– هل تذكّرتني يا موفد الله؟

– وكيف لا أتذكرك يا دروز؟ لا يزال طعم جبن الغنم على لساني.

– شكراً لك، سررتني. ولكني سأختصر سبب زيارتي يا موفد الله. الدقيقة بالنسبة إليك يوم كامل. أرسلني أبي قائلاً: تولى شركسي اسمه برقوق السلطنة في مصر هو أحد اثنين أعطياك حصاناً، ولا يستبعد أن ينفعك اليوم. غير أني لم أحظ بتعامل إنساني من حراسك. لا، لا، لا أريد أن تعاقبهم من أجلي. هؤلاء يؤدون مهمتهم. وربما تصرفت مثلهم لو كنت مكانهم. ولكن لا يجوز نسيان طيبة السلطان الذي تحرسه. ولو لم أكن أعرف هذا بنفسي فيك لهان الأمر يا موفد الله.

– صحيح، الإنسانية فوق كل شيء – لم يخطئ برقوق حين ضحك في سره إذ كان يخمّن أن وراء هذا المديح طلباً مع أنه كان يوافق الضيف.

– هذا هو يا موفد الله أكثرُ ما ألحّ عليه الوالد، لا أكتمه. إن تبين أن السلطان هو برقوق الذي تعرفه فسانِده دون اعتبار لكونه شركسياً. وحافظ على الصدق في تعاملك معه.

– أقال لك والدك "دون اعتبار لكونه شركسياً "؟ – تأكد برقوق من الكلام مستغرباً.

– نعم، قال لي. أتظن أهل البلاد يحبون الشراكسة؟

– لم أسمع منذ زمن بعيد أصرح من هذا الكلام – وفيما يقول برقوق: في هذا الشاب شيء من الخبث والكذب لا أحبه، ولكن لا يخلو من الرجولة، سنرى كيف سيتصرف معنا في النهاية، صاح لنفسه، وامتدح الضيف – إذا كنتم قادرين يا دروز على انتقاد السلطان هكذا فأنتما، والدك وأنت، تتحليان بالرجولة. لماذا نحن واقفان أيها الأمير الشركسي. جهزوا الطعام لضيفنا.

XIV

رغم مرور ثلاث سنوات على عرس برقوق لم ينسه ليس سكان القاهرة فحسبُ بل القادمون من دول حوض البحر الأبيض المتوسط ضيوفاً ومهنئين، والتجار العاملون على طريق الحرير أيضاً. ولكن من لم ينسوا أيام فرح السلطان السبعة يجدون الآن ما يقولونه وما يتهامسون به: كل هذا الاحتفال ولم يُرزقا بولد. من المسؤول؟ السلطان أم السيدة الأولى؟ ويتبع هذا السؤالَ سؤال آخر: ماذا ينتظر السلطان؟ لماذا لا يتزوج كما يسمح القرآن من ثانية وثالثة...؟

ومع أن بعض الأقاويل كانت تبلغ مسامع برقوق فلم يكن مهتماً بذريعة أن أمامهما متَّسَعاً من الوقت. وكانت نفبسه هي المهمومة بالأمر. مضى نصف العام الأول دون أن تشعر كنصف نهار. ولم تكن تجهل أنها حين تؤسس أسرة يجب أن يتخلّق في رحمها جنين. ولم تكن تهمل العناية بنفسها. ولكن بعد مرور سنة بدأت تفكر في ما تشتهية كل امرأة، وبدأ الأمر يُحزنها، ويتحول إلى همّ، وتُجهش بالبكاء ولو أنها تتصبر في حضرة الزوج. وأحياناً تكمّ فمها بالمخدة الصغيرة فتطلق العنان لبكائها. ومتى نفّست عن كربها تتذكر ما كانت الأم قالته لها:

– لا تُفني نفسك يا ابنتي! ربما لستِ المسؤولة. بين الرجال أيضاً من لا ينجبون.

– برقوق ليس من هؤلاء! — لم تقبل نفبسه ما لُمِّح به بشأن زوجها.

– ولماذا تجزمين؟ لا يعرف هذا الأمر سلطاناً وغير سلطان. والصهر لا يقول شيئاً؟

– لا، لا. لا يجعلني أرتاب في شيء.

– عجيب...

– ماذا؟ خطفت نفبسه نظرة في وجه أمها.

– لا ترتعبي!، أقول هذا لأنه لا رجل يزهد في الولد. – حاولت الأم تمويه كلامها غير أنها أيقظت وعي ابنتها – لا تشْكي إلى الزوج أنك لا تحملين، لمّحي له إلى أننا في أسرتنا لا نعاني من هذه المشكلة، واستجوبيه بهدوء من ناحية أهله هو.

– اسكتي يا نان! – تجرّأت نفبسه على أمها بصوت حاسم غير مألوف – برقوق فوق هذا.

– حسنٌ أن يثق أحدكما بالآخر إلى هذا الحد يا ابنتي – ليس لك في الدنيا من يفهمك ويحبك أكثر مني. من الصعب أن تحببي نفسك إلى الزوج إن لم تلدي له طفلاً حتى لو حملته على صدرك. لستُ صاحبة الفكرة هذه بل مآسي الحياة. يا إلهي ما أشد تشابه الأب وابنته! لا يسمحان لك بالتدخل في شؤونهما. لو أطاعني والدك في عهد السلطان السيء الذكر شعبان لما عشنا في الشامِ مستودعِ الغبار كل هذه السنين. والآن وجب إغلاق أفواهنا بكون السلطان صهرنا. إن كنتما متفاهمين فمن أين آتي بفرحة أعظم منه. ولكني لن أقبل منك أن تجعلي من نفسك ممسحة لرجليه لأنه سلطان. أعجيب أن يكون سلطاناً! ووالدك ليس منصبه متواضعاً. كانت سورية بكاملها في قبضته. فلا تتصاغري!

– نان ! نطقت نفبسه بالأديغية ثم أكملت بالعربية: – يا أمي لا تدَعينا نتكلم في موضوعات لا حاجة بنا إليها.لا تأثمي بحقنا.

– نعم، نعم. ليحبَّ أحدكما الآخرَ! ولكن لا تنسَي ما قلت لك! موضوع الخلفة الذي كانت يُقلق الأم وابنتها لم يكن يفكر فيه برقوق فكان يشتاق للزوجة وإن رآها في النهار بضع مرات، وبعد مُضيِّ سنة فحسب فكر فيه

لأول مرة. ظل برقوق يقول مشغولاً بشؤونه السلطانية: وهل السنة وقت طويل يستحق الحديث؟ ! فمرت بضعة أشهر أخرى. وفي وقت متأخر من إحدى الليالي، نظر إلى خصر نفبسه الدقيق التي كانت تخلع ملابسها، فقال لها بلطف:

– الليلة أنت في حالة غريبة يا حبيبتي.

– لا، لا، يا شبيه روحي. انتظرتك طوال النهار. لا أعرف لماذا تقول هذا.

– وكيف لي أن أعرف... يُخيّل إليّ أني لم أعد أرى في عينيك نور القمر القادم عبر النافذة. لا تُحمّلي نفسك وحدها المسؤولية.

– من يستطيع أن يسيء إلى قلب امرأة السلطان! تسللت نفبسه متمازحة إلى تحت لحاف الزوج الحريري الرقيق. والتقت أذرعهما الناعمة وشفاههما. وحين ارتوى العاشقان فهدأ تنفسهما وبرد جسداهما توسّدت نفبسه صدر زوجها ودعت إلى الله: – يا إلهي سأدعو إليك غير خجلة من الزوج الذي منحتني إياه شريك حياة وأملاً فارحمني واعطف عليّ وافهمني. حقِّق لنا اليوم ما لم يتحقق إلى الآن. لا تتركنا في دنيانا الفانية نشتهي الأولاد!

حملت الكلمات غيرُ المنتظَرة والدموعُ التي انسكبت على صدره برقوقَ على الجلوس في فراشه. وكمن يخجل من نور القمر المنسكب من النافذة لفّ الجسدين العاريين باللحاف،.وبعد أن جلسا مدة لا يسمعان إلا صوت أنفاسهما خرق الزوج هدوء الغرفة:

– بارك الله في فمك يا حبيبتي! سينظر إلينا الله بعين العطف ويفهمنا. أنا واثق منه أن لن يتركنا نتبادل النظرات وحيدين. ويسعدني أنه هو موئل أملك أيضاً — توقف برقوق قليلاً ثم أكمل مالئاً صدر زوجته بالأمل — ليست السنة مدة ذات بالٍ يا نُوْري. هي اثنا عشر شهراً. والشهر ماذا؟ ثلاثون يوماً فحسبُ.

أربعة أسابيع ويومان. أنتِ لا أعرف شعورك، أما أنا فيخيل إلي أن عرسنا كان البارحة.

– وأنا أيضاً – وافقت نفبسه الزوج، غير أنها لم تكتم ما كانت تريد – ولكن لم أستطع أن أجلب لك الحظ السعيد.

– مهلاً، مهلاً – قطع برقوق همّ زوجته متظاهراً بالمزاح: – أنا أم أنت من لم يستطع هذا؟

– يا ليتني أعرف – أسرعت نفبسه متذكرة كلام أمها.

– إن قلت هذا يا حلوتي فسأعتني بك الآن من أجل ألا تهتمي بما لا تعرفين... – ارتمى برقوق في الفراش دون أن يُفلت خصر المرأة.

– يا روحي الوحيدة، لا تقل لي هذا، أنت تخجلني... – مدت نفبسه شفتيها الحمراوين إلى زوجها وهي تهمس في أذنه. فالتصقا من جديد بجسدين ملتهبين.

يبدأ الحب بين الزوجين، وإن كانا يعيشان روحاً واحداً وقلباً واحداً، حين لا يأتيهما الولد في خلال سنتين أو ثلاث، ينطفئ شيئاً فشيئاً كنار موقد. وبرقوق ونفبسه يحميان حبهما، لا يسمحان لأحد بالتدخل ولكن من سيتدخل قولاً وفعلاً ومن سيرتب أمورهما كثيرون. ثم إن من الصعب معرفة الجهة التي سيصدر منها مثل هذا.

يعود برقوق ومعاونه الأمير إسلام الذي أُجبر على قبوله معاوناً له من مصر العليا التي داهمها فيضان النيل. زار السلطان شخصياً القرى التي تضررت من الفيضان، وواسى الفلاحين المتضررين، وأوصل إليهم الدفعة الأولى من التعويضات، وأخبرهم أنه سيُصدر أمراً بإعفائهم من الضرائب ثلاث سنوات ريثما يعوضون خسائرهم. وأوصل رحمته وطلعته الدافئة إلى الجميع. وكان يمسح

على رؤوس الأطفال الذين يُهرعون لاستقباله، ويدس في أيديهم بعض النقود، ولا يسمح لحراسه أن يفرّقوهم.

بشّ إسلام المعاون في وجه سلطانه وإن كان يقول في قلبه: "انظر ماذا يفعل هذا !كيف يستميلهم؟...":

– أمتك يا موفد الله تحبك. أنا سعيد بهذا، وأفرح لك.

– إن كان هذا رأيك، وكان العرب يحبونني فأنا سعيد – أجاب برقوق معاونه وهو يحدّث نفسه "لم تدّخروا جهداً من أجل ألا يحبوني، قلتم عني: كان راعي خنازير، دون إله، لم يُخلق على الأرض أظلمُ منه"، ثم مدح نفسه من أجل إغاظته مرة أخرى: – مضى عليّ بضع سنوات على كرسي سلطان مصر لم يقل العرب خلالها عني ما يعيبني. ولم يبلغني أنهم ميزوا بين أعراق الناس. لا أظن أن للسلطان فرحةً أكثر من فرحته إذا انتشر السلام في البلاد، وعاش الناس متفاهمين فيها! لهذا أنا لا أقبل كلام أي إنسان.

– نعم، صحيح بالتأكيد يا بديل الشمس. كل شيء بأمرك وبعلم الله تعالى وفعله. لن ينسى فلاحو مصر العليا الذين كنا عندهم قبل أيام ما قدمته لهم. منذ أن تبادلنا الثقة قبل سنين، وصرت معاوناً لك، أسجل لك كل يوم أن رحمتك وإنسانيتك ومعروفك بلا حدود.، وأرويها لمن لا يعرف. وأحسّن صورتك لمن يعرفك. – رغم أن معاون السلطان لم يكن فمه يتسع لمديح السلطان، وما في قلبه غيرُ ما على لسانه. فقد أضاف لنفسه: "تجرّني معك أينما سافرت، تجد مئة ذريعة كي لا تتركني وحدي في القاهرة من أجل ألا أكلّم الأمراء الذين عزلتَهم من مناصبهم، ومن أجل ألا تجعلني أتخذ من أبناء قومي الشباب الذين يرفعون رؤوسهم أعواناً. وآذان جواسيسك مفتوحة عليّ"

– لا تنس من قلتَ إنهم لن ينسوني ممن داهمهم الفيضان، وأن المأساة علّمتهم الضعف والتوسل. وهؤلاء؟ الناس الذين استقبلونا هنا نهارُهم صاحٍ، وليلهم هادئ؛ فمن منّا نحن الاثنين متشوقون لرؤيته؟! – عاتب االسلطان معاونه الذي كان الرياء يقطر من كلامه، وأجاب على سؤاله المازح الساخر: – أظنك أنت.

– لا، ياموفد الله، لا تنعتني بما ليس فيّ؛ والله لن يقبل به. ولن يفهمه أناسك الذين أوفدك إليهم. من يقدّم هؤلاء فرحهم ونواياهم – آمالهم له هو أنت. وشمسهم وقمرهم هو أنت.

– لا تصوّرني أمام أمتي بهذه الحجة خالياً من العيوب ومن الخير – توجّه برقوق إلى من أخّر نفسه عن السلطان بمقدار رأس حصان، قائلاً في نفسه "سأعرف ما ينوي لي على حقيقته هذا الذي صار اليوم ثرثاراً معي" – والشمس والقمر لا أظنهما بلا عيوب.

– لو لم يكن فينا عيبٌ ما – "إن وصلتَ إلى هنا فعندي ما أرد به عليك" – غضب إسلام في نفسه – ما كان الله سبحانه وتعالى اختبرنا في دنيانا الفانية. أنت بما أنك موفد الله، لستَ من هؤلاء. ولكن لا تؤاخذني سأبلغك شيئاً من أحزان – هموم أمتك – همس للسلطان كي لا يسمع الحرس الأمامي والحرس الخلفي، وحين أُبعِد الفرسان غير الموثوقين أضاف بصوت أشد رياء – لن أخفي عنك يا موفد الله بديل الشمس، سأُطلعك على حقيقة الأمر، ولو لم يكن يُقلقني لما أخبرتك. "ما الذي لا يستطيع قوله يا ترى؟ – داخلت الهواجس قلب برقوق. – أيّ حزنٍ – همٍّ عند الناس نحوي، ولا أقبله منه. لا يجوز رفع الكلفة مع هذا الرجل. ينوي أن يتخذ من نفسه موضع ثقتي لأني مزحت معه قليلاً. إكراماً للأمير فيصل، ولأجل إسكات أبناء قومك ضممتك

إلى حاشيتي، ولن أسمح لك بالتقرب مني. ولا تظن أني لا أفهم تقلبك. ومن هم أحسنُ منك – يلبغا، منصور، بارچ، وغيرهم من الأمراء – شتّتُّهم. هيه يا بارچ، ياصديقي المسكين، لو أطعتني لسلّمتك منصب هذا الكذاب النمّام... برهنّا أنت وأنا في بلاد الغربة صِدْقَ مقالة والدي: لا يمكن لأديغيين أن يُربطا إلى سارية واحدة..." حين صحا برقوق من أفكاره بزفرة عميقة، استعجل المعاون:

– ليست مسألة تتعلق بالبلاد أيها الملك الظاهر سيف الدين برقوق.

– ماذا إذن؟ – لم يدعه يكمل الكلام صائحاً – قل دون أن تلف حولي.

– لأنه موضوع أُسَريّ يا موفد الله – بدأ معاون السلطان مبرّئاً نفسه، وتشفّى ممن صرخ عليه، كمن يقول: ليحدثْ ما يحدثْ! – ولكن إذا وجب قولُ الحقيقة كما هي فهو موضوع يهمّ البلاد أيضاً: منذ بضع سنين أسستم أسرة، والناس قلقون من أنكما لم ترزقا بمن يمدّ في سلطنتكم.

– أهذا ماكنت عاجزاً عن قوله؟! – مع أن السؤال أحرق صدر برقوق فقد مزح مع معاونه كما كان يفعل مع نفسه: – وهل ثلاث سنوات زمن طويل؟ ليست إلا ستة وثلاثين شهراً، وبالقياس إلى ما مضى من عمرك فليس ذا بال. أدعو الله ألا يرسل علينا هماً أكبر عليك وعلى أمتي من هذا. نحن سنتدارك الأمر بطريقة ما... الحقّ يا إسلام ما أسرع ما بدأتم تحفرون حولنا من ناحية الأسرة! – تظاهر بأنه يلومه.

كان القول المأثور"بيت بلا طفل بيت بلا حظّ" يطفو على سطح الذاكرة أحياناً رغماً عن برقوق، ولكن لم يحدث أن حمّل نفسه المسؤولية ساعة واحدة. غير أنه حين رأى في أحد الأيام جِلستها الحزينة ارتعب جاهلاً السبب. وقال ملاطفاً المرأة التي نظرت في وجهه دون حماسة زائدة:

– قولي لي يا حبيبتي إن كان هناك ما يُقلقك.

– يا روحي الوحيدة، يُغنيني أني في كل شهر لا تستطيع أن تخيط لي حزام مهد طفلي في الوقت الذي أتمنى أن أكشف لك انقطاع عادتي الأنثوية الشهرية.

– أيّ حزام مهد؟ – لم يفهم برقوق تورية امرأته فلما سألها صحا على تفجُّر حزن نفسه وغضبها لعدم إدراك برقوق المغزى — أهذا ما تقصدين؟ – ولامها بصوت أهدأ من سابقه وكأن الموضوع غير مهم لديه: – ظننت أنك تخفين عني أن أحداً أساء إليك فسبّبَ لك الحزن.

– لو كان أحد أساء إلي لكان أهون من أن نصبح بعُقْمنا مُضغة في أفواه الناس... ليس الولد مشكلة كبيرة لي أنا، ولكنك أنت من تتدمّرُ حياته معي. وحتى دون هذه المشكلة ليس من يحفرون لك قليلين. أفكر أن أجمع أشيائي وأعود إلى بيت أهلي ولكن والدي لن يقبل مني قائلاً: تركتِ زوجك وحيداً بين مُبغضيه وهربت إلى بيت أهلك.

عبر برقوق مصاعب كثيرة منذ أن بقي صبياً وحيداً إلى أن صار سلطاناً على البلاد. ولكن مضى زمن طويل لا يذكر فيه موقفاً ثقيلاً مثل موقف اليوم. ليس سهلاً أن تكون سلطاناً على من يضمرون لك الخير ومن لا يضمرونه، ومن يتصيدون أخطاءك ومن لا يفعلون، ومن يغبطونك ومن يحسدونك. حين يبدأ جفاء بين الزوجين المتحابَّين تصعب معالجته سواء كنت سلطاناً أم ملكاً بل نبياً. لم يكن يدخل في حب برقوق ونفسه جفاء من هذا القبيل ولكن كلما حمِيَت المسألةُ كان موضوع الطفل الذي يُحرقهما يُبعد بينهما. عاش في العالم كثير من الأسر ليس فيها إلا الحب بين الزوجين ومع ذلك عاشا في هناء؛ فلماذا إذن هذا القول المأثور "بيت بلا طفل بيت بلا حظّ"؟ هذا هو السبب

في أن يطفو على سطح مشاعر برقوق هذا القول شاء أم أبى. وهذا هو السبب في أن نفبسه يُحرقها حبها.

– إن كان والدك سيقول هذا – انتشل برقوق نفسه من هواجسه ومزح مع زوجته – فكيف ستتصرف معنا والدتك؟

– لو كنا نحن النساء كالرجال... – تنهدت نفبسه ولم تقطع حديثها – قالت لي لا يخالفْ زوجكِ ما يسمح به الإسلام للرجال.

قفز برقوق برأسه من الجواب غير المنتظر ولكنه سأل الزوجة ببراءة:

– إن كان رأيُ حمي هذا أيضاً فلماذا لم يتزوج هو من أربع نساء كما يقول القرآن؟

– ليس عند الأديغة مثل هذه العادة! – أسرعت نفبسه بالجواب.

– أليس الأديغة مسلمين؟ – ابتسم برقوق.

– نعم مسلمون ولكن ليست فيهم مثل هذه العادة – لم تغير نفبسه موقفها.

– ألستُ أديغياً حتى تدفعوني إلى الخطأ، لماذا تلاحقونني؟ – سأل برقوق الآن الزوجة بصوت أنعم.

– أعرف أنك أديغي حقيقي. ولكن ألستَ مع ذلك سلطان مصر؟ كل العيون عليك، تلاحقك، تختبرك.

– وربما ليسوا قلائل من يقولون: متى سيعثُر هذا الرجل، ومتى سيسقط من صهوة حصانه؟ – أيّد برقوق رأيها، وأنهى باختصار – ولكن تأكدوا أني لن أفعل ما تلمّحون إليه. حين أُعجبتُ بك، وأحببتُك مستبعِداً بارچ المسكين، لم يكن في ذهني امرأة أخرى غيرُك.

– وأنا لم أكن أعرف أنك ستصبح سلطاناً... والآن انظر ما يحدث لنا! سلطنتك تفرّقنا.

– كفى، لا تُسمعيني هذا الكلام! – ضم برقوق المرأة بقوة وتودد إليها معتذراً.
– إن أردت تخلّيت اللحظة عنها.
– لا، – انتزعت نفبسه رأسها الصغير المتطاول من صدر برقوق، – لن تفعل هذا. وإن فعلت فلن أقبل منك. ولن نسمح لمُبغضينا أن يشمتوا بنا.
– لماذا إذن تُفنين نفسك؟
– أريد أن تكون سعيد الحظ – جزمت نفبسه مرة أخرى على نحو أشد اختصاراً – إن كنت تريدني سعيدة فحقق لي ما رجوتك من أجله.
– لا تصبح الزوجة الأولى سعيدة مع الثانية والثالثة... إذا كان أعداؤنا يتهامسون لافتقارنا إلى الولد فلا تدَعينا نستعجل، ما يزال الوقت متسعاً.
– أنا غيرُ مهتمة بما سيقول كارِهونا – تغير لون نفبسه، وقوي صوتُها – أهتم لأن السلطان محروم من الخلف. وإن كان موضوع الحظ السعيد الذي تحدثت عنه – لا تسخر مني – فلا أكتمك ما في قلبي: ليس في العالم امرأة تُنسيني حبي لك ولو دخلت بيننا امرأة أو اثنتان أو ألف.– بعدما نفّست نفبسه عن كربها هوت كتفاها المدببتان الضئيلتان، وتعلقت بذراعيها النحيلتين بعنق من خُيّل إليها أنهم يسلبونه منها. وسال دمع المرأة الحار على خدي برقوق.
– كفى، قلت لك احرصي على نفسك. – تمزق صوت برقوق وإن كان يواسي المرأة.
ما تفكر فيه، وما تتوجس منه تراه يوماً ما في الحلم. ما يعيش فيه برقوق هو أحلام لا نهاية لها. وأعجب ما في الأمر هو أنه يحلم وهو في مصر، غير أن أحلامه كلها تجري في بلاده الأم أثناء طفولته. لا يعرف عدد الأحلام التي رآها في بلاد الأديغة. غير أن قمم الجبال البيضاء والغابات المتعددة الألوان والمراعي

الفسيحة والقرى المتقابلة لا تفارق أحلامه. والعصفور الأبيض الجناح الذي يحوم فوق تلك المناظر...

يرى برقوق حلماً، ولكنه ليس كسائر الأحلام. الفرسان والمشاة بخُوَذِهم الحديدية ودروعهم يهجمون على القرية. الرجال تصدّوا للأعداء، ووالد برقوق بينهم. ووالدته تمسك بالمذراة، وهو بالفأس. دخلت صبية إلى دارهم مسرعة، وفيما والدة برقوق تتصدى للرجل ذي الخوذة بمذراتها تقول للصبيين من ورائها: "اركضا باتجاه البستان، اختبئا !" برقوق لا يطيع الأم. – يحارب معها، وإلى يسارها الصبية الممسكة برمح مكسّر الرأس. العدو الذي نفذت فيه أسنان المذراة يتوقف، يرتجّ، يسقط منه السيف، ينهار. والصبي والصبية ينهالان عليه ضرباً بالفأس والرمح المكسور. وحين يصحو برقوق يرى أمه مستلقية على السور بلا روح. ينادي والده "يا أشمز أين أنت، قتلوا نانا؟ !" تواسيه الصبية: "يا برقوق والدك أشمز يحارب الأعداء" "من أنتِ؟" "ألا تتذكرني؟" "كيف أتذكركِ وأنا لا أعرفك؟، مهلاً، مهلاً، هل أنتِ نفبسه ؟ ما الذي جاء بك إلى هنا؟" "الله ساقني إليكم لأنكم وقعتم في مصيبة..." "ولكن أمي فارقت الحياة، وأبي لا أعرف مصيره. حين أفاق برقوق على الصوت الذي كان يلاطفه، وعلى راحة اليد الناعمة على خده، ابتسم لنفبسه التي كانت جالسة بثوبها الرقيق على رأسه:

– أهذه أنتِ يا حلوتي؟

– أنا يا برقوق، أنا. أيقظتك لأنك كنت في ضيق.

– لم أكن وحدي، كنا معاً أنت وأنا في الحلم.

– ليجعله الله خيراً!

– لم نكن في هذه البلاد. بل هناك في بلادنا، بلاد الأديغة. كنا كلانا صغيرين. رأيت أمي تموت أمام عيني ولحُملتُ إلى هنا دون أن أعرف ماذا حلّ بأبي. وإلى الآن لا يفارق أحلامي. أيمكن أن يكون الخبر الذي أرسله إليّ التاجر وسمني الكذاب صحيحاً؟... لا أعرف حينها...

– صحيح يا برقوق، صحيح. لا تشكّ فيه بعد الآن! لو لم يفِ وسمني بنذره خلال هذه السنوات الطويلة لما أرسل إلينا خبراً ساراً.

– إن صحّ هذا فأتاح لي أن أرى والدي فلا شيء أُمسكه عن وسمني، وسأغفر له ما فعل بي! — قال برقوق من أعماقه ثم سأل نفسه: – ما الذي فعله بي وسمني إن فكّرتُ بعدالة وصدق؟ اشتراني من المجرم الذي سرقني وجاء بي إلى هنا. وأتذكر أنه باعني إلى يلبغا مشفقاً عليّ. ولولا ما جرى لربما ما التقينا أنت وأنا يا حلوتي، ولا أصبحت سلطاناً على مصر. نعم، لهذا يقولون: الشر يحوي في داخله الخير. لو كنت تعرف ما كُتب على جبينك... — حين قفز بارچ فجأة إلى خيال برقوق غيّر كلامه مُخفياً الألم الذي عصر قلبه: – إذا كنت أنا خلّفت ورائي الأربعين عاماً فسيكون والدي في الخامسة والسبعين، وربما أكثر. يا ربي، أيستطيع أن يقطع كل هذه المسافة؟... — ثم برّأ نفسه: "لولا نيْرُ السلطنة الذي ربطت نفسي إليه لكان عليّ أن أسرع إليه، لا أن يأتوني به إليّ"

******

"ما ينتظرك يقترب أكثر ممن تنتظر" أجبر اجتماع مجلس الأمراء الاستثنائي قبل أيام السلطان برقوق الذي ينتظر والده على الامتثال رغماً عنه لهذا القول المأثور.

– إن كنتم ترون هذا، ولما كانت مسائل البلاد فوق كل شيء، وأنا قلقٌ عليكم — قال برقوق للأمراء مبتسماً مؤنّقاً الكلام — إن كنتم تريدون خلفاً لي، ورأيُكم

في الزوجة الثانية، ونحن في الأسرة لم نهمل هذا الموضوع، فسأنفذه لكم. غير أني سأختار بنفسي من ستشاركني الأسرة الثانية، ولن يكون لكم فيها رأي. ولن نحتفل إلا بعقد الزواج، دون عرس ودون تهنئات.

نقض الأمير إسلام بلسانٍ مُراءٍ الصمت القلق الذي ساد مجلس الأمراء:

– كان يُسعِدنا يا موفد الله أن تتجه الآن إلى امرأة ذات جذر مصري.

– هذا الكلام موجه إليّ! — حسم برقوق الكلام، ونهض.

لم يكن برقوق يريد صرف وقت زائد من أجل المرأة الثانية. ومن أجل ألا يسمح لكلٍّ أن يتأول ويتنبّأ في شأن حبه الأول مستعجلاً على نصيحة الأمراء المضحكة. كان يريد إنهاء المسألة الملحّة بسرعة، ويُعيد الهدوء والراحة إلى بيته، ويلتفت إلى أمور البلاد التي أهملها. ولكن أيمكن أن تسود بين الضَّرّتين راحة وسكينة؟ ثم كيف سيكفي حب الرجل الوحيد للاثنتين؟ الأسئلة سهلة ولكن الإجابات صعبة. وربما لهذا السبب يقولون: إن الشرق ليس سهلاً.

إذا كنت مولوداً في المشرق مثل نفبسه فربما كان الأمر سهلاً. ولكن إذا وقفت على رجليك أول مرة في الغرب مثل برقوق فسيكون من الصعب فهْمُ ما ليس من دمك. أليس في أسرة أديغية وُلِدَ برقوق ونفبسه؟ أسرتان أديغيتان، ولكن حتى وأنت تتكلم لغتك الأم ستبدو عليك آثار من تعيش بينهم، وتصبح مثلهم.

شتان ما بين ما كان برقوق ينويه في أرض بلاده وبين ما يراه في بلاد الغربة. ومع أن السلطنة تحققت له دون غيره ممن يتمتعون بالرجولة والحكمة فروحه وقلبه إلى الآن في البلاد التي عاش فيها أيام الطفولة حافياً ولو بضع سنين. وبرقوق رغم أنه يعيش هكذا فهو يمسك بزمام السلطنة بقوة. وقدماه ثابتتان في الركابين.

– لا تؤاخذني يا موفد الله، ربما لم يكن لي علاقة بالأمر – قال الأمير الشركسي للسلطان – يجب وضع نهاية للأمير الذي لم يكن يسكت لسانه قبل أيام. ألم تسمع طريقة قلقه عليك؟ كان يريد أن يزوجك امرأة مصرية تلد لك خلَفك في الحكم، قائلاً: "امرأة من جذر مصر"، غير أنك عرّفته قيمته جيداً.

– كلٌّ يجد ما يستحقه، ليس مشكلة. كيف تعاملت معكم من أرسلتكم إليها؟ سأل برقوق الأمير كأنه لم ير هو الفتاة الرومية.

– وكيف ستتصرف معنا يا موفد الله. كاد يُغمى عليها حين أبلغناها مرادنا. ليس لأنها لا تريدك بل من شدة الفرح. والتاجر الذي رباها أثنى عليها. وهي مسلمة. ولغتها العربية ممتازة. ووعدونا ألا يساومونا في قيمة المهر. – أنهى الأمير الشركسي وهو يضحك في سره.

– وكم تخمّن عمرها؟

– بين خمسة عشر عاماً وستة عشر.

– أليست شابة بعدُ؟

– إذا كانت بنات العرب يُزوَّجن في الثانية عشرة فهذه في سن مناسبة جداً.

برقوق وحيداً إلى النافذة، ومن عقدوا القران لم يمض زمن على انصرافهم: النجوم مبعثرة حول القمر. والقمر بدرٌ يهمس له كمن يقول: لماذا أنت كئيب؟ ولكنه لا يسمع. لا يجد طريقة للخطوة الأولى إلى مخدع الزوجية.

حين سُمع صوت الباب استقبلتْ "آسته" الزوج بقوام ممشوق. والتصقت بصدره. وحين ارتخى في اللحظة نفسها برقوق الذي ظل غارقاً في أفكاره المتصارعة طوال الليل لاطف الشابة التي كانت تضوع منها رائحة الدفء دون أن يذكر اسمها:

– هل سنظل واقفَين هكذا؟

– كما تريد – شعر برقوق بان آسته كانت ترتجف.

حين قضى برقوق وطره منها، غرق في النوم بلا وعي. وحين بدأ يلبس بسرعة بعدما صحا لامته المرأة الثانية:

– لم ينبلج الفجرُ بعدُ.

– نعم،نعم. نامي... سآتيك ليلة الغد أيضاً...

لما عاد برقوق في منتصف الليل كانت نفبسه تريد أن يراها الرجل نائمة ولكن حبها غلبها:

– هل رجعت!

– رجعت يا نوري. أنجزت ما فرضه الله علينا. – جلس برقوق على ركبتيه على يسار سرير نفبسه، ومسح على خدها.

– لا، لا. لا ألومك! – نهضت نفبسه بسرعة وأنهضت الرجل مواسية إياه – لم يبدأ هذا من عندنا، ولن ينتهي. سنمتثل لما كتبه الله لنا. أنت الوحيد الذي لي، وسيظل لي.

******

في أحد الأيام حين علمت نفبسه بحمل آسته، حملتها الأصوات التي ارتفعت في الدار إلى النافذة وهي تقول لنفسها "يعضه الكلب ولو كان على ظهر جمل، عبثاً كنت أ تّهم زوجي بعقمي"

كطفل صغير يركض سلطان مصر إلى عجوز نحيف عالي القامة، ويعانقه.

وقالت نفبسه وقد نسيت ضيقها:

– هذا والد برقوق. ما أشد تشابههما؟

XV

– أيتها المدينة، أيتها البلاد، خبرٌ سارّ، اسمعوا – أصوات المنادين تتجاوب – رُزِق الظاهر سيف الدين برقوق السلطان بصبيّ. وسمّوه "فرَج" ندعو الله أن تكون سعادتنا على يديه.

– ماذا يثرثر هؤلاء؟ – سألت صايحت التي رمت تطريزها زوجها.

– صهرنا رزق بولد. يهنّئونه. يدعون له بالحظ السعيد. – عرف فيصل سبب تغيّر المرأة ولكن سلوكها لم يعجبه.

– نعم، نعم. كيف سيفهمنا هؤلاء؟... – مسحت صايحت عينيها بطرف القماش الذي تطرزه. – أحدهم عنده مأتم والآخر عنده عرس.

– هذه هي دنيانا العارية – قام فيصل على رجليه.

– أين تذهب؟ إياك أن تذهب لتهنئتهم!

– أليس صهرنا من رزق بالولد؟ سأل فيصل، ثم جلس لا يعرف كيف.

– صحيح صهرنا، ولكن ابنتنا المسكينة لن تكون سعيدة إلى جواره... يا حسرتي أعرف ما تعانيه. وأنا يائسة مثلها... الرومية ذات الساقين العجفاوين أهانتنا، أهانت كل الأسرة. وأنت بقيت تكرر: السلطان، البلاد، العتب، فرفضتَ أن أطلق ابنتي منه العام الماضي.

– كفى يا امرأة؛ فكّري في ما تقولين! – لم يسيطر فيصل الآن على غضبه.

– تنهرني ولكن لو كنتم أيها الرجال تفكرون كالنساء...

في الساعة نفسها كان ما تقوله نفبسه لزوجها وهي تغالب مشاعرها شيئاً آخر:

– أهنئك يا برقوق على صبينا. أدعو إلى الله أن نعيش معه شيخوخة سعيدة. إن قلت إني لا أغبط ضرتي فأنا أكذب عليك وعلى نفسي. وفي ما يتعلق بي

لا تصدق أيّ شيء يقال لك حتى من أمي. لن يفهمك أحدٌ كما أفهمك أنا. لا أتملق، أقول ما في قلبي. اليوم، هذه اللحظة قد لا يكون هذا ضرورياً، ولكن الأفضل أن نتصارح حذرين بما في قلبينا.

برقوق حتى لو كان رجلاً صلباً وعاقلاً ومرائياً فإن ما لم يكن يستطيع البوح به كان يؤلم قلبه أكثر مما تقوله حبيبته، ولكنه أخفى انفعاله:

– شكراً يا نفيسه على أنك فهمتني. لم أتوقع منك غير هذا. سيقول الثرثارون كثيراً... – ومع أن المنادين كانوا يصدحون بفرحة السلطان فقد سأل زوجته:

– أتعرفين ماذا يعلنون عني؟

– ماذا الآن أيضاً؟

– أجمع ما في مصر من الذهب لأن والدي سيصحبني معه إلى بلادنا.

– ما أغرب ما يخترع هؤلاء! – صرخت نفيسه مما سمعت، وقطعت كلام الرجل.

– قالوا إنهم مستعدون إن غربت عن نواظرهم وأبعدت المماليك من رقابتهم أن يقدموا لي أساور نسائهم وخواتمهن وأقراطهن. – وأضاف – لأجل هذا يقولون إن من لا يحبك أعمى وأصمّ مهما عرضت عليه أو أسمعته. نحن لا ذنب لنا. كانوا يريدون لأنفسهم الراحة فجلبوا لأنفسهم ما لم ينتظروه. من جاء إلى هنا طلباً للمديح؟ بيباريس أم قلاوون أم وزدمر أم برقت أم أنا أم المماليك؟ عيب ألا يفهموا صنيعك، وأن يجعلوك تندم عليه! ها هو الشرق والغرب الآن لا ينعمان بالسلام. من الشرق يأتينا تيمور الأعرج، ومن الغرب – الشمال حيث كان والدي أسيراً يوطد الروسيك أنفسهم. والصليبيون رفعوا رؤوسهم من جديد. الحق يا نفيسه، أريد أن أسألك فأنسى – مزح برقوق مع المرأة باسماً –

إن طلب منك حموك ما يريده منا مُبغِضونا، وهو أن نعود معه؛ فكيف ستتصرفين؟

– ربما لا أسهل على المرأة من أن تخدع الرجل الذي يهتم لمثل هذا السؤال...

— مزحت نفبسه ببراءة مع السلطان الذي رُزق بطفل.

– وهذا صحيح.

كان ما يفكر فيه برقوق، ولو وافق المرأة، شيئاً آخر. لم يكن يعرف ماذا ستحمل الشمس الجديدة مع أنه يدرك أن الشمس التي تأوي نحو مغربها ستبزغ غداً من مشرقها. هذه لا تميز سلطاناً من عامة الناس، ولا غنياً من فقير. ولكن أي عمل — صعباً كان أم سهلاً — لم يكن يتناسى، في سلطنته وقبلها، يجب أن يفكر فيه بعقل. وكانت فيه عادة لا تجدها في كثير من الناس: أن يختبر أي موضوع، حسنٍ أم سيء، من خلال أعدائه. وسلوكُه مع الأمراء المحليين وغيرهم من أمراء الأقوام الأخرى؟ لم يكن برقوق يعرف التراجع أمامهم. لا أقصد أن يصارعهم أو يحملهم على مصارعته. كان يهدئهم عن طريق الثناء عليهم، وعن طريق إقطاعهم الأراضي. أو يمنيهم بمناصب أعلى. وقبل أن يبعد أميراً ما عنه لم يكن يدّخر شيئاً لأبناء قومه مما في إمكانه أو خارجه: لا شيء يبخل عليك به مَن تخفض الضريبة ولو قليلاً عنه، أو ترفع أجرته أو تمنحه قطعة أرض!

كان وضعُ الأمير إسلام معاون السلطان مختلفاً عن وضع بضعة الأمراء الذين أبعدهم في السنوات الأخيرة. إنه الرجل الثاني في الدولة سواء أعجبك أم لم يعجبك. ولن يدَعَك تُمسِك به ولو حاولتَ. وإن أمسكت به انزلق من بين يديك.

على مائدة الغداء ثلاثة أشخاص: أشمز والد برقوق، والأمير فيصل حموه، والأمير إسلام معاونه. والسلطان واقف على رأسهم يخدمهم. يرتب لهم المائدة، ويبدل ألوان الطعام، ويصب الماء في أقداحهم. يلبي طلب أي منهم.

"بقينا نقول: نستعبدهم، نكلفهم بالحرب بدلاً منا، يؤدون لنا خدماتنا، وفجأة هؤلاء الشراكسة الذين أحطنا أنفسنا بهم لا أعرف من أي نوع من البشر هم — يقول إسلام لنفسه غيرَ مدرك تأويل عملِ السلطان خادماً على المائدة. — ما أعجب أن يقوم على خدمتنا، قلقاً على راحتنا، متناسياً كونه سلطاناً، متصاغراً. لا أظنني أنا موضع الاحتفاء، فأي من العجوزين هو؟ ربما أبوه؛ أيمكن أن يكون والد المرأة العاقر الصغيرة ذات الرأس المتطاول التي عجزنا عن حمْلِه على تطليقها، والتي تتحكم فينا؟ صار والدها سنداً لقاتلي يلبغا فأعادهما إلينا، ووضعَنا في مأزق! لو لم يحدث هذا لكنا ألحقْنا بالسلطان شعبان ابنه المغفل المريض المزمن وعادت السلطة إلينا نحن أهل البلاد منذ زمن طويل. وهذا العجوز المنتصب القامة فيمَ ينفع؟ لم نكن نُعِزُّه تاركين إياه يتكبر علينا، وما يرويه من سخافات لم نكن نصغي إليها. ولكن حسنٌ أن يكون السلطان على خدمتي. وأن يغير بقايا صحوني..."

– لا يجوز، عيب أن يقف السلطان على خدمتنا وأنا قاعد. — يقول إسلام دون أن يُبدي رياءه وإن كان في نفسه سعيداً، ويضيف غيرَ منتظر الجواب:

– على ماتقول يا أشمز عذبوك في مكان أسرك؛ من أي نوع من البشر هؤلاء؟

– هم من الروسيك، يعيشون في الأراضي الباردة باتجاه الشمال الغربي. أناس بُرصٌ، يربون المواشي، ويشتغلون ويحاربون. يمتدون إلى أراضٍ ليست لهم كما وصلوا إلينا. وليس قليلاً أن يَغلِبوا وأن يُغلَبوا.

– وهل هناك مناطق باردة؟ – سأل إسلام مستغرباً ما سمع، وعلّق بما يريد هو:– ربما يندفعون إلى المناطق الدافئة حين يعانون البرد في منطقتهم.

– وهل تأتي جيوش تيمور التي تنهب العراق، والصليبيون الذين يجردون الحملات كل سنة علينا من مناطق باردة؟ – قال فيصل وأضاف بحزن:

– ها هو أحمد بن أويس وجب عليه أن يلجأ إلينا، إلى القاهرة. [1]

– لِهذا أقول ليس هناك عدو صالح. — رمى إسلام كلمته دون أن تطرف له عين، وكرر رياءه معتقداً أنهم لم يسمعوه — أقول الحق لا يجوز ان أجلس أنا ويقوم السلطان على خدمتي. إن كان لا يسمع كلامي فانصح ابنك يا أشمز. تدفعونني إلى ارتكاب الخطأ.

– من سيقول لنا هذا نحن سلطان مصر ومعاونه؟ ربما ارتكبتما كثيراً من الأخطاء. — تظاهر أشمز بالمزاح مع من يجادله، وامتدح ابنه: – ولكن أعتبر قيام ابني على خدمتنا اليوم تصرفاً صحيحاً باستثناء عيبين أعرفهما منه. يسرني أنه لم ينس روح الأديغة بحجة أنه سلطان أو ملك. لو كان جلس إلى مائدتي ناسياً أني والده لكنت استأت منه إذ نسي روحه الأديغية هنا.

– والعيبان اللذان تعرفهما فيه؛ ما هما يا والد موفد الله؟ – تلهّف إسلام على سماع أحد العيوب التي يتمناها في برقوق.

– الضيف عند الأديغة فوق الجميع، ولذلك انسَ يا إسلام اليوم أنك معاون السلطان. ولكن بما أنك سألت عن العيبين اللذين أعرفهما في ولدي فسأقول لك: انكشافه على حميه ناقضاً كون الصهر لا يجتمع مع حميه، وقبوله الزواج

---

[1] سلطان بغداد من أصل مغولي. أسلم واستعرب أجداده، وآل إليهم حكم العراق. فرّ إلى القاهرة من أمام قريبه وعدوّه تيمورلنك.

من امرأة ثانية، بناء على نصائح المجلس الاستشاري. مبتدعاً ما ليس من تقاليد الأديغة. صحيح أنه ليس كل من يطمح إلى السلطنة لا يتحقق له طموحه، ومع أني معتدٌّ بما جلبه له عقله ورجولته في ديار الغربة فقد كان يُسعدني أكثر لو تحقق له هذا في نواحينا. ما العمل، لا أحد يعرف ما كُتب على جبينه، ولذا أمتثلُ لما حدث له. ولا أقصد بهذا أني لم آت إلى هنا من أجل رؤية ولدي، وأني لن أعود إلى بلادي. غير أن الأيام الثلاثة التي يُمهَل فيها الضيف عند الأديغة قبل أن يُسأل عن سبب الزيارة صارت موعداً لي في مصر. وفي المحصِّلة أقنعت الولد أن أركب طريقي في الشهر القادم.

كان فيصل يعرف نية أشمز العجوز منذ زمن فاكتفى بالابتسام دون أن يعلق. وسأل إسلام وما على لسانه غيرُ ما في قلبه:

– ما الذي يجعلك تستعجل إذا لم يكن في نواحيكم حاجة ملحّة؛ لماذا أنت مستعجل يا والد موفد الله؟

– إن كنت تعتقد هذا فأنت تظلمني يا إسلام. — ابتسم أشمز مخفياً الألم الذي عصر قلبه — في أيام طفولتنا، أتعرف ماذا كنا نقول حين نكتفي من اللعب مساءً؟ "كلٌّ بيته قائمةُ بقرة، وبيتنا من ذهب" وننصرف كلٌّ إلى بيته. ليس ما عشته قليلاً. وكلٌّ يعود إلى العش الذي ولِد فيه. أليس حسناً أن تستريح عظامك في أرضك! وهذا ما منعني من اعتناق المسيحية ديانة الروسيك الذين كنت أسيراً لديهم. وهذا ما أخرجني من عندهم. وهذا ما يُخرِجني من بلادكم مصر.

لحظة صاح إسلام لنفسه "جرو الكلب الذي ربيناه لك والذي يعضنا الآن يحاول أن يجعل مصر شركسيةً، ولا يقبل أن يقول قولك أبداً" جاء دروز إلى السلطان بالخبر غير المنتظر:

– أرسل إليك تيمور موفدِيه من بغداد يا بديل الشمس.

– ماذا ينوون؟ ماذا يريدون؟

– يقولون إن معهم كتاباً.

– أبلغوهم أن الغد قادم.

– أبلغناهم، فلم يقبلوا.

– أنا حاكم مصر، وليس موفدو تيمور الأعرج! – غضب برقوق بحيث لا تعرف أهذا هو الذي كان يخدم ضيوفه على مبدأ الأكبر والأصغر. – أعرف ما في الرسالة وإن لم أقرأها: يساومنا تيمور على رأس أحمد بن أويس. ولكن لن أستجيب له في هذا! وإن رفضوا فاتركوا منهم واحداً ينقل خبرهم، واجعلوا سكان المدينة يفيقون غداً على رؤوس البقية معلقة على باب زويلة.

– وما ذنْبُ الرسل يا برقوق؟ هؤلاء مأمورون. حين قال أشمز هذا لم يقبل السلطان.

– ما كنت أريد أن تتدخل في أمور البلاد يا والدنا.

وفي الصباح حين سمع أشمز ما يعلنه المنادون لام ابنه على ما كان طوال الليل يعده إهانة:

– لم أعرف يا ولدي طوال بقائك في قلبي، وطوال بحثي عنك، وطوال المسافة التي قطعتها إليك، أنك ظالم.

تنهد برقوق وقلبه يؤلمه:

– اغفر لي يا والدنا، أنت ليّنوا قلبك في الأسر حيث كنت، أما أنا فقد جرحوا قلبي هنا.

– والروسيك ليسوا أناساً لطفاء كما تظن أنت. هذا يتعلق بإنسانية كل إنسان – قال أشمز، ولم يستطع إكمال البقية – كنت جئت إليك لأصحبك إلى بلادنا ولكنك على ما أرى...

قال برقوق محاولاً محو الجفوة المفاجئة التي نشأت بين الأب وابنه، غيرَ ناسٍ أنه واثق من نفسه:

– لا، لا تحكم علي بهذه القسوة يا والدنا. سأتصرف كما تريد إن كان مفيداً. ولكن إن لم أضع حداً ليتمورلان فأنت أيضاً لن تكون راضياً عني. ولن تغفر لي رعيتي. وسيعيب عليّ الأديغة الذين تصدوا بقوة قبل أعوام لهذا المتجبر. وسيحزن من يثقون بي. وسأُشمت بي أعدائي. اغفر لي مرة أخرى طلبي منك ألا تتدخل في شؤون البلاد. لم أكن أقصد إهانتك. أنت من كنت لي أملاً وسنداً في أحلك ظروف حياتي وأسعدها. والآن سمع الله دعائي وسمح لي أن ألتقي بك أخيراً. نعم يا والدنا، ولو كان الله على لسانك وليس في قلبك كما أنا، فلأنه جمعَنا أخيراً...

– اسمع يا ولد – استلم أشمز الكلام في موضوع الله من ابنه. – ما أكثر ثرثرتك معي اليوم! ثم لا أعرف لماذا تتملقني مدعياً الرجولة. لستُ من يجب أن تدير له رأسك وإن لم تتوسل إليهم، بل أمّتك. لا أظنك فهمت عليّ جيداً. ليس الجيش المملوكي وحده الذي هو موضع ثقتك، بل العرب الذين أنت سلطانهم. ولما كان الحصان لا يُسرج بسرجين، فلا تهتم بما أقول من رأس لساني أو من قلبي، متخيلاً أني أمسك معك باللجام. ولما كنتَ قبلت منصب موفد الله فلا تقسْ نفسك إليّ قائلاً: "هو مثلي"

– الكثيرون، ولستُ وحدي، أُعجِبوا يا والدنا بوقوفك مع المصلين منذ أول يوم وصلت فيه إلى مصر. فلا أعرف لماذا تقول هذا – لاطف برقوق الآن والده ثانية.

– حتى لو كان حصاني لا يتسع لسرجين فأنا أكيِّف نفسي من أجلك مع من تصدّرتَهم: أتوضأ معهم، وأقف معهم في حضرة الله: إن جلسوا جلستُ معهم، وإن وقفوا وقفت. ولغتهم، وإن ثقلتْ عليّ في شيخوختي، أردد معهم ما يقولون بهزة رأسي. وأفعل ما يفعلون.

– شكراً يا والدنا. ولكني أستغرب كيف تستطيع أن تفعل ما لستَ مقتنعاً به.

– ولماذا تستغرب؟ – زفر أشمز عميقاً وهو يسأل ابنه، وكأنه كان ينتظر هذا الكلام – ألسنا أنت وأنا يجمعنا أننا مضطران في ما نفعل؟ ولكن إن شئت الحقيقة يا ولدي فلا أنت ولا أنا جرى لنا ما يُسعِدنا.

– يا والدنا، ذكّرتَني بقول أديغي مأثور.

– أهو "حفنة من تراب الوطن الذي ولِدت فيه خيرٌ من جبل من الذهب في أرض غريبة"؟

– وكيف عرفت؟

– لو لم يكن في قلبك ما في قلبي أكنّا نتعارف قلباً وروحاً؟ يسعدني أنك لم تنس هنا القول الأديغي المأثور الذي سمعته في طفولتك. هذا يساوي ما تحقق لك وما لم يتحقق.

– ولكن يا والدنا الآن فقط فهمت معنى هذا القول. يروون أن بيباريس وقلاوون فارقا الحياة وهذا القول على لسانيهما.

– وما العمل؛ هذه حال دنيانا. إن فهمت قولهم "اليائس يجد أخيراً ما يحتاجه، والسعادة تحمل معها ما يكدرها" فسيطمئن عليك قلبي.

– حين حمل دروز خبر قدوم الأمير أحمد بن أويس في مهمة عاجلة نهض أشمز – اعملوا عملكم، لا أريد مضايقتكم.

– لا تفعل هذا يا والدنا. ليس في مصر قضية أخفيها عنك، ولا في بلاد العرب.

– لا تتأمل مني بهذا الكلام أن أصبح مؤيداً مطيعاً لك. لا أزال أعرف منك أموراً كثيرة تُضلّك – قال أشمز لابنه وقد اختلط جده بهزله، واستقر في محل صدارته الذي يستحقه بعمره.

XVI

مع أن برقوق يعرف الأخبار التي تدور في البلاد بعد أمره بإعدام رسل تيمورلان الذين حملوا كتابه فقد سأل دروز عما يقلقه:

– ماذا يقول الناس، ما يقبلون، وما لا يقبلون.

– ما يقبله الناس وما لا يقبلونه يصعب تمييزه الآن يا موفد الله.

قال برقوق الجالس يحدث نفسه: "وهذا كأنه يدينني كوالدي"، ثم توجه إلى دروز حارسه مموهاً اختلاج عضلة وجنته:

– إن كنت حكيماً هكذا فابدأ بما لا يقبلون وانتهِ بما يقبلون.

– كثيرون يقولون: من يقترف الظلم يجنِ الظلم . قال دروز مؤكداً أنه صادق، وأضاف بسرعة: – الظاهر سيف الدين برقوق السلطان أبدى بطولة، وكثيرون يقولون:لم ترتعش ذقنه حين أرسل تيمورلان رسُله السود، يا موفد الله.

– على ما تقول فكثيرون لم يوافقوا على ما فعلت برسل تيمورلان.

– أنا أوافق.

ابتسم برقوق:

– لا تشتر عواطفي بهذا الكلام. قد لا يقبل تيمورلان منك ماأقبله أنا.

– تدينني عبثاً يا موفد الله. لو كنت محلك لفعلت الشيء نفسه.

– ما الأمر؟ –كلام السلطان وسؤاله مختصران.

– ألسْتَ من قال إنك يجب أن تساند أي إنسان مقهور يلجأ إليك؟

– لستُ أنا القائل! — حسم برقوق الأمر، ثم أنهى الكلام بسخرية: – من أين يمكن لتيمرلان الذي يقطر سيفه دماً أن يعرف الإنسانية التي يتحلى بها الناس منذ الأزل؟ أرسل إليّ رُسُله وهو يعرف أني لن أسلم إليه أحمد بن أويس بل لن أدعه يمسّ ظفره. أعرف أن سلوكي مع الرسل ليس صحيحاً. ولكن لم يكن من

الجائز التعامل مع هذا المجرم إلا بهذه الطريقة. يجب أن يعرف أنه إن يرفع قبضته في وجهنا تهديداً فلن نختبئ وراء الجِمال!

– نعم، نعم، لن يستطيع أن يدّعي أنه أرعبك. – أيّد دروز السلطان، ثم سأله عما يقلقه: – وماذا سنفعل بالفارس الذي حافظنا على حياته؟

– لا تستعجل عليه، سنحتاجه.

لم يهدأ برقوق طوال الشهر كله: اختبر جهوزية الجيوش التي كانت في جبل المقطم، وفي جزيرة الروضة، وتعرَّف نواقصهم. وبعد ما اجتمع بأمراء الجيش منفردين جمعهم وكلّمهم. وألحّ عليهم أن يكونوا جاهزين ليلاً ونهاراً. وأرسل إلى شركس أميرِ الشام القريبة من العراق موفده تغري بردي. وأوفد إلى حلب المتاخمة للمنطقة المحتمل انطلاق العدو منها يتمش وأحمد بن أويس. وكان أوصى المنادين إعلام الناس دون مبالغة في التصريح بأن تيمورلان مجرم ونهّاب، وأنه يمكن أن يتحرك بين اليوم والغد.

ولم يكتفِ برقوق بكل هذه الاستعدادات. — لم ينس الدول المجاورة التي عقد معها معاهدات سلام. وأرسل إليهم رسائل توضح أن تيمورلان لن يتوقف عند بغداد، وأن من عنده نية سلب العالم كله سيمسهم أيضاً. ولأن والده أشمز كان سيغادر إلى بلاده ففي الأيام التالية جهز ما سيرسل معه إلى الروسيك، وإلى القبيلة الذهبية.

كل هذا حسنٌ. ولكن المشكلة هي أنه لا يعرف من أين سيأتي بالمال اللازم لتغطية زيادة الرواتب للجنود المماليك الذين سيحمون البلاد. كان الجنود يحصلون على غنائم المدن المهزومة حين يحرزون نصراً على الصليبيين المختبئين في البلاد العربية، ولكن بِمَ سيغريهم الآن؟ لا يفهم الناس زيادة الضرائب إن قلت إن البلاد تتعرض للاعتداء، وهم في الأصل بائسون حتى من دون زيادة

الضرائب. وفي كل يوم يزيد الباعة الأسعار في السوق. وحتى لو تعاملوا معهم بالحبس والقتل فهم يخفون البضائع عن السلطة.

"الكلام الجميل يُخرج الحية من وكرها" كما كانت أمي المرحومة تقول، ألن يفهمني الأغنياء إذا جمعتهم وشرحت لهم حالي؟... وإن فهموا أني أتوسل إليهم؟ لو لم تكن الحياة مزيجاً من التوسل – الليْن، والإرهاب – التوسُّل، والرياء – التصنُّع، لما سمَّوها حياةً! لن أخسر شيئاً إذا كلمت هؤلاء كما أن الكلام لا يُشترى، والهواء لا يُستجدى. ومن كان سيفيدني في هذا الشأن هو وسمني، ولكنه حين رفض مقاسمة تيمورلان أملاكه في بغداد كان أول المعدَمين. ليفتح الله له باب الجنة. وما فعله بي أغفره له الآن... وإن كنت لا أعرف كيف أكفّر عن ذنوبي..." – أضاف برقوق لنفسه.

– تريد أن تقول لي شيئاً يا روحي الوحيدة ولكن لا تراه مناسباً – سألت نفبسه الرجل المتصارع الأفكار.

– منذ زمن بعيد قلت لك ما قلت. – قطع برقوق قراءة الرسالة التي سيرسلها إلى الروسيك، وتأمل المرأة برأس مرفوع ووجه طلق – إن كنت تتذكرين فهو اليوم الذي رأيتك فيه في الشام.

– أتذكر يوم حبي الأول كأنه اليوم. ولكن لا أنسى أيضاً أنك قلت لي: "إن قال لي حمي: تعالا فكيف ستتصرفين؟".

– اِنسَيه، انتهينا من هذا! – قال برقوق بلامبالاة، ثم سأل عن الموضوع ثانية:

– هل أرسل لك والدنا رسالة شفهية؟

– لا، رأيته أمس وهو يلاعب فرج حاملاً إياه على ظهره فأشفقت عليه. أولاده يعيشون هنا في بلاد الغربة، وهو سيعيش شيخوخته وحيداً هناك في عالم الأديغة.

– لا أشفق على والدي بل أغبطه على رجولته وإنسانيته. وأستمد منه الثقة.
– نهض برقوق فجأة عاجزاً عن الاستمرار في الجلوس.
– ما الأمر؟ – سألت نفبسه الرجل الذي كان يذرع أرض الغرفة بهدوء.
– ما لم أستطع فعله في وقته أنجزه والدي. غادر أرض الأسر لدى الروسيك وعاد إلى موطنه. ولم يكفه هذا بل لحق بي إلى هنا حين عرف خبري. لا تفزعي، لمّح لي فقط، ولم يقل لي تعال معي. – وأنهى وهو يمازح المرأة: – ما كان ليقبل حتى لو قبلتُ أنا.
– لا أظن والدك كان ينوي أن يسبب لك الحزن. – لم تكن نفبسه مسرورة لتذكُّرها كيف كان يلاعب الصبي الذي لم يكن من نصيبها، وإن لاطفت الزوج محاوِلةً إخفاء مشاعرها. غير أن ما كان يفكر فيه برقوق شيء آخر.
"ليس الروسيك أناساً لطفاء كما تتصور. –كلمات والده تثقب دماغه – هذا يتعلق بإنسانية كل شخص. ما ذنبُ الرُّسُل يا ولدي؛ هؤلاء مأمورون؟... لم أعرف أنك ظالم هكذا يا ولدي..." – وفي اللحظة نفسها تذكر ما أبلغه دروز على لسان بعضهم: "من يقترف الظلم يجنِ الظلم. السلطان تحلى بالرجولة، لم ترتعش ذقنه حين أرسل له تيمورلان رُسُله السود" –كيف لم يتحرك تيمورلان إلى الآن؟ أيمكن ألا يسأل عن رُسُله؟ الإنسان البريء لا يجلب لنفسه المصيبة !" – حين صرخ برقوق في داخله وهو يبرّئ نفسه صحا إلى واقعه وترجى المرأة:
– لا تؤاخذيني يا نفبسه ! كنت شارداً... والدي من المؤكد أنه لن يسبب لي الحزن... وإن سبّب لي فكما يقال: قائمة البقرة لا تقتل عجلاً. أسمعت هذا المثل؟ سأتحمله – أخذ برقوق الرسالتين اللتين جهزهما للروسيك وللقبيلة الذهبية، وقال وهو خارجٌ من الغرفة: – والدنا ينتظرني، يجب أن أجتمع به.

حين دخل برقوق الغرفة أوقفه ما يراه: الصبي فرج جالس على ظهر والده المتمدد على السجادة المطرزة. ويداه متشبثتان بياقة قميص العجوز، ويحثّه بكعبي قدميه:

– أسرعْ، إلى الأمام! تيمورلان القبيح يفلت منا.

– لن نسمح له أن يتقدم خطوة واحدة! — يتظاهر أشمز باللهاث.

– لا يجوز يا والدنا ما يورّطك هذا الصبي فيه، – مع أن ما يراه برقوق كان يسرُّه ويبعث على الضحك فقد نهر ابنه لائماً والده: – انزل من ظهر جدك يا عديم الإيمان!

– هذا أنت يا ولد! — سأل أشمز ضامّاً الصبي إليه، وبادله اللوم: – جئتَ في غير وقتك. لو لم تعترضنا لكنا أمسكنا بتيمورلان منذ زمن بعيد؛ أليس كذلك يا ولدي؟

– أتظن أن هذا الذي تكلمه يا والدنا يفهم لغتك الأديغية؟ – ابتسم برقوق.

– إن لم يكن يفهم فماذا تفعل أنت؟ علّمه ! — اختتم أشمز كلامه بعتاب مبطن وإن كان ما سمعه جعله ينتفض: – سواء وافقْنا أهل البلاد أم لم نوافق، إذا كان من يمسك المناصب في مصر أكثرهم من الأديغة فابحث عن مكان لهذا أيضاً بينهم بطريقة ما.

– كيف أدفع إليهم مَن لا يريد أن يكون أديغياً ولا أن يتعلم الأديغية؟! قال برقوق قبل أن يفهم كلام والده المبطّن. ثم نطق ابنه بالفكرة التي غزت رأس برقوق، وقطع كلامه الأديغي:

– أريد!

– اسمع ماذا يقول! — تعجب برقوق مما سمع، وقال راضياً لوالده: – أنتَ من علّمه هذا.

– سواء كنت أنا أم غيري فليس هذا الصبي ممن لا يستجيب لما تقول له. أتفاهم معه أفضلَ مما أتفاهم معك.

– لا تؤاخذني يا والدنا، هذا ما كنته أيضاً في صغري... لم أكن أعرف أن في الدنيا من يتكلم غيرَ الأديغية. ولو لم أعرف لكان أفضل. — حين خُيِّل للوالد أن صوت برقوق يتكسر، أسرع:

– لا، لا يا ولدي. لا ألومك. لا تندم على المشاق التي عانيتها، وعلى ما تحقق لك بهذه الحجة.

– وكيف لي أن أعرف؟ – يخيَّل لي أحياناً أن ما ارتكبتُ من أخطاء أكثرُ مما عانيتُ من مشاقّ. وها أنت أيضاً تعيّرني بأني أُجافي أهل البلاد وأحابي الأديغة. ولست وحدك، غيرُك يعرِّض لي به. وأنا أعرف هذا في نفسي أيضاً. غير أن القبضة التي جعلوني أضمّها بسبب الإهانة لا أستطيع إلى الآن أن أفْرُدها. وإن فرذْتُها فأنا لا أعرف ما سيحدث غداً، وماسيحل بي أنا وهذا الصبي نصف الأديغي الذي تغمره بالدلال. اذهب يا فرج والعب! — خاطب برقوق الصبي بالعربية دون أن يشعر. نحن سنتكلم في موضوع ما.

ابتسم أشمز، وقال بالأديغية للصبي الذي نظر إليه منتظراً ما سيقوله:

– اذهب يا عصفوري الصغير. العب، لا تفوّتْ ضوء النهار. ولكن عد إليّ مساء للنوم. سأُسمِعك الأغنية التي كانت أم والدك تغنيها له في المهد. — حين بقيا وحدهما في الغرفة أشار أشمز إلى السلطان الذي ظل واقفاً إلى الآن لا يُسمح له بالجلوس أن يجلس على الكرسي، وقال له بصوت حازم: – اجلسْ! — ومرة أخرى خاشن الوالد ابنه الذي لم يكن يرى من اللائق الجلوس في حضرة والده: – ألستَ من طُلب منه الجلوس!

– سأجلس، غير أن ما تأمرني به عيبٌ في حضرتك.

– من يسمح لك بالجلوس لا يعود فيغتابك – حسم أشمز الموضوع بالقول المأثور – قل الآن المهمة التي تريدني لأجلها!

– أي مهمة؟ – سأل برقوق والده ناسياً سبب مجيئه، وسبب صرفِه الصبي من الغرفة، والرسالتين اللتين يحملهما. ولكن ذاكرته عادت إليه سريعاً، وقال له بهدوء: – كنت أود، إن لم يثقل عليك، أن تحمل هاتين الورقتين إلى نواحي بلادنا، بلاد الأديغة: إلى الروسيك، وإلى القبيلة الذهبية.

– إن يكلفني سلطان مصر بمثل هذه المهمة فأنا مستعد للانطلاق من هذه اللحظة. ولكن لا أفكر بالعودة اليوم. أن أتركَك وحيداً يوم وقعت في وضع حرج يساوي أن أحلق شاربي. لا تتراجع ! ماذا يقول الأديغة "إما أن تموت، وإما أن تموت"

– شكراً يا والدنا. كنت واثقاً أنك ستؤول إلى أديغيتك وإنسانيتك.

– هيه يا ولدي، يا ولدي. ما تقوله من أنك ستؤول إلى أديغيتك كلمة واسعة عليّ.– قال أشمز بعدما جلس قليلاً وهو يهز رأسه. – أهي رجولة أو أديغية أن تقف مع ولدك حين يقف في موقف اختبار قاسٍ. حتى الطير، وهو طيرٌ فحسبُ ، يحمي فرخه الساقط من العش.

– أتظن أننا وقعنا في مثل هذا الموقف يا والدنا؟ – مع أن ما قالوا له على نحو غير مباشر كان دافِعُه بريئاً فقد سأل برقوق والده مُخفياً عدم رضاه مما سمع، متخذاً مظهر المازح.

– لو لم نتكلم على مصر التي نأكل خبزها اليوم – تغير لون أشمز العجوز – فنحن أنت وأنا في مثل هذا الوضع منذ زمن طويل.

– لا تحسد نفسك يا والدنا ! – ارتفع فجأة صوت السلطان الذي كان يكظم غضبه بصعوبة – أليس ما تأكله خبزاً مجبولاً بدم المماليك وعرقهم!

لولانا لفني هؤلاء منذ زمن بعيد في الرمال. لا يجوز أن تسمح لهم أن يفتحوا أعينهم. لو سمحت لهم أن يتصوروا أن الزمام أفلت من يدك أو ارتخى ركابك...

– اسكتْ يا ولد! – غضب أشمز على ابنه غير أنه احتفظ بهدوئه. – لا تُهِن القوم كلهم لأن أحدهم أساء إليك وقلبك حاقد عليه. لم تبدأ مصر التي تجلس على سرجها المذهَّب بك ولن تنتهي. الأبنية التي تطاول السماء، وكل بناء أجمل من الآخر، والبيوت المتراصة المزخرفة والمدارس والجوامع والجسور العالية والقناطر... أليست كلها من ابتكار عقولهم وصنع أيديهم؟ !

– أفهمُ ما تريد أن تقوله يا والدنا. ولكن لن أدع أحداً بعد أن أنتهي من المنافقين المدّعين الإسلام يقترب من الحكومة.

– تريد أن تخيفهم؟ !... – ابتسم أشمز حين تذكر ما فعله رجل أديغي ماتت زوجته التي لم يكن يستطيع فرض هيبته عليها، فيما يأتي بالزوجة الثانية – حقاً ألا تخشى أن يرتخي حزام حصانك يوماً ما أو ينقطع؟ اسمع إذن هذه الحكاية، وافهمها كما تشاء؛ فلا حاجة إلى أن نعلّق عليها: كان لدى رجل امرأة شرسة. وأراد أن يُفهم الزوجة الثانية منذ اليوم الأول، وعلى الطريق، أنه رجل قاسٍ. قفز الرجل من العربة، وضرب رأس أحد الثورين بالفأس فقتله بلا ذنب. قالت المرأة "ماذا فعلت يا رجل بالثور البريء؟" أجابها "ألم تري أنه لا يطيعني؟" قالت "لم أر في الثور مثل هذا" قال "اسكتي وقفي تحت النير مع الثور الثاني قبل أن أقتله" "لا، إن كان هذا رأيك فلا تقتله، سأقف معه تحت النير !" – يروون أن المرأة نفذت للرجل ما أراد قائلة في نفسها: إن كنتَ تُريني اليوم في عزّ قوتك أنك رجل قاسٍ فاعرف أني سأغلبك في عجز شيخوختك.

– مع أننا قررنا ألا نتكلم على الحكاية التي رويتها – نقض برقوق هدوء الغرفة – ولكن إن كانت موجَّهة إليّ أم لا، فقد رأيت فيها فكرتين ولذا أجيب عنها واضعاً قول العرب المأثور الذين نودّهم ولا نودّهم، وهو: لا يُقتلُ عصفوران بحجر واحد، إلى جانب القول المأثور الآخر: لا يُعاقب الرسل على ما جاؤوا به؛ فأقول: الآن سأحتاج إلى مساعدتك ولو أن أفكارنا لا تتطابق أحياناً.

– ماذا تظن سبب اختلاف رأيينا؟ – عارض أشمز مرتاحاً جواب ابنه.

– من جهتنا الروسيك، ومن هذه الجهة: العرب.

– سأقبل جوابك لأنه فيه شيئاً من الصحة ولو أني لم أنتظره منك. أسمعك؛ فيمَ أساعدك؟

– سأرسل جواباً لتيمورلان، لذا أريد بضع كلمات تهيج رأسه. أقبل أن تكون كلمات مأثورة أو ألغازاً.

– أسمعك فأجدك لست أقل مني حِدّة – ضحك أشمز من فوق لحيته وشاربه الأبيضين الخفيفين. – وأنت أيضاً فكّر، وأنا لن آلو جهداً. – الحق يا ولد – نادى السلطان الذي وصل إلى الباب – ألم يبق عندك منجّموك ومُغَنّوك وأصحاب الكلمات المؤثرة؟

– لا أنقص منهم إن لم أزدهم.

– هكذا؛ لا تُلْهِهِم عن مهمتهم إذن!

XVII

هبّ تيمورلان لم يفهم بضعة الألغاز التي جاؤوه بها من مصر، وإن كان يستريح حيث يتوقف، وإن استراح لا يُلحّ على النهوض والمتابعة. تسمّر القائد الأعرج ذو الرأس الكبير والوجه الطافح في مكانه على بلاط الغرفة، وإحدى كتفيه مرفوعة والأخرى متدلية. وصبّ غضبه على من كلفه بالقراءة:

– وأنت، إن لم تستغن عن حياتك، لا تستعجل. اقرأ بصوت واضح مفهوم.

"إلى من يريد أن يحكم العالم وإحدى رجليه..." — وتعثّر من كان يقرأ ألغاز برقوق، ولكنه عاد سريعاً إلى وتيرته — افعل بي ما تشاء، أيها القائد الكبير، ما في هذه الرسالة لا يليق بك...

– قلت لك: إقرأْ! إن كان السبب عرجي فها هو — لكم تيمورلان حيث وقف ركبته العاجزة بقبضته، تسببت فيه رجولتي، وليس أيام لعبي في طفولتي. اقرأْ!

"إن كان هناك حاجة إلى مأتم لأن تيمورلان ذا الرجل المبتورة سيلطم خديه فلْيُجب على ألغازي السبعة خلال سبعة أيام: "على قارعة الطريق سيفٌ مسلول" "ستُّ عيون، ثلاثة أنوف، ثلاثة رؤوس، ذيل واحد، وثماني أرجل" "شيطانٌ أسود مدبب الرأس، شيطان صغير مسكين، ينغرز في المسكين، يُغمى عليه في الندى، ويتقيح في موسم الحصاد، وينهض في موسم الحشّ" "من عنده أسنان كثيرة ولا يعرف ألم الأسنان"؛ "من الذي نصب سلماً إلى السماء وصعد؟ من جلب الماء بالغربال؟ من شوى السمن بالسيخ"؛ "يفتح الباب

وليس له يد" "أين تذهب أيها الأعوج؟ ما شأنك بالمكان الذي أقصده، أيها المثقَّب؟" [1] الظاهر سيف الدين برقوق سلطان مصر القاهرة عام 1394.

– ما الذي جعلك تصمت الآن أيضاً؟

– هذا كل ما في الكتاب.

– وبِمَ يمكن أن تعلّق على ما قرأت؟

– أظن أن عقل سلطان مصر قد اختلّ.

– من اختل عقله هو أنت، لا هو – ابتسم تيمورلان الذي كان يكظم غضبه بصعوبة في وجه القارئ، ثم نهره: أبعِدْ عني جنونك إن لم يكن عندك من العقل غيرُ هذا! – شدد على الرجل الذي استدعاه إلى الغرفة "بادما" بتصفيقة – هذا الرأس الفارغ لا ينفع في شيء؛ ألحِقْه بالاثنين السابقَين!

تيمورلان الذي وصل الشرق بالغرب، والجنوب بالشمال أكثر من مرة، لم يكن فرق كبير بين رجولته وظلمه، وطيبته ونفاقه، ولا يمكن إبراز واحد منها. ولكن لأنه كانت فيه طبيعة يعرفها في نفسه تجاه أيّ إنسان، فقد انزلق بهدوء من المقعد المريح، وجلس على البلاط ضامّاً رجله السليمة، وهو يجد لنفسه دواء ومهدئاً في قتل هذا الإنسان البريء الذي سفك دمه في هذه اللحظة. وبعدما جلس لأياً وكأنه يسند رأسه الضخم بصدره أعادت إليه وعيَه دمعتُه التي لم يستطع منعها فنهض بحركة مفاجئة من جسده.

اقترب من النافذة، ونظر إلى الورقة، وفار قلبه وهو يعيد قراءة ما فيها: "لم يكفِ أنْ قتل رُسلي بل سخر مني المملوك الشركسي بما كتبه... – وأكمل

---

[1] الألغاز على التوالي: أفعى، فرس ومهرها، بعوضة، منشار، يد القدر الكبيرة، مطر، شمس، هواء، دخان، دون قيد. المؤلف. وهي عشرة كما يقول المؤلف ويُجيب.

ذرْعَه أرض الغرفة بعدما عصر الورقة في راحة يده. — حسناً فعلتُ إذ لم أعرض هذه الورقة على علمائي. أما الثلاثة الذين أرسلتهم إلى الآخرة فقد جعلت محتوى الورقة آخر سرٍّ عني يحفظونه. ماذا في هذه الورقة؟ الأمير إسلام الذي ظل يُلحّ علينا ونحن في بغداد أن نأتي إلى مصر لطرد الشراكسة سكت الآن. إن كنت تبحث عن خائن فهذا هو، وهو أول من يستحق الإعدام! أيمكن أن أعيش إلى زمن لا تتسع الدنيا فيه للخيانة والظلم؟..."

لجم السؤال الذي هجم على ذهن تيمور الرجلَ في الزاوية المظلمة من الغرفة. وشفى غيظه بأمور أخرى وهو يسخر من نفسه على ما خطر له ويبرّئها، ويصب حقده على غيره: "الشراكسة ظالمون، محاربون، مخادعون، يفدون أرضهم بروحهم. والعرب — أنانيون جبناء، يعطيك بلاده إن لم تمسّ ماله... العرب ليسوا مشكلة، أعقد المشكلات هم الشراكسة المماليك. بدلاً من أن ينتقموا ممن استعبدهم يحاربوننا مالئين صدورهم وأفواههم بالأرض المرملة التي ليست لهم، ويحمون بلاداً ليست لهم... — استرجع تيمورلان غزوته قبل أعوام لأرض الأديغة وطريقة انسحابه منها. المراعي التي يعقد عليها الفرسان آمالهم بعدما قطعوا مسافات شاسعة تحترق. والدخان الذي يمنعك أن ترى شمس الصيف وسماءها يعمي العيون، ويبعث اليأس في القلوب. والدروب الجبلية مسدودة بالأشجار المقطوعة. ومجموعات الفرسان الأديغة تنبثق من هنا وهناك. يصرعون خيل العدو بصدور أحصنتهم. ويُسقطون أرضاً الفرسان الذين فقدوا خيلهم. ويسددون السهام إلى ظهور المنهزمين... — إن كنت وصلتَ إلى الألغاز أيها العنيد الذي اغتصب سرج الغريب فلن أهدأ ما لم أفعل بك في مصر ما فعله بي أبناء قومك الشراكسة في بلادهم! سأنتزع روحك بالسيف المسلول الذي وضعتَه لي على حافة الطريق. نعم، نعم، يعني السيفُ

المسلولُ الحربَ؛ الآن فهمت. إن كانت الحرب فلتكنْ ! إن كان عندك أسنان كثيرة ولا تعرف ألمها أيها الشركسي الماهر في الكلام الموّرى فسأقتلعها منك سناً سناً !..."

في اليوم نفسه، كما يفعل عادة دائماً، أرسل تيمورلان قطعانه إلى سورية على طريق بغداد – حلب الأسرع زمناً.

حين قاد تيمورلان الجيوش التي اجتازت طريق بغداد – حلب في تسعة عشر يوماً إلى قمة المرتفع لم يفهم سرّ الجيوش المملوكية التي رآها على المرتفع الآخرِ غيرِ البعيد. وكان أعجب العجيب عرش سلطان مصر الأخضر المرتفع، وعلمه الذهبي المنصوب عالياً.

– هؤلاء مضى عليهم زمن طويل في انتظارنا... – قال تيمورلان لنفسه، وسأل القائد الذي يتأخر عنه مسافة رأس حصان: – من أرسل هؤلاء يا بادما لمواجهتنا؟ أما بقي لنا سرٌّ؟

– عندنا سرّ، يا قائد جيش العالم، ولكننا أمام هؤلاء مكشوفون، لا غطاء لنا. نحن جاهزون من هذه اللحظة لأنك أنت من قال إن من يركب أولاً ويحث حصانه يحصد النصر.

– مهلاً مهلاً ! – لا تشدّ القوس وليس فيه نبلٌ. أيمكن أن يكون ذاك الجالس على العرش هو سلطان مصر الثرثار؟

– هذا عرش من أهاننا في رسُلنا.

– أترى الشراكسة لأول مرة؟ هؤلاء لا يوثَق بهم. إن عرفوا أنهم سيخدعونك نصبوا لك مجلس السلطان والعَلَم. – إن كان برقوق سلطان مصر رجلاً – ما أبشع هذا الاسم! – فليعرض نفسه كما أفعلُ ولا يختبئْ! أين هو ذاك الذي التجأ إلينا قبل أيام؟

– ها هو يا قائد جيوش العالم – شعر إسلام بالإهانة إذ لم يُناده باسمه ولكنه ردّ كاظماً استياءه – أنا وراءك.

– اقترِبْ إلى هنا! – صاح تيمورلان إلى خلفه – إن بقيت ورائي فلن تحقق هدفك. متى مشيت أمامي وغلبت أعداءك المماليك حققتَ مرادك.

– كن واثقاً مني في هذه الناحية أيها القائد الكبير. لن أتراجع!

– أيكون سلطان المماليك يخدعنا بهذا الكرسي، وبالعلم الذهبي؟

– لا شيء يخطر لهذا الرجل ولا يفعله. ولكنه لا يخدعك هذه المرة. هاهو حصانه جاهز، وإن لم أُخطئ فبين الحشد أويس الجبان، والأمير شركس القصير الرقبة وتَغْري بَرْدي الكاتب، ويَتْمش المتورم، ومؤيد الرفيع الرأس، ومن لا أراه بينهم هو ابن قومي دروز الحكواتي، لا أعرف أين هو، ليس أمام ناظريّ.

– كيف عشت إلى الآن أيها المسكين مع كل من ذكرت أسماءهم! – غمغم تيمورلان مبتسماً وسأل: – من أريد رؤيته هو السلطان المملوكي؛ أين هو؟ لماذا لا يخرج من خيمة السلطنة؟

أسرع إسلام بالإجابة كي يستميل قلب من كان يخافه طوال عمره، والذي يتأمله الآن في استلام سلطنة مصر:

– ربما يخاف منك!

– ضيّعتَ كل ما قلتَه – قال تيمورلان. وبعد وقفة قصيرة قال بسخرية يُفهم منها أنه يعيد النظر في كل ما كان يُقلقه: – لا أعرف النوايا الحقيقية للمماليك الذين يواجهوننا، ولكنهم لا ينوون الحرب في الحقيقة. إن كانوا يريدون أن يلعبوا معنا لعبة الطميمة فأنا جاهز لهم. ما رأيك أنت يا بادما؟

– قول القائد الكبير قولُنا، وفِعلُه فعلُنا.

– إن كان هذا رأيكم فانصبوا لي أيضاً مقر قيادتي. وزيدوا في حميتكم، ولا تنقصوه. الآن أعرف كيف أخدع الشراكسة.

مضى أسبوع، ونصف شهر، وعشرون يوماً دون مناوشات بين الجيشين المتقابلين. وطوال هذه المدة لم تفلت من السماء الباهتة قطرة مطر، ولا هبّت نسمة تائهة. نهاراً تحرقك الشمس التي لا تعرف الرحمة، وليلاً لا يدعُك الرمل الذي يبرد فيطلق البخار.

ليس الجو الحارّ الباعث على الضيق مشكلة. سيطفئ الخريف القادم عى نحو غير منظور هذه الحالة. أعقد المشكلات الآن هي مسألة الجيشين المتواجهين اللذين لا يعرفان ما يحدث عموماً، وما سيحدث لهما خصوصاً. حقاً ليست نوايا الطرفين متماثلة: أحدهما نهّاب، والآخر حامٍ. وإن كنت تريد أن تعبّر عما في قلب إسلام الذي التجأ إلى تيمورلان فماذا يريد المماليك وماذا يَنقصهم؟ وهؤلاء نهابون قاطعو طريق. سلبوا السلطة من الناس الذين أنقذوهم من وسخهم، ويحمون الآن أرواحهم وأملاكهم، وليسوا مهمومين بوحدة بلادهم وهمومها. وأما تيمورلان فهو كالجراد. — لا ينوي حين يطير فوقك استعباد البلاد، بل يطير مبتعداً متى شبع. يلعب، يأكل، يشرب فوق الطعام من الكومس، وينام، ويسرد حين يفيق أحلامه، من ينتظر؟ لماذا لا يهاجم؟

بعدما انقضى الصيف، وبدأ الخريف ينشر بعض البرد الخفيف، بعدة أيام، استدعى تيمورلان إلى مقرّه إسلام:

– كيف تجري أمورك إذن يا معاون السلطان؟

– أموري حسنةٌ أيها القائد الكبير.– أجاب إسلام بسرعة، وأضاف ما يُقلقه، واستعداده: – سيفي مسقيّ، ومشطي في ركابي.

– حسنٌ أن تكون هكذا – ابتسم تيمورلان سراً – إذن ألا ترى أحلاماً في الليل؟

– لا أعرف إن كان في العالم الأحلام التي سألتَ عنها. أنام عميقاً أيها القائد العظيم.

– إذن، يا من أسعدك الله، لا تهتم بشيء – أنا رأيت من كنتَ معاونه. وكنتَ أيضاً معه في الحلم.

– وكيف أكون مع عدوي! – من يومٍ ما وقفتُ إلى جانبك يا قائدَ جيوش العالم ومالكَ أمره. لو انتزعتَ روح من كنت معاونه لاعتبرتُ نفسي سعيداً... لو فعلتَ هذا لرفعتَ عن أبناء قومي المساكين نِيْرَهم المملوكي...

– لم يكن عندكما، أنتما، مثل هذه النية – ابتسم تيمورلان ثانية في سره، وخطا بالحلم الذي ابتكره خطوة أخرى: كنتما تلعبان لعبة الأحاجي، والأحاجي القليلة التي لم تعرفها يمكنني أن أسردها: "يفتح الأبواب وليس له يد ورِجل".

أهذا ما سأعجز عنه؟ – عاد الدم إلى وجه إسلام الشاحب – هذا ليس ذا بال،كنت أسمعه في طفولتي: الريح.

– ويمكن أن يكون لها جواب آخر، ولكن بقي لك ما سمعتَ في طفولتك. إذن ما جواب هذه: "ست عيون وثلاثة أنوف و ثلاثة رؤوس وذيل واحد وثماني قوائم" – قال تيمرلان كأنه يمزح مع من كان يشحب لونه ثم يعود، ويعجز عن التفكير في أي شيء – كفى، لا ترهق نفسك إلى هذا الحد. ستبقى مصر محتاجة إليك. إن كان رجلاً، وماهراً في الأحاجي فليُجب على ما منعَنا أنت وأنا عن النوم الليلة. أتعرف ماذا تفعل يا بادما؟ ألا يكفي أننا نتواجه دون حرب منذ شهر. أريد أن يصطفّ منادونا ويُجيبني سلطان المماليك

على الأحجية التي لم يعرف إسلام جوابها. وسنُعلِمه أن معاونه انضمّ إلينا، فنُرعِش ساقيه، ونملأ قلبه بالهواجس.

– أتظن أيها القائد الكبير أن سلطان المماليك لا يعرف الجواب؟ سأل بادما حذراً ملاطفاً قائده.

– لا يعرف كل المحاربين ما يعرفه قائدهم. — حسم تيمورلان.

"ماذا ينوي هذا الأعرج الذي أودعتُه أملي؟ – ارتعش إسلام في قلبه — أنا أتملقه وأثني عليه، وأؤمّله في صناديق الذهب والفضة مدة ثلاث سنوات مقابل أن يُعيد إلينا الحكم الذي سلبه منا المماليك الأغراب، وهو يسخر مني حيناً ويبتسم لي حيناً. أيُّ حلم رآه هذا؟ وأي أحجية لا يجد جواباً لها؟ وهو يسألني: ألم تندم إلى الآن على ما فعلتَ؟ ثم يبتسم. إن كنت ترى لهفتي على أبناء قومي، وألمي لما تتحمل بلادي من عذاب عيباً فأنا لا أعرف كيف نجوت أنتَ من المآسي التي ارتكبتها في العالم. ما الفرق إذن بينكم وبين المماليك؟ أنتم عيون للرأس نفسه، وآذان له — ترون كما تريدون وتسمعون..." — لم يعد إسلام في هذه اللحظة راغباً في ما سيُطلعونه عليه لولا أنه لا يملك قراره. وهو الآن يفضل أن يجابه وحده بسيف مسلول الجيش الذي سيهلك على يده، على أن يركض وراء تيمورلان الأعرج إلى قُمرة القيادة.

حين خرج تيمورلان من مقر القيادة لم يُبدِ على نفسه انفعالاً بما رآه من جيوش المماليك على المرتفع المقابل التي تسلب العين وترعب القلب. وما كان على مرتفعه هو من جيوش تتباعد لم تكن أقل مما على مرتفع المماليك.

– تقاسمنا جيشاً جيداً، ولكن لا أعرف من سيبادر بالهجوم.

أجاب برقوق على الأسئلة التي أوصلها إليه المنادون المصطفّون:

– نحن نحمي أرضنا، إن كنت تريد غزونا فاركب!

–هذه رجولة، وكلام حق.

– والرجولة والحق لهما أسلوباهما.

– ربما لهذا نتسلح كلانا بالصبر إلى الآن.

– أنت لا أعرف، ولكني قلت لك إن أرضي هي قوتي.

– أتعدّ الأرض التي تقف عليها أرضَك؟

– أرضي لأني حميتها بدمي.

– أنا سفكتُ دمي في أراض كثيرة، ولكن لا أستطيع ادّعاء هذا.

– أنت وأنا أهدافنا متباينة.

– هذا صحيح، إذن هل تعرف مَن هذا الواقف إلى جانبي؟

– هذا الواقف إلى جانبك نعرف منذ زمن بعيد أنه التجأ إليك. ولكن إن كنت تقبل الخائن الذي لا نقبله لك فلتهنأ به!

– لم أسمع ما لا أستحق يا سلطان. – أكّد تيمورلان على جنوده: – لفّوا الخائن جيداً وأعيدوه على ظهر حصان إلى جماعته. – أكمل تيمورلان غير عابئ بصراخ إسلام – هذا ما أستطيع أن أفعله لأجلك اليوم أيها السلطان ولو كنتُ عاتباً عليك من أجل أويس الجبان، ومن أجل رُسُلي الأبطال. ما تحكم به عليه هو استحقاقه. والآن إذ أسحب جيوشي من المكان الذي لم نُشهر فيه السيوف لا تظن أنت ومماليكك أني خفتُ منكم. نحن عندنا مهمة أعظم من هذه باتجاه الشرق. وأخبرك أني في العام القادم، لا أكتمك، سأعود إلى غزوك.

– هذه رجولة إذ ليس من عادتك الهجوم علناً. سنكون على استعداد. ولكن لا تنس أنت أيضاً أنك لم تُحب على ألغازي.

لم يعبأ تيمورلان بما سمع بل اعتبره مضحكة.

XVIII

وصل المماليك إلى القاهرة والناس الذين سَرّهم افتراق جيش المماليك وجيش تيمورلان فجأة دون دماء استقبلوهم على الطريق بإشارات التحية والاحترام. مضى الخريف وحل العام الجديد، وكلما ذكروا اسم برقوق بالخير كما هي العادة في تكريم الخير وذمّ الشر، ذكروا بالشر اسم إسلام الذي أعدم على باب زويلة.

ليس مهماً أن يتناقل الناس اسمك بالخير أو بالشر. إن كنت سلطاناً فلأنك مثلُ كل الناس الآخرين، سيُفكِّكُكَ الناس، وهم ينسبون إليك أموراً كثيرة لم تخطر لك يوماً على بال، ويعيدون تركيبك. وليس المقصود أن الناس لم يكونوا يتكلمون على السلطان ويحملون عليه أحياناً. ولكن ارتفعت أسهمه، وذاعت بطولته وإنسانيته، ليس في مصر وحدها بل في كل العالم العربي، ووصلت إلى البلاد القريبة والبعيدة، لتصديه لتيمورلان، ومنْعِه قطعانه النهابة من دخول البلاد. أضِفْ إلى هذا سلوك إسلام الخائن. ولم يبق في جيوشه أمراء محليون، إلا دروز، ينشرون عنه موقفه من أهل البلاد، ويعترضون عليه. ولا بقي في مناصبه الأخرى. وكان واضحاً للجميع أن مصر بكاملها صارت في قبضة الأديغة.

– بما أنك جعلت قضاياك الأديغية يا ولدي قضايا البلاد، وان لم تُطعني، فالآن أظهِر لأهل البلاد ليونتك ومودتك. — قال أشمز لولده ثم نصحه: – لا تتخذ من إسلام الخائن نموذجاً ينطبق على كل أهل البلاد. احتفِظْ في قلبك بوقوفك في وجه تيمورلان ولا تدعهم يتكلمون في الموضوع كثيراً في حضرتك. المديح حلوٌ، يتقبله القلب، ولكن كثيراً من الكلام المر يختفي في ثناياه. حسنٌ أن تكون حازماً حكيماً، ولكن يحدث أن ما تلويه بالقوة يمكن أن يرتد عليك.

– والسندان يكسر المطرقة بصبره. أليس هذا ما تريد أن تقوله يا والدنا؟

– نعم، فهمت جيداً. – أجاب أشمز كأنه غير مهتم كثيراً. وتظاهر أنه يريد التمويه الآن على عناده وقد بدا من كلامه ومن لونه ارتياحُه لما سمع– أظنك مللت مني يا ولد لأني أصبحت ثرثاراً معك. ومَن كان أصل القول الشائع: "من يهرمْ يعشقْ رواية الأخبار وإن لم يَسمعوه يحرِدْ" ربما كان مثلي. ولذا إن كنت تريدني ألا أصدع رأسك بعد الآن وقبل أن أنتزع منك سلطنتك، أرسلني في طريقي الأديغي.

– ولماذا يا والدنا تنتزع مني السلطنة إن كنت أعتبرها صارت في عنقك؟ ألستَ سلطان مصر طوال مجابهتنا لتيمورلان؟

– إن كنت تقصد إسلام الذي كان يعتقد أن النصر دان لتيمورلان، وأن سلطنة مصر صارت في يده فلا تنسبه إليّ وحدي. وكان دروز معي. ولم يكن حموك فيصل خارج الحلقة. وكان يساندنا أهل المدينة والفلاحون، والشكر لهم. وما لا أغفره لنفسي حتى الآن هو أن عديم الشرف الذي التجأ إلى العدو، وأعادوه هرب من يدنا. وبعدما حدث ما حدث، لا فائدة من إعادة الكلام عليه فالأفضل ألا نهمل موضوع عودتي.

"كيف لا ينسى والدنا بلادنا!... – استغرب برقوق ما سمعه وإن آلم قلبه – إنه بلا أهل ولا أقارب فمن ينتظره هناك؟ وماذا سيفعل بعد الآن فيها... ليس له في الدنيا غيري وغيرُ ابني. يحترمونه ليس أقل مما يحترمونني وإن لم ينادوه "يا موفد الله" و "يا بديل الشمس". وأينما قابلوه حيوه تحية الاحترام. يدعونه إلى الجلوس، ولا يحدث أن يرد ذكرُ السلطان في صلاة الجمعة إلا أتبعوه بالدعاء له وإن ليس باسمه. أما هو فليس في قلبه إلا العودة إلى أرض الأديغة. أليس كل من يحيط به هنا أديغة؟ وفي القاهرة وفي أي مكان آخر يزيد عدد

أصوات الأديغة. ونحن لا نطلب من العرب الذين تخاف عليهم ألا يتكلموا لغتهم. وكيف نطلب منهم ألا يتكلموا لغة النبي! غير أن من يتعلقون بتعلم الأديغية يزيدون. أقول هذا ولكن أنا؟ لماذا قلبي أيضاً حيث قلب والدي؟... أهذا ما يقولون فيه: "حفنة من تراب الوطن أغلى من جبل من ذهب في بلاد الغربة"؟

– حسناً يا ولدي ألا تسمعني؟

– وكيف لا أسمعك يا والدنا! ما أفكر فيه أمر آخر. — خصّ برقوق الآمال المحبطة: – الحمُ يتجهز للحج، لا أعرف إن كان أخبرك، كنت أود أن تذهبا معاً. كنت أرفقت بكم أمير الحج مؤيّد كي يرعاكما في الرحلة.

"من يعرفك ومن لا يعرفك يغبطك، يحسدك؛ أيّ مشكلة أنت فيها يا ولدي فلا تستطيع أن تقول ما في قلبك؟... — وما فكر فيه أشمز شيء آخر — لو كانت مصر بكاملها في قبضتك، أنت سيء الحظ ولو كنت تقف على جبل الذهب، ولو كانوا يحبونك في عالم العرب ويحترمونك. كان خيراً من هذا أن تبقى راعي خنازير بين قومك تقاسمهم أفراحهم وأحزانهم، وتغني معهم أغاني الفرح والمراثي. لو كانت الغربة حسنة لما قالوا: غريب. أفهم كل ما حدث لك — الخير والشر — والذنبُ ذنبي. لم أستطع حمايتكم حين هاجمَنا الروسيك. غير أني دفعت ثمن ما لم أقدر عليه وجلب لك أنت البؤس منذ طفولتك وحتى سلطنتك اليوم..." سأل أشمز ابنه مخفياً بصعوبة وقْفَه اندفاع قلبه العجوز:

– أمِن أجل أن تجعلني حاجّاً قبل أن أعرف إلى أين وصل إسلامي؟ – ودون أن يتوقف عند سبب السؤال كان ما يُقلقه هو أهمّ لديه — أنا لا أزال وثنياً متعدد الآلهة. ومن جهة أخرى لم أنس بعدُ الدين الذي جاءنا به الروم المسيحيون الذين صاهرتَهم، وتربي ابنك منهم. وربما لم أخلُ منهما تماماً.

– وأنا لم أخل منهما يا والدنا – قال برقوق، ثم استغفر لنفسه بسرعة: – اغفر لي يا إلهي وارحمني وافهمني. اشتقت إلى أهلي الأديغة في منطقتنا. هؤلاء لا أظن أنهم غيروا دينهم دون علمك ورأيك. أنت راعي الجميع، تهدي من يخطئ. وباب جنتك مفتوح لكل فاعل خير. ليس في قلب والدنا إلا الخير فإن أخطأ في التعبير فسامحه. ولا تُجاف قومي الأديغة هناك الذي يصعب عليهم فهم الإسلام. وهؤلاء مثلُ والدي. ما لا يفهمونه اليوم يفهمونه غداً. وأنا كنت مثلهم حين وقفت أمامك صبياً. ومن لا يحبونني ينادونني إلى اليوم براعي الخنازير. وهؤلاء لا تحقدْ لهم الخير لأنك تعرفهم، هم أمثال الأمير إسلام. وتعاقبهم في حين أنك تعينني في مهمتي.

– مهلاً مهلاً يا سلطان مصر! – ابتسم أشمز – لا تخرج من موضوع حديثنا. ولا تستغله كما تريد. ما كان إسلام يعمل لأجله هو قضية العرب، لا قضية الدين والإسلام.

– ألم يكن خائناً؟ – نظر برقوق في وجه والده مستغرباً ما سمع.

– كان يريد أن يخدم أبناء قومه عن طريق الخيانة حين عجز عن تحقيق هدفه القومي.

– لا أعرف يا والدنا كأنك تمالئ من يمارس الخيانة.

– إذا كان يتعايش في الحياة البطل والجبان، والبريء والمذنب، والصدق والكذب، فأين تذهب بالخيانة والنذالة؟ ربما ليس في الدنيا إنسان، وأنت وأنا منهم، من لم يمارس يوماً خيانة ما، أو قلة شرف.

– لا أعرف كيف ستفهم هذا... – قال برقوق بحيث لا تفهم إن كان يبرئ والده أم يدينه. ثم قال لنفسه "هذا الرجل كلما جالسته تستفيد منه شيئاً لم تنتظره وتكتشفه عنده"

– أعد التفكير في طريق حياتك يسهلْ عليك فهمُ ما قلت. وهذا ما أفعله أنا أيضاً أحياناً.

– على ما يبدو يا والدنا أن أحدهم روى لك حياتي في مصر خمسين عاماً، غير السنوات السبع في بلادنا، على نحو جيد.

– لا يهمّ من روى لي! يسعدني أنك لم تسمح لهم أن يطمسوك مع أنك ارتكبت ذنوباً كثيرة. إذا استطعت حماية نفسك في غير بلادك ففكر في طريقة للتكفير عن خطاياك. واهتمّ دائماً بمن صرت سلطاناً عليهم وليسوا من قومك. واحذر عليهم من الغبار الذي يثور من تحت حوافر حصانك. وأقول لك من أجل أن ترعى أمورهم ... من يعرف إن وقعت في مأزق فكيف ستخرج منه؛ عندك أرض وبلاد يمكن أن تعود إليها. ولا تمتنعْ إن كنتُ فارقتُ الحياة قبل هذا. لا يستطيع قلبك أن يرفض حلاوة أو مرارة أرض الأديغة التي رجعتُ إليها بعظام أسرتك. وها أنت تريد أن ترسلني إلى الحج!

– شكراً يا والدنا. جعلتني أفكر في أمور كثيرة. لا إكراه في مشروع الحج. لم يكن أكثر من ذريعة لاستبقائك هنا.

– هذا الإكراه هو ما ينغص علينا عيشتنا. أصبتَ في كلامك... — هز أشمز رأسه لنفسه قليلاً، وأضاف: – هذا الإكراه المنحوس هو سبب دمار حياتي وحياتك. كونك سلطاناً على غير بلادك لا يسعدني يا ولدي بل يُفنيني.

رغم مرور سنة على رجوع الذين أعادوا العجوز إلى بلاده الأديغية بهدوء كما أوصلوه إلى ابنه فإن برقوق لا ينسى الكلمات الأخيرة له "كونك سلطاناً على غير بلادك لا يسعدني يا ولدي بل يُفنيني". يحملها في قلبه أينما سافر. وحين يدعو إلى الله في صلاته أن يحميه من الخطأ في دار الامتحان يشمل بدعائه والده وزوجته الأولى نفسه وابنه فرج من زوجته الثانية.

تجاوزت المهلة التي منحها له تيمورلان حين كان يسحب جيوشه من أرض المعركة السنة المحددة. وبلاد مصر تعيش حالة استقرار، ولا أحداث فيها تدعو إلى القلق، غير أن الأيام والأشهر تمضي، وبرقوق يذوب جسده يوماً بعد يوم دون أن يعرف السبب. وترى في لونه أن قلبه لا يجاريه وإن حاول إخفاء الأمر. ولم يعد يتشوق أو يستمتع بسباقات الخيل التي يقيمونها له كل شهر. وغالباً ما يقضي وقته وحيداً في غرفته. ويحدث أن يفوّت وقت الصلاة. يقابل الوفود القادمة من الخارج. ويكلف تغري ويتمش بحلّ القضايا الداخلية. وكلما قابل الأمير مؤيّد الذي كلفه بإيصال والده إلى بلاد الأديغة سأله عما شاهده هناك. ولا يملّ مهما كرر الأمير كلامه:

– على ما تقول يا مؤيد استقبلكم الأديغة جماعتنا بسرور. — يبدأ برقوق سؤاله بالعبارة نفسها مع معرفته بالجواب، وينتظره كأنه يسمعه أول مرة.

– لم يكتفوا بالاستقبال الحار يا موفد الله. ما أطيب هؤلاء الناس، بشوشون. وكم أولادهم طليقو الألسنة، وكم بناتهم جميلات الطباع !

– الحق أيها الأمير مؤيد أسمعك فأتساءل: هل تقابل الأديغة لأول مرة؟!

– ليس أول مرة، ولكن لم أكن بلغتُ السابعة حين جاؤوا بي من هناك.

– نعم، صحيح. — تنهد برقوق مغمض العينين — نسيت اسم أسرتك واسم قريتك. أنا لو رأيت قريتي لعرفتها حالاً... كفى، لا نغرقْ في أحزاننا. أنت محظوظ على أي حال إذ استنشقت ثانية هواء بلادنا... — وأضاف برقوق لنفسه: "أنا أظنني أنهيت آخر جرعة هواء استنشقتها في بلادي. لم أكن فهمت ما قاله لي والدي ولكن كلامه صحيح: الفرحة الاضطرارية تفنيك ولا تُسعِدك..."

في أحد الأيام لامت نفبسه زوجها بسبب ما لاحظته عليه:

– شيء ما يُفنيك، ولكنك تكتم عني.

– أليس كل ما في دنيانا مما يجلب لك الهمّ؟! – كان برقوق تظاهر بالمزاح معها ولكن القلق الذي رآه في عيني زوجته، حبه الأول، التي قاسمها الحياة سنوات كثيرة، أرعبه هو الآن. فلاطفها بالكلام: – كل شيء بخير، أنتِ تتخيلين فحسبُ يا نفيسه. ها نحن منذ بضع سنين انتهينا من الحروب لولا أن الشيخوخة توهننا. لا أقول إنه لا يحدث شيء في البلاد ولكن هذه الأحداث لا قيمة لها بالقياس إلى ما كان يأتينا من المغول شرقاً ومن الصليبيين غرباً.

تبقى المرأة دائماً امرأة. حين سمعت نفيسه "الشيخوخة توهننا" أصلحت وضع الغطاء الحريري الجديد على رأسها، ولو أنها تجاوزت الخمسين منذ زمن غير قصير. وشدّت قامتها. ولم تقبل من زوجها ما لم تقتنع به:

– أتوهنك الشيخوخة يا برقوق في سن الستين! أبعِد هذه الأفكار عن رأسك، ولا تدعْ أحداً يسمعك. ليست الشيخوخة ما توهنك... يُخيَّل إليّ أنك والأمير مؤيد تُكثران من لقاءاتكما وأحاديثكما، وترهقان نفسيكما بهذه الأحاديث. ولو استطعنا لاستبقينا والدك، ولا سمحنا للمرحوم والدي أن يلحق بأمي؛ ليجعلهما الله من أهل الجنة. ولْيُسعِد الله والدك مع من عاد إليهم. لا يمكن إلا الامتثال لما قدّره الله الذي يبتهلون إليه وهو لا يحتاج إلى أحد في دار الاختبار الفانية. وتحمّلت معي ما حدث لي – عادت نفيسه إلى وعيها لحظة غلبها الانفعال – إن أردت يا برقوق قمنا، متى قررت، بزيارة إلى نواحيكم لأني أتصور أن هذا يجلب لك الراحة. وأنت تجد هناك دواء المرض الذي يفنيك، وأنا أرى أبناء قومي الأديغة.

– لو عرفت أني سأتنفس ثانية هواء بلادي العذب... – أسرع برقوق الذي لا يحب ردود الأفعال العاطفية بالجواب، سكت. ودون فاصل وجد لنفسه عذراً

– إن فعلت هذا فإلى من سأكِلُ السلطنة؟ كأنك لا تعرفين حاشيتي! لن نرى السلطنة ثانية ما إن أدير ظهري.

– مؤيد، شركس، تغري، يتمش، والأمراء الأديغة الآخرون؛ أليسوا موضع ثقة؟ سألت نفبسه مرتاعة مما سمعت.

– هؤلاء الذين عددت أسماءهم أليسوا أديغة؟ أليس الأديغة أول من يحفرون لك؟ – أجاب برقوق على سؤاله مغمغماً، وابتسم لامرأته.

– لا أعرف إذن. لم يبق من غير الأديغة من تثق به إلا الأمير دروز. – اعتذرت نفبسه عن كلامها الساخر بنظرة دافئة إلى زوجها.

– والأمير دروز أثق به، ولكني حذرٌ منه. لا داعي لليأس. لا أزال أفكر في شخص موثوق آخر، وإن كنت لا أعرف هل ستوافقينني.

– لماذا لا أوافقك يابرقوق وابنك هو من عندك لتثق به؟ – أخفت نفبسه الألم الذي عبر قلبها – وأنا كنت أفكر في فرج. ليحمه الله، صار شاباً بخلاف ما توحي به سنواته الثلاث عشرة. غير أني لا أعرف كيف ستقابلنا أمه الرومية المتكتمة. – لم تستطع إلا أن تضيف هذا.

– ليست أمُّه من ستكون سلطاناً ! – جزم برقوق بصوت ثابت كعادته حين يتابع موضوعاً معيناً.– سأكلف تغري ويتمش بتربيته ريثما تكتمل رجولته. وأنا سأرعاه. وإن لم يُطعني فسأنتزع منه السلطنة دون أن أستشير أحداً.

– إذا كان عندك شكٌّ ما في فرج فلماذا تستعجل عليه قبل استكمال رجولته؟

– لم تستطع نفبسه الآن كتمان حقيقة ما في قلبها.

– لا يمكن أن يخرج عن طوعي إلى مكان آخر – ابتسم برقوق ثم خصّ بالقول: – في كل موضوع لابد أن تبقى زاوية للمتابعة، أقول من يدري؟ وإلا فلست مستعجلاً عليه.

– صحيح يا برقوق – وافقت المرأة زوجها بسرعة مع قليل من الاقتناع. – لماذا نترك الفرصة لأعدائنا ليعبثوا معنا في شيخوختنا؟ تصرّفْ حسب الظروف.

مع أن الشتاء كان مطراً ناعماً دائماً فقد سمح للناس الذين نجَوا من حرُّ الصيف – الخريف أن يتنفسوا ملء صدورهم. وفي يوم لطيف من أواخر الربيع التالي جمع برقوق المجلس الاستشاري وقد لبس أعضاؤه أرقّ ما عندهم من ثياب ملونة. وحمَلَهم، دون أن يساهم أحد في النقاش، على إصدار أمرٍ بتوريث فرج السلطنةَ. واختتم بخاتمة قصيرة:

– لا يعني الأمر الذي صدر بمعرفة الله أن يستلم فرج السلطنة حالاً. إن سافرت إلى مكان ما، أو استدعاني من أنا موفدُه، وقتها ستصبح السلطنة مسؤولية فرج.

سأل برقوق المرأة حين عاد إلى البيت:

– ما رأيك في قرار المجلس الاستشاري؟

– قررتم بسرعة. ولكن هذا يخالف ما قلتَ لي.

– وهل المخالفة باتجاه الأحسن ام الأسوأ؟

– وكيف يكون أسوأ؟ هكذا كان يجب اتخاذه. وما كنتُ أريده.

– عملتُ كما تريدين لأني سمعتُك يا زوجة السلطان – مزح برقوق مع المرأة بوجه هادئ – لأجل هذا قالوا: المتحابّان يعرف كل منهما الآخر قلباً وروحاً. والآن إن كنت جاهزة يمكننا ركوب طريق بلاد الأديغة. ليس اليوم أو غداً، ألا يكفي شهر لنحضر للرحلة؟

– ولن تستغرق كل هذه المدة. – أسرعت نفبسه بالإجابة وقالت لزوجها في قلبها: "إن كانت البلاد التي عشتَ عمرك تشتاق إليها هي دواءك فأنا معك"

– شكراً يا نفبسه. أريد أن أستريح قليلاً.

******

مضى على استعداد برقوق عدة أيام لا يسعه الفرح من توجهه إلى بلاد الأديغة. مزق صراخ نفبسه التي رأت السلطان فارق الحياة على صلاة الصبح،صباح الصيف:

– يا لَمصيبتي يا برقوق!... سلطان مصر رحل.

وكانت الوفاة في العاشر من شهر حزيران عام 1399 م.

******

كانت مصر ما تزال تعيش الحزن للموت المفاجئ للظاهر أبو سعيد برقوق سيف الدين أنَس الجركسي العثمان اليلبغائي حين جاءت آسته أم السلطان فرج إلى نفبسه ذات يوم:

– ادخلي الغرفة، لا تقفي على العتبة. — قالت نفبسه التي تعتقد أنها وضرتها تتقاسمان الحزن.

– اهتمّي لنفسك قبل أن تهتمّي لي أيتها البقرة العاقر. من تنتظرين؟ وماذا تنتظرين؟ اغربي عن وجهنا حالاً!

– ألا تتعظين بمأساة السلطان؛ أيُّ شريرة أنتِ لتقولي هذا ولمّا يسترح جثمانه في قبره؟

– لستُ أنا من كان زوجَها.

– من أين أتى فرج إذن؟ – لم تكن نفبسه لتتراجع أمام ضرتها، إذ كلما مرّ بعض الوقت تصحو إلى حالها وتحمي زوجها.

– مِن هذا الذي لم يعد إليّ بعد ليلتي الأولى، واحتفظتِ به في حضنك ثلاثة عشر عاماً.

– الحكم في هذا من شأن الله تعالى، ولستِ أنتِ.

– ابتعدي عنا دون مزيد من الثرثرة!

– ألم يبق في مصر شرفٌ وتقاليد غير هذه؟

– بالنسبة لي، أنا أم سلطان مصر، بلى بقي. وانتِ لم يبق لكِ.

الكتاب الرابع

I

حياة الإنسان كالشهاب الثاقب. ونهايات النجوم ليست واحدة. بعضها يحترق في مكانه مرعباً الشهود، والآخر ينطلق ثم يختفي. وغيرها يترك في السماء جسراً من النار.

كان السلطان فرج في طفولته يحب العمل في شأن النجوم. غير أن برقوق لم يكن يسمح له أن يحادثه في شأنها. — لم يكن يريد أن يذكّره بأيام طفولته البائسة. لم يكن يحب أن يقول للصبي إن نجمته التي انطفأت في سماء الأديغة اشتعلت من جديد في سماء مصر. وفارق برقوق الحياة وهو لا ينسى قوله "النجوم عندنا في المشرق أكبر من نجومكم في المغرب. ونجوم الروم ليست صغيرة ولكنك لا تتكلم في شأنها"

وأشمز طوال إقامته في مصر كان مشغولاً بقضية النجوم.

– لماذا نجمة السلطان أكبر من نجمتي؟ – سأل فرج جده في إحدى الأمسيات.

– من الذي قال لك هذا يا ولدي؟

– مؤيد — بدا من صوت فرج عدم رضاه عن الأمير.

– لا تعتب على مؤيد لهذا السبب، ربما لأنك لست سلطاناً.

– ورأي يتمش المنجم في حجم النجوم مختلف.

– أتريد أن تقول إن الأمر يتعلق بقربها وبعدها عن الأرض.

– من أين تعرف؟ أأنت أعلمُ من يتمش؟

– كيف أصل إلى علم يتمش، هو إنسان متعلم. غير أني سمعتهم في نواحينا يقولون هكذا.

– والروم؟ – قال فرج فجأة – تقول أمي إن الروم يعيشون في جهة المغرب.

– صحيح. الروم والأديغة جيران. بحر واحد فقط يفصل بينهم.

ليست قليلة الأحداث التي جرت في مصر خلال السنوات الخمس التي مضت على وفاة برقوق، والتي حدثت في العالم. ونفبسه التي لم تتحمل الميتة المفاجئة المأساوية للزوج، والإهانة التي ألحقتها بها ضرتها ماتت قبل أكثر من أربع سنين. ووصل إلى مصر هذا الربيع خبر رحيل أشمز: لم يكونوا قلائل من حزنوا له، ومن لم يعبؤوا بالخبر. "ما العمل هذا مصير كل المسنين" – كان هذا تعليق فرج على وفاة جده مردداً كلمات أمه. ولكن من لم يقبل بهذا ثلاثةُ أشخاص: قائد جميع الجيوش المملوكية بيبرس الثاني، ومؤيد الشيخ، والأمير دروز. وكان غيرهم لا يودونه، ولكن فرج لم يعبأ بهؤلاء، وقال لأتابكيه السابقين تغري ويتمش:

– ألا يكفي أنكما كنتما وصيين عليّ خمس سنين ريثما وصلت إليّ السلطنة التي منحني إياها الله؟ متى احتجت إليكما وجدتكما. وبما أنك المهتم بالكتابة يا تغري فاكتب ما أقول وما أفعل. ولما كان ما يذيع عني أعدائي في شأن جدي كذباً فأنا لم يصلني، وأنت لم تسمع. ما أغرب ما ابتدعوا لي وأنا أكاد أجلس على العرش! ذكِّرْني يا يتمش إن لم تنس ما قاله لي جدي مرة بشأن الأقران الأعداء! هذا ما يحدث لك إن لم تعرف لغتك.

– لا أحد ليس عنده أصدقاء ومُبغِضون.

– نعم، وشبيهُه ما قالته لي أمي بالرومية.

– وأعرف كلمة مأثورة أخرى عند الأديغة بخصوص الأصدقاء والمبغِضين. — قال تغري، ثم ترجمه إلى العربية على قدر استطاعته: ما يفعله بك صديق واحد مؤسف أكثر مما يفعله ألف عدوّ.

– لو كنت أتكلم الرومية كما تتكلمان الأديغية...! زفر فرج من أعماقه، ثم عاد بسرعة إلى حاله: – لا تُغضبا بيبرس ومؤيَّد لهذا السبب. وإكراماً لأبي لا تهملوا دروز. ولكن لو كان الروم بين حرسي لما كان سيئاً. وكانت أمي المسكينة تفرح بهم. وكان يسرني أنا. لو حققتم لي هذا المطلب الوحيد لأرضيتماني. لا أقول بين اليوم والغد؛ هذا يحتاج إلى وقت.

– "اسمع ماذا يقول !... — صاح يتمش في قلبه — لا نقبل من أهل البلاد اتهامهم لنا ولكن انظر فيمَ يفكر في الوقت الذي تهتز فيه قدمه في رِكاب سلطنته. من الصعب معرفة صدقك يا دنيا وكذبك، ورحمتك وظلمك، ولو كنت مركبة من أربعة أطراف علنية وسرية. والأربعة تصلها شمس النهار وقمر الليل. ما الذي اجتذب فرج إلى جهة بلاد الروم دون أن يشده الدم الأديغي؟ أي قوة غير مرئية هذه؟..."

يفكر الأمير تغري بطريقة أخرى: "كل عرق شرير لا يعرف قوته في نفسه خطيرٌ على كل أقطار الدنيا. والسلطان الذي لم يسمع وقع حوافر خيل المغول وصليل سيوف الصليبيين من أين له أن يعرف هذا؟ إنه مهتم بجلب مماليك روم وليس بجحافل المغول التي تسد الأفق. حسنٌ أن تحمي نفسك غير أن قضايا البلاد فوق الجميع. عبثٌ كل رعايتنا وتربيتنا لهذا الشاب وكلامنا معه وعملُنا من أجله خلال خمس سنوات. وكما كان برقوق يقول: لم يرث شيئاً من طباع والده. إذا قرر أن يستدرج الروم كما يفكر فالأديغة الذين استعذبوا طعم السلطة لن يقبلوا. وإن ابتسم للعرب مُحسِناً إلى الروم فستعُمُّ الفوضى والمجابهة

مصر. وستتجدد النزاعات البحرية – البرجية. إن احتاج إلينا وجدَنا... ربما كان أصل قولهم: "الحصان الذي تطعمه يرفسك" شخصاً مثله. ومع ذلك فلا يزال هذا شاباً. وهو الابن الوحيد لبرقوق الذي ساندناه طوال حياتنا. من حسن حظك يا برقوق أنك لم تشهد سلطنة ابنك الذي لم نستطع تربيته..."

نشب النزاع الذي كان يتوجس منه تغري بردي بين البحرية والبرجية. وكان أول من رفض هذا هو بيبرس الثاني. وأيده مؤيد وشركس وتغري ودروز وغيرهم. وبين البحرية الذين اصطفوا إلى جانب فرج السلطان كان أديغة وتركمان وترك وأوزبيك وعرب وغيرُهم. ومع أن بيبرس الثاني كان قلبه مع البرجية فإنه لم يكن يستطيع الانحياز إلى طرف لأنه قائد كافة جيوش المماليك. وفرج الذي كان يتصرف حسب تعليمات الأمير يتمش كان له الموقف نفسُه. والاثنان وإن لم يتقابلا كثيراً فحين يلتقيان يتبادلان الابتسامات، ويكتمان عدم ارتياحهما: أحدهما يعتمد على الجيش، والآخر يستمد الثقة من سلطنته.

الكلام، وإن خلا من الطعن وسفك الدماء، يدمر أحسن الأسر تفاهماً حين يسري فيها. والبلاد كالأسرة. رغم أنه كان يبدو بين الأعراق المتنوعة التي تعيش في مصر نوع من الاتفاق فإن ما كان يمنعها من الانشقاق هو الخوف من هيبة السلطان الذي كان يتحكم في السلطة كما يشاء، وحكمته، ودهاؤه. وكان السلاطين يعرفون أنه لا يتحقق لهم شيء دون دعم الجيش فلا يُفلتونه من قبضتهم. والسلاطين الذين لم يفهموا أنه إذا لم يكن أساس العرش الذهبي محشواً بالمال بقدر ليس أقل مما في البلاد فإنه مجرد كرسيٍّ، لا يعيشون طويلاً في أي عصر. ولم يرحل برقوق دون مال. غير أن أعظم ملك ورّثه هو السلطنة المدعّمة بالمناصب الأديغية. وكان حفْرُ أساسه وهزُّه يحتاجان إلى كثير من الجهد.

– ما العمل يا يتمش؟ – سأل فرج في أحد الأيام التي دبّ اليأس فيها إلى نفسه أحد أتابكَيه الذي بقي إلى جانبه –كيف سلوك النجوم معنا؟ يُخيل إليّ أن نجمتي أدارت ظهرها لي ولم تعد تعبأ بي.

– النجوم في سماء الله وإن لم تُظلّنا اليوم كما نريد. ونجمتك ستُظلُّك منتظرة اليوم الذي ستعطيك فيه.

– إن بقيت نجومنا هكذا ولم تهجرنا فهذا حسنٌ. ولكني سألتك أيضاً ماذا نفعل.

– يجب أن تتحلى بالصبر يا موفد الله. سننتظر يوم قِران نجمينا.

– ومتى سيحدث هذا؟

– كل شيء يحتاج إلى وقت. ولكن سأطلب منك شيئاً واحداً إن أطعتني.

– قلْ !

– في الوقت الذي ما يزال فيه تهديد تيمورلان يخيم علينا يجب أن تصفو العلاقات بين السلطان والقائد العام للجيش.

– هذا القائد الذي تتكلم عليه لا يودُّه قلبي. إن لم أستدعه إليّ فهو لا يأتيني لأمر عسكري أو لغيره. ألا تتذكر كيف تصرّفوا معي حين طرحت على المجلس الاستشاري فكرة أن الجيش يجب أن يكون، كما قبلي، تحت قيادة السلطان؟ وأنت ترى موقفي منهم بدلاً من أن أعتب عليهم. ما المشكلة إن اهتممت بالروم المساكين قليلاً... والدي، من يوم ما وعيت، لم يكن على لسانه إلا موضوعه الأديغي... أتعرف ما الذي أتعجب منه؟ لا يقف أهل البلاد إلى جانبي انتقاماً لأنفسهم.

– هؤلاء يا موفد الله – أسرع يتمش بالإجابة – لا يجوز أن توعيّهم إلى أنفسهم. وإلا فسيحشروننا من أديغة وترك وروم و يهود، ويعيدوننا إلى عبوديتنا.

– هذا رأيُك؟ – صحيح، أوافقك. ولكن من أنا؟ أأنا سلطان أم مملوك؟

– أنت سلطان مصر. أعرف ماذا يجب أن تفعل من أجل يفهموا أنك سلطان، وينفذ أمرك.

– سأحل مجلس الأمراء! – لم يملك فرج إلا أن يسرع بما يشتهي.

– لا، بدِّدهم، ولا تحُلَّ مجلسَهم! شيئاً فشيئاً ستستبدلهم بمن يؤيدونك من الأمراء. أبعِدْ مؤيد الخبيث متى عاد من الحج عن بيبرس قائد الجيش.

– وأين أذهب به؟ – سأل فرج بصوت طفولي قاصر.

– أبعده عنك بوضعه في منصب أعلى. أليس مناسباً إرساله أميراً على الشام؟ هذه المنطقة هي أول أهداف تيمورلان.

– ابتكرت فكرة جيدة! – فرح فرج ثم عاد وتغير وجهه – أسألك يا يتمش: أتتوقع أن يهاجمنا تيمورلان الأعرج، ألم تخبرك النجوم؟

– والنجوم لا تخدعك ولكننا نعرف أنه لن يُخلف تهديده. – ما الذي انتظره هذا الأعرج ولم يهجم في عهد برقوق؟

– وهذا ما أسأله أنا – " وافق فرج منجّمه وهو يقول لنفسه: "ليأت إن شاء، سيعيد على الأقل هؤلاء الأديغة الذين أفسدهم والدي بالدلال إلى وعيهم. إن فهمني فسأناكف أعدائي وأعقد معه اتفاقاً سرياً " – إذن سنتصرف مع الأمير مؤيد هكذا إن وافق.

– لا أعرف يا موفد الله إن كان من ترسله إليهم يتقبلونه أم لا. ولكن سترى إن لم يشكرك. منذ زمن بعيد أعرف أنه يطمح إلى إمارة الشام. ابعث معه صديقه دروز ولْيُجابها في الشام جيش تيمورلان!

– نعم، صحيح. لن نقف في طريقهما إن كانا قادرين على مواجهته. — بعد أن جلس فرج قليلاً مخفياً ابتسامته في سره، سأل ثانية عما كان مهموماً به: – حقاً يا يتمش أتصدِّق أن تيمورلان سيغزونا؟

– إن تبين أن الصدق كان كذباً، وأن الكذب حوَّل نفسه إلى صدق، فلا أعرف وقتها أيَّهما تصدّق يا موفد الله. ولكن سأعود وأراجع النجوم وأستمع إليها، وأُطلعك على ما قالت وما فعلت.

مع أن موضوع الأمير مؤيد النحلّ في سورية كما لم يتأمل السلطان؛ فبعد توليه إمارة الشام ببضعة أشهر جابه بصحبة بيبرس الثاني جيوش تيمورلان، غير أنهما لم يستطيعا الصمود في وجهه مهما اجترحا من بطولات. ورغم مسير الأحداث على هذا النحو لم يضع المماليك السلاح ويستسلموا. وكانوا يحاربون العدو في مختلف أنحاء البلاد على شكل مجموعات صغيرة من الفرسان، فلا يتيحون له المجال ليستريح. وظلت شجاعة ودهاء تيمورلان الذي كان ينوي الانقضاض على مصر يحميانه فنجا أكثر من مرة من المهالك. ولكن لم يملك بيبرس الثاني وشركس ودروز مثل هذا الحظ. وكان من ينجو من أشرس المعارك هو الأمير مؤيد، ربما لأن هذا مكتوب على جبينه.

وفي تلك الأيام لم تنعم القاهرة البعيدة عن الشام بالسلام. ترك السلطان فرج البحرية والبرجية يتقاتلون متخذاً موقف المؤيد لمن ينتصر. وانتصر الأديغة البرجية على البحرية. وحين أُبلِغ السلطان باستلامهم السلطة كتم ألمه قائلاً إن المنتصرين والمهزومين كلهم من الأديغة، ونحن ألسنا منهم؟

كانت عينا تيمورلان وقلبه الآن في مصر، جهة القاهرة غير أن القائد المغولي الذي ثار ضده العرب والأكراد في العراق جمع جيوشه وغادر سورية إلى العراق.

والأمير مؤيد الذي سمع خبر اقتتال المماليك في مصر، واعتبره إهانة، جمع جيشاً لم يكتمل، وتوجه بمجموعة من الفرسان إلى القاهرة مشحوناً بالغضب على السلطان الذي تسبب في هذا الاقتتال.

وكتم مؤيد نيته عن الجميع حتى وصل إلى القاهرة. وبقي في القصر الكبير الذي دخله باسم "المؤيَّد قِرْمَه قوه سيف الدين شيخ، سلطان مصر". وأخرج فرج الذي كانت نفسُه همَّه الوحيد جثةً هامدة.

والناس الذين سمعوا الخبر من المنادين قالوا وهم يهزون رؤوسهم "ما أسوأ حظك يا برقوق!" ولم يترحموا على ابنه فرج. ولم يذكر أحدٌ بخير أو بشرٍّ اسمَ مؤيد الذي صعد على دماء المماليك سلطاناً.

وحدث هذا في يوم معكَّر من أيام شهر تموز عام 1412.

II

يحب مؤيد السلطان مراقبة الشمس الغاربة.

الشمس الحمراء الكبيرة الزاحفة نحو المغيب، ماثلة أمام عيني مؤيد اليوم، كما أمسِ، وأولَ من أمسِ، والسنواتِ الماضية. ولا يملّ من التعليق عليها: "هنا ننهي يومنا. والغد القادم ماذا سيحمل لنا يا ربي؟ أنفرح به أنه يزيد في أعمارنا؟... هذه ليست كلمات حسنة يا ربي فاغفرها لي. لم يكن في ذهني مثلُ هذه الأفكار السيئة مادمت أقارع أعدائي – أعداءك، وربثما جعلتَ مني سلطاناً. لو لم يخرّب فرج بن برقوق أمور أبيه المتعلقة بالأديغة في مصر، ولم يبدأ بمجابهتنا بالروم أقرباء أمّه، لربما ما فكرت في اغتصاب السلطة. أرى أن السلطة التي استلمتها، والحق أنه لا يحدث شيء في العالم دون علمك يا ربي، ولست نادماً على ما فعلت، ليست مهمتي. ما أسعد الأيام التي كنت فيها أمير الحجاج إلى الكعبة! حين أقول لابني إبراهيم: "إن كنتَ تحب فعل الخير في دنيانا، دار الاختبار، فاعمل في مهنتي السابقة" يلتفت إلى سيفه، ولا يقول لي "حسناً ".

مضت عدة سنوات على سلطنة المؤيد قرمه قوه سيف الدين شيخ لم يجر في مصر خلالها أي حادث حسن أو سيء. – الشمس تشرق وتغيب، والليالي المقمرة هادئة. والطبيعة تغير نفسها أربع مرات في العام. تُقام الأعراس، والمآتم. الإنسانية تُثمَّن وتهجَر. وكما المودّة بين الناس فالجفاء بينهم ليس قليلاً. هذا غني، والآخر فقير. من يملك يركب الحصان، ومن لا يملك فعلى رجليه. ولكنهم جميعاً متساوون أمام الله. السلطان والفلاح، وقائد الجيش والمحارب، والقاتل وفاعل الخير، كلهم حين يقفون أمام الله في الصلاة يدعون الدعاء

نفسه، ويركعون على رُكبِهم، ويسلمون عليه، ويبتهلون إليه أن ينظر إليهم بعين الرحمة. والمؤيد السلطان واحدٌ من هؤلاء.

– ما الأمر يا إبراهيم، أتسبب لك الشمس الغاربة الكآبة أنت أيضاً؟ – سأل السلطان ابنه.

– ولماذا أكتئب للشمس الغاربة وأنا أعرف أنها ستشرق غداً !... – أجاب إبراهيم أمير الأربعين جواباً لا مبالياً. – ما يُقلِقني أمرٌ آخر.

– أود لو أعرف ما يقلقك إن لم يكن سراً عليّ يا أمير المئة. نعم، نعم. لا تتعجب. اعتباراً من هذا اليوم رفّعتُك إلى هذه الرتبة. وليس الترفيع فحسب بل سأُسلّمك رئاسة المجلس الاستشاري.

– وأنت؟ ألن تكون على رأس المجلس الاستشاري.

– أعدّ ما أخدم به ابني ذا الخمسة والعشرين عاماً خدمةً لنفسي. ماذا؛ ألستَ سعيداً؟

– وضعتَني في موقف صعب ولكن لو جاءني المنصب من آخرين وليس منك لكان أفضل لي.

– مَن غيري في مصر يستطيع أن يبوئك هذا المنصب؟ – سأل السلطان الذي لم يكن مهموماً بأي شيء في السنة الأخيرة، بوجه قلق الآن.

– لا أعرف. مجلس الأمراء المستشارين...

– لا تدعني أسمع! – غضب السلطان مؤيد كما لو أن السماء نفسها أحرقته، ثم أنهى بصوت أهدأ كمن ندم على سلوكه أمام ابنه: – ما أحوجني إلى هؤلاء الذين يمتدحون أنفسهم. هل وصلك شيء من أقوالهم.

– لا أسمح لأحد أن يتخذ مني محادثاً في مثل هذه الأمور.

– تفعل حسناً، ولكنك تخطئ.

– أيقودني تصرفي الصحيح إلى الخطأ؟

– لو كانت دنيانا قائمة على الصدق وحده لنسينا جنة آخرتنا... الحق يا إبراهيم إلى أي أحاديث تستدرجني؟ اغفر لي يا ربي. هذا ابني يقول إنه إن دخل في الشوك فسيخرج دون أن تعلق به شوكة، وإن سار تحت المطر لم تُصبه قطرة منه، ومن يمدَّ يده إلى عينه فلن يمد يده إلى روحه. ويتخيل نهاره مشمساً دائماً، وليله مقمراً. وأنا كنت هكذا في زمن مضى يا إبراهيم، ولكن حتى لو كان الحرام أساس السلطنة ما كان عندي خيارٌ آخرُ غيره. —كان فرج المغفل سيهيننا إلى الأبد في بلاد الغربة. ولو لم يكن يجري في عروقه دم برقوق الرجل الأديغي الحقيقي لهان الأمر؟

"ماذا يريد والدي أن يقول؟ يبدأ ثم يتوقف. يحفر لنفسه بنفسه. لا يكف عن الكلام على فرج الذي نسي الناس اسمه حامياً برقوق مردداً "لا ينجب رجل جيد ولداً جيداً".أيكون السبب أنه لا يثق بي أم تؤثر فيه طريقة وصوله إلى السلطنة؟..." —كان إبراهيم يكظم نفسه بصعوبة أمام والده ومع ذلك سأله:

– لا تندم على ما فعلت لفرج يا موفد الله!

– يريحني أن تقول لي هذا. ولكن ما يلمّح لي قلبي به شيء آخر. ليتك رأيت فرج كيف كان فاقد الأمل حين استللتُ سيفي!

– هل كل من مات تحت سيفك كان فاقد الأمل؟ – فقد إبراهيم الآن صبره.

– تسألني كأنك لم تكن معي في ساحة المعركة. أولئك كانوا أعداء. أما فرج فقد عاش طفولته في حضني. مسحت بيدي على رأسه، دللته.

– ولكنه لم يُطعكما أنت ووالده رغم هذا. وخانَكما. كان يغذي الخلاف بين المماليك البحرية والبرجية. كان ينوي عقْد اتفاقٍ سري مع تيمورلان من أجل

حماية شخصه. تُفني نفسك على أنك لم تقبل منه جنونه، ناسياً سنوات السلام التي عاشتها مصر بفضلك.

– أسمعك يا إبراهيم فلا أسمع إلا الحكمة. وأنا لم أكن بعيداً عن التفكير في الأمر سواء كنتُ رابط الجأش متماسكاً أم كنتُ مليئاً بالشفقة عليه. ولكن لماذا لا تقبل إذن منصب أمير المئة الذي منحتك إياه، ورئيس المجلس الاستشاري؟ ألأنك تحميني من الخطأ الذي وقع فيه برقوق بشأن ابنه بتجنُّبِك إياه؟

– سأعرض عليك رأيي ما دمتَ أجبتَ على سؤالك بنفسك: آنف مما يمنحني والدي السلطان ولا يتناسب مع عقلي ورجولتي. أعتدّ برتبة أمير الأربعين التي شرفوني بها بعد أن حاربنا في القاهرة المماليك البحرية الذين كانوا ينوون سلْبَنا سلطتنا نحن الأديغة. ولكنْ أن تشتهي منصب السلطان الذي يؤدي مهامه وتسلبه سلطته فهذا عيب وحرام.

– لا أعرف يا إبراهيم إن كنتَ تُعرّض بذنبي بذريعة أنك تبرّئني... — ابتسم السلطان كمن يمزح مع ابنه ويلومه معاً، وعاد سريعاً إلى الموقف: – لا، لا. لم تتجاوز الحقيقة. إن لم تكن همومنا، أنت وأنا، تتطابق فلا فائدة فينا كلينا. ولكنك تنسى أن ما لا تسمح لي أن أقدمه لك يا ولدي لن يقدمه أحدٌ إليك بعد رحيلي. والآن أسمِعْني ما يشغل بالك!

– لا يريحني أن الجيش الذي يقوده قره يوسف التركي ينهبنا. لست وحدي، وبارسباي، وألتن، وتتار، وجامبك أيضاً.

– وأنا لا يعجبني الأتراك ذوو السراويل العريضة. — قال السلطان بعد قليل — لم أكن أريد أن آتي على ذكرهم وأجعل من الموضوع مشكلة لأنهم لا يحاربوننا.

ماذا إذن يقول الأمير ألتن؟ التركمان الذين هو منهم والأتراك من عرق واحد. ماذا تريد أن تقول لي بهذا؟

– إن أذِنتَ لي يا موفد الله حملتُ إليك رأس قره يوسف.

– ومن سيكون معك من الأمراء؟

– الأربعة الذين ذكرتُ أسماءهم.

– وهل تثق بهم؟

– نعم.

– حسنٌ أنك هكذا يا ولدي. لكني أخشى عليك من المبالغة في سلامة نواياك... احرصْ على نفسك. لا ترفع نظرك عمن هم أمامك، ومن هم خلفك، ومن هم إلى جانبيك.

– لا أعرف كيف تعيش في حذر دائم.

– هذه دنيانا التي نحن فيها.

ما إن سار إبراهيم بجنوده الأربعين حتى تبادل ألتن وتتار نظرات جانبية، فأكّد كل منهما للآخر السر الذي في قلبه. وحين رأيا مكان وقوف كبش قره يوسف الأسود الرمز[1] همس ألتن في أذن تتار:

– أأنت جاهز؟

– جاهز.

– هذه المهمة ليس فيها تفضيل أحد على غيره. في أول اشتباك نقطع رأسه دون شاهد. وإن لم نفعل هذا فسيصبح هذا الأجرب سلطاناً علينا بسرعة.

---

[1] الخرفان السود قبيلة من التركمان اتخذت الخروف الأسود شعاراً، وحكمت شرق الأناضول وأجزاء من العراق وإيران والقفقاس، وقضت على دولتها دولة الخرفان البيض عام 1469.

– وأخوه الأصغر؟

– هذا عمره سنة ونصف فقط. هذا إلى أن يكبر أو يُهرَس ستحدث في مصر أحداث كثيرة. – "تبتسم في وجهي أيها المرتخي الجفنين، غير أني سرعان ما سأُلحِقك به" – قال ألتن في نفسه باسماً لشريكه. وكانت هذه النية الشريرة في ذهن تتار أيضاً.

ضربة السيف المفاجئة التي سُدِّدت إلى إبراهيم من الخلف جعلته يلتفت التفاتة رعب:

– هذا أنت يا ألتن؟ !... وسقط عن الحصان.

– قُتِل ابن سلطان مصر!... – ارتمى ألتن على إبراهيم صارخاً. وصار يبكي ويرثي: – أيّ مأساة حلّت بنا! لو عرفت أنك ستنام في حضني هكذا لارتميت على سيف القاتل... بأيِّ وجه سنحملك الآن إلى والدك السلطان المؤيد؟ !

تحقق لألتن وتتار ما يريدان: حين رأى السلطان مؤيد جثة إبراهيم انهار ومات. ولم يستغرب المشاركون في المأتم ما فعله الأمير بارسباي في اللحظة نفسها بل رأوه مناسباً: أتى بالصبي أحمد ذي العام والنصف وهو يبكي، وأجلسه على عرش والده المؤيد قرمه قوه سيف الدين، وحينها اتفق أمراء مصر عليه سلطاناً، ولقبوه بالمظفَّر.

III

العالم مركب بطريقة عجيبة: كانت تعليقات الناس على الأخبار الثلاثة التي أعلنها المنادون مختلفة: "مأتم أحدهم، وعرس الآخر" "سلاطيننا يأتون ويرحلون بطريقة واحدة" "من سيلحق بهؤلاء الآن؟" ولم يكن من ارتدوا ملابس الحداد، ومن كانوا يمسحون دموعهم، ومن يبتهلون إلى الله قليلين.

كان ألتن وتتار في دار السلطان كأن لم يفعلا شيئاً. ولم يكونا ليغفرا للأمير بارسباي الذي أعلن من طرفه فحسبُ وعلى نحو مفاجئ تنصيب أحمد الصبي سلطاناً وإن كانا يكتمان الآن مشاعرهما. ولكن كان يسرهما منصب مربي السلطان الذي منح لهما ولم يُمنح لبارسباي فبقي مجرد أمير خادم. وكانا يسعيان دائماً إلى الانتقاص من شأنه وإهانته. وكلما فعلا هذا اكتفى بارسباي بالابتسام ولم يكشف ما ينويه.

ولم تكن العلاقة بين ألتن وتتار توحي بالخير. – كانا يتنازعان التقرب إلى الصبي الذي لا يعرف بعدُ أنه سلطان. ومع أن جامبك كان من الذين حملوا الجثمان فقد حرص على عدم الظهور كثيراً في دار السلطان. غير أن عواطفه كانت أميل إلى الأمير تتار.

وحين يلتقي تتار وألتن يتبادلان الابتسامات وهما يتحدثان في موضوعات لا قيمة لها.

– حقاً هل سنبقى نحن الرجلين في خدمة هذا الصبي البكّاء! – لم يُطق ألتن صبراً على ما يُهمُّه.

– أما قلتُ لك حين اقترحتَ قتْل الأمير إبراهيم إن له أخاً صغيراً ولكنك لم تسمعني؟ – سأل تتار كأنْ لا حقد وراء السؤال. ولكن ألتن سمع ما كان يخشاه فلم يقبل:

– مهلاً، مهلاً. هل كنت وحدي؛ ألم نتفق كلانا؟

– نعم، اتفقنا، ولكن لم أقصد كل هذا بما لم يُرضِك. — استرجع تتار وعيه بسرعة، وابتسم بينه وبين نفسه: "ألستَ من قتله، ثم يهتم الآن بالصبي..." — كيف يكون بيننا سر، أمن هذا اليوم فحسبُ يعرف أحدنا الآخر.

– ليس اليوم. لو لم نكن هكذا أكنتُ جعلتُك تشاركني ضربة سيفي ! — وأضاف إلى ما قاله بصوت هادئ: – ولكن لأني أقول: من يعرف...؟

– لو لم تُضفْ هذا لكان أفضل. قلْ إن كان في قلبك شيء؛ أنا جاهز.

– إن كنت جاهزاً فأنا أكِلُ إليك هذه المهمة.

– وبعدها؟ – أسرعت اللهفة بتتار.

– أيُّ "بعدها"؟ إن كان الموضوع من سيكون منا سلطاناً فإما أنت وإما أنا.

– لا، لا يا ألتن. لا تتكلم على ما ليس من شأني — صرخ تتار بما ليس في قلبه — ما الذي يؤهّلني لها؟ سيسرني أن تجعلني معاوناً للسلطان أو قائداً للجيش. ولكن إن خلّصتني من بارسباي الخبيث وجامبك الشرِه فسأرضى بإمارتي للأربعين. وإن نسيتني فلن أعتب عليك.

– هل تعرّضُ لي بالقول المأثور "الإبرة التي تحمل خيطين لا تخيط" في الوقت الذي تذكرني فيه بالقول الآخر"إن كنت تريد إفناء البلاد فادعُ إلى الله أن يكثُر أمراؤها" أم أنك لا تعرف القول المأثور الآخر "القلب كالأسد إن سيطرتَ عليه حماك، وإن أفلتته مزّقك"؟ – سأل ألتن الذي لم يكن يُطيق الأقوال المرائية، متظاهراً باللامبالاة، صاحبه تتار عن الأقوال العربية المأثورة ، ولم ينتظر الجواب — لا داعي للكثير من الكلام؛ دعْنا نُنهِ ما بدأنا به دون إبطاء.

– نقول ما في قلبينا يا ألتن ولا نثرثر — أجاب تتار بين اللوم والملاطفة، "لستُ أقل خبرة منك في الأقوال العربية". إذا قيل "متى تكثر الديوك يتأخر قدوم

الصباح" تقول لنفسك "أن تكون ديكاً يوماً واحداً خيرٌ من أن تبقى دجاجة طوال عمرك" لن أحقق لك حلمك ليس ساعة بل دقيقة واحدة. يا أيها "القاتل المحترف!" — وخطا خطوة في كلامه الصريح: – لن ينجو مما خططتُه لأجله.

– وماذا خططت؟ – رفع ألتن رأسه بعنف مما سمع.

– ألا يمكن أن يسقط من على النافذة أو يقع في البئر؟

– اعمل به ما تشاء. وإن أردت فسجِّه إلى جانب أبيه وأخيه. دون أن نظهر، لا أنا ولا أنت، وسترى إن لم أُنصِّبْك سلطاناً في اليوم نفسه!

– لن أقبل السلطنة بوجودك أنت يا ألتن — مرة أخرى كتم تتار ما في قلبه.

– إن كان هذا رأيك فهناك حلّ لأن كل مسألة يجب أن تحلّ بالإنصاف. سنختار بالقرعة مادام الأخ الأكبر قتل على يدك والأصغر سيقتل على يدي. ومن يفز بالقرعة يكن سلطاناً والآخرُ معاوناً.

– إذا وصلنا إلى هذا الموقف يا ألتن فسنرى وإن كنت لا أحب القرعة. قال تتار: لا تدعْني أستعجل، هذا يحتاج إلى وقت. ثم أضاف لنفسه: "لا أجهل كيف ستدبّر أنت أمر القرعة"

الصبي أحمد الذي لم يتجاوز الثانية، والذي لا يعرف بعدُ ليس ما يجري في العالم، أو في مصر، بل لا يعرف لماذا تشرق الشمس ولماذا تغيب، ولا يميز الليل من النهار، جالس على العرش بملابس السلطان. وإلى جانبي العرش يقف بارسباي وجامبك. وعلى المقاعد الوثيرة المصفوفة إلى جدران الغرفة الفسيحة يجلس الأمراء. والأتابك تتار الذي تعهد بافتتاح مجلس الأمراء جاهز. وألتن الذي سيبحثون موضوعه واقف وحده على أرض الغرفة. ورأسه لا مرفوع ولا مُطرق. يُقنع نفسه أنه واقف في الساحة التي سيتكلم منها، مخفياً أن الإهانة

التي ألحقها بنفسه تحرقه. ولا صوت يصدر في القاعة الهادئة إلا صوت الطفل الذي ملّ من الجلوس، يصفُق بكعبيه الصغيرين حافة السرير.

– بعلم الله، وتحت رعايته – قال تتار – أفتتح اجتماعنا اليوم باسم السلطان المظفر أحمد. أدعو لكم أن يجعل الله يومكم مئةً. لن أطيل الكلام. هذا العديم الشرف الماثل أمامكم تعرفون أنه كان ينوي قتل موفد الله العلي العظيم. ولكن، وسنُسمعه هو أيضاً، ما تقررونه بحقه أنفذه لكم.

– انظروا كيف "يُسلطِن نفسه هذا الصبي"! – فال ألتن الواقف في ساحة الاتهام، والذي فهم أن قضيته محسومة، فاضطر الصبي إلى الانطواء على نفسه. ثم سخر من الأمراء مشيراً إليه: – أأنتم من لا يطمحون إلى الكرسي الذي أجلستم عليه هذه اللعبة! أنا قلت ما في نفسي ولم أكتم لتتار النمّام. وأنتم؟ أنتم جالسون تشتهون كما يشتهي الكلب قطعة العظم. أنا بالنسبة إليكم عظمةٌ ولكني لن أدعكم تشبعون. لا أندم على الهدف الذي لم يتحقق. بعد ما سمعتم أعتبر نفسي فارقت الحياة وأنا سلطان.

– لماذا نتركه يقول هذه السخافات! – بكى من جديد الصبي الذي جفل من صراخ الأمير، والأصوات التي هاجت ردَّ فعلٍ عليه. – لا تبكِ يا موفد الله؛ دمعة منك تساوي هذا المجرم الواقف أمامك.

– منذ زمن بعيد يرثي هذا الصبي نفسه. – نظر ألتن باسماً نحو بارسباي. – منذ أن جاء به من الغرفة وأجلسه أمام المأتم كي لا تحاولوا الاقتراب من كرسي السلطان.

– لا أتكلم على أمثالك! – حين هجم بارسباي والصبي بيده رمى تتار نفسه أمامه فأوقف بارسباي.

– كفى! ما فائدة أن تطعن خنزيراً مقتولاً بسكين؟ ! – ثم توجه إلى الأمراء المستشارين: – أيّ عقوبة سنفرضها على هذا؟

– اقتلْه ! صرخ أكثر من أمير معاً.

– إن أطعتموني فما أريدكم أن تفعلوا به شيء آخر – ساهم الأمير جقمق برأيه – كنت سأسجنه إلى أن يبلغ السلطان أحمد المظفر ثماني عشرة سنة. ثم لِيفعلْ به السلطان ما يريد.

– مستحيل! – لم يقبل تتار الأتابك قائلاً في نفسه: " ليته لم يرمِ تهمة قتلِ الأمير إبراهيم عليّ" – المجرم عقوبته القتل.

– اقتلْه! – الآن أيّد أكثر المجتمعين.

– اقتله، اقتله! – سحب جقمق اقتراحه.

كما أن العظمة الواحدة لا يستطيع كلبان أن يأكلاها فقد أثبت تتار وألتن صحة المثل العربي، فبعد مرور بضعة أشهر على صراعهما وقع تتار في الحفرة التي حفرها بنفسه: دون أن يعرفوا ما حدث له – والعارف الوحيد المفترض هو الأمير بارسباي، مات ميتة مفاجئة – والصبي السلطان المظفر أحمد صار لزاماً على بارسباي وجامبك أن يتنازعا عليه. ودان النصر لبارسباي وأمر بحبس الأمير جامبك والأمراء الذين ساندوه. واستطاع خلال نصف سنة، من خلال اعتنائه بالصبي وقيامه بشؤونه أن يكون سلطاناً على مصر من دون اعتراضات. الإنسان لا يعرف التوقف إلى أن يصل إلى مبتغاه. وحين يحقق مراده يفرح به بقدر ما يكفيه. ثم حين يصبح يتفكر شيئاً فشيئاً بالحظ الذي واتاه تنتصب أمامه أسئلة يصعب الإجابة عليها. أيُّ نوع من الأسئلة هذه؟ عند الإنسان أسرار يستحيل أن يكشف عنها بنفسه. ويحملها معه ما دام حياً بواعثَ خجل وندم. وحين ينتهي عمره يحملها معه إلى الدار الآخرة.

الأشرف سيف الدين بارسباي السلطان تحقق له حلم حياته ولكنه إنسان أيضاً. وأين يذهب بنفسه تاركاً الناس بذريعة أن الحظ واتاه؟ وأي حظ سيكون هذا؟ أيكون حظاً غليظاً قصيراً أم نحيفاً طويلاً؟... مضت عليه عدة أيام سلطاناً لمصر وهذا السؤال يدور في ذهنه. وما يتذكره مما فيه فائدة ومما لا فائدة فيه كثير. ومتى غلب الرديءُ الحسنَ انتشل نفسه من ذكرياته بخضّة رأس: "إذن هل سأجلس هكذا؟ يجب القيام بعمل ما. وماذا أعمل؟... ما كان أسعدني حين كنت أميراً من عامة الأمراء! وحين كنت أتابكاً لم يكن عملي سيئاً. وحين كنت أمارس مهام للسلطان مؤيد في قصره كان عندي منصب جيد، كان الجميع يحترمونني، ويحيونني، وأنفع باسم الأمراء قرانصة المماليك المسنين.[1] ولو لم ينقُض ألتن وتتار تفاهُمَ الأسر السلطانية لربما ما كنت فعلت ما فعلت... اغفر لي يا إلهي ربما أنا أيضاً لم أخلُ من رغبةٍ في شيء أو اشتهاءٍ..."

كان أكبر هموم بارسباي خلوّ الخزينة من رواتب الجنود. والبقية القليلة من المال تكفي نصف سنة أو لا تكفي. ولم يكن غنياً ليدفع للجنود من ماله الخاص كما كان يفعل السلاطين قبله. فماذا يفعل؟ إن زاد على الضرائب في الداخل تورط في أزمة لا مخرج منها. وإن دخل في الاقتراض فمن يقرضه؟ وإن أقرضوه فكيف يسدده؟ وفي البلاد أغنياء يُخْفون مصادر دخلهم، ولكن من يستطيع كشْفها؟ بالإضافة إلى محصّلي الضرائب يجب إيجاد أماكن عمل لمن يكشفون من يُخفون أموالهم. وهذا يحتاج إلى مال وإلى وقت. المخرج الوحيد أمامنا: الحرب! ولكن يمكن أن تكون طريقاً إلى الخراب، كما إلى الغنى.

---

[1] القرانصة هم قدماء المماليك، ويقابلهم الجُلبان. وهم فريق من الجيش ظل في مستوى أمراء الخمسة، فكانوا دائمي الثورات لعدم ترقيتهم.

– خزينة البلاد بقي فيها مال قليل يا جقمق. فما العمل؟ – سأل السلطان بارسباي قائد جيشه عما يشغل باله.

– وأنا فكرت في الموضوع يا موفد الله.

– ومن أين تعرف أن المال في خزينة الدولة قليل؟ – أخفى السلطان استياءه من معرفة غيره بما يعرفه هو.

– كان السلطان المؤيد شكا لي مرة. – "ما أسرع ما انفعلتَ كأن أحداً مدّ يده إلى جيبك!" قال جقمق للسلطان الذي يشكّ فيه.

– هذا هو؟ – سأل بارسباي، ثم أضاف ناسياً كيف جلس هو على عرش مصر: – إذا كلّفت نفسك بما لا تستطيعه فهذه هي النتيجة... من العيب أن نعيد تقويم السلاطين الذين سبقونا. الأفضل من هذا أن نتكلم في قضايانا يا قائد كل الجيوش المملوكية. إن كنت تعرف مخرجاً فهاته!

– لا شيء إلا الموت لا مخرج له يا موفد الله. إذا كنا استطعنا إنقاذ مصر من الفتنة التي أثارها فينا ألتن وتتار فسنجد حلاً لهذه المشكلة أيضاً.

– سأقول لك المخرج الوحيد – قاطع السلطان بارسباي كلام القائد جقمق – الحرب. ما أخبار الصليبيين الذين كانوا يأتون في ولاية السلطان فرج من جزيرة قبرص؟

– لا يتعاملون معنا الآن كما كانوا في الماضي.

– أيخافوننا أم امتلؤوا مالاً؟

– يخافون يا موفد الله. ولكنهم ليسوا فقراء. لا يعرفون أين يذهبون بمالِهم.

– إن كانوا لا يعرفون أين يذهبون به – ابتسم بارسباي – فلْيقاسمونا! الحق يا جقمق ألم يصل المماليك مرة إلى جزيرة قبرص؟ تظاهر بالسؤال عن أمر يعرفه.

– وصلوا، وجاؤوا منها بمال وفير وأسرى كثيرين. وأثرَوا حينها خزينة مصر.

– ماذا ننتظر إذن، ونحن نساير زعيمهم جان؟ أليس عندنا نحن المماليك من هم ماهرون في الملاحة؟ إن كان عندنا فأنزلوهم فيها دون ضجيج. أمِر عليهم إينال علي لأنه ماهر في الشؤون البحرية. وأبلغه ثقتي به واتكالي عليه.

– سأباشر حالاً المهمة التي كلفتني بها يا موفد الله.

– ليس من مصر ترسل جيش المماليك بل من سورية. مدينة اللاذقية أقرب بكثير إلى جزيرة قبرص. — ودّع السلطان قائد جيشه الذي يهمّ بالخروج بهذه التعليمات.

– نعم، نعم، يا موفد الله، اللاذقية قريبة سأطلقهم منها — اختفى وراء الباب القائد الذي كان يردد في نفسه: "من جعل من نفسه عاجزاً لا يتحرك من مكانه صار الآن يفهم في كل شيء"

لم يكن السلطان الذي لا يعرف إن كانت مهمة المماليك الذين يجهَّزون لحملة قبرص ستنجح أم لا عاطلاً عن العمل: لم يترك على جبل المقطم، ولا في قلعة الروضة قائداً لم يقابله ولم يُغرِه بزيادة في راتبه. ولم يكتفِ بهذا بل دعا إلى القصر بعض الأغنياء واحداً واحداً. — ودفعهم سواء بالإحراج أم بالإرهاب إلى التبرع للخزينة. وظهر له أشخاص نافذون في هذا المجال علناً وسراً. واستطاع أن يحمل بعض أمراء الجيش على أن يمدوا أيديهم إلى جيوبهم. ولم يغب عن باله مالكو قطعان المواشي الأثرياء من البدو. وتجار طريق الحرير هم من لم يضطر إلى ترجّيهم: ضاعف الضرائب عليهم. وحين اقترح عليه أحد الأمراء رفع أجور الأسواق والجسور لم يقبل لأن هذا الباب سيوصل شيئاً فشيئاً إلى المطاعم والحمامات والمقاهي والورشات ومحلات الخياطة وغيرها مما سيشيع الفوضى في السوق.

جاء المماليك من قبرص بأضعاف ما استطاع بارسباي طوال سنة كاملة جمعه: واستغرق عدُّ أكياس الذهب والنقود الفضية من قِبلِ عدة أشخاص أياماً. وجنى من بيع مئات الأسرى أموالاً غير قليلة. وابتكر بارسباي طريقة جديدة في بيع الأسرى لم يفطن إليها أسلافه: لم يسمح ببيع أسر الأسرى مشتتة.

والخبر الذي حملوه إلى السلطان بارسباي من قبرص في العام التالي للحملة، أي عام 1426 م كان له ردُّ فعلٍ مباشر؛ إذ لم تمض ساعة على ورود الخبر حتى استدعى الأميرين جقمق وإينال. وما إن جلسا حتى بادرهما:

– أأنتما جاهزان؟

– وكيف لا نكون جاهزين يا موفد الله؛ ألسنا أديغة؟ ! أجاب جقمق حالاً.

– حسنٌ أنكما لم تنسيا في بلاد الغربة أن الأديغي إذا طُلب منه السير لم يسأل إلى أين.– الآن، قبل الغد، ستسافران. — الآن مرة أخرى ستبحران إلى قبرص وتحملان إليّ الملك جان الذي ينوي مهاجمتي، ليس رأسه، بل حياً. فإن بعناه إلى قومه حصلنا على ما يكفي رواتب للجيش عدة سنوات. وسنفرض على الجزيرة نفسها الضريبة. وسيكون الأمير إينال علي معاونك في هذه المرة يا جقمق.

– جاهزون من هذه اللحظة يا موفد الله.

تحقق مرة أخرى للسلطان الأشرف سيف الدين بارسباي ما يريد: احتل المماليك في أقل من شهر مُدُن فاماغوست ولارنكا وليماسول. وأحضروا الملك جان وأسرته وحاشيته إلى مصر، وباعوهم في العام نفسه إلى موفدي الدول الأوربية التي افتدتهم بثلاثمئة ألف دينار. وأُلحق بالسعر ضريبة ثلاث سنوات.

خلال السنوات الخمس عشرة التي تبوّأ فيها بارسباي السلطنة على أنقاض مؤيد وإبراهيم وألتن وتتار وأحمد، إن استثنيت منها حملتيه على قبرص، عاشت

مصر في سلام. ولكن بعد السنة التي تلت وفاته هو دون أن يمرض عام 1438، بعد الكوليرا والجراد والجفاف، عمّ جدبٌ شديد في مصر.

******

"من غاب بشخصه أكلت الكلاب حماره" كلام صحيح.

حقق جقمق آخر رجاء للأشرف سيف الدين بارسباي السلطان وهو يفارق الحياة، أن يُحلَّ محله ابنه يوسف، وما لبث بعد أقل من سنة أن نصَّب نفسه سلطاناً عى مصر.

IV

_ ألم يحدث أن ندمتَ على مافعلت؟ سأل السلطان جقمق قائد جيشه.

– في الدنيا الفانية يفعل الإنسان الكثير من الخير والكثير من الشر يا موفد الله. ولكن لا أعرف أيَّهما تقصد.– أجاب إينال بسرعة ولو أنه لم يكن يعرف ما وراء السؤال المفاجئ للسلطان.

– وعلى الخير يندمون... كيف ستفهمك الأسر التي ليس في بيوتها خبز؟ وأصعب المشكلات هم المماليك الذين هم أملُنا. حين سألت قبل أيام أحد مماليك الأمير قايتباي عن عِيشته، ردّ علي في الحقيقة كل ما لدينا لايعادل رغيف ذرة" – بقينا يا موفد الله نُثني على الأمير قايتباي حتى أفسدنا مماليكه. أنا سأتحقق من اسم هذا المملوك وآتيك به.

– لا، لا. لم يُخطئ معي. لا تُعاد لهذا السبب الأميرَ قايتباي، ورئيسَ حرسه قانشاو أمير العشرين، وهذا اسمه إن أردت. لم أستطع أن أرضي مصر التي فرضتُ نفسي عليها، والتي أرهقها الجدب، وأنا سلطان، بقطعة خبز منذ أكثر من سنة. الدكاكين والأسواق والمطاعم فارغة. والأغذية التي أستوردها من بلاد أخرى تُسرق من هنا وهناك قبل أن تصل. والصليبيون المتجمعون في رودس، وقراصنة البحر المحتشدون فيها لا يدَعوننا نتحرك. لو كانوا يأتوننا محاربين لما كان في الأمر مشكلة. يباغتوننا ثم يختفون في البحر لا نعلم كيف. سنغزو رودس كما غزونا قبرص متى عادت إلينا عافيتنا. ولكن أكبر مشكلة هي مشكلة الأتراك — الأوغوز الذين احتلوا القسطنطينية قبل أعوام. وقد استولوا

على المضائق التي كنا نسافر عبرها إلى نواحينا.[1]– لهذا كان برقوق يقول: لا يجوز أن نسمح للأتراك أن يرفعوا رؤوسهم — قال إينال، ونصح السلطان واثقاً من نفسه: – لا تندم على أنك أخذت السلطة من يوسف الصبي الذي لم يكن مؤهلاً للحكم، بعدما حققت لوالده رجاءه. لا أمير في مصر غيرُك يمكنه حمل هذه المهمة. أتتذكر السلطان المؤيد كان يردد دائماً: لا يدخل أحدٌ الجنة بالنوايا الحسنة فحسب، يجب أن يكون لك معها قلبٌ طيب؟ أصدِر أوامرك يا موفد الله نغزُ الترك حالاً، وندمرهم في القسطنطينية نفسِها.

– إينال يا أمير البحر — ضحك السلطان جقمق — لا تسرع مجاذيفُ مراكبك إلى هذا الحد، ستُهلك أصحابك. ألم تسمع إذن قولهم: من لا سلامَ في بيته يعيش في جهنم؟ المماليك يستقلون ما ندفع لهم مع أنه كثير. وإن لم نُرضِهم فستنشب الفتنة في مصر. ويجب وضْعُ حدٍّ لأمراء سورية. حين يغزوهم المغول أو الصليبيون فنحن ملجؤهم.

– ألا تعرف ماذا تفعل بهم يا موفد الله؟

– أعرف، ولكن قل لي ما تعرف أنت.

– نغزوهم، وندمرهم.

– تريد أن تشعل في البلاد حرباً أهلية؟

– إن كان هذا رأيَك يا موفد الله فلا أعرف إذن... — ارتعب الأمير إينال في سره وأنهى مغمغماً مسوّغاً — المغول والصليبيون صمتوا.

---

[1] أو الغزّ، هم التركمان حالياً، ومنهم ينحدر مؤسسو الدولة العثمانية. وعُرفوا في العالم العربي باسم السلاجقة.

– يا إينال أنت أمير بحر ممتاز، ولكنك أحياناً تخلط بين البحر والصحراء الخاوية. نحن مرتاحون للجم المغول والصليبيين، وأنت متلهف عليهم. وأمراء سورية اللجوجون ليسوا مشكلة. هؤلاء تهدئتهم سهلة، ويمكننا التفريق بينهم. المشكلة العظمى الآن هي الوقوف في وجه الترك – الأوغوز الذين جئتَ على ذكرِهم. في اعتقادك ماسبب دعوتي شاه روخ ابن عدونا السابق تيمور إلى هنا؟

– أمن أجل تلبية طلبه الذي رفضه السلطان مؤيد والسلطان بارسباي؟

– لا عجب في هذا، ربما ألبّي طلبه. ما العمل؟ الحياة تقدم البطيخ الناضج إلى هذا، وغير الناضج إلى ذاك زاعمةً أنه ناضج. أنا لست مضطراً بل هو الذي يلحّ عليّ. لستُ في وضع لا مخرج لي منه؛ ولكن أليس الحرص على النفس أفضل؟

– نعم، نعم. حتى الإمام يخطئ وهو يتلو دعاءه.

– الأفضل ألا تخطئ – والسلطان لم يغير موقفه.

منذ زمن بعيد يريد شاه روخ أن يكسوَ الكعبة بالمخمل الأخضر المعتاد. وكان تيمورلان ما يزال حياً وقتها. ولم يكن والده بعيداً عن هذه الرغبة. – كان يود أن يفعل هذا حين يحتل مصر. ولكنه كان يتورع عن أن يغزو بالسلاح المكان المقدس الذي أرسل منه الله نبيه مُحَمَّداً. وربما لهذا السبب كان يأتي بجيوشه إلى حدود سورية ثم يسحبها. ولكن أليست بغداد مدينة عربية؟ احتلها تيمورلان ونهبها ليست مرة أو مرتين. ولم يكن هذا يمنع من أن يكون في نيتهم أن ينطلقوا منها ويقصدوا الكعبة العربية، وينسحبوا منها.

يستوي عند الزمن كل الناس بغضِّ النظر عن ألوانهم ولغاتهم ولباسهم وطعامهم وأدیانهم – لا يسأل أحداً: ماذا تريد، وماذا تنوي، وإلى أين تذهب، ومن أين تأتي، وماذا فعلت وكنت تفعل. وهو يتغير من الليل إلى النهار، إلى الصيف

والشتاء والربيع والخريف. وإن تأمّل أن يتجدد مع غده فهو يهرم مع أمسه وسابقه، ومع تعاقب شهوره، فيسمونه باسم قرونه السالفة. ليسوا قلائل من يخلّدهم التاريخ بالخير أو بالشر. ومن يُنسَون، أعاشوا أم لم يعيشوا، أكثرُ. مُحَمَّد النبي الغالي، ويسوع المصلوب، والإسكندر المقدوني، وجنكيز خان، وباتيخان، وبيباريس، وبرقوق، وتيمورلان، كلهم عاشوا على هذه الأرض. وكلهم خلدهم التاريخ، تبعاً لما كانت عليه حياته، واصِفاً إياهم بما يستحقون وما لا يستحقون. وكلهم كانوا يرون رأيَ العين الشرقَ والغرب والشمال والجنوب. ولكن لم يستطع أحدٌ، باستثناء النبي مُحَمَّد ويسوع المصلوب، الوصول إلى الجبال القريبة – البعيدة التي تلتقي فيها السماء بالأرض.

لم يكن شاه روخ كسائر قادة الجيوش. كان خلال حياة والده وحروبه يحمل السيف والدين معاً. وقضى عمره خائفاً من أن يلبي للعقل ما يأباه القلب. ولما كان الدين آخر أمل له في التكفير عن ذنوبه لم يبق له، وقد صار الدين كل حياته، إلا المحمل يكسو به الكعبة. وإن فعل هذا فقد كان يأمل أن تُفتح لأبيه الذي لم يستطع أحدٌ انتزاع السيف من يده، أبواب الجنة.

– الحق أن تيمورلان كان قائداً عسكرياً قاسياً. – أضاف جقمق – لم يحقق الله له طمعه في احتلال العالم كله. أين تقدِّر أن يكون هذا الآن؟ يحترق في نار جهنم. وشاه روخ يترجانا منذ سنين ويتوسل. ولما كان مؤيد وبرقوق لا يسمحان له بالاقتراب منهما فقد وجدني الآن. لا يمر شهر دون أن يرسل إليّ. ولا أعرف بِمَ أجيبه.

– إن كنت متردداً – غيّر إينال أميرُ البحر صوته إلى الأعلى – احذر من الأسد المفترس الذي تحول إلى حاجٍّ وديع. لا تسمح له بالتودد إليك. ولا تسهّل عليه جهنم دنياه.

– ولكن ألا يجب علينا نحن أيضاً أن نرقق قلوبنا يوماً ما... ونحن لم نكن أتقياء جداً.

– لا أذكر مذ عرفتك أنك ارتكبت ذنباً.

– وكلُّ ما أمرنا جنودنا أن يفعلوه في جزيرة قبرص!

– لم يجر هذا دون معرفة الله. ألا تتذكر ما كان ينوي الصليبيون القادمون من هناك أن يفعلوه بديننا؟

– أتذكر، متى جرى هذا... كنا غزونا لنأتي بالمال من أجل مصر، وليس لأجل الله.

– إذا كنت ترى هذا يا موفد الله، أترى أن نلغي غزوتنا لرودس؟

– كيف نقوم بأعباء الحكم في مصر إن لم نغزُ صليبيي رودس؟ أتأمل أن يفهم الله مقصدنا ويرحمنا – قال لنفسه "ألا يجب أن أعوّض المال الذي خسرته لتأليف قلوب الناس من أجل سلطنتي؛ من يعرف كيف سيتصرف الأمراء معي بعدُ؟" ثم أضاف: – إذا عدتم من رودس كما عدتم من قبرص فسنعيد النظر في طلب شاه روخ وإن لم نصدَّه نهائياً. حرام أن تصد اليد التي تمتد إليك دون أن تعطيها شيئاً.

– وهل شاه روخ مثلُ مَن يُمنح الصدقة؟ لم يغير إينال موقفه – عنده من المال ما عند مصر كلها.

– ألا يتوسل إلينا وإن كان غنياً؟ لهذا قال العرب: لا تتكبرْ ولا تتعالَ أيها السلطان، فالله أقوى منك. لم أفهم ما يترجاه شاه روخ في شيخوخته إلا بعدما استلمت السلطنة. أما أنت يا إينال فلا تزال شاباً، لن تفهم الآن. ليس انتقاصاً من قيمتك، بل ستفهم الأمر حين تعيش يا قائد البحر إينال السنوات الخمس والسبعين التي عشتها أنا. ليس موضوع شاه روخ مشكلة. ما يجب ألا

تنساه هو موضوع رودس. اليوم ليس الفلس زائداً على حاجتنا، يمكن أن نسد به فم مملوك لجوج في أدنى احتمال. يطلبون كل عام زيادة أجورهم، وينسون الشكر. الحق على برقوق، ظل يُخرج المال من كيسه حتى صاروا شرهين. لا نقدر عليهم. لا أعرف ماذا نفعل بهم.

– أعرف – أسرع أمير البحر، ثم أكمل – قعر السفينة يقوى ما بقي في البحر، فإذا أُخرجت منه صدِئ. والمماليك كذلك؛ إن لم يحشوا جيوبهم بالمال عن طريق الحروب فقدوا مكانتهم.

– هل تريد أن تقول إن سيوف المماليك تصدأ؟

– جواب هذا السؤال حين تعود من رودس.

– اعتبرْ ما ترجوه صار في راحة يدك يا موفد الله، ولكن هناك مخرجاً آخر إن وافقتني – أنهى إينال فجأة ماكان يعتزم طرحه قائلاً في نفسه: "هذا يريد أن يبقى سلطاناً مدة طويلة" ستأخذ منهم ذهباً بمقدار حجم راحاتهم إذا ألصقها ببعضها الأربعة الذين سيكسون الحجر الأسود.

– اسكت! – مد السلطان راحتيه الجافتين في وجه أمير البحر كأنه يريد وقاية نفسه– يا ربي اغفر لنا أنا ومن كاد يدفعني إلى الذنب وارحمنا! أفلت من لسان إينال الكلامُ الذي سيدفع كفارته طوال عمره لأن البلاد التي جعلتَني موفداً إليها في وضع صعب، ولم يكن يقصد الإساءة، وأنا شاهد عليه، ونذرت نفسي أن أكفّر معه. أود أن أقول شيئاً محموداً في شأن قائد البحر: ليس لأنك لا تعرف، ولكني أريد أن أُسمِعه هو. إنه رجل مخلص للإسلام. وهو يجابه الذين يريدون أن يحرفونا عن الإسلام من الوثنيين والصليبيين مستعداً دائماً للتضحية. ولما كان ينوي غزو رودس التي نكّدت علينا حياتنا فأدعو له بالنصر عليهم.

في البداية فزع إينال من الرعب المفاجئ الذي أصاب السلطان. ثم صحا على دعائه إلى الله. وبدأ بعد قليل يبرّئ نفسه: "ما الخطأ إذا قلت: خذ منه أجرة وضع المحمل؟ نسي أنه حين كنا في قبرص كان يلتهم كل ما يجده. ربما يطهّر نفسه منذ أوكل الله إليه السلطنة. أرأيته جديراً بها يا ربي؟ اغفر لي وارحمني. ربما ماكنتُ سألتك لو لم أر بعينيّ كيف سلبها من وريث السلطان بارسباي. ولكن، كما يقول موفدك، إن كنت أخطأتُ في دنياك الخادعة، فسأطهر نفسي أمامك بقتال الصليبيين في رودس. أنا محارب في جيش الإسلام ولذا أنفذ ما يُطلَب مني"

– هذا هو، صحيح. من أجل هذا يا إينال يقولون: الدنيا التي يبلونا فيها الله كل يوم دار خادعة. — حين أنهى جقمق دعاءه إلى الله توجه إلى قائده البحري بصوت أنعم — ما فلت من لسانك خطأً يحدث مثلُه كثيراً. لا تدعْه يوهِنك. الله الأحد سيفهمنا أنا وأنت. وسيرحمنا. أنت ستسافر من الغد فلا تيأس.

– الله في قلبي، وعدله وقوَّتُه في دمي! — كان جواب إينال قصيراً كأنه لم يكن قبل قليل فريسة الأفكار المتصارعة.

– رافقتك السلامة — مع أن جواب السلطان كان أقصر فقد أتبعه: الله وأنا معكم.

ما حدث للمماليك في قبرص حدث لهم مثلُه في رودس: تحصن الصليبيون في قلاعهم دون أن يجابهوا المماليك، فنهب المماليك الجزيرة طوال شهر كامل. ثم أخرجوا منها ما يستطيعون إخراجه ومع ذلك لم يكن جقمق راضياً في قرارة نفسه. — استقلّ ما وصل إليه لشخصه من مال، لكن دون أن يُبدِي استياءه من الموضوع وجد لإينال قائد البحر منصباً جديداً: أميراً على مرافئ دمياط

والإسكندرية. وهكذات أبعد عنه أمير البحر الذي كان لا يُطيقه ويتدخل في شؤونه. وبدأ يستميل الأمراء الأحدث سناً والأكبر ممن يطاوعونه. ولكنه لم يكن جاهلاً بأمور السلطان المحب لنفسه الذي عايشه سنين كثيرة، فلم يجلس هو خلالها مكتوف اليدين.

ومع أن السلطان جقمق كان مسناً فلم يكن ينام على كرسيه الذهبي. كان وهو يمارس مهماته السلطانية قلقاً على سلوك ابنه الأصغر عثمان الذي سيورثه الحكم. لو كان أخوه الأكبر الذي فارق الحياة في العام قبل الماضي حياً لأحلّه محله من هذه اللحظة. عثمان شاب عنيد متفرد برأيه تُحرِقك حميّته ولا تُدفئك. ومع علمه بهذا لم يكن للسلطان في سنواته الأخيرة شاغلٌ إلا كيفية زيادة ثروة ابنه، وتثبيت جذوره، وتوطيد مكانته.

لم يكن سراً خبر استقبال السلطان الظاهر سيف الدين جقمق لشاه روخ مع أن المنادين لم يُعلنوه في شوارع القاهرة. ففي اللحظة نفسها دار الخبر سريعاً بين الشوارع والأسواق والحمامات والمطاعم والمقاهي. ولم يكن المهتمون بالموضوع، وغير العابئين به قليلين.

– ما الفائدة يا شاه روخ في ملاحقة الأحداث الماضية بالرماح والنبال والحجر؟

– بدأ جقمق بتلميحات بعيدة — والدك ووالدي فارقا الحياة منذ زمن بعيد. والسلاطين الذين أبَوا تحقيق طلبك رحلوا. غير أني لا أقصد بهذا ألا نتكلم في ما تطلبه منذ سنوات كثيرة. لا تعتبر طلبك مُجاباً بمجرد أن أقول لك: موافق. فالأمراء الذين يجب أن أستشيرهم وآخذ موافقتهم كثيرون... وهؤلاء ليس ممتنعاً أن أؤثر فيهم، وأن يحترموا رأيي.

– إن تحُققْ لي يا موفد الله ما لم يقبل به السلطان مؤيد والسلطان بارسباي – قال شاه روخ، ثم همس في أذنه بعد ما تأكّد من خلوِّ الغرفة – ليس في الدنيا ما أمسكه عنك مما يقع في يدي.

– اصبرْ يا أمير. لا أحد في هذه الغرفة غيرُنا. ما العمل إذن دنيانا الخادعة هكذا. ولكن لأن ما نقوله وما نفعله كلانا ليس دون علم الله العزيز العليّ فما عرضتَه لا تقدِّمُه لي بل لبلاد مصر كلها. يجب أن يكون سُمك الذهب على قدر المحمل إذا طُوي أربع طيات، لا أقل سماكة، ولا أكثر. ولما كان السعر مقطوعاً فما يزيد يكون حسنةً. وما إن تصلنا صدقتك حتى نرفق بها موافقتنا مكتوبة.

– إن كنا اتفقنا يا موفد الله فلن أضيع دقيقة واحدة – التمعت عينا شاه روخ مما تحقق له – سأعود إلى البيت الذي ولدت فيه، وأُحضر ما اتفقنا عليه.

– كفى ! – قال جقمق كأنه غير عابئ بالأمر كله – لا يجوز أن تقع عين أحد عليه إلا المعطي والآخذ.

– إذن سآتيك به بيديّ.

– لماذا تظل تغدو وتروح؟ سأرسل الليلة مع ولدي عثمان الإذن المكتوب. ولكن لا تخبره أن ما تعطيه ذهبٌ. احزمه جيداً. وإن سألك عنه فتخلص منه بأنه مِسنُّ سيوف.

وضع عثمان "المسن" أمام والده، متأففاً من جلبه:

– لم أكن أُصدِّق قولَهم "الإنسان يعود صبياً في شيخوخته" ولكن تبادُلَكما، أنتما العجوزان المسنّ أقنعني.

– والمسن إن لم يكن عندك تحتاجه جداً – ضحك جقمق خائر القوى، قليل الاهتمام من فوق لحيته الخفيفة.

"اضحكْ، اضحكْ... اضحكْ من نفسك خيرٌ من أن تضحك مني... — نظر عثمان مغتاظاً يكاد يأكل نفسه، في عيني والده. وقال له في نفسه: – لا بد أن واحداً مثلك هو من أوحى للناس أن يقولوا: حين يشيخ الإنسان لا يرعوي من لحيته وشاربيه مهما كان حكيماً. ستحرمنا من كل شيء وأنت خائف أن تبقى بلا عرش..."

– أأنت محتاج إلى مسنّ شاه روخ وأنت تعرف أن عندنا الكثير منه؟ مرة أخرى لام عثمان والده.

– ليس الآن ستعرف قيمته يا ولدي، لا تستعجلْ عليّ! حين لا أعود حاضراً بينكم.

لم يُعمَّر الظاهر سيف الدين جقمق السلطان بعد هذه الحادثة إلا أشهراً معدودة. — فارق الحياة في سن الثمانين.

ما إن سمع إينال الخبر الذي كان ينتظره كل يوم حتى وصل إلى القاهرة. وبعد يوم دفن السلطان وبعدما صار المحرك الرئيس لمجلس الأمراء الاستشاري. حملهم، دون أن يسمح لأحد بالكلام، على تنصيب عثمان بن جقمق سلطاناً مع أنه يعرف عدم كفاءته للمنصب، وبعد بضعة أشهر احتلّ هو محلَّه.

ربما كان قولهم: "من يفعل الشر تكن نهايته مع الشرّ" صحيحاً. فقد فعلوا به الأمر نفسَه. ومن هاجمه لم يكن سلطاناً معمَّراً.

V

عجيبٌ ما حدث للمماليك، وهم يرددون: "حين يشيخ الأسد تسخر منه الثعالب"، يتنازعون على الأحكم والأذكى فيهم، مغيّرين كل عام سلطان مصر: سلب منهم الرومي خُشْقَدَم السلطة!

ليست كل الأماكن العالية متشابهة: من يصعد الشجرة يرَ أبعد ممن يقف على الكرسي. وحقلُ نظرِ الجالس على صهوة الحصان مختلف عن حقل الواقف على المرتفع. ولكن هناك أناساً لا يواتيهم العالي ولا المنخفض. هذا إن وقف على رؤوس أصابعه داخ، وذاك يرى العالي منخفضاً، والثالث متصلب كالوتد، والرابع عود مرن ينحني ويستقيم.

ظهر في مصر بعد السلطان إينال ثلاثة رجال تجابهوا بالرماح. ولم يكونوا وحيدين. ولكن هؤلاء الثلاثة لا يمكن أن يطيعوك مهما نصحتهم أو عاتبتهم. أحدهم أحمد بن إينال الذي نُصِّب حديثاً سلطاناً. والآخران قائدا الأشرفية والظاهرية المماليك جانم وخشقدم. جانم هو أمير الشام، وخشقدم هو مستشار السلطان. ولو لم يتصلّب أحمد في الأشهر الأولى أمام المماليك المطالبين بأجورهم بل تعامل معهم بأسلوب مخادع كعود مرن فلربما ما انتهت سلطنته بهذه السرعة.

– مستشاري خشقدم مارس معي الخيانة وصار رئيساً لأعدائي مجموعة الظاهرية. ولكن لماذا لا يأتي أمير الشام قائد مماليك والدي الأشرفية إلى الآن؟

– سأل السلطان أحمد حراسه.

– كيف سيأتيك يا موفد الله من لم يأت لتهنئتك بمنصب السلطان؟ – قال أحد الحراس واختتم بخبر أسوأ: – تحالف المماليك الظاهرية والأشرفية، وحاصرونا.

– أرى محاصرتهم لنا. – لم يلتفت السلطان الواقف إلى جانب النافذة – غير أني لا أتذكر الواقف بجانب خشقدم. أيمكن أن يكون الأمير قايتباي؟

– لم تخطئ يا موفد الله.

– أخطأتُ يوم وقف الأمير الأديغي والأمير الرومي جنباً إلى جنب – أسرع السلطان بمغادرة النافذة – ولكن لن أعطي هؤلاء العديمي الشرف نصف قطعة نقدية. – استدعوا لي الأمير قايتباي!

سأل السلطان من أوصلوه إليه: – أي موضوع تلاحق يا أمير قايتباي؟ وهذا صاحب العينين الكبيرتين وراءك من هو؟

– ليس ما أتابعه موضوعاً شخصياً. تعرف مطاليب المماليك. وهذا الذي أهنتَه له اسم وإن لم تُراع قواعد الأكبر والأصغر عند الأديغة. سأقول لك من هو، وما أصله: قانشاو غُر[1]، جاء من بلاد أجدادنا أرض الأديغة. وهو رئيس حرسي المماليك. ماذا نسيتُ أيضاً؟

– كفى – لم أكن أعرفه بالوجه ولكن كنت أسمع اسمه. – "هذا الذي ذكرته لا يساوي عندي رغيف ذرة "وضحك في قلبه.

– أسمعت اسمه بالخير أم بالشر؟ – لم يستطع قانشاو غُر إلا أن يسأل.

– بالخير، وكيف يكون بالشر! – قال السلطان – أُنصت إليكم، ماذا تريدون إبلاغي؟ سألهما.

– أنا شخصياً لا أريد شيئاً. أنتظر سبب استدعائك لي.

[1] هو قانصوه الغوري في التاريخ. وقانشاو لا يزال اسماً شائعاً. ولا يزال للأسرة وجود في حلب على الأقل. ويعني غر: النحيف.

– إذا كنتم تُعزّون أديغيتكم إلى هذا الحد فسأقول لكما إني راضٍ عنكما لأني أنا أيضاً أديغي. لماذا، وأنتم أديغة، وقفتم إلى صف الرومي خشقدم؟

– المماليك يطالبون برواتبهم، وليست المسألة مسألة أديغة أو روم أو ترك...

– ما قلته صحيح. كل الناس، بغضّ النظر عن لغاتهم يتكلمون ببطونهم المتشابهة – ابتسم السلطان، ولم يغير قراره – ولكن ما يطلبه المماليك لا أساس له ولذا لن أستطيع تحقيقه لهم.

– ألا تفهم أن من حاصروك سيهدمون أساسك؟ !

– استدعيتك إليّ لأني لا أريد أن أثير في البلاد فتنة. سأقول لك الأمر على حقيقته تماماً إن كنت ستفهمني: إن وافقت على مطالبكم فلن يبقى في البلاد مال.

– أنا، لا أطالب بشيء لشخصي – برّأ الأمير قايتباي نفسه – حين ركب مماليكي لم أستطع إيقافهم.

– لم تستطع السيطرة على مماليكك لأنه كان لك في حركتهم مصلحة.– لم يتراجع أحمد الذي لم يمض عليه في الحكم غيرُ نصف سنة. – لستَ وحدك، والأمراء والمماليك الآخرون أيضاً. إن كنت تتذكر، لم توافقوني ولكن ما كنت أريده هو أن أجمع مماليككم وأؤلف منهم جيشاً للبلاد.

– هل تسمع يا قانشاو غُر نواياه؟ – ابتسم قايتباي، – ونحن الأمراء كان يريد أن يتركنا دون انتماء ودون جنود.

– ولماذا تبقون دون جنود؟ ستكونون قادة جيش البلاد. لن نعيد الكلام في الموضوع لأنه انقضى. لا أريد أن أدخل معكم في نزاع مسلح، ولا أن تشعلوه في مصر. ولذا فاعتباراً من اليوم أعلن بملء إرادتي أني لم أعد سلطاناً، وأكلفك أن تبلغ المهاجمين هذا القرار. ولكني أرجوكم ألا تسلّموا السلطنة إلى خشقدم،

ولْيستلمْ أي شخص غيره. وإن سألتموني من أرشح فسأقدم اسمين: أنت والأمير جانم. وأظن أن جانم مرشَّح أقوى؛ لا تؤاخذني!

– ولماذا أؤاخذك؟ وأنا نفسي أرشح الأمير جانم.

"لو جئنا به في وقته لكان أحمد هو السلطان الجيد. – لام الأمير قانشاو غُر نفسه – علاقتي أنا بهذا الموضوع محدودة. جئتُ لأن قايتباي طلب مني مرافقته. لو كنت المسؤول لوافقت أحمد على اقتراحه جيشاً موحداً للبلاد. ولو كان الأمر هكذا لكانت البلاد أقوى، ولقلّ كثيراً تغيير السلطنة التي يطمح إليها كل الأمراء. الأتراك لهم قادة جيوش، غير أنهم جميعاً يطيعون شخصاً واحداً هو السلطان. وهذا سبب كل ما تحقق لهم في بضع السنوات الماضية: أجبروا الأكراد والروم على الامتثال. واحتلوا القسطنطينية. وبسطوا سيطرتهم على المضيقين. والآن يتطلعون إلى جهة الشمال الغربي.

سأل قانشاو غُر قايتباي حالما رجع من لدن أحمد:

– كيف رأيت مَن كنا عنده؟

– ليس سيئاً.

– وهذا رأيي فيه.

– لماذا لا نقف إلى صفه إذن؟

– هيه يا قانشاو غُر، قانشاو غُر... إن كنت تعتقد أن من صفّوا هذا التل الحجري الكبير التقطوا الحجر الذي وقع منهم مرة فأنت مخطئ. آذان المماليك الذين نمثّلهم مسدودة وعيونهم عمياء كما أن تل الأحجار هذا ثقيل وأصم. ولما كان الأمر هكذا فسنحقق لأحمد رجاءه الأخير. إذا كانت السلطنة هي سبب كل هذه المشكلات، والسبب في خراب بيت الطامح إليها فأنا لا أريدها.

وبالنسبة لجانم، جانم... هو الآخر لجوج. غير أنه بالقياس إلى خشقدم الرومي فهو أديغي.

اتفقت الكتلتان الأشرفية والظاهرية على السلطان الجديد: رشحوا الأمير جانم دون حاجة إلى مواجهات. وكلفوا خشقدم بتسيير أمور السلطنة ريثما يعود جانم إلى الشام ويسوي أموره هناك. ولكن تبين أن الرومي أدهى من الأديغة: ما إن تحقق له ما أراد حتى أبعد بضعة الأمراء الذين لا يثق بهم بحجج مختلفة. وحين أبعد عن جانم أنصاره واحداً واحداً وهو يثني عليه، وصار لزاماً عليه تسليمه السلطنة، اتفق مع عدد من المجرمين البدو فقتلوه على الطريق إلى القاهرة. وأتبعَ بجانم الأميرَ باتربيك الذي كان مستودع أسراره، ونصيره الحقيقي. وبهذه العقلية الإجرامية أسكتَ الأشرفية ورفع رؤوس الظاهرية.

وكان الأمير قايتباي هو من استعصى عليه. لم يكن يجعل منه محدثاً، ولا يتقرب إليه. ولا يسمح للسلطان أن يفعل ذلك. ولكن من المستحيل ألا يتقابلا ولا يتحادثا وهما في بلاد واحدة وفي مجلس الأمراء الاستشاري.

اليوم موعد لقاء الوفد التركي بالسلطان، دُعي قايتباي وقانشاو غُر كسائر الأمراء.

– انظر إلى هذا التركي الكهل القادم ما أشد اعتداده بنفسه ! — همس قانشاو غُر في أذن قايتباي — يخسف الأرض التي يطؤها.

– وسلطان مصر ليس متواضعاً — ابتسم قايتباي الذي لا يُطيق السلطان — رجل فارغ منتصب الرأس.

وقف الموفد التركي أمام السلطان بثلاث خطوات، وقال بعد إيماءة خفيفة:

– أحيي باسم سلطاننا ابنِ الشمس والقمر بعلم الله العظيم محمدٍ، سلطانَ مصر... — وقال الآن لخشقدم الذي قطع كلامه بعدما أشار إليه بطرف

السوط إلى ضرورة تقبيل الأرض: – أرضكم ليست أطيب من أرضنا ، ولكن تصور في داخلك أني فعلت هذا لأجلك. لم يرسلوني إليك لأتلقى الإهانات.
— واستدار وانصرف وسط استغراب المشاهدين.
نهض السلطان خشقدم الذي لم يسبق له أن سمع مثل هذاالكلام الجافي. وأوقف رئيس الحرس الذي يلاحق الموفد:
– دعه يعود إلى بلاده !
وفي المساء حين بقي خشقدم وقايتباي وحدهما سأل السلطانُ قانشاوَ غُر:
– كيف رأيت الموفد التركي اليوم؟
– ليس جباناً، ولكنه يتنمّر. وكما يقال: ما لا تعرفه مظلم، فمن يتلقّ إهانة يجد الوقت للانتقام، لو تركته يقول ما يريده منا لربما كان لنا رأي في الموضوع.
لم يترك السلطان ما لُمِّح به إليه دون جواب وإن ابتسم في سره قائلاً: "ومن أنت حتى تُدلي برأيك!":
– ألم تر كيف كان واقفاً بين يدي كالوتد المغروز في الأرض؟ سلطانهم سليل الشمس والقمر، وسلطان مصر لا شيء! الأتراك عنيدون جلفون، يفعلون ما يريدون، ويتحقق لهم. هؤلاء لم يقابلهم من يكسر أنوفهم كما فعلت مع التركي اليوم.
– ولكن يا موفد الله –لم يُطق الأمير قايتباي الآن صبراً — لم ينفذ الموفد التركي ما طلبت منه. بالقياس إلى موفدك الذي أمرت بإعدامه لأنه قبّل حافر حصان بايزيد فالتركي تحلى بالشجاعة أمامك.
– تحلى بالشجاعة فقابلته بالمثل. — تظاهر السلطان خشقدم بالضحك ، ثم قال من أعماق قلبه: – الحق أني أحترم كل من يتصف بالرجولة إن كان صديقاً أم عدواً. ويروون أن ماكيدونسك وتيمورلان كانا يتصرفان هكذا.

– وبيباريس وبرقوق السلطانين لم يفتقرا إلى الرجولة والإنصاف.– علّق الأمير قايتباي على ما لم يعجبه مما سمع – ولكننا تركنا المجال للترك لينهبوا كيليكيا ومدينة ألبيستان اللتين حميناهما من المغول ومن الصليبيين.

– نعم، نعم يا قايتباي يا نجمة المماليك المضيئة. قاربنا معاً القضايا التي تُقلِقنا. ولكن أسألكم: ما العمل؟

– أتسأل عما نفعل؟ ! – أجاب قايتباي عن السؤال الذي كان ينتظره منذ زمن بعيد – يجب أن توقف المجابهة الأشرفية – الظاهرية في مصر. – ألم تعودا – أنتما الاثنان – أشرفيين؟

– لماذا لا نكون أشرفيين مادمت أنت ظاهرياً؟

– أهذا ما تحاججاني به؟ – ابتسم السلطان مرة أخرى – وأنا أين أذهب مفارقاً جماعتي الظاهرية؟

– لأن من يهتم بما سألت عنه هو قانشاو غُر – قال قايتباي بحيث لا تعرف جده من مزحه – وأنا أؤيده، دعْه يجيب.

– رأيي من هذه الناحية واضح – لم يدعْهم قانشاو غُر ينتظرون – إذا كان السلطان رأس البلاد فلا يليق به أن يكون رئيس مجموعة بل أن يكون عضواً فيها. إذا تصرف السلطان هكذا فلن تكون عين رضاه متجهة إلى جهة واحدة.

ما سمعه السلطان خشقدم جعله ينتفض برأسه بينه وبين نفسه "اسمع إلى أين وصل هؤلاء ! يحفرون من تحتي وأنا أقرّبهم وأحاول كسب ثقتهم. يذكّرونني بأني كنت يوماً ما رومياً. أكنتم تدعونني أصل إلى السلطنة لو لم أكن زعيم الظاهرية؟ ألا تغفرون لي أني خدعتكم في شأن جانم وباتربيك؟ وأنا أعرف عنكم كثيراً مما لا أغفره لكم لولا أني أتسامح. منذ قرن لم تسمحوا لأحد غيركم

أنتم الشراكسة أن يتبوّأ منصب السلطان. استريحوا قليلاً. وخففوا من أحقادكم. وإذا دخلتم في هذا الموضوع فسأجعلكم، بقدر استطاعتي، تتحسرون على تلك الأيام. ولكن، دون أن أوقِع نفسي في مأزق لا مخرج منه، سأسلّمكم إياها يوماً، وسأجعلكم تتحاربون أكثر مما في الماضي. إن كنتم رجالاً فاغلبوا الأتراك الذين تعرّضون لي بهم... "

– ولكن – اختتم السلطان أفكاره الخفية بنقاش صريح – إن كنتم تذكرون كان في مصر أيضاً صراع البحرية – البرجية. من حسن حظنا أن برقوق أثبت وقتها أنه سلطان قوي. وإلا كان صعباً معرفة ما سيجري في مصر.

– وأنت تحلّ بالرجولة ! – حسم قايتباي النقاش.

– سأفعل إن ساندتموني كما كان برقوق يتلقى الدعم. لِنُنْهِ صراع الأشرفية – الظاهرية ابتداءً منا. أعدكم أنه لن تُسمع في مصر هاتان الكلمتان ظاهرية وأشرفية. ولكن لي عندكم رجاءً. كان بودي أن نجتمع كل يوم ونتبادل الآراء بدلاً من أن نجتمع في العام بضع مرات. لا أخفي عنكم أن سلوك العثمانيين الأتراك معنا لا يعجبني. لا أعرف إلى أي جهة سيتجهون. يتسلحون، ويؤسسون جيوشاً جديدة.

– عين الأتراك يا موفد الله على جهتين: الشرق والغرب. حيث أراض كثيرة وأموال وفيرة.

– صحيح، صحيح يا قانشاو غُر – أيد قايتباي من تكلم من قلبه – الأتراك ليسوا كالمغول، يتقدمون إلى الأمام موطّدين أنفسهم في البقاع التي احتلوها، فيوسّعون دولتهم.

– هم أحكمُ منا في تأسيس الجيوش – كرر قانشاو غُر الفكرة – الجيش مُلك الدولة، والسلطان يقوده.

– أسمعك يا قانشاو غُر فأجدك تؤيد أحمد الذي حملناه على التنازل عن العرش. كان هذا ما ينويه لولا أن الأمراء عارضوه.

– الأمير مُحِبّ، يا موفد الله، حمل خبراً عاجلاً من قونية – أُبلِغَ السلطانُ.

– أدخِلْه ! – قال الآن للأمير الذي توقف عند الباب بصوت أهدأ: أسمعك.

– جيوش السلطان بايزيد احتلوا منطقة قونية.

– كنت أتوجس من هذا... – قال خشقدم لنفسه بصوت مخذول، وسأل الرسول ناسياً الجالسين عنده: – هل توقفوا عند قونية أم ينوون التقدم باتجاهنا؟

– لا نعرف إلى الآن يا موفد الله.

– اجمعوا المعلومات !

VI

ربما ليس في الوجود من لا يشتهي تحسين شروط حياته. هذا حاد الذهن والآخر بليد. من يتعثر وهو يتقدم، ومن يتقدم وهو ينهض من عثرته، ومن يجلس رِجلاً على رجل، ومن يهتم بما وراء الأفق، تحدث له أمور كثيرة غيرُ منتظَرة. وصلت الجحافل التي يقودها عثمان إلى آسية الصغرى واحتلوا بيزنطة الشرقية، فهموا أنهم سادة المضيقين البحريين، وعرفوا أنهم بهذا يستطيعون الرؤية إلى الأبعد، وتوطيدَ مُلكهم، وأنك إن بقيت في مكان واحد تجمدت. ولكن ليس من السهل أن تتعلم أسرار البحار التي لا تعرفها وأنت من سكان السهوب الأزليين، وتتعلم طرق التعامل معها. ومع أن الترك كانوا يعرفون أن تسمية المدينة المسيحية القسطنطينية بإستانبول لا يحوّلها حالاً إلى مدينة إسلامية، فلم يكن لهم شاغلٌ إلا أن تصدر منها أصواتُهم وروائحهم. ولم يكن ضحايا الصراعات الدينية من الطرفين قليلين. وكل عام تزيد المآذن وأصوات المؤذنين، وتصمت أجراس الكنائس. وتبحر المراكب التي ترفع الهلال عبر الدردنيل والبوسفور. ويزيد عدد المحاربين الفرسان والمحاربين المشاة على الأرض التركية.

كان بقي على موعد خروج الموفد التركي أحمد هورسك من مصر عدة أيام حين أُبلغ السلطان مُحَمَّد بتصرفه في القاهرة.

– تصرَّفَ برجولة... – قال السلطان، ثم أضاف ووجهه يُظلِم – ولكنه لم يستطع تنفيذ المهمة التي كلفته بها: أعتبر إسراعه بالعودة خائفاً من أن يتصرفوا معه بعناد ومناكفة نوعاً من الجبن. ما كنت أريده ليس تغيير السلطان العربي – بل معركةً.

– الآن عندنا فرصة ممتازة. – قال بايزيد قائد الجيش حذراً – الأمراء الشراكسة والمماليك في صراع.

السلطان مُحَمَّد جالسٌ كأنه لم يسمع كلام بايزيد قائد الجيش. ومع أن الجسم القصير الذي امتلأ مع السنين يثقل عليه فإنه لا يُبدي على نفسه ضيقاً، ويلوم في نفسه قائد جيشه: "أعرف ما تريدون. تنوون مصادمتي بالشراكسة المماليك؛ إن كنتَ رجلاً هكذا فلماذا حين قلت له "أحتاج إلى حجة" قال "عندنا فرصة ممتازة، وسكتَّ؟ إذا كان الشراكسة المماليك يتنازعون أفلا يحفر بعضكم لبعض؟ تحاولون اللحاق بمن سبقكم، ولا تلتفتون لمن بقي وراءكم. أنت سعيد لأني نعستُ في حضورك؟ تذكَّرْني ولو مرة واحدة حين تعمَّر مثل ما عُمِّرتُ. لا تستعجل عليّ. أنت أيضاً سيصلك يوماً من الأيام ما تطمح إليه..."

– من قلتَ – خرج السلطان مُحَمَّد فجأة من أفكاره، – من السلطان الذي نصَّبوه على عرب مصر؟

– الأمير قايتباي.

– وهل هو شركسي أيضاً؟

– هؤلاء، يا أبا الأتراك كلهم، لا يسمحون لغيرهم بالانضمام إليهم.

– إذن – ضحك السلطان مُحَمَّد من أعماقه – أليس الشراكسة كالترك؟ يتنازعون فيما بينهم حتى إذا وجدوا أنفسهم في مأزق رجعوا وتعاضدوا. يتصرفون جيداً. إن لم تفعل هكذا في دنيانا الفانية فسيحطمك غيرك من الأقوام. لا تؤاخذوني على وصفي صديقك أحمد هورساك – أوغلو بالجبن. برهن أحمد في بلاد الغربة، أمام الشراكسة، على أن الترك الذين قادهم عثمان

القائد الكبير يتمتعون بالرجولة. أتتذكر كيف أجبرتُ موفدهم على تقبيل حافر حصاني؟

– أتذكر – ابتسم بايزيد قائد الجيش في سره، واختتم – ولكن الموفد لم يكن شركسياً.

– ومن أين تعرف؟ – تظاهر السلطان باستغراب ما سمع – أتريد أن تقول إنه لو كان شركسياً لما قبل أن يقبّل حافر حصاني؟

– نعم، أيها السلطان العظيم، يا أبا الترك كلهم.

– إذا كان هذا رأيكَ فكيف تشجعني على مهاجمة الشراكسة المماليك؟

– الرجولة كالصوّان. إن صدمت الحجرين اشتعل الحجر الأصلب.

_ أهذا ما تقصده؟ – سأل السلطان التركي وهو يبتسم ثانية في سره، وبعد فاصل قصير أضاف: – أفهم، ولكن كيف نعرف من الأصلب: الترك أم الشراكسة؟ الحجر، مهما كان قاسياً، ينكسر مع كثرة الطَّرْق. وكلما بردته تناثرت برادته. إن كنت تعتبر الشراكسة الغرباء كالحجر الصلد فاسمع نقطة الضعف التي وجدتها لهم: إن وافقتني فسنبرد على طرفي حجرك الشركسي: أحدها كيليكيا وألبيستان، والقادة المتحكمون فيهما سنظل نغريهم بالرشا، ولو طلبوا أغلى ثمن، فلا نسمح للسلطان قايتباي بيوم راحة واحد. ابتداءً من اليوم سنُحكم المراقبة بسفن الرصد على البوسفور. والسفن القادمة من جهة جنوبي مدينة كفا[1]، ومن جهة بلاد الشركس لن نسمح لها بالعبور إلى البحر المتوسط إلا بإذنٍ، وبعد معرفة حمولتها واتجاهها. ونحن لا نسمح بشحن الحديد الذي

[1] سبق التعريف بمدينة كفا. ونضيف أن الجنويين المسيحيين كانوا يسكنونها.

تصنع منه السيوف والقسيّ والرماح، ومواد أولية أخرى من قمح وشمع وعسل وبارود وأي شيء ينفعهم إلى مصر.

– إذن يا أبا كل الترك؛ ألم نقطع طرق الشراكسة والجنويين إلى الشرق؟

– فهمت تماماً. ودون هذه الإجراءات لن نستطيع إخضاع شراكسة مصر. سنُعرّفهم، هم والعرب أنفسهم، أنهم عبيد، وأنهم استولوا على حكم البلاد العربية التي ليست لهم بالسيف والدم.

– والعرب المضطهدون سيفرحون وسيرضون عنا — وافق بايزيد قائد الجيش السلطان.

– ونحن أمل العرب المحتلةِ أرضُهم، الذين يدينون بديننا. ألا يكفي أننا إلى الآن كنا نشتري طريقنا إلى الحج من الشراكسة الذين لا إله لهم؟ وأنت تعرف قيمة المُلك الذي سنحصل عليه — دعْك من رسوم طريق الحج – حين نقضي على السلطة الشركسية في مصر ونضع العالم العربي في قبضتنا. ولكن هذا ليس الآن، لاحقاً، فيما بعد. وأكِلُ إليك المهمة لأني أعتبر أننا يجب أن نغزو كفا والشركس الذين يؤيدونهم. لا أقول اليوم أو غداً، ولا هذا العام أو التالي. لا تنس، ولو أني قد لا أعيش إلى يومها، أني كلفتك بهذه المهمة.

والقائد بايزيد أصغر بكثير من السلطان مُحَمَّد. وبما أن تركيا الحديثة التي نشأت في آسيا الصغرى وشرق أوربا لم تتخذ بعدُ شكلها النهائي فقد كانت تظهر كل سنة وكل يوم حاجات جديدة كثيرة. وبالتزامن مع حل القضايا الداخلية كانت عيونهم متجهة إلى الخارج، بل ربما كان الاهتمام بالخارج أكثر. وكانت القوات البحرية صعبة عليهم بالقياس إلى تجهيز جحافل المشاة والفرسان الموجّهة نحو مصر والبلقان. ومهما كانت هذه الصعاب فقد تغلبوا عليها خلال سنوات قليلة لأن من يختار طريقاً بنيّةٍ واضحة يصعب إيقافه. ولكن السلطان مُحَمَّد لم

يُكتَب له أن يشهد هذه الإنجازات. وقضى بايزيد السلطان الجديد الذي تبوّأ العرش في بداية عام 1481 وقتاً طويلاً في المفاضلة بين هاتين المهمتين. ومع ذلك ففي صيف عام 1484 أرسل قواته البحرية إلى كفا وبلاد الشركس التي كان يُجلب منها الصبيان، ودمر مصانع الجنويين.[1] وأمر بنهب القرى الأديغية على ساحل البحر. ورجعت القوات محمّلة بالغنائم والأسرى الكثيرين.

كانت الحاشية شجعت السلطان بايزيد إثر هذه الانتصارات وغيرها أن يتوجه إلى مصر ولكنه لم يكن يجد حجة لغزو بلاد إسلامية، بالإضافة إلى مشكلات كثيرة في تركيا تحتاج إلى حل، من نقص الأرض والمياه، والجفاف والجدب، أثارت الصراع بين الأغنياء العاطلين عن العمل والفقراء. والجيش الذي يزداد تعداده كل عام يجب تسليحه وإطعامه وكسوته ودفع رواتب أفراده. وكان يضاف إلى هذا كله الاختلافاتُ بين قادة الجيش وتحاسدُهم، ومحاباةُ الأهل والأقارب، وابتكارُ المناصب السرية، دون أن يمنع هذا من حشد الجيش وتسليحه. وعائداتُ المضيقين كاملة توجَّه للجيش. ويُجنِّد الأسرى الذين أُتي بهم من بلاد الأديغة في سلاح الفرسان. ويعدهم بمنحهم الحرية بعد أول معركة. ولا يحنث بوعده. ويهتم بالمبرّزين منهم. وبعض من اختبرهم يعينهم معاونين لقادة الجيش، ويُثني عليهم. – وأحياناً يلمّح لهم أنهم ليسوا أقل شأناً من مماليك مصر. ولا يندر أن يُفهمهم صراحة. وإن نزل الآن جيش السلطان الراجل وجيشه الخيال في البلقان، فلن ينسى مصر البلاد الإسلامية.

ولم يكن السلام سائداً في داخل بلاد السلطان قايتباي، فكانت تبرز له منغصات كثيرة كل يوم، وإلى جانبها لم تكن الشواغل التي تأتيه من الغرب تترك

[1] يقصد الجنويين الذين يسكنون كفا كما سبق.

له مجالاً للراحة. وأكثر هذه القلاقل كانت تأتي من نقطة ضعف العرب المزمنة كيليكيا وألبيستان. وليس الوضع جيداً على حدود سورية القريبة. وتأتي الأخبار المتناقضة من تلك الناحية.

– تقلقني الأحداث التي تجري إلى الغرب من سورية. ما كان عليّ استقدامك من حلب يا قانشاو غُر. – لم يُخفِ السلطان قايتباي ما يغتلي في صدره.

– إن كنت ترى هذا يا موفد الله فأنا مستعد من هذه اللحظة للعودة إلى حلب. – أجاب مدير البلاط قانشاو غُر حالاً كأنه كان ينتظر هذا الموقف.

– لا، لستُ غير واثق من بديلك الأمير نهاد. اختبرت رجولته وإنسانيته كثيراً من المرات في خلال المجابهة الأشرفية – الظاهرية. هو واحد من أصدق أصحابنا وأوثقهم وأوعدِهم بالأمل. ما يُقلقني هو سلوك السلطان بايزيد. نشر قواته في البلقان مهدداً إيانا بعد الجنويين والأديغة، فلا يوفِّر أي جهد ضد المسيحيين.

– لا ينسانا يا موفد الله رغم أنه مديرٌ ظهره لنا.

– وإن كان رأيك هكذا أيضاً فلن أكتمك نيّتي. أنوي السفر إلى غرب سورية. أريد أن أرى بنفسي كيف يحمون حدودنا المتاخمة للترك. ولكن لا يجوز أن يعرف هذا الأمر غيري وغيرك والأمير نهاد، والأتراك أيضاً لا يجوز أن يعرفوا.

– والأتراك دائماً يبحثون عن ذريعة – أضاف قانشاو غُر إلى وساوس السلطان.

لم يطل الأمر بالسلطان لينفذ نيته. فبعد ثلاثة أيام سافر في مئة فارس باتجاه الشرق إلى سورية، تاركاً قانشاو غُر مكانه. وفيما هو عائد إلى حلب مرتاحاً لما رآه وصل خبر مزعج إلى قايتباي: المماليك سطَوا على أعضاء الوفد الهندي

المتجه إلى السلطان التركي. وكان أعقد ما في الموضوع سرقتهم السيف الموشى بالذهب والأحجار الكريمة، الذي هو هدية للسلطان.

– وأين السيف؟ ! – صرخ قايتباي السلطان من الخبر الذي ستكون له عواقب مشؤومة.

– لم نتمكن من القبض على من سرق السيف المذهَّب.

– يجب أن تجدوا هذا المجرم عديم الإيمان ولو تحول إلى ذرة غبار.

لما سمع السلطان بايزيد بما حدث للموفدين الهنود حشد جيوشه، وقد وجد ذريعة جيدة، على حدود سورية قبل أن يوصلوا إليه السيف الذي وجدوه، واحتل عدة قرى عربية وبعض المِنَع. وهنا بدأت الحرب التركية – المصرية التي امتدت أربع سنين.

كان الترك يَعدّون أنفسهم في الأيام الأولى قد كسبوا الحرب. وكانت عندهم جيوش مجهزة جيداً وقادة قُساة تسمح لهم بهذا الاستنتاج. وكان لهذه الجيوش خبرة قتالية في البلقان وغيرها. وفيما الترك يحاربون بأسلحة يعتدّون بها من أسلحة نارية كالبنادق والمدافع، مما لا يملك المماليك منها، أو لا يولونها قيمة، سمّوا سلطانهم بـ "الصاعقة".

وكانت نظرة المماليك إلى هذه الجيوش المجهزة مختلفة تماماً: كانوا يسخرون منها قائلين: "الجبناء هم مَن يختبئون وراء البنادق والمدافع وغيرها من قاذفات اللهب. إن كنتم رجالاً فقابلونا بسيوف مسلولة " – كان هذا أول نداء للمماليك الفرسان إلى الجيش المعادي.

لم يكن بايزيد الصاعقة يفهم في الأيام الأولى كيف ينتصر الفرسان المماليك على جيش مزود بهذه الأسلحة. بالإضافة إلى أن كثيراً من قادة جيشه أثنى عليهم الأوربيون. وكان واثقاً من الجيش الإنكشاري الذي أسسه، ومن جيش

النبلاء. وإن قِسْتَ عدد جيوش السلطان التركي من فرسان ومشاة إلى عدد فرسان المماليك فهم أضعاف المماليك عدة مرات. وإن كانت المشكلة في أسلحتهم النارية فهم مجهزون بطريقة صارمة.

لماذا إذن لم تكن حروب الترك ناجحة؟ لماذا كانوا ينسحبون تاركين أعداداً كبيرة من القتلى في ساحة المعركة؟ تُعلِّل الأمرَ بالجبن؛ هذا ليس صحيحاً. لماذا يحدث هذا، ما السبب؟ لم يكن بيازيد السلطان يملك أجوبة على هذه الأسئلة وعلى غيرها.

– ماذا علينا أن نفعل حيال المماليك الذين لا إله لهم؟ هل سنتوقف هنا أم نشنّ عليهم حرباً ثالثة؟ سأل بيازيد السلطان قائد جيشه أحمد هورساك.

– إن أذنت لي فهذا يا موفد الله سبب مجيئي إليك.

– ليس الإذن مشكلة، ولكن ما التالي؟

– ضع ثقتك فينا هذه المرة يا أبا كل الأتراك. لستُ وحدي بل عساكري أيضاً.

– حسنٌ إن وعَوا على أنفسهم، ولم يتخلَّوا عن رجولتهم... – مع أن السلطان لم يستطع الصبر على الإهانة المحزنة فإنه أخفى انفعاله – أكلّفك بأن تنقل إليهم أني واثق من أنهم سيبرهنون على رجولة المحارب التركي، وأنهم لن يكونوا وحدهم، فبعد الله سأكون معهم شخصياً. ولكني أسألك لماذا يهزمكم المماليك الذي لا يحملون سلاحاً إلا السيف والرمح.

– وأنا مهموم بهذا السؤال يا موفد الله.

– الجبان يرى رأس الخروف رأسين! – مع أن بايزيد غضب فقد عاد سريعاً إلى اتزانه – في رأسي كثير من الهموم ولكني سأجيب على ما لا تستطيع قوله: أنتم تنادونني بالصاعقة قائد الجيش فعلى ما يبدو فلستُ أنا الصاعقة، بل جيش

فرسان المماليك هم الصاعقة. يجبرنا قصف الرعد على خفض رؤوسنا، وقبل أن نجد الفرصة لرفعها يقتحمنا كالريح ويصرعنا؛ أهذا ما لا تستطيع قوله؟

– هؤلاء لن يبلغوا أبداً مرتبتك في الشجاعة يا موفد الله. ولكن حتى لو كان ما قلتَه يفعله المماليك أحياناً فأنا أعدك اليوم أن أُنسيهم إياه. وأقسم أن أضع أمامك رأس السلطان قايتباي أو قائد الجيش قانشاو غُر.

– سنرى، سنرى – ابتسم السلطان سراً – أقبل حتى لو كان رأس قانشاو غُر قائد الجيش. كم فارساً يُشرك في الهجمة الواحدة؟

– من ثلاثة إلى أربعة آلاف، ويحتفظ بثلاثة أضعافهم جاهزين.

– جهزوا عشرة أضعاف المشاركين منهم والاحتياطيين من رماة البنادق والمدافع. وبعدهم سأقود جيشي من الفرسان.

– ولكن...

– لا، – قاطع السلطان ما بدأه قائد الجيش. – لا تعلّق. أريد أن أرى بعيني بسالة جنودي.

حين سمع قايتباي هجوم السلطان بايزيد عليهم أمر قانشاو غُر:

– حالاً، احشدوا جيش المماليك في مواجهة الترك. لا أعرف لماذا لا يهدؤون. يحفرون حولنا دون كلل.لم تكف مرة ولا مرتان، ربما يأملون في الثالثة.

– من لا يهدأ يجد نفسه خارجاً يا موفد الله.

– لا تتهاون بهذه الحجة. السلطان بايزيد يجمع لنا جيشاً ضخماً.

لم تتباين الأخبار الثلاثة التي جاءت بها مجموعات الاستطلاع الثلاث: يزيد عدد أفراد جيش الترك من فرسان ومشاة ومدفعية على عشرين ألفاً. ولأن هؤلاء هاجموا المماليك بصمت فقد اختاروا موقعاً ممتازاً في الفاصل بين التلَّين المقابلين لنا. والموقع الذي شغله قانشاو غُر بفرسانه الأربعة آلاف ليس سيئاً.

– وكل من العدوين المتقابلين كان يعرف إلى الآن كل ما يتحرك في الأرض الخالية المحايدة. ولم يكن المماليك يجهلون مواقع المدافع التركية الموجهة إليهم. ولم يكن أحد يعرف مكان وقوف السلطان بايزيد. وقائد الجيش أحمد الواثق بمدفعيته وجيش بنادقه هو من لم يكن يتحرك سراً. كان مهموماً بما سيحدث ولكنه كان بين قادة جيشه كمن لا يعبأ بالمماليك.

– رماة البنادق والمدافع هؤلاء لن يتركوا فرسان الجيش ولا مشاته يا موفد الله – قال قانشاو غُر للسلطان – من ينتظرونهم هم نحن. إن أذنت لي فسنركب، ولكن أريد أن أوجه بضع كلمات لجيش الفرسان – ركب قانشاو غُر وقال للألف من الفرسان الذين ينتظرونه: – أيها المماليك المشحونة قلوبهم بالرجولة والعدل، ترون هجوم العدو علينا، الله معنا، والسلطان موفدُه قائدنا. سنهاجم مرتفع العدو. واعتبروا أنفسكم احتللتموه. ولكن نفذوا ما أقول لكم: سنجتاز نصف السهل خبباً بطيئاً. ومن المحتمل أن يرمينا الترك بالبنادق والمدافع لإفزاعنا ولكن ثقوا أن قذائفهم لن تصل إليكم. وأنتم اطمئنوا والجموا أحصنتكم. وما سيبقى من المسافة هو نصف غلوة حصان فمتى رفعت سيفي هاجمنا قمة المرتفع والله في قلوبنا.

تبيّنت صحة تقدير قانشاو غُر للموقف. لم تكن طلقات المدافع والبنادق التي سيرهبون بها المماليك تصلهم. وأسكت الفرسان المماليك الذين أرسلهم سراً إلى جانبي العدو إطلاق المدافع. استولى الرعب على الجنود الأتراك، وقبل أن يعودوا إلى وعيهم، شرع أربعة الآلاف من الفرسان الذين اقتحموا مواقعهم كالعاصفة بتقطيعهم وخنقهم. وحسب ما يكتب المؤرخ المعاصر لهم تغري بردي فقد قُتل من الأتراك نحوُ عشرين ألفاً وأُسر المئات منهم. وكان أحمد هورساك قائد الجيش بين الأسرى.

– ماذا سنفعل بهذا النفّاج مداح نفسه يا موفد الله؟ – سأل قانشاو غُر السلطان قايتباي حين أحضره إليه.

– أين بايزيد الصاعقة؟ – سأل قايتبايُ الأسيرَ مع أنه كان عارفاً أن السلطان التركي أخلَوه حياً من ساحة المعركة. ولكنه تشفّى من قائد الجيش الأسير أمامه غير عابئ بجواب سؤاله: – خذوا هذا والأسرى الآخرين واعرضوهم على سكان القاهرة في الشوارع. ولْيعرف كل إنسان أن المماليك لا يُغلَبون.

تصرف المماليك هكذا مع أحمد هورساك ومئات الأسرى معه. ولكن لما كان قايتباي وقانشاو غُر يعرفان أن الأتراك الذين هم في مرحلة الصعود لا يمكن إيقافهم بهذه الطريقة فقد عقدت مصر والترك اتفاقاً: يفتدي الأتراك أحمد هورساك والأسرى، ويكف الترك عن مهاجمة الأرض العربية، ويصرفون طموحاتهم عن كيليكية وألبستان، ويخفضون رسوم الحج.

وجرى هذا في أواخر أول شهر من الخريف عام 1491 م.

VII

"تستوي أسرة بلا ضجيج أطفال وعرس بلا عازف أوكورديون" عاشت مصر مصر بفضل قايتباي ثمانية عشر عاماً في هدوء خامل بلا أحداث مهمة ينطبق عليها القول المأثور السابق. ومع ذلك فحين توفي قالوا في إثْرِه "الأفعى الشركسية كانت عوجاء فتمددت في قبرها". وكان الأديغة من بين من يقولون هذا. ولكن هذا لم يمنع أي إنسان من أن يأخذ دون جهد حصته التي لا تعجبه. — تغيّر في السنوات الخمس التالية لوفاة قايتباي عام 1486 أربعة سلاطين من الأديغة. وكان المصريون الذين يفرحون كلما تنازع الأديغة في ما بينهم يقولون: "من الظلمة ينبثق النور" "من خشب التنوب لا يُصنع مهراس.[1] يكفي سيادة الشراكسة علينا" "يجهلون أنهم حُدبٌ فيسموننا بالعميان".

كان قانشاو غُر مهموماً بما يجري في مصر مع أنه تخلى عن قيادة الجيش بعد دفن قايتباي بأيام. وكان مطلعاً على مشاريع بايزيد السلطان. لم يكن يجد راحة بالٍ مع زيادة عدد أفراد جيش الترك وتحسين تجهيزاته، وتكليفه بالحرب في البلقان متناسياً مصر مؤقتاً، ثم معرفته بأن الترك سيعودون ويهاجمون المماليك لاحقاً. ولا يتذكر أنه ارتاح يوماً مع أنه اشتهر بصفته قائداً للجيش، وخاطر بدمه أكثر من مرة لحماية مصر، وشهد عودة للتفاهم الداخلي. — كان قلباً وروحاً في بلاد الأديغة التي جاء منها.

"ليست حياةً أن تكون لغتك قاصرة على استعمال الأسرة، وأن تظل تلاحق أولادك لمجرد ألا ينسوا لغة الأب والأم، وحين تخرج إلى الشارع تتكلم لغة

[1] شجر التنوب أو الراتنج من الفصيلة الصنوبرية، خشب ليّن.

أخرى. – يلوم قانشاو غُر نفسه حين تداهمه أفكاره – لا أحد يقول لنا صراحة: أنتم أديغة، أنتم أغراب، أنتم متسلطون علينا. ولكن أهل البلاد الذين يبشون لنا، تقرأ في وجوههم، ولو أخفَوا ما في قلوبهم. "الماء يغسل كل شيء إلا انعدام الشرف" لو كان كل شيء يجري في الدنيا كما تشاء... نحن لا ذنب لنا، ولكن لِيعرفْ كلٌّ ذنبه! وأظن الوقت حان ليصحو من لا يودُّوننا، بمن فيهم الأديغة الطامحون في السلطنة. لماذا في رأيك تشبّه حكاياتُنا الإنسانَ الخارج عن طوره، ولا يعرف حدوده بالجرادة؟ تقفز مرة، وثانية، وفي المرة الثالثة يمسكون بك!... ومع ذلك يلحّ عليّ الأديغة كي ينصّبوني سلطاناً على البلاد الغريبة. كان الأفضل أن نعود إلى بلادنا التي جئنا منها، وكان المصريون سيتعجبون ويُسرّون لو فعلنا هذا. وحين لمّحْتُ بهذه الفكرة لبعض الأديغة كادوا يأكلونني. لا تُقم في البيت، ولاتخرج منه، ولا أريد أن أدخل وأنت فيه؛ أهذا ما تريدون؟ ضحك قانشاو غُر من نفسه – لو لم كن أعرف ماذا يشبه كونُك سلطاناً على غير بلادك لربما طمعتُ فيها. المنصب الذي يدينونك فيه بسبب خطأ واحد حتى لو كانت ملعقتي وكأسي وسريري وسرجي من الذهب ليس منصباً. ولكن إن وضعوا أملهم فيك، ويترجّونك؟ !... "

– أين كنتم وأنتم منشغلون بعد قايتباي – ليفتح له الله باب جنته – بتغيير السلاطين؟ – سأل قانشاو غُر الوفد الثالث.

– لسنا، أيها القائد العسكري الكبير، من الذين أسسوا في مصر ظاهرة تغيير السلاطين – لم يتردد أمير الشام نهاد في ما سيقوله. – وأنا ومن وقف إلى جانبي من الأمراء سعدون وسيباي ومُحِبّ يحزننا ما يحزنك. وشرفك شرفنا. ولسنا وحدنا فأغلب أمراء المجلس الاستشاري أرسلونا لنبلغك ترشيحهم لك لهذا المنصب.

– إن كانت الأغلبية أوفدتكم – مزح معهم قانشاو غُر مخفياً ابتسامته – فما رأي الأقلية؟

– وماذا سيكون رأيُهم؟ – تشفّى الأمير سيباي ممن سأل عنهم – تراجعوا وسحبوا أعناقهم إلى جحورهم.

– ليسوا جميعهم – استدرك الأعجم سعدون.

– إذا كان الأديغة ذوو الوجهين عادوا إلى وعيهم فهذا حسنٌ – اختتم قانشاو غُر مغالباً نفسه بصعوبة. – هؤلاء ليسوا جديرين بالثقة. ولكن ما لا أعرفه هو جواب ما جئتم لأجله. أنا أنوي العودة إلى ديارنا. ألا يكفي كم أحرق رمل مصر أسافل أقدامنا، وكم روّينا أرض الغربة بدمائنا! ألم تسمعوا العرب يقولون من ورائنا "كان الأفضل أن يدمر الترك دولة المماليك لا العكس"؟

– ليس من أجل العرب وحدهم حاربنا – لم يملك الأمير سيباي نفسه – نحن وُلِدنا هنا في هذه الأرض ولو أنها تختلف عن أرض أجدادنا الخصيبة. ورَبَّينا فيها أولادنا. ولا نعرف مطراً وسماءً وشمساً وريحاً غير ما فيها. لا نريد لأولادنا أن يسموها أرضاً غريبة، ولا بلاداً غريبة.

وافق قانشاو غُر سيباي ولو أنه كان يردد في نفسه: "اسمع بِمَ يحاججني!":

– نعم يا سيباي، نعم. لِيرضَ اللهُ عنك! تكلمت من أعماقي. وأنا مضى عليّ زمن طويل أفكر في هذا الأمر، وأنتم؟ – سأل الأمراء الآخرين.

– ونحن أيضاً – توافق نهاد ومعاذ، واختتم أمير الشام: – ونحن عندنا هموم كثيرة يا قانشاو غُر. ولكن ما جئنا لأجله اليوم فوق كل الهموم. ولا تلُمِ العرب، وبعضهم يرجونك أيضاً.

– وأعرف أن هناك من يتعاطفون معنا غير أني أستغرب أن يترجاني الكثيرون... هذا هو – أضاف قانشاو غُر غير مهتم بإجابتهم – صارت

البلاد التي كانت غريبة على أجدادكم قريبة إلى أولادكم وأولادي. ولكن كيف تصبح البلاد التي لم أولد فيها قريبة مني؟ لا أعرف ماذا تأملون مني وأنا في الستين؟ رشّحوا أميراً ولد في مصر ويُخلص لها. ولو استشرتموني لرشحت أحدكم أنتم الثلاثة. ولكن بما أنكم جئتم إليّ مودعين ثقتكم فيّ أيها الأمراء الثلاثة الكبار، فكما يقال: لا تضلّ السفينة بادها حتى لو انحرف جانبها. لن أخيبكم أنتم ومن أوفدكم إن كنتم ستساندونني في الجانب المنحرف من السلطنة. ولولا أن السلطان بيازيد الذي هزمناه قبل سنين يُشيع عنا أخباراً كاذبة، ويستعد لمهاجمتنا، لربما ما وافقت على طلبكم. ولأن هذه مهمة مجلس الأمراء فسأرى ما سيكون موقف الطرفين الأشرفية والظاهرية مني... ولو أن أسرة بيبرد [1] ليسوا من الناس الذين يغضبون بسرعة ويهدؤون بسرعة أيضاً فلن أدعكم تنتظرونني طويلاً. — وستقتصر ولايتي على المدة التي تستغرقها مصر الغارقة في الفوضى من تغيير السلاطين لتعود إلى حالها.

في الثالث عشر من شهر نيسان عام 1501 نصّب مجلس الأمراء الأشرف بيبرد قانشاو غُر سلطاناً على مصر. وتعهد قانشاو غُر في هذا اليوم أمام الأمراء أن يكون الله دليله، ولا يحيد عن العدل، ويقف في وجه من يعملون على تدمير البلاد.

تولى خمسة وعشرون من الأديغة حكم مصر خلال أكثر من مئة عام ولم يحدث أن تولى أحد منهم الحكم على رجاء الناس إلا قانشاو غُر. وكان أعجب ما في الأمر إجماع الأشرفية والظاهرية عليه. ولكن من يغمغمون غير راضين، ومن

[1] هي أسرة قانشاو غُر كما سيأتي.

يخافون أن تُسمع أصواتُهم فيعبرون عن استيائهم في قلوبهم، ومن يتهامسون فماً لأُذُنٍ، ومن يرتعبون من الكلمة تفلت منهم، لم يكونوا قليلين.

ولم يكن بعض الأمراء يتوانون عن أي جهد، وإن كان ما على ألسنتهم لا يتفق مع ما في سرائرهم، قائلين: من يعرف؛ ربما يسمع السلطان الجديد كلماتنا العذبة فينظر إلينا بعين الرضا.

ومن لم يكن مرتاحاً لتولي قانشاو غُر الحكم هو بيازيد السلطان وقادة جيشه وضباطه. كان قد دبّ فيهم نوع من الفتنة بسبب الندمِ على عدم استغلالهم وضع مصر التي فقدت إمكاناتها الحربية بسبب تغيير السلاطين، واختلافِهم على تحديد المسؤول عن التقصير في هذا، ولكن بايزيد الداهية لم يقبل من أحد: "لا تقطع ذيل حمارك على مرأى من الناس، سيقول لك بعضهم "قصير جداً" وبعضهم "طويل جداً" ولن تنقص سرعةُ حصانك من تبديل سوطين، ولن تزيد. أنا، وليس جنودي، من هزمه قبل أعوام قانشاو غُر الشركسي ذو العينين الواسعتين والشفتين الغليظتين. لم تكن حربنا ضد المماليك دون فائدة وإن تحملتُ المسؤولية. فتحنا طريق الكعبة للتركِ أمةِ مُحَمَّد. ولذلك لا تضعوا القِدر على النار من أجل الأرنب الذي في الأجمة لم تصيدوه بعدُ. ليس العرب أصحاب الوجوه المُرمِلة هدفنا الآن، هؤلاء لهم موعد آخر، هدفنا السامي لليوم والغد والسنين القريبة هو البلقان الخصبة. وسيكون شراكسة ساحل البحر الأسود في القفقاس إدامَنا اللذيذ..."

كانت أيامُ قانشاو غُر ونواياه – أفكارُه، وهمومُه – آمالُه شيئاً آخر. هاهو قد حبس نفسه في الغرفة منذ ثلاثة أيام. يأكل، يقرأ القرآن، ويصلي، وينام، ويفيق. ولا يدخل إلى غرفته من الأسرة، ولا يكلمه إلا بشقان شركس. وإذا سأل والدَه: أهناك ما يشغل بالك؟ نظر في وجهه، وبشّ له، وغيّر الموضوع، ولم

يُجب عما سُئل. ولا يُبدي على نفسه إن كانت سلطنته سعداً أم نحساً. ولم يعد طلْقَ الوجه بشوشاً كما في الماضي. وتباطأت مِشيته وحركة يديه ونظرته. وكأن ظهره النحيف المتين قد انحنى.

قال بشقان لوالده في اليوم الرابع لسلطنته، غيرَ قادر على تحمل هذه الظواهر وغيرها:

– لا أعرف كيف أفسّر جِلستك وشرودك يا والدنا، البلاد كلها تنتظرك.

– وهل عندي بلاد تنتظرني؟ – أعاد قانشاو غُر السؤال إلى ابنه كمن كان ينتظره.

– ولماذا ليس لك؛ أترفع عن مصر التي نُصِّبتَ سلطاناً عليها؟

– يا ولد!... – تظاهر قانشاو غُر بأنه يلومه ملطفاً صوته بعدما أفلت منه – لا أعرف إن كنت تعنّفني من أجل بلاد غريبة؟

– بلاد مصر ليست بلاد غربة لي يا والدنا – انكسر صوت بشقان الآن رغماً عنه – أنا ولدتُ فيها، ونشأت. وأنتَ عشتَ فيها أحلى سنوات عمرك. وحاربتَ لأجلها، وأخلصتَ. وصرت سلطانها. ما أغرب ما قلت لي الآن!

– أأخطأتُ في ما قلت لك؟ – نهض قانشاو غُر بحركة ظهر رشيقة. وبعدما عاد إلى هدوئه إثر تمشيه على أرض الغرفة، سأل ابنَه من جديد بصوت أنعم:

– أراك لا تقول شيئاً !

– انتهينا من الحديث يا والدنا في شأن البلاد الغريبة –لم يغير بشقان شركس أيضاً موقفه – ولكني لا أعرف لماذا لم تقل لهم رأيك هذا وهم ينصِّبونك سلطاناً.

– هل سمعتهم يقولون: ما على لسان المرء وما في قلبه لا يتطابقان؟

– سمعت.

– إن كنت سمعتَ فربما كان هذا الواقف أمامك من هذا النوع.

– هذا ليس حسناً يا والدنا.

– هذا هو وإن كان سيئاً. لم أستطع أن أخبرهم بما في قلبي. حين يكون في قلبك بلدان سيحدث لك مثل هذا يا ولدي.

– أهذا ما تريد قوله؟

– ماذا ظننت أنت إذن؟

– الذي خطر لي شيء آخر.

– أتريدني أن أكون ذا وجهين؟

– لا يا موفد الله – خاطب بشقان والده بهذا اللقب لأول مرة. — أفضل أن يكون لي وطنان على أن أكون ذا وجهين.

– إن كنتَ ترى هذا — سرتْ على شفتي قانشاو غُر ابتسامة مرائية — فقد فهمتَني وإن كنت قرّبتُك بمشقة إلى أحزاني وقلقي، وأرحتَني ونفّسْت عني. ولم أكن أطمع فيك لسند آخر. الحق أقول: أنتَ لا أنا من كان يجب أن يتبوّأ هذا المنصب. ولكن هذا لا يعني ألا أعود إلى ديارنا بعد انتهاء مهمتي.

"أهذه السلطنة على ما تقول خدمة متبادلة؟... —كان السؤال قفز إلى لسان بشقان عفوياً. ولكن رغم أنه كظمه مبرراً لنفسه بأنه قال أموراً كثيرة غير ضرورية في حضرته فلم يصمد أمام أفكاره المتناقضة. — والدنا إنسان عجيب. ليس كسائر الأمراء. لا يتخلى عن أديغيته — رجولته وإن استقر حيث رحل. لا ينسى هويّته الأديغية رغم أنه عاش من سنوات عمره الستين خمساً وثلاثين في مصر، وأنجبَنا نحن فيها. يقابل أي إنسان يأتي من هناك سواء كان كبيراً أم صغيراً، ويسأل عن بلاده. وحفنة التراب التي جلبها معه حين جاء إلى هنا يحملها معه حيثما ذهب معتبراً إياها أغلى من خزانة من الذهب. يشمها،

يقبّلها. وأحياناً يُجهش بالبكاء أمامها... ثم أناقش هذا المسكين وألومه وأنا أعرف هذا عنه! وأرى قراره بالعودة إلى دياره متى انتهى من ولايته مضحكة. أيُّ قلبٍ عند والدنا؟ أي مغناطيس يجذبه إليها؟ وقلبي أنا؟ وأين مغناطيسي أنا؟

– إذن كم ابتعدتَ عني يا ولدي؟ نادى قانشاو غُر ابنه فأخرجه من أفكاره – أيّ فكرة لا تستطيع تفسيرها مما كنت تناقشني فيها؟ لا تسمح لأيٍّ من المحرمات أن يغير أفكارك لأنك أنت أملي الوحيد في البلاد التي صرتُ سلطاناً عليها.– عاد فمزح معه.

– اضحك مني واسخر إن شئت يا موفد الله – قال بشقان دون مزاح – أفكر كيف ستحب بلادك.

جلس قانشاو غُر قليلاً دون أن تختلج عضلة من عضلات وجهه. ثم أجاب:

– أيّ بلاد إن ظننت أنه ليس فيك شيء من دمها ونداها وحلاوتها ومرارتها وقلقها وحزنها فلن تحبها يا ولدي. ثم إن هذه الأمور، يضاف إليها الجبن والخيانة، تظهر حين يهاجمها الأعداء فحسبُ.

تألم قلب بشقان لما سمع، ولم يعلّق بشيء.

VIII

رغم أن السلطان بايزيد احتدّ حين أُبلِغ أن الأشرف قانشاو غُر بيبرد نُصِّب سلطاناً فقد ضحك قائد الجيش سليم ذو الرأس المتطاول الذي يسفك الدم في البلقان لسماع الخبر نفسِه:

– هل نصّب المصريون المغفلون عليهم مرة أخرى سلطاناً غريباً عجوزاً ؟ ! ما أضعف جيراننا أبناء ديننا، كم خارت قواهم فلا يستطيعون النهوض! إن لم نقضِ على المماليك الشراكسة استعبدوا العالم العربي مئة سنة أخرى. — وبعدما جلس سليم قليلاً استدرك: – لا أقصد شراكسة البحر الأسود، بل من استقرّ في مصر منهم.

لم يكن قانشاو غُر الآن في وضع يقلق فيه ويمتلئ رأسه بالوساوس لما يجري في تركيا البعيدة. ورغم أنه كان يحب أن يقول: "لما كان الإنسان يمتلك أذنين وفماً واحداً فليستمع مرتين، ولْيتكلم مرة واحدة" فإن وحدة المجلس الاستشاري الذي ترجاه وأحرجه حتى قبِل بمنصب السلطان لم تدم، ليس شهراً، بل بضعة أيام. و"الصواعق" من بين هؤلاء الأشرفية والظاهرية يقابلونه كلٌّ وحده: بعضهم يُعرِّض له أن له دَيناً لموافقته على تنصيبه سلطاناً، وغيرهم يجاهرون به. وآخرون يجادلونه. ومن يحاول الإيقاع به عن طريق الرشوة يهمس له. ومن لا حياء ولا شرف له يُخرج من حِجره الذهب والألماس دون أن تطرف له عين... والكل يطلبون ترفيع درجة إمارتهم، وتنصيبهم أمراء على المدن. وليسوا قليلين من يرغبون في خدمة دار السلطان ولو في أعمال صغيرة. ولو كان الفساد مقتصراً على الأمراء الذين يحملون هذا اللقب ويرغبون في تسلق السلم لهانت المشكلة ، فالمرض منتشر في أوساط عامة المماليك أيضاً.

"إذا صار المماليك كلهم أمراء فمن أين نأتي بالجنود المحاربين، ومن سيحمي مصر؟ ومن أين تأتي رواتب هؤلاء الجنود وطعامهم، والخيل، والسلاح، واللباس؟" – هذه الأسئلة وغيرُها تصدع رأس قانشاو غُر. ليس لأنه لا يجد جواباً مَخرجاً لها، بل لأن طرف الخيط الذي بحثتَ عنه طويلاً يمكن إذا شددته أن ينقطع أو يتعقد.

وكانت أخطرُ المشكلات تجدُّدَ النزاع الذي خمد مدة بين الأشرفية والظاهرية. وكان نزاعاً سرياً لا علنياً. ولهذه الظاهرة علاج في حال الضرورة. بينهم من تستطيع استمالته، ومن تستطيع تطويعه، أو تخويفه. ولكن قانشاو غُر لم يكن يريد افتتاح عهده بمثل هذه التدابير، ولا أن تلوك الألسنة سيرته بما هو غير لائق به. ليقفوا إلى جانبه، ولْيفوا بوعودهم إذ ترجّوه! حين تكون سلطاناً فمن سيترجّونك، ومن سيضعون أملهم فيك، ومن سيُثنون عليك، ومن سيغتابونك، ومن سيتخذونك صديقاً، ومن سيعادونك، كثيرون. وليس قانشاو غُر جاهلاً بهذه الأمور وبغيرها. ولكن حين تبدأ قيادة الدولة بالمنافع المتبادلة، والرِّشا، وتبادل الابتسامات، فمن المفهوم منذ زمن بعيد، وليس اليوم، أنك ستضلُّ الطريق، وتدمر البلاد. وكانت التبديلات الأخيرة للسلطان شهدت جيداً على صحة هذه الاستنتاجات مما جعله لا يستعجل على تلبية مجلس الأمراء حتى جاؤوه للمرة الثالثة. والآن ماذا؟ لا تقل إن ما كلّفتَ به نفسك حِملٌ ثقيل عليّ.

لا جدب في مصر. كما في العام الماضي جُني أول موسم. ويعمل الفلاحون الآن في ما سيُغلّ بعد شهرين أو ثلاثة. ولا ينقطع التجار عن ارتياد الأسواق. وأما نهر النيل فلا يقصّر عما في مقدوره. وأبواب المطاعم والمقاهي والحمامات والمُستراحات مفتوحة. ويزداد المسافرون على طريق الحرير وطريق الحج. ويزداد

عدد الأغنياء. تُحصَّل الضرائب، ولكن الأغنياء وبعض التجار المتوسطين يخفون ضعفي أو ثلاثة أضعاف ما يدفعون. ولا تناسُبَ بين واردات الدولة ونفقاتها. والمخرج الوحيد هو زيادة الضرائب على أغلبية الناس وزيادة الواردات التي تسدّ الخسائر المختلفة. وإذا بوشر بمثل هذا النوع من الإجراءات فلن تتحمل عامة الناس. وستنشب في مصر فوضى لا مخرج منها. وإذا بدأت تحفر حول الأغنياء سعوا إلى إيقاعك في الحفرة نفسِها.

ماذا بإمكان السلطان قانشاو غُر أن يفعل، وما أملُه؟ إن لم يجد موارد للدولة فلن يستطيع إعالة الجيش المستقل الذي ينوي تأليفه شهراً واحداً. لماذا عليه أن يتوسل إلى كثير من الأمراء ليحشدوا جيوشهم مقابل العدو المداهم؟ البلاد التي ليس لها جيش مستقل كما اقترح السلطان أحمد يوماً لا يستطيع حماية نفسه بالتطوعات. وهذا الأمر فهِمَه الأتراك منذ وقت طويل ولذا يقوّون جيشهم كل يوم، ويؤسسونه في حروب يجنون منها المال. انهزموا أمام المماليك قبل سنين ويعرفون أن سلطانهم قانشاو غُر، وأنهم يعيشون في مصر جهة الشرق. والسلطان بايزيد المهزوم يحمل حقده معه، وينتظر اليوم الذي سيثأر لنفسه فيه. لأجل هذه المسائل وغيرها جمع السلطان مجلس الأمراء هذا اليوم. ولهذا السبب أيضاً دعا إلى الاجتماع عدداً من الأغنياء من خارج المجلس. وقبل الاجتماع قابل الأمراء كلاً على حدة دون أن يُطلِعهم على ما في نفسه. ومن جهته لم يكن من جاء إليه بين السر والعلن قليلين. ومن توسل إليه، ومن اقترح عليه مقترحات حكيمة، ومن حاول أن يدفع إليه رشوة، جالسون أمامه.

– أيها الأمراء أعضاء المجلس الاستشاري، والتجار الأغنياء المختارون المدعوون إلى الاجتماع — توجه قانشاو غُر بالكلام إلى الحضور دون أن يتحرك عن كرسي السلطان ودون أن تختلج عضلة من عضلات وجهه. — دعوتكم اليوم

من أجل موضوع تأليف جيش البلاد، وما سنخصص له من أموال. كلما مر بنا الوقت انتصبت أمامنا مهامٌ لم تكن منتظرة. وتغيَّرت طريقة حياتنا وتعاملنا نحن المماليك. ما كنا نعده بالأمس حسناً نصطدم به اليوم. لم تبق بلاد في العالم غيرُنا ليس لها جيش مستقل. سيقول بعضهم: وفرسان أمراء المماليك ألم تعد جيوشاً؟ وأجيب عليهم: صحيح جيوش، ولكنها ليست جيوشاً للبلاد. والأتراك في هذا الشأن مقياس لنا إذ جمعوا جيوش الباشوات وألفوا منها جيشاً وطنياً للبلاد مستقلاً عن أمرائه ، يدربونهم ويزودونهم بالسلاح ولا ينقصون عليهم أجورهم. ونحن، حتى لو جمعنا هذه اللحظة جيشاً للبلاد فليس عندنا ما ندفع له. وما نجمعه من ضريبة من البلاد خلال سنة لا يكفيها نصف سنة. وما يدفعون لنا يعودون فيسرقون منا أضعافه. – شرع الحضور يتهامسون مذهولين فأجابهم: – لا تستغربوا شيئاً مما سمعتم. لا أتكلم في ما لم أختبره وما لم أتأكد منه. مع أن من الصعب الإمساك بمن يسرق داخل الأسرة فإن شئتم أخبرتكم بأسماء بعض الأمراء والتجار. ولكن يمكنني التوقف هنا حتى لا تظنوا أني أريد تخويفكم. أنا لا أطلب شيئاً لنفسي، بل أُفهِم كلاً منكم أني لن أغفر لأحد ممن لا يدفعون للبلاد ما يتوجب عليهم إذ ستصبح البلاد خاوية. وهذا الموضوع حدّثتكم عنه حين كلفتموني بعبء السلطنة. والآن أكرره.

– وكيف لا نتذكر يا موفد الله! — تكلم فجأة الأمير خاير بيه الذي لم يثق السلطان به يوماً. — أؤيدك أنت أيضاً لأني ممن أيد السلطان أحمد في موضوع تأليف جيش وطني مستقل عن الأمراء. وأنت منصف في موضوع الضرائب. لا تتراجع، سنكون إلى جانبك. أعطي مماليكي ثلاث المئة دون مقابل للجيش الموحد أي ساعة تشاء.

– شكراً لك أيها الأمير خاير بيه – رغم شكر السلطان للأمير فقد اختتم كلامَه، وعدمُ ارتياحِه وبرودة موقفه منه ظاهران عليه: – الحق أني لم أتوقع منك هذا. هذه بداية جيدة، غير أن الأمر يتعلق بموعد دفع التجار لما يُخفونه عن الدولة من أملاك.

– ما بال التجار لا يتحركون؟ أهم كما يقولون: الفأرة لا تعود تخاف من صوت المطحنة؟ – أعلن أحد الأمراء غاضباً.

– هؤلاء مثل ربة البيت التي لا يصدر صوتُ تكسير الصحون من مطبخها.– مزح أمير ثانٍ فلم يُطق التاجر دَشْكور الذي كان مقرّراً ألا يتكلم:

– ماذا تريدون منا أن نقول لكم؟ اغفر لي يا موفد الله، لستَ من أسأله. كيف سيفهم هؤلاء أن التاجر مثلُ من يمد يده العارية إلى النار، وأننا نوفر الفلس مما نبيع ونشتري بالدم والكلام المتملق. ومع ذلك، فلا بد أن نمد أيدينا إلى جيوبنا من أجل البلاد. ولن نُحرِجكم. نحن التجار فينا طبيعة واضحة وهي أننا يجب أن نعرف كم سيكون ملكُنا، وفي أي جانب سيُنفق؟ وإلا كنا عُمياً.

– نعم، نعم يا دَشْكور. – مزح معه عمر سيباي – لا تشربون ماء البئر إن لم تروا قعرها.

– صحيح – استدارت عينا دشكور الصغيرتان في وجهه العريض – لماذا تعدُّ نقودك إذا لم تعرف ما ستجنيه مما تشتري. ولذا لا تفرضوا عليّ ما سأدفعه الآن. حين يظهر في عدّادي الربح والخسارة سأدفع لكم ما تجود به نفسي. ولا أتكلم باسمي وحدي فكل التجار الذين دعوتموهم سيقولون ما قلتُ. ثم إن هؤلاء لايتكلمون عما عندهم لأنهم يخافون من العين أن تصيبهم، بل يهتمون بما ليس عندهم.لا تؤاخذهم يا موفد الله.

مع أن الأمراء نفذوا في نصف عام القرار الذي اتخذوه في المجلس بشأن تأليف الجيش الوطني فقد ظل ما يجود به التجار إلى الآن قليلاً.

– كيف تسير أمور جيشنا؟ – سأل السلطان قانشاو غُر قائد جيشه أيدامر.

– مقبولة يا موفد الله، ولكن الضرائب...

– ما المشكلة؛ ألم يبدؤوا بعدُ بتحصيل ضريبة نصف العام؟ – توجه السلطان إلى ابن أخته المكلف بتحصيل الضرائب وكأنه لا يعرف الوضع.

– هذا العام جمعوا ضعفي ما جُمع في العام الماضي.

– ماذا تريد إذن؟ أتريد ثلاثة أضعاف،كما يقال حين يسنبل القمح يزيد سعر المنجل.

– لا، ولكن كما يقال: الحصان الشبعان لا يجري إلا بالسوط؛ على دشكور والتجار الثلاثة الذين معه أن يعيدوا مئات الأكياس من الذهب، قيمة الضرائب التي أخفَوها عن البلاد.

– أهذا ما تقصده؟ – ابتسم قانشاو غُر.

ليست أفكار الناس وترتيباتهم متشابهة. بعضُهم يُدفئك كالنهار المنير، والآخر ليلُ خريفٍ مظلمٌ، وغيره إنسان بارد خالٍ من أيّ ودّ. وغيرهم متحفظ كتوم مغلق على نفسه فيُرهقك. هذا سر، والآخر علنٌ. يمل الإنسان من الشخص الضحوك ومن الثرثار ومن الكذاب. والصدق والرجولة والاستقامة والإنسانية إذن؟ هذه وتلك أفكار حياة الإنسان وأسئلته. تسهل الإجابة عليها، وتصعب. ولكن قانشاو غُر لم يقابل إلى الآن إنساناً فهم هذا الأمر.

ليس قانشاو غُر شيئاً بالقياس إلى الشرق والغرب، والجنوب والشمال؛ بل ذرة رمل. والنملة صغيرة ومع ذلك تحمل ثقلاً بوزنها. وفيها الحكمة والصبر.

– هذه هي حال الدنيا يا ولدي، لهذا أقول: تجري فيها أحداثٌ كثيرة غيرُ متوقَّعة... أظن أنهم فعلوا بي في مصر ما فعلوا بالنملة؛ أسمعت خبر النملة؟

– لا أعرف إن كان للنملة حكاية، ولكن أتعجَّب من تشبيهك نفسَك بها.

– إن كنت ترى هذا فاسمع، ربما نستنتج منها أنت وأنا حكمة ما: صادف رجلٌ نملة فسألها ساخراً منها: "لماذا رأسك كبير؟" أجابت: "لأن فيه عقلاً" سأل الرجل: "ولماذا خصرك نحيل جداً؟ " أجابت "لأني لا آكلُ كثيراً" قال الرجل: "ولماذا وركُك كبير؟" أجابت "لأني قوية جداً" قال الرجل "كم تستطيعين أن تحملي؟" أجابت "ما يساويني حجماً من الرصاص" قال الرجل "إذن كم تأكلين يا من تزعمين أنك تأكلين قليلاً؟ " قالت "تكفيني حبة قمح في السنة".قال الرجل "سنرى إذن !" – ألقى الرجل النملة في خزانته وألقى إليها حبة قمح. وتابع أعماله. ولما مضت سنتان تذكرها الرجل: "أيمكن أن تكون حية بعدُ؟" وجد الرجل النملة حية، ونصف حبة أمامها. – قلتِ لي إن حبة تكفيك عاماً وها أنت لم تأكلي في عامين إلا نصفها! لماذا؟" أجابت النملة الرجل الساخر منها: "لأن في رأسي عقلاً قلت لنفسي ربما لن يتذكرني هذا الرجل إلا بعد أربعة أعوام فتصرفت بحيث تكفيني". وانصرفتْ لتجد جحرها.

مع أن مغزى الحكاية واضحٌ وضوح النهار فقد حمل الحزنُ الذي وجده بشقان فيها على السؤال بسرعة:

– أأنت ألفت الحكاية لنفسك أم ألّفها الأديغة؟

– لم تفهم ما رويتُ لك بدليل سؤالك – قال قانشاو غُر وهو يرى نفسه مَضحكة أكثر من ابنه.

– ولماذا لم أفهم... ولكن لا أعرف إن وجدت النملة جحرها من الشجرة.

– إذا كان الكفيف يجد طريقه برأس العصا فلاعجبَ أن تجد النملة المبصرة مكانها في جذع الشجرة المنخور! ولكن يحدث أن يضلّ صاحب أشد العيون حدة في هذه الدنيا المحبطة. وأما سؤالك عما إذا كنتُ مؤلف هذه الحكاية فربما لو لم يؤلفها الأديغة ألفتُ لنفسي مثل هذه الحكاية المتفائلة من أجل أن أبحث لنفسي في المكان الذي وجدتُ نفسي فيه عن بارقة أمل ما. وإن لم تفهمها يا ولدي كما أفهمها أنا فسيكفيني أن تهز رأسك معي... — وفي هذه اللحظة يعود قانشاو غُر إلى نفسه فيواسي نفسه عبر ابنه الذي يذكره بالاسم: – ما ذا جرى لك يا بشقان فتيأسَ؟ لن نسمح لأحد أينما كنا أن يهين أديغيتنا. ارفع رأسك، لا داعيَ للقنوط !

– لا أعرف لماذا تقول لي هذا يا موفد الله — قال الأمير بشقان بصوت هادئ — لا أرى في نفسي أمراً يدعو لليأس. الحق أن ما فعلته النملة، وما فعلوا بها، وروايتك للحكاية، كلها حسنةٌ، وكلها عِبَرٌ للسامع. ولكني أقول لك مرة أخرى إني غيرُ راضٍ عنك في موضوع دشكور.

– أتريد أن تقول إني أبالغ في موضوع دشكور؟ – سأل قانشاو غُر كمن لا يبالي، وأجاب: – هذه ليست مسألة ملحّة. ليبقَ في السجن من أجل أن يفكّ المعتقلون وغيرُهم ممن لا يدفعون الضرائب أربطة أكياسهم المليئة بالذهب. ولا تهملوا سوءاته. ولتكن عبرة لكل من له أذنان وعقل.

– من هذه الناحية لم يترك المنادون أحداً لم يسمع.

– ابحثوا عن تجار آخرين متهمين لأن الناس سيملون من تكرار المنادين للاسم نفسه. ولا تهتموا إن كانوا مظلومين أم لا. انشروا بين الناس أنانيتهم وقلة شرفهم. واجعلوهم عرضة للاحتقار.

نظر بشقان شركس بحزن في وجه والده فسأله الأخير مع شبه ابتسامة:

– ما الأمر؛ هل أخطأت في كلامي؟

– لا يا موفد الله ! أأفكر هكذا وأنت تعمل من أجل البلاد !... – مع أن صوت بشقان ارتفع فجأة لم يستطع إلا أن يضيف ما لا يقتنع به ويقلقه: – لأني أفكر في تعبيرك:" لا تهتموا إن كانوا مظلومين أم لا ".

– حسنٌ أن تتصف بالرحمة وتدافع عن الإنصاف – أثنى قانشاو غُر على ابنه ثم أمره بحزم: – ولكن لا تنس أن السرقة والإثم متشابهان. وهذا هو سبب توقيف دشكور. وهذا هو السبب في مواجهتِه بذنبه، وخصامِنا مع التجار الآخرين. ولأن السيف لا يُصنع من الحديد إلا بعد سقيه فالبلاد التي لا يتلازم فيها العدل والخوف تصعب سياستها. ابن أختي طومان باي وأنت وأنا لا يجوز أن ننشغل بمسألة المذنب والبريء بل يجب أن نفكر في حماية مصر من الأتراك. ألم تسمع الترك، وهم في بلادهم، يتوجعون لحال أهل مصر؟ !

– لن يتحقق لهم شيء يا موفد الله إن تألموا لهم أم لم يتألموا.

– على ما يبدو يا قانشاو ابن شركس – سأل قانشاو غُر ابنه كما يسمونه في البلاد، وليس كما يناديه هو "بشقان" – أنت على علم بأخبار من يقلقون لأجلهم؟

– نعم أعرف لأن مصر التي سلطانها الأشرف قانشاو غُر بلادي – تسرّع شركس بشقان، ولكنه ندم: – سامحني يا موفد الله إن كنت أسأت إليك.

– ولماذا أؤاخذك إذا كنت تقول واقع الحال؟ ! – قال السلطان وتنهد عميقاً – لا ألوم أهل البلاد الذين لا يودوننا وقلوبهم نحو تركيا. كلٌّ يفكر في الأحسن له، ويطمح إليه. ولكن – ابتسم قانشاو غُر كمن يضحك على نفسه – أودّ أن أعرف لماذا أنت وطومان باي غيرُ راضيين عني؟ إن كان عدم رضاكما من

أجل المدافع التي لمّحتما إليها العام الماضي فقد حصلت على أحد عشر مدفعاً من النوع الذي يملك الأتراك منه.

– هذا خبر جيد، ولكن العدد قليل.

– أضف إليها إذن المدافع الثلاثة التي أمرتُ بإخفائها في حلب. الحقيقة ما كنت أريد الكلام في هذا الموضوع ولكن لماذا لستم واثقين من فرسان المماليك المشهورين في العالم؟لم يكن لدى جنكيز خان وتيمورلان مدافع، ومع ذلك احتلوا نصف العالم. أليس فرسان المماليك من حموا أهل سورية ومصر وغيرهم من الذين لا يحبوننا من المغول ومن الصليبيين؟ !

– ومتى حدث هذا؟ – لم يغير بشقان أيضاً موقفه – لو لم تكن جحافل الترك مزودة بالبنادق والمدافع لربما ما استطاعوا احتلال كل هذه الأرض من شرقهم وغربهم. جيش مشاتهم، والإنكشاريون...

– نعم، نعم. – لم يدع السلطان ابنه يكمل كلامه – أنا من عالم قديم، وأنتما من عالم جديد. أنتما تعرفان كل شيء وتريان دون أن تفارقا القاهرة. ولما كنت تسأل: "متى حدث هذا" سأُطلِعك على ما لا تعرف، وأذكّرك بما نسيت. في زمن السلاطين بيباريس وقلاوون وبرقوق. ألا تتذكر في عامٍ مضى كيف أوقعْنا، والسلطان قايتباي قائدنا، رماة المدافع الأتراك في المهلكة؟

– أتذكر، وأنت كنت قائد جيش الفرسان المماليك الأول. لا نسمح لأنفسنا أن ننسى بيباريس وقلاوون وبرقوق والمماليك الشجعان الآخرين. ولكن لأننا نقول: ليس زمانهم الماضي مثل زماننا الحاضر. – وأكمل بصوت أنعم – ومواطنو مصر اليوم معاصرونا هم أخلاف مواطني الماضي. يمدون أيديهم علينا وهم يبتسمون في وجوهنا. ويدلّون الأتراك على نقاط ضعف منعتنا. ويثيرون المشكلات في البلاد. لا أظنك لا تعرف هذه الأمور يا موفد الله. ولكني

أدليت برأيي لأن الحديث انفتح فجأة في ما يشغل بالنا. وما كنت أريد أن أعلّمك أن القوس لا تُصنع من الأغصان العوجاء.

– شكراً يا أمير بشقان شركس. هذا كلام سليم – نظر قانشاو غُر بعين راضية إلى ابنه ومزح معه بقول مأثور آخر ضامّاً نفسه إلى المزحة: – حسنٌ أننا كلينا لم يقل أحدنا للآخر: النبل الذي خرج من القوس لا يعود.

"والجاموسة السوداء تعطي اللبن الأبيض" كان بؤدِّ الأمير بشقان أن يقوله لوالده، غير أنه لم يجده لائقاً.

IX

لم يكن قادة الجيش التركي على وفاق تام. كانوا يتنازعون الانتصارت التي تحققت في البلقان وغيرها: يتبادلون نظرات العداء والغيرة لا يتفقون على من سيتقلد بها. وكان شخصان وراء هذا الاختصام وإن لم يُذكر اسماهما: السلطان بايزيد، والقائد الأعلى لجيشه سليم. والاثنان متعاديان قلباً وإن تصالحا لساناً. أحدهما يخاف على سلطنته، والثاني يشتهيها. وكلاهما يتوسلان الأخبار الرديئة.

– هل جئت بأخبار سارة من حيث جئت؟ – سأل سليمٌ سنانَ باشا وهو يكاد يجلس.

– إستانبول مدينة مرحة أيها القائد العسكري الكبير. كلها خير، ولكني أبلغك سلام بايزيد السلطان قبل كل شيء. سأل عنك وأثنى عليك كثيراً في خطبة الجمعة. وطلب من المصلين أن يدعوا لك الله أن يجعل سنتك مئة سنة.

– وعليكم السلام – ابتسم سليم في سره – ليجعل الله سنة سلطاننا ألفاً، وكيف صحته؟ ليجعله الله قائدَنا بالخير مزيداً من الوقت. وفي انتصارات جيشنا قولُه وفعله. وهي وجهه وشرفه.

– يرضيني جداً أن تكونا أنت والسلطان على هذا الوفاق. وهو يُعزّك بهذه الكلمات نفسها، ويقدّرك . ليت المماليك الوثنيين كانوا مثلكم. يقال إن السلطان قانشاو غُر وابنه شركس على أسوأ درجات الخصام.

– هذا خبر سعيد. من هنا كان يجب أن تبدأ تقريرك يا يوسف باشا. أنا والسلطان بايزيد نعيش على الأرض قلباً واحداً، متى تسقط كلمة من أحدنا يلتقطها الآخر قبل أن تصل إلى الأرض. نُعلي سمعة آل عثمان. أسمعْني الآن عن سبب الشقاق في مصر. ليت من يظنون أن ماء السلطان عذب يعرفون كم هو مرّ... – ضحك سليم بصوت رفيع حاد.

"أنت تضحك ولكنهما لا يتنازعان على المنصب الذي تطمح إليه..." – ردّ يوسف باشا على من كان يحسده في قلبه، وقال له شيئاً مختلفاً:

– لاشيء في موضوع النزاع بين قانشاو غُر وابنه يصب في مصلحتنا يا قائد الجيش العظيم. يلحّ على أبيه أن يزوّد جيش المماليك بالبنادق والمدافع كما جيشُنا.

– حسنٌ أن يظهر إنسان لبيب بين المماليك ذوي الأفواه العوجاء الذين ينوون أن يحاربوا طوال عمرهم بالسيف وحده. – حين فكر سليم من جديد في كلامه الساخر أضاف: – ليس خبراً حسناً لنا، ولكنه لن يتحقق لهم. أيظنون أننا سنصبر عليهم حتى يفعلوا هذا؟

– وهناك خبر أحسنُ يا قائد الجيش العظيم.

– قُلْ ما عندك وأرِحني قبل أن أفعل بنفسي ما يفعل النحل الذي يلسع من يهيجه. – لم يغير يوسف باشا من تمهُّله رغم نفاد صبر سليم:

– أظن أن الأمير خاير بيه انضم إلينا... – أصلح يوسف باشا كلامه بسرعة حين رأى وجه سليم يتجهم – نعم، نعم، انضمامه إلينا صحيح، ولكن لا يعرف غيرُ ثلاثتنا الخبر.

– وماذا يريد؟

– ألا تعرف ما يريد كل مملوكي حتى السِّفْلةُ منهم؟ – سرت ابتسامة سخرية على شفتي يوسف باشا كأنه لا يطمح هو إلى شيء – هذا الذي نصفه شركسي ونصفه تركي يريد أن يكون سلطاناً.

– وهل تستغرب هذا؟

– إذا كانت الدنيا الخداعة مركَّبة على هذا النحو فلن يكون هذا استثناءً. ولكن الأفضل ألا نخدع أنفسنا بأنفسنا.

– هذا صحيح، صحيح – مع أن سليم كان يوافق قائد جيشه فقد كان حذراً قائلاً في نفسه "أيكون يسلبني سرّي أم أعادوه إليّ حتى يتجسس عليّ؟" – من الأفضل ألا نخدع أنفسنا بأنفسنا، غير أن من يبغضوننا ويبتسمون في وجوهنا يزدادون يوماً بعد يوم. ولكن بما أننا نعيش لأجل بلاد تركيا فحسب فلن نتراجع في أهدافنا كيفما تعامل معنا أي شخص. ولن نتسامح مع من يعارضنا.

– نعم أيها القائد الأعلى للجيش، ونحن من جهتنا لن نقصّر في هذا الشأن. جنودنا يضحون بأرواحهم، ولكن لا أعرف إن كانت إستانبول الثرثارة ستفهمنا.

– ما الأمر؟ – سأل يوسفَ باشا مرتاحاً لأن الموقف الذي يريده سليم القائد الأعلى للجيش اتّخذه القائد الأدنى له سنان يوسف. وأجاب بنفسه كي لا يسبب الذعر لمحادثه: – وأنا كنت أتوقع أن تصبح إستانبول هكذا لأن صاحب البطن الملآن لا يفهم الجائع. ولكني واثق أن هذا الوضع سيعيد سلطاننا المنير إلى وعيه. – وسأله ثانية مُفهماً إياه أن ابتسامة سنان يوسف باشا ظهرت على وجهه: ماذا؛ ألا تصدِّق؟

– كنت أصدّق يا قائد الجيش العظيم لو لم يصبح عاشقاً مدمناً للفتيات الشركسيات. – لم يستطع سنان يوسف باشا الذي يتوجس من أنهم لا يثقون به أن يصبر أكثر – نحن مشغولون بأمور البلاد، وهو ليلاً ونهاراً بين النساء العاريات لا يملّ ولا يفقد تشوقه إليهن. من أجل أن أقابله ساعة واحدة للمهمة التي أرسلتني إليها تركني أنتظر في إستانبول شهراً كاملاً.

– مهلاً مهلاً يا يوسف باشا. دعني أقول لسلطاننا المنير إن كان إلى الآن على فحولته: عفارم ! – صاح سليم وجده وهزْله متجاوران.

– كنا سنمدحه لو لم تهترئ راحتاه وهو يمسح على أجساد من تشتهيهن عيناه ولكن جسده عاجز. – أضاف مرة أخرى بسخرية أمرَّ من سابقتها، ثم برّأ نفسه: – لا أعرف إن بالغتُ.

– لا تندم على ما قلتَ — أجاب سليم باقتضاب، ثم أفهمَ محادثه سبب اتخاذه ثقةً، قائلاً في نفسه: "هذا يمكن أن تثق به" — نحن الاثنين يبقى ما قلناه سراً بيننا. لم تُجبني على ما سألتك عنه. كيف ترى صحة من "يتظاهر بالرجولة"؟

– لم تعد وجنتاه متوردتين كما رأيته في العام الماضي.

– هكذا إذن ! — مع أن ما قاله سليم يبدو غير ذي معنى فقد أضاف بعد ما سكت قليلاً: – كيف يمكن أن تستمر في صحة جيدة إلى الأبد؟ لا أحد يهرب مما خطّه له الله. الله يستوي عنده السلطان وعامّة الناس. حين يأتي أجله يوجهه إلى طريق اختباره، ثم ينقله إلى آخرته... الحق أقول فيم نتكلم؟ لا نلُمْ السلطان لأنه لم يكافئنا بمبلغ يزيد قليلاً على نفقات الجيش! هذا السلطان باب جنته مفتوح له منذ زمن بعيد. أتعرف ماذا يفضّل قلبي أكثر من البلقان التي نحن فيها؟ لن يهدأ قلبي ما لم أدخل القاهرة والشام. نحن مهملون غير أن السلطان المملوكي يستعد عسكرياً. أتعجب كيف لا يتفهّم سلطاننا أن الخطر على الأتراك قادم من تلك الجهة. ثم لا أفهم كيف يتناسى أن لنا على المماليك دَيناً.

– ربما لأن بيننا اتفاق سلام؟

– متى حدث هذا الاتفاق؟

– في عهد السلطان قايتباي.

– وبعده تعاقب على مصر أربعة سلاطين.

– لم يعد مشوّقاً تغيُّرُ سلاطينهم.

– لو لم يكونوا يبيّتون لنا أمراً لما توسّلوا إلى قائد الجيش العجوز الذي كان هيّأ نفسه للعودة إلى القفقاس حيث قومُه الشراكسة أن يقبل بالسلطنة. ألست أنت من قال إن أمير حلب خاير بيه انضم إلينا؟

– نعم، أيها القائد الكبير. ولكني لم أعرف أنك مطّلِع على هذا الخبر.

– السر بين اثنين، سرُّ السلطان والأمير، حين يعرفه شخص مثلُك؛ فلماذا لا يعرفه رابعٌ مثلي؟ ! –كان ما سمعه سليم مضحكة – ولكن لا أقصد بهذا أن يعرفوا أسرارنا، خيرَها وشرها. أنا أعرف أن خايربيه نصف تركي، وأعرف ما يطمح إليه. ولكن، كائناً من كان، لا أثق به لأن من يبيع شرفه خائن. لن نستعجل على الأحداث المستقبلية في مصر.

– إن كنت ترى هذا أيها القائد الكبير فسأسألك عن شيء يقلقني: ألا تتوقع أن يحدث تغيير في تركيا؟

ابتسم سليم:

– أنتَ من سأل عن هذا، لا أنا !

– نعم، نعم. ثقْ بي في هذا الشأن !

– إن كنا سنبقى متعاضدَين أنا وأنت فلا خطر علينا مهما حدث في تركيا.

– وأنا أعاهدك على هذا. – أجاب يوسف باشا دون حاجة إلى التفكير – سؤال آخر إذن.

– عجباً؛ هل حشَوا رأسك بالأسئلة في إستانبول؟ !

– لا، لا. لا تأخذْ عني هذه الفكرة. الأقوام التي نحاربها في البلقان من صِرب وبلغار، وضعوا أملهم في الروس الذين تخلصوا بمشقة من التتار. ما رأيك في الموضوع؟

– وماذا سيكون رأيي؟ أنظر إلى الروس الكفّار كما أنظر إلى من لا يرضخون لنا هنا. من يعرفون الروس هم الشراكسة الذين يعيشون في الجانب الآخر للبحر. ويروون أن أحد قادتهم العسكريين قتله قائد روسي. حدث هذا قبل زمن طويل. ولأن من عنده معلومات أكثر في الموضوع هو قانشاو غُر السلطان فاسأله متى التقيت به في إحدى المعارك.– اختتم سليم معلوماته القليلة في الموضوع بالمزاح.

– أعدك إن اجتمعنا في موقعة كهذه أن ألبي طلبك – أسرع يوسف باشا دون مزاح.

– مهلاً مهلاً. قلْ: إن شاء الله !

– طبعاً، إن شاء الله وإلا ففيمَ نحن أحرار ! – اختتم يوسف باشا بوجه خالٍ من أي انفعال.

X

"الجمل لو سافر مئة مرة إلى الكعبة لن يصبح حاجاً" لم يدع قانشاو غُر أحداً في مصر يردد هذا القول العربي المأثور في أيام حكمه الأولى، ولا في السنوات التالية. ليس لأن كل الناس كانوا يحبونه وراضون عن حكمه – وفي الغابة أشجار عوجاء. وبين قروم الحطب المشتعلة في الموقد يحدث أن تجد بينها حطبة لا تشتعل. ولو كان كل من يفارقون الحياة تتسع لهم الجنة لانطفأت نار جهنم. كيف كان النهار والليل، والسر والعلن، والرأفة والظلم تتعايش في الدار الفانية؟

كان قانشاو غُر يعرف أن هذه الأسئلة وغيرها، تحتاج إلى جواب، وأن الخروف الوحيد يحتاج إلى راعٍ فبدأ بمتابعة أمور سلطنته بسرعة: كسب ثقة عامة الناس من خلال إفهام التجار أن ما تخفيه، وأنت تضحك، عن الدولة من أموالها ستقضيه يوماً وأنت تبكي إما قتلاً أو حبساً أو تعزيراً[1]. لم يدع الناس يقولون: "الحمار، حتى لو ألبسته سرجاً من ذهب يبقى حماراً" بل "من ظلامنا ينبثق النور". ولكن مهما تحقق له من أهداف، ومهما احترمه الناس، لم يتصرف كتلٍّ في البرية يخال نفسه جبلاً. لم يخطر له يوماً بل ساعة أن عرشه صار وطيئاً عليه أو أن سرج حصانه يجب أن يعلو.

إذا كان من الممكن أن يحدث خلاف في الأسرة الصغيرة لم يشكّ قانشاو غُر أن يحدث في البلاد مثله. كان يتدخل في كل قضايا الدولة. ولم يكن يكتم أسوأ الأخبار. ولما كان من عادته أن يتكلم إلى أمته في يوم معين من كل شهر من

[1] الكلمة الأخيرة بالعربية في الأصل. وهي شرعاً العقوبات التي لا تصل إلى الحدود المعروفة كحدّ السارق أو الزاني أو رامي المحصَنة.

خلال المنادين فقد كان الناس، محبّوه ومبغضوه على السواء ينتظرون هذه الساعة. وكان بين الناس من يقول: "مللْنا من هذا الكلام الأجوف الذي يذيعه السلطان عبْرهم" ولم يكن من يردون على هؤلاء قائلين: "ليس كلُّ شيء حسنٍ سمناً حتى تمسح به الخبز" قليلين. وأكثرُ من هؤلاء وأولئك من يقول "لو لم يكلّمنا سلطاننا هكذا لكُنّا صُمّاً بُكماً". ولكن كان بينهم من يقول "ليت الترك جاؤونا وخلّصونا من هؤلاء المماليك القبيحين". وكثيرون يرون المنادين مَضْحَكة، ولا يهتمون بهم، بل يصرفون وقتهم في أعمالهم فحسبُ. وازدهرت الفكرة القائلة في أوساط كثيرين لا تعلُّقَ لهم بشيء: "ابحث عن البلاد التي تجد فيها خبزاً، هذه بلادك ومُستراحُك ".

وبالقياس إلى السنوات التي أسكتَ فيها السلطان قانشاو غُر المجابهة الأشرفية – الظاهرية، وأعاد نظام جمع الضرائب إلى وضعه فالسنوات القليلة الماضية كانت سنوات سلام في مصر. وفي أحسن الفترات تلك كان بلدان يعاديان مصر: الفُرس من جهة الشمال الشرقي، والترك من جهة أخرى.

– هل سمعت أيها الأعجم من يقول: لِيعشِ العدو البعيد عنك مئة عام؟ – سأل السلطان قانشاو غُر وزيره.

– لم أسمع يا موفد الله.

– أُخبِرك إن لم تسمع. – ابتسم قانشاو غُر وهو يمر براحة يده على لحيته الطويلة.

– إذا كان العدو عدواً في كل زمان فلماذا أدعو له أن يعيش مئة عام؟ أمن أجل ألا يتحرش بنا؟ والعقاب يحوم في الأعالي غير أنه ينقض حين يرى فريسته. لا أعرف إن كنتُ مخطئاً.

– هذا جواب سليم، لا ترْتَبْ فيه! إذن سؤال آخر: أيحدث أن يفعل القلم ما يعجز عنه السيف؟

– وهذا ممكن. تذكَّرْ أننا صالحنا السلطان بايزيد بريشة القلم.

– تعرف ما في قلبي.

– أمن هذا اليوم فحسب يعرف أحدنا الآخر؟

– وهذا صحيح. إن كنت حكيماً عالماً هكذا فلا تسخر مني لسؤالي الأخير: أيستطيع طائران أن يغنيا على غصن واحد؟

– لا.

– لماذا؟

– سيبلبل كل منهما الآخر متنازعَين على من صوته أجمل وأعلى.

– وإن تناديا؟

– سيتسبب التنادي – الاختلاف في الكراهية بينهما.

– وهذا رأيي أيضاً. لو حدث هذا لكان خيراً.

– هناك ما يُقلقك يا موفد الله.

– أفكر في تصرف تركيا والفرس معنا وكأن لهما ديناً علينا...

******

– ماذا جرى بشأن رجائي لك في موضوع من حوّلوا سيفه الذهبي وبالاً عليه حسن البدوي؛ لم تردّ عليّ؟ ألحّ طومان باي على بشقان.

– لم يستجبْ والدي قائلاً: من يشته الحلو يأكلْ معه المرّ.

– خالنا إنسان عجيب...– غمغم طومان باي – لا يعرف مدخلاً ولا مخرجاً. حين يتغير السلطان تصدر أحكام عفوٍ. ويُطلق سراح بعض المحكومين. ليس قانشاو غُر من نوع الناس الذين لا يغفرون الحقد والشر، ولكن لا أعرف. لا

أفهم لماذا يُبقي حسن البدوي في السجن مع أننا عثرنا على السيف الذهبي وأوصلناه إلى السلطان التركي.

– أنسيت أن الحرب الأخيرة بين تركيا ومصر نشبت بسبب سلوك المجرم حسن البدوي؟ – ردّ بشقان رغماً عنه على طومان باي. وأضاف بسرعة وبصوت ألطف: – ربما يحتفظ به لهذا السبب، وأنا لو كنت مكانه لفعلت مثله.

– مهلاً، مهلاً. على ما يبدو أنت ووالدك على رأي واحد.

– وهل تستغرب هذا؟

– سأقول لك ما أستغربه: أني لستُ معكما.

– هذا تُوجّهُه إلى خالك، لا أنا. — لا يغير بشقان شركس موقفه.

– ليست مشكلة، أكلف نفسي بما لم تستطع حلَّه. — غضب طومان باي، ثم لامه ولاطفه: – حسن البدوي المجرم لا هو قريبي ولا من أهلي، أُشفقُ على أسرته فحسب.

– ألا تشفق على أيتام المماليك وأراملهم الذين تسببت في مأساتهم الحربُ التي تلت جريمة هذا الجشع حسن البدوي؟ ! — عارض بشقان طومان باي بصوت عالٍ على غير عادته.

– لا تُعلّمني ! — لم يتراجع طومان باي.

– ماذا حدث لكما حتى تتصايحا؟ – سألهما السلطان الذي باغتهما بالحضور، وأمرهما، وقد قفزا من مقعديهما، بالجلوس. واستراح هو في ظل الشجرة. — أسمعكما إن كنتما واثقين مني.

– كنا نتكلم يا موفد الله في موضوع السجين حسن البدوي.– لم يكتم طومان باي سبب الخصام بين الأميرين.

– سمعتُ بهذا. وأنت هل وصل إليك أولاد حسن المجرم !

– وصلوا إليّ أكثر من مرة. والسبب أنه كانت لي علاقة ما بالموضوع الذي مضى عليه كثير من الزمن إن كنت تتذكر... لا أقول إن تعامُلَكما أنت وقايتباي مع ما فعله قاطع الطريق حسن غير صحيح، ولكني أشفق على أولاده. لا تحكما عليّ برقة القلب، وقعتُ في همٍّ شخصيّ.

– لماذا نتهمك برقة القلب إذا كنت تريد أن تتحمل عن أحد ذنبه؟ – قال قانشاو غُر دون أن يُبدي على نفسه استغرابه، وسأل ابنه: – وأنت ما رأيك في الموضوع يا بشقان شركس؟

– فرغت من إبداء رأيي لطومان باي. ولكن ألستَ يا موفد الله من نصحني ألا أجعل من كل من يبتسم في وجهي محدِّثاً، ومن كان يقول: لا ترافق في الطريق من لا تعرفه؟

– أنا أروي ما قاله الأديغة. وفي كلام طومان باي صحة. سنلبي رجاء ابن أختنا الذي يريد أن يفتح باب الرحمة على المجرم عديم الشرف الذي قضى سنوات طويلة في السجن يتوسل هو وأولاده. إن كنا هو ونحن سنكون فاعلَي خير حقيقةً.

– شكراً يا موفد الله — عادت الروح إلى طومان باي بعدما كادت تسقط منه. —كانت المسألة من أحمال دنياي الفانية فسقطتْ عن كاهلي.

– هذا ليس من فضلي، بل الله الرحيم، ولذا لا تدعنا نخطئ أنت وأنا. والآن إن تصالحتما فلي معكما مسألة تتعلق بالبلاد: تسافران إلى حلب وتطلعان على ما يجري هناك من جانبنا ومن جانب الأتراك. واستكشفا أحوال الأمير خاير بيه. واستمزجا آراء المماليك. لا تتعاميا ولا تتصامّا مع أي إنسان تقابلانه. واحذرا من الأمير خاير بيه المسالم على مبدأ القول العربي: من يزر الذئب يصحب كلبه. ولأنه مخادع لا تصدّقا كلامه قبل أن تستفسرا عينيه.

– ألا يكفي كم خدعَنا خاير بيه يا موفد الله؟ – سأل بشقان وقد هدأت فورة غضبه مما فعل قانشاو غُر بالمجرم حسن بناءً على إلحاح طومان باي.

– وأنا هذا رأيي، ولكننا لا نستطيع الجزم بأن للأمير خاير بيه وجهين...

XI

لدى غروب شمس اليوم الذي تحدث فيه السلطان الأشرف قانشاو غُر وطومان باي وبشقان شركس في موضوع حسن البدوي، في الثالث والعشرين من شهر نيسان عام 1512 جرت حادثة مهمة في تركيا: مات السلطان بايزيد، وتبوّأ الحكمَ سليم الأول الذي يضيف بعضهم إلى اسمه لقب: باوز[1]. لم يكن سليم نفسُه يعرف أن نهاية مماليك مصر ستكون على يديه. ولم يكن لدى السلطان قانشاو غُر والأمير طومان باي الذي سيخلفه أيُّ توجُّس.

وهذا الموعد — بعضهم مناسبة فرح له، وبعضهم بداية مأساة — كان بقي له أربع سنوات.

[1] أي القاطع شديد البأس.

XII

كان النزاع المملوكي – المملوكي في أوْجِهِ حين وقف طومان باي وبشقان إلى يمين السلطان الأشرف قانشاو غُر ويساره. ومع أن المماليك الذين يُظهرون مهارتهم على صهوات الخيل كانوا على مرأى من السلطان فقد قال لمن عادا من حلب التي كان ذهنه فيها:

– أُنصت إليكما.

– بالنسبة إلينا كل شيء على ما يُرام يا موفد الله – بدا من صوت طومان باي رضاه عن الخبر. – توجه سليم إلى إيران للحرب.

– لِيرَ الفُرس الآن إن كان خيراً ! – لم يملك شركس بشقان الصبر – كانوا ينظرون إلينا من أطراف عيونهم.

في الجهة الأخرى يراقب الناس الفرسان الأربعة لا يُريحون أحصنتهم ولا يخففون سرعتهم: أحدهم يقفز عن سرجه ثم يعود إليه، والآخر ينزلق إلى تحت بطن الحصان ثم يعود إلى ظهره، والثالث يلعب بالسيف واقفاً على ظهر الحصان، والرابع لا يُبقي على ثمار القرع المغروزة على أوتاد.– يقطعها، ويلقي واحدة منها بطرف الرمح أمام السلطان وينصرف محيياً برأسه. وبعدهم يلتهب المضمار بمناورات الفرسان: يتجابهون، ويفترقون. والسيوف تلمع في الشمس، وتصلّ، والرماح تتكسر، والخيل تصهل.

– هل ترون هؤلاء؛ مهما كانوا حذرين في تمريناتهم فهم مغامرون بأرواحهم. – مع أن قانشاو غُر كان معتدّاً بما يرى فقد أجاب متأخراً، كمن لا يبالي، على الخبر الذي حمله إليه ابنه وابن أخته: – أنتما سعيدان على ما أراكما لأن النار اشتعلت في بيت الجيران. لا تخدعا نفسيكما، أنتما تتناسيان أن عيني الجمل، وهو يلتهم العشب القريب منه، على الأعشاب البعيدة. لواستطاع سليم ذو

الأنف الدقيق لغطّى البحرين اللذين أمامه. لا بد أن يُفهِمه أحدهم أن الاستعجال وحده لا يُنقِص من الطريق. ولكن من الذي سيكون السبب؟ انظرا، انظرا، ما حدث لجان برد الغزالي أمر عجيب: أوقعه صديقكما الأمير شادْبك من صهوة حصانه، فيمسك له الأخيرُ حصانه، ويُركِبه، ويعيد إليه السيف الذي أسقطه من يده.

– لو كنتُ مكانه لما فعلت مثله — لم يتحمل طومان باي ما رأى.

– وماذا كنت ستفعل؟ أكنتَ تصرعه بصدر الحصان؟

– إن كان هذا رأيك يا موفد الله – أجاب بشقان بدلاً من صديقه — انظر ما سيفعل الأمير الغزالي بشادبك.

ما كان يرتاب يه بشقان شركس أثبته الغزالي: ما إن رجع إلى صهوة حصانه حتى غافل غريمه من خلفه وصرعه. ثم عاد فصرعه ثانية وهو يحاول النهوض.

– نعم، نعم، صحيح — برّأ قانشاو غُر نفسه وهو يدينها: – لم نخطئ، لا أنتم ولا أنا مع أن لكل منا نظرة مختلفة إلى الحادثة نفسها. كل إنسان يتصرف حسب شرفه وفطنته. ألم تسمعوا قولهم: المغلوب لا يمل من النزال؟ الأمير الغزالي من هذا النوع. ولكن لا تلوموا صديقكم شادبك: تحلّى بالرجولة والإنسانية. حين يجد نفسه في ساحة المعركة، فكما يقولون: يجب أن يكون قلب الحداد قاسياً كالحديد، أنا واثق أن سيفه سيكون قاسياً على العدو.

لا يمكن فهْمُ سير الحروب بين تركيا والفرس: لم يتقدم أي من الطرفين رغم أنهما يتجابهان منذ أكثر من سنة، ولم يتراجع. والجيش التركي لا ينقص إن لم يزد. والعجيب أنهم بحجة الفرس يحتفظون على حدود الشام بجيش من الفرسان وآخر من المشاة. والقائد الأعلى للجيوش التركية سنان يوسف باشا قلبه في حلب أكثر مما على حدود فارس التي يتعامل معها باللامبالاة. وفي أثناء تلك

السنة اجتمع هو وخايربيه ثلاث مرات سراً. — وفي كل مرة يؤكدان على نواياهما. وإذا توجّب التعبير بصراحة عن سرِّ الخائن فالأمر في غاية السهولة: يريد خايربيه أن يُدخل الأتراك إلى سورية دون عائق، وينصبوه سلطاناً عليها، فتتسع تركيا إلى جهة الشرق، وتصبح مصر أقرب إليها. وهذا لن يحدث الآن، بل حين يحتل خانيّة "دُلْغادِر" الغنية التي كانت للفرس[1]. وسيجد إلى حينها الوقت لاستمالة أمراء آخرين غير الأمير جان برد الغزالي.

لم يكن الأشرف بيبرد قانشاو غُر يقضي وقته دون عمل — كان عارفاً بما يحدث في البلاد، وعلى حدود الشام، وحدود حلب. ولم يكن يمضي أسبوع لا يأتونه فيه بأخبار الشام وحلب. ولكن، حتى لو كانت أخبار المدينتين متشابهة، فقد بدأ يهتم بعدم تطابُقِها أحياناً. مَن مِن أميرَيهما يقول الحقيقة؟ الاثنان أميران منذ زمن بعيد. كان هو ومالك العمر سيباي في فرقة فرسان واحدة. واجتازا كثيراً من المواقف العصيبة. ولا فرق كبيراً بينهما في العمر. — فقط ثلاث سنين بينهما. والأمير خاير بيه؟ هو أصغر سناً بكثير من قانشاو غُر وسيباي، هو في الأربعين، في ذروة قوته. وليس محروماً من الرجولة لولا حسده وشهوة الحكم لديه. وحين عبر البرتغاليون الصليبيون البحر الأحمر ونزلوا قرب الحجاز كان من بين أشجع الرجال. وجان برد الغزالي؟ هذا من عُمر خاير بيه وصديقُه. وهو أكبر ببضع سنين من شادبك الذي غدر به في يوم سباق المماليك. وأمير الأربعين هذا يطالب دائماً بترقيته مستقلاً هذا العدد.

---

[1] ولها تسميات مختلفة باختلاف اللغات الفارسية والتركية والعربية. تُنسَب إلى مؤسسها دُلْغادر التركماني. تقع في الركن الجنوبي الشرقي من الأناضول (منها مرعش وأفسوس). قامت في منتصف القرن الرابع عشر في أحضان الدولة المملوكية وبشبه استقلال ذاتي، وكانت خط الدفاع الأول عن الدولة المملوكية، وهي مسقط رأس السلطان العثماني سليم.

"والأتابك سعدون العجمي إذن، والمحبي، والنيحاتي، وغيرهم من القرانيص الأكبر سناً، ألا يطالبون بشيء؟ – سأل السلطان قانشاو غُر نفسه فجأة مع شيء من الارتياب. – والمماليك الجُلبان الأحدث سناً؟ وهؤلاء ينتظرون أمراً ما. يجمعهم ما لا يملكونه، ويفرقهم ما لا يتحقق لهم. صراع الأجيال الذي أوقفتُه قبل سنوات رجعوا إليه الآن. لا يجوز أن ننشغل بأمور كهذه في الوقت الذي يحاصرنا فيه الأتراك. – يتذكر قانشاو غُر أن المماليك الجلبان الأحدث سناً كانوا يقتلون المماليك القرانصة الأسنّ، وأنه كان يُعثَر على هؤلاء قتلى في زوايا الأسواق، ويرمون بهم أسفل الجسور، بل يجدونهم قتلى في بيوتهم. وكان يتمثّل لعينيه بضعةُ الجلبان الذين أمر بإعدامهم. – مهلاً مهلاً. مَن أدخل صراع الأجيال في مصر هو السلطان سليم. حين أرسل إليه إمام المدينة المنورة عتابه: "لا تأمرون بذِكر اسم سلطان العرب الذين أنزل الله عليهم دينه، في خطبة الجمعة" إلى السلطان سليم، كان أجابَهُ هذا الجواب المعيب "متى تخلصتم من سلطان المماليك الشراكسة العجوز الذين لا إله لهم، ونصّبتم سلطاناً عربياً عليكم فستدعو البلاد التركية له في خطبة الجمعة إلى الله له"... ثم لماذا اسم الأمير خايربيه على ألسنة الترك أكثر من سائر أمرائنا؟..."

هذا السؤال نفسُه وجهه قانشاو غُر يوماً إلى الأمير الغزالي. وكان جواب الآخر حاضراً كمن كان ينتظر السؤال:

– لا يكفّون عن ذكر اسم خاير بيه ربما لأن حلب منعة بالنسبة للأتراك يا موفد الله. ثم كيف تأتي على ذكر الأمير العدو بالخير؟ لا تصدّق أن خايربيه نصفُ تركي. هذه إشاعة من العدو لا أساس لها. – "هذا العجوز ذو لحية الماعز لا يثق بنا". وأنهى كلامه بنبرة ثابتة قائلاً في نفسه: "يريد أن ينتزع مني ما

في قلبي بطلاقة وجهه، ولكن لن أحقق له أمله" – لا أحد يعرف خاير بيه كما أعرفه، ثقْ به كما تثق بي.

– لماذا لا أثق بكما؟ لا يساور قلبي مثل هذا الارتياب نحو مماليكي ونحو أمرائي. أنتم من نأمل في أن ينقذونا من الخطأ ونحتمي بكم حين تغدو الإنسانيةُ والاقتناع والرجولة والعدالة، أسُس الحياة، في مأزق. أعرف الأمير خاير بيه كما تعرفه أنت، لا أقلّ منك، لولا ثقتي فيه ما ولّيته حلب. لم يخذلني يوماً واحداً. صحيح، لا تجري في عروقه نقطة دم تركي، ولكن الترك أشاعوا عنه كونه نصفَ تركيٍّ. أتذكّرُ كما اليوم أن السلطان الأشرف قايتباي اشتراه صبياً ممتلئاً.

–وأنا، ألا تتذكرني يا موفد الله، كنت معه؟

– لا، لا أتذكرك.

– وكيف تتذكرني وأنا لم أبق مملوكاً عند الأشرف قايتباي إلا ثلاثة أيام... وظلوا يبيعونني ويشترونني حتى أصبحت رجلاً رغماً عنهم... لا ألوم أحداً، ولا أحد له عليّ دَينٌ أو مستعار. لم يقدم لي أحد خدمة إلا ما قدمته لنفسي.

– لاأستطيع أن أزعم أني كنت في مثل وضْعِك يا غزالي، ولكني لم أقابل مملوكاً هنا لم يمر بمصاعب كثيرة. — أنهى قانشاو غُر حديثه نهاية مفاجئة — لن نسمح لأحد أن يغرينا بالأكاذيب الخادعة في ما كتبه الله العلي القدير على جباهنا في الدار الفانية، دار الابتلاء.

غمغم الغزالي في سرّه: "أنت في شيخوختك صرتَ في الجنة ولذا سيصدر منك كلام كثير"، ووافقه بفمه:

– نعم، نعم أيها السلطان الأشرف قانشاو غُر، لن نسمح لأحد أن يخدعنا. ماذا لنا في هذه الدار الفانية لنصدُق له إن لم نصدُق لمصر ولسلطانها ! — وأضاف لنفسه: "وسيأتي سريعاً اليوم الذي سيتّضح فيه هذا".

حين تنطق الكلمات "رجولة" و "مُدان" و "بريء" و "خائن" مستقلّةً تفهم معانيها بسرعة. ولكن إن وضعتها في سياقها من حياة الإنسان فكلُّها مما يدعوك إلى التفكير. هذه لا تولَد مع الإنسان بل تبدأ مع خطوات حياته.

ليست كل الطرقات متشابهة. هذا طويل والآخر قصير. وتصادف الملتوي منها والمستقيم. فماذا ستختار منها؟ لا تعرف في أيها تعثُر؟ وفي أيّها تضلّ؟ وفي أيها ستكون محظوظاً أو تعيس الحظ.

كان ما يفكر فيه قانشاو غُر منذ أول يوم له في مصر طريق واحد — كيف سيعود إلى أرض الأديغة التي خرج منها. والحق أنه لم يكن كسائر المماليك يعاني من العوز والضيق: كانت زوجة الأمير قايتباي قريبته فاستقبلته الأسرة التي انتمى إليها استقبالاً حسناً. وأنت حرٌّ في الخامسة والعشرين في ما تقول وما تفعل. ولكن ظل يؤجل من اليوم إلى الغد، إلى العام المقبل حتى استمرت ضيافة الأرض الغريبة له نصف قرن. وكان مسؤولاً عن بعض أسباب هذه المماطلة، وغير مسؤول عن بعضها.

رجولة الأديغي وامتداحه متلازمان فأين كان قانشاو غُر يذهب هاجراً من حوله. حين يُطلَب منه الركوب يركب معهم دون أن يسأل. وأقرّ نفسه مع مَن صاحبَهم. ولم يسمح لمن كانوا يريدون أن يسبقوه أن يفعلوا. ولم يسمح لمن لحقوا به أن يبلغوه.

لا تراجع حين تُستَلُّ السيف: إما أن تموت وإما أن تموت. ولكن أهو وجه الأديغة فقط ما سيحميه؟

"نعم، نعم يا شركس بشقان، أنت على حق. – تذكر قانشاو غر الآن ما كان ابنه قبل أعوام وجّهه إليه. – العش الذي ولد فيه كلُّ إنسان، سواء كان العش صغيراً أم كبيراً، بيته. ولأن البلدين اللذين في قلبي جناحان، إذا كانت الأولى مصر، فالثانية بلاد الأديغة البعيدة، فلن أخذلك في أيٍّ منهما. ولكن لا أعرف إن كنت قادراً في شيخوختك أن تفعل ما لم تستطعه في شبابك... يكفيك ما اعتبرت به نفسك في مصر عصفوراً مكسور الجناح. الحق ماذا أقول كما لو أن أحداً يمسك يدي ويدور بي في مصر؟ أيُّ ثنائيات من نوع "أديغة – مديح" و"رجولة – مُدان" و"بريء – خائن" لا تفارق ذهني؟ ولأن هذه لم تبدأ معي ولن تنتهي فلن أخدع نفسي بما أحمي به شرفي مفكراً في الأحسن والأسوأ. سأفعل واجبي، ولن أتوقف عند هذا الحد. والله سيعذرني في ما لا أقدر عليه. ولن يسمح لي أن يخطئ نظري. ولن يُضعِفني. ولن يمارس من ورائنا أهل البلاد الذين حمينا دينهم وأرضهم مئة عام الخيانةَ التي لم نقبلها على أنفسنا كما يُشيع عنا أعداؤنا... لم أكن أريد أن أقول هذا ولكن هل الترك الذين يلقبوننا بالملحدين أحسنُ منا؟ نحن الأديغة إن نتصف بالاستقامة والتفاهم فما يضيرنا مهما قال الناس عنا، وما كنا لنتراجع !... "

كان السلطان قانشاو غُر واثقاً من المماليك ثقته بنفسه، وكانوا أملَه. وقضى نصف العام الفائت بين مصر وسورية لا يكلّ ولا يهدأ. ولم يسمح لأحد أن يلاحظ عليه طوال هذه الرحلات أن سنواته الخمس والسبعين تُثقِل كاهله، ولم يُطلع أحداً على ما يعتلج في قلبه. ولكن لما لم يكن كل شيء في الإنسان قوياً كان لا بد أن تظهر على قانشاو غُر نقطة ضعفٍ ما، وكان لابدّ أن يطفو فجأة ما كان يختلج في صدره من قلق وهواجس إلى السطح. وإذا كان عاش أحسن سنوات عمره وهو يقول لنفسه مهما وجد نفسه في أصعب المواقف

"كما ركبت حصانك بنفسك ترجّلْ منه" فكيف يتناسى هذا المبدأ في سنوات كِبرِه وحساسيته للإهانة؟

ومع أن قانشاو غُر كان من هذا النوع من الرجال ففيه أيضاً طبع عجيب آخر: يُخيَّل إليه أن الناس كلَّهم يعشقون الصدق كما هو. ولكن لا تحاولْ أن تكذب عليه أو تُرائيه. يبتسم في وجهك قائلاً "المرائي لا يخجل، عيناه بلا حياء،لا ترفّان". والخائن؟ والخيانة؟ لا يحب أن يتكلم فيهما، بل لا يسمح لهما بأن يخطرا له. لماذا إذن خطر خايربيه في اللحظة نفسها للسلطان قانشاو غُر؟ ولماذا تخيل الغزاليَّ ينظر من خلف خايربيه؟ "لا، لا، لا يجوز اتهام الإنسان جزافاً. — عاتب قانشاو غُر نفسه وهو يدينها. — لا فرق بين أن تكون شكّاكاً ومذنباً. ولأن من يرافق الأعرج يبدأ يعرج أيضاً، فكذلك لا بدّ أن لكل نهر جسراً فمن يعبره لا يتكاسلْ في البحث عنه" . وفي الدنيا التي تعجّ بالأخبار لابد أن يتسابق الصدق والكذب؛ فأيهما سيصل إلينا قبل غيره من جهة الترك؟..."

– جئتك بخبر سيء لا أعرف إن كان صحيحاً أم كاذباً يا موفد الله – تسمّر الأمير خايربيه بين يدي السلطان.

– يحدث أحياناً أن يكون الكذبُ خيراً من الصدق؛ أسمعك.

– احتل جيش سليم إمارة "دُلْغادِر".

– هذا الخبر صحيح صحة وقوفك أمامي. — منذ البارحة يُخفي السلطان بوجهه ولونه معرفته بالخبر — وماذا الآن؟

– إن كنت ترى هذا يا موفد الله فنحن جاهزون من هذه اللحظة لملاقاة الجيش التركي المهاجم.

– نحن جاهزون يا خاير بيه ولكن – مزح السلطان قانشاو غُر مُسمِعاً مجموعة الأمراء المجتمعين أمام خيمته الخضراء – الصفراء. – لا يزال جيش سليم المرهق على الطريق. وأنت ما رأيُك يا غزالي؟

– تمام يا موفد الله، تمام – وافقه الأمير الغزالي – كلام الأشرف بيبرد قانشاو غُر كلامي، وفِعلُه فعلي. إن كان لدى الترك ذوي السراويل القصيرة الشجاعة فلْيواجهونا!

– نعم، نعم ولا يُخفوا أنفسهم وراء مدافعهم! – مع أن خاير بيه اختتم كلامه فلم يسمع كلامَه المماليكُ، القريبون منهم والبعيدون، الذين كانوا يراقبون الشمس الحمراء التي تحرق سماء الغرب.

XIII

بدأ السلطان الأشرف بيبرد قانشاو غُر[1] الدعاء إلى الله وهو يصلي الركعة الثانية من صلاة الصبح، حين خرقت مدافع الأتراك الصمْتَ القلِق لمرج دابق.

لم يختلج عضوٌ من جسم قانشاو غُر. ولم تقطع الطلقة الثانية والثالثة والرابعة صلاته.

مرة أخرى تلا قانشاو غُر بعد البسملة سورة الفاتحة: ﴿الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم...﴾

ومسح سلطان مصر لحيته البيضاء براحتيه، ثم دعا إلى الله بلغته الأديغية: – "ها أنت يا إلهي جعلتني أشهد صباحي. الحمد لك. ليلي ونهاري، وأعمالي وكل ما في الدنيا بيدك. مررت بمواقف اختبار كثيرة في دنياي ، غير أنه يُخيَّل إليّ أن موقف هذا اليوم أصعبها فارحمني واحمِني من الخطأ. تعرف أننا لسنا من بدأ الحرب، وترى من بدأها. لم أكن أريد أن أُشهِر سيفي في شيخوختي على أحد. ولكن لا تدعْني أندم إذ أشهرته. ولأن كل من يحمي بلاده وأرضه على حق دائماً فلا تدع أحداً يثلم شرفنا. أنت أملنا وموئلنا يا الله. وكما تأمرني سأتصرف اليوم على قدْرِ قوتي وأملي"

حين انتهى قانشاو غُر من صلاته أعاد تجهيز نفسه بالسلاح كمن لا يهتم بالقتال الذي نشب في مرج دابق وبصليل السيوف وصهيل الأحصنة، وامتطى الحصان الذي أحضروه له.

أسرع الأمير خاير بيه إلى جانب السلطان:

---

[1] لاحظ أن النسبة "بيبرد" في الأديغية تسبق الاسم.

– نحن المماليك، مع أن سليم كان يسخر منا بصفتنا بلا إله فقد ثبّت على نفسه هذه التهمة بمدافع الصباح ... – انظرْ انظرْ ها هو جيش الترك يتراجع... – "ماذا جرى لهم؟ " مع أن خاير بيه اضطرمت النار في قلبه فقد صاح: – لا يوقِّر جيش فرسان الأمير سيباي أحداً منهم. والأعجم سعدون يهاجم مدافع الترك... الأتراك يتراجعون...

– لا تتسرع يا خاير بيه – يقول قانشاو غُر وعينه على ساحة المعركة. – يمكنك أن تحمي نفسك بتراجُعِك. وهذه من خُدع سليم.

– هل تدعُهم يقتلونك متراجعاً؟

– النصر له أساليب كثيرة.

مضت عدة ساعات والمماليك والترك يتفانَون. – السيوف تصلّ والرماح تتكسر، والرجال نسوا الألم والرحمة.

هذه المرة لم تنفع بنادق سليم ومدافعه. وظهر للمماليك من هم أمضى منها وهم مشاة الجيش الإنكشاري. – يحاربون، يتراجعون، لا يستسلمون. ومن مدة إلى أخرى يُشرك سليم محاربين جدداً محل القتلى. المماليك القرانصة الذين يقودهم الأعجم وسيباي لا يعبؤون بأرواحهم: من هم على الصهوات، ومن أسقطوهم عنها يقاتلون. ولا أحد منهم يتراجع.

ومكانُ هذه الأحداث هو الجانب الأيمن الذي يحارب فيه عثمان باشا. وفي الجانب الأيسر الذي يقوده سنان يوسف باشا يجري الدم. وفي هذا الجانب يحارب طومان باي وشركس بشقان. وليس بعيداً عنهم جيوش خاير بيه والغزالي. ويظهر مقر السلطان التركي على مسافة غلوة حصان.

– ساعة بطولتنا اقتربت! – استلّ السلطان قانشاو غُر سيفه – لنهجمْ على مقر قيادة سليم! – لحق ثلاثمئة الفرسان المختارين بالسلطان.

وصل إلى السلطان ثلاثة أخبار أدعى للحزن من اكتشافهم أن مقر القيادة كان خالياً: فتح خاير بيه والغزالي للترك أبواب حلب خيانةً، وقُتل الأميران الأعجم وسيباي، وأُسر بشقان مجروحاً جرحاً خطيراً.

– لا يحدث مثل هذا والنصر في أيدينا !... — حين ارتفع قانشاو غُر عن سرج حصانه غيرَ مصدِّقٍ خرقت النار التي أشعلتها الحرب بين المماليك جسد العجوز: – ليتني ما شهدتُ هذا في شيخوختي!... — وقع السلطان على حارك الحصان. وحين صحا توسل إلى طومان باي الذي هو في حجره: – أدرْ وجهي إلى الغرب، إلى نواحي بلادي... ماء... لا ألومكما أنت وبشقان... الشجرة التي جذورها ضحلة تموت سريعاً... — وفيما يقول هذا كانت نهايته في الدم الذي تدفق من فمه.

******

يكتب المؤرخ ابن إياس "جرت المعركة في الرابع والعشرين من شهر آب عام 1516. وفي اليوم نفسه وارى قانشاو غُر حراسُه الثرى في طرف من برية مرج دابق بحيث لن تجد القبر مهما بحثتَ عنه"

******

وفي الساعة التي أنزل فيها جثمان قانشاو غُر إلى القبر حُمل رأس بشقان على رأس رمح إلى السلطان التركي. وأخبر سليم من حملوا الرأس أن الحرب على المماليك "الذين لا إله لهم" لم تنته بعدُ:

–أما وقد ووري رأس السلطان العجوز هنا فسأعتبركم وضعتم مصر كلها في قبضتي...

XIV

اقتحم جيش سليم الذي كان يقول: "ليس كلُّ من يقرع الطبل يعزف لحناً" حلب ودمشق دون أن تبدي أي مدينة أو قرية في سورية مقاومة: كان السكان يستقبلون الأتراك بالخبز والملح. وكانت مرحلة تَشَفٍّ لا نهاية لها من المماليك لا تمييز فيها بين بريء ومذنب. وأهل البلاد الذين فقدوا صوابهم يَقتلون في البرية والبادية المماليكَ الذي يحاولون النجاة بأنفسهم قبل أن يصلوا إلى القاهرة، ويأسروهم. وفي سورية كان الترك يهيجون السكان ضد المماليك، ويدفعون عن كل رأس مملوكي حيٍّ أو ميت مبلغاً معيناً.

وبذنب المماليك أنفسهم ظهرت أسباب تدعو إلى تمزيقهم. ليس الآن، بل قبل معركة مرج دابق بفترة، ومبدؤها ليس عهد ولاية قايتباي ولا قانشاو غُر، بل في زمن الظاهر سيف الدين برقوق الذي لم يسمح لأهل البلد بالاقتراب من مناصب السلطة. كان خبر سؤالِ صبي قبيح وصل إلى مصر "أهنا يمكن أن تصبح سلطاناً " خبراً مضحكاً، غير أنه يشهد بوضوح على أنه حسود طامح في السلطة. ولكن أسوأ ما في الأمر هو الخيانة التي لم يعرفها الشراكسة والتي بدأت تظهر بين المماليك شيئاً فشيئاً. وهذا ما منح الأتراك النصر في مرج دابق. وهو ما سمح للسكان الذين ظهر لهم فجأة من يساندهم أن يرفعوا رؤوسهم.

– أهنئك يا موفد الله، من هذا اليوم سورية في قبضتك. – مع أن الأمير خاير بيه لم يكن يعرف وضْعه فقد هنّأ السلطان سليم، مخفياً قلقه، منتظراً جوابه – فرّقتَ مماليكَ العجوز قانشاو غُر الأوغادَ شَذَرَ مَذَرَ في أطراف العالم.

– حياك الله يا خاير بيه. منذ زمن بعيد كنت أنذرهم بمصيرهم هذا، ولكنهم لم يسمعوا نصيحتي – جلس سليم مدة وكأنه حزين لما فعل بالمماليك، ثم سأل:

– أتعدُّ سورية بلاد العرب كلهم؟

– عالم العرب كبير يا موفد الله – أجاب خاير بيه قائلاً في نفسه: "بعدما جلبنا له النصر على المماليك كيف يتصرف معي هذا الذي ينسى دَيني عليه!"

– وسورية جزء من عالم العرب. ومصر والنوبة وبغداد، والمغرب، والكعبة... وأريد أن أسيّدك على بلاد عربية وإسلامية أخرى غيرها.

– حياك الله – انتصب سليم بسرعة وكأنه ساد كل هذه الأصقاع، وبدأ يذرع أرض الغرفة. وحين وصل إلى جنب الأمير الخائن توقف، وقال له محدّقاً في عينيه:

– لستُ أنا من تُسيِّدُه على هذه الأقطار بل تركيا التي وحّدها لنا القائد العظيم عثمان – أوغُوز.

– إن كنت تقول هذا يا قائد الترك والعرب فأنا أعدّك قد تحقق لك كل ما تريد.

– هذا سهلٌ قولُه غير أنه ليس سهل التحقيق – ابتسم سليم.

– لماذا يا موفد الله؟

– لأنك لم تكن تعرف ما يحدث في مصر وفي القاهرة. لو كلّفتك بإمارة سورية كما كنت وعدتك لربما ما حدث ما حدث. أنفذ ما وعدتك به كي لا أجعلك تقول: "الكذاب ينطفئ مصباحه حتى تغيب الشمس": أقلّدك منصب موفد سلطان تركيا. وسنكلف المنادين بإعلان هذا الأمر حالاً.

– والأمير الغزالي؟ – خرج السؤال من فم خاير بيه دون أن يعرف كيف خرج.

– من غزالي؟ – هو ينظر إلى أبعد مما تنظر. مصر أرض أحلامه. وإن أردت رويت لك يا سلطان سورية ما هو أعجب.

– وما الأعجب من هذا يا موفد الله؟

– أتتذكر مملوكك حلبي؟ هو من جاءني برأس ابن السلطان العجوز الذي لم نجد جثته.

– وكيف لا أتذكر ! وماذا يريد هذا أيضاً؟

– يريد أن يكون سلطاناً !

– وكيف؟ !... – نظر خاير بيه ساهماً في وجه سليم. – هذا اللئيم سليل الوسَخ ظننا أنفسنا نحسن إليه فإذا به يحمل إليك رأس القتيل، ويريد أن ينافسنا أنا وغزالي.

– ما يطلبه هذا شيء آخر – ضحك سليم مسروراً – يريدنا أن نغزو القفقاس وننصِّبه على أبناء قومك سلطاناً.

– اسمع إلى أين وصل حلبي المحتال الآن! صرخ خاير بيه مما سمع ناسياً حاله هو وحال من هو جالس في حضرته. ثم أضاف بعد قليل: – لا تعتب عليه يا موفد الله، إنه شبيه مَن جعلهم يقولون: "إن كنت مع الناس فاحفظ لسانك، وإن جلست على المائدة فلا تمد يدك هنا وهناك". لو أخبرني غيرك لما صدّقته البتة.

– أتريد أن تقول لي إن الكذب والأمل بعيدان أحدهما عن الآخر؟ سأل السلطان، وأنهى بما يريد هو: – المحارب الذي لا يُلهبه الأمل لا يحقق شيئاً مَهما كان شجاعاً. لماذا أعتب على حلبي؟ من يعرف ما كُتب على جبينه؟ إن لم نُزهق روحه في معركةٍ ما تنتظرنا في مصر إما ماشياً وإما راكباً فقد يحقق طموحه إن لم يعترضه طامح آخر.

– ليتحققْ له إن كان على قدر المسؤولية، وليجدْ فيها النجاح! – مع أن خاير بيه لم يكن يبدي عدم رضاه عما يسمع، فقد فجّر ثرثرته الأزلية — ولكن لا أعرف كيف تطمح في مثل هذا المنصب الكبير وأنت من عامة المماليك... ونحن مع أننا نحمل لقب أمير المئة، وبعلم الله، فنحن نخاف على أنفسنا متسائلين إن كنا قادرين على حمل المسؤولية في شيخوختنا. هذا جيد، جيد، كما تقول: ليعشْ كل محارب على الأمل. ولكني مهموم أكثر بغزالي الذي لا يحنث بوعده، ماذا سيكون مصير أمله في مصر، أكثر من اهتمامي بالثرثار حلبي الذي يكلف نفسه ما لا يستطيع.

– وهذه ليست مسألة صغيرة. ولكنها ستتوقف على الجواب الذي سيحمله إليّ الرسُل الذين أرسلتهم إلى من نصّب نفسه سلطاناً على من استطاع بشق النفس النجاة من المعركة، طومان باي. نحن ليس عندنا الإمكانية لإعادة تجهيز جيشنا في الوقت الحاضر. و علينا الانتظار حتى لا يصفونا بأنا نهابون قاطعو طريق.

لم يستقبَل المماليكُ رسلَ السلطان التركي كما توقع سليم الذي كان يعتبر حرب مصر — تركيا انتهت منذ زمن بعيد.

حين نُقل الخبر الذي انتظره طومان باي نصف سنة إليه سأل:

– ماذا يريد الأتراك بعدُ؟ الأعداء لا يحملون أخباراً طيبة، دعوهم يتكلموا!

– تقرأ ما في هذه الورقة يا موفد الله – مدّ الأمير حَه قار الورقة إلى السلطان — ثم تجيب حالاً إن كنت موافقاً أم غير موافق، هكذا يلحّ الأتراك.

– أيُلحّون أم يتوسلون؟ – رفع طومان باي حاجبيه الأسودين.

– ليس عندهم فكرة التوسل؛ يتعالَون علينا.

– الرجال الذين يثيرون الضجيج عند باب دارنا لا أظنهم عديمي الرجولة... اقرأ إذن رسالتهم!

"فكّر إن لم تكن كرهتَ حياتك أيها المملوك طومان باي – يقرأ حَه قار الكتاب – في الرسالة التي معك، واستخلص منها الدرس. إن كنت تريد إعادة مصر إلى حالها، والحفاظ على حياتك، فأنت تعاهدني على ألا تخالف أمري. وتدفع لي كل سنة ربع دخل البلاد من الذهب والفضة. وتعترف بسلطة السلطان التركي عليك. وتأمر خطباء المساجد أن يدعوا لسلطان الترك في صلاة الجمعة بطول العمر والانتصارات. وفي كل عام ترسل باسمه كسوة الكعبة وتكسوها باسمه. إن امتثلت لِما أرسلتُ لك فسأحافظ على مصر. وإن رفضت فسأغزوكم، وأسحقكم أنت ومماليكك. ولن أبقي على أي شخص يحمل اسماً شركسياً..."

– كفى ! – أمر طومان باي الأمير بالكفِّ عن متابعة الرسالة. ثم أمره بعد قليل: – تعرفون ما تفعلون بالرسل. علّقوا رؤوسهم على باب زويلة. ولْيعرف الجميع أننا لا نخاف الأتراك.

كان بين الأمراء والمماليك من وافق على ما فعل السلطان برُسُل الأتراك، ومن لم يوافق. ولكنه لم يتوقف لهذا السبب عن التحضير للحرب التي ستنشب بين عشية وضحاها.

بذل طومان باي جهوداً كبيرة في نصف العام الذي تلا رحيل قانشاو غُر في تجميع الجيوش وتحضيرها: حصل على مدافع مما لدى الترك منه أكثر مما كان لدى قايتباي وقانشاو غُر بضعفين أو ثلاثة. ولكن المحاربين المتقنين لاستعمالها كانوا ما يزالون قليلين. بل يمكن القول إنه لم يكن عنده أحد منهم.

والحق أنه ما من مشكلة إلا لها حل: استأجر مدفعيين مغاربة. ولكن تبيّن من اليوم الأول أنه ليس كل من تستأجره محارباً. ثم إن المماليك كانوا فقدوا كثيراً من ثقتِهم بأنفسهم وتفاؤلِهم. وأما الأمراء فقد ظهر تفرُّق كلمتهم بوضوح تام في صحراء سيناء: وفيما هم لا يتفقون على مباغتة المحاربين الأتراك المرهقين الذين اجتازوا الصحراء بمشقة وصلوا إلى الريدانية قرب القاهرة. وشجعوا احتقار السكان للمماليك. وفي هذا الشأن لم يكن السلطان سليم وقادة جيشه ورجال الدين المرافقون له يدّخرون جهداً ليفعلوا ما يستطيعون وما لا يستطيعون. — وكانوا يرددون في كل مكان: "نحن نحارب المماليك الملحدين، ونسعى لإزاحتهم عن حكم أتباع ديننا، ولا نعتب على العرب"

ومع أن المماليك كانوا في هذه الحالة المعقدة فقد كانت تُحرقهم الإهانة التي ألحقها بهم الترك في العام الماضي في مرج دابق. وتشعل رغبتهم في الثأر. ولم يكن طومان باي لينسى، ليس يوماً بل ساعة، مِيتةَ قانشاو غُر. وظلّت تلك الحادثة أساس كل ما يقوله أو يفعله.

– لا أنسى إلى الآن ميتةَ الأشرف بيبرد قانشاو غُر، وماثلةٌ أمام عيني. — قال طومان باي والألم يعصر قلبه لصديقه الأسنّ منه حه قار — لن أرتاح ما لم أثأر لدمه. أعرف أن المجرم سليم اقتحم علينا مصر في مئة ألف محارب. وأعرف ما ينويه للمماليك. وأعرف أننا فوّتنا فرصة ملاقاته في سيناء. حققنا لهم ولأعدائنا ما يريدون ونحن غارقون في جدالاتنا. ولكن إذا فتحنا الطريق أمام الأتراك الغرباء ليجتازوا الريدانية ويحتلوا القاهرة فلا أعرف وقتها... إذا اقترفنا عاراً أبدياً في حضرة سلاطيننا فسيظن أبناء قومنا المغروسة أرواحهم في القفقاس أننا عجزنا عن الاحتفاظ بأزمّة خيولنا بأيدينا.

– سنُفرح المغول والصليبيين الذين جابهناهم قروناً – وافق الأمير حه قار بالنبرة نفسها سلطانه – والسكان سيسخرون منا.

عاد الأمير خُراش برفقة عدد من الفرسان إلى السلطان.

– ما وضْعُ المدفعيين المغاربة؟ – أسرع طومان باي بالسؤال عما يُقلقه.

– يقولون إنهم جاهزون؛ غير أني لا أثق بهم.

– لماذا؟

– أرى أنهم غير مرتاحين لمجابهة الترك.

– حين كنا ندفع لهم بالذهب كانت الفرحة لا تسعُهم ولم يجعلونا نشك لحظة في إخلاصهم؛ ماذا جرى لهم الآن؟ – سأل طومان باي غير مدرك تفسير ما سمع. ثم جحظت عيناه السوداوان وهو عارف في نفسه جسامة جسده: – أحاول أن أكظم غيظي ولكن من أي نوع من البشر هؤلاء؟ ! حقاً لا يساوون بعرة حصان مملوكي. واجهت بمدافعي مدافع سليم لأنه كان معتدّاً بها والحق أنها بالنسبة لجيوش الفرسان لا تساوي شيئاً. سأجعلهم يزيحونها من طريقهم بصدور أحصنتهم. ولكن إذا كان المغاربة لا يستقرون على رأي فسأقضي عليهم وعلى مدافعهم.

– لم نصلْ بعدُ إلى هذا الموقف يا موفد الله. ولكن إذا وصلنا ففوق رؤوسهم من يفعل بهم هذا.

– وهذا ذكاء! حياك الله. أنت مسؤول عن المدفعيين. ونحن، أنا وحَه قار سنهاجم مقرّ قيادة سليم. لا ينوي هذه المرة الاختباء. سنرى كيف يواجهنا. "لا أحد في الدنيا ينتظر الموت، ولكن حين يأتي أجله فقابض الأرواح لا يتأخر" كما كان المرحوم قانشاو غُر يقول. سنوصله إلى سليم سريعاً.

XV

لم يكن أحد يعرف أن هذا اليوم، الثاني والعشرين من كانون الثاني عام 1517 سيكون آخر مَهْلَكة للأديغة المماليك كلهم.

مع أن المدفعيين المغاربة غير الموثوقين لم يقصّروا فلم يستغرق تدميرهم من قبل المدفعية التركية أكثر من نصف ساعة.

انعقدت فوق ساحة المعركة سحابة من الصمت القلِق الممزوج بالبارود الأصفر الوسخ. وشمس الشتاء ترتفع في السماء لا تفهم ما جرى في البرية التي قصفت فوقها الرعود ولمعت البروق. والفرسان المماليك الذين لم يصل إليهم بعدُ الدخان الذي بدأ يتشتّتُ جاهزون لاقتحام الساحة: ألبستهم وأسلحتهم تلمع للشمس. ونخير أحصنتهم يخرق الحزن القلق المتجمع فوق الأرض، ويثير الرعب بين جنود الترك المنتشين بإنجازات مدافعهم، المتوكلين عليها. ولكن أحداً لا يُظهر الذعر على وجهه.- رماة البنادق والمشاة والخيالة ينتظرون كالمماليك أوامر قادتهم.

حين أطلق طومان باي العنان لحصانه انطلق وراءه جيش الفرسان المماليك كسرب طيور متماوِج يغطي السماء.

ومهما اجترح الفرسان المماليك من بطولات في ذلك اليوم، ومع أن طومان باي قتل بنفسه سنان يوسف قائد الجيش التركي، فقد تراجعوا أمام البنادق التركية تاركين وراءهم في ساحة المعركة ضحايا لم يُصابوا إلا بالرصاص، وتركوا القاهرة للغزاة. وأهلُ البلاد الذين ساندوا الأتراك بدؤوا حملة لقتل المماليك في المدينة، ونشروها في البلاد كلها.

وطومان باي الذي لم يتحمل ما جرى هاجم القاهرة ببضع مئات من الفرسان وحارب فيها ثلاثة أيام إلا أنه توجّب عليه التراجعُ أمام كثرة الترك وخيانة

أعوانهم. ولم يتوقف طومان باي عند هذا الحد. – أعاد في خلال شهر تجميع الجيوش المملوكية المشتتة، وشن آخر معركة على الترك عند الأهرامات.

قال طومان باي للأميرين اللذين عادا إلى المعركة:

– حيّاكما الله، ليرضَ اللهُ عنكما. لم تسألا عن روحيكما. أنا عملت ما استطعتُ... ولكن... – انكسر صوتُ طومان باي غير أنه وجد في نفسه من القوة ما يكفي ليعود إلى وعيه – أشعر بالعار إذ انتهت عندي رجولةُ المماليك الأديغة والثناءُ عليهم.

– أراك تنسى يا طومان باي ما يقوله الأديغة: من يتلقّ إهانة يجد وقتاً للانتقام. – لامه المملوك العجوز حه قار.

– سيُنسونك الكثير حين تعيش في غير بلادك! – لم يُمهل خُراش ذو الكتف المقطوعة طومان باي ليجيب بنفسه.

– لم نصل يا خُراش إلى هذه المرحلة – أجاب طومان باي بسرعة، واختتم بكلام متفائل: – عندي صديق بدوي متنفذ. سنلجأ إليه، ونرى ماذا بإمكاننا أن نفعل.

– وهل أنت واثق به يا موفد الله؟ – لم يستطع حه قار إلا أن يسأل.

– أيمكن ألا تثق في الإنسان الذي أبقيتَ على حياته يا كبير!

– إن كان هذا رأيك فأنا أسحب سؤالي.

استقبل حسن البدوي ضيوفه بالأحضان. ولما كان يعرف ما جرى لهم استمع إليهم هازّاً رأسه، وأجابهم:

– لن أنسى طوال عمري ما عملت لأجلي يا موفد الله. ولن أساويك بالترك، ولا بأبناء قومي الذين خذلوك. بيتي بيتكم، وطعامي طعامكم. ولن أملّ منكم مهما طالت إقامتكم عندي.

ومع أن حسن البدوي كان قد قال هذه الكلمات المعسولة على مائدة العشاء فقد كان على أرض مضافته في منتصف الليل عدد من الرجال المقيدين.

– أفْهَمتَنا جيداً يا حسن استقبالك للضيف وثقتك وصداقتك – ابتسم طومان باي ابتسامة ساخرة في وجه حسن وكأن نار الإهانة لا تحرقه.

– يسرني إن كنت فهمت أن الناس الغرباء لا أصدقاء لهم – رد حسن على ابتسامة الرجل المرمي أرضاً أمامه – من الحسن أن تكون إنساناً وأن تكون صديقاً، ولكن كيف أضيّع كل هذا الذهب من يدي وأنا في وعيي – احملوه على الحصان. سآخذه إلى من جعلنا نشبع من شمسنا المصرية، السلطان سليم.

حين أُبلغ السلطان سليم باووز بخبر طومان باي أنهى قضيته بكلمة واحدة:

– اشنقوه!

على باب زويلة،كان كُتب على الخشبة التي أُعدم عليها طومان باي هذه الكلمات بالعربية وبالتركية: "كان هذا آخِر سلطان شركسي. الثالث عشر من نيسان عام 1517"

******

الشمس الكبيرة المستديرة التي كانت تلوّن السماء العربية بلون الدم تغرب حزينة دون صوت، نحو بلاد الأديغة...

******

ارحمهم يا إلهي واغفر لهم خطاياهم.